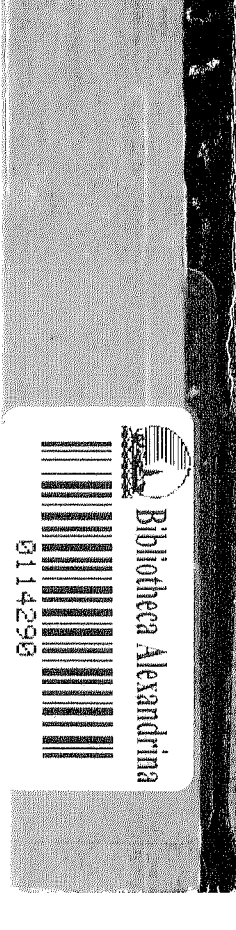
الألف كتاب
الثاني
٢٧٩

نويل مالكوم

البوسنة

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد

الهيئة المصرية
العامة للكتاب





البوسنة

البوسنة

تأليف
نويل مالكوم

ترجمة
عبدالعزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

هذه هى الترجمة العربية الكاملة للكتاب :

BOSNIA

A SHORT HISTORY
by

Noel Malcolm

فهـــــرس

« نقع البوســـنة في قلب الحضارات التاريخية العظمى ومن العسير كتابة تاريخها ، لأنه يحتاج الى عدة لغات ومعرفة حوادث غاية فى التعقيد · وبالنظر الى كارثة البوسنة اليوم ، فانه يحتاج أيضا لفهم لعالم ما بعد الحرب الباردة · وان تجميع كل هذه المواصفات في كتاب يمكن قراءته لهو مجهـــود عظيم لايقـدر عليـه الا صنديد مثل نويل مالكوم فهو يتفوق على نفســـه هنا ، ولا توجد صفحة من هذا الكتاب فى غير موضعها . بدءا من بينـات الحفائـر وحتى الحكم الأخـلاقى فى النهاية » ·

نورمان ستون



المؤلـف

ولد نويـل مالكوم فى ١٩٥٦ ، وتلقى تعليمـه فى مدرسة ايتون وجامعـة كمبريدج ، حيث حصـل على مرتبة الشرف ودرجـة الدكتوراه فى التاريخ . وهو زميل كليتى جونفيل وكايوس فى جامعة كمبريدج من عام ١٩٨١ حتى ١٩٨٨ ، ثم أصبح بعد ذلك محـرر الشئون الخارجية بجريدة السبكتاتور The Spectator وحاليا يحرر عموده السياسى فى جريدة الديلى تلجراف . وهو يعيش فى لندن ، ويعكف حاليا على كتابة تاريخ حياة توماس هوبز Thomas Hobbes .

المترجـم

ولد بالقاهرة وتخرج فى كلية المعلمين العليا الأدبية عام ١٩٢٩ . اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثـانوية عـام ١٩٥١ ، فمديرا للمركز الرئيسى للتدريب بمنشية البكرى عام ١٩٦٣ . شغف بآداب العربيـة والانجليزية والفرنسية منذ حداثتـه وانضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ . حاز جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة عام ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى . عنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية : فى التاريخ ، معالم تاريخ الانسانيـة لولز وصنوه موجز تاريخ العالم ، وفى تاريخ الحضارات ، حضارة الاسلام (جرونيباوم) ، الحضارة البيزنطية (رانسيمان) ، الحضارة الهللينستية (تارن) ، ميلاد العصور الوسطى (موص) ، اضمحلال العصور الوسطى (هويزنجا) ،

فى علم النفس والتربية ، مدخل الى علم النفس الحديث (زانجويل) ، ثلاثية أرنولد جزل فى تربية الأطفال : الحضين والطفل - الطفل من الخامسة الى العاشرة - الشباب ، الطفولة وما بعدها (ســـوزان أيزاكس) ، ســلوك الأطفال (فرنسيس ايلج) ، فى الســـياسة ومتفرقات أخرى ، آسيا والسيطرة الغربية (بانيكار)، حول منع الحرب (جون استراتشى) ، أعلام وأفكار (هويزنجا) ، التاريخ وكيف يفسرونه (ويدجرى) ، التربية عن طريق الفن (هربرت ريد) ، وللأطفال . أليس فى أرض العجائب •

كلمة المترجم

هذا الكتاب يؤرخ لأمة عقدت نفسيتها بالقتال والحرب ، وعاشت تاريخها الطويل مدى ستة قرون أو تزيد فى مضيعة لجهودها البشرية وتبديد لها ، في أتون الحديد والنار ، تريد حق قومية لها ، والقومية عصبية ، ولكن عصبية هؤلاء القوم كانت من النوع الدامى المدمر ، من النوع الذى يريد أن يستأصل شأفة كل من اعترضه ولو أتفه اعتراض وأن يجتثه من الأرض اجتثاثا ٠

عندما اشتراه حفيدى الدكتور حاتم توفيق أثناء رحلة له ببلاد الانجليز ، سرنى أنه وقع على كتاب مشكلة الساعة ٠ فأقبلت على الاطلاع عليه بطريقة الهوينى ، والأحداث التى تحدث ببلاد البلقان دامية شائكة٠ وتذكرت ما قاله المؤرخ الانجليزى هـ ٠ ج ٠ ولز فى كتابه المعالم(*) عن البلقان وأنها عويصة المشكلات لا قبل لأحد بحلها ٠ لم أعر ذلك الكلام كثيرا من الاهتمام حتى عام ١٩٩١ عندما بدا البلقان على حقيقته : نار وشرر ولهيب وعداء بين اخوة فى العرق والدم ، ولكن الاحن (الأحقاد) تنور بينهم لسبب لا يدزيه الا الراسخون فى العلم والباحثون وراء أسباب الأمور ٠ وأول سبب ظهر لى آن هذه الأمم ذات الأصل الواحد القادمة من شمال أوربا اختلف عند حلولها بديار البلقان مزاجها : فاتجه بعضها الى مسيحية مصطبغة بالصباغ المانوى ، فهى تنكر الصلب ولا تعترف بالصليب والأيقونات ٠ وأبناء عمومتهم الآخرون تأثروا ببيزنطة وعقيدتها فكان الصرب الأرثوذكس ، والفرقة الثالثة المدعوة بالكروات كانت أقرب الى روما موقعا فاتخذت مذهبها الكاثوليكى سنة ومنهاجا ٠

ومن هنا بدأت الشحناء وبدأ التاريخ المعقد ٠ وزاد فى أوار الجحيم تباعد الشقة ووعورة البلاد وكثرة ما فيها من آكام وتلال وجبال ٠

(★) انظر هـ ٠ ج ٠ ولز معالم تاريخ الانسانية للمترجم ، طبعة هيئة الكتاب ١٩٩٤ ٠

وكلما تقادم الزمن تعمقت العداوات والحزازات وزادت شقة الخلاف والتباعد .

وفي العصر الحديث ، لم يفهم الأوربيون حقيقة الوضع ، أو أنهم لغاية في نفس يعقوب ، تظاهروا بالغباء . مثال ذلك أن جون ميجور ، رئيس وزراء بريطانيا ، كتب الى وزير خارجيته دوجلاس هيرد في مايو ١٩٩٣ موضحا أسباب احجام الحكومة البريطانية عن نصرة المظلومين في البوسنة والهرسك وكوسوفو ، وهي تشهد مصارع مئات الألوف منهم وتهجير المئات الآخرين ، ودمار مدنهم ومقدساتهم ، وانتهاك أعراض عشرات الآلاف من نسائهم وافنائهم بقذائف الصرب والكروات الذين تنهال عليهم أسلحة الغرب جزافا :

١ ـ لا نوافق الآن كما أننا لن نوافق في المستقبل على تزويد مسلمي البوسنة والهرسك بالسلاح أو تدريبهم على استخدامه .

٢ ـ اننا سنواصل دعمنا الحازم لابقاء حظر بيع السلاح المفروض من قبل الأمم المتحدة رغم معلوماتنا الموثقة الواردة عن دعم دول اليونان وروسيا وبلغاريا للجيش الصربي ، وقيامهم بتدريبه وتزويده بالسلاح والمعلومات ، فضلا عن قيام ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان بالدور المماثل لدعم كرواتيا والقوات الكرواتية في البوسنة .

٣ ـ يتعين علينا اتباع هذه السياسة حتى لحظة الوصول الى الهدف النهائي وهو تقسيم جمهورية البوسنة والهرسك ، ومنع قيام الدولة الاسلامية في أوربا .

٤ ـ يجب أن نؤكد ضرورة اخفاء حقيقة التحركات السياسية الغربية وبأي ثمن عن كل الدول التي يمكن أن نسميها بالاسلامية ، بالذات عن تركيا فيما يتعلق بهذه المنطقة ، الى أن تهدأ الأمور في يوغوسلافيا السابقة ، ومن أجل هذا السبب نفسه يتعين علينا الاستمرار في الخدعة التي سميناها بخطة فانس ـ أوين لاحلال السلام بهدف عرقلة كل التحركات الى أن نقضي على دولة البوسنة والهرسك ويتم تهجير المسلمين منها » (*) .

(★) انظر كتاب « قضية البوسنة ، دروس وعبر » . تأليف أشرف المهداوي ـ طبع دار الشواف بالرياض ، ص ١٤ .

ولا شك فى أن منطقة البلقان تختلف — فى بعض جوانبها الاجتماعية وخلفيتها التاريخية — عن كثير من مناطق العالم التى وصلتها الرسالة الاسلامية ونشطت بهـا قرونا مـن الزمن .. ان جـذور هذه الخلفية التاريخية ترتد فى لبها الى تأثير الأديان المنتشرة فى المنطقة كما أسلفنا ، وخير دليل على ما ذهبنا اليه وجود صراع مرير بين قبائل البلقان — رغم انحدارها فى الجملة — من أصل صقلبى (سلافى) واحد .

واليكم ملخصا لما ورد بعنوان « البوسنة والهرسك » فى دائرة معارف ايفريمان Everyman : هى ولاية من ولايات يوغوسلافيا . ومساحتها الكلية ١٩٫٧٦٨ ميلا مربعا ، كما أن الشطر الأعظم منها يدخل فى حوض الدانوب . تكاد كلهـا أن تكون جبلية وعرة ، والألب الدينارية المطلة على الأدرياتى هى سلسلة الجبال الرئيسية فيهـا ؛ والأنهار الرئيسية بها هى نهر سافا فى البوسنة ونهر ناريتفا فى الهرسك . وفى البوسنة تعطى الغابات على منحـدرات الألب الدينـارية قدرا وفيرا من الأخشاب ، كما أن كلأ المراعى من نوع طيب جدا ، كمـا يزرع القمح ، والشعير ، والذرة بمقادير كافية للاستهلاك المحلى ؛ بينما يزرع التبغ والكروم فى أقصى الجنوب . وتزرع الفاكهة أيضا الى حد كبير ، كما أن البرقوق هو أعظم صادرات الفاكهة . وهناك تجارة ضـخمة بين تركيا وبين هاتين الولايتين . وفى عهـد الادارة النمساوية السابقـة أنشئت خطوط السكك الحديدية لتتصل بخطوط سكك حديد المجر ، كما أنشئت المواصلات البريدية والبرقية . ولم يبذل النمساويون الا أقل الجهد فى حل الصعوبات الزراعية بالبوسنة ، بيد أن كثيرا من الفلاحين أصبحوا الآن يملكون أراضيهم بحكم حقوق الارث ، بينما وضعت الترتيبات لنظام تعويضات لصالح الملاك السابقين . ويقوم بالبوسنة أيضا بعض مصانع الحديد ، ومناجم الفحم . والتعليم اجبارى فى البوسنة والهرسك وذلك ضمن النظام الجارى فى سائر أرجاء يوغوسلافيا .

« **التاريخ** : ان تاريـخ هاتين الولايتين انما هو تاريـخ الليريا على شاطىء الأدرياتى . ومع هذا فالذى حـدث بالتدريج بعـد الهجـرات السلافونية ، أن الضغط الخارجى وبخاصـة من قبـل المجر دفعهم الى الاتحاد تحت حاكم واحد ، ولكن تاريخ ذلك الجنس الى زمن متقدم من الفترة الوسطى يمكن اعتباره تاريخ جنس بشرى معتمد على الامبراطورية البيزنطية أو على المجر . وأخيرا فى القـرن الثالث عشر ، وقعت وقوعا

تماما تحت هيمنة المجر وأصبحت أرضا مجــرية بقضها وقضيضها ٠ ولكنها ما لبثت فى القـــرن الرابع عشر أن أصبحت مملكة مستقلة ٠ ولم تلبث حتى وقعت فى النهاية فى القرن الخامس عشر فى قبضـــة الاتراك ٠ وأصبح تاريخها تاريخ جنس مقهور ٠ وسرعان ما استولى المسلمون فى البـلاد على السلطة كاملة وترك الســكان المسيحيون تحت رحمتهم الى حـــد كبير ٠ وفى ١٨٧٥ حدث فوران مسيحى وانضـــم الى المسيحيين فى السنة التالية كل من الصرب والجبل الأسود ، وأخيرا فى ١٨٧٧ أعلنت الروسيا الحرب على تركيــا ٠ وبمقتضى معاهدة برلين فى ١٨٤٨ ، سلمت الولايتان الى الاحتلال العسكرى النمسوى ، وتم الاحتلال فى ظل ظروف صعبة أقصى صعوبة ، ولكن حدث فى ظـــل الاحتـــــلال النمسوى تحسين عظيم فى مركز البوســنية (البوشـــــناق) ٠ كانت الولايتان فى ١٩٠٣ قد بلغتا درجة أكثر رغدا مما كان منذ أول عهدهما بالاحتلال التركى قبل ذلك بأربعمئة عام ، وذكرت حركة « تركيا الفتاة » النمسا أن الاصلاح الجارى حدوثه بتركيا ربما أدي الي تقوية شــديدة لميراثها العسكرى ، بحيث تستطيع المطالبــــة باخلاء المقاطعتين ، وبذلك يصبح حقا للترك شرعيا ، التقدم وجميع الاصلاحات التي تمت تحت ظل الادارة النمسوية ٠ وانتهزت النمســـا فرصة ضعف الروسيا والاعلان الملزم لاستقلال بلغاريا ، فأعلنت ضم البوسنة والهرسك اليها فى الثامن من أكتوبر ١٩٠٨ ، وهناك نتيجة لذلك الضم النمسوى هى اثارة خلاف بين الكروات والصرب ، فأما الأولون فقد ساندوا النمسا على أساس من رابطة الدين، بينما راح الصرب يعتقدون أنه على أســـــاس انحدار قوة الترك ، قد كان ينبغي أن تلحق البوسنة بهم لأسباب تاريخية وعرقية ، وفى اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ اغتيل ولى العهد الهابسبرجى بمدينة سراييفو على يد شابين بوسنيين من رعايا النمسا ، وتبع ذلك قيام الحرب العالمية الأولى ، وفيها لقيت البوسنة آلام ما شهدته من انفجار نار الحرب بين النمسا والصرب ٠ وبانهيار الامبرطورية النمســاوية تحقق الحلم فى قيــام اتحاد صربو كرواتى ، وبمقتضى دســـتور يونيو ١٩٢١ اندمجت خطوط البوســــنة بخط المملكة الجديدة للصرب والكروات والسلوفين » (*) ٠

فما أشقى هؤلاء القوم الذين يعذبون بعضهم بعضا ٠٠ والتسامح أكرم وأصلح ! ٠٠

(*) انظر Everyman's Encyclopaedia ، مادة Bosnia .

وظلت أوربا تتقاعس وتتلكأ بقيادة انجلترا وفرنسا وأمريكا تحثهما على وضع حد للمذابح البشعة ، فلا تحركان ساكنا ، حتى دفعت بعض الدوافع بالرئيس كلينتون ، فتدخل فى الأمر وجمع الجميع فى دايتون حيث أتم ضربا من المعاهدة التى تضع حدا لسفك الدماء ، وتجر الجميع الى احقاق الحق ورفع الإجرام البشع عن مسلمى البوسنة • حتى بدأت الظلمات تنقشع اليوم ، ولكن على بطء شديد وتمنع عنيف من صربيا التى يريد أهلها بالقوة والبهتان والعدوان أن يشيدوا صربيا العظمى ، ويستولوا على ما ليس لهم من بقاع •

وقد شرعت فى قراءة هذ الكتاب ونقله الى العربية بوصفه موضوع الساعة الماثل أمام كل رأى وكل فكر ، بجميع أركان المعمورة • وأنا متوجس شرا من المؤلف ، خوفا من أن يعمد على طريقة بعض المؤرخين الأوربيين الى قصر موضوعه على النيل من الاسلام والمسلمين ، جريا على عادة كثير من الصحفيين ، ومن المؤرخين غير المتثبتين • ولكنى وجدته يتبع طريقة شيخ المؤرخين ببريطانيا فى هذا الزمان ، أرنولد توينبى ، من احقاق الحق وازهاق الباطل • وأن أنس من الأشياء لا أنس قوله بصدد فى شأن اسرائيل : « لا أدرى كيف يمكن أن شعبا مر بأرض او سكن بها بضعة وسبعين عاما ، •• أن يدعى ملكيتها وملكية ما جاورها من بلدان ؟! •• » (*) ، على هذا النهج سار المؤلف نويل مالكولم عادلا متوازنا ، يقول كلمة الحق فى وجه دوجلاس هيرد ولورد أوين ، وزيرى خارجية بلاده وفانس الأمريكى حين ينزعون عن طريق العدل المستقيم • ثم رأيته لا يذم الاسلام والمسلمين ولا يحملهما تبعة أى شىء وانما يحلل كل شىء تحليلا منهجيا ، مع الرجوع الدائم الى المراجع الثبتة والأسانيد الصحيحة المدعمة بالمصادر والتواريخ • انه لا يخشى فى قولة الحق لومة لائم اتباعا للمنهج العلمى الصحيح • ومن هنا أدركت أن هذا الكتاب ، بما فيه من مادة علمية صحيحة ، هو الجدير بأن يطلع عليه أبناء الضاد وأتباع الاسلام الذين يضيق بهم وبما يحملون من الحق ، الناس الذين ينوشونهم من بين أيديهم ومن خلفهم •

وبعد طبع الكتاب ونشره بالانجليزية ظلت معركة البوسنة عن ديزان ضيزى ، يهضم المسلمين وينكل بهم ويقتلهم جماعات وزمرا ، ويدفنهم أحياء وأمواتا بالمئات فى مدافن جماعية بصورة تشيب لهولها

(★) انظر هـ • ج • ولز • « معالم تاريخ الانسانية » ، للمترجم ، هيئة الكتاب ١٩٩٤ •

الولدان دون أن تتحـرك دول الغرب خاصـة بريطانيا وفرنسا قادة السياسة الأوربية ، اللتين حاولتا كف يد أمريكا عن الموضوع كله وتركه تحت أراجيف أكذوبة « فانس ــ أوين » ، الى أن تنبـه رئيس الولايـات المتحدة الأمريكية بيل كلينتون فرفض ترهات أوربا ومجالسها المنافقة ، وجمع الجميع بأمريكا فى مؤتمر دايتون (ديسمبر ١٩٩٥) ودعاهم الى توفيقات • ثم لاحقهم بالجيوش فى عقر دارهم ، حتى اذا رآهم أخـذوا يتناوشون وينحنون لالتقاط أسلحتهم أوقفهم عنـد حدهم وجمعهم فى مؤتمر ثان بروما ، حيث أرجعهـم الى صوابهـم ثم أعادهم لبـلادهم ، وأخذ يفك اشتباكاتهم ، وينفذ ما فى المعاهدة من الغـاء لتقسيم المدن والأراضى والبلدان ووضع كل شىء موضـعه الصحيح • ومن عجب أن الصرب كلما أخلت مكانا ليعود لاسـتلامه المسلمون دمرته وأعملت فيه التفجير والنار • ويطالبونهم بتسليم مجـرمى الحرب ليحاكمـوا فى المحكمة المقامة بهولندا ، فيتملص المجرمون وكلهم مجرمون • وعلى كل ، فان الوضع اليوم أفضل كثيرا عن ذى قبل • فلا قتل ولا دفن لمئات ، بل يلزم كل حدوده ، حتى تهدأ النفوس •

ويهمنى أن أوجه نظر القارىء الى المعجـم التوضيحى الى جانب الفهرس الأبجدى اللذين وضعهما المؤلف خدمة للمادة العلمية بالكتاب •

ويسرنى أن قد أعانتنى فى هذا الكتاب ابنتى المهندسة شيرين توفيق عزيز التى سجلته لى على شرائط باللغة الانجليزية ، فقمت بترجمته على شرائط بالعربية ، ثم عادت فاستخرجته على جهاز الكمبيوتر ، فلها الشكر والدعاء أن يباركها الله • والى القارىء هذا الكتاب السمح الصادق •

ح٠ت٠ج٠
حى شيراتون المطار
٢٧ مارس ١٩٩٦

الاعتراف بالفضـــل

ان أعظم ما أنا آسف له هو أني لم تتح لى فرصة العمل في مكتبات سراييفو عندما كان ذلك الأمر لايزال ممكنا · وانى لمدين بالشكر الى هيئات العمل القائمين على تلك المكتبات التى قمت بين أكنافها بكثير من أعمال البحث العلمى اللازم لهذا الكتـــاب : وهى دار الكتب القومية بباريس ، ومكتبة بودليان بأكسفورد ، والمكتبة البريطانية بلندن ، ومكتبة جامعة كمبريدج ، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ، وفوق كل شيء مدرسة الدراســات السلافونيـــة والأوربية الشرقية بلندن · وانى شـــاكر بوجه خاص أفضـــال كل من أنطونى هول وجون لفلاند وجون لندن وبرانكا ماجاش وجورج ستامكوسكى ، على تلك المساعدة التى بذلوها فى توفير أو البحث عن أماكن تواجد المطبوعات التى يعسر الوصول اليها · كما أنى مدين أيضا بالشكر الى أندرو جواتكين على المساعدة التى أسداها فى عمليـــة معالجة النصوص ، والى مارك والينجيل وكريس بورك على تصميمهم واخراجهـــم الخرائط لهـــذا المجلد ·

وان ما أنا مدين به من دين لمن سبقونى من كتاب حول البوسنة ، سيتجلى بأوفى صـــورة فى تلك الملحوظات التى أوردتها فى آخر الكتاب ، ولكنى أتمنى أن أذكر بالتنويه الخاص الى الأســـتاذية البينة الواضـــــحة لجون فاين ، التى أفدت منها فائدة عظمى · وانى لأحب أن أسجل دينا على من الشكران لجون يارنولد وسابا رســـال الدين وبن كوهين وجـــورج ســـتامكوسكى ومايو توبولوفاك على كل ما فعلوه أثناء السنة الماضية لتوفير المعلومات الصحيحة المضبوطة لوسائل الاعلام البريطانية وللعـــالم كله حـــول ما كان يجرى حقـــا بالبوســـنة ·

نويـــل مالكوم

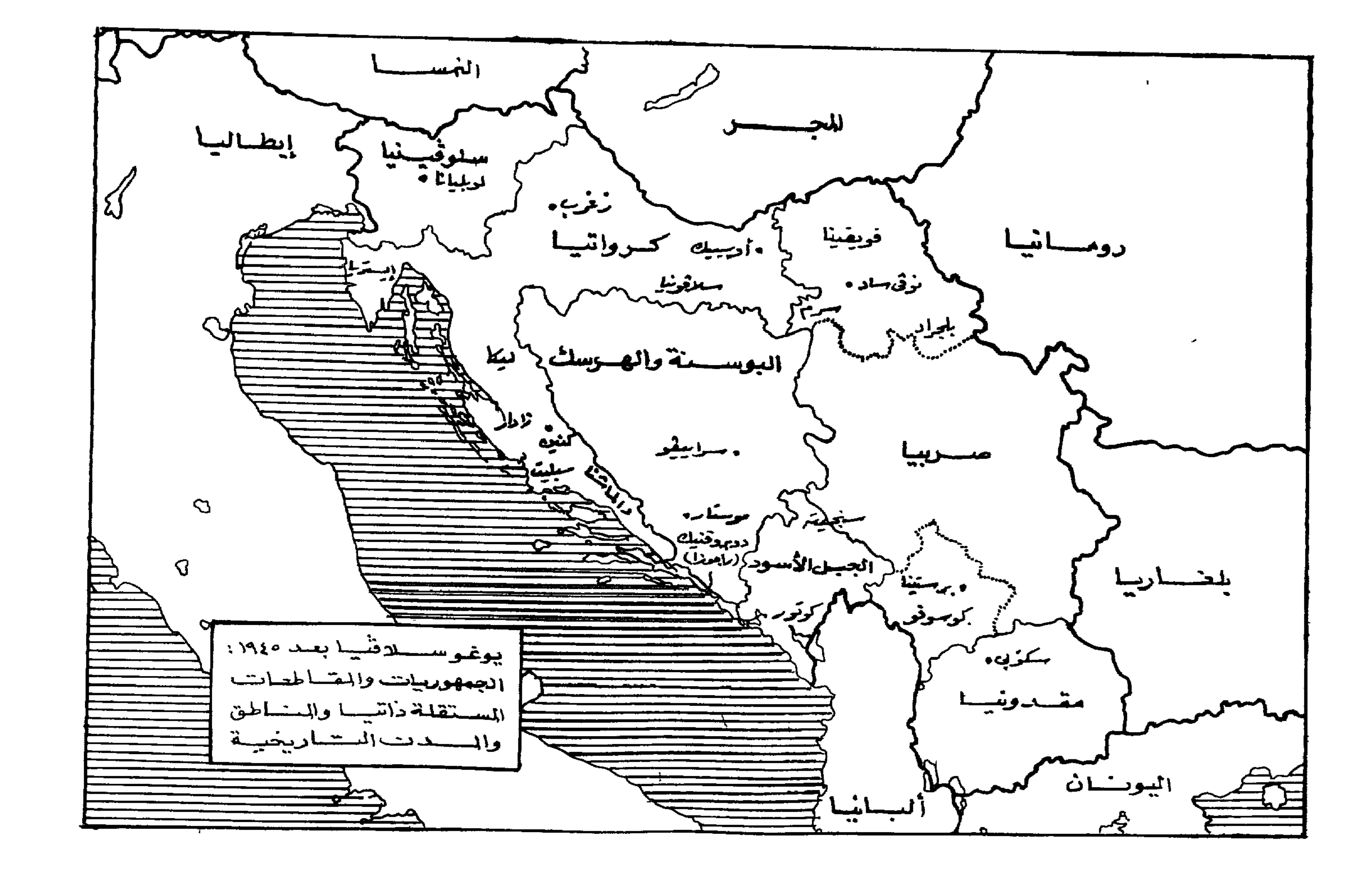


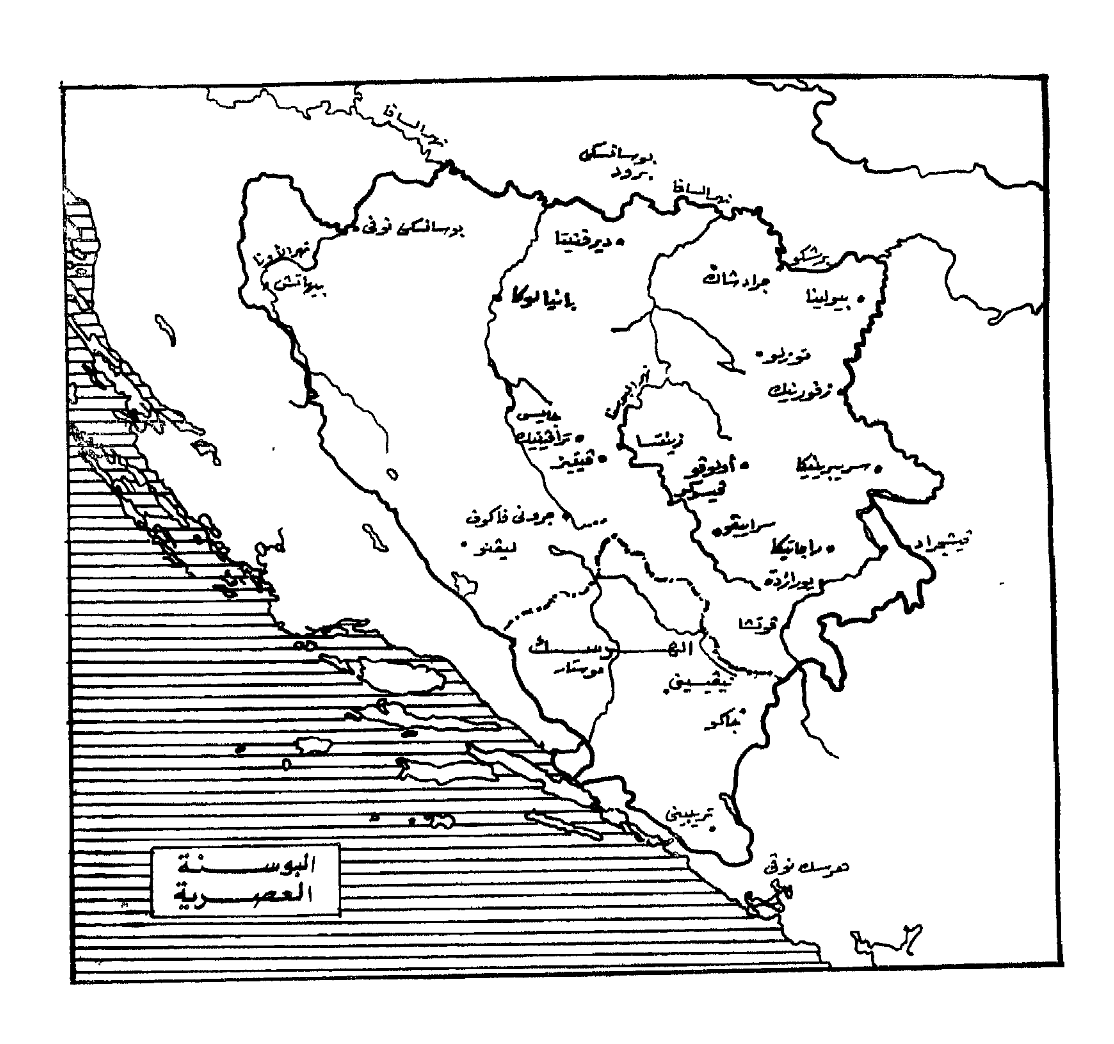
ملاحظة حول الأسماء وطريقة النطق

سيلحظ القراء أنى استخدمت مصطلح « راجوزا » حتى زمن مبكر من القرن التاسع عشر ، و « دوبروفنيك » بعد ذلك • ولأسباب مماثلة أشرت الى البوسنيين الأرثوذكس والبوسنيين الكاثوليك حتى أخريات القرن التاسع عشر أو أوليات العشرين ، والى الصرب البوسنيين والكروات البوسنيين بعد ذلك • أما أسماء الأقاليم مثل صربيا ، فانها تستخدم بصورة عامة ما لم يكن السياق يدل على خلاف ذلك ــ للاشارة الى مناطقها الجغرافية فيما بعد ١٩٤٥ • وحيثما استخدمت البوسنة كمصطلح جغرافى ، فان معناها فى العادة كامل الأراضى التى نضمها البوسنة والهرسك • والاستثناءات الوحيدة فى هذا الوضع هى عندما أشير الى « البوسنة الحقة » (وهو أمر معناه : اسقاط الهرسك من الموضوع) ، أو عندما يدل السياق بوضوح على أنى انما أشير الى البوسنة فى تميز بالتباين مع الهرسك •

وعندما يكتب عن كيان متعدد اللغات ومتعدد القوميات كالامبراطورية العثمانية مثلا ، فان من الضرورى أن تستخدم مصطلحات مأخوذة من اكثر من لغة واحدة • ولقد جنحت الى استخدام الأشكال التركية للمؤسسات العامة التابعة للامبراطورية (مثل الدوشرمة) والأشكال الصربوكرواتية للدلالة على تلك التى اما كانت مما تختص به البوسنة ، أو أدمجت فى المصطلحات الجغرافية المحلية (مثل قابيطانية أو سنجقية) • وعند توافر الشكل الانجليزى (مثل « سباهى ») ، فقد استخدمته • وأما فى حالة أسماء الأشخاص فانى حولت للانجليزية عددا قليلا من الأسماء القروسطية من التى جاءت فى وفرة مربكة من الأشكال (مثل ستيفان وستيبان وستيببان) ، كما أنى حاولت أن ألتزم بشكل أو (فورمة) موحدة لتلك الأسماء العثمانية التى تدمج بها الألقاب (مثل حسين قابيطان وسيفوش باشا) •

نويل مالكوم


يوغوسلافيا بعد ١٩٤٥ :
الجمهوريات والمقاطعات
المستقلة ذاتيا والمناطق
والمدن التاريخية
النمسا
المجر
إيطاليا
سلوفينيا
لوبليانا
زغرب
كرواتيا
أوسييك
سلافونيا
إيستريا
فويفودينا
نوفي ساد
سريم
بلغراد
رومانيا
البوسنة والهرسك
ليكا
زادار
كنين
سبليت
دالماشيا
سراييفو
موستار
دوبروفنيك
(راغوزا)
صربيا
سنجق
الجبل الأسود
كوتور
بريشتينا
كوسوفو
بلغاريا
سكوبيه
مقدونيا
ألبانيا
اليونان


بوسانسكي
برود
بوسانسكي نوفي
بيهاتش
ديرفنتا
بانيالوكا
جراد شاك
بيولينا
توزلو
زفورنيك
ترافنيك
فيتيز
زنيتسا
سربرنيكا
جرونى فاكوف
ليفنو
سراييفو
راجاتيكا
جورازدة
فيشجراد
فوتشا
الهرسك
موستار
نيفيسين
جاكو
تريبيني
هرسك نوفي
البوسنة
العصرية



البوسنة القروسطية

تحت حكم بان كيولين

تحت حكم الملك تفرتكو

البوسنة العصرية

بلجراد

جاس

توبوفاك

تراڤنك

سربرنيكا

زاداد

سراييڤو

سليت

هوم

ميليسيڤو

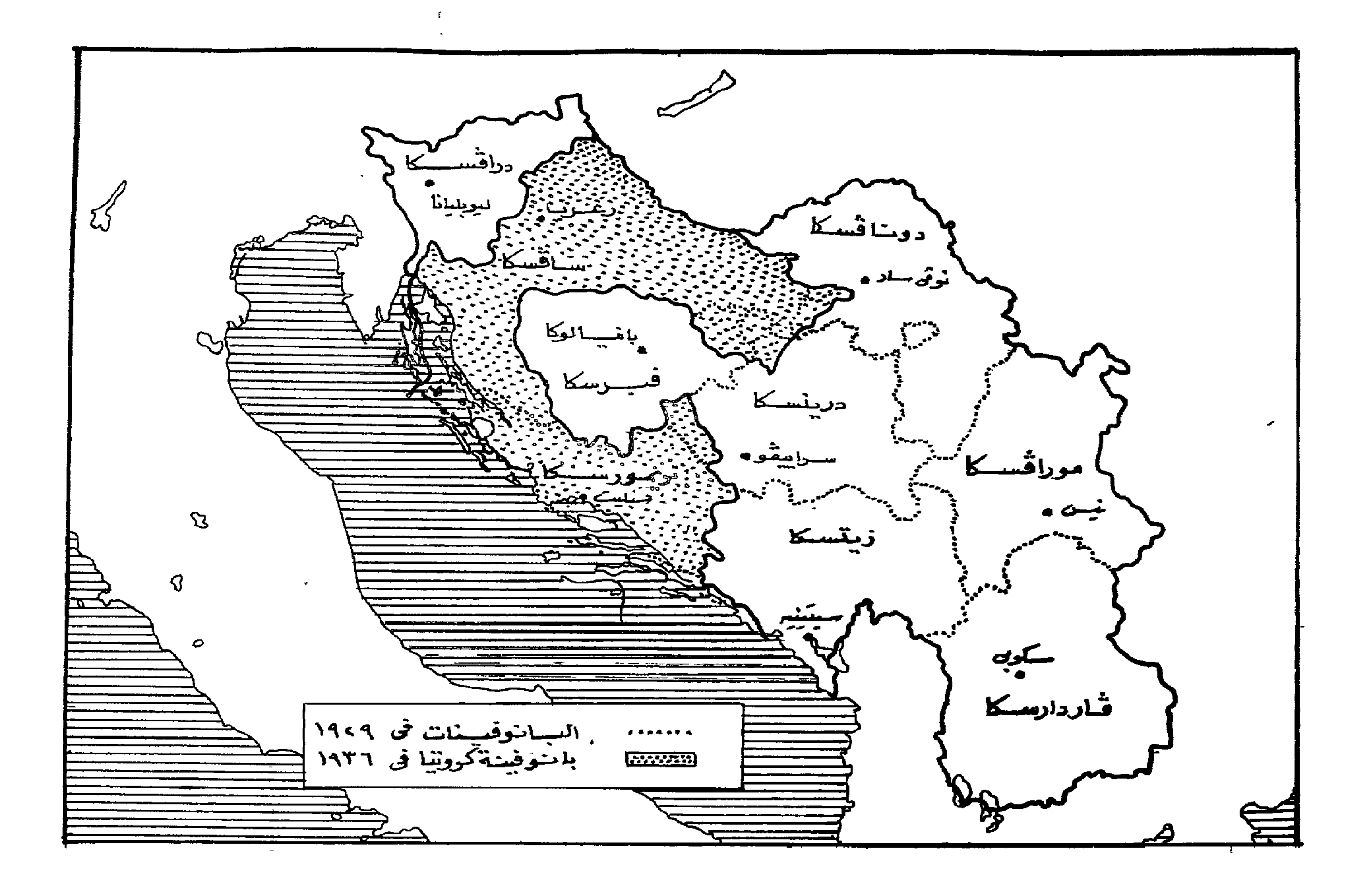
راشكا

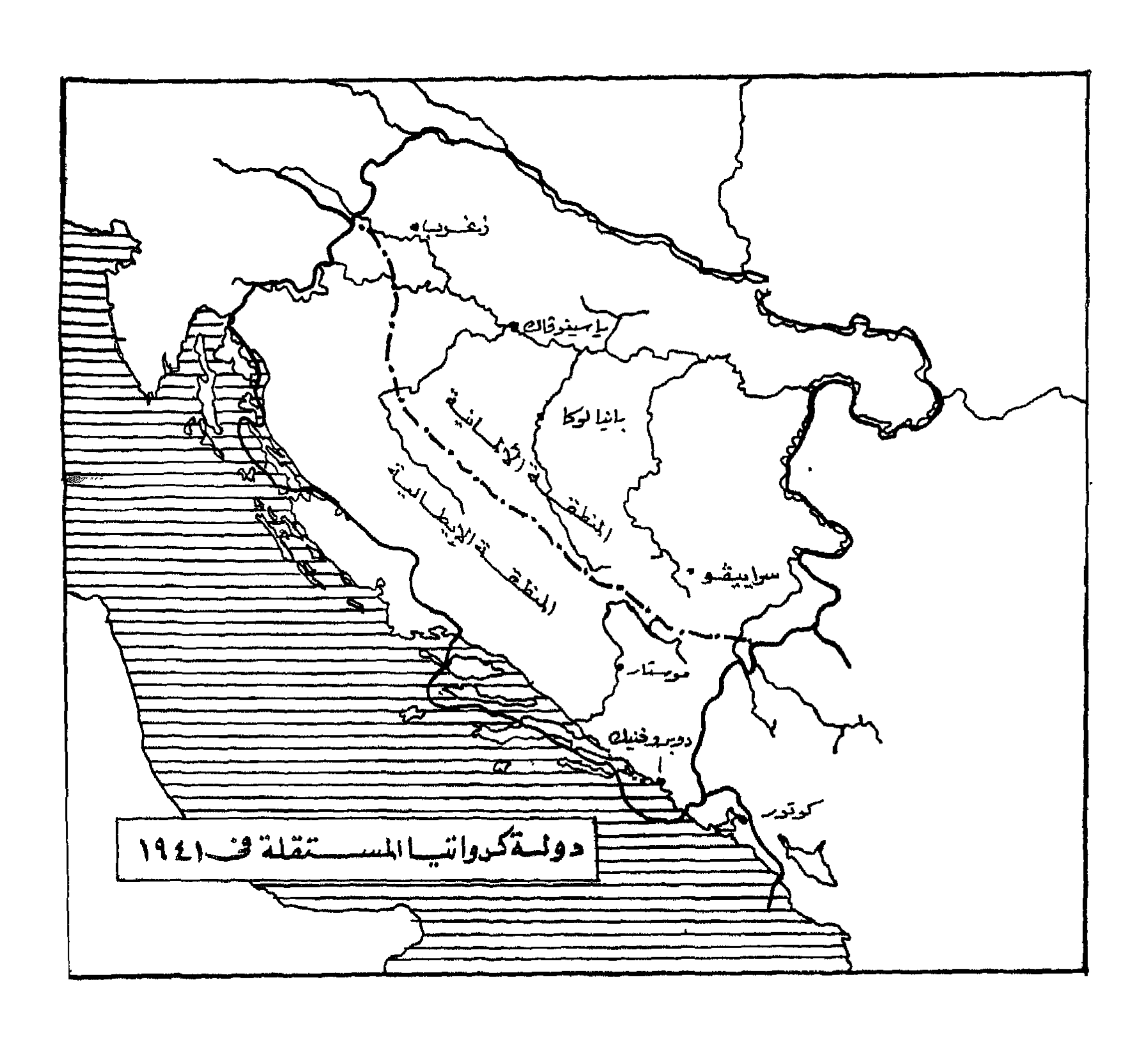
راجوزا

دوبروڤنك

كوتور

زيتا


البانوفينات في ١٩٢٩
بانوفينة كرواتيا في ١٩٣٦
دراڤسكا
ليوبليانا
ساڤسكا
بانيالوكا
ڤيرسكا
دوناڤسكا
نوڤي ساد
درينسكا
سراييڤو
موراڤسكا
نيش
زيتسكا
سكوبيه
ڤاردارسكا


زغرب
يا سيفوفاك
بانيالوكا
المنطقة الألمانية
المنطقة الإيطالية
سرايفو
موستار
دوبروفنيك
كوتور
دولة كرواتيا المستقلة في ١٩٤١

مقـــدمـــة

سيذكر الناس سنتي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ على أنهما السنتان اللتان دمرت فيهما دولة أوربية • كانت دولة تاريخها السياسي والثقافي مختلف عن مثيليهما في كل دول أوربا الأخرى • وتراكبت فيها الأديان الكبرى والقوى العظمى في التاريخ الأوربي وامتزجت هناك : امبراطوريات روما وشارلمان والعثمانيين والنمسا والمجـــر ، فضــلا عن المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية واليهودية الاسلام • ولا مراء في أن هذه الحقائق وحدها تعد سببا كافيا لدراسة تاريخ البوسنة بوصفها موضعا له أهميته الفريدة • ولكن الحرب التي غمرت بأتونها هذا القطـر في ١٩٩٢ ، أضــافت سببين محزنين يدعوان الى دراســـة تاريخها دراسة تمحيص وتعمق : فأما أول السببين فهو الحاجة الى فهم أصول ذلك القتال ، وثانيهما هو الحاجة الى تبديد بعض جوانب سوء الفهم ، والخرافات والجهل المطبق بالأمور التي اكتنفت جميع شئون البوسنة وتاريخها •

والثانية من هاتين الحاجتين هي أمسهما بكل تأكيد • ومن المتناقضات العجيبة أن أهم داع يدعو الى دراسة تاريخ البوسنة هو أنه يمكن المرء من أن يرى أن تاريخ البوســـنة **في حد ذاته** لا يفسر فصـــول هذه الحرب • ولا شك في أن الحرب لم تكن لتنشب لولا أن البوســـنة هي ذلك الشيء الغريب الذي كانته ، والذي جعل منها هدفا لأطماع ومصالح خاصة • على أن هذه المطامع كانت موجهة الى البوسنة من خارج الحدود البوسنية • وأعظم عائق حال دون فهم ما كان يحدث انما هو افتراض أن كل ما حدث في ذلك القطر جاء نتاجا ـ طبيعيا وتلقائيا وفي نفس الوقت ضروريا ـ لقوى تكمن كلها في تاريخ البوسنة الداخلي • تلك هي الخرافة التي أشيعت في طول الأرض وعرضها بحرص شديد على لسان الذين تسببوا في الصراع ، والذين أرادوا أن يجعلونا نعتقد أن ما يفعلونه هم وحملة البنادق من رجالهم لم يتم بأيديهم ، بل على أيدي قوى تاريخية لا سبيل لأحد الى التحكم فيهـــا •

. وصدقهم العالم مع الأسف ! وعلى مؤرخى المستقبل أن يحكموا أى الحجج كان لها وزنها حقا فى عقول رجال السياسة فى أوربا وأمريكا ، عندما كانت ردود أفعالهم ازاء القتال الناشب فى البوسنة ، هى اتخاذ سياسات لم تقف عند حد الاخفاق فى حل المشكلة بل زادتها بالفعل وبالا. والشيء الواضح هو أن عقولهم كانت مملوءة مسبقا بضباب من الجهالة التاريخيـــة • واليكم مثلا الرأى المتروى لرئيس الوزارة البريطانيـة جون ميجور حيث قال فى مجلس العموم بعد نشـــوب الحرب بأكثر من سنة كاملة :

« ان أعظم عنصر منفرد يقف وراء ما حدث فى البوسنة هو انهيار الاتحاد السوفييتى وذلك الانضباط الذى فرضه فى يوغوسلافيا القديمة على الأحقاد والكراهيات القديمة • فما كاد ذلك النظام يتوارى عن الأنظار حتى عادت الى الظهور تلك الأحقاد القديمة وشرعنا نرى عواقبها عندما بدأ القتال • نعم ان هناك عوامل جانبية كثيرة ، ولكن ذلك الانهيار كان أعظمها جميعا » • (هان سارد ١٩٩٣/٧/٢٣ عمود ٣٢٤) •

ومن العسير علينا أن نعرف من أين نبتدىء التعليق على مثـــل هذا القول فان « الانضباط » المفروض من الاتحاد السوفييتى على يوغوسلافيا انتهى الى نهاية مفاجئـة أعدت لها دعاية جيدة فى ١٩٤٨ ، عندما طرد ستالين تيتو من منظمة الكومنفورم • ولعل المستر ميجور كان يحـــاول الاشارة الى قرار الزعماء الشيوعيين من أمثـــال سلوبودان ميلوشيفيتش لتسييل ينابيع القومية والوطنية من أجل أغراضهم السياسية الخاصة ، بيد أن هذه العملية كانت ماضية فى طريقها ببلاد الصرب منذ صيف ١٩٨٩ ، قبل « انهيار الاتحاد السوفييتى » ، بسنتين ، كما أنها من نواح كثيرة لم تكد تفترق كثيرا عن استغلال القومية على يد الزعماء السياسيين السابقين داخل النظام الشيوعى مثل نيكولاى تشاوشيسكو • ولا شك فى أن الفكرة الذاهبة الى أن الشيوعية فى حد ذاتها على وجه الاجمال كانت تقوم بدور « الضابط » العظيم وتضـــع القومية تحت قبضتها ، فكرة خاطئة تماما • والحقيقة أن الحكومات الشيوعية كانت اما تثير القومية أو تتولى تحريكها وتوجيهها لأهدافها الخاصة ، واما أن تجعلهـــا تفسد وتصبح أكثر وبالا بخلق شعب محبط سياسيا يسيطر عليه الاحساس بالاغتراب ، واما أن تأتى بالاثنين معا فى غالب الأحيـــان • وهذا الأثـر المزدوج واضح اليوم تماما فى معظم دول شرق أوربا ، حيث تقوم ما تسمى باسم الأحزاب « اليمينية المتطرفة » بجمع الناخبين العاديين الذين أثارت

نفوسهم الرموز الدينية أو التاريخية منذ أيام عصر ما قبل الشيوعية ، والسياسيين الذين أمضوا شطرا من حياتهم فى عضوية الحزب الشيوعى أو خدمة أمن الدولة • وذلك ، الى حد ما ، هو ما حدث فى صربيا أيضا •

ويتجلى الجانب الآخر من الجهل بالحقائق فيما عبر عنه جون ميجور فى هذه الملاحظات التى كررها معظم الزعماء الغربيين فى تعليقاتهم على حرب البوسنة ، ونعنى بذلك ادعاء أن كل شىء حدث فى البوسنة منذ ربيع ١٩٩٢ انما هو تعبير عن « الكراهيات العرقية القديمة » التى تفجرت من تلقاء نفسها • فأما أن الكراهيات والمنافسات كانت موجودة بأرض البوسنة فذلك شىء لا ينكره أحد ، وقد بالغ أولئك الكتاب الذين صوروا البوسنة فى السنتين السابقتين على أنها أرض العجائب فى الانسجام الدينى الدائم • ولكن نظره أعمق الى تاريخ البوسنة لابد أن تظهر أن العداوات التى كانت موجودة فعلا لم تكن مطلقة ولا ثابتة كما أنها لم تكن نتائج لا مفر منها لخلط مجتمعات دينية متنوعة مع بعضها • لم يكن الأساس الرئيسى للعداوة عرقيا ولا دينيا وانما هو اقتصادى ناشىء عن الامتعاض الذى كانت تحسه جماعة الفلاحين (الذين كان أغلبهم ، وليس كلهم من المسيحيين) نحو ملاك الأراضى المسلمين • ولم تكن هذه العداوة مطلقة قابلة لايمكن التخفيف منها : فانها كانت تتغير بتغير الظروف الاقتصادية ، كما كانت أيضا خاضعة للضغوط السياسية التى بدلت بصورة جوهرية موقف الطبقة مالكة الأراضى أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر • كما أن العداوات بين المجتمعات الكاثوليكية والأرثوذكسية كانت أيضا عرضة لمؤثرات متقلبة مثل المنافسات بين رجال الطبقات العايا للكهنوت فى الكنائس . والضغوط السياسية من الأقطار المجاورة ، وهكذا •

ولم تكن العداوات لتقيم لها بنيانا مستديما فى نفسيات الناس الذين كانوا يعيشون بأرض البوسنة ، فانها كانت من ثمار التاريخ ، وكان فى الامكان أن يلم بها التغير بتطور التاريخ • فقد تآكلت الأسباب الاقتصادية للكراهية بفضل التغيرات والاصلاحات قرب نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، حتى زالت الى حد كبير • فأما الأسباب الدينية للكراهية فقد نقصت فى النصف الثانى من القرن العشرين بفضل انتشار العلمانية بأشكالها (سواء منها الطبيعى وغير الطبيعى) • وخلال معظم المدة بعد ١٨٧٨ ، ظلت مختلف الفرق الدينية أو العرقية فى البوسنة تعيش معا بسلام آمنة : فأما حادثتا العنف العظميين بعد ذلك ــ أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة ، وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية الأربع ــ

فكانتا استثناءين ، اثارهما وزاد فى أوارهما مسببات جاءت من خارج حدود البوسنة • ومنذ ثانى هاتين الحادثتين الرهيبتين ، نشأ وترعرع جيلان كاملان ، هما الغالبية العظمى من السكان البوسنيين ، لا يحملون فى صدورهم أية ذكرى شخصية للقتال الذى جرى فى تلك الحرب ، ولا يضمرون أية رغبة خاصة فى احيائها •

وغنى عن البيان أن من السهل استعراض تاريخ قطر مثل البوسنة والتقاط أمثلة ونماذج الانقسامات الاقليمية والعنف وعدم الضبط والانضباط • فشواهد ذلك كثيرة قائمة وسيجد القارىء كثيرا منها على صفحات هذا الكتاب • بيد أن التاريخ السياسى لبوسنة أخريات القرن العشرين لم يدخل فى تحديده ما حدث فى القرن الثالث عشر أو الثامن عشر • فأما المعلقون الذين يحبون أن يقدموا براهين تاريخية مجموعة فى عجلة وتسرع تؤيد ما يسطرون من قول ، فيستطيعون التقاط بضعة أحداث دموية قليلة من الماضى ويقولون : « كان الأمر على الدوام على هذا النحو » • وفى امكان أى امرىء أن يمارس نفس الأسلوب ازاء التاريخ الفرنسى مثلا ، منتقيا الحروب الدينية فى القرن السادس عشر والفظائع البربرية التى حدثت يوم مذبحة سانت بارثولوميو ، والثورات الاقليمية الكثيرة الحدوث ، وحرب الفروند ، والمعاملة الوحشية التى عومل بها الهوجونوت فى ١٦٨٥ ، والوحشية الرهيبة وعمليات الاعدام الجماعى الذى أعقب الثورة الفرنسية ، وعدم الثبات الذى ساد سياسات القرن التاسع عشر ، بل حتى قصص التواطؤ مع الغزاة والمقاومة فى الحرب العالمية الثانية • لكن لو حدث أن عددا من السياسيين والقادة العسكريين المؤزرين من الخارج ، بدءوا فى قذف باريس بقذائف المدفعية الثقيلة غدا ، ما أمكننا أن نقعد مع القاعدين ونقول : « ان ذلك كله نتيجة العداء والكراهيات الفرنسية العتيقة » • بل سيحتاج الأمر منا نظرة تدقيق أكثر لنتفحص الأصل والطبيعة الحقة لتلك الكارثة بعينها • ذلك ما حاولنا أيضا فعله فى هذا الكتاب •

والميزة العظمى لفرنسا على البوسنة ، هى أن تاريخها معروف معرفة أكيدة فى طول العالم وعرضه كما أنه مدروس دراسة عميقة مستفيضة • فأما فى حالة البوسنة ، فلسنا نعرف الا النزر اليسير بحيث أصبح من العسير علينا أثناء السنتين الأخيرتين أن نميز بين ضباب الجهل وستار دخان الدعاية المضلل • ألا ترى أن وجود البوسنة نفسه ظل ينكره بعض الكتاب الذين أكدوا بكل ثقة أن « البوسنة لم تكن فى يوم من الأيام دولة » • فعندما كلف اللورد أوين بمهمة المفاوض عن المجموعة الاقتصادية

الأوربية فى يوغوسلافيا عام ١٩٩٢ ، نصحه أحد الكتاب الصحفيين فى عموده اليومى بكل ثقة مؤكدا له أن الحدود الداخلية ليوغوسلافيا انما فى حدود ادارية بحتة وأنها تخوم وهمية كالتى فرضها فى أفريقيا الحكام الاستعماريون • وكثيرا ما سمعنا بعض هؤلاء الكتاب يدعون أن حدود البوسنة انما هى اختراع وضعه تيتو ، ولكن الحقيقة هى أن تيتو ببساطة انما أعاد حدود البوسنة كما كانت فى العهــد الأخير للامبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية • وكما سوف يكتشف القراء فان بعض أجزاء هذه التخـوم اخترعت اختراعا فى معاهدات تعـود الى القـرن التامن عشر ، وأجزاء أخرى عكست حدودا أقدم كثيرا ، مثـل التقسيم الفاصل بين البوسنة وصربيا على امتــداد نهر الدرينا ، الذى ورد ذكره فيما أورده المؤرخ كيناموس فى أخريات القرن الثانى عشر •

ومن الجلى أن المعلومات التاريخيــة الخاطئــة التى رددتها أجهزة الاعلام الأوربية فى السنتين الأخيرتين قد أقحمت على الموضوع تحت تأثير الأساطير السياسية والقومية التى تدافعت موجاتها من داخل يوغوسلافيا السابقة ، وظل الكروات أكثر من قرن من الزمان يكتبون الكتب التى تحاول أن تثبت أن البوسنيين « فى الحق » كروات ، كما ذهب الصربيون بالمثل وبدون انقطاع الى أن البوسنيين « فى الحق » صربيون • وآخر صيحة بعد ذلك أن الكروات قد ادعوا أن جميع المواطنين الصربيين انما هم فى الحقيقة « تشيتنيك » (وهى حركة المقاتلين غير النظاميين الصربيــة المتطرفة) ، كما حاولوا أن يظهروا زعيم التشيتنيك فى الحرب العالمية الثانية ، وهو دراجا ميهايلوفيتش بأنه سفاح للشعوب • ووصفت الدعاية الصربية جميع القوميين الكروات بأنهم « أوستاشا » (وهى حركة متطرفة كرواتية فى الحرب العــالمية الثانية) ، كما أنهم عمدوا الى قصــة الفرقة العسكرية المسلمة فى الجيش الألمانى ، فنبشوها من قبرها كوسيلة الى الاشارة الى أن المسلمين البوسنيين اما أن يكونوا نازيين أو أصوليين أو يجمعون بين الاثنين • أما الذين وقعوا أسرى فى الوسط من هذه المنازعات كلها وهم المسلمون ودعاة التعددية فى البوســنة ، فقد تركوا ليمنوا أنفسهم بأى خرافة أو أســطورة تعجبهم : أســطورة البوجوميل أو أسطورة السلام والانسجام الدائم فى البوسنة أو أسطورة تيتو • وليس فى امكان أى معلق أو مؤرخ أن يختار طريقه بين جميع هذه الأساطير المتناحرة دون أن يحدث بعضا من التكدير المذهبى لجميع الأطراف ، ولن يرضى المرء عن فعل ذلك متى وصل الى أن يعرف وأن يحب ، ليس فقط البوسنة بل أيضا كثيرا من الصفات الخاصة لسكانها • وفى نفس الحين فان وجود نموذج متشابه من الادعاءات والمبررات المتناقضة لا يعنى أن المرء يستطيع الوصول الى

نتيجة دقيقة بمعالجته كل الادعاءات على أنها متساوية والاكتفاء بتحديد معدل الحقيقة في كل منها • وليس عندى أدنى شك بأن عبء مسئولية تدمير البوسنة يقع معظمه بالضرورة على جانب واحد ، وحاولت في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، أن أبرز الأسباب التي دعتني الى هذا الاعتقاد •

وهناك طريقة مؤكدة تماما لتقييم الادعاءات التاريخية التي يرددها دعاة استخدام العنف الرئيسيون في البوسنة ، وهي النظر في كل ما فعلوه لتدمير الدلائل المادية للتاريخ نفسه • فانهم لا يقتصرون فقط على تدمير مستقبل ذلك القطر ، وانما هم أيضا يبذلون جهودا منظمة لمحو ماضيه ، حيث دمرت دار الكتب الوطنية والجامعة في سراييفو بقنابل حـارقة • وأما معهد الدراسات الشرقية ، بما حوى من مجموعة لا يمكن تعويضها من المخطوطات والمواد الأخرى التي توضح التاريخ العثماني للبوسنة ، فقد دمر هو الآخر بتركيز القصف بالقنابل عليه • وفي كل أرجاء البلاد أزيلت من الوجود جميع المساجد والمآذن بما في ذلك بعض أبدع نماذج عمارة القرن السادس عشر العثمانية ببلاد البلقان الغربية • ان هذه المباني لم تصب فقط أثناء القتال العارض للاشتباكات العسكرية ، فان بعضـها مثـل بيليينـا (Bijiljina) وبانيا لوكا (Banja Luka) ، لم تكن لازالتها أية علاقة بالقتال اطلاقا • حيث نسفت المساجد بالمتفجرات أثناء الليل ثم أتت عليها البولدوزورات في اليوم التالي • ولا شك في أن الناس الذين دبروا وأمروا بتنفيذ هذه الأعمال انما يحبون أن يقولوا ان التاريخ في جانبهم • ولكن ما يظهرونه بأفعالهم هذه هو أنهم انما يشنون حربا ضـد تاريخ وطنهم • وكل ما شئت أن أفعله في هذا الكتاب انمـا هو ابراز بعض تفاصيل ذلك التاريخ قبل أن يتم تدمير القطر كله تدميرا تاما •

الفصل الأول

الأجناس والأساطير والأصول البوسنية حتى ١١٨٠

التاريخ العنصرى رأس الداء فى البلقان • وكما سيعلم أى انسان عاش أو مر فى ذلك الجزء من أوربا ، لا يوجد هناك شىء اسمه ولاية فضلا عن دولة ، متجانسة تجانسا عنصريا • وقل من يستطيع بنزاهة تامة فى شبه جزيرة البلقان أن يدعى لنفسه نقاء تاما فى أسلافه • ومع ذلك فكم من مرة حدث أثناء القرنين الأخيرين ، أن نظريات وهمية عن الهوية العنصرية العرقية سيطرت على السياسات القومية لأراضى البلقان • وثمة سبب أول يدعونا الى دراسة تاريخ تلك المنطقة المبكر ، هو أن تلك الدراسة تمكننا من أن نرى أن من المستحيل ادارة الشئون السياسية العصرية على أساس الأصول العرقية القديمة ، حتى وان كان صوابا •

وهذا أمر لا يصدق فى أى مكان آخر أكثر مما يصدق فى تاريخ بلاد البوسنة ، وهى قطر كثيرا ما أطلق عليه اسم العالم الأصغر لبلاد البلقان • فليس هناك شىء يمكن أن نسميه بالسحنة النموذجية البوسنية : فهناك مثلا بوسنيون شقر الشعر وآخرون سمر الشعر ، ومنهم من لهم بشرة سمراء مملوءة بالنمش ، ومنهم من يتسمون بضخامة العظام وقصر الأطراف المثقلة بالعضلات • لقد أسهمت جينات ما لا يحصى من الشعوب المختلفة فى تكوين هذه الفسيفساء البشرية • والقطر كله جبلى وعر ، به من الأراضى ما يتراوح بين الغابة الكثيفة والمرتفعات كثة النماء الشجرى والعشبى فى شمال وسط البوسنة ، الى الطبيعة البرية القاحلة جدا الموجودة فى منطقة غرب الهرسك ، وتشقها الأنهار الكثيرة التى لا يصلح معظمها للملاحة • وهناك قطعة ضخمة من الأرض التى لايمكن اختراقها وهى تقع بين اثنتين من الطرق الرئيسية التى مرت منها موجات الشعوب الغازية ودخلت الي غرب البلقان : الطريق الضيق الدالماشى الساحلى

وطريق الأرض المنبسطة المنخفضة الذى كان يؤدى من بلجراد جنوبا متخللا صربيا الى مقدونيا وبلغاريا • ولذلك فان الأثر المباشر لتلك الغزوات على البوسنة كان فيما يرجح أقل كثيرا من وقعها على أرض صربيا السهلية الخصيبة أو على المدن الدالماشية الساحلية الشديدة التعرض لحملات النهب • وترتب على ذلك تراكم أنواع عرقية مختلفة فى أرضها ، وهو أثر غير مباشر ، وان كان أقوى من الأثر الأول فيما نرجح ، فكما هو معلوم أن المناطق الجبلية كانت ملاجىء حصينة لجاميع السكان التى ما كانت الا لتهلك أو تطرد من ديارها فى المناطق الأكثر تسطحا • وما على المرء الا أن ينظر بعينه الى بقاء شعب الباسك حتى اليوم على قيد الحياة ببلاد البرانس ، أو الى ذلك المتحف الغنى بمفرداته السلالية والعنصرية ، وأعنى به بلاد القوقاز • وفى حالة البوسنة ، تمكن الغزو السلافى فى القرنين السادس والسابع من أن يؤسس هوية لغوية ، تمكنت فى آخر المطاف من أن تحل محل جميع الأخريات ، ولكن آثار التنوع السلالى العنصرى واضحة تماما لكل ذى عين مبصرة •

ومن أجل دواع تتصل باللغة والثقافة ، ومن أجل ما يربو على ألف سنة من التاريخ ، يمكن أن يطلق حقا على سكان البوسنة العصريين أنهم سلافيون • اذ ليس وصول السلاف الى البلقان الا نقطة الابتداء لتاريخ البوسنة • ولكن نقط الابتداء الجديدة لا يمكن أن تكون مطلقة تماما فى التاريخ البشرى ، ولابد لنا من أن نعرف أيضا شيئا عن سكان البوسنة الذين وجدهم السلاف يسكنون تلك البلاد عند وصولهم اليها والذين تمكنوا من امتصاصهم فيما بعد •

وأقدم السكان الذين لدينا شىء من العلم بهم هم الالليريون Illyrians ، وهم مجموعة من القبائل كانت تغطى شطرا كبيرا من يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانوا يتحدثون لغة هندوأوربية ذات ارتباط بالألبانية الحديثة • والقبيلة التى أعارت اسمها لاقليم دالماشيا Dalmatia وهى قبيلة دلماتيا (Delmatia) ، كانت فيما يرجح قد أخذت اسمها من الكلمة الألبانية المطلقة على « الغنم » وهى كلمة دلمى (Delme) • وكانت أرضها تغطى جزءا من غرب البوسنة ، كما أن الحفائر التاريخية تظهر أن القبائل الالليرية كانت من الرعاة مربى الدواب خاصة الأغنام والخنازير والماعز • وهناك قبائل أخرى النفى بها الرومان بينما كانوا ينشرون سلطانهم على الأراضى المجاورة أثناء القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، كانت تحتوى على تجمع مخلط الليرى كلتى (The Scordisci) ، على الحافة الشمالية الشرقية للبوسنة ، ثم قبيلة من المقاتلين الأشداء فى البوسنة الوسطى هى قبيلة

الدياستيين (Daesitates) ، وهم الذين أخمـــدت آخـر تمرداتهم على الامبراطورية الرومانية بشدة وقسوة فى العام التاسع للميلاد • ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا أصبحت جميع أراضى الليريا فى قبضـــة الرومان المتمكنة ، ولم تلبث أن أسست شبكة من الطرق والمستوطنات الرومانية بالتدريج (٣) • وامتدت طرق عديدة عبر البوسنة من مدينـــة سالونا Salona الساحلية (قرب سبليت Split) ، ولم يكن الأمر بمحتـاج الى هذه الطرق من أجل التجارة قدر ما هو محتاج اليها لخدمة العمليات الحربية المتجهة بعيدا نحو الشرق ، ولكنها كانت تستخدم أيضا كطرق لنقل الذهب والفضة والرصاص التى كانت تستخرج من البوسنة الشرقية فى العهد الرومانى (٤) • وكان معظم البوسنة مضموما الى مقاطعة دالماشيا الرومانية ولكن جزءا من شمال البوسنة كان يقع داخل ولاية بانونيـا Pannonia التى تقع على أميال قليلة وراء الركن الشـــمالى الشرقى من المجر المعاصرة • ولم تلبث المسيحية أن جاءت سريعة الى المدن الرومانية : فقد جاء ذكر أوائل الأساقفة فى زمن مبكر هو أواخر القرن الميلادى الأول بمدينة سرميوم Sermium فى بانونيا (سريمسكا Sremska ومتروفيكا Metrovica التى تقع على أميال قليلة وراء الركن الشمالى الشرقى من البوسنة المعاصرة) • وقد أسفرت الحفائر عن اكتشـــاف ما لا يقل عن عشرين كاتدرائية رومانية داخل الأراضى البوسنية المعاصرة • ومن بين هذه الكاتدرائيات واحدة تقع قرب ستولاك Stolac .. بمنطقة الهرســك (Hercegovina) انما هى خرابة محترقة تحتوى على عملات من القـرن الرابع : وهى دليل على حقيقة أن هذه الفترة الأولى للمسيحية البوسنية بلغت نهاية مفاجئة على يد الغزو القوطى (٥) •

ولابد أن استخدام اللغـــة اللاتينية أصبح واســع الانتشار فى البوسنة الرومانية ، وواضح أنها كانت اللغة المشتركة الوحيدة للمستوطنين الوافدين من أجزاء الامبراطورية الكثيرة الذين كانوا يجيئون ليعيشوا فى ولاية دالماشيا : من ايطاليا قبل كل شىء ، ولكن أيضـــا من أفريقيـا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) ، واليونان وآسيا الصغرى ، وســوريا وفلسطين ومصر • وكان معظـــم هؤلاء المستعمرين يعيشـــون فى المدن الساحلية ، بيد أن هناك سجلات بأقوام لهم أسماء أسيوية بوادى النريتفا Neretva (بغرب الهرســك) وفى منطقة يايســه Jajce الواقعـة بشمال غرب البوسنة (٦) • ومنذ منتصف القرن الثانى المسيحى فصاعدا أقبل عدد ضخم من المحاربين الرومانيين على الاقامة أيضا بالبلقان بعد انتهاء خدمتهم فى الجيش : والدليل القاطع على أهميتهم هو أنه فى اللغـــة

الرومانية ، وهي اللغة التي تطورت عن اللاتينية التي كانت مستخدمة بتلك المنطقة ، كانت الكلمة الدالة على الرجل«الشيخ»وهي « batarin » مشتقة من كلمة « Veteranus » التي تعني المحارب الذي أنهى خدمته العسكرية وكان الالليريون أنفسهم يجندون بأعداد ضخمة في الفيالق الرومانية ، وكانت الأراضي الالليرية منذ أواخر القرن الثاني فصاعدا ، هي قاعدة القوة العسكرية لكثير من حكام المقاطعـــات والقواد العسكريين الذين أصبحوا أباطــرة للرومان • وأول هؤلاء الأباطــرة ، وهو سبتيموس ســـفيروس Septimius Severus خلع الحرس البرايتوري عندما عاد الى روما في ١٩٣ للميلاد واستبدل به جندا من الالليريين : الذين وصفتهم كلمـــات مؤرخ روماني : « بأنهم حشد مخلط من الجند ، هم أعظم ما يكون وحشية منظر وأجلف وأغلظ ما يكون في الحوار » (٧) •

وكانت المصادر الرومانيـــة والاغريقية الأخرى تتخذ موقفا متعاليا حيال هؤلاء الرجال من أبناء القبائل المحلية في البلقـــان • ونتيجة لهذا ليس لدينا بيان تفصيلي حقا عن بنيتهم الاجتماعية أو ديانتهم أو طريقـة حياتهم • ولكن هنـــاك تعليقا عابرا محيرا تركه لنـــا الجغرافي العظيم استرابون Strabo الاغـــريقي (٦٣ ق • م• ــ ٢٥ م) حيث قال أن الوشم كان منتشرا بين الالليريين • ومما أثبت شـــهادته هذه عثورنا على ابر الوشم في مناطق الدفن الالليرية بالبوسنة (٨) • وليس معروفا أن الوشم كان عادة سلافية في أي وقت أو جزء من الأقاليم السلافية ، ومع ذلك فانه باق الى اليوم على طول هذه القرون المديدة بين كاثوليك وسط البوسنة وبين مسلمي وكاثوليك شمال ألبانيا • وفي عشرينـــات القرن العشرين تمكنت الرحالة الانجليزية والعالمة المتبحرة في شئون البلقان ، اديث درهام Edith Durham من القيام بدراسة تفصيلية مستفيضـة لتلك العـــادة المنتشرة ، ونقلت الينـــا كثيرا من الرســـوم والتصميمات البوسنية ــ وهي من النماذج الهندسية البسيطة للدوائر والصلبان والأهلة ظاهر أنها تمثل شموسا مشعة وأقمارا • وقد قررت الرحالة : « ان النساء يوشمن وشما أشد تعقيدا من الرجال كثيرا ، فان أذرعهن وزنودهن كثيرا ما تكون مغطاة بالأشكال والنمـــاذج ، وكانت الودودات منهن يقلن انهن يوشمن لأن « تلك هي عادتنـــا » ، « لأننـــا كاثوليك » ، و « لأن ذلك جميل » ، ويقلن « ان أيادينا ستكون أجمل موشومة » (٩) • وهذه العادة دليل قاطع على الاستمرار الثقافي بالبوسنة الذي يتغلغل خلف كل ذلك الطريق الى القبائل الليرية • ومن ســـوء الحظ أن ذلك ليس الا الدليـــل الوحيد القوي بين أيدينا ، وقد كثرت الادعاءات بالأصل الالليري لكثير من

الممارسات اللاسلافية التي ما تزال تعيش بالبوسنة مثل الموسيقى الشعبية المتعددة الأصوات ، ولكن هنا تقل الشواهد المؤيدة لذلك عند الكتاب الاغريق والرومان (١٠) ٠

وبالنظر الى هذا الدليل وما نعرفه من معلومات عن الفتوحات والاستيطانات بالبلقان ، يمكننا ان نؤكد أن بعض الالليريين عاشوا بعد الغزوات التالية وامتصهم تماما في داخلهم من أصبحوا السكان السلافيين٠ ولكن بعض الأيديولوجيين اليوغوسلاف من أبناء القرن التاسع عشر وضعوا نظرية رومانسية تذهب الى أن الصربيين والكراوت هم « في الحقيقة » من الالليريين (وعلى ذلك فانهم وحدة عرقية خاصة تمتد على آماد الدهر كله) ولكنها نظرية تحدثنا عن السياسة اليوغوسلافية المعاصرة أكثر منها عن التاريخ البلقاني المبكر (١١) ٠

وفي بعض الأحيان يظهر الأمر كأنما لا يستطيع أى سكان أن يدخلوا بلاد البلقان دون أن يخلفوا وراءهم نظرية مماثلة لهذه لكي تتمسك بها الأجيال التالية ٠ وذلك يصدق بوجه خاص على الغزاة التالين ، وهم قبائل القوط Goths الجرمانية الذين شرعوا في الاغارة على البلقان الرومانية في القرن الثالث وأنزلوا الهزائم الفادحة بالجيوش الرومانية في أخريات القرن الرابع ، واستولوا على قلعة سينجيدونوم Singidonum (وهي بلجراد العصرية) في أواخر القرن الخامس ، ولكنهم انسحبوا تماما الى المملكة التي أسسوها في ايطاليا ودالماشيا عقب ذلك ٠ على أنهم ما لبثوا أن طردوا تماما من البلقان على يد الامبراطور جستنيان Justinian في بواكير القرن السادس ٠ (وبعد حملة جستنيان أصبحت البوسنة ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ جزءا من الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تقع أصلا على الناحية الغربية من الخط الفاصل بين الأراضي الرومانية الغربية والرومانية الشرقية) ٠ أما القوط الذين تخلفوا فانهم ما لبثوا أن امتصتهم الكتلة السكانية المحلية (١٢) ٠ ومع أن القوط كانوا مستوطنين فضلا عن كونهم مغيرين ، فانهم لم يتركوا أى آثار أو انطباعات ثقافية بأراضي البلقان : فليست هناك مثلا كلمة واحدة في أية لغة بلقانية يمكن أن يستدل على أنها مشتقة من اللغة القوطية ٠

ومع ذلك ، فان هناك أسطورة عجيبة لم تلبث أن تشكلت ، ادعت أن القوط هم الأسلاف الحقيقيون للكروات و / أو البوسنيين ٠ وكان الأصل في هذه الأسطورة مخطوط قروسطي مسطر باللاتينية : « المدونات التاريخية لقسيس ديوكليا Dioclea » ، يبدو أنها منقولة من مدونة

تاريخية سلافية أقدم عهدا تعرف بعنوانها اللاتينى (Libellus Gothorum) أى « كتاب القوط » ، وهى تبدأ بذكر هجرة القوط الى بانونيا ، وتعاملهم على أنهم الأسلاف الأصليون للسلاف (١٣) • ولقد استخدمت تلك المدونة التاريخية على يد العديدين من مؤرخى عصر النهضة المتأخرين فى راجوزا Ragusa (دوبروفنيك Dubrovnic) . وأعظم هؤلاء المؤرخين هو الراهب البندكتينى ماورو أوربينى Mauro Orbini ، قد شاد نظرية فخمة متفاخرة للتاريخ العنصرى ، ذهب فيها الى أن جميع الأجناس تقريبا التى أدت أى شىء ذى قيمة فى حقبتى التاريخ الكلاسيكية المتأخرة والقروسطية الباكرة ، كانوا من السلاف (بما فى ذلك الوندال Vandals والآفار Avars والنورمان Normans والفنلنديين Finns والتراقيين Thracians والالليريين) ، وأن جميع السلاف كانوا من القوط : « فكل هؤلاء كانوا ينتسبون للشعب السلافى ويتحدثون بنفس اللسان السلافى ، وعندما غادروا فى البداية وطنهم الأول المشترك وهو اسكندينافيا ، أطلق عليهم جميعا (فيما عدا الالليريين والتراقيين) اسما وحيدا هو القوط » (١٤) • وفى نظرية أوربينى هذه ، كان هذا التطابق فى الهوية مع القوط جزءا من أيديولوجية للرابطة السلافية ، صورت القوط السلافيين بأنهم أشد وأقوى سلالة فى التاريخ الأوروبى • ولكن قوما من غربى البلقان قاموا ، فى تعديل جديد لنظرية القوطية ، بتعريف أنفسهم بالقوط لكى يميزوا أنفسهم عن السلافيين • ولأسباب واضحة ومعروفة ذاعت هذه النظرية بالبوسنة ذيوعا شعبيا خاصا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما راح البوسنيون ، الذين كانوا يريدون لبلادهم أن تحصل على استقلال ذاتى من الدولة الكرواتية الفاشية ، يحاولون تأسيس هويتهم البوسنية على أساس عنصرى منفصل • وفى نوفمبر ١٩٤٢ أرسل فريق من دعاة الاستقلال الذاتى المسلمين «بمذكرة» الى هتلر ادعوا فيها التفوق العنصرى على جميع جيرانهم من السلافيين : « نحن جنسا ودما لسنا من السلاف ، وانما نحن من أصل قوطى • فنحن البوسنيين جئنا جنوبا الى البلقان فى القرن الثالث بوصفنا قبيلة جرمانية » (١٥) ، ويبدو أنه حتى هتلر نفسه وجد هذه القصة صعبة التصديق الى حد ما •

ولم يكن القوط هم الجنس البشرى الوحيد الذى زار غرب البلقان ، وربما ترك بعض ذرية هناك بين الرومان والسلاف • فان الهون Huns الأسيويين (وهم شعب تركى مغولى) والآلانيون الايرانيون Irenians Alans (وهم أسلاف الأوسيتيانيين (Ossetians) العصريين ببلاد القوقاز) ظهروا أيضا فى القرنين الرابع والخامس • وفى القرن السادس

دخل البلقـان شعبان جديدان : الأفار (وهم أيضا قبيلة تركية وفدت من المنطقة الواقعة فى شمال القوقاز) ثم السلاف . وكانت تواريخهم فى البداية شديدة الاختلاط ، فهم اما حلفاء أو متنافسون ، ويبدو أن الأفار وان كانوا أقل عددا كانت لهم اليد العليا فى هذه العلاقة بسبب مهارتهم العسكرية الممتازة . وانتهى الأمر بأن هؤلاء القبليين الترك طردوا من البلقان أثناء القرن السابع عشر على يد الجيوش البيزنطية والكرواتية البلغارية . وكان المؤرخون يفترضون عادة أن الآفار كان لهم تواجد عابر بأرض البلقان ، حيث أنهم أساسا قوة عسكرية تهتم قبل كل شيء بالغارات والاغارة . ومع هذا فان البحث الحديث (القائم على الحقائق التاريخية وأسماء الأماكن) يشير الى اقامة طويلة للآفار فى كثير من الأجزاء فى غرب البوسنة والهرسك والجبل الأسود (١٦) . وفي بعض الأماكن ، بما في ذلك مناطق ملاصقة لشمال وشمال غرب البوسنة ، ربما استقرت مجاميع محددة من المستوطنين الآفار لعدة أجيال متعاقبة : وكان السلاف يطلقون على الآفار اسم أوبري (Obri) . ، وهناك أسماء كثيرة لأماكن مثل أوبروفاك Obrovac التي تسجل وجودهم هناك (١٧) . ومن المحتمل أيضا أن كلمة « بان » Ban التى هى لقب الحكام الكرواتيين من أقدم العصور هي نفسها من أصل آفاري (١٨) .

ولكن كان السلاف بطبيعة الحال هم الذين سـادوا وتسلطوا في النهاية . وفي أخريات القرن السادس تحركوا بأعداد غفيرة منحدرين فى شبه جزيرة البلقان ، وقد كانوا قوما ينزعون الى الاستيطان وزراعة الأرض ولم يكونوا مجرد غزاة ، وأسسـوا المستوطنات التى امتدت الى الطرف الجنوبى من بلاد اليونان . (اذ كانت هناك قرى تتحدث بالسلافية حتى وقت متأخر من القرن الخامس عشر) (١٩) . وعنـدما حلت عشرينيات القرن السابع كانت جملة من السكان السـلاف قد استقرت فى بلغـاريا الحديثة وصربيا ، كما أنهم على أرجح الاحتمالات قد تغلغلوا فى جزء كبير من أراضى البوسنة أيضا . ثم حدث ، فى مدى بضع سنوات قليلة ، أن وصلت قبيلتان سلافيتان جديدتان الى السهل : هما الكروات والصرب . ونقلا عن ما كتبه المؤرخ البيزنطى الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogentius (الذى كتب بعد ذلك بثلاثمئة سنة ولكن مستخدما السجلات الامبراطورية) : فان امبراطور بيزنطة فى ذلك الزمان استدعى الكروات الى داخل البلقـان ليطردوا من البـلاد أولئك الآفار المشاغبين الخارجين عليـه . ولم يشترك الصرب ــ حسـب قول الامبراطور قنسطنطين ــ فى محاربة الآفار ولكنهم كانوا متصلين بالكروات ودخلوا البلقان فى نفس تلك الفترة (٢٠) .

. فمن بالضبط كان الصرب الكروات ؟ لقد ظل رجال العلم يدركون طويلا أن الاسم « كروات » (أو هرفات Hrvat باللغة الصربوكرواتية) ليس كلمة سلافية • ويظن بأنه هو نفس الاسم الايرانى « كورواتوس » Choroatos الموجود على النقوش البارزة على نصب القبور قرب المدينة الاغريقية : تانايس Tanais على نهر الدون الأدنى بجنوب الروسيا • وكان يسكن جميع المنطقة الممتدة شمال البحر الأسود فى القرون الأولى المبكرة للميلاد خليط من القبائل كان يضم السلاف والسرماتيين Saramatians : وقد كان الأخيرون رحلا ايرانيين مروا غربا حول الجانب الشمالى من بلاد القوقاز أثناء القرن الثانى قبل الميلاد • وتمكن السرماتيون من بسط سيادتهم السياسية على القبائل الأخرى ، ويبدو محتملا أن بعض القبائل السلافية احتازت بذلك لأنفسها صفوة ممتازة حاكمة من الناطقين بالايرانية (٢١) • وهناك نظرية تربط بين هرفات وكورواتوس وبين كلمة هو ــ أورفاثا (hu-urvatha) ومعناها «الصديق» بلغة الآلان (الذين كانوا يشكلون جزءا من التجمع السرماتى للقبائل الايرانية فى ذلك الزمان) (٢٢) • وتقول نظرية أخرى ان جذر ذلك الاسم « صرب » Serb (سرف Serv) أصبح بالايرانية « كرف » (Carv) وذلك ما تسبب فى ظهور كورواتوس وهرفات بعد اضافة « ات » (at) فى نهاية الكلمة (٢٣) • ولكن الشىء الواضح هنا هو أن الصرب والكروات كان لهم تاريخ متماثل ومترابط من أقدم العصور : وجاء بطليموس ، الذى كتب فى القرن الثانى للميلاد ، فحدد هو أيضا موطن الصربوى (Serboi) ضمن القبائل السرماتية شمال بلاد القوقاز • ويعتقد معظم العلماء أنه اما أن كلا من الصرب والكروات كانوا قبائل سلافية تحكمها طبقات ايرانية ، أو أنهم كانوا فى الأصل قبائل ايرانية احتازت اليها رعايا سلافية (٢٤) • وفى بواكير القرن السابع كانت كل من القبيلتين قد أسست لنفسها مملكة فى وسط أوربا : « كرواتيا البيضاء » ، التى كانت تشمل جزءا من جنوب بولندا الحديثة ، و « صربيا البيضاء » فى أرض التشيك الحديثة • ومن هذين المكانين هبطا الى غرب البلقان •

وللمرة الثانية تلاعبت الأيديولوجية الحديثة بالتاريخ القديم • اذ ظهر منظرون كروات قوميون انتقوا الدلائل المشيرة الى انتسابهم الى الأرومة الآرية بينما رفضوها بالنسبة للصرب ، وبذلك أبرزوا انقساما عرقيا قديما بين شطرى السكان • وظلت هذه النظرية مقبولة وشعبية أيضا أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الآريون القدماء يوضعون فى أعلى درجات سلم العنصرية النازية • ومن ناحية أخرى كان هناك الأيديولوجيون من أصحاب نظرية السلاف الجنوبيين أو الكتلة السلافية ،

الذين رفضوا لأسباب سياسية ، جميع الدلائل الدالة على الصلات الآرية المبكرة • على أن الحقيقة التاريخية واضحة الى حد كبير : ذلك بأن الصرب والكروات كانوا منذ أبكر العصور متميزين بعضهما عن بعض ولكنهما متصلان أوثق اتصال ، يعيشان ويهاجران في تلازم تام ، وفي كل منهما شيء من العنصر الآرى • وهناك شيء آخر واضح أيضا ، هو أنهما في الوقت الذي وصلا فيه الى البلقان كان هناك عدد ضـــخم من الســكان السلاف يسكنون المكان يفوق عدده عدد السكان الصرب والكروات • والحق أن هذه الطبقة التحتية الضخمة من السلاف لا يمكن تقسيمها الى مجاميع عرقيـة فرعية منفصـلة ، وبذلك يتضح أن محـــاولة اختراع تقسيمات عرقية سلالية قديمة بين نسلهما ، هي باطل الأباطيل • ولابد أن هذه الطبقة التحتية السلافية نفسها قد امتصت بقايا مجاميع السكان الذين كان أسلافهم في الأصل الليريين وكلتا وروماتا وأفرادا من جميع أرجـاء الامبراطورية الرومانية ، من القوط والآلان والهون والآفار •

واستوطن الصرب منطقة تطـابق الجنوب الغربي من صربيا العصرية (وهي منطقة أصبحت فيما بعد في العصـــور الوسطى تعرف باسم راشكا Rashke أو راشـــــيا Rascia) ، ثم أخذوا يمدون سلطانهم تدريجيا الى مناطق دوكليا Duklje أو ديوكليا Dioclea (الجبل الأسود) وهـــوم Hum أو زاتشيوملـيـــا Zachumlje (الهرســـك) • وكان الكروات يستوطنون مناطق تطابق بالتقريب أرض كرواتيـــا الحديثة ، وربما تضم أيضا معظم البوسنة الحقة ، بغض النظر عن الشقة الشرقية لوادي نهر الدرينا Drina (٢٥) • وكان السكان السلافيون المحليون منتظمين على أساس قبلي تقليدي : وفيـه يبدأ هرم الوحـدات في أسفله بالعائلة (والراجح أنه ذلك النوع من العائلات الواسعة الموجود في بعض أجزاء البلقان الى يومنـــا هذا ويطلق عليهـــا المصطلح السلافي زادروجا (Zadruga) ، وكانت العائلات تتحد في عشائر ، والعشائر تتحد في قبائل (Plemena) وأرض القبائل المسماة زوبا (Zupa) كان يتولى الحكم فيها حاكم اقليمي يسمى بالزوبان (٢٦) • كانـــوا وثنيين يعبدون مجموعة متنوعة من الآلهة ، ولا تزال أسماء بعضها باقية الى اليوم تطلق على بعض الأماكن اليوغوسلافية : اله الحيوانات المقرنة فيليس (veles) مثلا أو اله الرعـــد بيرون Pirun أو بير Pir (٢٧) • وقد بذلت محاولات من الحكام البيزنطيين في عهد مبكر يرجع الى القـــرن الســابع لتنصير الكروات بالاستعانة بالقسس اللاتين من المدن الساحلية الدالماشية، التي كانت لا تزال تحت الحكم البيزنطي في ذلك الزمان (٢٨) • ولكن

لم يتم تنصير الكروات بصفة رئيسية الا بعد حلول القرن التاسع • وفي امكاننا ان نفترض أن مناطق البوسنة الأبعد شقة والأعسر اختراقا كانت آخر من اعتنق المسيحية ، التي يحتمل أنها انتشرت اليهم من الأراضي الساحلية في أخريات القرن التاسع أو بدايات القرن العاشر (٢٩) • وهناك امارات تدل على أن الممارسات الوثنية قد نقلت الى المسيحية ثم بعد ذلك الى الاسلام بأرض البوسنة ــ مثل استخدام قمم الجبال أماكن للعبادة • وهناك أسماء لآلهة وثنية مثل بير Pir وأوجاني Ogani . وتور Tur وكلها بقيت في الروايات المتواترة بين الناس حتى القرن العشرين (فان باحثا سجل ترنيمة حولهم من رجل من سراييفو في ١٩٣٣) ، كما أنها قد حفظت لنا أيضا في أسماء الأشخاص مثل تيرو Tiro وبيريتش Piric (٣٠) •

والتاريخ السياسي لغرب البلقان بدءا بالقرن السابع الى القرن الحادي عشر ، انما هو تاريخ متقطع ومضطرب مع توالي الفتوحات وتغير في توجيه الولاء • فلم يعد لأقدم قوة أرست دعائم سلطتها في المنطقة ، وهي الامبراطورية البيزنطية ، شيء من السلطان المباشر سوى القليل ولكنها استطاعت بين حين وآخر أن تجعل سلطاتها معترفا بها • واستمرت العلاقات البيزنطية مع المدن الساحلية ومع جزر دالماشيا : وكانت تنظم بوصفها « ثيما » Theme (أي منطقة عسكرية) في القرن التاسع ، ولكن أخذ سلطان الامبراطورية البيزنطية يصبح اسميا بدرجة متزايدة ، لا سيما أن الكنائس هناك أصبحت تحت السيطرة الادارية لروما • ثم غزا فرنجة شارلمان المنطقة الكرواتية الشمالية ، بما في ذلك جزءا كبيرا من شمال وشمالي غربي البوسنة ، في أخريات القرن الثامن وأوائل التاسع ، وظلت في ظلال الحكم الفرنجي حتى سبعينيات القرن التاسع • ولعل في تلك الفترة بدأ النظام القبلي القديم في البوسنة وكرواتيا يعاد تنظيمه من جديد ليتخذ شكلا من أشكال الاقطاع الأوربي (٣١) •

وفي ثنايا ذلك تجمعت بعض الاقاليم التي يحكمها العرب في منطقتي الهرسك والجبل الأسود الحديثتين واتحدت مع مجموعة من الزوبات الصرب في أقصى أقاصي الشرق وهي في عصرنا الحالي أي أراضي جنوب غرب صربيا ، على شكل امارة صربية (برئاسة « زوبان أعظم ») وذلك في منتصف القرن التاسع • وفي أوائل القرن العاشر تنسمت كرواتيا فترة من القوة والاستقلال في ظل الملك توميسلاف Tomislav ، وللمرة الثانية كان شطر كبير من شمال وغرب البوسنة جزءا من مملكته • ولكن بعد وفاته (وذلك في الراجح في ٩٢٨) ابتليت الأراضي الكرواتية بحرب أهلية ،

وتم على مدى أمد وجيز (في الثلاثينيات حتى الستينيات من القرن العاشر) الاستيلاء على شطر كبير من البوسنة على يد امارة صربية تدين بالسيادة للامبراطورية البيزنطية (٣٢) ٠

وتعطينا هذه التفاصيل صورة للسياق التاريخي الذى ورد فيه أول ذكر نعرفه اليوم عن البوسنة بوصفها اقليما قائما بذاته ٠ وكان ذلك في المرجع السياسى الجغرافى الذى كتبه فى ٩٥٨ الامبراطور البيزنطى قنسطنطين بورفيروجينيتس ٠ ففى ذلك القسم من مرجعه المخصص لأراضى الأمير الصربى كتب يقول : « فى صربيا المتنصرة توجد المدن المأهولة ديستينيكون Destinikon [٠٠٠ الخ] ، وفى أرض البوسنة توجد كاتيرا Katera وديسنيك Desnik » (٣٣) ٠ وهذا يوضح أمام أعيننا أن البوسنة (وهى منطقة أصغر من البوسنة الحقة فى زماننا ومتمركزة حول نهر البوسنة ، الذى يفيض شمالا من منطقة قريبة من سراييفو) كانت تعتبر منطقة منفصلة ، وان كانت فى ذلك الحين تابعة للصرب ٠ وفى ستينيات القرن العاشر سقطت مرة ثانية فى يد الحكم الكرواتى وبقيت أرضا كرواتية ما يقرب من نصف قرن من الزمان ٠

ثم حدث بعد ذلك فى ١٠١٩ أن ولى العرش امبراطور بيزنطى قوى جديد هو الامبراطور بازيل الثانى Basil II ، الشهير باسم « ذابح البلغار » ، فأجبر الحكام الصربيين والكروات على الاعتراف بالسيادة البيزنطية ، وما لبث اخضاع الكروات الاسمى أن تحول بالتدريج الى شىء أشبه بالتحالف ، وفى أثناء القرن الحادى عشر خضعت البوسنة حينا من الوقت لحكم كرواتى ، كما حكمها حينا آخر حكام من الصرب المقيمين فى المناطق الشرقية الذين خضعوا للسيادة البيزنطية بصفة مباشرة أكثر (٣٤) ٠ والى الجنوب من البوسنة الحالية نعمت بعض الأقاليم بقدر أكبر قليلا من الاستقلال ، وهى اقليم دوكليا الذى تسمى باسم آخر هو زيتا (Zeta) ، والجبل الأسود ، وهوم أو زاتشومليا ، وهى الهرسك ، حيث قاوم الأمراء الصربيون المحليون الحكم البيزنطى ٠ وتوحدت هذه الأراضى فى مملكة صربية واحدة امتدت حتى احتوت أرض راشكا الصربية فى سبعينيات القرن الحادى عشر ، ولكنها ما لبثت تحت حكم الملك بودين « Bodin » فى ١٠٨٠ أن اتسعت حتى ضمت اليها معظم البوسنة ٠ ولكن المملكة ما لبثت أن تمزقت سريعا بعد وفاته فى ١١٠١ ٠

وتعد نهاية القرن الحادى عشر نقطة تحول فى تاريخ البلقان الغربى • فبعد وفاة بودين انتقل مركز الثقل للطموحات السياسية الصربيـــة الى راشكا ، التى اصبحت قلب المملكة الصربية فى القرون الوسطى • وفى تلك الأثناء كانت المجر قد استولت على الأرض الكرواتية كلها ، وفى عام ١١٠٢ توج الملك المجرى كولومان Koloman ملكا على كرواتيا ، وبذلك أنشأ علاقة ما بين الدولتين ، كانت أحيانا علاقة خضوع مباشرة ، وأحيانا أخرى علاقة إتحاد وتحالف شخصى ، دامت مع بعض فترات التقطع والتعديل ، حتى ١٩١٨ : وبسط الحكم المجرى على البوسنة أيضا فى ١١٠٢ ، ولكنها لأنها بلاد بعيدة عسيرة الاختراق كان يحكمها « بان Ban (حاكم بالكرواتية) ظلت سلطاته تزداد استقلالا بتقدم الزمن بالقرن (٣٥) • ولكن الذى حدث فى الستينيات والسبعينيات من القرن الثانى عشر أن عادت الى حين مقاطعتا البوسنة وكرواتيا للحكم البيزنطى بعد حملة عســكرية ناجحة على يد الامبراطور المتوســع مانويـل كومنينوس Manuel Comnenous ولكن بعد وفاته فى ١١٨٠ تقوضت كل فتوحاته سريعا • فاســتعادت كرواتيا صلتها الأولى بالمجر • وأصبحت البوسنة فى واقع الأمر حرة من السيادة المجرية ، ونظرا لأنها لم تعد تحت حكم الامبراطورية البيزنطية ولا كرواتيا فانها استطاعت أن تقف فى وجه الجميع لأول مرة بوصفها دولة مستقلة الى حد ما • ومن هنا جاء الوصف الشهير للبوسنة الذى كتبه كاتم أسرار الامبراطور مانويل كومنينوس ، وهو مدون الحوليات كيناموس Kinnamos الذى كان يكتب فيما نعتقد فى ثمانينات القرن الثانى عشر ، « ان البوسنة لم تعد تطيع أوامر الزوبان الأعظم للصرب ، انه شعب مجاور له عاداته وسماته وحكومته الخاصة » (٣٦) • ولاحظ كيناموس أيضا أن البوسنة كان يفصلها نهر الدرينا عن بلاد الصرب ، وهو خط فاصل ظل هو خط الحدود الشرقية للبوسنة طوال فترة كبيرة من تاريخها التالى •

وليس بوسعنا ازاء التاريخ المعقد للبوســنة السلافيـــة المبكرة ، فيما بين وصول الكروات والصرب فى عشرينيات القرن السابع وانبثاق دولة بوسنية مستقلة فى ثمانينيات القـــرن الثـــانى عشر ، أن نخـــرج باستنتاجات بسيطة عن تلك الفترة • فان البوسنة الحقة كانت تحت الحكم الصربى فى بعض الأوقات : وأخصها فى منتصف القرن العاشر ونهاية الحادى عشر • ومع هذا فان من المضلل أن يقال ان البوسنة كانت ذات يوم « جزءا » من صربيا • ذلك لأن الممالك الصربية ، التى ضمت بين أجزائها البوسنة فى تلك الأيام ، لم تكن تحتوى على معظم ما نسميه اليوم باسم

صربيا · ففي أثناء معظم هذه الفترة القروســطية المبكرة كانت مقاطعة الهرسك في حقيقة الأمر وواقعه أرضا صربية ، ولكن البوسنة الحقة كانت مرتبطة ارتباطا أوثق كثيرا بأراضي الكروات ، بل وفي القرن الثاني عشر ، بعد أن حصلت على استقلالها ، بدت منحازة الى النطاق الكرواتي المجرى الثقافي والسياسي انحيازا مستمرا ومتزايدا (٣٧) · وكانت البوسنة في أيامها القروسطية الأولى مرتبطة ارتباطا وثيقا من حيث تنظيمها الديني بكرواتيا وليس بأراضي الصرب · فان أسقفية البوسنة مذكورة على أنها مطرانية كاثوليكية رومانيــة في القــرن الحادى عشر (بعــد الانشــقاق الذى حــدث بين روما والقسطنطينية عــام ١٠٥٤) ثم أصبحت تحت الرياسة الدينية لكبير أساقفة سبليت ، قبل نقلها الى أســقفية راجــوزا (دوبرفنيك) في القرن الثاني عشر (٣٨) · (ومع هذا كانت هناك كما سنرى بعض ملامح مميزة للكنيسة ببلاد البوسنة لابد أنها باعدت بينها وبين الكنائس اللاتينية القائمة في الساحل الدالماشي منذ مرحلة قديمة من الزمان) · وهناك رمز يرمز الى الوشائج السياسية مع العالم الكرواتي هو أن حكامها كانوا يلقبون باللقب الكرواتي « بان » منذ أقدم العصور ، أما الحاكم الأكبر للصرب فكان يدعى باسم « الزوبان الأعظم » ولم يدع قط باسم « بان » (٣٩) ·

أما عن هوية سكان البوسنة في ١١٨٠ وان كانوا من العرب أو الكروات حقا فهو تساؤل لا يمكن الاجابة عنه لسببين : أولا لأننا تعوزنا البينات ، وثانيهما لأن السؤال يعوزه المعنى · ففي امكاننا أن نقول ان معظم أرض البوسنة كان يشغلها على الأرجح الكروات ــ أو على الأقل سلاف تحت الحكم الكرواتي ــ في القرن الســابع ، ولكن هذا مسمى قبــلى قديم لم تعد له الآن أية قيمة بعد انســلاخ هذه القــرون الخمســة · على أن البوسنيين ظلوا على الدوام أقرب الى الكروات في تاريخهم الديني والسياسي على وجه الجملة ، ولكن تطبيق الفكرة الحديثة حول الهوية الكرواتية (وهي شيء تم بناؤه في القرون الحديثة على الدين والتاريخ واللغة) ، يعد مفارقة تاريخيــة · وكل ما يستطيع المرء بعقلانيــة أن يقوله الآن حول الهوية العرقية للبوسنيين ، انهم كانوا السلاف الذين عاشوا في البوسنة ·

الفصل الثاني

الدولة البوسنية القروسطية

ان تاريخ البوسنة في أوج العصور الوسطى تاريخ مضطرب وموزث للارتباك . ولكن يبرز فيه ثلاثة حكام أقوياء : هم بان كولين Ban Kulin (الذي حكم من ١١٨٠ الى ١٢٠٤) ، وبان ستيفن كوترومانيتش Ban Stephen Kotromanic (١٣٢٢ ـ ١٣٥٤) ، والملك ستيفن تفرتكو Stephen Tvrtko (١٣٥٣ ـ ١٣٩١) . وفي حكم الثاني من هؤلاء الثلاثة اتسعت حدود البوسنة حتى ضمت امارة هوم (الهرسك) ، كما أنها في عهد الثالث امتدت أكثر نحو الجنوب واستولت أيضا على شطر كبير من الساحل الدالماشي . والواقع أنه في أثناء النصف الثاني من حكم تفرتكو كانت البوسنة أقوى دولة داخل البلقان الغربي . والجزء الوحيد من اقليم البوسنة الذي لم يضم الى حكم تفرتكو ، كان قطاعا مستطيلا من الأرض يمتد في الشمال الغربي ويحتوي مدينة بيهاتش Bihac الحديثة ، التي كانت جزءا من الأراضي الكرواتية المجرية طوال تلك الفترة .

تلك هي النقاط العظمى في تاريخ قوة البوسنة القروسطية واستقلالها . أما فيما بين فترات حكم هؤلاء الحكام الثلاثة المذكورين فكانت البوسنة مقتسمة ، اما رسميا أو واقعيا نتيجة للصراع المتكرر على القوة ، بين الأسر النبيلة المحلية . ومع أن النظام الاجتماعي والسياسي في البوسنة كان في أساسه اقطاعيا ، فلم يكن ذلك الشكل الصارم الاقطاع الذي كان يقضي بعودة اقطاعيات النبلاء الى التاج ان فشلوا في أداء واجباتهم العسكرية : لقد كان النبلاء ملاك أراض مستقلين ، وكثيرا ما تمكنوا من املاء آرائهم حول وراثة العرش البوسني من واقع مركزهم كقوة اقليمية في البلاد (١) . وهنا جاء عدم الاستقرار السياسي المستمر في البوسنة في القرون الوسطى .

وكانت بلاد المجر هي أعلى الدول المجاورة كلمة أثناء تلك الفترة . وفي أثناء القرنين الثالث عشر وأوائل الرابع عشر تمت المملكة الصربية أيضا لتصبح دولة عسكرية قوية ، ومن المدهش بالرغم من ذلك أن ملوك الصرب لم يبذلوا أية محاولة قوية لفتح البوسنة (٢) . ولا شك في أن استحالة اختراق حدود البوسنة ، وهو أمر طالما خبره ملوك المجر عدة مرات ، جعلها فريسة صعبة المنال ، فان حدث وتم نيلها كان ملاك أراضيها من النبلاء المشاكسين، يحولونها الى مغنم لا خير فيه .

وكذلك كان موقع البوسنة القصي من الأسباب الكامنة وراء تلك الظاهرة المميزة المحيرة لتاريخها ابان العصور الوسطى : ألا وهي نزعة الانقسام ، التي سادت كنيستها اذ يبدو أن هذه الكنيسة انسلخت عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر ، وظلت تعمل في البوسنة مستقلة تماما حتى وصول الفرنسيسكان ، الذين حاولوا أن يعيدوا سلطان روما الى مكانته في الأربعينيات من القرن الرابع عشر . ومنذ ذلك الحين دخلت الكنيسة البوسنية في منافسة مع الكنيسة الكاثوليكية واستمر هذا الأمر أمد قرن من الزمان ، حتى انتهى المطاف برجالها عشية الفتح التركي الى الطرد أو اعتناق الكاثوليكية قسرا . وعلى امتداد عمر تلك الكنيسة ظل كتاب البابوية يتهمون البوسنيين بالهرطقة والكفر ، كما أن بعض تلك المصادر تحدد الهرطقة بالمثنوية (Dualist) والمانوية (Manichean) . وكانت تلك الكنيسة من جراء تلك الاتهامات تنعت بأنها تجسيد لطائفة مانوية بلقانية قديمة هم بوجوميل (Bogomils) بلغاريا . على أن الدراسات الحديثة أقامت اعتراضات قوية على هذه النظرية التقليدية . وقد بلغ هذا الموضوع من شدة التعقيد ما جعلنا نعالجه في الفصل التالي .

وقد أصبح بان كيولين أسطورة في التاريخ البوسني . وكتب عنه المؤرخ وليام ميللر في عام ١٩٢١ : « يعده الناس حتى في هذه الأيام ربيبا للجنيات كما يعدون فترة حكمه عصرا ذهبيا ، كما أن الحديث عن عهد بان كيولين انما هو تعبير شعبي عن الحديث عن العهد السعيد الخالي ، عندما كانت أشجار البرقوق البوسنية تئن أنينا شديدا بما تحمل من فواكه ، وعندما كانت حقول القمح الصفراء لا تكف لحظة عن التموج في السهل الخصيب » (٣) . فقد نعم البوسنيون بسلام دام ٢٤ عاما ، ولا مفر من أن هذا السلام كان تغييرا نزل بردا وسلاما على أبناء البوسنة من البسطاء . وتشير الأدلة التي وصلتنا عن هذا العصر الى أن كيولين وجه اهتماما شديدا الى الشئون الاقتصادية لبلاده : فانه عقد معاهدة تجارية

مع راجوزا (دوبرفنيك) في ١١٨٩ ، وشجع تجار راجوزا على استغلال المناجم البوسنية الثرية (٤) . كما أنه أقام أيضا علاقات طيبة مع حاكم هوم (الهرسك) الذى تزوج أخت كيولين ومع الجوبان الأعظم الضربى ستيفان نيمانيا Stephen Nemanja مؤسس أسرة النيمانيين Nemenjid الملكية ، التى قدر لها أن تحول الصرب الى دولة عظمى أثناء القرنين التاليين . ولكن العلاقات كانت أقل مودة مع دولتين أخريين : أولاهما بلاد المجر التى كانت لاتزال تعد نفسها صاحبة السيادة العليا على البوسنة . وزيتا (التى كانت تدعى سابقا دوكليا أو ديوكليا : وهى الجبل الأسود الحديثة) ، التى تحالفت مع بلاد المجر لأسباب سياسية تكتيكية .

وكانت سياسات الكنيسة ، وليس الحرب ، هى الشكل الذى اتخذه الصراع . فان البوسنة (على العكس من هوم الأرثوذكسية) كانت اقليما كاثوليكيا ، وكانت تابعة لسلطة رئيس أساقفة راجوزا . ونظرا لبعدها السحيق لم يكن رجال الكنيسة الراجوزية يتدخلون كثيرا فى شئون الكنيسة الكاثوليكية فى البوسنة فسمح لها فعلا بتعيين أسقفها الخاص بها (الذى كانت أسقفيته تمتد شمالا حتى الأراضى المجرية الكرواتية) . وكانت المجر تريد تحكما أوثق على الأسقفية البوسنية ، وجاهدت فى روما فى أوائل التسعينيات من القرن الثانى عشر لتحمل البابا على وضعها تحت السلطان الدينى لكبير أساقفة سبليت وكان من أشياع المجر . وعندئذ شرع حاكم زيتا ، الذى كان شديد الاهتمام باسقاط سلطان كل من البوسنة وراجوزا ، يرسل الى البابا شاكيا من أن بان كولين وزوجته وآلافا من رعاياه أصبحوا من الهراطقة (٥) . وربما لم تكن هذه الشكاوى الا وسيلة لالتماس اذن البابا لغزو بعض أجزاء من الأراضى البوسنية . ولكن بان كولين وأد الأزمة فى النهاية بعقده مجلسا للكنيسة البوسنية الكاثوليكية (وهو المجلس المعروف باسم بولينو بوليى Bolino Polje) فى ١٢٠٣ ، حيث تم الاقلاع رسميا عن مجموعة من الأخطاء ، كانت فيما يبدو تتصل ببعض الممارسات الدينية الخاطئة وليست بالهرطقات الخطيرة ومع هذا فقد كان ذلك بداية لاتهام البوسنة التقليدى بالهرطقة وتثبيتا له فى الأذهان (٦) . أما بان كولين نفسه ، الذى ظل يعلن أنه كاثوليكى صالح ، فقد توفى فى السنة التالية .

وأثناء نصف القرن الذى أعقب وفاته ظلت البوسنة تحت ضغط مستمر من جارتها المجرية القوية . فان المجريين لم يتخلوا عن خطتهم التى اختطوها لوضع أيديهم على أسقفية البوسنة . ووجهت البابوية سيلا مستمرا من الرسائل الى حكام البوسنة وأساقفتها ترجوهم فيها طرد

الزندقة من أسقفية البوسنة أثناء الثلاثينيات من القرن الثالث عشر (٧) ٠ كان ذلك جزئيا رد فعل لتدنى المستوى العلمى لهيئة الكهنوت البوسنية : وهناك رسالة بابوية مؤرخة فى ١٢٣٢ ، وهى تصف أسقف البوسنة الكاثوليكى بالأمية والجهل حتى بمراسم التعميد ، وأنه بغير مراء يعمل متواطئا مع الهراطقة ٠ ومع هذا فربما تكون هذه الرسالة قد عبرت عن بواعث للقلق اختلقها أولئك الحكام المجريون الذين كانوا يتطلبون مبررا دينيا لغزو البوسنة ٠ وحدث الغزو فعلا فى أخريات الثلاثينيات من القرن الثالث عشر ، وما وافت ١٢٣٨ حتى كان المجريون قد استولوا على المنطقة الجنوبية الوسطى من البوسنة وهى فرهبوسنا (Vrhbosna) ، وكانوا يعملون بكل نشاط على توطيد جماعة الرهبان الدومينيكية (٨) ٠ ومع ذلك احتفظ بان البوسنة نينوسلاف Ninoslav ، ببعض الأراضى ، وعندما انسحب الجيش المجرى فجأة فى ١٢٤٠ نحو الشمال للتصدى للغزو المغولى الذى كان يهدد المجر ، تمكن البان البوسنى من استرداد كل سلطاته وأراضيه بالبوسنة ٠ وسحق المغول الجيش المجرى ثم تقدموا تاركين وراءهم خطا من المدن والقرى المنهوبة والمدمرة خلال شمال كرواتيا حتى دالماشيا ٠ على أنهم ما لبثوا عندما سمعوا بوفاة الخان الأعظم أن ارتدوا شرقا مخترقين زيتا (الجبل الأسود) وصربيا ٠ فكأنهم بذلك قد داروا حول البوسنة تاركين اياها دون أن يمسها السوء الى حد كبير ٠

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عاشت البوسنة فيما يبدو حياة أكثر انعزالية ٠ فان المجر أقنعت البابا بأن ينقل أسقفية البوسنة ويجعلها تحت رياسة أسقفية كبرى داخل بلاد المجر فى ١٢٥٢ ، ومع ذلك فان الأثر النهائى لهذا التغيير انما هو أن الأسقف البوسنى أصبح يعيش خارج بلاد البوسنة منذ ذلك الحين (فى سلافونيا Slavonia الخاضعة للمجر) ٠ ومن ثم فان الضغط الذى كان من الممكن أن تحدثه أية سلطة خارجية على الكنيسة البوسنية قد أصبح فى حكم المعدوم تقريبا (٩) ٠ وقامت المجر بمحاولة أخرى لغزو البوسنة فى ١٢٥٣ ، ولكن بعد ذلك فان ولاية (بانية) البوسنة الأصلية — وهى الوارثة لدولة بان كولين — يبدو أنها تركت وشأنها تتصرف كيف تشاء طوال المدة الباقية من القرن (١٠) ٠ ومع هذا ، فان كثيرا من الأجزاء الشمالية من البوسنة الحديثة مثل منطقة سولى Soli (وهى تعنى « الملح ») حول توزلا ، قد خصصت لأعضاء من الأسرة المالكة المجرية ٠ فأما القطاع الشمالى الشرقى لهذه الأراضى فقد ضم الى مناطق من شمال صربيا ليشكل ما يسمى باسم دوقية ماتشفا Mačva (١١) ٠

ومن هذه الأراضى الشمالية برزت الأسرة الحاكمة التالية للبوسنة ٠ فقد خلف ستيفن كوتروما ن (Stephen Kotroman) أباه فى ثمانينيات القرن الثالث عشر فى حكم أحد الأجزاء الشمالية البوسنية ، وتزوج من ابنة حاكم ماتشفا : ثم دخل فى صراع طويل على السلطة تفاصيله غير واضحة تماما ، ضد أسرة نبيلة أخرى وهى أسرة شوبيتش (Sobices) وهم أسرة من جنوب غرب البوسنة ٠ ويبدو ان الشوبيتش كانوا يحكمون بانية البوسنة القديمة أثناء العقدين الأولين من القرن الرابع عشر ، وأنهم كانت لهم علاقات ودية مع ابن كوتروما ن وهو ستيفن كوترومانيتش (Stephen Kotromanic) أثناء فترة من ذلك الزمان (١٢) ٠ بيد أنه حدث فى مطلع عشرينيات القرن الرابع عشر أن كوترومانيتش زاد شأنا وأصبحت له اليد العليا : فقد أصبح أحد أفراد أسرة شوبيتش بانا للبوسنة فى ١٣١٨ ، ولكن كوترومانيتش أخذ هذا المنصب فى ١٣٢٢ ٠ وما كاد يستتب له الأمر ، حتى شرع يبنى دولة بوسنية أوسع رقعة وحدت البانية القديمة مع بعض المناطق الشمالية ٠ ثم عاد فاضاف الى ذلك كله ، عن طريق الفتح ، مناطق فى غرب البانية كانت فيما سلف من الزمان جزءا من كرواتيا وظلت بعد ذلك جزءا من الأراضى البوسنية ٠ وزاد بعد ذلك فى سعة رقعة فتوحاته بأن أضاف الى ممتلكاته نيفا ومائتى ميل من الساحل الدالماشى تقع بين راجوزا وسبليت ٠ وفى عام ١٣٢٦ استلحق معظم أراضى هوم (الهرسك) ، وبذلك أنشأ كيانا سياسيا موحدا يتشكل من البوسنة والهرسك لأول مرة فى التاريخ ٠ وكانت هوم حتى ذلك الحين تعيش عيشا منفصلا الى حد ما عن كل ما عداها فى ظل أسرها الحاكمة المتعاقبة ، كما كان تاريخها الدينى منفصلا أيضا عن كل ما عداها باحتوائها على مجموعة سكان تغلب عليهم الأرثوذكسية (١٣) ٠

وحرص كوترومانيتش على اصطناع علاقات ودية مع الدول الأجنبية ٠ ومن عظيم يمن طالعه أن المملكة الصربية ، التى كانت تلم بها فترة نمو وقوة خارقة للعادة تحت ظل حاكمها ستيفن دوشان (Stephen Dushan) ، كانت مشغولة بالتوسع جنوبا فى أراضى مقدونيا وألبانيا وشمال اليونان ٠ وعقد كوترومانيتش المعاهدات مع راجوزا فى ١٣٣٤ ، والبندقية فى ١٣٣٥ ، وتعاون وديا مع الملك المجرى ، حيث أرسل اليه القوات البوسنية لمساعدته فى حملته على النبلاء المشاغبين فى كرواتيا ٠ على أنه ما دام كوترومانيتش قد تقبل وعاون على وجود الكنيسة البوسنية الانشقاقية (وهذا هو ما فعله فعلا رغم أنه كان هو نفسه أرثوذكسيا على الأرجح) ، لم يكن فى امكان علاقاته مع البابوية الا أن تكون هشة ضعيفة ٠ وفى

١٣٤٠ وافق ، رغبة منه فى تحسين علاقاته بالبابا ، على أن يسمح لطائفة الفرنسيسكان بانشاء ارسالية لهم ببلاد البوسنة : وكانوا منذ أمد بعيد راسخى الأقدام فى الساحل الدالماسى ، ولكنهم حتى ذلك الحين لم يسعوا الا على استحياء للانتشار فى أراضى البوسنة (١٤) ٠ وفى وقت ما من عام ١٣٤٧ يبدو أن كوترومانيتش نفسه قد تحول الى الكاثوليكية الرومانية : فانه كتب فى أبريل من تلك السنة الى بابا روما يسأله أن يزيد من عدد القسس المدربين المرسلين الى البوسنة الذين يكونون « مهرة فى تعاليم العقيدة ولا يجهلون اللغة السلافية » (١٥) ٠ وكان جميع من أعقبه من حكام البوسنة من الكاثوليك ، باحتمال استثناء واحد فقط (١٦) ٠

وما لبث الفرنسيسكان أن أنشأوا « أسقفية البوسنة » ، وهى وحدة ادارية ما لبثت أن توسعت حتى ضمت اليها قسما ضخما من جنوب شرق أوربا ، وبذلك أصبحت ممتدة على طول الطريق الى رومانيا ٠ (وبذلك زادت حدة تعقد الجدال حول هرطقة البوسنة ، حيث استخدم الفرنسيسكان فى وثائقهم مصطلح « البوسنة » للدلالة على مجموعة من « الخطايا » ، ان جاز مثل هذا القول) ٠ وفى ١٣٨٥ أصبحت تلك الأسقفية تحتوى على خمسة وثلاثين ديرا فرنسيسكانيا لم يكن منها فى البوسنة نفسها سوى اربعة أديرة فقط : فى فيسوكو (Visoko) ولاشفا (Lasva) وسوتيسكا (Sutjeska) وأولوفو (Olovo) ٠ وكان من المقدر بناء اثنى عشر ديرا داخل الدولة البوسنية قبل ١٤٦٣ ٠ ولكن كل دير لم يكن يسمح فيه الا بحوالى اثنى عشر راهبا كحد أقصى ، على أن متوسط عدد الرهبان ربما لم يزد عن الأربعة لكل دير ٠ ونظرا لأن ثلاثة من تلك الأديرة الأربعة (بدون دير أولوفو) كانت متقاربة معا فى الجزء الأوسط من البوسنة ، فان الجهد الفرنسيسكانى فى هداية الأرواح الى العقيدة البابوية لم يكن له أثر يذكر على معظم الأجزاء فى البلاد أثناء تلك الفترة المبكرة من حملتهم الدينية (١٧) ٠ فأما الكنيسة البوسنية ، كما سنرى ، فكان يعوزها التنظيم الاقليمى السليم ، اذ يبدو محتملا أن شطرا عظيما من سكان المناطق الريفية كانوا يمارسون أدنى أشكال المسيحية الشعبية التى تمارس طقوسها دون قسس ٠

وعندما دفن ستيفين كوترومانيتش فى الدير الفرنسيسكانى فى فيسوكو فى ١٣٥٣ ، خلف من ورائه دولة بوسنية مستقلة تعيش فى رفاهية الرغد والقوة ٠ ولكن ثباتها واستقرارها كان ما يزال يعتمد بشدة على تعاون الأسر النبيلة التى كانت تبسط نفوذها وسلطانها الخاص على أجزاء مختلفة من البلاد ٠ وخلفه ابن أخيه ستيفن تفرتكو ، وكان صبيا

لم يتجاوز الخامسة عشرة ولم يكن يملك من السلطان أو القوات العسكرية ما يمكنه من جمع شتات هذه القوى الطاردة المركزية النبيلة فى جمع واحد • وفى الحين نفسه كان الملك المجرى شديد الحرص على استغلال ما يحدث فى البوسنة من انقسامات لكى يسترد لنفسه أرضا أخذت منه ، واضطر تفرتكو أثناء السنوات الأربع عشرة الأولى من حكمه الى أن يصارع التمردات البوسنية والاستيلاءات المجرية على أراضيه ، وفى ١٣٦٦ بلغ الأمر به أن اضطر الى الالتجاء فى البلاط المجرى عندما أقدمت مجموعة من النبلاء البوسنيين على اقامة أخيه فوك (Vuk) فى مكانه حاكما • ولكن فى عام ١٣٦٧ تمكن ـ فيما هو واضح بمساعدة من ملك المجر ، الذى أدرك أنه يحرك متاعب لن يستفيد منها هو نفسه ولا تفرتكو ـ من أن يعود الى السلطة فى البوسنة (١٨) • ومن بعدها لم يعد يلقى أى ضر من الملك المجرى خاصة وقد أصبح أشد اهتماما بالأحداث التى كانت تحدث على التخوم الشمالية للمجر •

وعندئذ وجه تفرتكو التفاته نحو الجنوب • اذ تمزقت الامبراطورية الصربية الهائلة بعد مدة وجيزة من وفاة منشئها ستيفين دوشان فى ١٣٥٥ • وكان أحد النبلاء الصربيين ، الذين كانوا يحاولون آنذاك اغتصاب بعض الأراضى من بقايا الدولة القديمة ، ويدعى لازار هربليانوفيتش (Lazar Hreblianovic) ، منهمكا فى صراع معقد على السلطة مع النبلاء الآخرين فى جنوب غرب صربيا فى هوم (الهرسك) وزيتا (الجبل الأسود) وقدم تفرتكو الى لازار المساعدة التى احتاج اليها وكوفىء على ذلك بجزء من الغنائم من بينها قطاع ضخم من الأرض يتاخم البوسنة من الجنوب والجنوب الشرقى : أجزاء من هوم وزيتا وجنوب دالماشيا (بما فى ذلك قطع من الساحل الواقع بين راجوزا وخليج كوتور Kotor) وما أصبح بعد ذلك سنجقية « نوفى بازار » • وكان هذا الشطر الأخير يضم دير ميليشيفو (Mileshevo) ، وهو الدير الذى يحتوى على رفات القديس سافا (Sava) الذى هو من أقدس الشخصيات فى تاريخ الكنيسة الصربية الأرثوذكسية • وفى ١٣٧٧ احتفل تفرتكو بهذا الارتفاع فى مركزه ومكانته بتتويج نفسه ملكا فى ميليشيفو ، لا بوصفه ملكا على البوسنة فقط بل وملكا على الصرب كذلك • على أن ادعاءه ملك الصرب لم يكن الا محاولة لتضخيم الذات له ولأسرته الحاكمة ، وزاد فى هذا الادعاء فخامة البلاط الذى أقامه آنذاك فى معقله فى بوبوفاك (Bobovak) ، على النسق البيزنطى ، أن تفرتكو ينحدر حقا من أسرة نيمانيا الصربية

المالكة ، على أنه في الحقيقة لم يحاول جديا ذات يوم أن يمارس سلطات الولاية السياسية على صربيا (١٩) ٠

على أن طموحات الملك تفرتكو في التوسع الاقليمي والسياسي كانت موجهة صوب مواطن أخرى ، ومن هنا شاء أن ينشيء ويطور ميناءة تجاريه أخرى جديدة على الجانب الشمالى من خليج كوتور : وأسماها « نوفى » (ومعناها « الجديد » ٠ وهي هرسك ـ نوفى (Herceg-Novi) المعاصرة ، وكانت فيما سبق معروفة كذلك باسم كاستيل نوفو Castelnuovo) ٠ ولكن ذلك أغضب تجار راجوزا ، وكانت البوسنة شديدة الاعتماد على الراجوزيين فى حياتها الاقتصادية الداخلية فلم يكن من الصواب تحديهم ، ومن ثم عدلت بهدوء تام عن خطة نقل التجارة من راجوزا الى نوفى ٠ وفى الحين نفسه نشبت حرب أهلية فى الأراضى الكرواتية بعد وفاة ملك المجر فى ١٣٨٢ ، فسنحت من ثم الفرصة لانتزاع غنائم أثمن وأنفس ٠ فتحالف تفرتكو مع واحد من أشد النبلاء المتنافسين قوة ، فتوغل فى ساحل دالماشيا بجنده ووضع يده على الخط الساحلى بأكمله (بما فى ذلك حتى بعض الجزر) ، باستثناء راجوزا وحدها التى تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها ، وزادار (Zadar) التى كانت تحت سيادة البندقية ٠ وكانت للبندقية بتلك المنطقة مطامع قوية ، وما لبثت حتى استعادت معظم الساحل الدالماشى بعد وفاة تفرتكو ٠ ومهما يكن الأمر ، فان تفرتكو كان سيدا لمملكة بوسنية متوسعة جدا ضمت الى ممتلكاتها أيضا أجزاء من شمال كرواتيا وسلافونيا : وفى السنة أو السنتين الأخيرتين قبل وفاته فى ١٣٩١ كان يلقب نفسه : « ملك كرواتيا ودالماشيا أيضا » (٢٠) ٠

ومع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الرابع عشر تصل الى نقطة تحول عظيمة أخرى فى تاريخ غرب البلقان ٠ حيث كانت الجيوش التركية العثمانية تتقدم غربا عبر تراقيا وبلغاريا منذ خمسينيات القرن الرابع عشر ٠ وفى ١٣٧١ التقت بهم فى بلغاريا فرقة ضخمة من المحاربين الصربيين ، فلقيت على أيديهم شر هزيمة ٠ وفى ثلاثينيات القرن الرابع عشر شرع الترك يهاجمون صربيا نفسها ، وفى ١٣٨٨ زحفت فرقة غزو تركية الى هوم (الهرسك) التابعة للحكم البوسنى ، حيث أبيدت **على يد قوات يقودها نبيل محلى هو فلاتكو فوكوفيتش** (Vlatko Vukovich) وفى عام ١٣٨٩ رفض لازار الحليف الصربى القديم لتفرتكو (الذى أخذ لقب « الأمير » المتواضع يوم أعلن تفرتكو نفسه ملكا) قبول السيادة التركيه عليه ، ودعا جيرانه وحلفاءه لمساعدته ٠ فأرسل الملك تفرتكو قوة بوسنية ضخمة تحت قيادة فلاتكو فوكوفيتش ، فقاتلت الى جوار جيش الأمير

لازار فى معركة كوسوفو بولى (Kosovo Polje) فى يونيـــو ١٣٨٩ ٠ وعلى خلاف الواقع وصفت الأساطير والشعر الصربى هذه المعركة بأنها هزيمة منكرة وساحقة هلكت فيها فى الميدان زهرة فرسان البلقان واتاحت للترك مواصلة زحفهم خلال الجزء الباقى من صربيا ، فصحيح أن الخسائر بالفعل كانت فادحة فى الجانبين وأسر الأمير لازار وأعدم ، لكن بقايا الجيش انسحبت بعد المعركة ، وظلت القوات الصربية والبوسنية تعتقد حينا من الدهر أنها هى الفائزة ٠ ولم تكن المعركة فى حد ذاتها هى التى تولد عنها سقوط صربيا فى يد الأتراك ، ولكن الواقع أنه بينما احتاج الصربيون الى جمع جميع القوات التى يستطيعون جمعها للوصول الى تعادل مؤقت متكلفين فى ذلك الأموال الطائلة ، فان الأتراك كانوا يستطيعون العودة سنة بعد أخرى بقوات متزايدة القوة على الدوام (٢١) ٠ وعندما حل عام ١٣٩٢ كانت جميع الأراضى الصربية الأرثوذكسية ، فضـــلا عن هوم التابعـة للحكم البوسنى ، قد خضعت للسيادة التركية ٠

وبعد وفاة تفرتكو فى عام ١٣٩١ ، عانت البوسـنة لفترة طويلة من ضعف الحكام والارتباك السياسى ٠ وهناك وصف للبوسنه فى أثناء تلك المدة كتبه الفرنسى جيـــل لو برفييه (Gille le Bouvier) وجمع فيه آراء رحالة آخرين ، وهو يصور صورة متعسة للمكان : « انهم يعيشون على التهام الحيوانات الضارية وعلى التقاط السمك من الأنهار وعلى التين وعسل النحل الذى لديهم منه مقادير كافية ، وهذا هو كل طعامهم كمـــا انهم ينطلقون فى عصابات من غابة الى أخرى لقطع الطريق » (٢٢) ٠

لم تتمزق الدولة البوسنية بعد وفاة تفرتكو كمـــا حدث بعد وفاة ستيفن كوترومانيتش ، ولكن النبلاء من ذوى قواعد القوة الاقليمية أعادوا تمكين أنفسهم فى السلطان ، وأصبح سكان البوسنة تحت رحمة ألوان ونماذج مختلفة من المنافسات بين العائلات النبيلة المبرزة ٠ وأبـدى ملك المجر أيضا من جديد اهتماما بالشئون البوسنية ، وان حدث هزيمة ثقيلة على يد الجيش التركى فى ١٣٩٦ من قدرة المجـر على التدخل فى الشئون الداخلية للبوسنة لسنوات عديدة ٠ ومع ذلك فانه عندما أقصى النبلاء الملك البوسنى أوستويا من منصبه فى ١٤٠٤ وأحلوا محله ابنا غير شرعى للملك تفرتكو (تفرتكو الثانى) ، فانه عاد مع جيش مجرى وغزا جزءا من البلاد مرة أخرى ٠ وعلى مدى عشر سنوات ، وبدعم من المجر ، استطاع أوستويا أن يسترد حكمه وسعى لاصـــلاح العلاقات بين المجر وبين أقوى نبـــلاء البوسنة ، هرفوى (Hrvoje) . ٠

وفى عام ١٤١٤ دخل الى الساحة عامل آخر يتوازن القوى من الناحيتين السياسية والعسكرية : اذ أعلن الأتراك العثمانيون أن الملك تفرتكو الثانى المنفى من البلاد هو الملك الشرعى للبوسنة ، وأرسلوا قوة غزو كبيرة الى الأراضى البوسنية • وتبعوها بجيش جرار فى السنة التالية ، وأدى هذا الى تعديل فى تحالفات القوى : ففى أحد الجانبين الملك أوستويا ومعه جيش مجرى ، وفى الجانب الآخر كان الأتراك والنبيل البوسنى هرفوى • وسرعان ما هزم الجيش المجرى فى وسط البوسنة • ومع ان أوستويا عقد صفقة من نوع ما كان من شروطها أن يكون هو الملك وليس تفرتكو الثانى ، فقد أصبح واضحا أن الامبراطورية العثمانية منذ الآن فصاعدا سيكون لها من السلطان على الشئون البوسنية ما ينافس سلطان المجر (٢٣) • الأمر الذى اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين الى التعاون مع الأتراك ، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين ، ولاسيما الصربيون منهم ولكن طريقة هؤلاء الحكام فى ذلك الوقت لم تكن تختلف كثيرا عن تصرفات أمثالهم الذين التمسوا المعونة فى الماضى من المجر ، ولكن الفارق الرئيسى بين الاستعانة بالمجر والأتراك فى ظنهم كان أن الأتراك قوة أبعد ووجودهم مرهون باللحظة ولا يرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم المباشر عليهم كما كان سيفعل المجريون •

وظل أوستويا فى السلطة بضع سنوات قليلة ، وتمكن فعلا من توسيع رقعة الأراضى التى يحكمها • ولكن بعد وفاته فى ١٤١٨ ، واجه ابنه نفس المشاكل : التنافس مع العائلات النبيلة الأخرى والتدخل التركى • وما لبث أن طرد من الحكم فى ١٤٢٠ ، وفى هذه المرة أكد الدعم التركى اعادة تفرتكو الثانى ملكا على بلاد البوسنة • ونعمت البوسنة ببضع سنوات من الهدوء فى أوليات عشرينات القرن الخامس عشر ، ولكن ما لبث أن تغير شكل التحالفات مرة أخرى ، حيث لجأ تفرتكو الثانى الى المجر يستنصرها على الأتراك ، كما أنه اشترك أيضا فى حرب محلية مع القوات الصربية فى خلاف حول منطقة المناجم الغنية فى مقاطعة سربرينيكا (Srebrenica) فى شرق البوسنة • وفى أوليات الثلاثينيات من القرن الخامس عشر ، كان منافساه الأساسيان فى جنوب البوسنة ، وهما النبيل ساندالى (Sandalj) وابن الملك أوستويا المدعو راديفوى (Radivoi) ، يتلقيان المساعدة والتشجيع من كل من نبلاء الصرب والأتراك ، وأصبحت لهما السيادة على شطر كبير من البوسنة • وفيما بين ١٤٣٣ و ١٤٣٥ تعرضت أجزاء من جنوب ووسط البوسنة تضم منطقة فرهبوسنا (المحيطة بسراييفو الحديثة) ، للغزو أو أعيد فتحها

على يد الجيوش المجرية والتركية وساعد ستيفن فوكتشيتش (Stephen Vukchich) حاكم هوم القوى (وهو ابن أخ ساندالى) ، القوات التركية ، فتمكنت بذلك من رد المجريين على أعقابهم . وفى تلك المرحلة كان الأتراك أشد اهتماما بالغنائم والسلب منهم بضم الأراضى الى ملكهم . وقد افترض معظم المؤرخين أن منطقة فرهبوسنا ومعها قلعتها المهمة المحصنة هوديديد (Hodidjed) وقعت فى يد الأتراك ، بل وحسبوا كذلك أنها ظلت تحت الحكم التركى المباشر ، منذ ١٤٣٥ و ١٤٣٦ ، غير أن من الدلائل ما يشير الى أن ذلك لم يحدث قبل ١٤٤٨ (٢٤) .

وظل تفرتكو الثانى مستمتعا بسلطان الملك فى البوسنة حتى يوم وفاته فى ١٤٤٣ : على أن السنوات الأخيرة من حكمه تميزت بغارات تركية أخرى (بما فى ذلك سقوط سربرينيكا فى ١٤٤٠) ، النمو المستمر فى القوة والسلطان الذى أحرزه ستيفن فوكتشيتش حاكم هوم . وفى البداية رفض فوكتشيتش الاعتراف بخلف تفرتكو ، وهو ستيفن توماش (Stephen Tomas) ، فأعقبت ذلك عدة سنوات من الحرب الأهلية . على أنهما ما لبثا فى ١٤٤٦ أن توصلا الى اتفاق ، ولكن فوكتشيتش ظل يواصل مساندته لحاكم صربى هو جورج برانكوفيتش (George Brankovic) الذى راح ، بوصفه حاكما شبه مستقل مواليا للترك، يواصل الحرب على الملك البوسنى طلبا للسيادة على منطقة سربرينيكا فى شرق البوسنة . وزيادة فى وضعه الاستقلالى فان فوكتشيتش أعطى نفسه لقبا جديدا فى ١٤٤٨ : « دوق (Herceg)هرتسج هوم والساحل » . ثم ما لبث أن غير هذا الاسم الى « دوق سانت سافا » ، تبركا باسم القديس المدفون فى ميليشيفو فى منطقة نفوذه . وكلمة « دوق » (Herceg) هى الشكل الصربى للفظة الدوق الالمانية (Herzeg) ومن هذا اللقب أخذ اقليم «الهرسك»(Hercegovina) اسمه (٢٥) . وتمتع ستيفن فوكتشيتش ببضع سنوات قليلة أخرى من السلطان والرخاء ، ولكن فى أوائل خمسينيات القرن الخامس عشر اضطر الى الدخول فى حرب لم تقتصر فقط على اشتباكه مع راجوزا ، بل شملت أيضا حربا أهلية مع ابنه الأكبر . ولم يلبث هذا النزاع العائلى أن اشتعل مرة ثانية فى ١٤٦٢ ، عندما التمس الابن معونة الأتراك وشجعهم فى ادخال الهرسك بجانب البوسنة فيما يدبرون من خطط لهجوم ضخم فى ١٤٦٣ .

ولم تكن هناك مندوحة من أن يظلل التهديد التركى سماء السنوات الأخيرة من البوسنة المسيحية . فان الملك ستيفن توماش الذى بذل قصاراه فى الحصول على وعود بالتأييد من خارج بلاده ، اتجه فى

خمسينيات القرن الخامس عشر الى البابوية • وكانت روما قد شرعت تحس باهتمام متزايد بالبوسنة فى أثنــاء السنوات الأخـيرة خاصــة وان الفرنسيسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك فى ظل رئاسة جاكوب دى مارتشيا (Jacob de Marchia) ، أسقف البوسنة النشيط وذلك فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر • ولكن السلطات البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمسألة الهرطقة البوسنية ، وانهمر منها سيل من الوثائق فى أربعينات القرن الخامس عشر تتهم فيها الكنيسة البوسـنية بارتكاب أخطاء مذهبيــة قاتلة من بينها المانوية • وبذل الفرنسيسكان جهـودا مجددة فى خمسينات القـرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة : فان تقريرا كتبه قاصد رسولى فى البوسنة فى عام ١٤٥١ يذكر أنه « بمجرد أن وصل الاخوة الرهبان الى الأماكن التى يسكنها الهراطقة ، ذاب الهراطقة كالشمع اذا اقترب من النار » (٢٦) • ثم وافق الملك ستيفن توماش فى ١٤٥٩ ، على أن يتحول الى سياسة الاضطهاد المباشر • فاستدعى رجال الدين فى الكنيسة البوسنية المنشقة وخيرهم بين التحول الى الكاثوليكية ، أو النفى من البوسنة • وحسب مصدر بابوى فى تاريـخ تال ، قبل التحول ألفان منهم ولم يفر الا أربعون اتخذوا ملتجأ لهم فى الهرسك (٢٧) • وبذلك قصم ظهر الكنيسة البوسنية على يد ملك البوسنة نفسه ، وكان ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة البوسنية نفسها •

وعندما توفى ستيفن تـوماش فى ١٤٦١ وخلفـه على العرش ابنـه ستيفن توماشيفيتش (Stephen Tomasevic) ، كان واضــحا أن نهاية البوسنة على مرأى البصر • وكتب توماشيفيتش الى البابا رسالة فى ١٤٦١ يتنبأ بغزو تركى ضخم جارف وملتمسا المساعدة ، ثم عاد فكتب الى البندقية فى أوائل ١٤٦٣ محذرا من أن الأتراك يرسمون خطة احتلال كل البوسنة والهرسك فى ذلك الصيف ، وعند ذلك سيتحركون لتهديد أراضى البندقية فى دالماشيا (٢٨) • ولكن لم تصله المساعدة المنشودة • وتجمع جيش تركى عظيم تحت قيادة محمد الثانى فى ربيع عام ١٤٦٣ عند أدريانوبولو (أدرنة) ثم زحف على البوسـنة • وكانت أول قلعـة سقطت فى أيديهم (فى ٢٠ مايو) هى بوبوفاك ، المعقل الملكى القـديم ، عند ذلك فر الملك ستيفن توماشيفيتش شـمالا الى يايسه (Jajce) واعتصـم بقلعة كليوتش (Kljuc) ولما حاصره الأتراك هناك استسلم مقابل وعد بمنحه الأمان • وما لبثت أن ظهرت فيما بعد قصص عديدة ملفقة ، عن خيانته وما أعقب ذلك من اعدامه • ولكن لدينا رواية لشاهد عيان سجلها انكشارى تركى صربى المولد لا شك فى أن وصفه حقيقى وصـادق بشكل شديد : « عندما رأى خدام الملك الذين كانوا فى القلعة أن مولاهم قد أخذ أسيرا استسلموا هم

الآخـرون • واستولى السلطان على القلعة فأمر بقطع رأس الملك ورؤوس رفاقه واستولى على بلاده كلها وضمها الى ممتلكاته (٢٩) •

وعلى الرغم مما أصاب البوسنة من حروب أهلية وغزوات ، فانهـا أحرزت رغدا ورخاء حقيقيا أثناء الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى • وكان مفتاح ثروتها هو المعادن والمناجم : فهناك النحاس والفضة فى كريشيفو (Kresevo) وفوينيكا (Fojnica) ، والرصاص فى أولوفو (Olovo) والذهب والفضة والرصاص فى زفورنيك (Zvornik) وفوق كل شيء الفضة فى سربرينيكا • وهناك منجم للذهب من أيام الرومان عند كروبا (Krupa) (فى الشمال الشرقى من جورنى فاكوف Gorni Vakuf) ، ربمـا كان يستخدم فى أثناء العصور الوسطى أيضا • وفى أواخر القرن الثالث عشر وبواكير الرابع عشر وصل الى البوسنة أوائل المنقبين الألمان الوافدين من المجـر وترانسلفانيا والمعروفين باسـم الساكسون (الساسى Sasi) بدءوا فى استغلال ثرواتها المعدنية (٣٠) • وما لبث أن وفد المزيد من الساكسون فى القرن الرابع عشر ، عندما راح ستيفن كوترومانيتش والملك تفرتكو يشجعان عملية استغلال المناجم • وكانت المناجم ملكا خاصا لملاك الأراضى المحليين ، كما كان يديرها الساكسون الذين كان القانون يبيح لهم قطع الأشجار من الغابات وانشاء مستوطنات التعدين حينما وجد خام معدنى • وأصبح بعض هؤلاء الساكسون أفرادا ذوى أهميـة فى المجتمع : وهناك واحد منهم يكثر ورود اسـمه فى السـجلات هو هانز ساسينوفيتش (Hans Sasinovic) (أى ابن الساكسونى) منح حيـازة ضـخمة من الأرض منحة « دائمة » ، وأرسل عدة مرات الى راجوزا كممثل تفرتكو(٣١) • وكان الذهب يصدر الى الخارج منذ ١٣٣٩ • وكان الرصاص يشحن من البوسنة الى البندقية وصقلية ، ولا مفر من ان يكون الرصاص البوسنى قد استغل فى كساء أسطح كثير من الكنائس الايطالية من عصر النهضة والقرون الوسطى • كما كان هناك أيضـا استخلاص لمعدن النحاس • بيد أن المصدر الأكبر للثروة كان معدن الفضة ، كما أن سربرينيكا (ومعناها الفضة واسمها اللاتينى Argentaria) اصبحت أهـم المدن التعدينيـة والتجارية فى كل المنطقة الواقعة غرب صربيا • وعندما ظهرت لأول مرة فى السجلات فى ١٣٧٦ ، كانت قد أصبحت فعلا مركزا تجاريا ضخما يحوى مستعمرة راجوزية لها وزنها • واحتكر الراجوزيون تجارة الفضـة فى داخل البوسنة ، وكانت جميع صادرات المعادن عن طريق الساحل تذهب عبر راجوزا على أية حـال • وفى مقابـل ذلك كان الراجوزيون يجلبون البضائع المصنعة مثل المنسوجات العالية الجودة الى البوسنة ، لأنه عند حلول عام ١٤٢٢ كانت البوسـنة وصربيا مجتمعتين تنتجان أكثـر من

خمس انتاج أوربا بأجمعه من الفضة ، ولذا فقد كان هناك عدد كبير من البوسنيين الأثرياء القادرين على شراء مثل هذه السلع (٣٢) ٠

ولم تسيطر المستعمرات الراجوزية (ومعها الساكسون) فقط على المدن التعدينية المذكورة أعلاه ، بل وأيضا على مدن تجارية مهمة مثل فوتشا (Foca) ٠ وكانت هناك أيضا مستعمرة راجوزية في فيسوكو (Visoko) ، التي كانت أيضا عاصمة بانية البوسنة في معظم العصور الوسطى ٠ وطبيعي أن هذه المدن العظمى ، بما فيها من مجتمعات الساكسون الكاثوليك والراجوزيين وغيرهم من الدالماشيين ، كانت تجتذب الفرنسيسكان عندما بدءوا ينشئون الأديرة الكاثوليكية في البوسنة : وبهذا اشتد في تلك المدن الطابع الكاثوليكي ٠ وكان من بين المدن التجارية القروسطية الأخرى الواقعة على طرق التجارة يايسه وترافنيك (Travnik) وجورازدة (Gorazde) وليفنو (Livno) ٠ وبالاضافة الى هذه المراكز التجارية الكبرى كان هناك كثير من المدن المحصنة الصغيرة (وعدتها ٣٥٠ بلدة تقريبا بكل أرجاء البوسنة القروسطية) (٣٣) ٠ وتضم هذه المجموعة فرهبوسنا ، التي لم تكن في أخريات العصور الوسطى لتزيد كثيرا على قلعة تقوم الى جوار قرية ، والتي لم تلبث أن أصبحت مدينة سراييفو على يد الأتراك بعد ١٤٤٨ ٠

فأما في الريف ، فان غالبية السكان كانوا من أقنان الأرض (Kmets) الذين كانوا يجندون للخدمات العسكرية والزراعية لسادتهم ويدفعون ضريبة العشر الى الملك (ولو نظريا على الأقل) (٣٤) ٠ وكان هناك أيضا أرقاء ، هم في الغالب أسرى حرب ، وكان بعضهم يشترى أو يباع في سوق الرقيق الكبير في راجوزا ، وكان كثير من البوسنيين يباعون هناك أيضا كأرقاء ويصدرون الى البندقية وفلورنسا وجنوة وصقلية وجنوب فرنسا وقطالونيا (٣٥) ٠ فأما هناك في المرتفعات في الجبال البوسنية فكان الرعاة ، وبعضهم من الأفلاق (انظر الفصل السادس) ، الذين كان النظام الاقطاعي يمتصهم بسرعة وسهولة أقل ٠ وكان التفريق بين الناس العاديين والنبلاء هو التقسيم الأساسي في المجتمع البوسني ، على أنه كانت هناك فوارق أخرى بين طبقة النبلاء العليا والدنيا ، بالرغم من أنها لم تأخذ الصبغة الرسمية التي أخذتها في النظام الأوربي الغربي القائم على الترتيب الوراثي ٠ وبالرغم من أن القوة الحقيقية كانت تعتمد بطبيعة الحال على امتلاك الأرض ، فان المركز كان أكثر اعتمادا على الوظيفة : فالذين يملكون المناصب العليا في الدولة كانوا يسمون فيوموجه Veomoze أي « الأعيان » ، فأما أصحاب المناصب الأقل فكانوا يسمون كنتس Knez ،

وهو لقب يعادل لقب بارون • وبينما كان اللقب السلافى القديم للحاكم الاقليمى ، وهو الجوبان ، ظل قائمـا ، فان منزلته كانت تقع فى موقع ما بين هاتين المنزلتين (٣٦) • وكان كبار النبلاء يملكون كمـا رأينـا سلطة سياسية عظمى ، وكانوا يستطيعون أن يولوا أو يعزلوا البانات والملوك • وعند نهاية القرون الوسطى أى منذ تسعينيات القرن الرابع عشر وحتى عشرينيات القرن الخامس عشر كانوا يعقدون « مجالس الدولة » ، بطريقة رسمية أو غير رسمية ، للتناقش فى مسائل تـوارث العرش وغيره من الشئون ثقيلة الوزن الخاصة بالسياسة الداخلية والخارجية (٣٧) •

وكان لبعض النبلاء الأعظم شأنا بلاط على نفس مستوى بلاط الملك نفســـه ، وعلى هؤلاء كان يفـــد ، من راجوزا أو ما وراءهـا ، الزمار والعوادون ونافخو الأبواق والحواة « والمهرجون » وغيرهم من أهل الطرب والسمر ، وكانوا يتقاضون مكافآت باهظة (٣٨) • وكانت للبلاطات الملكية أيضا مستشارياتها الجيدة التنظيم والتى كانت عدتها غالبا ، بعد أربعينيات القرن الرابع عشر ، من الفرنسيسكان ، وكانت الوثائق تكتب اما باللغة السلافيـة أو اللاتينية ، وتم تطوير أشكال خاصة من الخطوط البوسنية المنوعة التى تختلف عن السيريلكية (Cyrillic) والتى عرفت باســـم بوسانتشيكا (Bosancica) (٣٩) • رجاء الفنانون وأرباب الحرف أيضا من راجوزا والبندقية للعمل فى البوسنة ، ومن أسف أنه لم يبق مما قدمت أيديهم من أعمال فنية الا القليل ، ولكننا نجد أعمال حفر ذات جودة طيبة فى جذاذات التماثيل التى بقيت الى الآن بقصر الملك تفرتكو فى بوبوفاك ، فضلا عن تاج عمود منقوش عليه الرمز الملكى البوســـنى ، وهو زهـرة الزنبق (٤٠) • والبوسنة لم تكن بالطبع مركزا مهما من مراكز الثقـافة الأوربية فى العصور الوسطى • ومع هذا فلا ينبغى لنا المغالاة فى تصوير عزلتها الاقليمية • فان العائلات النبيلة الحاكمة كانت على اتصال وثيق بدائرة أرحب من الأسر النبيلة بوســـط أوروبا : وكان البلاط الملكى البوسنى القروسطى يضـم أميرات من المجر وبروسـيا وبلغاريا وبولنـدا وصربيا وايطاليا واليونان (٤١) • ولئن كانت البوسنة أرضـــا متخلفة بقياس المعايير الأوربية الغربية ، ولكنها بحر تفيض فيه فعلا بعض التيارات الأوربية الثقافية •

الفصل الثالث

الكنيسة البوسنية

ليس هناك موضوع فى تاريخ البوسنة دار حوله نقاش وجدل أكثر من مسأله الكنيسة البوسنية الانشقاقية فى العصور الوسطى (١) • ومن المحال علينا أن نناقش ذلك الموضوع دون أن نمس أيضا الأساطير والمذهبيات العصرية التى خدمتها أو فندتها • وعندى أن الهرطقة القروسطية شأنها شأن تاريخ ثورات الفلاحين تقريبا ، انما هى موضوع يثير قدرا من التعاطف الرومانسى اللاشعورى لدى المؤرخين : فان الهراطقة كثيرا جدا ما يبدون أكثر شجاعة وأكثر أصالة وأكثر اثارة للتشويق والاهتمام من المؤمنين التقليديين • ولكن كنيسة قومية هرطيقية (أو يدعى بأنها هرطيقية) انما تثير احساسا أخص بالتعاطف حيث يرى كثير من مؤرخى البوسنة أن هذه الظاهرة البوسنية العجيبة الخاصة انما هى صميم القومية البوسنية • فلا عجب اذن اذا رأينا بين حين وآخر ، كتابا يعالجون ذلك الموضوع لايلتزمون التزاما صارما بالدقة العلمية •

من المؤكد أن المؤسس لجميع الدراسات العصرية للكنيسة البوسنية كان رجلا علامة : وهو فرانيو راتشكى (Franjo Racki) ، وهو أهم المؤرخين الكرواتيين فى القرن التاسع عشر • فانه جمع فى مجموعة من المقالات التى نشرت تباعا فى ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ كل ما أمكنه الوصول اليه من بينات وشواهد ، وحاول أن يثبت أن الكنيسة البوسنية كانت نبتة البوجوميلية (٢) • والبوجوميلية كانت حركة بلغارية هرطيقية أسسها فى القرن العاشر قسيس يدعى « بوجيوميل » (حبيب الله) ثم انتشرت فى القرون التالية فى القسطنطينية وبقية مناطق البلقان ، بما فى ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا • وهى تبشر بلاهوت مانوى « ثنائى » يكاد يكون فيه للشيطان قوة تكافىء قوة الله أو تكاد . وفيها أن العالم المرئى انما هو من خلق الشيطان وأنه ليس فى امكان البشر أن يخلصوا أنفسهم من براثن العالم المادى الا باتباع حياة تزهد وتقشف متخلين عن اللحم والنبيذ

والاتصـــال الجنسى . والمطابقـــة بين المادة ومملكة الشيطان لها مضامين أو معان لاهوتية بعيدة المدى : مثل اعتبار تجسد المسيح نوعا من الوهم والخيـــال ، وأنه من ثم لم يكن فى الامكان حـدوث موته على الصليب ، وكان لابد لمراسم متنوعة كثيرة تنطوى على مواد مادية مثل التعميد بالماء أن تنبذ ، وأن الصليب نفسه أصبح رمزا مروجا لاعتقاد زائف . وكان مرفوضا أيضا ، اسـتخدام مبانى الكنيســـة ، كما مقت بالفعل الهيكل التنظيمى للكنيسة التقليدية خاصة أديرته الثرية . وصنف أتباعها فى مرتبتين : المؤمنون العاديون و«النخبة المطهرة »(٣) . وقد نمت بنيه مشابهة بين الكاثار (Cathars) بجنوب فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الذين تأثـر مذهبهـــم الهرطيقى تأثـرا شـــديدا بالنعاليم البوجوميلية (٤) . وقد دفع راتشكى بأن ذلك التقسيم نفسه قد حدث بالبوسنة ، وأن المصطلحات الغامضة « جوست » (Gost) و « ستاراك » (Starac) و « ستروينيــك » (Strojnik) التى تنتشر فى الوثـائق البوسنية كألقاب للأعضاء الرئاسيين فى الكنيسة البوسنية ، انما كانت مصطلحات خاصة تطلق على العارفين بأسرارها وهم « النخبة » أو «الكاملون» فى التقليد البوجوميلى المأثور .

وكان لهذا التأويل أثر عميق على الطريقة التى فكر بها المؤرخون البوسنيون وغيرهم من السلاف الجنوبيين حول تاريخ البوسنة . ولم يكن راتشكى أول كاتب ربط بين الكنيسة البوسنية والبوجوميل ، وكان هناك بطبيعة الحال كتاب كاثوليك أقدم عهدا راحوا ، اتباعا لمصادر القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، يصفونهـــا بأنها تتبع هرطقة ثنائيـة أو « مانوية » (٥) . ولكن راتشكى أنتج صورة أوفى كثيرا وأشد تكاملا وتماسكا للكنيسة البوسنية بوصفها هيئة متميزة تميزا تاما عن كنائس كرواتيا وصربيا ولها مبادئها الخاصة فى التنظيم واللاهوت ، وذلك بفضل جهوده الشاقة المتأنية فى محفوظات دبروفنيك والبندقية وطريقته الخاصة فى استخدام المعلومات المعروفة حول المعتقدات والممارســات البوجوميلية غير البوسنية لملء الفجوات الخالية فى البينات والشواهد البوسنية . والتفسير الوحيد المنافس لهذا فى ذلك الزمن وهو تأويل بوجيـــدار بترانوفيتش (Bojidar Petranovic) الذى دفع بأن الكنيسة البوسنية كانت مجرد كنيسة أرتوذكسية شرقية . ولعلها صربية انفصلت عما عداها واحتازت بعض المعتقدات الهرطيقيــة (٦) . وظلت هذه النظرية مقبولة تماما لدى الكتاب الصربيين الذين كانوا حريصين تماما على اظهار البوسنة على أنها تابعة لصربيا فى جميع جوانبها الجوهرية ، وظلت هذه النظرية تردد فى النصف الأول من هذا القرن ، ثم فقدت تأييد العلمـــاء ، على

الأقل (٧) ، خارج صربيا ولكنها لم تنبذ نهائيا ، كما أنهـا فى السنوات الخمسين الأخيرة لقيت تأييدا قويا من بعض كبـار العلمـاء فى البوسنة مثل ألكسندر سولوفييف (Aleksandr Solovjev) ودراجوتين كنيوالد (Dragutin Kniewelu) (٨) • أما النظرية الرئيسيه الاخرى المنافسة التى نمت مؤيدة ومساندة فى فترة ما بعد الحرب ، فتدفع بان الكنيسة البوسنية كانت فى جوهرها فرعا من الكنيسة الكاثوليكية ، ولعلها كانت هيئة ديرية حل بها الانشقاق واكتسبت بعض الميول الهرطيقية ، وهذه النظرية ولا عجب ، انتشرت بوجه خاص بين الكتاب الكاثوليك (٩) • على أن أشد الايضاحات اقناعا ، كما سنرى ، يحتوى على عناصر مهمة من كل من النظريتين الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية • أما النظرية التى راجت لمدة تتجاوز القرن وهى اكتشاف راتشكى أن الكنيسـة البوسنية كانت بوجوميلية ، فقد تبين أنها محض أمانى •

وقد لقيت نظرية فرانيو راتشكى البوجوميلية هذا الانتشار الشديد لعدة أسباب • فهى لم تقتصر فقط على توضـيح ملامح غامضـة للكنيسة البوسنية ، بل انها تقدم أيضا مفتاحا يوضح اثنين من تلك الأسرار الكبيرة الأخرى فى التاريخ البوسنوى • أحدهما هو اعتناق شطر عظيم من سكان البوسنة دين الاسلام فى عهد الترك ـ بنسبة أعظم كثيرا منها فى أى قطر بلقانى آخر عدا البانيا • ويبدو طبيعيا أن نفسر ذلك بأنه اعتناق جماعى لدين آخر قام به البوجوميـل ، الذين انتهوا الى اعتناق الاسلام بعد أن صمدوا قرونا متوالية تلقاء منافسات و/ أو اضطهادات صادرة من الكنائس الكاثوليكية والأورثوذكسـية • وبهذه الطريقـة أصبحت النظـرية « البوجوميلية » بصـورة جوهرية ، جذابة بوجـه خاص لأبنـاء القرن العشرين من مسلمى البوسـنة • فبدلا من اعتبـارهم مجرد مرتدين من الكاثوليكية أو الأورثوذكسية (الأمر الذى حدث فى أوقات مختلفة أن دعاهم الكروات والصربيون أن « يعودوا عنه ») ، فانهم يمكنهم الآن أن يعدوا أحفادا لأتباع كنيسة بوسنية أصيلة الجذور لها عقيدتها الخاصة ، وأن تحولهم الى الاسلام لا يمكن أن يعد دليلا على الضعف ، بل هو ذروة التحدى لمضطهديهم المسيحيين • ومع ذلك فمن سوء الحظ أن المحافل العلمية الحديثة نسفت تماما دعوى أن اعتناق البوسنة للاسلام كان فى جوهره تحولا شاملا لأتباع الكنيسة البوسنية الى الاسلام • ولا شك فى أن بعض أعضاء هذه الكنيسة قد جنحوا حقا الى اعتناق الاسلام بسبب اغترابهم عن التيار الرئيسى للكنائس الكاثوليكية أو الأرثوذكسية ، وهذا أمر يبدو ممكنا من الناحية السيكولوجية ولكن تعوزه البينة • والشىء المفهوم اليوم هو أن هناك عوامل تدخلت فى انتشار الاسلام بالبوسنة ، وأنه اذا كان

الموقف الخاص للكنيسة البوسنية كان عاملا منها ، فانه لم يكن أبدا أهمها (١٠) ٠

واللغز الكبير الثانى الذى يبدو أن نظرية « البوجوميلية » قد حلته ، هو سر شواهد القبور فى العصور الوسطى ، التى توجد بأرجاء كثيرة من البوسنة وهى تعرف باسم ستنشى (Stecci) وهى جمع كلمة (Stecak) وتوجد على هيئتين : النصب وهى هيئة أو شكل شائع فى أجزاء كثيرة من أوروبا ، والكتل القائمة التى تختص بها الى حد ما المنطقة البوسنية ٠ وقد سجلت منها فى سجلات المساحة الحديثة أكثر من ثمانية وخمسين ألفا ، ومن هذه ستة آلاف تقريبا مزينة بالنقوش المحفورة والتى تكون أحيانا شخوصا بشرية ٠أما المزخرفة منها ، وأكثرها يمكن ارجاع تاريخه الى القرن الرابع عشر أو القرن الخامس عشر ، فتوجد بوجه خاص فى بلاد الهرسك وجنوب البوسنة والأجزاء المجاورة بدالماشيا ، وان وجد بعضها بمناطق أخرى بعيدة أى بكرواتيا وصربيا والجبل الأسود (١١) ٠ ولما كانت هذه المنطقة هى محور المنطقة المعروفة بأنها كانت مجال أنشطة الكنيسة البوسنية ، كان من الطبيعى الربط بين الظاهرتين ، كما أن هناك بعض الشواهد المزخرفة والمنقوشة تذكر فعلا أنها نصب « للجوستى » Gosti (وهو لقب كبار أعضاء الكنيسة البوسنية) ٠ ومن ثم بدأ المؤرخون يفسرون التصميمات علىشواهد القبور المزخرفة على أنها تعبير عن المعتقدات اللاهوتية البوجوميلية ٠ وكانت أولى المحاولات فى هذا الاتجاه هى التى قام بها الكاتب المجرى يانوس آسبوث (Janos Asboth) فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، وفى العقود الوسطى من هذا القرن استأنف العلماء تفسيرات شواهد القبور البوجوميلية فى دراسات متعاقبة قام بها ألكسندر سولوفييف (١٢) ٠

وللمرة الثانية عادت الأوساط العلمية والمنطق البسيط فأثارا مجموعة كبيرة من الاعتراضات على النظرة « البوجوميلية » ٠ فمع التسليم بأن بعض أعضاء الكنيسة البوسنية خلدت ذكراهم على شواهد القبور لكن الفكرة القائلة بأن ظاهرة شواهد القبور هذه كانت تعبيرا لمعتقدات تلك الكنيسة أصبحت موضعا للشك المتزايد ٠ ونحن نعلم أنه فى أخريات القرن الرابع عشر وأوليات القرن الخامس عشر عندما صنعت كثير من هذه الأحجار ، كان قسم كبير من سكان البوسنة الحقة من الكاثوليك وكان قسم يعتد به من سكان الهرسك من الأرثوذكس ٠ وكانت شواهد القبور فى جميع الأراضى الكاثوليكية والأرثوذكسية عادة منتشرة ، على الأقل بين الأغنياء ، فاذا ما قرنا شواهد القبور بالبوجوميلية فكأنما نحل لغزا بلغز

آخر ـ ونعنى بذلك عدم وجود شوهد قبور كاثوليكية أو أورثوذكسية(١٣) • ومن ناحية أخرى فاذا كانت شواهد القبور شيئا مميزا يخص البوجوميلية، فان من الغريب حقا ألا تكون هناك دلائـل على صنع البوجوميليين لهـا فى بلغاريا أو تراقيا أو المواطن الأخـرى المشهود لها بشدة بأنها مناطق نشاط البوجوميل (١٤) • ولا شك فى أن اصرار بعض الكتاب على التوحيد بين هويتى هذه الظاهرة والبوجوميلية قد أدى الى التـواءات عجيبة فى المناقشة • فان وجود الصلبان (وهى رمز مكروه من البوجوميليين) على شواهد القبور ظل على الدوام عائقا يقف حجر عثرة فى سبيل النظرية ، ولكن يانوس أسبوث أعطى أصحاب النظرية الوسيلة للدوران حول هذا الاعتراض عنـدما أصر بأنهـــا ليست صلبانا حقيقية بالمعنى المسيحى المعروف ، وانما هى مجرد « نماذج » تماثل النماذج الهندسية المرسومة فى الفن المصرى الفرعونى أو البابلى (١٥) •

وما لبثت نظرية شواهد القبور البوجوميلية أن تقوضت بالتدريج ونبذت • فمعظم العلمـــــاء أصبحوا الآن يعتقدون أن الموتيفات على هذه الأحجار لا تنتسب كلها الى لغة مذهبية تصويرية واحدة • فربما يعكس بعضها شيئا من البقايا الموروثة من الأساطير والشعائر الوثنية البائدة ، وربما حمل البعض الآخـــر شـعارات النبالة التى تعبر عن مركز النبلاء السلاف المحليين ، وربما خلدت بعض هذه الشواهد أنشـــطة قام بهـا أصحابها على شاكلة صور الخيالة على قبور الأفلاق المبرزين بالهرسك الذين جمعوا الثروات وأصبحوا أغنيـاء نتيجة عملهم فى تسيير القوافل وتجارة الخيول (١٦) • وبطبيعة الحال ، فربمـــا كان الغـرض من بعض هذه الزخارف والزينات على هذه الأحجـار انما هو مجرد الزخرفة وحسب ، وان كانت هذه النقطة آخر الاحتمالات التى يجـوز للمؤرخين أخذها فى الاعتبار •

على أن اخفاق نظرية البوجوميليــة فى تفسير التحول الى الاســلام أو صنع شواهد القبور لاينقض النظرية نفسها • ولكنه يحمل المؤرخين على النظر نظرة أعمق الى البينات الكتابية التى تتعلق بالكنيســة البوسـنية نفسها بدلا من أن يشطحوا بأفكارهم فى تفسير الأشكال المصورة أو تأمل الفترات السابقة • وهنا لب المشكلة ، فمعظم هذه الأدلة الوثائقية تأتى من خارج البوسنة نفسها • ففى العـادة لم تكن السـجلات البابوية تحتفظ الا بردود البابا على الرسائل التى بعث بهـــا الكاثوليك فى دالماشـــيا والبوســنة ، كمـا أن بعض الوثائق البابوية الحافلة باللعنـات والتنديد « بالهرطقات » البوسنية دبجهـا قوم لم يطأوا بأقدامهم أرض البوسنة ، كما أن هناك مستندات أعدها الرهبان الفرنسيسكان فى ايطاليا أو وجهت

لهــم كانت دراية كاتبيها بالأمور الحقيقية فى البوســنة غـير مؤكدة بالمثل (١٧) • ومن سوء الحظ أنه ليس هناك وصف صحيح ، ورد من داخل البوسنة عن تنظيم الكنيسة البوسنية أو احتفالاتها أو لاهوتها •

وحتى الأسماء المستخدمة فى الوثائق المبكرة كانت مصدرا للمجادلات والمنازعات والربكات الحيرة • والحقيقة الوحيدة التى أصبحت واضحة تماما ، هى أن الكنيسة البوسنية لم توصف بأنها « بوجوميلية » قط أثناء ذلك الزمان • فليس هناك على الاطلاق مصادر كاثوليكية أطلقت ذلك المصطلح على البوسنيين ، والمصدر القروسطى الوحيد الذى يشير اشارة واضحة الى البوجوميليين فى البوسنة مصدر زائف زيفا مؤكدا أقرب الى اليقين (١٨) • ومن الناحيه الاخــرى ، فعندما صبت مستندات صربية أرثوذكسية من أخريات القرن الرابــع عشر لعناتهـا على البوســنيين الهراطقة ، فانها لعنت أيضـا « البابيونى » Babuny (وهو مصطلح معروف أنه كان يطلق على البرجوميليين ببلاد الصرب) ، وأظهرت بوضوح أنهما جماعتان منفصلتان (١٩) • كمــا أن مؤلفى القــرن الرابـع عشر الكاثوليك أشــاروا فى بعض الأحيان الى المانويين ببلاد البوسنة • على أن ذلك المصطلح يبدو أنه حيلة اسـتخدمها أرباب الأقــلام ذوو النزعة التاريخيه الذين كانوا يميلون الى تزيين أعمالهم الأدبيــة بالمصطلحـات المستخدمة فى التاريخ المسيحى المبكر (٢٠) •

والكلمة شائعة الاستخدام فى المصادر الراجوزية وبعض الوثائق الايطالية أيضا ــ ولكن ليس أبدا بالبوسنة نفسها ــ هى كلمة « باتارينى Patareni أو Patarini (او باللغــة الانجليزية Patarins (٢١) • وهذا المصطلح أيضا له تاريخ محير الى حد ما • اذ أنه بعد أن اســتعمل لأول مرة فى مدينة ميلانو فى القرن الحادى عشر فى وصف حركة اصلاحية شديدة التطهرية فى الكنيسة الكاثوليكية ، اصبح يطلق فى ذلك القرن على اصحاب الدعاوى الفكرية والدينيــة المنــاوئة للكنيســة الرسـميه ، بما فى ذلك الهرطقة • واذا هى فى أخريات القرن الثانى عشر تســتخدم مرادفا حقيقيـــا للهرطقات التى كانت تستهدف نــوعا اعلى من التطهر أو التنوير الروحى ، مثل حركات الفالدانيين والكاثار ، ثم فى القــرن الثالث عشر أصبحت لفظة باتارين هى الكلمة المعتادة التى تطلق على الكاثار بشمال ايطاليا • ولكن معنى هذه الكلمــة لم يعرف بوضـوح أبدا فى المصطلحات اللاهوتية (٢٢) • وقد ظهرت أولا مرتبطة بالبوسنة فى خطاب أرسله كبير أساقفة سبليت الى البابا فى عام ١٢٠٠ : فقد قال انه عندما طرد الهراطقة الباتارين من سبليت ومن المدينة الساحليه القريبة تروجير

(Trogir) ، وجدوا ملتجأ لهم بالبوسنة حيث رحب بهم بان كولين(٢٣)٠ ويقول مصدر آخر (وهو مدونة تاريخيـة كتبت فى سبيلت فى منتصف القرن الثالث عشر) ان أخوين من زادار (وهى مدينـة ساحلية أخرى) زارا البوسنة فى صورة فنانين وصائغين للذهب فى تسعينيات القرن الثانى عشر ، كانا يعلمان الناس الهرطقة حيثما ذهبا ، وبعد أن وقع كبير الأساقفة عليهما العقوبة رجعا عن مذهبهما وعادا للكاثوليكية (٢٤) ٠ وهناك بعض اشارات من مصادر كاثوليكية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تشير الى وجود مركز للهرطقة الثنائية فى سكلافونيا (Sclavonia) ، وينطبق المصطلح على أى أرض من الأراضى السلافية الجنوبية ، ولكن هناك أسبابا تدعونا الى الظن بأن الهرطقة كانت قاعدتهـا فى مكان ما على الســاحل الدالماشى (٢٥) ٠ ومع ذلك فان من الممكن تماما أن احدى أو كلتا هاتين القصتين المذكورتين عن الهرطقة كانت مرتبطـة بالحركة الثنائية ، وأنه كان هناك شىء من الاتصال الثنائى مع البوسنة أثنـــاء أخريات القرن الثانى عشر ٠

فأما المصطلح الذى كان يستخدمه البوسنيون أنفســهم فلم يكن « باتارين » ولكن ببســاطة كان كلمة « مسيحى » : باللغـــة اللاتينيه « Christianus » وباللغـة الصربوكرواتيـة « Krstjanin » ٠ وسرعان ما برز الى النور هذا المصطلح فى أول وثيقة خرجت من البوسنة نفسها ٠ وفى أعقاب شكايات أخرى حول الهرطقات فى البوسنة (منها ما هو يحتمل أنه مصطنع كما رأينا فى الفصل الثانى استفزته المنافسات السياسية) ، أرسل البابا مندوبا رسوبيا الى البوسنة فى ١٢٠٣ ٠ وكانت مهمته تنحصر فى أن يكتشف ، كمـا أصر بان كولين ، اذا ما كان النـاس فى اقليمه « ليسوا هراطقة وانما هم كاثوليك » ٠ وكانت النتيجة هى عقد اجتماع بين رجال الاكليروس البوسنيين بمدينة بولينو بوليـه فى أبريل من تلك السنة ، وفيه سطروا تصريحا يعدون فيه بتصحيح سلوكهم ٠ وتعهدوا بالاعتراف بسيادة روما الكاملة ، ويقبول القسس الكاثوليك فى أديرتهم ، وارجاع الهياكل والصلبان الى أماكن العبادة ، والعودة الى نظام الاعتراف والتوبة ، واتباع التقويم الرومانى للأعياد والصـــوم ، وتلقى التنـاول سبع مرات على الأقل فى السنة ، وأن يفرقوا بين الجنسين فى الأديرة ، وأن يمتنعوا تماما عن ايواء الهراطقة ٠ ووعدوا أيضا بألا يطلقوا على أنفسهم وحدهم اسـم المسيحيين ، وانمـا أن يشيروا الى أنفسهم بأنهـم « اخوة » (Fratres) بدلا من ذلك (٢٦) ٠

وأعجب ما فى هذا التصريح دون شك أنه ليس نبذا للهرطقـات ٠ فلئن كانت بعض فقراته تدل على السلوك الهرطيق ، مثـــل عدم وجود

الهياكل والصلبان ، ولكن ذلك ربما دل على الجهل وعدم الكفاية أو الاهمال من ناحيتهم فقط • والاشارة الخاصة الوحيدة الى الهرطقة هي الوعد بعدم ايواء الهراطقة ، وهو أمر قد يشير الى أن رجال الاكليروس البوسنيين أولئك أنفسهم لم يكونوا يعتبرون هراطقة عند المندوب الرسولى • وبالنظر الى الاشارة الواردة هنا الى الإستخدام الخاص لكلمة «المسيحيين Christianus » وبالنظر الى استخدام مصطلح « المسيحيين .. Krstjanin » أثناء القرون (يوم كانت الكنيسة البوسنية تعد بكل تأكيد هرطيقية عند روما) فقد أغرى هذا الكثير من المؤرخين على محاولة استقراء تاريخ البوجوميل في سطورها وكذلك تاريخ الهيكل التنظيمي لأتباع الكنيسة البوسنية في أوج انشقاقها • ولكن هذا المنهج لن يصل بالمؤرخ الا الى استنتاج ما يظن أنه يعرفه بالفعل • أما خير وسيلة لحل مشكلة الكنيسة البوسنية فهي الاقتراب منها من الاتجاه المقابل المضاد : فأولا يجب البدء بالنظر في مصطلح المسيحي وما الذى كان يعنيه فعلا في ذلك الزمان ، ثم البحث عن الدلالات التى يمكن تفنيدها في تاريخه التالى المتأخر •

وكما لاحظ كثير من الكتاب ، فان الهيكل الأساسي للكنيسة التى التقت في بولينو بوليه كانت ديرية • فالزعماء الذين اجتمعوا هناك وصفوا بأنهم « الأئمة » الذين جاءوا الى هناك ليمثلوا « اخوانهم » الرهبان كما وعدوا بأن يسموا أنفسهم « اخوانا » في المستقبل • وبعض وعودهم كان متصلا بخاصة بممارسات تجرى في الأديرة • ولكن أى نوع من الأديرة كانت تلك ؟ لقد كانت القاعدة الأساسية الديرية في المسيحية الغربية هي قاعدة القديس بنديكت ، وافترض بعض العلماء (وبخاصة الكاثوليك منهم) أن هؤلاء الرهبان البوسنيين كانوا نوعا فجا من البنديكت ، ولكن ليس هناك بعد ذلك أية علامة أو اشارة تدل على قيام النشاط البنديكتيني في أرض البوسنة (٢٧) • واكتشف حل تلك المعضلة مؤرخ عصرى هو مايا ميليتتش (Maja Miletich) ، الذى أدرك أن المزج بين الجنسين المشار اليه في التصريح كان بقية باقية للممارسة المسيحية المبكرة المسماة « بالأديرة المزدوجة » ، التى كانت مباحة تحت قاعدة القديس بازيل مؤسس التقاليد الديرية في المسيحية الشرقية • (وليس هذا الاعلان هو البينة الوحيدة على تلك الممارسة : فان بعض الكتابات القديمة بدءا بكتابات البابا بيوس الثانى في القرن الخامس عشر تذكر أيضا أديرة بعيدة بأرض البوسنة تعيش فيها أيضا النساء اللاتى كن يتولين خدمة الرجال المقدسين) (٢٨) • وكان هذا النوع من الأديرة موجودا في الكنيسة الكلتية المبكرة ، وكان أعضاؤها غالبا ما يسمون بالمسيحيين (Christiani) وكان من الجائز أن تنضم اليها

عائلات بأكملها ، هو أمر أدى الى شيء من الضعف في التمييز بين الحياتين الديرية والدنيوية • (ووعد الموقعون على اعلان بولينو بوليه أيضا بارتداء ثوب ديرى مناسب ليميزوا أنفسهم عن الرجال العاديين) • وكثيرا ما كانت هذه الأديرة تقوم بدور في المجتمع الدنيوي حيث كانت تنهض بدور النزل أو المشفى (Hospitia) — أي فنادق للمسافرين أو مشافي للمرضى • (وكذلك أيضا ضم الاعلان وعدا بانشاء جبانات مناسبة للزوار الذين يموتون في الدير) • وكان للنزل (Hospitium) حافظ يدعى الهوسبيتالى (*) (Hospitalarium) أو بعبارة أبسط هو المضيف (Hospes) وهي الأساس لكلمة مضيف الافرنجية الحديثة (Host) • وهذا هو المعنى الحرفي للقب جوست (Gost) ، الذي نجده فيما بعد وكثيرا ما يستخدمه كبار أعضاء الكنيسة البوسنية (٢٩) •

وموجز القول ان كثيرا مما كان يحيرنا في شأن الكنيسة البوسنية في أثناء تاريخها التالى قد انكشفت خفاياه • فكما تدل عدة مراجع متأخرة كان المعنى الأساسي لكلمة « المسيحى » (Krstjanin) وهذا هو المعنى ففي منتصف القرن الخامس عشر مثلا أشار الدوق ستيفن فيوكتشيتش الى عضو شهير في الكنيسة البوسنية وهو جوست رادين بأنه أحد « رهبانه » (٣٠) • وببساطة تامة ، ليس من الضرورى أن نقيم بنيان الكنيسة كما حاول راتشكى أن يفعل على أساس هرم كنسى بوجوميلى أو كاثارى قسرى • والألقاب الخاصة التى بقيت الى اليوم في صفحات السجلات تتناسب على أكمل وجه مع البنية الديرية • وكان رأس الكنيسة كلها معروفا باسم الديد (Djed) ومعناها الحرفى هو « الجد » وكانت نونوس (Nonnus) وهى الكلمة اللاتينية ذات المعنى نفسه تستخدم فى كل من نظامى الديرية الغربى والشرقى فى الاشارة الى الاخوة أو الكبار أو الرهبان الرؤساء (٣١) • فأما اللقبان الآخران المستخدمان فى السجل فيشيران الى أعضاء رئاسيين أو موظفين فى الدير وهما Starac (« شيخ ») وستروينيك Strojnik (« أى المشرف Steward ») • ولم يكن أى لقب من هذه الألقاب ومعها مصطلح « جوست » يمنع حامله من أن يأخذ لقبا آخر منها فان سجلات الارساليات الدينية الى راجوزا فى القرن الخامس عشر تضم اشارات الى اثنى عشر مشرفا ، بما فيهم جوست رادين « والى مشرفينا » ستاراتس ميشلين (Misljen) وستاراتس بيلكو « Bilko » (٣٢) •

(*) قارن فرقة الهوسبيتاليين فى الحروب الصليبية — (المترجم) •

ومصطلح ستروينيك أى المشرف يحمل معنى قويا لذلك المشرف الذى يباشر الضيوف ، ومرة أخرى فان هذا ربما كان تذكيرا بالدور الاجتماعى للمنزل أو المشفى الديرى • بل اننا نجد تلميحا لهذا فى النقش الموجود على قبر بوسنى يقول : هنا يرقد الرجل الصالح جوست ميشلين الذى أعد له ابراهام (أو النبى ابراهيم) للترحيب به ، العدة (٣٣) • وربما تكون الاشارة الى النبى ابراهيم الماعا لفقرتين فى العهـــد الجديد من الكتاب المقدس تدلان على أن الرجل الصالح بعد الموت سوف يجلس فى ضيافة سيدنا ابراهيم فى الجنة (٣٤) • كما أن الاشارة الى « القاعدة » تدل على أن كرم الضيافة كان يعـد واجبـا ضروريا للكنيســة الديرية البوسنية • فأما استمرار قيام الأديرة البوسنية بدور مهـم كدور مقـام للمسافرين والتجار ، فأمر واضـــح من الاشـارات الكثيرة الى ذلك فى السجلات المودعة فى دوبروفنيك (*) : ان التجار الأفلاق ليتركون بضاعتهم هنـاك فى بعض الأحيـان كمـا أن بعض الأديرة ربما قامت بدور مراكز الجمارك (٣٥) • والمصطلح الدال على « الدير » فى السجلات هو « هجة Hiza » ، وهى كلمة يمكنها أن تعنى بيتا عاديا فضلا عن بيت ديرى • وفى كثير من مواقع هذه « الهجات » تشير أسماء الأماكن الباقية الى اليوم الى أنه كان هناك مبنى لكنيســة ملحقة (٣٦) • وربمـا كانت « الهجات » مبانى متواضعة تضم بين جنباتهـا رجالا عاديين يعيشون فيها ، ومن هنا تلاشت الخطوط الفارقة بينها بصورة جزئية ، ولكن ليس من الضرورى الظن هنا بأن تلك البيوت كانت بيوتا عادية من النوع الذى كان يقوم بدور المراكز للنشاط الكاثارى بفرنسا (٣٧) •

وأخيرا يتضح لنا معلم آخر للكنيسة البوســنية له موضعه هنـا اذا نحن أدركنا أنها منظمة ديرية تقوم على قاعـدة القديس بازيـــل : أى أنها قريبة بطريقة ما من الممارسات الأرثوذكسية الشرقية • فلابد أن مؤسسى هذه الأديرة البازيليكية قد أخذوا بالتقاليد الشرقية المأثورة حتى وان كانت الكنيسة الكاثوليكيـة قد امتصتها ، وأجبرتهـا على الاعتراف بسلطان روما ، واستمر ذلك حتى انفصلت الكنيسة البوسنية واستقلت • وليس ببعيد أن الاتصال قد تم عن طريق دالماشيا اذ أن الرابطة بين المدن الدالماشية والقسطنطينية ، تلك الرابطة التى كانت قوية فى القرن التاسع،

(★) وقد وردت اشارات كثيرة فى الشعر العربى عن نزول المسـافرين ببيوت الرهبان والراهبات ، وحصولهم على القرى وكرم الضيافة ــ (المترجم) •

أضفت تقاليد دينية بيزنطية على تلك المدن فى العصور الوسطى ، بما فى ذلك نحلة بعض القديسين الشرقيين (٣٨) • وهناك نظرية تقول بأن أتباع القديسين سيريل (Cyril) وميثوديوس (Methodius) العائدين من مورافيا (Moravia) فى أخريات القرن التاسع قد تسربوا فى نواحى البوسنة وأدخلوا النظام الديرى هناك (٣٩) • ومع أننا لا نملك بينة واضحة من القرنين العاشر أو الحادى عشر ، لكننا نستطيع أن نفترض أن بعض الاتصالات ظلت قائمة بالعالم الديرى فى الأراضى الواقعة فى الشرق • ويتضح من أعلان ١٢٠٣ ، أنه بينما كانت البوسنة جزءا من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ الانقسام بين الشرق والغرب الذى حدث قبل ذلك بقرن ونصف ، فان بعض الممارسات الشرقية قد بقيت قائمة فى الأديرة البوسنية • فهى لم تتبع التقويم الرومانى الكاثوليكى فى الصيام والأعياد ، ومعنى ذلك فيما يحتمل أنهم كانوا يستخدمون تقويما شرقيا (وليس أنهم لم يستخدموا تقويما على الاطلاق) • والحق أننا نجد فى زمن متأخر يرجع الى ١٤٦٦ فى شهادة جوست رادين دلائل واضحة على أن الكنيسة البوسنية كانت تحتفل بأيام القديسين على أساس التقويم الشرقى الذى لم يكن معترفا به فى الغرب (٤٠) • ولسنا ندرى هل سمحت روما باستخدام قواعد الصلاة الشرقية فى بلاد البوسنة القروسطية المبكرة ، وهو أمر جائز ولكننا نعرف يقينا أن الصلوات كانت تقام باللغة السلافية ، شأنها فى شطر كبير من كرواتيا الكاثوليكية حيث كانت الصورة « الجلاجوليتية » (Glagolitic) للصلاة الرومانية تستخدم (٤١) • ومن الأسرار المحيرة فى التاريخ البوسنى القروسطى مصير رجال الدين الكاثوليكى غير الديريين ، فربما يكون أمرهم قد انتهى الى التلاشى ، وان اعتقد أحد المؤرخين أنه يستطيع التماس أدلة تشير الى وجود رجال دين « جلاجوليتيين » خلال الفترة القروسطية (٤٢) • ومن المحتمل أن القسس الناطقين بالسلافية بأرض دالماشيا كانوا يعرفون الايطالية أيضا ، ومن ثم لا يبعد أنهم كانوا يحصلون على تدريب لاهوتى صحيح باللغة اللاتينية • ولكن معظم رجال الدين (سواء أكانوا ديريين أم دنيويين) الذين ولدوا وتربوا ببلاد البوسنة يحتمل أنهم كانوا سلافيين ذوى لغة واحدة لا يجدون وسيلة للحصول على المعلومات اللاهوتية العادية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية الا بشق الأنفس • جاءت أوقات ، يوم كانت الصلة مقطوعة ببقية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، كانت البوسنة فيها شديدة العزلة حقا •

وكما رأينا ، فان البوسنة كانت فى الواقع مقطوعة الصلة بسائر أعضاء الكنيسة منذ منتصف القرن الثالث عشر • (يوم نقل مقر الأسقفية البوسنية الى سلافونيا التابعة للمجر) • حتى منتصف القرن الرابع عشر (يوم وصل الفرنسيسكان) • ولعل الكنيسة البوسنية كانت منعزلة عن ولاية الكنيسة الكاثوليكية فى وقت مبكر يقارب ثلاثينيات القرن الثالث عشر، وبينما هى تؤكد بالتدريج استقلالها الذاتى ، فانها ، طال الزمن أو قصر ، لابد أن وصلت الى نقطة الانشقاق الفعلى عن روما (٤٣) • وفى أثناء معظم هذه الفترة التى تمتد أكثر من قرن من الزمان ليس لدينا الا النزر اليسير جدا ، ان وجد ، من المعلومات عن الكنيسة البوسنية • وهناك اشارات متناثرة تجيء فى مراجع غير بوسنية الى « الهراطقة البوسنيين » منذ ثمانينيات القرن الثالث عشر فصاعدا • ونظرا لأنه لم يحدث بالفعل أى انشقاق رسمى ، فان هذا المصطلح كان يمكن أن يستخدم استخداما فضفاضا ليعنى « الانشقاقيين » ، دون أن ينطوى على فوارق مذهبية عظيمة • (وعندما تذكر المصادر الكاثوليكية « الانشقاقيين » فعلا ، فانها انما تشير الى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التى كان بينها وبين روما انشقاق رسمى) أو لعله استخدم فى الاشارة الى الهراطقة الأقحاح من أتباع الهرطقة الثنائية على الساحل الدالماشى الذين لعلهم قد أصبحوا أكثر نشاطا بالبوسنة منذ أصبحت خارج منال قبضة الأساقفة الكاثوليك الدالماشيين •

ومن الممكن ، بطبيعة الحال ، أن بعض الثنائيين نشطوا فى العمل بالبوسنة • ولكن المسألة هى : ما هو أثرهم على الكنيسة البوسنية ؟ هناك دليل واحد من داخل البوسنة يشير فيما نخال الى أنهم كانوا يمارسون نفوذا ضخما • انه نص بوسنى مخطوط ورد باللغة السلافية (مجموعتان صغيرتان من الردود المتتابعة وصلاة الرب وقراءة فى انجيل القديس يوحنا) وهو يتجاوب تجاوبا وثيقا مع نص شعيرة كاثارية معروف أنه كان يستخدم بمدينة ليون الفرنسية فى القرن الثالث عشر (٤٤) ؛ وليس لنا أن ندعو ذلك منسكا هرطيقيا الا اذا افترضنا أنه كان له أصل هرطيقى • فمحتوياته ليست بالهرطيقية على الاطلاق حيث تخلو من أى شيء يناقض المجرى الرئيسى للاهوت الكاثوليكى أو الأرثوذكسى الشرقى • وكما لاحظ دراجوليوب دراجويلوفيتش (Dragoljub Dragoklovic) ، فانه يتكون بالفعل من فقرات من صلوات الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، وذلك القسم من انجيل القديس يوحنا الذى يقرأ فى أثناء قداس عيد الفصح فى الكنيسة الشرقية • على أنه لابد أنه استنتج أيضا ، بناء على دلائل لغوية داخلية ، أنه كتب أصلا فى أبروشية أوريد (Ohrid) الأرثوذكسية

(فى مقدونيا) فى تاريخ لا يتجاوز بواكير القرن الحادى عشر – وهى فترة لم يكن فيها الكاثار قد وجدوا بعد (٤٥) · وبدلا من القول بأن النص البوسنى جاء من لبون ، فان الشئ المعقول أكثر هو الظن بأن النص الليونى نفسه مشتق من أصل أرثوذكسى شرقى أقدم منه · وقلب هذا المنهج العلمى رأسا على عقب الفكرة القائلة بأن الكنيسة البوسنية كانت لها شعيرة كاثارية من مباركة الخبز وتقطيعه وتوزيعه – وهى نوع من التناول الهرطيقى · فانا لنعلم أن الكاثار يفعلون ذلك فى بيوتهم قبل تناول وجبات الطعام ، كما أن بعض المراجع الباكرة ذكرت أن « قسس » الكنيسة البوسنية كانوا يفعلون الشئ نفسه (٤٦) · ولكن كان أيضا من العادات المقررة فى البيوت الديرية الشرقية فى الوجبات العامة أن يبدأ المرء بصلاة الرب والبركة وتقطيع الخبز وتوزيعه بين الناس (٤٧) · ويحتمل أن الكاثوليك خارج البوسنة عندما سمعوا بأحاديث عن هذا الأمر ، قد افترضوا أن هذه انما هى شعيرة هرطيقية · على أنه يكاد يكون من المؤكد أن الكاثار هم الذين نقلوا هذه الشعيرة الشرقية اللاهرطيقية القديمة ، ولكنهم طبقوها فى اطار دنيوى وفى ظل معتقدات هرطيقية حقيقية ·

ويبقى بعد ذلك الظن بأن بعض الهراطقة بالمنطقة المتأثرين بالثنائية ربما مارسوا حينا من الدهر بعض النفوذ على الكنيسة البوسنية أثناء سنيها الطويلة من العزلة الاكليروسية · ولكن من ذلك الفرض المتواضع سيحتاج الأمر الى وثبة هائلة فى الخيال للوصول الى ادعاء أن الثنائيين قبضوا بأيديهم على الكنيسة البوسنية ، وشكلوا هرمها الديرى محولين اياه الى التشكيل الدنيوى المتبع لدى الكاثار ، وأبدلوا تكوينها الريفى المتمشى مع المجرى الرئيسى للاهوت المسيحى ، وحولوه الى نظام من المعتقدات هرطيقى فى جذوره ·

وغنى عن البيان أن الكثير من البينات التى بقيت الى يومنا هذا تتعارض تعارضا مباشرا مع مثل ذلك الادعاء · فان الكاثار والبوجوميل كانوا يمقتون علامة الصليب ، بينما يبدو الصليب مثبتا على رأس كثير من الوثائق البوسنية · وكان الكاثار والبوجوميل يرفضون العهد القديم من الكتاب المقدس ، بينما تحتوى احدى النسخ الباقية من الكتاب المقدس الخاصة بالكنيسة البوسنية سفر المزامير · وكان الكاثار والبوجوميل يرفضون اقامة القداس ، بينما طلب جوست رادين فى وصيته بصفة خاصة اقامة القداس على روحه · ومنع الكاثار والبوجوميل استخدام مبانى الكنائس ، بينما هناك شواهد قوية تدل على أن الكنيسة البوسنية ظلت تستخدم الأبنية الديرية التى تضم أسوارها كنائس ملحقة بها · وكان

الكاثار والبوجوميل يرفضون الخمر ولا يأكلون اللحم ، وتسجل سجلات الأراضي في العصر العثماني المبكر أن المسيحيين كانـوا يملكون كرمات كما أنه ليس هناك أي سبب الى الظن بأنهم كانوا من النباتيين • (والبينة الوحيدة التي يبدو أنها تدل على ذلك ، ظهر أنها كانت عبارة عن خطأ في قراءة لكلمة وردت في وصـية جوست رادين : فالقراءة الصحيحة ليست Mrsni أي « آكل اللحـم » ولكنها Mrski .أي « غير قابل للنظر أي قبيح ») • والكاثار والبوجوميـل يرفضـون تقويم القديسين ، بينما مستندات الكنيسـة البوسـنية بما فيها وصية جوست رادين تشير الى الاحتفال بأعياد كثير من القديسين ، وهكذا دواليك (٤٨) •

وكذلك أيضـا كان الطابع العـام للكنيسة البوسنية مختلفـا جدا عن الطـابع الذي نربطه بالبوجوميـل أو الكاثار • فان هاتين الطائفتين الهرطيقيتين كانتا من الآخذين بالزهد والتطهر • وكانوا من المعارضين للسلطان الدنيوي والثراء العريض الذي تستمتع به الكنائس المعروفة ، ويعرضون عن عرض الدنيا • فأما الكنائس البوسنية فانها في أوج مجدها (القرنين الرابع عشر وبواكير الخامس عشر) كانت تنعم بالقوة العظيمة ، كما أن كبـار رجالهـا اعتادوا أن يوقعوا المعاهدات ويوفدوا البعثـات الدبلوماسية • وهناك ملوك مثل ستيفن كوترومانيتش وتفرتكو ، كانت لهم علاقات ودية بالكنيسة البوسنية وان لم يكونوا أعضاء منتسبين اليها ، كما يبدو أن بعض العائلات النبيلة الكبرى كانت تنتمي اليها (٤٩) • وكان أذيع رجال الكنيسة البوسنية صيتا ، وهو جوست رادين ، يتولى وظيفة المستشار الأعظم للدوق ستيفن فيوكتشيتش ، وواضح أنه كان قطبا عظيما بحكم منزلته الرفيعة : وقد ترك في وصيته أكثر من ٥٠٠٠ دوقية نقدا ، فضلا عن الخيول والفضة وصحاف الذهب ، وكذلك « رداء فخما حوافيه من الفراء والذهب » ، ومعه أيضا « رداء أحمـر من الفراء مكون من ست طيات من الحرير وعلى حواشيه فراء المنك الذي خلعـه عليه جـلالة الملك ماتياش Matijas » (٥٠) • وفي هذا اختلاف كبير عن الكاثار المبكرين الذين وصفوا أنفسهم « بمعوزي المسيح » •

وفور بدء الفرنسيسكان العمل في البوسنة في منتصف القـرن الرابع عشر ، دخلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في منافسة مباشرة مع الكنيسة البوسنية • وتصف بعض المصادر السلوك العدائي الذي تعرض له هؤلاء الرهبان من جانب الهراطقة ومنها قصة عن أحدهم وهو ياكوب دي مارشـيا • فقـد أخذ يصيح أثنـاء طقوس تنصيبه في ١٦٠٩ قائلا ان « الهراطقة » نشروا بالمنشار أرجل منبر كنيسة الدير في فيسوكو بينما كان يلقي موعظته من فوقه • (وردا على ذلك لعن المسئولين عن ذلك ودعا

أن يولد أولادهم بأرجل سقيمة عرجاء) (٥١) . ومن سوء الطالع أنه لم يبق للآن أى تقرير فرنسيسكانى عن المعتقدات البوسنية ، أجل ان هناك التماسا بطلب التعليمات كتبه أحدهم ورد عليه البابا فى خطاب مفصل فيه اشارة الى الهراطقة والانشقاقيين ورجال الاكليروس غير المؤهلين تأهيلا سليما ، ولكنه لا يشير أية اشارة الى المعتقدات الثنوية (٥٢) . ومع هذا ، فان أخبار البوسنة قد عادت الى التداول بين كاثوليك ايطاليا ، وأصبحت معروفة بأنها مكان ممتلىء بنوع ما من « الهراطقة » . ولابد أن مصطلح « باتارين » الذى كان يستخدم كاسم عام للكنيسة البوسنية فى التقارير التى جاءت من راجوزا وبقية دالماشيا ، قد أثار الذكريات عن هراطقة شمال ايطاليا . وكان معنى التوسع السريع للأبروشية الفرنسيسكانية للبوسنة أن أصبح جميع أنواع الهراطقة فى شرق أوربا يوصفون بأنهم « بوسنيون » كما رأينا . وهناك وثيقة أصدرها جريجورى الحادى عشر فى عام ١٣٧٢ ، وهى تحض على تنصير جميع « الكفرة » فى البوسنة وبخاصة أولئك المقيمين فى ترانسلفانيا ، وهناك وثيقة كاثوليكية أخرى هى قائمة تحصر أخطاء الهوسيين (Hussites) المقيمين فى « مولدافيا » [مورافيا ؟] ، وتختتم كالتالى : « وبهذا ينتهى التقرير الموجز الذى يعدد أخطاء مملكة البوسنة وشعائرها الهرطيقية »(٥٣) .

وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار هذه الخلفية التاريخية عندما نفحص الوثائق الايطالية فى تلك المدة التى تشير الى الكاثارية أو الثنائية فى البوسنة . فمن البينات التاريخية المحيرة تقرير لمحكمة التفتيش فى تورينو فى عام ١٣٨٧ ، يورد الاعتراف (الذى تم بعد التعذيب) الصادر من جياكومو بك (Giacomo Bech) الذى ادعى بأنه انضم الى طائفة كاثارية بالجبال الواقعة فى غرب تورينو . وقال ان أحد أعضاء الطائفة كان من مدينة « سكلافونيا Sclavonia » ، كما أن بعض أعضاء الطائفة الايطاليين سافروا الى « البوسنة » ليتقنوا معرفتهم بالمذهب الكاثارى هناك . وأعلن بك أنه تلقى نقودا ليذهب الى هناك ولكنه لم يستطع عبور البحر بسبب رداءة الجو (٥٤) . وواضح أن الاشارة الى « سكلافونيا » تشير الى رابطة مع التقاليد الثنائية فى الساحل الدالماشى . ومن الممكن توهم ذهاب الايطاليين الى هناك (حيث كانت الايطالية منتشرة) بقصد التعلم ، كما أن مما هو جدير بالتذكر أن رقعة طويلة من الأراضى الساحلية كانت فى ذلك الزمان تابعة للمملكة البوسنية ، ولكن الأمر الأكثر صعوبة هو الاعتقاد أنهم يمكن أن يسافروا الى الأرض البوسنية النائية التى لايتكلم أهلها سوى لغتها . ومن ناحية أخرى فان قصة بك حول الذهاب وعدم النجاح فى الوصول الى الهدف فى آخر لحظة ، لها الوقع المألوف للقصص المختلفة .

وهذا شيء يبدو شبيها بالاعتراف الذي يصدر عن المتهمين في محاكمات السحرة ، عندما يصرون بأن اجتماعات السحرة تحدث فعلا ويدعون بأنهم دعوا لاحدى تلك الاجتماعات ، ثم يقولون بعد ذلك انهم قد منعهم من الذهاب سبب طاريء ، وبذلك ينقذون أنفسهم من مخاطر الافراط في نسج القصص الخيالية .

ومما يثير الشكوك أيضا تلك القوائم من « أخطاء الهراطقة البوسنيين » التي دبجها الفرنسيسكانيون في ايطاليا في أخريات القرن الرابع عشر ، تلك القوائم التي تصور البوسنيين بأنهم شديدو الثنوية من الطراز الكاثاري أو البوجوميلي . ويبدأ احداها كالتالي : « أولا ، بأن هناك الهين وأن الاله الأكبر منهما خلق جميع الأشياء الروحية وغير المرئية ، وأن الاله الأصغر وهو الشيطان Lucifer هو الخالق لجميع الأشياء الجسدية والمرئية » . ثم يستمر فيشمل رفض العهد القديم والقداس والكنائس المبنية والصور « وبوجه خاص الصليب » (٥٥) . وربما صدق هذا على بعض الطوائف الصغيرة من الهراطقة « السلافونيين » أو « الدالماشيين » ، ولكن كما رأينا ، فهناك أسباب قوية تدعونا الى الظن بأنه لا يمكن أن يكون بيانا صادقا عن الكنيسة البوسنية . والواقع أن قائمة « الأخطاء » تنطبق تماما على النموذج الكاثاري حتى ليتور تفسير واضح يفرض نفسه : فان رجال الدين الايطاليين هؤلاء الذين وضعوا هذه القائمة قد سئلوا أن يبرزوا تحليلات أو تفنيدات للأخطاء « الباتارينية » ، فعمدوا الى الرجوع الى كتبهم التماسا لتهم يلصقونها « بالباتارينيين » (أو بعبارة أخرى الايطاليين الكاثار) ، فانتهوا بذلك الى وضع ملخص للمعتقدات الكاثارية (٥٦) . وهناك شكوك مماثلة ينبغي أن تقوم حول أخطاء المانويين التي طلب من ثلاثة من نبلاء البوسنة أن يتخلوا عنها على يد عضو محكمة التفتيش خوان دى توركمادا (Juan de Torquemada) في روما في عام ١٤٦١ ، كما أن أصابع الشك يمكن أن توجه أيضا الى الأساس الذي قامت عليه حملة الاتهام البابوية المفاجئة ضد « المانويين » في البوسنة أثناء أربعينيات وخمسينيات القرن الخامس عشر (٥٧) .

وبحلول خمسينيات القرن الخامس عشر ، بلغت حملة الفرنسيسكان أقصى مداها (كما رأينا في الفصل السابق) . فقبل حلول ربيع ١٤٥٣ بقليل فر « الديد » أو رئيس الكنيسة البوسنية والتجأ عند الدوق ستيفن فيوكتشيتش . وبعد ذلك بقليل من تلك السنة ، وطبقا لخطاب كتبه البطريرك جيناديوس (Gennadios) الثاني بطريرك القسطنطينية ، انضم « الديد » الى الكنيسة الأرثوذكسية (٥٨) . واذا كان هذا الدليل يمكن

الاعتماد عليه ، ينبغى لنا أن نفترض أن الكنيسة البوسنية أصيبت بضعف شديد بسبب ما فعله « الديد » ، وذلك حتى قبل أن يقدم الملك توماش (Tomas) فى ١٤٥٩ على انزال الاضطهاد الرسمى على الكنيسة البوسنية • وكانت هناك منافسة قوية بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حيث كانت كل منهما تريد أن تمتص بقية أتباع الكنيسة البوسنية • وكتب أحد الفرنسيسكانيين تقريرا قال فيه ان كثيرا من « الهراطقة » كانوا ينضمون تباعا الى الكنيسة الكاثوليكية ، لولا أن أسقف الصرب (« رشيانورم » أى سكان راشكا) لا يسمح لهم بالصلح مع روما (٥٩) • وربما ظن الأسقف أن استحواذه على « الديد » البوسنى نفسه ، يتيح له حقا فى « رعيته » أيضا • ومن ثم يكون الاجراء الذى اتخذه الملك توماش فى ١٤٥٩ قد قصد به الحيلولة دون مزيد من التحول الى الأرثوذكسية • وكان مما قصم ظهر الكنيسة اجبار ألفى مسيحى بوسنى (Krstjani) على التحول الى الكاثوليكية واضطرار أربعين من رجال الكنيسة الذين وصفوا بأنه « لا صلاح لهم » الى الرحيل الى بلاد الهرسك ، ونحن وان أعوزنا العلم بالعدد الصحيح للأديرة ، فان هذا التصرف لابد انه أخرج من البلاد معظم رجال الكنيسة البوسنية الديريين • وعندما كتب جوست رادين الى البندقية فى ١٤٦٦ ملتمسا الاذن له بالهجرة اليها اذا اضطره الأتراك الى الفرار ، سأل هل يمكنه أن يحضر خمسين أو ستين عضوا من أعضاء طائفته معه : فربما كان هذا العدد يمثل البقية الباقية من الكنيسة بما فى ذلك الأربعين الذين « لايمكن صلاحهم » (٦٠) •

أما فيما يتعلق بأتباع الكنيسة البوسنية من العلمانيين ، فانه يبدو محتملا أنها لم تضم عددا ضخما من الأعضاء ، لأنها بوصفها تنظيما ديريا صرفا ، كان يعوزها تلك البنية الأساسية الضرورية من الأبروشيات • ومهما كان عددهم أيام عزها وأوج عظمتها ، فلابد أن العدد قد تناقص فعلا فى غضون قرن كامل أو يزيد من الانطواء والاعتناق للكاثوليكية الذى تدعمه الدولة • ومن ثم يبدو أنه عندما أمسك الترك مقاليد الأمور بأيديهم كانت الكنيسة البوسنية محطمة فعلا بل فاقدة الحياة • وسجلات الأراضى للبوسنة فى العهد العثمانى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتى تسجل الناس حسب ديانتهم ، قلما تدرج شخصا على أنه مسيحى Kristian (كنقيض مضاد للكلمة العادية المستخدمة للمسيحيين « Christians » وهى كافر أو غير مؤمن ، وهما اللفظان اللذان كان يسجل تحتهما كل من الكاثوليك والأرثوذكس) • وهناك عدد قليل من القرى التى سجلت بأسرها فى السجلات الأولى بأنها « مسيحية » ، ولكن الأعداد الكلية قليلة جدا • اذ هم أقل من سبعمئة فرد قد سجلوا أثناء

المدة بأكملها (٦١) . ويرى المؤرخ الذى درس هذه المادة (والذى يتبع نظرية « البوجوميل ») أن هؤلاء « المسيحيين » لم يكونوا الا « الصفوة المختارة » فى الكنيسة وأن الأعضاء العاديين كانوا يدرجون فى القوائم تحت بند « كافر » أو غير مؤمن ، بيد أن هذا خطأ بكل تأكيد . وكل ما فى الأمر أن الأتراك كانوا يستخدمون الفئات الدينية التالية : مسلم ، ويهودى ، وغير مؤمن ومسيحى (٦٢) . وفى أثناء الفترة بأكملها ابتداء من ١٤٦٨ (وهو تاريخ السجل الأول) حتى أواخر القرن السادس عشر ، لم يظهر الا اسمان فقط ممن يحملون لقب « جوست » . ويظهر أن بقية ضئيلة باقية من التقاليد قد حفظت حيث قام الأفراد بالتعميد أو أداء المراسم الدينية لبعضهم البعض على طريقة « اخدم نفسك بنفسك » . فان قسيسا كاثوليكيا هو الألبانى بيتر ماساريتشى (Peter Masarechi) زار البوسنة فى عشرينيات القرن السابع عشر ، وقد أشار فى تقريره الى « الباتاريين » الذين يعيشون بدون أى قسس أو مراسم تعميد ، اعتمادا على « قسسهم المنتخبين من أفراد الشعب بدون أى مراسم » (٦٣) . ولكن لم تلبث حتى هذه البقية الضئيلة أن ابتلعت فى نهاية الأمر غير تاركة الا ذكرى فى أذهان الأجيال التالية وحكايات شعبية وأساطير لا يمكن التعويل عليها .

الفصل الرابع

الحرب والنظام العثمانى
١٤٦٣ ـ ١٦٠٦

فتح الجيش التركى مملكة البوسنة بسرعة عظيمة فى بدايات صيف ١٤٦٣ . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ظلت الأراضى الداخلية التابعة لبانية البوسنة القديمة ، ومعها موطىء القدم الذي أسسه الترك قبل ذلك بمنطقة سراييفو ، واقعة تحت الحكم التركي الدائم ، رغم أنهم سحبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف . بيد أن المكاسب التى غنمها الجيش التركي فى النصف الشمالى من البوسنة ، ما لبث أن استردها سريعا ملك المجر ماتياس (Mtthias) . وقد ترك هناك مع قوة عدتها ثمانون رجلا للدفاع عن قلعة زفتشا (Zvechaj) قرب يايسه (Jajce) ، ذلك الضابط الانكشارى الصربى المولد ، الذى وصلت الى أيدينا ترجمته الذاتية ، وما كاد السلطان يعود أدراجه حتى حاصرت القوات المجرية كلا من زفتشا ويايسه اللتين لم تلبثا حتى سلمتا (١) . وسرعان ما أسس الملك ماتياس « بانية » جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى فى هذه الأجزاء الشمالية ، وفى ١٤٧١ أصدر أمرا بترقية البان الى رتبة « ملك البوسنة » . ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك فى حملاتهم التالية ، فان القسم الذى بقى من تلك المملكة ، استمر صامدا مدة تزيد على الثمانين عاما . وفى غضون عشرينيات الألف وخمسمائة ظلت مدينة يايسه فى حالة حصار مستمر تقريبا ، وهى تتلقى معونات من الطعام من سلافونيا المجرية بواسطة قوافل مسلحة ، لايكاد يصل عددها الى أربع مرات فى السنة (٢) . وأخيرا فتحها الترك فى ١٥٢٧ ، بعد تحطيم الجيش المجرى فى معركة موهاتس (Mohats) الفاصلة فى السنة السابقة .

وصمد شطر آخر فى الهرسك ضد الترك بعد ١٤٦٣ ، ثم تمكن الدوق (Herceg) ستيفن فوكتشيتش من استرداد أرضه فى نهاية تلك السنة ، على أن الأتراك ما لبثوا أن استرجعوا معظمها بعد ذلك بسنتين : واضطر الدوق الى آن يتلمس لنفسه ملجأ فى مدينة نوفى المحصنة (التى عدل اسمها فأصبحت نوفى هرسك على اسمه) ، حيث مات فى ١٤٦٦ (٣)٠ وبذل ابنه الثانى فلاتكو ، الذى خلفه فى وراثة لقب دوق ، قصاراه لاجتذاب العون من المجر والبندقية فى معركته للدفاع عما بقى له من أراض ، ولكن ذلك جره الى التورط فى الصراعات الأخرى الناشبة بين أطراف ثالث الفرقاء أى راجوزا والنبلاء المحليين ، وما وافت سبعينيات الألف وأربعمئة حتى كان يدفع الجزية للأتراك ، وفى ١٤٨١ أو ١٤٨٢ استولى الأتراك على آخر معقل فى الأراضى الهرسكية (٤) ٠

وكما تصور هذه الأحداث كانت الامبراطورية العثمانية جهازا عسكريا بالغ النشاط والبأس ٠ وشهد حكم السلطان محمد الثانى (١٤٥١ ــ ١٤٨١) سلسلة خارقة من الفتوح والتحديات لأعظم القوى المجاورة فى أوربا : فبعد استيلائه على القسطنطينية فى ١٤٥٣ ، واصل الزحف وفتح شمال صربيا وشطرا من بلاد الأناضول ، وبلاد والاتشيا والبوسنة والهرسك ، ودمر جيش البندقية فى اليونان ، واجتاح مولدافيا والمجر ، وحاصر جزيرة رودس ، ووافته المنية وهو يدبر هجوما وغزوا كاملا لايطاليا ٠ على أن خلفه بايزيد الثانى (١٤٨١ ــ ١٥١٢) وجه اهتمامه الى تدعيم أركان الامبراطورية ، ولكن ظل مع ذلك يشن حروبا على مولدافيا وبولندا والمجر والبندقية ٠ ثم عاد سليمان القانونى (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) فاتجه الى الشمال الغربى من جديد : وفى السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكمه حول معظم بلاد المجر الى اقليم تابع وأصبح قاب قوسين من الاستيلاء على فيينا ٠ وكانت معاهدة السلم التى عقدها فى ١٥٣٣ ايذانا بقيام فترة طويلة من المواجهة الطويلة الخاملة ، بين الامبراطوريتين العثمانية والهابسبيرجية فلم تتحول الى حروب دامية الا فى أحيان قليلة ، وخلال فترة امتدت حتى نهاية القرن أخذت كلتا القوتين تبنى لنفسها منطقة حدود عازلة تواجه الأخرى ، تحرسها شبكة متصلة من المعاقل ، وجماعات من الفلاحين المحاربين (٥) ٠ وكانت تحدث هناك مناوشات متناثرة ولكن الحركات العسكرية على الحدود البوسنية أصبحت أشد حدة فى الأوقات التى كان السلطان يشن حربا ضروسا كاملة على آل هابسبرج ــ كما حدث أثناء حملة سليمان المجرية الأخيرة فى ١٤٦٦ ٠ ونشبت الحرب العثمانية الهابسبرجية الكبرى التى دامت بين سنتى ١٥٩٣ ــ ١٦٠٦ ، نتيجة قتال نشب بين القوات المحلية على التخوم البوسنية الشمالية الشرقية : فقد

كان الترك قد استولوا على قلعة بيهاتش الهامة من الهابسبرجيين فى ١٥٩٢ ، ولكن فى السنة التالية أخذ باشا البوسنة على غرة ، وهو يحاصر معقل سيساك Sisak (على نهر سافا ، أسفل مدينة زغرب) وهزم هزيمة ثقيلة • وفى الجملة العظمى الأولى فى السنة التالية أنزل الأتراك هزيمة منكرة بالجيوش الهابسبرجية عند متسوكيرستس (Mezokeresztes) فى ١٥٩٦ ، وتمكنوا بعد ذلك من شد قبضتهم على شطر كبير من المجر أثناء السنوات الثمانين التالية (٦) •

وظلت الامبراطورية العثمانية ـ حتى بدأت فى الركود والانحدار ، وهى عملية بدأت فى منتصف القرن السادس عشر ـ وهى لاتخرج فى جوهرها عن مؤسسة عسكرية • كان هدفها هو النهب وفرض الجزية ، وبنى نظامها الادارى على أساس امدادها بشيئين هما : الرجال لاستخدامهم فى الحرب ، والمال الذى يدفع أعطيات لهم • وانقسمت القوات العسكرية الى فئتين رئيسيتين • فكانت هناك قوات نظامية تتلقى مرتباتها من الحكومة العثمانية مباشرة : وهذه تتكون من الانكشارية، وهم (المشاة النظاميون) والفرسان النظاميون المعروفون باسم « فرسان الباب العالى » • (وكلمة « الباب العالى » هى الاسم التقليدى الذى يطلق على الحكومة الامبراطورية باسطنبول) • وكانت هناك من الناحية الأخرى الخيالة الاقطاعية : وهم جند راكبة كانوا يقومون بما يوكل اليهم من مهام عسكرية مقابل الضياع التى منحوها مقدما • (وكان مصطلح « فارس » Spahi بمفرده يشير دائما الى هذا الطراز من الرجال) • وكانت هاتان الطائفتان من العسكر تؤلف الجيوش الجرارة التى كانت تقوم بتلك الحملات الهائلة منذ بواكير الربيع الى أخريات الخريف • وهناك حقيقة علينا أن نلتفت اليها وهى أن القوات كان عليها أن تتجمع كل مرة خارج اسطنبول ، ثم تزحف الى حدود الامبراطورية • وهى حقيقة بدأت تضع حدا جغرافيا طبيعيا لتوسعات الامبراطورية (على الصورة التى أظهرتها حملات سليمان القانونى على المجر) وكانت هناك أيضا قوات اضافية مساعدة ، لها دور أكثر أهمية فى مناطق التخوم ، كالبوسنة مثلا ، حيث كان الأمر يحتاج الى أنشطة عسكرية تمتد طوال العام • وكانت هذه تضم جنود العزب (Azap) وهم نوع من ميليشيات المدن ، كانت تؤلف حاميات فى القلاع ، وتقوم بعمل مشاة مرابطة الثغور أى التخوم ، ثم الدلاة (Deli) أو الآكينجى (Akinci) الخيالة ، وهم ضرب من الراكبة الخفيفة غير النظاميين مهمتهم الاغارة على الأعداء • وكل هذه القوات المذكورة حتى الآن كانت من المسلمين : اذ جرت العادة بأن الشعوب الخاضعة ، لا يجوز لأبنائها أن يحملوا السلاح • ومع ذلك فقد حدث لأسباب خاصة ، وهو أمر كان يجرى عادة فى المناطق

التخومية للبوسنة ، أن استخدمت قوات مسيحية محلية : لحراسة الممرات ، وتنظيم امدادات الخيل ، وكان منهم النوع المخيف من الجند المشاة المأجورين المعروفين باسم الفوينوق (Vojnuk) أو المارتولوس (Martolos) (٧) ٠ وسنقوم بوصف هؤلاء الجند وصفا أوفى فى الفصل المعقود حول صرب البوسنة (انظر الفصل السادس) ٠

وكان جيش الانكشارية ومعه نظام جزية الصبيان المعروف بالدوشرمة (Devshirme أو التجميع) الذى يزوده بالجند ، أهم طريقة لسحب الناس من أوروبا المسيحية ، ليدخلوا فى آلة الدولة العثمانية ٠ وفى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر عندما كان نظـام الدوشرمة ينفذ على أوفى وأكمل وجه ، كان الصبيان من قرى أوروبا المسيحية يجمعون ، على فترات متغيرة ولكنها كثيرة ، ثم يحملون الى اسطنبول ٠ وهناك يحولون للاسلام ، ويدربون لكى يكونوا جندا انكشارية أو يكونوا خدما شخصيين للسلطان أو موظفين فى مختلف مصالح الدولة ودوائرها (٨) ٠ (وكانت كل مصالح الحـكومة فى جوهـرها فروعا من القصر الامبراطورى) ٠ وكذلك كان للشخصيات العليا فى الادارة العثمانية أعداد موفورة من متل هؤلاء القوم فى قصورهم الخاصة : وقد توفى أحدهم فى اسطنبول فى ١٥٥٧ وعنده ١٥٦ عبدا بينهم ٥٢ بوسنيا ٠ وقد جاء فى شرح ذلك أنه جمعهم بعملية (دوشرمة) خاصة أو اختاروا هم أنفسهم الخدمة لديه (٩) ٠ ومع أن خطف الأطفال كان فى حقيقته عملية وحشية ، لكنـه كان يعود عليهـم بمنافع واضحة كثيرة ، حيث ارتقى كثير منهم فى المناصب حتى أصبحوا باشوات ووزراء ، وكان يعود كذلك بالخير على أسرهم الذين استطاعوا فيما بعد أن يتصلوا بهم ٠ فأسرة سوكولو (سوكولوفيتش Sokolovich) فى اسطنبول التى قدمت عددا متعاقبا من كبار الوزراء (الصـدر الأعظم) ، لم تفقد الاتصال بأسرتها البوسنية الصربية ، ولم يفتها أن تستخدم نفوذها فى المحافظة على مصالح الكنيسة الصربية الأرثوذكسية ٠ وكان مجموع من شغلوا منصب الصدر الأعظم من الرجال المنحدرين من أصل بوسنى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر تسعة ، كمـا أن البوسنيين كانـوا يرسلون الى بلادهم كولاة عليها منذ عام ١٤٨٨ (١٠) ٠ وهناك حـالات يذكرها التاريخ عن والدين من الدينين الاسلامى والمسيحى رشوا الموظفين ليأخذوا أطفالهم فى الانكشارية ٠ ومن المؤكد أن مزايا ذلك النظام كانت واضحة أمام أعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لارسال ألف من أبنائهم فى ١٥١٥ الى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الامبراطورى (١١) ٠

وما لبث نظام (الدوشرمة) أن توقف فترة قليلة في النصف الأول من القرن السادس عشر • ففي ستينيات الألف وستمئة ، عندما كتب الدبلوماسي الانجليزي بول رايكوت (Paul Rycaut) عمله الكلاسيكي عن الامبراطورية العثمانيـة « كان هذا النظام نسيا منسيا » (١٢) • ولكن نتائجه كانت هائلة • فان مئتي ألف طفل على الأقل من البلقان ، قد مروا خلال ذلك النظام أثناء قرني أدائه العمل وتنفيذه (١٣) • ولما كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأطفال من السلاف ، فان اللغة الصربوكرواتية (ومعها اللغة البلغارية المجاورة التي كان معظمهم يفهمها) غرست غرسا في قلب الدولة العثمانية • وقد لاحظ معلق غربي في ١٥٩٥ ، أن « السلافونية » كانت اللغة الثالثة في الامبراطورية (بعد التركية والعربية) ، لأنها كانت لغة الانكشارية • ولاحظ آخر في ١٦٦٠ ، أن « اللغة التركية لا تكاد تسمع في بلاط السلطان » لأنه في البلاط بأجمعه كانت غالبية « الشخصيات العظيمة من الوافدين من الأراضي السلافية » (١٤) • وكان للنظام أيضا أثـر هام اجتمـاعي وسـياسي : فانه خلق طبقة من الموظفين الأقويـاء وأبنائهم وحفدتهم ، الذين ما لبثوا أن دخلوا في صراع مع « الفرسان » الاقطاعيين العسكريين (السباهي) ثم لم يبرحوا حتى مدوا سلطانهـم بالتدريج على ما يملكون من أرض ، الأمر الذي أدى الى الاسراع بالتحول عن الحيازة الاقطاعية الى الضياع الخاصـة ونظـام الالتزام • وكتب ستانفورد شو : من الناحية الجوهرية كانت غلبـة العنصر البلقاني في الطبقة العثمانية الحاكمة عن طريق نظام التجميع (الدوشرمة) هي العامل الذي أدى الى انهيار النظام المالي والاداري للعثمانيين ، وتسبب فيما أعقبه من انهيار الامبراطورية نفسها (١٥) •

وفرض النظام الاقطاعي العثماني على البوسنة منذ البداية • وكان هناك نوعان رئيسيان من الضـياع التي كان الفارس (السـباهي) يتلقاها ، الكبرى منها هي الزايم (Zaim) والصغرى هي التيمار (Timar) ويطلق على حائزها تيمرلي أو تيماريوت • (وكان النوع الثالث والأكبر المعروف باسم الهاس (Hass) (الحصى) ، لا يمنح الا لأعظم حكام الأقاليم وأعضاء العائلة السلطانية أهمية) • وهذا النظام ، المعروف على الجملة باسم نظام التيمار ، كان اقطاعيا عسكريا قحا : وكانت حيازته تعتمد على الخدمة العسـكرية ، وكانت الأرض ملكا للسلطـان ، ولم يكن لورثة التيماريوت (أى صاحب التيمار) أى حقوق قانونية في وراثتها (وان كان الميراث هو العـرف المرعى) • وكان أصحاب هذه الضياع ملزمين أن يتجمعوا ومعهم أسلحتهم وخيولهم عندما يستدعون لأداء الواجب العسكري. وكان عليهم أن يحضروا معهم جندا آخرين ويدفعوا لهم أجورهم، بما يتناسب

تناسبا طرديا مع ايراداتهم (١٦) • وكانوا يجتمعون للحرب تبعا للمنطقة العسكرية التى يعيشون فيها (سـنجق ومعناها الحرفى بالتركيـة هو الراية ، وهى لفظة Sandzak بالصربوكرواتيـة) وكان يقودهم البـك السنجق ، وهى أعظم رتبـة بين الموظفين يحق لحاملهـا أن يحصل على لقب باشا •

ولما كان أصحاب التيمارات غالبا ما يكونون بعيدين لأداء واجباتهم العسكرية مددا تصل الى ستة أو تسعة أشهر من السنة ، فانهم لم يكونوا عبئا باهظا على الفلاحين (مسيحيين كانوا أو مسلمين) الذين كانوا يعملون بأراضيهم • وكان على الفلاحين أن يدفعوا مكسا عينيا يتراوح بين عشر وربع انتاجهم ، ويؤدون رسوما قليلة أخرى ، وكان عليهم أيضـا أن يقدموا الى صاحب التيمار بعض الخدمات الاجبارية ، ولكنها كانت أقل ارهاقا بكثير منها فى معظم الأنظمة الاقطاعيـة الأوربية الأخرى • وكانوا يدفعون أيضا ضريبة سنوية على الأرض (هى الخراج Harach ، الذى ما لبث أن أضيف اليه فيما بعد ضريبة الرؤوس المسماة بالجزية Jizye) ، الى السلطان • وكان مركزهم الأساسى قانونا هو مركز المستأجرين الذين كان لهم حق يستطيع أبناؤهم أن يرثوه ، لا فى الأرض نفسـها بل فى استخدامها واستثمارها • وكانوا يستطيعون بيع ذلك الحق ، كما كانوا من الناحية النظرية أحرارا فى الانتقال الى أى مكان آخر يشاءونه ، وان كان من الطبيعى أن أصحاب التيمارات حاولوا منعهم (١٧) • وعلى الجملة لم يكن لصاحب التيمار (التماريوت) أية مصلحة أخرى قانونيـة عند فلاحيه تزيد على التزامهم بدفع مكوس العشور والفروض الأخرى الواجبة، وأن يطيعوه عندما يقوم بالعمل بوصفه موظفا فى الحكومة : ولم تكن لديه اية سلطات قضائية من النوع الذى كان يمارس فى المحاكم القروية بأوربا الغربيـة •

ولا مفر لهذه الأحوال من أن تتبدل ، بطبيعة الحال ، مع اضمحلال النظام الاقطاعى • ومع ذلك فان حياة الفلاح فى ضيعة حيـازة أو امتـلاك ربما كانت بالفعل أفضل من الحياة فى البوسنة الاقطاعية قبل العهد العثمانى ــ وبخاصة فى السنوات الأخيرة السابقـة على الغزو التركى ، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقـال المالية الاضافية الضخمة التى تطلبها الدفاع عن البوسنة ضـد الأتراك ، ودفع الجزيات اللازمة لارضائهم • وها هو ذا الملك سـتيفن توماشـوفيتش يكتب فى أحـد التماساته التى وجهها بطلب النجدة والمساعدة قبل الغزو : « يبدى الترك نحو الفلاحين شعورا ملؤه الرفق • وهم يعدون كل من ينطلق اليهم بأن

يكون حرا ، ويرحبون بهم بمنتهى اللطف ٠٠ والناس سيخدعون بمثل هذه الحيل للتخلي عني » (١٨) • على أن هذه « الجيل » لم تكن من بعض النواحي خدعة • كما أن هؤلاء الفلاحين الذين اعتنقوا الاسلام ، كان من الممكن أن ينعموا بنظام آخر من الحيازة أو الامتلاك أكثر أمنا ، يستطيع الفلاح فيه أن يتملك قطعة صغيرة من الأرض (Chift) لعل اتساعها يتراوح بين خمسة الى عشرة هكتارات (١٩) •

ومن المؤكد أن الهوية الاسلامية كانت ميزة كبرى لأى انسان في الدولة العثمانية • على أننا نسيء فهم الامبراطورية العثمانية في تلك المدة متى افترضنا ـ كما لا تزال تفعل كثير من الكتب العلمية المتعمدة ـ أن نظامها كان دينيا صرفا يفصل فصلا مطلقا بين طبقة حكام من المسلمين وطبقة محكومة من غير المؤمنين ، الذين كانوا يصنفون حسب الملة (Millet أى الوحدة الدينية) التى كانوا ينتسبون اليها • أجل ان الامبراطورية أصبحت على تلك الشاكلة فى تاريخها المتأخر ، ولكن الأمر كان مختلفا فى الفترة الأولى من حكمها فى البلقان فلم يكن التمييز الأصلى بين المسلمين وغير المؤمنين ، بل بين العثمانيين (يعنى كامل الهيئة العسكرية الادارية التى يستطيع الناس الانضمام اليها ، متى تطبعوا بنظرة وسلوك العثمانيين) ، والرعية • فكان المصطلح القرآنى وهو الرعية (أى « القطيع أو السرب ») كلمة عامة تطلق على الشعوب الخاضعة : ومنهم المسلمون أيضا ، وخاصة متى كانت لهم ـ شأن العرب ـ ثقافة غير عثمانية • ولم يكن النظام القانوني العثمانى الأساسى قائما على الشريعة الاسلامية : بل كان ينبع من ارادة السلطان نفسه ، وغالبا ما يتخذ شكل انعام بالأمر بالابقاء على القوانين والامتيازات المحلية ، وكان مفروضا بالطبع أنه لا يخالف الشريعة • ولم يحدث الا بالتدريج أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر أن ازداد المزج بين الاسلام وبين مبادىء الحكم العثمانى • فعندما غزا الأتراك بلاد البوسنة ، ولمدة عدة أجيال بعد ذلك كان لايزال ممكنا لأى مسيحى أن يصبح فارسا (سباهى) وان يمنح حيازة تيمار دون التخلي عن مسيحيته : وكان الولاء المحقق للدولة العثمانية ، وتقبل طرائقها فى الحياة والحكم ، هما المتطلبين الوحيدين اللازمين (٢٠) •

ومع أن البوسنة كان يحكمها المسلمون ، لكنه كان من الصعب اعتبارها ولاية مسلمة ، ولم يكن من سياسة الدولة تحويل الناس الى الاسلام ، أو اجبارهم على التخلق بسلوكيات المسلمين ، وكانت سياسة الدولة الوحيدة تقوم على الاحتفاظ بالبلاد تحت السيطرة ، وابتزاز النقود والرجال والايرادات الاقطاعية ، لتزويد الامبراطورية بما تحتاج

اليه في المستقبل من عدة للحرب • وكان معنى ذلك أن الحكم العثمانى في تلك المدة كان من بعض النواحي ، هينا ، حيث لم تمس الدولة حرية رعاياها فى بعض المجالات • وكانت الديانتان اليهودية والمسيحيه قائمتين ، ولكن مع بعض القيود • كما كان مسموحا لكهنتهما أن يطبقوا على أتباعهما سننهما الدينية الخاصة ـ في محاكم خاصة ـ وذلك على الأقل فى الشئون المدنية • ولكن فى الوقت عينه كانت الطبيعة المحدودة لاهتمام الحكومة العثمانية فى الأقطار التى كانت تحكمها ، داعيا كما هو واضح الى الفساد والرشوة والاضطهاد • وما دام الوالى الاقليمى يمد الدولة بالرجال والايرادات ، ويضع اقليمه تحت الضبط والربط ، فان أحدا من رجال الادارة الامبراطورية لم يكن ليبالى بالنظر فى الأسلوب الذى كان يسلكه هناك • وكان الباشا القاسي الفؤاد أو الفاسد المرتشى يستمتع بحرية تصرف واسعة ، وربما جاز عزل الحاكم بسبب قلة كفايته أو التمرد عليه ولكنه لم يكن يعزل من أجل مجرد الفساد أبدا • وكانت كثرة التنقلات التى تجريها الدولة لولاة الأقاليم والقواد العسكريين ، من منطقة الى أخرى، حيث يقضون بضع سنوات قليلة في الحكم فى الاقليم الواحد ، تكاد تكون دعوة صارخة لهم لابتزاز الثروات من ولاياتهم بأسرع ما يستطيعون • وكانت هناك ألوان كثيرة من القانون المدنى فى الامبراطورية العثمانية ، كما كان هناك القانون الاسلامي : وهو « الشريعة » ، الذى زاد أهمية بسرعة كبيرة ، ولكن المرء انما يتردد في وصف الامبراطورية العثمانية بانها استمتعت ذات يوم بسيادة القانون •

كان القاضي هو الذى ينفذ القانون العثمانى محليا • وكان هو أهم مدير للشئون فى المستوى المحلى ، وكانت الدائرة التى هو مسئول عنها تسمى كازا (Kaza) أو قاضيلوك (Kadiluk) أى دائرة اختصاص القاضي (٢١) • وكان العدد منها يؤلف سنجقية ، وهى المنطقة الادارية العسكرية • وكانت كل سنجقية منطقة مترامية ومهمة ، ولكنها فى حد ذاتها كانت قسما جزئيا من الايالة (Eyalet) ، وهى أكبر وحدة ادارية تتكون منها الامبراطورية • وكانت أول سنجقية ، أقامها الترك بعد غزوهم للبوسنة هى سنجقية البوسنة نفسها ، التى جعل مقرها الادارى فى سراييفو أولا (حتى ١٥٥٣) ، والثانية فى بانيالوكا (حتى ١٦٣٩) ، ثم فى سراييفو للمرة الثانية (حتى تسعينيات الألف وستمئة) ، وأخيرا فى ترافنيك • ثم أقيمت بعد ذلك بقليل سنجقية زفورنيك الى الشمال الشرقى ، وسنجقية الهرسك فى ١٤٧٠ • ثم أنشئت خمس سنجقيات أخرى فى القرن السادس عشر وهى تتكون جزئيا من أرض اقتطعت من كرواتيا وسلافونيا • وحتى عام ١٥٨٠ كانت كل هذه السنجقيات تشكل

جزءا من ايالة روميليـــا (Rumelia) ، وهى الولاية التى تغطى معظم بلاد البلقان (٢٢) • ولكن فى تلك السنة اتخذ قرار بانشاء ايالة منها جميعا : هى ايالة البوسنة • وكان معنى ذلك ، أنها كان يحكمها حاكم بأعلى رتبه وهى الباشوية : بيك البكوات (Beylerbey) بالتركية و « بيجلر بج » (Beglerbeg) بالصربوكرواتية أى « سيد السادات » • وبذلك أصبح هناك الآن كيان بوسنى حديث ، كان يضم كل البوســـنة والهرسك ، بالاضافة الى أجزاء مجاورة من سلافونيا وكرواتيا ، ودالماشيا وصربيا(٢٣) • وبينما كان على مملكة صربيـا القديمة أن تظل مقسمة الى عدد من الوحدات الأصــغر حجما ، التى ألف الكثير منهــا أجزاء من ايـالة بودا (Buda) أو روميليا ، فان البوسنة ظلت مستمتعة بهذا الوضع القانونى الخاص بوصفها وحدة ذاتية لمنطقة كبرى ، طوال الشطر الباقى من فترة الحكم العثمانى •

الفصل الخامس

اعتناق البوسنة الاسلام

ربما لم يكن وصول الترك فى القرن الخامس عشر ، فى الراجح ، أول احتكاك بين البوسنة والاسلام • فان التوسع العربى فى البحر المتوسط ، الذى كان توصل عند القرن التاسع الى انشاء الحكم الاسلامى فى كل من كريت وصقلية وجنوب ايطاليا وأسبانيا ، لابد أنه اجتلب تجار العرب ومغيريهم عدة مرات الى ساحل دالماشيا • ومن المؤكد أن تجارة الرقيق فى ذلك الساحل ، التى ، كما رأينا • نشرت الرقيق البوسنيين فى غرب البحر المتوسط ، فى الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى ، كانت تمارس خلال هذه الفترة المبكرة : فان الرقيق السلاف من منطقة البحر المتوسط كانوا موجودين بأسبانيا منذ أوائل عهدها الاسلامى ، كما أن حكام الأندلس الشراقنة (*) ، معروف عنهم انهم كانوا يمتلكون جيشا سلافيا عدته ١٣٧٥٠ مقاتلا فى القرن العاشر (١) • ولكننا لا نستطيع هنا الا الرجم بالغيب حول ما اذا كان هؤلاء الرقيق البوسنيون اعتنقوا الاسلام، وحصلوا على حريتهم ، وعادوا الى موطنهم الأصلى • والرجم بالغيب أيضا هو أقصى ما يمكن عمله عند بحث علاقة البوسنيين بمسلمى المجر فى العصور الوسطى — وتجار العرب وسلالة القبائل التركية التى اعتنقت الاسلام ، وغيرهم من المهاجرين • والمعروف عنهم أنهم عاشوا فى الكثير من أجزاء الأراضى المجرية بما فى ذلك سترم (Strem) ، وهى المنطقة الملاصقة لشمال شرق البوسنة ، حتى طردوا من المجر هم واليهود ، أثناء القرن الرابع عشر (٢) • ومن اليسير علينا فهم السبب الذى أجج فى العلماء المسلمين الرغبة فى ترسيخ فكرة أن الاسلام كان له وجود بالغ القدم فى أرض البوسنة ، لعله أقدم من الدولة البوسنية نفسها • ولكن من الواضح أن الأهمية التاريخية لهذه الاتصالات الممكنة المبكرة ضئيلة • فالاحتكاك أو الاتصال شىء ، والتحول الجماعى الى ومن دين لآخر ، شىء آخر •

(★) الشراقنة Saracens ، أى العرب الشرقيين — (المترجم) •

وعندى أن اعتناق شطر كبير من السكان للاسلام فى عهد الترك ، يظل أهم ظواهر التاريخ البوسنى الحديث أهمية وتميزا • وقد نشأت أساطير كثيرة حول طريقة حدوث ذلك وأسبابه ، ولازال بعضها يتسرب من بعض المؤلفات العلمية القديمة (وغير العلمية الحديثة) الى عقول البوسنيين العاديين • فحتى العقد الخامس من هذا القرن ، حينما بدأ العلماء التحليل الجدى للسجلات الادارية العثمانية ، كان الكثير من البينات والشواهد غير متاح • ومن ثم استطاعوا خلال العقود التالية تكوين صورة أشد استيفاء للتفاصيل بكثير ، كما أن بعضا من أشيع الحكايات والأساطير حول اعتناق البوسنة الاسلام ، قد شيعت الى مثواها الأخير •

ولا مراء فى أن خير مصدر للمعلومات هو « الدفاتر » العثمانية ، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو العقارات ، والتى تقسم الناس الى فئات حسب أديانهم • فمن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء للتفاصيل حول انتشار الاسلام فى البوسنة • وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ ـ ١٤٦٩) أن الاسلام كان محدود الانتشار ، فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو . ففى منطقة شرق ووسط البوسنة ، التى تغطيها تلك السجلات ، كانت هناك ٣٧١٢٥ دارا للمسيحيين ، بينما لم يكن للمسلمين سوى ٣٣٢ دارا • فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط فى المتوسط ، لأعطانا ذلك عددا يصل الى ١٨٥٣٢٦ مسيحيا ، وهناك قائمة منفصلة تحصى عدد العزاب والأرامل بين المسيحيين بتسعة آلاف • وكانت نصف البيوت المسيحية وثلثا عدد بيوت المسلمين (٢٣٤ بيتا) من الرعية البسطاء الذين يعيشون فى ضيعات (تيمارات) عادية ، بينما الآخرون يعيشون فى ضيعات (أخصاص) أكبر حجما ، أو بالمدن ، أو على اراضيهم الخاصة • والعالم الذى حلل هذه الوثائق لأول مرة هو نديم فيليبوفيتش (Nedim Filipovic) لاحظ أيضا أن انتشار الاسلام كان يسيرا جدا بأرض الهرسك ، وأنه كان يسير بخطى أوسع ـ وهو أمر لا يدعو لأية دهشة ـ بالمنطقة المحيطة بسراييفو ، التى ظل الترك يملكونها منذ أربعينيات القرن الخامس عشر (٣) • وبعض المحتازين للتيمار ، يوصفون تحديدا فى تلك الدفاتر القديمة ، بأنهم « مسلمون حديثو الاسلام » ، ولبعضهم الآخر اسم مسلم قد يسجلون بأنهم « ابن ••• » أى ابن فلان ـ والوالد يحمل اسما مسيحيا (٤) •

والدفتر التالى الذى حلل تحليلا وافيا ، يغطى سنجقية البوسنة لعام ١٤٨٥ ، وهو يظهر أن الاسلام قد بدأ الآن يحدث تقدما له ضخامته •

فكانت هناك دور مسيحية عدتها ٣٠٣٥٢ ، و ٤٢٩٢ من الأفراد المسيحيين بين عزاب وأرامل ، و ٤١٣٤ دارا مسلمة ، و ١٤٦٠ من المسلمين العزاب (٥) • ونعود الى التعداد مرة ثانية . فلو فرضنا وجود خمسة أفراد في كل دار لأعطانا ذلك ١٥٥٢٢١ مسيحيا ، و ٢١١٣٤ مسلما ، ولو قورن ذلك بأرقام عامى ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩ ، فان الهبوط فى الأرقام الكلية (التى تكاد تكون أعظم فى حقيقة الأمر وواقعه) لو أخذ في الاعتبار نسبة نمو السكان العادية ، يكون لافتا للنظر حقا ، ففى تلك الفترة كان هناك نزوح متواصل الى خارج البوسنة ، وتذكر السجلات عددا كبيرا من القرى المهجورة • وبطبيعه الحال كان غير المسلمين هم الذين فروا ، وكان المعتنقون للاسلام هم الذين تخلفوا • ولكن في أثناء العقود الأربع التالية ، ظل عدد السكان الكلى ثابتا ، ولكن زادت نسبة المسلمين أكثر كثيرا : وتسجل لنا دفاتر عشرينيات القرن السادس عشر أرقاما كلية حول سنجقية البوسنة ، يشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فردا ، والمسلمون ٨٧٥٧٥ فردا (٦) • ونظرا لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين الى داخل البوسنة ، أثناء تلك المدة ، فان الرقم ينبغى أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للاسلام •

وما لبثت عملية اعتناق الاسلام أن زادت سرعتها تدريجيا فى الهرسك ، اذ أن هناك تعليقا صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك في ١٥٠٩ ، وفيه يلاحظ أن كثيرا من أفراد الشعب الأرثوذكسى قد اعتنقوا الاسلام عن رضا وقبول (٧) • وفى شمال البوسنة وشمالها الشرقى لم يتيسر لانتشار الاسلام أن يتم الا ببطء في مواكبة التوسع على حساب المجر • وما أن اكتمل الفتح فى عشرينيات القرن السادس عشر ، حتى انتشر الاسلام بصورة أسرع قليلا • ويدعى المؤرخ الدومينيكى الأب ماندينتش (Mandic) أن حملة متعمدة من الاضطهاد للكاثوليك لاجبارهم على اعتناق الاسلام قد شنت لأول مرة فى المدة بين ١٥١٦ و ١٥٢٤ (٨) • بيد أن الدراسة البالغة التفصيل لشمال شرقى البوسنة فى أثناء تلك المدة التى سطرها آدم هانجيتش (Adem Handzic) ، لا تؤيد ادعاء ماندينتش وان أظهرت فعلا أن كثيرا من الكاثوليك هاجروا من المنطقة ، وأن خمسة من الأديرة العشرة الفرنسيسكانية هناك ، قد أوصدت أبوابها وكفت عن العمل • ويكشف هانجيتش أيضا عن أن الكاثوليك كانوا أقرب ـ وبصورة مفهومة أكثر ـ الى اعتناق الاسلام كلما بعدت الشقة بين ديارهم وبين الكنائس الكاثوليكية • وكان المكان الذى أبدى أشد مقاومة هو سربرينيكا وكان بهـا خليط كبير من السكان الجرمان والراجوزيين الكاثوليكيي العقيدة ، وظل الكاثوليك يشكلون ثلثى عدد سكانها فى منتصف القرن السادس عشر • وكان انتشار الاسلام فى المدن أوسع منه

فى المناطق الريفية فى العـادة ، وكان المسلمون يمثلون ثلث عدد سكان شمال شرق البوسنة فى سنة ١٥٣٣ ، ثم ارتفعت نسبتهم الى ٤٠٪ فى سنة ١٥٤٨ (٩) ٠

وتعوزنا أية أرقام دقيقـة حـول السنوات التاليـة فى القـرن السادس عشر ، حيث عدلت الحكومة عن استخدام الدفاتر ٠ ولكن يبدو واضـحا أنه قد جـاء أوان فى أخريات القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر أصبح المسلمون فيه غالبية مطلقة ، بمنطقتى البوسنة العصرية والهرسك ٠ ومنذ بواكير القرن السابع عشر ، يوجد بين أيدينا فعلا ، بعض البيانات التى كتبها قساوسة كاثوليك زائرون ، جمعوا فيها تقارير وبيانات تفصيلية من أجل روما ، وكانت أرقامهم نقـلا عما سمعوه ، واستخدامهم لتعبير « البوسنة » مطاطا ، كما أنهم فيما هو واضح كانوا شديدى الحرص على تأكيد : اما القوة العـددية للكنيسـة الكاثوليكيـه او المبالغة فى درجة الاضطهاد التى كانت تقاسيها ٠ ومن هؤلاء زائر مسيحى ذكر أن عدد الكاثوليك فى البوسـنة كلها كان مئتين وخمسين ألفـا فى ١٦٢٦ ، وأضاف الى ذلك قوله ان عدد المسلمين كان أكثر من العدد الكلى للمسيحيين (١٠) ٠ وثمة آخر هو القسيس الألبانى والزائر الرسـولى بيتر مساريكى ، قدم فى ١٦٢٤ تقريرا قائما على التحرى الدقيق ، ومن سوء الحظ أن الأرقام التى قدمها حول البوسنة لقيت أسوأ تفسـير من كل المؤرخين الذين تناولوها تقريبا ٠ وفى الحقيقة فان ما ذكره هو أن عدد الكاثوليك كان مئة وخمسين ألفا والأرثوذكس الشرقيين خمسة وسبعين ألفا والمسلمين أربعمئة وخمسين ألفا (١١) ٠

واستغرقت عملية تحول معظم سكان البوسنة الى الاسلام ، الشطر الأعظم من مئة وخمسين سنة ٠ وعلى ضوء البينات التى تجمعت حتى اليوم، يتضح أن بعضا من أقدم الأسـاطير حول هذا الأمر انما هو هراء يمكن نبذه ٠ وعلينا أن نرفض تماما فكرة جلب المسلمين فى جماعات كبيرة من خارج البوسنة واسكانهم فيها : فرغم أن العثمانيين استجلبوا فعلا بعض الشعوب التركية الى مناطق أخرى من البلقان ، فان الدفاتر تؤكد أن مثل هذه السياسة لم تطبق فى البوسنة أبدا ٠ وربما اختلط الأمر على قلة من زوار البوسنة من الأجانب الذين اختلط عليهم الأمر لضحالة علمهم عندما وصف مسلمو البوسنة أنفسهم بأنهم « أتراك » ، ولكن لم يكن معنى ذلك أنهم كانوا يعدون أنفسهم أتراكا فهم كانـوا يستخدمون دائما مصطلحا مختلفا لوصف « الأتراك العثمانيين » : اما عثمانلى (Osmanli) أو تركوش (Turkosh) (١٢) ٠ ولا شك فى أن بعض المسلمين من تجار وحرفيين

وفرسان (سباهى) - توافدوا للاقامة ببلاد البوسنة من الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، ولكن بعض هؤلاء ، وفيهم فيما يحتمل نسبة ضخمة فى أخريات القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، كانوا سلافا مسلمين من بلاد سلافية أخرى . والتاريخ يقول ان الجنود غير السلافيين الذين خدموا مع القوات البوسنية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستقروا فى الأراضى البوسنية ويستوطنوها الا فى القليل النادر (١٣) .

وبالمثل ، فان الفكرة القائلة بأنه جرى تحويل جماعى للبوسنيين الى الاسلام فى السنوات الأولى التالية للغزو ، انما هى فكرة واضحة الزيف : فان عملية التحويل للاسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال ، ومع أنه قد يعوزنا ذلك النوع من الشهادة الشخصية التى توضح لنا وتخبرنا كيف ولماذا كان الأفراد يقررون التحول الى الاسلام ، فان لدينا تعقيبات وملحوظات صدرت بين حين وآخر ، مثل تعقيب ذلك الراهب الوارد ذكره أعلاه ، وكلها تدل على أن الناس كانوا يعتنقون الاسلام بمحض ارادتهم المطلقة . وتشير الدفاتر أيضا ، بوصفها بينة وشاهدا ، الى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصروا على التمسك بعقيدتهم : وكان من الأشياء الطبيعية لدى الناس ، أن يصبحوا مسلمين ، ويتسموا بالأسماء الاسلامية ، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلتهم المسيحية (١٤) . وتساعدنا هذه العادة أو الممارسة على تفسير السبب الذى من أجله احتفظ مسلمو البوسنة بالطريقة السلافية للأسماء الملقبة بالآباء : وهناك تدوينات كثيرة وردت فى الدفاتر المبكرة من نوع « فرهاد بن ايفان » أو حسن بن ميهايلو » . حتى اذا جاء الوقت الذى رسخت فيه الأسماء المنسوبة الى الأب بوصفها ألقابا للأسرة ، اذا بمعظم المسلمين وقد أصبح لهم أب مسلم ، بيد أنهم واصلوا تشكيل هذه الأسماء العائلية على الطريقة السلافية ، مقدمين الكنيات مثل حسنوفيتش وسليمانوفيتش (١٥) .

والقول بأنه لم تكن هناك سياسة عامة للضغط على الأفراد ، لا يعنى بأنه لم تكن هناك أية معوقات أمام عمل الكنائس المسيحية ولم تنزل بها أية مظالم . على أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أقلهن معاناة أثناء تلك الفترة العثمانية الباكرة لسببين : أن سياسة الحكومة العثمانية تحابى الكنيسة الأرثوذكسية على الكاثوليكية (كنيسة العدو النمساوى) ، وثانيهما الوجود الأرثوذكسى فى البوسنة ، باستثناء الهرسك ، كان

ضعيفا قبل الغزو التركي . ومن المؤكد أن عددا من السكان الأرثوذكس قد دخلوا في أجزاء كثيرة من البوسنة ، كنتيجة مباشرة للسياسة العثمانية . (وسنعالج ذلك الموضوع فيما بعد في الفصل السادس) . كما أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت مؤسسة معترفا بها في الامبراطورية (١٦) .

على أن الكنيسة الكاثوليكية ، وان منحت الوضع القانوني الضروري لها لمواصلة أنشطتها ، كان ينظر اليها بارتياب عميق (١٧) . وكان ينظر الى قساوستها على أنهم جواسيس محتملون للدول الأجنبية ، وكان ذلك الاتهام قائما على أسباب قوية : فان هناك مسئولا رسميا لحكومة البندقية يسجل في عام ١٥٠٠ تقريرا مرسلا من « رهبان فرنسيسكان بعينهم مكثوا حينا في البوسنة » ، وهو يحلل النوايا العسكرية للترك (١٨) . وفر كثير من الكاثوليك الى الأراضي الكاثوليكية المجاورة ، في نصف القرن الأول للحكم العثماني ، وبخاصة فيما يرجح أولئك الذين تعاونوا مع المجريين في أثناء محاولتهم التمسك بالجزء الشمالي من البوسنة . وكما رأينا ، فان خمسة من الأديرة الفرنسيسكانية العشرة في تلك المنطقة الشمالية الشرقية التي درسها آدم هانجيتش اختفت من الوجود أثناء عمليات الغزو التركي . وقبل دخول الترك البوسنة ، كانت هناك خمسة وثلاثون ديرا فرنسيسكانيا في البوسنة الحقة وأربعة بالهرسك . ومعظم هذه الأديرة لا وجود لها بالدفاتر ، اذ دمر بعضها في الحرب ، وبعضها الآخر (بكل من فوتشا ويايسه وزفورنيك وسربرينيكا وبيهاتش) قد حولت الى مساجد . وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر وجد فرنسيسكاني زائر أنه لم يبق الا عشرة أديرة في كل أرجاء البوسنة ، وقد ذكر كاثوليكي آخر هو الأسقف مارافيتش (Maravic) العدد نفسه في تقريره الذي كتبه في ١٦٥٥ (١٩) . وكان الفرنسيسكان هم رجال الدين الكاثوليك الوحيدين العاملين في البوسنة ، وفي ١٥١٤ قسمت الوحدة الكاثوليكية الادارية في البوسنة الى دائرتين ، هما البوسنة الكرواتية (أي كرواتيا غير العثمانية) ، و « البوسنة الفضية » (أرجنتينا) أي البوسنة نفسها ، وكان الفقر قد حل بالدائرة الثانية وأضحت معزولة عن العالم . ومع أن الكنيسة في البوسنة لم يكن لها مصدر ايراد الا ما يرد اليها من مال من الخارج وهبات من رعاياها المخلصين ، فان الولاة العثمانيين المحليين كانوا يجدون كثيرا من الفرص لابتزاز المبالغ الضخمة منها . وكان الولاة الأكثر تقلبا في الأهواء يستخدمون أية ذريعة لطلب المال ، وهناك تقرير يضج بالشكوى مرسل من البوسنة الى روما في ١٦٠٣ وهو يصف كيف أن الفرنسيسكانيين قد اعتقلوا وأسيئت معاملتهم

في السجن وكلفوا بدفع ثلاثة آلاف أسبر (Aspers) (وهي عملة عثمانية) مقابل الحصول على تصريح لهم بالبقاء في أديرتهم (٢٠) • ومن الجلي أن الظروف المحيطة برجال الدين الكاثوليك كانت عسيرة ، وكانوا دوما عرضة للغصب والاكراه ، لا للتحول عن دينهم ، بل لابتزاز المال منهم •

وهناك نظرية أخرى شائعة حول نشر الاسلام في البوسنة وهي أن التحول الى الاسلام نتج عن التحول الجماعي لأعضاء الكنيسة البوسنية — التي تفترض النظرية بكافة أشكالها أنها كانت بوجوميلية • ولأول نظرة يكتشف المرء شيئا يستحق التصديق في هذا الادعاء : هو أن الكنيسة البوسنية والزيادة الضخمة في عدد المسلمين يشكلان أشد الأشياء تميزا حول التاريخ البوسني • فالكنيسة تنتهي بتحول السكان الى الاسلام ، فهل هناك أوقع من أن يفسر كل من هذين الأمرين الآخر ؟ على أن النظرية في أبسط أشكالها انما هي رأي واضح البهتان • صحيح أننا نستطيع الربط بين بعض جوانب الظاهرتين ولكنه ارتباط غير مباشر فحسب • وكما رأينا ، استغرقت عملية تحول البوسنة للاسلام أجيالا عدة • فلو أن المصدر الرئيسي لهؤلاء المسلمين المستجدين طوال تلك الفترة كان أتباع الكنيسة البوسنية ، لجاز للمرء منا أن يجد شواهد تدل على تلك العضوية المستمرة — شواهد تكون ضخمة في أول الأمر ثم لاتلبث أن تتناقص بالتدريج — في الدفاتر • ولكن الدفاتر تظهر أقل من سبعمئة فرد من الأعضاء في البوسنة على امتداد مئة وخمسين عاما تقريبا • ولدينا من الاسباب ما يحملنا على أن نعتقد أن الكنيسة البوسنية كانت في عداد الموتى الى حد كبير حتى قبل الغزو التركي وأن عدد أتباعها العلمانيين (*) في السنوات السابقة على انهيارها ربما لم يكن ضخما جدا على كل حال • وربما أقدم بعض هؤلاء الناس ، حسبما تورده بعض التقارير العصرية القليلة ، على الترحيب بالأتراك اغاظة وكيدا في مضطهديهم الكاثوليك (٢١) • بيد أن الترحيب بالأتراك شيء والترحيب بالاسلام شيء آخر تماما ، فان الأفراد الذين كانت سياساتهم تسترشد بقوة اخلاصهم للكنيسة البوسنية ، لابد أن يكونوا أقل الشعوب نزوعا الى التخلي عن ديانتهم • وقد بذل بعض الكتاب محاولات لاكتشاف أواصر روحية عميقة بين لاهوت البوجوميليين البوسنيين والمأثورات التصوفية الاسلامية ، وبخاصة صوفية طرق الدراويش (٢٢) • فان نحن رفضنا ، كما هو الواجب علينا ، نظرية البوجوميل حول الكنيسة البوسنية وجب أن نرفض هذا القول أيضا •

(*) العلماني هو غير رجال الدين •

والعلاقة الوحيدة التى يمكن أن تستنتج بين الكنيسة البوسنية والتحول للاسلام انما هى علاقة غير مباشرة وتكاد تكون سلبية · فنحن نرى من قصة الكنيسة البوسنية أنها عانت من الضعف والانهيار أثناء المدة السابقة على الغزو التركى · وقد كانت هناك فى بعض المناطق (كالهرسك والحافة الصربية من البوسنة الشرقية) ثلاث كنائس مختلفة تعمل كلها فى تنافس · أما فى معظم البوسنة الحقة فكانت هناك اثنتان : الكنيسة البوسنية والكنيسة الكاثوليكية · ولم تحظ أى منهما حتى العقود الأخيرة للمملكة البوسنية بدعممطلق من سياسة الدولة · ولم تفرضا فى مناطقهما نظاما صحيحا من الأبروشيات التى لكل منها رئيس كنسى · ولابد أن كثيرا من القرى كانت بعيدة عن منال كل من الأديرة الفرنسيسكانية والبيوت الديرية للكنيسة البوسنية فلا نكاد نرى راهبا او مسيحيا ولو فى زيارة سنوية · ولو أننا قارنا حالة الأمور هذه بمجريات الأمور فى صربيا أو بلغاريا ، حيث كانت هناك كنيسة قومية وحيدة وقوية وجيدة التنظيم ، لوضعنا أيدينا على سبب ضخم دعا الى ما لقيه الاسلام من نجاح أعظم ببلاد البوسنة · واستمرت المنافسة الشرسة بين الكاثوليك والأرثوذكس طوال فترة التحول للاسلام ، فبينما تحول بعض أتباع الكنيستين الى الاسلام فقد تحول بعض الكاثوليك أيضا الى الأرثوذكسية والعكس بالعكس (٢٣) · ومما له دلالته أن القطر البلقانى الآخر الوحيد (خارج اقليم تراقيا المأهول بالأتراك) الذى أصبح يحتاز أغلبية مسلمة من السكان هو ألبانيا ، التى كانت معترك منافسة بين الكنائس المسيحية (الكاثوليكية والأرثوذكسية) · بيد أن حالة ألبانيا كانت مختلفة هى الأخرى ، اذ يبدو أن هذا الاقليم كان قد دخل الاسلام نتيجة لسياسة عثمانية متعمدة ومقصودة لمساعدة المقاومة المقهورة بعد الحرب التركية البندقية فى القرن السابع عشر (٢٤) ·

•

واذا نحن أدركنا أن المسيحية لم تجد عونا كبيرا من أية منظمة كنسية فى كثير من أرجاء البوسنة ، أمكننا أن نفهم بشىء من الوضوح سيكولوجية اعتناق الاسلام · ومن نافلة القول ، الحديث عن هذه التحولات الدينية بالمصطلح الذى يستخدمه الناس حول مارتن لوثر مثلا أو الكاردينال نيومان · ففى المناطق الريفية التى يعوزها خدمة القسس ، كانت المسيحية (مهما كان مذهبها) قد أصبحت فيما يرجح لا تزيد كثيرا عن مجموعة من الممارسات والمراسم الشعبية التى كان بعضها خاصا بالميلاد والزواج والوفاة ، ويهدف بعضها الآخر الى دفع سوء الحظ وشفاء السقام ، والحصول على محصول جيد ، وهكذا · ولم يكن الانتقال من المسيحية

للشعبية الى الاسلام الشعبى شيئا كبيرا جدا ، فقد كان فى الامكان استمرار كثير من الممارسات عينها ، وان جرى ذلك تحت كلمات أو أسماء مختلفة اختلافا هينا • وبدون الوجود الراقب المتحكم لكنيسة ما ، والتحذير من الخطر المحدق بروح المرء الخالدة ، كان الانتقال ممكنا بغاية السهولة • وكثيرا ما كان الزوار البروتستانت للبلقان ممن كانوا يتسمون بالجدية والوقار ، يصدمون لتلك الاستهانة التى كان الناس يجرون بها هذا الانتقال • وقد لاحظ الطبيب الانجليزى جورج هويلر(George Wheeler) أثناء زيارته لكورنثة ، فى سبعينيات الألف وستمئة ، الملحوظة التالية فقال : « ان المسيحيين هنا ، بسبب افتقارهم للتعليم الجيد والقسيس الصالح الكفء الذى يعلمهم ، يقعون كل يوم فى المروق عن الدين ويتخلون عن دينهم مستبدلين به الخرافات التركية كلما ألمت بهم مصيبة صغيرة وكلما أحسوا بالسخط » (٢٥) •

وجدير بالذكر ان بعض الممارسات الدينية الشعبية الواردة فى أقدم المصادر كان لها بالفعل تاريخ طويل فى كل من التقاليد المأثورة للمسيحية والاسلام • فالايمان بالقوى الحافظة للألواح أو قصاصات الورق التى عليها كتابات دينية ــ اما على صورة حجاب، أو تدفن فى حقل لحفظ ووقاية المحصولات ــ كانت شيئا شائعا فى العصور الوسطى ولاتزال قائمة الى يومنا هذا ، بين كل من المسيحيين والمسلمين (٢٦) • وهناك مسافر فى ١٩٠٤ أخذته الدهشة حين رأى المسلمين والمسيحيين يشتركون فى « نفس المعتقدات الخرافية مثل قوة الأحجبة الواقية التى كثيرا ما كان المسلمون يلجأون الى مباركتها من الفرنسيسكانيين ويلبسونها لأطفالهم حول الأعناق أو على ملابسهم أو على طرابيشهم مثل الحيات والأسماك وبراثن النسور وقرون الوعول ، وما الى ذلك كله » (٢٧) • وكانت كل من الديانتين تحتفل بكثير من الأعياد والأيام المقدسة وتضم هذه الاحتفالات يوم يوربيفو (Jurjevo ، أى يوم عيد القديس جورج) وعيد اليندن (Ilinden) أى عيد القديس الياس (الذى كان معروفا عند المسلمين باسم اليديون (Alidjun • والأمر كما ينطقه المثل السائر : « فى الصبح الياس وبعد الظهر على » (٢٨) • وحيثما كان الموقف الأساسى من الدين عمليا وسحريا ، كان من الممكن استعارة عناصر الطقوس من دين لآخر خاصة الهامة منها ، وذلك لأن تلك العناصر كانت تعتبر أشدها قوة • لذا نجد المسلمين يقبلون أكثر الأيقونات المسيحية احتراما وتبجيلا ، كتلك الأيقونة القائمة فى أوليوفو ، أو يدخلون الكنائس المسيحيه للصلاة ، لذا نجدهم أيضا فى بواكير القرن التاسع عشر يطلبون تلاوة القداسات الكاثوليكية من أجلهم أمام صور العذراء التماسا لشفاء مريض

بمرض عضال (٢٩) • ويبدو أن نحلة أو عبادة العذراء مريم كانت شيئا شعبيا محبوبا لدى الناس بوجه خاص • وهناك راهب فرنسيسكاني هو « حارس » دير أولوفو ، كتب في ١٥٩٦ بأن الكنيسة كانت تحظى بأشد التبجيل عند المسلمين بسبب التعاقب المستمر للمعجزات التي تبهر العقول التي يجريها الله هناك بفضل توسط العذراء المقدسة » (٣٠) • وفي مقابل ذلك ، يوجد هناك أيضا سجلات تدون أن بعض المسيحيين كانوا يستدعون الدراويش المسلمين لقراءة القرآن عليهم ابتغاء شفائهم من مرض وبيل • وهناك دراسة واسعة لهذا الموضوع تمت بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية وتوصلت الى التالي : « ان النزوع الى المشاركة يبدو بطبيعة الحال أقوى ما يكون •• حيثما التقت جميع الطوائف على أساس مشترك بينها من الخرافات الدنيوية » (٣١) •

وينبغي لنا على هذا الأساس أن ننظـــر الى الجانب الخفي السري الآخر في التاريخ الديني البوسني ، الذي بدل حسبما يقول بعض الكتاب على وجود علاقة ما بين الاسلام والكنيسة البوســنية القروسـطية : هي البوتور (Potur) • والمعنى الأصلي لذلك الاسم غامض ، وكان يستخدم على العموم في الاشارة الى البوسنيين السلافيين من الفلاحين أو الريفيين الذين تم أسلمتهم أو أتركتهم ، الذين ربما احتفظوا ببعض الممارسات المسيحية • وكان عمدة المصادر في هذا الموضــوع وصف كتبه في فترة لاحقة الدبلوماسي الانجليزي بول رايكوت ، وقد خلع عليهــم الانتســاب الى طائفة دينية ، (ولكن هذا كما سترى فيما بعد رأي مضلل) • وقد ذهب بعض الكتاب الى أن كلمة « بوتور » مشتقة من كلمة « باتارين » (٣٢) • على أن هذا الاشتقاق ينبغي أن ينبذ لمجـرد أن « باتارين » كان مصطلحا ايطاليا أو راجوزيا ، كما أنه لم يستخدمه البوسنيون أنفسهم أبدا • ولكن لفظة « بوتور » من الناحية الأخرى كانت مصطلحا استخدمه منذ القرن السادس عشر الى الثامن عشر كل من البوســنيين والأتراك • وتفسرها الدراسة اللغوية الشعبية كصورة مختصرة لكلمة « بولوترك » (Polu-turk) الصربو ـ كرواتية ، ومعناها « نصف التركي » ، وهو أمر له بالفعل بعض الارتباط بطريقة استعمال الكلمة في تلك المدة • وهناك اشتقاق آخر من الفعل الصربو كرواتي بوتورشتي سي (Poturcti se) ، ومعناه التترك أي أن يتحول الانسان الى تركي (يتأترك) •

ومع هذا ، فان أقدم استخدامات لهذا اللفظ باقية الى اليوم وردت في اللغة التركية وليس في الصربوكرواتيـة • فبعد أن اتخذ البوســنيون المسلمون اجراءاتهم الخاصة في ١٥١٥ لارسال أبنائهم لتلقي التدريب والتعليم في اسطنبول ، أطلق المسؤولون العثمانيون على هؤلاء الأطفـال

جميعا اسم « بوتور » عندما ارسلوا الى القصر السلطاني (٣٣) كما أن عددا من الفرمانات السلطانية في المدة بين ١٥٦٥ الى ١٥٨٩ يمنح البوتور امتياز ارسال أبنائهم ليصبحوا النخبة الممتازة من الدوشرمة : ويستخدم مصطلح « بوتور » في هذه الفرمانات كتسمية عامة للسلاف البوسنيين المؤسلمين • وأقدم مرجع مكتوب يستخدم هذا المصطلح هو مجموعة القوانين الخاصة بالبوسنة التى أصدرها السلطان في ١٥٣٩ ، وهو أيضا يستخدم كلمة بوتور للاشارة للسكان البوسنيين المسلمين • على أن هناك مصدرا تركيا آخر . وهو تقرير حول قضية في سراييفو في ١٥٦٦ ، وقد ميز بين البوتور ، الذين هم كما هو واضح السكان البوسنيون المحليون وبين غيرهم من المسلمين ، الذين قد يكونون عثمانيين • وهناك معجم تركي بوسني (أي تركي صربوكرواتي) صدر في ١٦٣١ ، وهو يترجم « بوتور » بكلمة « القروى » (٣٤) • ومن العجيب أن أحدا من العلماء الذين شغلت ألبابهم هذه المسألة لم يقدم هذا التفسير الواضح وهو أن ذلك الاسم « بوتور » جاء من الكلمة التركية بوتور Potur . وهي كلمة تطلق على السراويل ذات الثنايا (حيث تعني الكلمة التركية بوت Pot الثنايا وكسرات القماش) ، وهو السروال الذى يلبسه الفلاحون ، وهو نوع كان يستخدم في أراضي البلقان الغربية ، وزحفت الكلمة أيضا الى اللغة الألبانية في صورة كلمة بوتورى (Poture) وهي تعرف في المعجم الأكاديمي الألباني : « سراويل واسعة للرجال ترتدى ببعض أجزاء ألبانيا ، مصنوعة من اللباد أو القماش الخشن الأبيض (٣٥) • وهناك الكلمة التركية بوتورلو (Poturlu)، التي تطلق على أى انسان يلبس البوتور ، وتنطوى أيضا على المعنى العام لكلمة « فلاح » • ومن هنا يبدو محتملا أن الكلمة كانت في الأصل مجرد تعبير مهين يستعمل للدلالة على أولئك الفلاحين السلاف البسطاء الذين ظلوا رغم اعتناقهم الاسلام ، أجلافا بدائيين وريفيين في نظر العيون التركية •

وازاء هذه الخلفية ، وبالنظر الى ما نعرفه اليوم من اختلاط الممارسات المسيحية والاسلام في العقيدة البوسنية ، يتكشف الغموض الذى كان يكتنف بعض الاشارات المتأخرة الى البوتور بأرض البوسنة • فقد قدم كاتب كاثوليكى الى البلاط الهابسبرجي تقريرا في ١٥٩٩ يتضمن أن هناك من البوتور عددا ضخما في المناطق التخومية للبوسنة قد احتفظوا بأسمائهم المسيحية وظلوا مسيحيين « قلبا وقالبا » ، وقال انهم يتمنون متى حرروا من الأتراك أن يعمدوا بكل سرور (٣٦) • وليس هناك ما يدعو الى الدهشة أن يقول قوم هذا اذا كانوا يرجون أن هذه الدولة المسيحية العظمى المجاورة سوف تحررهم ، وينبغي ألا يغيب عن بالنا أن هذا التقرير

كتب أثناء حرب عثمانية هابسبرجية طويلة ، زاد فى أثنائها عبء الضرائب والواجبات العسكرية على السكان البوسنيين زيادة ثقيلة . وببساطة تامة ، ليس من الضرورى أن نقرأ بين سطور هذه البينة علامات أو آثارا خفية تشهد بوجود تقاليد بوجوميلية باطنية . وهناك كاثوليكى آخر قام بزيارة البوسنة فى عشرينيات الألف وستمئة ، وقام بكتابة تعليقات مماثلة ، فقال : « قل بين « الأتراك » الذين يشتغلون فى الأرض (يعنى الرعية المسلمة البوسنية) من يستطيع التحدث بالتركية ، ولو أنهم لم يخافوا النار فانهم جميعا سيصبحون مسيحيين ، لعلمهم يقينا أن أجدادهم كانوا مسيحيين » (٣٧) . وواضح أن هذا الكاتب أيضا كان يدبج تقريرا للهابسبرجيين وكان حريصا على أن يقنعهم باعادة فتح البوسنة للكاثوليكية . ويبدو أن عددا من أمثال هذا التقرير قد أقنع النمساويين أنهم لو أقدموا فى أية لحظة من الزمان على حملة غزو ضخمة ، لأقبل عليهم السكان جميعا مرحبين ، ولكنهم منوا بخيبة الأمل عندما حاولوا ذلك فى ١٦٩٧ . ومن الممكن بطبيعة الحال ، أنه كانت هناك فى البوسنة ، مثلما كانت هناك أيضا فى أجزاء أخرى من العالم العثمانى ، حالات أصيلة من المسيحية الباطنية ، أو بمعنى آخر قوم لهم مظهر خارجى من الاسلام يتوارى وراءه تمسك خاص بالمعتقدات والممارسات المسيحية (٣٨) . على أنها كانت ظاهرة نادرة ، وتختلف اختلافا تاما عن ذلك النوع من المزج بين المسيحية والاسلام الذى سبق وصفه آنفا . وهى لاتنشأ الا ردا على سياسة اجبار الناس بالقوة على اعتناق دين جديد ، وهى سياسة لم تطبق بصورة عامة فى البوسنة .

وأخيرا ، يجيء الحديث المحير حول البوتور الذى قدمه بول رايكوت فى ١٦٦٨ . وتجيء اشارته اليهم فى ذلك القسم من كتابه الذى يبحث فى موضوع القاضيزادية (Kadizadeler) وهى حركة اسلامية متطهرة وشديدة الأصولية أحرزت تأثيرا عظيما فى اسطنبول فى بواكير القرن السابع عشر قبل أن تخمدها السلطات فى ١٦٥٦ . ويلاحظ رايكوت شدة تمسك تلك الحركة بالأصولية (« انهم قوم منضبطون وشديدو المواظبة فى مراعاة قواعد الدين ») ، ولكنه أضاف الى ذلك قوله انهم أدخلوا صلوات خاصة للموتى . من أجل ذلك كما يقول رايكوت ، « انضم اليهم كثير من « الروس » ومن شاكلهم من المسيحيين المارقين الذين ، نتيجة لفكرة مشوشة وتقريبا منسية عن الديانة المسيحية ، لا يزالون يحتفظون بذكرى عن « دار التطهير » و « الصلوات على الموتى » . ثم يواصل الحديث بعد ذلك قائلا :

« ولكن أفراد تلك الطائفة الذين يخلطون خلطا عجيبا بين المسيحية والاسلام ، كانـوا من الجند الذين يعيشـون على الأطراف القصية للمجر والبوسـنة ، وهم يقرءون الكتـاب المقدس باللسان السلافونى ٠٠٠ ، وبالاضافة الى ذلك تراهم يجنحون الى تعلم أسرار « القرآن » وقواعد اللسان العربى ، ولكى لايعـدوا أجلافا غلاظا أو أميين جهالا ، فانهم يقبلون على الفارسية المستخدمة فى البلاط ٠ وفى شهر الصيام رمضان ، فانهم يشربون النبيذ ٠٠ ويحسنون ويعطفون على المسيحيين ، كما أنهم على استعداد لحمايتهم من أذى الترك وعنفهم : ورغم ذلك فهم يعتقدون أن محمـــدا هو الروح القدس الذى وعد المسيح به الناس ٠٠٠ وينتسب البوتور البوســنيون لهذه الطائفة ، ولكنهم يدفعون الضرائب كما يدفعهـا المسيحيون ، ويمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب ، وهم يختتنون ، ويتخذون من مثل سلطة المسيح سندا مؤيدا لذلك » (٣٩) ٠

ويتمسك زعيم الدعـاة العصريين للنظـرية البوجوميليـة ، وهو ألكســندر سولوفييف ، بهذه الفقرة كدليـل على التطابق بين البوتـور والبوجوميل (٤٠) ٠ على أن الرابطة الوحيـدة مع ممارسات البوجوميل انما هى عبارة أنهم « يمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب » ، والمعنى الواضح لهذا كله هو أن البوتور كانوا يستخدمون الممارسات الاسلامية فى هذه النقطة (أو على الأقل كانـوا يدعون أنهم يفعلون ذلك عنـدما حدثوا المرشدين المسلمين الذين استمد منهم رايكوت معلوماته) ٠

وغنى عن البيان أن رايكوت قد ربط هنا بين مجموعات ثلاث متباينة من الناس برباط مزيف مع جماعة « المارقين عن المسيحية » ٠ واحدى هذه الجماعات هى طائفة القاضيزادية الأصولية المتطرفة ٠ وقوام الطائفة الثانيه هم الجند الذين كانوا يعملون بالمجر والبوسنة ، الذين كانـوا يقومون بأشياء لا يمكن أن يتقبلها المتدينون مثل شرب الخمر فى رمضان ٠ وبالنظر الى أميتهم وجهالتهم ودراستهم للعربية والفارسية ، فلابد أنهم كانوا من الانكشارية الذين تلقوا تعليما كاملا فى اسطنبول ٠ وبعض هؤلاء كانوا ، بغير شك ، من حيث الأصل ، بوتور بالمعنى المعتـاد ٠ وكان تهاونهـم واهتمامهم باللاهوت المسيحى يجعلهم يبـدون أقرب كثيرا الى طائفـة الدراويش البكتاشية ، وهى أكثر طريقة صوفية اتساعا فى الأفق ومصالحة بين المذاهب ، وكانت بصفة خاصة أكثر شعبية بين الانكشارية ٠ وكمـا لاحظ رايكوت بموطن آخر ، كانت هذه الطائفة موضع التنديد والكراهية الخاصة من القاضيزاديين بسبب سلوكها المتراخى (٤١) ٠ وهناك بعد ذلك

الطائفة الثالثة وهم البوتور : ويبدو أن السبب عند رايكوت فى وضعهم ههنا اما أن يكون الاختلاط الجغرافى مع الجند « على الأطراف القاصية ... للبوسنة » أو لأنهم هم أيضا كانوا من « المسيحيين المارقين » الذين كانوا يحتفظون ببعض العلاقات الشعبية مع المسيحية ' ولم يحدث قط أن زار رايكوت البوسنة ، ولابد أنه كان يعتمد على غيره لمده بهذه المعلومات ، وبدهى أنه ليس كل تفصيلة أو معلومة يمكن الاعتماد عليها (٤٢) • ولكن ، والحق يقال ، فان ادعاءه بأنهم كانوا يدفعون الضرائب « مثلما يفعل المسيحيون » (يعنى الجزية أو الخراج ، وهى ضريبة الرؤوس المفروضة على غير المسلمين) ربما كان صادقا ، اذ تذكر وثيقة رسمية بوسنية لأعوام ١٦٤٢ ــ ١٦٤٥ أن البوتور دفعوا الجزية ، ومن المعلوم أن المسلمين كان من الممكن مطالبتهم بدفع هذه الضرائب فى الظروف الاستثنائية عندما تشتد الحاجة للمال للمجهود الحربى (٤٣) •

وليس لبيان رايكوت هذا أية علاقة بالبوجوميلية : وبينما كان فى الامكان من الناحية الاحصائية أن قلة من البوتور كانوا فى الأصل من أتباع الكنيسة البوسنية ، فليس هناك أى تطابق اثباته هنا بين تلك الكنيسة وبين مجموع السكان الريفيين من المسلمين البوسنيين • وبالمثل ليست هناك أية علاقة حتمية بين بقايا تلك الكنيسة وبين مجموعات المسيحيين الذين كان الزوار الكاثوليك يلتقون بهم أحيانا فى المناطق النائية والذين لم يتبق لهم من دينهم سوى الاسم أو لم يتبق منهم سوى أفراد قلائل : وهم قوم « فى حالة تعسة ومن الجهل بدينهم ولولا أنهم غير مختونين لما جاز لهم أن يسموا أنفسهم مسيحيين » (٤٤) • وربما كان هؤلاء القوم بقايا مجتمع مسيحى ما عاش بدون خدمات قسيس أو كنيسة عدة أجيال متتالية • وأيا كانت هويتهم فانهم على كل حال لم يكونوا البوتور الذين هم ببساطة تامة الفلاحون المسلمون العاديون فى البوسنة •

وهناك أيضا نظرية خاطئة أخرى حول أسلمة البوسنة لابد من اشارة اليها ، اذ مازالت شائعة ، وان تقوضت على يد البحث التاريخى منذ ١٩٣٠ وما بعدها • وهى الادعاء بأنه عندما فتح الأتراك البوسنة ، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الاسلام بغية الاحتفاظ بمزارعها الاقطاعية • وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد الفرنسيسكانى والوطنى السلافى ايفان فرانيو يوكيتش (Ivan Franjo Jukich) الذى أصدر كتابا فى ١٨٥١ عن تاريخ البوسنة تحت اسم مستعار هو « سلافوليوب بوشنياك » (Slavoljub Bosnjak أى البوسنى المحب للسلاف) • وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستقراطية المسلمة فى البوسنة :

«أنهم نشئوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا الى مسلمين لأن التحول الى الاسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم . واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس فى كل رذيلة واتيان كل شر وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد» (٤٥) . وقد سبق أن رأينا كيف أن ذلك لاينطبق على موقف أى نبيل بوسنى استطاع فعلا أن يحتفظ بممتلكاته : فتحويل أرضه الى مزرعة تيمارية ، كان يفرض عليه أن يبقى شطرا كبيرا من السنة جنديا فى الخدمة العسكرية العاملة . (أما المزارع غير التيمارية أو الملك الحر Mulk فكانت ضربا من الحيازة مقصورا بوجه رئيسى اما على الحيازات الصغيرة أو على هبات كبيرة من الأراضى الممنوحة للعثمانيين) . وفى ثلاثينات الألف وتسعمئة لحظ المؤرخ فاسو تشوبريلوفيتش (Vaso Chubrilović) أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضى البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من الفرسان (السباهى) واحتفظوا ببعض مزارعهم ، ولكن ، كما لاحظ هو أيضا ، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض (٤٦) . وكان المسيحيون الفرسان (السباهى) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية ، وهناك واحد شهير منهم أصبح «جراح باشى» (Gerrah bashi) أى كبير الجراحين فى حاشية والى البوسنة فى سبعينات الألف وأربعمئة ، كان يدعى فيلاه سفينياريفيتش (Vlah Svinjarević) وتعنى ابن راعى الخنازير ، وهو اسم غير اسلامى بشكل يلفت النظر (٤٧) .

ومن الغلطات التى وقع فيها ايفان فرانيو يوكيتش افتراضه بأنه كان هناك خط متواصل من التعاقب والوراثة فى عائلات النبلاء من العهد قبل العثمانى ثم اعتناق الاسلام حتى يصل الى الأرستقراطيين المسلمين المالكين للأرض فى زمانه . وكما أوضح تشوبريلوفيتش وغيره من العلماء ، فان حيازة الأرض فى البوسنة العثمانية قد تقلبت عبر تلك المراحل ، ففقد ملاك أرضهم وأصبح غيرهم من الملاك بحيث ان هذه النظرية لا يمكن بأية حال أن تبرر سبب وجود المزارع الضخمة فى أيام يوكيتش . وهى مزارع نشأت نتيجة للتطورات المتأخرة الاجتماعية والسياسية ، كما أنها تكونت بصفة رئيسية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . وحتى لو رجعنا للوراء الى القرن السادس عشر لوجدنا أن نظرية يوكيتش أقرب الى الزيف منها الى الصدق . فقد قامت مؤرخة معاصرة بدراسة تفصيلية حول أصول ثمان وأربعين عائلة ممن ينتمون الى طبقة المسلمين الأرستقراطية من ملاك الأراضى فى البوسنة فى القرن السادس عشر . وخلصت فى النهاية الى أن خمسا منها بالتأكيد ، واثنتين فيما يحتمل ،

انحدروا من طبقة النبلاء العليا القديمة (ما قبـــل العهـــد العثمانى) . وانحدرت سبعة بالتأكيد وسبعة بالاحتمال ، من العائلات النبيلة الأقل شأنا ، وكان لسبعة منها أصـــول بوسنية عادية ، وأربعة أو خمسة كان لها أصول سلافية غير بوسنية ، وأربعة أو خمسة كان لها أصـــول غير سلافية ، وفي احدى عشرة حالة لم يتيسر الوصول الى الأصول (٤٨) . ومن المعلوم أن كثيرين من النبلاء البوسنيين قد لقوا مصرعهم أو فروا من البلاد أثناء الغزو التركي ، كما أن بعض النبلاء الأقل شأنا قد أخذوا عبيدا . ولم يكن هناك حلف بين « كبـار النبلاء » وبين الأتراك لمقايضة المسيحية مقابل حياة من الدعة و « اتيان الشر » .

والفكرة الشائعة القائلة بأن بعض الناس اعتنقوا الاسلام رغبة فى تحسين مركزهم الاقتصادى أو الاجتماعى أمر لا سبيل الى انكاره ، لأن هذه الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر . ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للاســلام . بيد أن الدافع الاقتصـــادى لا يمـكن أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم احدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين ، وهى الجزية أو الخراج . وكانت هذه ضريبة ســنوية ما لبثت أن أصبحت نوعا من ضريبة الرأس التدريجية : ففى القرن الســادس عشر كان معدل المدفوع أربع دوقيـات للأغنياء واثنتين لمتوسط الحال ودوقية واحدة للفقير (٤٩) . (وفى ذلك الوقت كانت دوقية البندقية تستطيع أن تشترى فى المتوســط عشرين كيلوجراما من القمح فى البندقية ، بينما تشترى الدوقية النمساوية قدرا أكبر قليلا) (٥٠) . وربما زادت الضريبة فى أوقات الحرب ، لذا فان أكثر التقارير شنعة فى وصف معاناة المسيحيين الذين يقاسون الأمرين من الظلم العثمانى بالبوسنة ، كانت تجىء أثناء فترات من زيادات ثقيلة من الضرائب كانت تفرض على الناس للقيـام بحمـلات على البندقيـــة أو آل هابسبرج . ولكن ربما حدث فى بعض الأحيان ، كما أشرنا آنفا ، أن الضرائب فرضت أيضا على المسلمين أنفسهم . أى أن الرغبة فى تجنب هذه الضريبة لم تكن بالقوة التى تدفع المرء الى التحول عن دينه الأصلى ، ولا ينبغى لنـا أن ننسى أن المسلمين كانـوا ، على العكس من المسيحيين ، يدفعون الزكاة أيضـا ، التى هى أحـد الفروض الأساسية فى الاسلام . (وعلى غرار الزكاة ، ربما اضطر المسيحيون الأرثوذكس الى دفع مكوس الى الكنيسة الأرثوذكسية ، أما الفرنسيسكان فكانوا يعتمدون أكثر على التبرعات) . وكان بعض المسلمين عرضـــة للاستدعاء الى أداء الخدمات العسكرية اما فى ميليشيات المدن أو كجنـود فى الكتائب التى يرسلهـا « الفارس » ، فى حين أن المسيحيين كانـوا عادة يعفون من أداء مثل هذه الواجبات فيما عدا مناطق الحدود .

وليس حقيقيا أنه لم يكن بد لأى انسان من أن يكون مسلما ، لكى يثرى فى الامبراطورية العثمانية • فهناك عدد جم من التجـــار الموسرين الناجحين ـ ما بين يـونانى وأفلاقى وأرمنى ـ ممن لم يتخلوا قط عن مسيحيتهم • ولكن منذ أوائل القـــرن السادس عشر على الأقل لم يكن هناك بد للانسان من أن يكون مسلما لكى يتيسر له أن يحظى بمنصب فى هيكل الدولة العثمانية نفسها • وكما رأينا ، فان نظام الدوشرمة فى أخذ جزية الأطفـــال صب تيـارا ضخما من شبان البلقان الى الجيش وادارة الامبراطورية • وكان يقال عن البوسنيين انهم يكافأون مكافأة خاصة : فقد لاحظ كاتب نمساوى سلوفينى فى ١٥٣٠ أن السلطان كان يفضل أن يجند البوسنيين ، لأنه كان يعتقد فيهم أنهم « خير الرجال وأكثرهم ولاء وتقوى » ، وأنهم يختلفون عن غيرهم من « الأتـــراك » فى أنهـــم كانوا « أبسط قامة وأكثر وســامة وأقدر جهدا » (٥١) • ومع أن الانكشارية ورجال الادارة فى الامبراطورية كان من الممكن أن يخدموا فى أى جزء من الامبراطورية ، وكان الانكشارى يضطر أن يظل عزبا أثنـــاء خدمتـــه العسكرية ، فان منهم من كان يعود فى خاتمة المطاف الى وطنه ويعطى هبات ضخمة من الأرض • وبعد أداء الانكشارى الخدمة على مدى عشرين عاما كان بوسعه أن يتخذ زوجة ويكون أسرة • وكان نظـــام الدوشرمة أحد العوامل الكبرى فى نشر الاسلام بكل أرجاء البلقان ، وكان أثره قويا بوجه خاص ببلاد البوسنة (٥٢) •

وثمة عامل اجتماعى آخر ساعد على انتشار الاسلام ، هو الوضع القانونى الممتاز للمسلمين • وقد وجه التفات مفرط الى قوانين الرعية ، وهى قوانين التمييز العنصرى التقليدية التى كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين : وكان من بعض المحظورات عليهم ركوب الخيل أو حمل السلاح أو لبس نفس الطراز من الملابس الذى يرتديه المسلمون (*) • بينما تظهر مصادر القرن السابع عشر أن القساوسة والتجار المسيحيين فى البوسنة كانوا يرتدون نفس الملابس التى كان يرتديهـــا المسلمون تقريبا ، وأنهم بالفعل كانوا يركبون الخيل وكانوا بالفعل يحملون الأسلحة • بل انه كان هناك بالفعل بعض طبقات من المسيحيين ، مثل الأفلاق العسكريين ، كانوا معفيين رسميا من تلك المحظورات • كما أن هناك محظورات أخرى واردة فى قانون الرعية كمنع المسيحيين من بناء الكنائس أو اصلاحها ، كان يتم التجاوز عنها فى الواقع اما بتصريح خاص أو عن طريق ذلك الامتيـــاز

(*) لم يكن هذا التمييز على أساس الدين حكرا على الاتراك ، بل كان شائعـا وسنة مرعية فى العالم بأسره آنذاك رغم انه أمر يتنافى مع جميع تعاليم الكتب المقدسة فى جميع الديانات ـ (المترجم) •

العام ، الذى منح أصلا للفرنسيسكان وأعاد تأكيده كل السلاطين الذين خلفوا بعضهم البعض (٥٣) • وبالرغم من هذا فقد كان هناك احساس معين يدفع المرء الى الشعور بأن على الرعية المسيحيين أن يبدوا الاحترام والخضوع للمسلمين الأعلى منهم ليس فقط لمجرد أنهم من مستوى اجتماعى أو رتبة اجتماعية أعلى بل وأيضا لأنهم كانوا مسلمين • وربما كان أهم امتياز شيئا لا يحتويه قانون الرعيـــة وهو المبدأ القائل بأن المسيحيين لا يجوز لهم اقامة الدعوى القضائية على المسلمين وأنه لاتقبل شهادتهم على مسلم فى محكمـــة • ومن الجلى أن هذا كان شـكلا خطيرا من التمييز القانونى ، وكان الشعور به دون أدنى ريب لذاعا جدا يحس به المسيحيون والمسلمون فى حين كانوا فى الحقيقة متكافئين اجتماعيا ــ سواء سكان المدن أو القرويين •

وبقى بعد ذلك كله أن نذكر عاملين مهمين اجتماعيين واقتصاديين أسهما فى انتشار الاسلام بالبوسنة : وهما الرقيق ونمو المدن الاسلامية • وكان أخذ الرقيق فى الحرب ــ ولم يكونوا فقط مجرد جند من الأعداء بل ومن السكان المحليين أيضا ــ سنة عثمانية مقررة • كما كان عادة تمارس على معيار أصغر عند الدول المسيحية أيضا • فقد سيقت أعداد ضخمة من العبيد الأرقاء فى خضم حملات الترك على آل هابسبرج : فأخذ سبعة آلاف من كرواتيا فى ١٤٩٤ مثلا ، ومئتا ألف ، (فيما تزعم التقارير) ، من المجر ومن سلافونيـا فى ١٥٢٦ (٥٤) • ومتى اعتنق الأرقاء الاســلام كان فى امكانهم التماس الحرية ، ولذا فان أولئك الأرقاء الذين اجتلبوا للبوسنة ، وذلك بوجه خاص من الأراضى السلافية المحيطة وهى دالماشيا وكرواتيـا وسلافونيا ، أسهموا حتما اسهاما ضخما فى نمو عدد السكان المسلمين • وكان من المحتمل بوجه خاص لدى هؤلاء الأرقاء بعد تحولهـم الى الاسلام وعتقهم أن ينتهى بهم الأمر الى السكنى فى المدن النامية التى كانت تتيح لهم فرصا جديدة للعمل • ففى ١٥٢٨ كان هؤلاء الأرقاء المعتقين يشكلون ما يقارب الثمانية بالمئة من سكان سراييفو بأكملهم (٥٥) •

وغلب الطابع الاسلامى على معظم المدن الكبرى التى نمت واتسعت بأراضى البلقـان العثمانيـة • وكانت تكتظ بالمعاهد الاســلامية والمبانى الاسلامية • ولكن المدن الكاثوليكية القديمة بالبوسنة مثـل سربرينيكا وفوينيكا وأولوفو بما حوت من تجار راجوزيين وعمال مناجم من الألمان صمدت أمدا طويلا ازاء الأسلمة ، ولكنها ما لبثت فى النهاية أن تحولت الى الاسلام • (وكانت أهميتها الاقتصادية آخذة فى الاضمحلال وان استمر بالفعل استخراج المعادن الثمينة رغم صدور حظر راجوزا استيراد الفضة

من الأراضى التركية) (٥٦) • والمدن التى اصبحت مقر حكام السنجقيات (Sandžakbeg) مثل بانيالوكا وترافنيك وليفنو ، اكتسبت الطابع الاسلامى بشكل أسرع • أما المدن مثل موستار وسراييفو ، التى لم تبدأ فى التطور الحق الا فى منتصف القرن الخامس عشر ، فقد كان للاسلام حضور جارف منذ اللحظة التى وصل فيها الترك • ولا شك فى أن سرعة التطور كانت شديدة لافتة للأنظار • ففى السنوات الخمس عشرة للحكم التركى فى سراييفو (التى كانت تعرف قبل ذلك باسم فرهبوسنا) قبل ١٤٦٣ ، بنى الترك مسجدا و «تكة» (أى تكية باللغة الصربوكرواتية وتعنى مسكنا لطائفة من الدراويش) ، ومسافر خانة (أى فندقا للمسافرين) ، وحماما على الطراز التركى ، وجسرا يعبر نهر مليا كا (Miljacka) ومواسير للمياه ، والسراى وهى مقر بلاط الحاكم ، وهى الكلمة التى أعطت المدينة اسمها الجديد «سراييفو» • وكذلك أنشأوا فى بداية حكمهم السوق الكبيرة فى قلب المدينة (٥٧) • ورغم أن شطرا كبيرا من المدينة قد احترق ابان غارة مجرية فى ١٤٨٠ ، فسرعان ما أعيد بناؤه ووسعت رقعته • وكان سكان المدينة جميعا تقريبا من المسلمين ، وكانت معقلا عسكريا هاما ، وفى العقود الأولى من عمرها كانت ممتلئة بمهرة الصناع والتجار الذين كانت جهودهم ضرورية لدعم العمليات العسكرية • وفى أواخر القرن السادس عشر انقسم سكانها الى طبقتين : التجار والجند ولكل منهما قاضيه •

وجاء ازدهار سراييفو تحت حكم غازى خسروف بك (Gazi Husrevbeg) الذى تولى حكم سنجقية البوسنة لعدة فترات بين ١٥٢١ و ١٥٤١ • كان رجلا شديد الهمة ينطوى قلبه على عاطفة انسانية ، وكان ابن رجل اعتنق الاسلام من منطقة تريبينى (Trebinje) السلافونية بالهرسك (٥٨) • وقد بنى المسجد الرشيق الذى يحمل اسمه وهو جامع بيجوفا أى « البك » (Begova Dzamija) ومدرسة (أى معهدا دينيا) ودار كتب وحماما ، وخانين (فندقين) وبيزستانا (أى سوقا للقماش) مهما • وكان من عادة الأغنياء أن يوقفوا بعض أراضيهم للانفاق على مثل هذه المؤسسات (ولا يقتصر ذلك على المساجد والمدارس ، بل ينصب أيضا على الخانات والحمامات والجسور) • وهذا النوع من المؤسسات الدينية ـ الخيرية المعروف باسم الوقف (Vakuf) كان أساسا حيويا لتطور جميع المدن العثمانية ، كما ساعد على توثيق الروابط بين المؤسسات المدينة والمؤسسات الاسلامية المماثلة • وكان وقف غازى خسروف بك أغنى تلك الأوقاف جميعا ، كما أنه ظل قائما حتى القرن العشرين (٥٩) • وبحلول عام ١٥٣٠ كان سكان المدينة بأسرهم من المسلمين • وفى الامكان تقدير

مدى انتشار تأثير المدينة فى المناطق المحيطة بها ، حين نعلم أن ستة وثلاثين بالمئة من المناطق الادارية المحلية كانت مسلمة هى الأخرى (٦٠) • وزادت سراييفو نموا فى عدد السكان ، حيث اجتذبت سكان المناطق الريفيـــه المجاورة ، وكان كثير من أسماء الشوارع القديمة مأخوذا من أسماء للقرى القريبة • وفى نهاية القرن السادس عشر كانت تضم عددا من المسيحيين ، بينهم جالية من التجار الراجوزيين ومجموعة صغيرة من اليهود • ومن بين ثلاث وتسعين محلة (أى حى ـ يتكون كل منها فيما يرجع من أقل من أربعين دارا) ، كانت اثنتان منها مسيحية واحدى وتسعون منها مسلمة • وكانت هناك أيضا ستة كبار وستة حمامات وثلاث بيزستانات وعدة دور للكتب وست تكايا وخمسة معاهد دينية وأكثر من تسعين كتابا أوليا (أى مدرسه ابتدائية) وأكثر من مئة مسجد • وكان الأهالى يتمتعون بامتيازات شتى منوعة ، واعفاءات من الضرائب ، ويرى بعض المؤرخين أنها أصبحت آنذاك مدينة حرة فعلا ، أو جمهورية ـ مدينة City republic (٦١) • وقد كانت الحياة فى سراييفو أثناء تلك المدة طيبة ومستساغة جدا ، بالمعايير البلقانية أو ، والحق يقال ، بأى معيار فى ذلك الزمان • ومن هنا يتضح لماذا أقبل كثير من البوسنيين بكل سعادة على اعتناق الاســـلام ليتالوا نصيبهم منه •

وأخيرا ، هناك عامل آخر لعب هو أيضـا دورا فى عمليـة أسـلمة البوسنة : هو نزوح السلاف المعتنقين للاسلام آنفا من خارج تخوم البوسنة الى داخلها • وقد سبق أن أشرنا الى أن بعض السلاف المسلمين قدموا فى السنوات الأولى بوصفهم فرسانا (سباهى) من صربيا ومقدونيا وبلغاريا ، ولكن أعظم نزوح جاء فى نهاية القرن السابع عشر ، عندما اجتلب تقهقر العثمانيين ، من المناطق التى طال احتلالهم لها بكل من دالماشيا وكرواتيا وسلافونيا والمجر ، كثيرا من السكان المسلمين فى تلك المناطق • ولا شك فى أن بعض هذه العائلات كانت من أصل بوسنى ، حيث كان أجـدادهم قد استقروا هناك بوصفهم فرسانا (ســباهى) بعد الفتوح العثمانية • وموجات النزوح هذه أضافت أعدادا غفيرة من السلاف المسلمين الى سكان البوسنة ، ولم تشكل هذه الحركة التى تمت فى ثمانينيات وتسعينيات الألف وستمئة موجة النزوح الوحيدة من نوعها ، وان كان بكل تأكيد أكبرها جميعا • وسنصف ظروفها وصفا أوفى فى الفصل السابع •

الفصل السادس

الصرب والأفلاق (★)

لم نعرض حتى الآن لذكر الكنيسة الأرثوذكسية الصربية الا لماما . وذلك لسبب بسيط ، هو أنه حتى العصر العثماني ، لم يكن للكنيسة الأرثوذكسية نشاط يذكر بمنطقة أرض البوسنة الحقة ، ولم يكن لها وجود مهم الا بأرض الهرسك . وكانت منطقة الهرسك في تاريخها القروسطي الباكر (وكانت تسمى هوم) جزءا من العالم الثقافي والسياسي للامارات الصربية ، مع كل من زيتا (الجبل الأسود) وراشكا (جنوب غرب صربيا) . وكان معظم نبلاء الهرسك من الأرثوذوكس أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك كانت فيما يرجح غالبية سكانها (١) . وفي أثناء القرن السابق على الغزو التركي الذى شهد نشاطا كاثوليكيا ، حصلت الكنيسة الكاثوليكية على مكاسب لها وزنها الضخم ، حيث أقامت أربعة أديرة فرنسيسكانية على أرض الهرسك : على أن بعض هذه المكاسب ما لبثت أن ضاعت ، وخاصة في القطاع الشرقي من الهرسك ، أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي عام ١٦٢٤ ، كانت هناك أربع عشرة أبروشية كاثوليكية لاتزال قائمة بشرق الهرسك ، ولم تنقض خمس عشرة سنة أخرى حتى كان المجموع هبط الى احدى عشرة كنيسة ، أربع منها كانت في حكم الخرائب (٢) .

ومن الناحية الأخرى ، يبدو أن « بانية » أو مملكة البوسنة لم تشهد نشاطا منظما للكنيسة الصربية الأرثوذكسية حتى وسع رقعتها الملك تفرتكو في سبعينيات الألف وثلاثمئة ، فضمت وادى الدرينا الأعلى (جنوب شرقي سراييفو) ، وأجزاء من منطقة الجبل الأسود الحديثة

(★) الأفلاق (Vlachs) : اسلاف السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية الذين سكنوا البلقان قبل السلاف ـ (المترجم) .

وصربيا ، بما فيها الدير الأرثوذوكسي فى ميليشيفو • ومع أن تفرتكو قد تم تتويجه فى ميليشيفو ، فانه كان وظل كاثوليكيا شـــأن جميع الملوك البوسنيين الذين أعقبوه ، (فيما عدا استثناء محتملا وحيدا هو أوستويا ، الذى ربما كان من أتباع الكنيسة البوسنية) • فأما فى خارج وادى الدرينا الأعلى ، فليس هناك أية علامات واضحة تدل على مبان كنسية أرثوذكسية بأرض البوسنة قبـل عصر العثمانيين • وقد ادعى أحـد مؤرخى الفنون الصربيين أن بعض الأديرة الأرثوذكسية بشمال البوسنة ترجع الى ما قبل الغزو التركى ، ولكن تأريخه ليس موثوقا به الى حد كبير (٣) • وبطبيعة الحال لا يستبعد أن أفرادا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية قد أقاموا فعلا فى البوسنة ، وتزوج بعض الأرستقراطيين من نساء من العائلات الصربية النبيلة ، وقد ورد ذكر أسرة أرثوذكسية بمنطقة فرهبوسنا (وهى المنطقة المحيطة بسراييفو العصرية) فى عشرينيات الألف وأربعمئة (٤) • ولا شك فى أنه قد حدث فعلا تسرب تدريجى من المؤمنين بالأرثوذكســية من بـلاد الهرسك الى المناطق المجاورة من البوسنة • وتدل بعض التقارير الكاثوليكية الصادرة فى خمسينيات الألف وأربعمئة ، على وجود تنافس على الأتباع بين الكنيستين ، ولكن ذلك كان انعكاسـا لشيئين : الرحلات التى كان يقوم بها الفرنسيسكان الى داخل الهرسك وتنافس الكنيستين على ازالة كل آثار الكنيسة البوسنية (٥) • ولو جاز لنا أن نستخدم لغة التنظيم الكنسى ، لقلنا ان الكنيسة الصربية الأرثوذكســية ظلت مختفية تقريبـا عن الأنظار فى منطقة البوسنة الحقة أثناء الفترة قبل العثمانية •

ومع هذا ، فبعد وصـــول الأتراك ، تبدأ الصورة فى التغير بأقصى سرعة • فمنذ ثمانينيات الألف وأربعمئة فصـــاعدا ، بدأ ذكر القسس والمؤمنين الأرثوذكس يرد فى أجزاء كثيرة من البوسنة ، بينما لم يكن يرد عنهم ذكر على الاطلاق قبل ذلك • ومعروف أن عدة أديرة أرثوذكسية قد تم بناؤها فى القرن السادس عشر (فى تافنا Tavna ولومنيكا Lumnica وبابراتشا Papraca وأورزن Orzen وجوســـتوفيتش Gostovic) فضلا عن دير رمانى Rmanj (فى شمال غربى البوسنة) البالغ الأهمية ، وهو يذكر لأول مرة فى ١٥١٥ • ولا شك فى أن هذه المؤسسات الجديدة تسترعى النظر بوجه خاص ، عندما نتذكر أن قانون الرعية كان يحظر بناء أى مبنى جديد للكنيسة : وواضح أن تصاريح خاصة قد منحت كل مرة من السلطات العثمانية (٦) • ومع أن الأرثوذكس كانوا يعانـون قدرا لا يستهان به من المهانات والمظالم ، فليست هناك أية مبالغة فى القول بأن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تلقى عطفا من نظام الحكم التركى • وكان

المؤمنون بالأرثوذكسية يتجهون بأنظارهم الى داخل الامبراطورية العثمانية التماسا لمصادر سلطاتهم الدينية ، أما الكاثوليك فكانوا يتجهون الى الخارج، وليس بعيدا أنهم كانوا يعتبرون اعادة غزو البوسنة على يد دولة كاثوليكية نوعا من التحرير · ولأول مرة ورد ذكر مطران عام للبوسنة فى ١٥٣٢ ، كما أن أول كنيسة أرثوذكسية فى سراييفو بنيت فيما يحتمل فى منتصف القرن السادس عشر (٧) ·

ورغم وجود حالات كثيرة مسجلة لكاثوليك تحولوا الى الأرثوذكسية بالبوسنة فى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فان من الواضح أن هذا الانتشار للكنيسة الأرثوذكسية لم يكن يحدث عن طريق الهداية وحدها (٨) · ففى الأماكن التى حققت فيها الأرثوذكسية أعظم مكاسبها المهمة ، وبخاصة فى شمالى البوسنة ، شهدت فى نفس المدة تدفقا شديدا للمستوطنين النازحين من أرض الأرثوذكس · وكان من الواضح أن هناك سياسة متعمدة من جانب العثمانيين لاعادة ملء الأراضى التى خلت من السكان ، اما بسبب الحرب واما بسبب الطاعون · وتشير أقدم الدفاتر الى جماعات من الرعاة المسيحيين عرفتهم بأنهم أفلاق (Vlachs) أنزلوا فى المناطق التى تخربت فى الهرسك الشرقية · وتوضح دفاتر سبعينيات وثمانينيات الألف وأربعمئة أنهم كانوا ينتشرون فى الأجزاء الوسطى والشمالية الوسطى من البوسنة ، بالمناطق المحيطة بفيسوكو وماجلاى (Maglaj) : ومثال ذلك أنه بعد ١٤٧٦ بقليل وطنت ٨٠٠ عائلة تقريبا من الأفلاق بمنطقة ماجلاى ، وفى صحبتهم قسيسان أرثوذكسيان (٩) · واستمرت أعداد الأفلاق فى الازدياد فى مناطق شمال وسط وشمال شرق البوسنة على مدى الخمسين سنة التالية ، كما أنهم بدءوا ينتشرون فى شمال غرب البوسنة أيضا · وفى أثناء الحروب التى نشبت فى أوليات القرن السادس عشر خلتمنطقة أخرى من البوسنة من السكان ، اذ هجرها الكاثوليك وفروا الى الأراضى الهابسبرجية · ولما كان العثمانيون يرون أن من الأهمية بمكان ألا تترك أرض ملاصقة للحدود العسكرية خالية من الناس ، فقد استمر تدفق المستوطنين الجدد من الأفلاق الى الهرسك وصربيا · وحدثت نزوحات أخرى الى تلك المنطقة طوال القرن السادس عشر اذ أن الطاعون ، فضلا عن الحرب ، ترك فراغات سكانية احتاج الأمر أن تملأ وتشغل (١٠) ·

وفى زمن مبكر هو ١٥٣٠ ، عندما قام المسئول الهابسبرجى الرسمى بنديكت كيوريبيشيتش (Benedict Kuripesic) بجولة خلال البوسنة ، ذكر أن الاقليم يسكنه ثلاثة شعوب · أحدها هو الشعب التركى الذى كان يحكم المسيحيين « بطغيان وظلم بالغين » · والشعب الثانى هو « البوسنيون

القدماء الذين كانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية الرومانية » . أما الثالث فهو من « الصربيين الذين يسمون أنفسهم أفلاقا . وقد أتوا من سميديروفو (Smederovo) وبلجراد » (١١) . ويبلغ من أهمية العنصر الأفلاقى فى تكوين ذلك الشطر الأرثوذكسى من السكان ، أنه بعد ذلك بثلاثة قرون ، ظل مصطلح « الأفلاق » يعنى : « أحد أتباع الكنيسة الأرثوذكسية »(١٢) . وبدهى أن غير الأفلاق من الصرب والهرسك ، أسهموا أيضا فى عملية الاسكان هذه . فأما مشكلة التمييز بينهم ، أو تحديد معنى كلمة « الأفلاق » أثناء تلك المدة ، فأمر سنناقشه فيما بعد . بيد أن من الواضح أن الأفلاق كجماعة عرقية وثقافية مميزة ، قد لعبت بالفعل دورا ضخما . وكان الأفلاق أصلح الناس بوجه خاص لتنفيذ أغراض الحكومة العثمانية ، وليس ذلك فقط لأنهم كانوا ميالين الى الحركة والتنقل (حيث كانت أعمالهم النموذجية هى الرعى وتربية الخيول وتنظيم خدمات النقل للتجار) ، بل وأيضا لأنهم كان لهم ماض وتقاليد عسكرية قوية . وعملت ترتيبات خاصة لاغرائهم على النزوح الى منطقة الحدود التركية الهابسبرجية : فخفضت الضرائب على الأغنام لكل من يسكن مناطق التخوم ، كما منح زعماؤهم تيمارات (أى مزارع) ضخمة (١٣) . ولم تكن تصرف لهم رواتب عسكرية ولكن كان يسمح لهم بحمل السلاح ، ويتوقع منهم أن يقوموا بدور عسكرى ، وعوضا عن الرواتب ، كان مسموحا لهم أن ينهبوا أرض الأعداء . وقد عرفوا باسم « المارتولوس » أو « الفوينوق » وأصبحوا أشد العناصر رهبة فى الجهاز العسكرى العثمانى .

وفى نفس الوقت ، فان الأفلاق والصرب الذين فروا شمالا أمام الزحف العثمانى أثناء القرن الخامس عشر ، والذين كانت لديهم تقاليد عسكرية مماثلة ، بدأ يتم تنظيمهم على يد الهابسبرجيين على الجانب الآخر من تلك الحدود المتغيرة بصفة دائمة . وعبر الأفلاق من داخل البوسنة تلك الحدود أيضا للانضمام اليهم ، وبذلك تكون الأسباب الثلاثة التى أوردها الراهب البنديكتينى كيوربيشيتش عن فرار السكان من البوسنة فى أوائل القرن السادس عشر ، هى الطاعون والدوشرمة وغارات المارتولوس الصربوأفلاق عبر الحدود (١٤) . وفى عام ١٥٢٧ أنشأ لهم ملك النمسا فرديناند الأول ، بعد انتخابه ملكا للمجر وكرواتيا ، نظاما لحيازة الأراضى والمهام العسكرية . فقد حررهم من الالتزامات الاقطاعية وسمح لهم بنصيب من الغنائم وانتخاب قوادهم (voivode) وقضاتهم (knezovi) وحرية ممارسة العقيدة الأرثوذكسية . وبهذه الطريقة نما نظام خاص لحيازة الأراضى والتنظيم العسكرى تحت حكم آل هابسبرج ، وهو النظام المدعو الحدود العسكرية (Militargrenze أو vojna krajina) والذى فى

النهاية كان يضم قطاعا من الأرض بعرض عشرين الى ستين ميـلا وطول يناهز الألف ميل • وكان سكان الحدود على التخوم الشمالية والشمالية الشرقية للبوسـنة ، الذين اشتهروا بشجاعتهم وشراستهم العسـكرية ، يدعون « بالأفلاق » أو « المورلانش » (Morlachs) ، بالاضافة الى أن فرديناند الثانى أعاد تأكيد امتيازاتهم بالوثيقة المعـروفة باسم « قانون الأفلاق » (Statuta Valachorum) (١٥) • وعلى ذلك ، فانه باستثناء الحملات العسكرية الكبيرة ، غدت المناوشات العسـكرية التى كانت تنشب بين العثمانيين والهابسبرجيين على تلك الحدود سـنة بعد أخـرى ، قتالا بين أفلاق وأفلاق •

فمن يكون هؤلاء الأفلاق ، ومن أين جاءوا فى الأصـل ؟ ان هذه لاحدى أصعب المسائل فى التاريخ البلقانى (١٦) • فالأفلاق متناثرون فى الوقت الحالى فى أرجاء كثيرة من البلقان ، وأعظم تركز لهم انما يوجد فى جبال البيندوس (Pindus) فى شمال اليونان ، ولكن يوجـد أفلاق آخرون أيضا فى بلغاريا ومقدونيا وألبانيا وصربيا ، فضلا عن بقايا سكان من الأفلاق فى شبه الجزيرة الاستيرية (Istrian بالبحر الأدرياتيكى) • والمعروف عنهم أنهم كانـوا رعاة غنم وماشية ، يمارسون شكلا من شبه الترحل يسمى باسم النقلة الموسمية ، وهو الرعى الذى تساق فيه القطعان، فى بعض الأحيان الى مسافات بعيدة ، بين كلأ صيفى منتظم فى الجبـال وعشب شتوى منتظم فى أماكن أخرى • وأصبح بعضهم أغنياء بما حصلوا من حياتهم الرعوية : من منتجات كالصـوف والجبن والأنعـام • وأصبح الكثيرون منهم أيضا مشهورين فى القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر كتجار محليين ودوليين • ولم تتغير هذه الحرف الا قليلا على كر القرون ، وهناك قصيدة بيزنطية من القرن الثانى عشر تذكر الجبن الأفلاقى الذى كان شهيرا فى القسطنطينية ، كما تذكر العباءة الأفلاقية ، وهى حرام أسود دون أكمام (talagan) لايزال يستخدمه رعاة الأغنام البلقانيون حتى اليوم • كما يذكر بعض الكتاب البيزنطيين النقلة الموسمية للأفلاق ، وتشير الوثائق القروسطية الصربية الى الأفلاق على أنهم رعاة أغنام وقواد رعائل الخيل kjelatori ـ وهو تحوير للكلمة اللاتينية caletor التى لاتزال تستخدم فى اللغة الأفلاقية العصرية بمعنى « المسافر » (١٧) • وكانت شغلتهم المميزة الأخـرى فى ذلك الزمن هى القتـال : وكانـوا بوصفهم جبليين أشداء يلقون التقدير من أجل قوة شكيمتهم ، كما أن ما يمتلكون من رعائل الخيل ، جعلهم عضدا نافعا وقويا لأية حملة عسكرية تشن • على أن السلطات البيزنطية كانت فيما يبـدو لاتعتمد عليهم ولا تثق فيهم كثيرا ، وكانت تتخذ منهم على وجه الجملة فرقا احتياطية للجيش ، وكانوا

يعملون فى بعض الأحيان باستقلال تام عن الجيوش النظامية • بيد أن هناك اشارات الى وجود فرقة كاملة من مشاة الأفلاق فى جيش بيزنطى يرجع الى أوائل القرن الرابع عشر (١٨) •

ويتراءى لنا من السجلات القديمة أن وجود الأفلاق فى منطقة ما كان عابرا غير محسوس • ذلك أنهم كانوا يتحركون من منطقة الى أخرى ، متحدثين باللغة المحلية وممتزجين بالسكان المحليين : فهناك اشارات فى الوثائق البيزنطية المتأخرة الى « أفلاق بلغار ألبانيون » وفيها أيضا « أفلاق صربيون ألبانيون بلغار » (١٩) • وهناك أسماء أخرى لهم منها مافروفلاتش (Mavrovlachos) باللغة اليونانية البيزنطية أى « الأفلاق السود » التى اشتقت منها كلمة « مورلاتش » والكلمة اليونانية العصرية « كوتسوفلاتش (Koutsovlachos) ومعناها الحرفى « الأفلاقى الأعرج » • وهى كلمة قد تكون صورة محرفة للكلمة التركية « كوتشوك أفلاق » أى « الأفلاقى الصغير » • اما كلمة « الأفلاق » (Vlach) نفسها فتأتى من مصطلح أطلقه السلاف الأوائل على تلك الشعوب التى كانوا يلتقون بها وتتكلم لغات لاتينية أو مصطبغة باللاتينية ومنها اشتقت كلمة والاتشى (Wallachian) والوالون (Walloon) ، أو كما نقول الويلزيون (Welsh) اى سكان اقليم ويلز فى بريطانيا •

ولم يرد الينا أى تسجيل تاريخى محدد عن الأفلاق (الفلاتش) قبل أواخر القرن العاشر • وقبل ذلك فان البينة الوحيدة التى يمكن استنتاجها أو استخراجها بينة لغوية • واللغة الفلاتشية لغة لاتينية وثيقة القرب من اللغة الرومانية (المستخدمة فى رومانيا) : والتى يطلق عليها اللغويون اسم « الرومانية ـ المقدونية » (Macedo -Romanian) ويسميها الرومانيون « داكو ـ رومانية » (Daco-Romanian) ومن الواضح أنها ثمرة الاستعمار الرومانى لبلاد البلقان ، واستمرت هناك حيث التقى بها السلاف عند وصولهم فى القرنين السادس والسابع • ولكن الامبراطورية الرومانية فى أرض البلقان كانت تغطى مساحة شاسعة مترامية ، وهو أمر أتاح للمؤرخين القوميين المعاصرين مجالا متسعا لتحديد الموطن الأصلى للأفلاق فى أية منطقة شاءوا : فيدعى اليونانيون أن الأفلاق انما هم « يونانيون » مرمنون (أى مصطبغون بالصبغة الرومانية) ، ويقول البلغاريون انهم « تراقيون » مرمنون ، كما يصر الرومانيون أنهم « داكيون » مرمنون (و / أو نسل وأحفاد الجند الرومان فى داكيا : ولا يعنينا من أى أصل كانوا ما داموا قد كانوا هناك قبل وصول المجريين) • أما أغرب نظرية قيلت حتى الآن ـ وان كانت أبعدها عن المعقول ـ فهى تلك النظرية

التى قدمها المؤرخ الكرواتى الشهير الآب مانديتش الذى راح أثناء بحثه فى أصول الصرب الأفلاق فى البوسنة يستنتج أنهم جاءوا فى الأصل من بلاد مراكش • وذلك ، فيما يرى هذا المؤرخ ، يفسر لنا تلك الكلمة اليونانية البيزنطية « مافروفلاتش » أو « الأفلاق السود » : وهى اشارة الى وجوههم السمراء المورية (المغربية) • وتنحصر نظريته فى أنهم منحدرون من الجند الموريتانية فى الفرقة الرومانية التى كانت تحتل البلقان • فأما قوله بأن أعدادا غفيرة من الجند كان الرومان يوطنونهم هناك ، فأمر صادق لا غبار عليه ، ولكنهم كانوا كما رأينا يضمون أقواما من كل أرجاء الامبراطورية • ومن بين الجاليتين الموريتانيتين الوحيدتين اللتين ذكرهما مانديتش ، فان واحدة أنزلت قرب البحر الأسود فى بيسارابيا (Bessarabia) والأخرى على نهر الاين (Inn) قرب فيينا • ولا تكاد هذه تكون نقطة ابتداء كافية لتكوين شعب بأكمله فى البلقان الجنوبية • وبالرغم من أن القوميين المعارضين للصرب فى البوسنة سوف يسعدهم اكتشاف أن الصرب البوسنيين انما هم فى الحقيقة أفريقيون (كما أن هذه النظرية تعرى افك التمييز العنصرى والصربى العصرى ازاء الألبانيين الذى يجنح الى معاملتهم على أنهم قوم سمر الوجوه نازحون من العالم الثالث) الا أنها نظرية لا يمكن اطلاقا أن تكون صحيحة (٢٠) •

ومع ذلك ، فيمكن التعرف على الأصول الحقيقية للأفلاق عن طريق الاستنتاج من الشواهد اللغوية • ذلك بأن اللغة الأفلاقية الرومانية (التى ظلت لغة واحدة حتى بدأ الشكلان الرئيسيان لها ينفصلان فى القرون الوسطى المبكرة) ، بها عدد كبير من الملامح الخاصة مشتركة بينها وبين الألبانية • وتتضمن هذه الملامح أمورا جوهرية فى النحو والصرف وعددا من التراكيب اللغوية الخاصة وعددا ضخما من المفردات المتصلة بالحياة الرعوية (٢١) • وتحوى الألبانية أيضا ، وهى اللغة الوحيدة الباقية من لغات القبائل الاللبرية ، عددا ضخما من الكلمات المستعارة من اللاتينية، ويدل ذلك على وجود صلة وثيقة حقا بسكان مصطبغين باللاتينية طوال الحقبة الرومانية (٢٢) • ولا شك فى أننا لو جمعنا بين اللغويات التاريخية ودراسة أسماء الأماكن وتاريخ الامبراطورية الرومانية ، لأدى ذلك الى نتيجة مؤكدة الى حد ما ، وهى أن الأرض الأساسية التى تطورت بها هاتان اللغتان كانت منطقة تمتد من شمال ألبانيا عبر كوسوفو وجنوب وسط صربيا ، ومن المحتمل أيضا أنها كانت تشمل أجزاء من مقدونيا وغرب بلغاريا • وجلى أن الشطر الأعظم من السكان المرمنين والناطقين باللاتينية بتلك المنطقة (الذين كانت لهجتهم اللاتينية متأثرة بما شابها من لغتهم الأولى ، وهى الاللبرية) قد شتتت أو دمر أو امتص نتيجة للغزوات منذ

العصور المظلمة وخاصة غزوات السلاف • وهناك بقية كانت تشتغل بالرعى تمكنت من البقاء فى الجبال الشاهقة غير متأثرة بأى فتح سلافى للزراعات المستقرة ، كما أنها فى الجبال الأبعد شـقة (وبخاصة الجبال فى شمال آلبانيا) على اتصال وثيق مع بقية ، يمكن أن يقال انها أقدم ، ما زالت تتكلم الالليرية ، وان نكن لهجة معدلة من الالليرية التى تغلغلت فيها اللاتينية بشدة بعد قرون من الاحتكاك والاتصال • ذلك هو التفسـير الذى يقبله الجميع تقريبا من العلماء المستقلين الذين درسوا هذه المسألة ، ومن سوء الحظ أنه يمس الكبرياء القومية للكتـاب الرومانيين الذين لا يطيقون ان يتقبلوا أن أول من نطق بالرومانيـــة كانـوا قوما جـاءوا من جنـوب الدانوب مما جعلهم يشنعون عليه (٢٣) •

ونظرا لأن هذه المنطقة الألبانية الشمالية والصربية الجنوبية كانت صميم الأرض الأصلية للأفلاق ، فليس غريبا ولا مدهشا أنهم استطاعوا أن ينتشروا فى مرتفعات الهرسك القريبـة منذ عهد سحيق القدم • ومن هناك تحركوا شـمالا من خلال المنطقة الداخلية الجبلية الدالماشية حيث نجدهم يرعون القطعان (ثم يهبطون بهـا الى الأرض الخصبة الساحلية فى الشتاء) ، منذ عصر مبكر هو القرن الثانى عشر • فهناك اشارات جمه اليهم فى سـجلات راجوزا وزادار منذ القـــرن الثـالث عشر حتى الخامس عشر (٢٤) • ونفذ بعض هؤلاء الأفلاق الرعاة أيضا فيما أمامهم من بلاد حتى وصلوا الى وسط البوسنة ، حيث تدل الأسماء القروسطية بالمناطق المحيطة بسراييفو وترافنيك على وجودهم : فلاهينيا (Vlahinja) وفلاشكوفو (Vlashkovo) وفلاشيتش (Vlasic) (٢٥) • كمـــا أن كثيرا من الكلمات الأفلاقية (الفلاتشية) المرتبطـة بالحيـاة الرعوية قد امتصتها اللهجات البوسنية من اللغـة الصربوكرواتية مثل : ترز Trze ومعناها آخر الخراف المولودة ، وهى مأخوذة من الكلمة الأفلاقية تيرزيو Tirdziu ، أو كلمة زاريكا Zarica وهو نوع من الجبن ، المأخوذة من الكلمة الأفلاقيـــة زارا Zara • وهذه الكلمة الأخيرة انما هى صورة أخرى من الكلمة الألبانية دلة Dhalle أى زبـد اللبن ـ وهى احـدى التفاصيل التى تشير الى الاختلاط والتعايش الرعوى بين الأفلاق والألبانين الذى استمر فعالا على مدى فترة طويلة جدا (٢٦) •

ويبدو أن معظم هؤلاء الأفلاق الدالماشيين والبوسنيين الأولين كانوا يعيشون عيشة هادئة منعزلة تمـاما فى الجبال (٢٧) • ولكن ما حدث فى أرض الهرسك نفسها ، التى كان بها تجمع كبير من الأفلاق ، هو تطور تقليد جديد ينطوى على طابع عسكرى عدوانى • فهناك شـكاو كثيرة فى

السجلات الراجوزية من غارات قام بها هؤلاء الأفلاق المجاورون أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر (٢٨) • وكان الأفلاق فى الهرسك من مربى الخيل وحداة أو قادة القوافل الذين كانـوا يتكسبون ، حين لا يكونون مشغولين بالنهب والسلب ، من التجارة بين راجوزا ومناجم البوسـنة ، وهو نشاط عاد عليهم بالثراء • وكما رأينا ، فان من المرجح أن بعضهم كان من أصحاب شواهد القبور الحجرية الفخمـة المزينة بصور الفرسان • ولابد أن صلاتهم التجارية بالشرق قد جعلتهم على اتصال أوثق مع الشعوب الأفلاقية فى صربيا وبلغاريا ، الذين كانت لهم تقاليد طويلة من النشاط العسكرى فى جيوش الأباطرة البيزنطيين والملوك الصربيين •

وهناك سر آخر غامض لم يصل أحد الى حله فى هذه القصـــة هو المعنى الدقيق لمصطلح مورلاتش (حيث كان معنى مافروفلاتش هو الأفلاق السود) ، وكيف اتفق أنه استخدم فى الهرسك ودالماشـيا • والمعنى الأصلى الواضح كان ينطوى على اشارة للعباءات السود التى كان يرتديها أفلاق البلقان الوسطى ، (صربيا وبلغـاريا ومقدونيا وشمال اليونان) : وكانـوا يعرفون كذلك ، فى أوقات مختلفـة باســم « الكاراجونيدس » (Karagounides) و « الكرجونييتسى » (Crnogunjci) التى معناها الحرفى « العباءات السوداء » باللغتين اليونانية ـ التركية والصربية (٢٩)• ومن الجائز أن عنصرا مميزا من هؤلاء الأقوام قد دخلوا الهرسك ودالماشيا جالبين معهم الاسم (الذى حازوه فى منطقة تتحدث باليونانية) (٣٠) • وسرعان ما حولتـه طريقـة الهجاء الشعبية السلافيـــة الى موروفلاتش (Morovlach) ومعنـاها الأفلاق الساحليون (٣١) • ومن اســتخدامه فى دالماشيا أصبح ذلك المصطلح فيما بعد يطلق على الأفلاق فى كرواتيا الذين كانوا يملأون منطقة التخوم العسكرية (كرايينا Krajina) حول الكتف الشمالى الغربى للبوسنة • وأصبح مورلاكى هو الاسـم البندقى (الفينيسى) والمعتمد لهذه الشعوب • وكتب على المنطقة اسم « مورلاكيا » فى كثير من خرائط القرنين الســابع عشر والثـامن عشر • واكتسب المورلاكيون سمعة سـيئة وذلك بسبب طريقتهـم المخيفة فى الحرب غير النظامية واعتبروا شعبا بدائيا وحشيا • ولكن كل شىء ما عتم أن تغير تغيرا تـاما فى أخـريات القرن الثـامن عشر ، عنـدما قام بزيارتهـم قسيس ايطـالى هو الأب موريتس (Abbé Morits) ، وقد ألهمه شـــعر أوسيان (Ossian) ، وصحبه متحمس ثان للشعر البطولى والأدب الشعبى البطولى وهو أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبريدج ، فسافر بين رحاب المورلاتش ـ بالأراضى الدالماشية الداخلية بحثا وراء الشعر والفضــائل البدائية • فوجد الاثنين جميعا : « ان الاخلاص والثقة والأمانة التى يتحلى

بها هؤلاء القوم الفقراء ... فى كل أمور معيشتهم أشـــياء قد نصفها بالسذاجة والخنوع » . وقد جمع أيضا الشىء الكثير من الشعر اذ لاحظ أن « الرجل المورلاتشى يسافر بين أرجاء الصحراء والجبال الموحشـــة وهو يتغنى ، وبخاصة فى ظلام الليل ، بأعمال القدماء من الملوك السلافيين الى البارونات أو بحدث تراجيــدى » ، « ان اللهجة البوسنية التى يتكلمها سكان الأراضى الداخلية من المورلاتش ، أوقع فى النفس ، فيما أرى ، من اللغة الاللبرية الساحلية » (٣٢) (والقصــيدة التى نشرت فى الترجمـة وهى « زوجــة حسن أغا » (Hasanaganitsa) كانت فى الحقيقة أغنيــة بوسنية اسلامية ، وهى قصة قصيرة من الحب المأساوى ، وسوء الفهم ، وأصبحت من أشهر نماذج الشعر الشعبى فى كل أرجاء أوربا ، كما ترجمها كل من جوته وبايرون والسير والترســكوت وميريميه ميت بوشــكين وليرمونتوف (٣٣) .

فأما فى داخل البوسنة نفسها ، فان مصطلح مورلاتش لم يكن يطلق كثيرا جــدا على الأفلاق المحاربين الذين كانــوا يذهبــون لملء مناطــق التخوم فى عصر العثمانيين . وكان هؤلاء الأفلاق الذين كانوا يجيئون اما من الهرسك أو صربيــا ، يسمون بالأفلاق أو المارتولوسيون . وتشير الكلمة الأخيرة الى وضعهم العسكرى ، وربما شملت غير الأفلاق أيضا : لقد كانت صورة محورة للكلمة البيزنانية الدالة على رجل مسلح ، وهى الأرماتولوس (Armatôlos) . وكان لأفلاق البوســنة والهرســك تنظيمهم الاجتماعى والعسكرى الخاص ، وهو شىء محدد بوضوح تام فى الوثائق العثمانية الباكرة : فعلى رأس كل مجتمع محلى كان هنـــاك رئيس أو كانيز Knez (وهو مصطلح سلافى قديم) ، وكان من دونه بريميكور (Primikür) المأخوذة من الكلمة اليونانية primikerios ، وكان من دونه ليجاتــور (Lagator) (المأخوذة من الكلمــة البونانيـــة ألاجاتور (Alagatôr) أى رئيس سرية عسكرية أو قول عسكرى) ، وكانت المجموعة العســكرية الأساسية تسمى جوندر (Gönder) نقلا عن الكلمة اليونانية Kontarion أى الحربة) (٣٤) . وكما تدل هذه المصطلحات ، فان العثمانيين ورثــوا نظاما أسس فى الماضى لخدمة جيوش الامبراطورية البيزنطية . ولم يفت العثمانيون ، شأن الحكام البيزنطيين والصربيين من قبلهــم ، أن يعطوا الأفلاق امتيازات ضريبية خاصة فى مقابل خدماتهم العسكرية : فمنح قادة الأفلاق تيمارات وعوملوا بالفعل معاملة الفرسان (السباهى) ، كما كان شعبهم معفيا من الضريبة الأساسية المفروضة على غير المسلمين ، وهى ضريبة الخراج . نعم ان الأفلاق كانوا يدفعون بالفعل ضريبة تسمى بالضريبــة « الأفلاقية » وهى رسوم أفلاق (Rusum-i-eflak) ، وقوامهـــا رأس من

الغنم وحمل من كل دار قائمة ، وتدفع يوم عيد القديس جورج من كل عام (٣٥) • ونظرا لأنهم كانوا يتمتعون بنوع خاص من الضرائب ، كان تقييدهم فى الدفاتر التركية من نوع مختلف • وهذا يمكننا من أن نرى أنه فى أخريات القرن الخامس عشر كان هناك على الأقل خمسة وثلاثون ألفا من الأفلاق ببلاد الهرسك • وما لبث أن بلغ عددهم فى القرن السادس عشر ٨٢٦٩٢ أسرة (وان أدرج ضمن هذه العائلات بعض المارتولوس غير الأفلاقيين الذين كانت لهم نفس الامتيازات) فى منطقة سميفيرييف الواقعة الى الجنوب من بلجراد (٣٦) • (ونقل الأتراك عددا كبيرا من الأفلاق النازلين بالجزء الشرقى من بلاد الهرسك الى هناك لاعادة عمران تلك المناطق بالسكان بعد أن عاث فيها الخراب أثناء الحروب التى قامت فى ستينيات الألف وأربعمئة) (٣٧) • وكان هؤلاء القوم هم المستودعات الرئيسية للسكان التى كانت تملأ منها أراضى البوسنة الشمالية الخالية من السكان • ونظرا لأن العيش ببلاد الهرسك وصربيا قد جعلهم يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية منذ أمد بعيد ، فانهم أسسوا الوجود الأرثوذكسى فى تلك البقعة من البوسنة وهى كنيسة دامت منذ ذلك الحين حتى الآن •

فما مدى اختلاف وتميز هؤلاء الأفلاق عمن يحيط بهم من سلاف ؟ ••• من البين تماما أنهم كان لهم وضع مخالف ، كما كان لهم تنظيم اجتماعى عسكرى مخالف • فان من هاجر منهم الى شمال البوسنة لم يعد بوسعهم ان يمارسوا تقليد الانتقال الموسمى القديم ، كما تدل الفرمانات العثمانية الصادرة فى القرن السادس عشر بشأن أفلاق البوسنة والهرسك ، على أن غالبية الأفلاق قد أصبحوا آنذاك سكانا مستقرين ، وان معيشتهم تتركز حتى ذلك الوقت حول تربية القطعان ورعى الغنم (٣٨) • وقد لاحظ جيوفانى لوفريك (Giovani Lovrich) فى سبعينيات الألف وسبعمئة أن المورلاتش الكرواتيين كانوا يمتلكون جميعا قطعانا يتراوح عددها بين مئتين أو ثلاثمئة أو ستمئة رأس من الغنم ، ولما سألهم لماذا يتراخون بشدة عن عزق الأرض وحرثها أجابوه بقولهم : « ان أجدادنا لم يكونوا يفعلون ذلك ، هذه سنة أجدادنا وعليها نسير » (٣٩) وقد ذهب بعض الكتاب وبخاصة الصربيين منهم ، الى أن مصطلح « الأفلاق » كان مستخدما ليعنى بالضبط « الراعى » ، ولم يدل اطلاقا على أى فرق عرقى أو لغوى ـ وعلى ذلك فان معظم هؤلاء الأقوام انما كانوا فى الحقيقة صربيين يرعون الغنم (٤٠) • وبرفض وجهة النظر هذه أكبر خبير معاصر فى تاريخ الأفلاق أثناء فترة العثمانيين الأولى بالبلقان ، وهو يصر اصرارا شديدا على أنهم كانوا يعدون قوما مختلفين (٤١)

وظل الأفلاق يتكلمون دائما لغتين ، لغتهم ولغة من حولهم ، ونظرا لأنهم لم يتولوا الادارة والأحكام قط ، فان اللغة التى بقيت الينا حتى اليوم فى السجلات لم تكن لغتهم اطلاقا • ولكن بين أيدينا فعلا بعض آيات تدل على استخدامها فى غير تسجيل الأسماء الشخصية مثل أورسول (Ursul) وشاربان (Sarban) • وظل الأفلاق الذين نزحوا الى جزيرة أدرياتيكية فى القرن الخامس عشر ، يستخدمون الأفلاقية هنـــاك بعد ذلك بأربعمئة عام • وقد كتب أحـد البنادقة فى القـرن السـادس عشر يصف أفلاق الأراضى الداخليـة الدالماشية وقال انهم يتحدثون « اللاتينية وان كان بطريقة محرفة » ، كما أن الرعاة بتلك الجبال ظلوا يستخدمون أرقام العد الأفلاقية الى عهد حديث جدا هو ١٩٨٥ (٤٢) • وهنـــاك دليل آخر فى القرن السابع عشر على ثنائيـــة اللغـة عندهم أى استخدامهم لغتين فى وقت واحد ، وذلك رغم أن الكاتب يوانس لوشيوس Ioannes Lucius (ايفان لوكيتش Ivan Lukic) قد ذكر أن اللغة قد اختفت فى زمانه ذاك (٤٣) • على أنهم بطبيعة الحال ، وقد عاشوا قرونا عدة بين سلاف الهرسك وصربيا ، فان مظهرهم الخارجى (أى من ناحيتى اللغة واللباس)، لم يكن مختلفا عن السلاف العاديين بتلك المناطق • والرأى القائل بأنهـم كانوا يتكلمون لغتهم وحدها لأنهم لم يجلبوا معهم اللهجة البيكافية الصربية عندما انتقلوا من صربيا الى شمال البوسنة ، فأمر لا شك فى زيفه (٤٤) • لقد كانوا يتحدثون بأية لغة يتحدث بها السلاف المحيطون بهم ، وهى لغات ولهجات ربما تغيرت بمر الزمن فى مناطق عرضة للتغير وعمليات التدفق الديموجرافى (السكانى) كمنطقة شمال البوسنة ، ولابد أن أفلاق الهرسك كانوا يتكلمون البيكافية على كل حال (٤٥) •

وقد بذلت بعض محاولات لاثبات أن سكانا من المتحدثين بالأفلاقية كانوا لايزالون يقيمون بالبوســنة فى وقت حديث جـدا هو بداية القرن العشرين • وقد ذكر احصاء البوسنة فى ١٩١٠ وجود ست عشرة قرية تتحدث « بالرومانية » ، وفى ١٩٠٦ أصدر رومانى متحمس محب للأفلاق كتابا كاملا حول « الجاليات الرومانية » التى وجدها هناك (٤٦) • وعندما قام الخبير الأول الألمانى فى شئون الأفلاق وهو البروفيسور فايجاند (Weigand) بزيارة المنطقة لمراجعـة هذه الادعاءات فى الســنة التالية ، وجد أن القرى الأفلاقية الوحيدة انما تضم مهاجرين قدموا من مقدونيا أثناء القرن الثامن عشر ، وأنهم منذ ذلك التاريخ قد فقدوا لغتهم • فأما القرويون « المتكلمون بالرومانية » المعروفون محليا باسم (الكرافلاسى » (Karavlasi) أو « الأفلاق السود » فكانوا يتحدثون فى الحقيقة بالرومانية ، وكان ذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا من الأفلاق اطلاقا ، وانما غجر رومانيون من ترانسلفانيا (٤٧) •

وأخيرا ، يصبح من الضروري علينا أن نوضح أنه لا معنى فى هذه الأيام لأن نقول ان الصرب البوسنيين انما هم فى « الحقيقة » افلاق ، فعلى كر القرون كان الكثير من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية يعبرون نهر الدرينا الى البوسنة أو ينتقلون شمالا من الهرسك • كما ظهرت طبقة من التجار الصربيين اكتسبت شيئا من الأهمية فى المدن البوسنية أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ولم يكن كل الناس الذين أرسلوا لملء شمال البوسنة بالسكان ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الأفلاق ، ومنذ ذلك التاريخ حدثت عمليات نزوح وهجرة من والى البوسنة حتى اننا نعجز عن حساب النسبة المئوية الدقيقة للأفلاق أسلاف الصربيين البوسنيين (٤٨) • لكن الأفلاق لم يسهموا فقط فى زيادة عدد السكان الصربيين ، بل ان بعضهم كما حدث فى كرواتيا أصبحوا من الكاثوليك ، كما أن قلة ضئيلة منهم اعتنقوا الاسلام فى البوسنة (٤٩) • واطلاق اسم « الصربى » على أى انسان اليوم انما ينطوى على مفهوم نشأ فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، يجمع الديانة واللغة والتاريخ واحساس الفرد الخاص بهويته : والصربيون البوسنيون العصريون يستطيعون بصدق وصحة أن يصفوا أنفسهم بأنهم من الصرب على هذا النحو ، بغض النظر عن الأسلاف الأفلاق الأوائل • والحق أن المرء لايملك الا أن يبتسم ، عندما يسمع السياسيين البمسيين الروس يتحدثون عن الحاجة للدفاع عن اخوانهم السلاف القدماء فى البوسنة ، اذ أن الفئة الوحيدة من سكان البوسنة التى تنطوى على عنصر كبير واضح من الأرومة غير السلافية هى صرب البوسنة •

الفصل السابع

الحرب و الشئون السياسة في البوسنة العثمانية ١٦٠٦ ـ ١٨١٥

ظل تاريخ البوسنة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر تتداوله وتنسلط عليه الحروب العظمى • وبالضبط مثلما نمت الامبراطورية العثمانية عن طريق الحرب ، فان الحروب والتغيرات الاجتماعية التى ترتبت عليها انما ساعدت على انحدار الامبراطورية • فعندما حل القرن السابع عشر كانت الخيالة الاقطاعية القديمة قد أصبحت قديمة الطراز من الناحيــة العسكرية ، منذ أن ازدادت أهمية الجند المشاة المسلحين بأسلحة نارية حديثة ومعهم المدفعية • ونشأ جيش نظامى يتقاضى رواتب وهو جيش لم يعد التجنيد فيه عن طريق الدوشرمة ضروريا بعد ذلك • ولكن الشيء المهم كان هو الأموال والايرادات اللازمة للحكومة المركزية للانفاق عليه : وكان معنى ذلك الاستيلاء على المزارع التيمارية الاقطاعية كلما خوت من سكانها وتحولت الى خليط من الضياع الخاصة والمزارع الخاضعة للضرائب • وأدت هذه التغيرات ، كما سنرى فى الفصـــل الثامن ، الى تغيير طبيعة المجتمع العثمانى الاقليمى ، فزيدت الضرائب على فلاحى المزارع • واخترعت اسطنبول عددا من الضرائب الجديدة التى أدت الى الفقر وولدت الامتعاض والقلاقل العــديدة • والضرائب التى كانت تجمعهــا الحكومة المركزية ، والمعروفة باسم الأفاريز (Avariz) ـ (انما يقوم التشابه بينهــا وبين أفاريز Avarice محض صدفة ليس الا) ـ كانت مجرد اجراء طوارىء ، ولكنهــا أصبحت الآن هى القاعدة • وزاد الفســاد واستشرى ، واختـل القانون والنظام • وكان من المعترف به أن الظروف فى البوسنة كانت أحسن تنظيما منها فى المناطق المجاورة الصربية من الامبراطورية ، حيث كان الفلاحون يهربون من المزارع ويتحولون الى عصـــابات من قطاع طرق

أو هازدوق (Hazduk) • بيد أن البوسنة كان لها هي الأخرى نصيبها من التدمير في القرن الثامن عشر • فعند ذلك الحد ، كان واضحا لدى كثير من مراقبي الأحوال ان الامبراطورية كانت تتعفن من الداخل •

وكانت الحروب الكبرى تحدث كل جيلين على الأقل • فبعد الحروب الهابسبرجية من ١٥٩٣ الى ١٦٠٦ التى استنزفت موارد البوسنة تماما ماليا ، وأنهكتها عسكريا ، مرت عدة عقود هادئة لم يعكر صفوها سوى تخفيض قيمة العملة والتضخم بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية أثناء المدة من ١٦١٥ الى ١٦٢٥ (١) • وفى أربعينيات الألف وستمئة اشتبك الترك فى حرب طويلة مع البندقية استمرت حتى ١٦٦٩ • وأدى ذلك الى غارات متكررة كثيرة شنت من الأراضى البندقية على الساحل الدالماشى ، كما جرت صدامات ضخمة بين قوات كل من البندقية والبوسنة : حيث زحف فى ١٦٤٥ جيش بوسنى كامل بأسره على دالماشيا ، ولكنه لم يتمكن من احراز أية مكاسب هناك (٢) • وكانت هذه الحرب الطويلة الضروس تلقى عبئا ثقيلا على البوسنة ، بالاضافة الى الزيادات فى الضرائب والتضخم التى تولدت عنها بكل أرجاء الامبراطورية • فقد كتب الأسقف الكاثوليكى ماريان مارافينش (Marijan Marevic) تقريرا فى ١٦٥٥ يبين أن أكثر من ألفى عائلة كاثوليكية قد فرت من البوسنة أثناء « الحرب الحالية » ، فضلا عن تقرير آخر فى ١٦٦١ يقول ان أكثر من أربعة أديرة فرنسيسكانية أحرقت فى « هذه الحروب المستديمة التى تحدث فى هذه الأجزاء » (٣) • وفى ١٦٦٣ اشتعلت نار الحرب ثانية على آل هابسبرج ، وزحف جيش عثمانى عرمرم على النمسا فى السنة التالية ، وبعد معركة ، عدها الأتراك تعادلا وعدها النمساويون انتصارا ، تم التوقيع على معاهدة سلام وافق فيها كل من الجانبين على ايقاف جميع غارات الحدود ما دام الطرف الآخر يلتزم بذلك (٤) •

على أن الحرب الشاملة المهمة التى لم تفق منها الامبراطورية العثمانية ولا استعادت قوتها بعدها أبدا ، انما هى الحرب الهابسبرجية من ١٦٨٣ حتى ١٦٩٩ • وكانت سنة ١٦٨٣ كارثة على الترك • فبعد اخفاق حصارهم لفيينا ، ردوا على أعقابهم وهزموا فى المعركة على يد الجيوش النمساوية والبولندية ، ونفذ الأتراك حكم الاعدام فى بلجراد فى الصدر الأعظم الذى قاد المعركة • وفى ١٦٨٤ الى ١٦٨٧ فتح النمساويون بالتدريج كل المجر التابعة لحكم العثمانيين ، فطردوا بذلك آلافا من الفرسان (السباهى) والمعتنقين للاسلام حيث تراجعوا جنوب بلادهم التى هجروها وأفاضوا بطوفانهم فى داخل البوسنة • وفى الحين نفسه كانت البندقية

تشن هجوما مباشرا على الأراضى البوسنية · ولكن تقدما بندقيا ضخما فى البوسنة فى ١٦٨٥ رد على أعقابه ، ولكن المسلمين دفعوا دفعا الى داخل البوسنة على يد القوات الهابسبرجية الزاحفة من منطقة ليكا (Lika) فى أرض كرواتيا ، فى أقصى الركن الغربى من الايالة البوسنية ، وفى ١٦٨٧ كان عدد يقارب الثلاثين ألفـا أو يكاد قد فر من أرضه ، كما أن الألف والسبعمئة من السكان الذين بقوا فى أرضهم أرغموا بالقوة على اعتناق الكاثوليكية (٥) · وكان لهذه النزوحات المتتابعة للاجئين أثر ضخم فى حجم وطبيعة أهل البوسنة وسكانهـا : وقدر أنه قد بلغ عدد النـاس المنقولين الى البوسنة مئة وثلاثين ألف نسمة كنتيجة نهائية للحرب (٦) · وكان أكبر عنصر منهـم هم المسلمين السلافونيين ـ وهم اما مستوطنون بوسنيون مسلمون انتقلوا فى الأصل شمالا نازحين من البوسنة ، أو من الكروات السلاف الذين أسلموا أو دفعوا الى الاسلام أثناء الفترة الطويلة من الحكم التركى · وبعض اللاجئين وبخاصة طبقة الفرسان (السباهى) الذين فقدوا كل شىء كانوا رجالا تملأ نفوسهم المرارة ، عادوا وقد اجتلبوا معهم كراهية جديدة للمسيحيين (٧) ·

وكان كل شىء ينذر بأسوأ من ذلك بالنسبة للسلطات العثمانية ، ففى ١٦٨٩ زحف الجيش النمساوى الهابسبرجى عبر البوسنة ، ولم يلبث حتى دخل صربيا · ولم يزل يخترق البلاد حتى وصـل الى كوسـوفو ، وانتهز كثير من الصربيين الفرصة فثاروا على الحكم التركى · وجاء زمان بدا فيه أن الأتراك سيفقدون السيطرة على البلقان كلية · ولكن صحوة مفاجئة مكنت الأتراك من رد النمساويين مرة ثانية على أعقابهم فى السنة التالية · وفر عدد ضخم من السلاف الأرثوذكس ، وعلى رأسهم البطريرك ـ وهم جمع لا تقل عدته عن ثلاثين ألفا ـ الى الشمال مع الجيش النمساوى المتقهقر من منطقة كوسوفو · (والغالبية الألبانية فى كوسوفو ـ ذلك على الأقل فى المدن العصرية ـ ربما يعود تاريخها فى الغالب الى هذه الأحداث) ولكن من الناحية الأخرى قام كثير من الصربيين الأرثوذكس بالترحيب بعودة الترك ، بعد أن جربوا حرارة تحمس القسس الكاثوليك النمساويين فى نفس الحين · ثم تلت ذلك فترة من تعذر حقيقى فى الحركة فى أى اتجاه ، وواصل العثمانيون الحملات بغير جدوى عبر الدانوب فى الأراضى المجرية ، وقاومهم هناك ضابط نمساوى عديم الكفاية هو الفيلد مارشـال كابرارا (Caprara) · ولكن عندما عزل كابرارا وعين محله أصغر وأذكى ضابط قائد فى الجيش ، وهو الأمير يوجين من سافوى ، فان الأمور ما لبثت أن بدأت تتغير · فأنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك فى معركة زنتا (Zenta) بجنوب المجر ، فى سبتمبر ١٦٩٧ · وبعد ذلك انطلق فى سرعة خارقة بجيش عدته ستة آلاف رجل حتى دخل الى قلب البوسنة ·

ووصلوا فى ٢٢ أكتوبر الى سراييفو حيث وجدوا الأتراك غير مستعدين اطلاقا للقتال . وهنـــاك فقـرة وردت فى مفكرة الأمير يوجين العســكرية تصف أحداث اليومين التاليين :

« فى يوم ٢٣ أكتوبر ، صففت الجند فى جبهة عريضة على مرتفع يطل على المدينة مباشرة . ومن هناك أرسلت فصائل لنهبها . وكان الترك قد أخذوا من قبل أشياءهم الثمينة الى أماكن آمنة ، ولكن مع ذلك فان مقدارا ضخما من جميع السلع ظل باقيا وراءهم . وحوالى المســـاء بدأت المدينة تحترق . والمدينة ضخمة جدا ومفتوحة تماما ، وبها مئة وعشرون مسجدا بديع التصوير والشكل . وفى اليوم الرابع والعشرين ظللت فى سراييفو . وتركنا المدينة وجميع ما حولها من مناطق شعلة نيران متقدة . ولم تلبث فرقتنا المغيرة التى تعقبت العدو أن عادت الينا بالغنائم وبكثير من النساء والأطفال ، بعد أن فتكت بكثير من الترك . ويجىء المسيحيون الينا فى جماهير غفيرة ، ويسألون الاذن بالدخول الى معسكرنا بكل ما لهم من متعلقات ومتـــاع ، وذلك نظـــرا لأنظـــم يريدون أن يغادروا البـــلاد ويتبعونا . وانى لأرجو أيضـــا أن آخذ معى جميع المسيحيين بهذه البلاد وأعبر بهم نهر السافا » (٨) .

وكان معظم هؤلاء المسيحيين على الارجح من التجار الكاثوليك الذين يبدو أن سيطرتهم على التجارة فى البوســـنة قد انتهت تماما مع تلك الحرب (٩) . وبينما كان الأمير يوجين يتراجع شمالا ، سارع آلاف من الكاثوليك الأخـــر بالانضـمام فعلا الى جيشه أثناء مسيره الى النمســـا . ولئن لم يكن عدد السكان الأرثوذكس فى البوسنة يفوق آنفا عدد الكاثوليك عند حلول النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فان تفوقهم العددى كان مفروغا منه عند نهاية تلك الحرب (١٠) . وسواء أكان هؤلاء الكاثوليك مقتنعين (شأن البطريرك الصربى) أنهـم لابد عائدون سريعا برفقة جيش تحرير أم لم يكونوا ، فذلك شىء غير واضح حتى الآن . فهناك علامات تؤكد أن النمساويين كانوا يفكرون تفكيرا جديا فى ضم البوســـنة ضما نهائيا : فقد بعثوا يسألون ويتحرون فى ١٦٨٧ ـ ١٦٨٨ ، من خــــلال وسطاء لهم فى راجوزا ، هل يقبل مسلمو سراييفو (الذين كانوا مستقلين تماما تجاه الحكومة العثمانية) الحكم النمســـاوى لو ضمنت لهم حرية العقيدة ، وردت اثنتا عشرة عائلة بالايجـــاب ، ولكن لم يسفر الأمـــر عن

شيء (١١) • ولم يدر أى شيء من هذا القبيل مع ذلك ، في عقل الأمير يوجين فعندما قام بغارته العسكرية على البوسنة ، لم يكن الغرض الجوهرى منها سوى النهب والتدمير •

وتؤكد معاهدة كارلوفيتش Karlowitz (سرمسكى كارلوفتسى Sremski Karlovci فى شمال غربى بلجراد ، قرب نوفى ساد) ، التى أنهت الحرب فى ١٦٩٩ ، أن الامبراطورية العثمانية كانت فى حالة تقهقر فى أوربا ، اذ تنازلت فيها عن المجر وترانسلفانيا لآل هابسبرج ، وتنازلت للبندقية عن مناطق مترامية فى دالماشيا واليونان : وفى أثناء القرن التالى كان الحد الجنوبى الغربى للبوسنة يسير مع أراضى البندقية جنبا الى جنب • وبلغ من ضخامة التأثير السيكولوجى لهذه الخسائر أن أصبح استردادها هدفا جنونيا طويل المدى للسياسة العثمانية • ولم تلبث الفرصة أن سنحت فى ١٧١٤ ، بعد أن أقدمت البندقية عدة مرات على خرق المعاهدة خرقا صارخا • وفى الحرب التى نشبت بعد ذلك ، عادت النمسا فواصلت تحالفها مع البندقية ، وللمرة الثانية (فى ١٧١٦) أنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك فى بتروفارادين (Petrovaradin قرب نوفى ساد) • ولكن قوات الدفاع البوسنية صمدت فى مكانها تماما • وفى معاهدة باساروفيتش Passarowitz (بودجاريفاتس Podjarevats فى صربيا) فى ١٧١٨ ، اقتطعت النمسا شقة من الأرض جنوب الحد التقليدى وهو نهر السافا ، كما تقدمت دالماشيا الواقعة تحت حكم البندقية داخل الأرض البوسنية حتى بلغت خطا شكل منذ تلك اللحظة التخم الجنوبى الغربى للبوسنة (١٢) •

ودفعت هذه الحرب موجة أخرى من اللاجئين المسلمين الى البوسنة(١٣) • فالظروف لم تكن مستقرة ، وزيدت الضرائب للمرة الثانية ، ونشبت ثورات بسبب الضرائب في الهرسك فى ١٧٢٧ و ١٧٢٨ و ١٧٢٩ و ١٧٣٢ • وتشير المصادر غير العثمانية الى أن المسيحيين اشتركوا في اثنين من هذه التمردات (١٧٢٨ و ١٧٢٩) ، ولكن أهم العناصر المحركة والمشاركة فيها كانت من المسلمين (١٤) • وتوالت الأوبئة أيضا أثناء تلك السنوات : فمات عشرون ألفا في البوسنة بالطاعون أثناء ثلاثينيات الألف وسبعمئة (١٥) • وعندما نكث النمساويون بمعاهدة باساروفيتش فى ١٧٣٦ رغزوا البوسنة حسبوا أنها ستقع فى أيديهم سريعا • ولكن خاب فألهم ، فقد تصادف ، قبيل الغزو مباشرة ، أن عين على غير المألوف وال ذو همة عالية وقدرة على البت السريع فى الأمور ، هو حكيم أوغلو على باشا ، حاكما على البوسنة ، فنظم الدفاع بمهارة فائقة (١٦) • وتمكن

في السنة التالية من انزال الهزيمة بالجيش النمساوى في معركة بانيالوكا ، وبمقتضى معاهدة الصلح التي أعقبت ذلك (وهى معاهدة بلجراد في ١٧٣٩)، تخلى النمساويون عن جميع الأراضى الواقعة جنوب نهر السافا عدا قلعة واحدة (١٧) • ويرجع تاريخ الحد الشمالى للبوسنة العصرية الى تلك التسوية •

ولبثت هذه المعاهدة أمدا طويلا ، فلم تتعرض البوسنة لأى غزو أجنبى لمدة خمسين عاما • ولكن كان على ايالة البوسنة أن تتحمل عبء الضرائب المزادة لسداد نفقات حملات آخرى بأمكنة أخرى ، ففى ١٧٤٥ عندما عاد حكيم على أوغلو باشا ليتولى الحكم مدة أخرى واليا على البوسنة ، واجه ثورة عاتية على الزيادات فى الضرائب وعجز عن اخمادها الأمر الذى اضطره الى مغادرة البلاد مرة ثانية مدة ستة أشهر • وعندما عاد ثانية فى ١٧٤٧ واجهته ثورات أكثر فاضطر الى التراجع الى اليونان فى السنة التالية (١٨) • وشب عصيان كبير فى موستار ، اشترك فيه حتى الانكشارية أنفسهم ، وزادت عليه عصيانات أخرى بسبب الضرائب فى البوسنة أثناء السنوات القليلة التالية (١٩) • وكان القرويون المسلمون يحتجون هم أيضا على التغيرات التى لحقت بنظام حيازة الأرض • وأخيرا جاء وال آخر للبوسنة ، هو محمد باشا كوكافيتسا (Kukavca) ، فتلقى رسالة من السلطان تتكون من جملة واحدة : « ينبغى غزو البوسنة ثانية » (٢٠) • فاستجاب لذلك النداء بكفاية وحشية • وأعيد السلام الى البوسنة ، ولكن مدينة موستار ظلت مركزا لعدم الولاء والمقاومة ، فاضطر الوالى فى ١٧٤٨ الى أن يجرد عليها جيشا كبيرا لاخضاعها • ولكن على العكس من التمردات الشعبية التى حدثت ابان أربعينيات الألف وسبعمئة ، جاءت هذه المقاومة من المراكز الحضرية ، من رؤساء المسلمين وأعيانهم ، الذين كانوا يحاولون الدفاع عن امتيازاتهم القديمة (٢١) •

على أن الحرب النمساوية التالية ، التى بدأت فى ١٧٨٨ ، كان لها حجم سياسى جدى أخطر من أية حرب أخرى سبقتها • فقد كانت هناك فى هذه المرة خطة تم الاتفاق عليها بين جوزيف الثانى النمساوى وكاترين العظمى الروسية ، ترمى الى الاستيلاء على جميع الأراضى العثمانية بشبه جزيرة البلقان ، واقتسامها بين هاتين الامبراطوريتين المسيحيتين • وحددت هذه الخطة شكل المصالح الجغرافية والسياسية للنمسا فى أرض البلقان التى تمخضت فى نهاية الأمر عن احتلالها للبوسنة فى ١٧٨٨ ، وضمها اليها

بعد ذلك بثلاثين عاما · وبذلك أظهر الامبراطور جوزيف الثانى ، عندما أعلن عند بداية الحرب أنه سيبسط حرية الدين لجميع المسلمين الذين يوافقون على طرح أسلحتهم جانبا ، أنه كان يفكر فى حكم البوسنة وليس مجرد فتحها (٢٢) · وقد حاول آل هابسبرج ان يرتقوا بثقافة الكاثوليك البوسنيين (واستحضروا بعضهم ليدرس فى زغرب) ، وكانوا يأملون فى تشوب ثورة عامة للمسيحيين البوسنيين (٢٣) · وفى أوائل عام ١٧٨٨ دخلت القوات النمساوية أرض البوسنة ، ولكن أحلامهم فى الترحيب بهم بوصفهم محررين ومنقذين لم تتحقق · نعم حدث فعلا أن قلة قليلة من البوسنيين تطوعوا فى الجيش النمساوى ، ولكن كلا من المسيحيين ، والمسلمين البوسنيين ، أبدوا مقاومة شديدة للنمساويين بمنطقة الحدود ، وتجمد الجيش النمساوى فى حصار دام خمسة أشهر لقلعة دوبيكا (Dobica) (٢٤) · (وبذلك أصبحت تلك الحرب تسمى فى التاريخ البوسنى باسم حرب دوبيكا) · وفى السنة التالية أصبح النمساويون أحسن تنظيما ، وتمكنوا هذه المرة من اجتياح البوسنة المسلمة وواصلوا الزحف فى عمق صربيا · وكان هذا ارهاصا ثانيا بالطريقة التى تتم بها الأمور أثناء القرن التاسع عشر : ولم يكن ما أوقف مطامع النمسا والروسيا عند حدها قوة العثمانيين العسكرية ، وانما هو الضغط الدبلوماسى والسياسى الذى بذلته الدول الأوربية الأخرى · وفى ١٧٩١ وافقت النمسا على التخلى عن جميع المكاسب التى أحرزتها فى البوسنة وصربيا ، وفى مقابل ذلك منح السلطان الامبراطور النمساوى وضعا رسميا يجعله « حامى » المسيحيين الذين يعيشون تحت الحكم العثمانى (٢٥) ·

وقبل أن يتهيأ لنموذج القرن التاسع عشر اكتمال التشكيل ، وقعت حادثة عطلت من مجرى تطورات النظام الدولى هى الحروب النابوليونية · فبعد الانتصار الأول لنابوليون على النمسا ، ضم الفرنسيون الى حكمهم كلا من البندقية وايستريا ودالماشيا (بما فى ذلك الجمهورية الراجوزية) فى ١٨٠٥ ــ وبذلك خلق حد فرنسى بوسنى دولى · وحرصت معظم الدول الأوربية على التزلف ، لأسباب استراتيجية ، الى الامبراطورية العثمانية · فأرسل نابوليون مساعدة الى السلطان عندما كان يحاول اخماد ثورة فى صربيا ، كما أن الفرنسيين تدخلوا أيضا ، بطريقة مباشرة أكثر ، فى عراك محلى نشب بالهرسك ، عندما أرسلوا تجريدة عسكرية لانقاذ وال أو باشا محلى هو حاجى بك ريزفان بيجوفيتش ، الذى كان محاصرا فى قلعة هوتوفو (Hutovo) : نتيجة الخلاف نشب على ميراث بينه وبين أخوين له (٢٦) · وفى ١٨٠٩ أعلنت النمسا الحرب على فرنسا

مرة ثانية • وشجع نابوليون البوسنيين على الاغارة على سلافونيا في أوائل صيف تلك السنة ، ولكن بعد معركة واجرام فى يوليو توسل النمساويون فى طلب السلام • وتنازل آل هابسبرج مرة ثانية عن بعض الأراضى : القسم الغربى من كرواتيا (المتاخم للكتف الشمالى الغربى للبوسنة) ، وشطر كبير من سلوفينيا العصرية • وضمت هذه بعضها الى بعض ومعها مكاسب أخرى فى المنطقة ، لتشكل منطقة فرنسية جديدة هى « المقاطعات الالليرية » ، التى تولى الحكم فيها الماريشال مارمونت (الذى تلقب لتلك المناسبة بلقب دوق راجوزا) ، وتولى الحكم أربع سنوات •

وسرعان ما وجد الماريشال نفسه ، شأن معظم من سبقوه من حكام المنطقة الحدودية من قبله ، نفسه مضطرا الى التعامل مع كتائب مغيرة قادمة من البوسنة • وفى آخريات ١٨٠٩ ، عبرت بعثة تأديبية فرنسية الحدود البوسنية ، حيث قابلت قوة صغيرة ، تتكون بوجه رئيسى من الفرسان غير النظاميين ، تحت قيادة أغا (أى حاكم) بيهاتش ، ومع أنهم لم يكونوا تفئا للجند المدربين فى الجيش النابوليونى الأعظم ، فان مهارة الفروسية التى أبداها هؤلاء غير النظاميين البوسنيين ، تأثر بها جندى فرنسى تأثرا قويا ، فوصفهم فى مذكراته بأنهم : « مجموعة من الرجال ، لم يكن فيهم أحد يلبس زيا عسكريا ويمتطون خيولا هزيلة صغيرة الحجم ، ذات خفة خارقة فى الحركة ، وهى تطيع صوت راكبها وضغط ركبتيه ، دون لجام أو مهماز » • فردهم الفرنسيون الى الخلف ستة فراسخ ، ثم توقفوا عند احدى القرى وأشعلوا فيها النار » • وتذكر الجندى ما حدث فيما بعد فقال : « دخلت أنا وبعض الضباط أشد البيوت وجاهة ، وقدرنا أن الغرفات ذات النوافذ ذات القضبان المطلة على حوش داخلى كانت هى حريم البيت ، فأشعلنا فيها النيران تكريما للجنس اللطيف » (٢٧) •

وعندما انسحب الفرنسيون من « المقاطعات الالليرية » فى ١٨١٣ ، عاد الحكم النمساوى سيرته الأولى هناك ، وكذلك عاد أيضا النسق المعتاد من صراعات الحدود وحوادث الاختراق • وعادت الأمور الى نصابها المعتاد • ولكن أكبر تهديد طويل الأجل للبوسنة العثمانية كان يتشكل فى الشرق فى صربيا • حيث تفجر تمرد خطير فى ١٨٠٤ • والحق أنهما كانا تمردين صربيين : أولهما هو الذى قامت به جماعة من زعماء الانكشارية المحليين الذين وضعوا أيديهم على السلطة للحيلولة دون تنفيذ الاصلاحات التى صرحت باجرائها اسطنبول (وهى التى كانت تسمح للصربيين المسيحيين بتجنيد فرق الميليشيا الخاصة بهم ، وجمع ضرائبهم الخاصة ، وما الى ذلك) ، وكان التمرد الثانى ثورة ضخمة قام بها السكان

المسيحيون • وحدث في البداية أن السلطان انضم الى الرعايا ضد الانكشارية الثائرين فتفاقم التمرد الشعبي الأمر الذي جعله يقرر اخماده • وقضى الصرب تماما على جيش عثماني في ١٨٠٥ ، وكذلك أيضا ، هزم جيش مرسل من البوسنة في ١٨٠٦ هزيمة ساحقة • وكان من بين أعمال العنف التي ارتكبت ضد العثمانيين في الصرب المذابح المتسعة والسطو والسرقات، والتعميد الاجباري للسلافيين المسلمين العاديين ، فضلا عن الأتراك أنفسهم ، وعندئذ شرع الباقون منهم في الفرار الى الأراضي البوسنية (٢٨) • وحدثت بعض عصيانات من قوم ينتسبون الى الكنيسة الصربية الأرثوذكسية في البوسنة ، كما حدث في الهرسك عصيان أشد خطورة (نشأ من أسباب محلية أكثر) ، وأخيرا وافق السلطان في ١٨١٥ على اعطاء الصرب ــ أو على الأقل اولئك المقيمين في سنجقية سميديروفو وهي فلذة من شمال وسط صربيا تضم فيها بلجراد ــ قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتي ، يشمل قيام جمعيتهم الخاصة وأميرهم المنتخب الخاص • وبقيت الحاميات التركية هناك ، كما أن باشا تركيا واصل الاقامة في بلجراد • ولكن الأساس أصبح الآن قائما لتطور صربيا ، حتى تصبح في نهاية المطاف مملكة مستقلة ــ وهي مملكة لابد في المستقبل أن تتصرف حيال البوسنة بوصفها اما منارة للحرية وطوق نجاة ، أو تصبح مركزا للمطامع الاقليمية التوسعية •

ولقد كان التمردان المتناحران اللذان كانا بداية تحرك الصرب نحو الاستقلال يعبران عن نزعتين ظلتا واضحتين في الولايات البلقانية التابعة للامبراطورية العثمانية • فكان هناك عدم ارتياح شعبي ضد النظام بأكمله ، كما كانت هناك رغبة تساور الممثلين المحليين لذلك النظام في الدفاع عن امتيازاتهم ضد التدخل (بل وفوق كل شيء) ضد تدخل اسطنبول • وكانت سلطة أعيان المسلمين المحليين متركزة بالأكثر بأرض البوسنة ، وكان معنى ذلك أن مقاومتهم للحكم المركزي التي شاهدناها آنفا بضع مرات ، منذ منتصف القرن الثامن عشر ، راسخة الأساس، ويتطلب القضاء عليها عدة أجيال متتالية • ولقد نمت في البوسنة مؤسسات سياسية واجتماعية خاصة ، لو نظر اليها كمجموع ، لتحصل منها نظام للسلطة المحلية مؤثر بصورة غير عادية •

وكان اهم هذه المؤسسات القابيطانية (Kapetanije) • ونذكر بداية أنه في أخريات القرن السادس عشر كان القابيطان حاكما عسكريا اداريا بمنطقة التخوم : وكان عليه أن يجمع الجند ، ويفحص المسافرين الذين يعبرون الحدود ، ويحافظ على أمن الطرق من عصابات قطاع

الطرق ، فضلا عن أدائه واجبات مماثلة ومنوعة أخرى شرطية وادارية ٠ وكانت المنطقة التى يحكمها وتسمى « قابيطانية » يمكن أن تكون أكبر او أصغر من « قاضيلوكية » (وهى الوحدة الادارية الأساسية التى يرأسها قاض) ، ولكنها على كل حال أصغر من سنجقية (٢٩) ٠ وفى أثناء القرن السابع عشر امتد هذا النظام الى الأراضى الداخلية ، ووسعت أيضا مجالات سلطات القابيطانات ، وأخذت بعض العائلات العليــة البـارزة تعتبر القابيطانية من الوظائف المتوارثة ٠ وعندما وافى عهد معاهدة كارلوفيتس (١٦٩٩) كانت هناك اثنتا عشرة قابيطانية فى البوسنة ، وزاد العدد عند نهاية القرن الثامن عشر فأصبح تسعا وثلاثين ، وعندئذ كان ذلك النظام يغطى معظم الأراضى البوســنية ٠ وعند منعطف القرنين الســابع عشر والثامن عشر ، يوم شرعوا أيضا يتولون جمع الضرائب ، بلغ القباطنة قمة سلطاتهم (٣٠) ٠ وكانت القابيطانيــة ســمة اختصت بها البوسنة ، حيث كونت بنية «اجتماعية سياسية» أفردتها عن كل الأراضى البلقانية الأخرى٠ وعندما كان ذلك النظام يعمل بطريقة حسنة ، فانه كان يعد تحسنا عظيما الم بالنظام العثمانى الأصــلى رحـم الشعب من أولئك الظلمة النهابين من البكوات السناجقة المعينين من الخارج ، الذين كانــوا يقضــون مدة ولايتهم القصيرة فى البوسنة وكل همهم جمع الثروة وبلوغ الغنى ــ وأصبح له حكام محليون لهم مصلحة قوية فى اضفاء الرخــاء الطويل الأمد على مناطقهم ٠ وتقبلت اسطنبول بالرضـا نمو سلطة « القابيطانية » ، لأنها كانت أكفأ من الناحيــة العسكرية ، كمـا كان القائمون عليها أوفياء فى تسليم الضرائب ٠ ولكنهم كانوا فى الحين نفسه قادرين على وضع عقبة كئود فى طريق سلطة حكام البوسنة ، الذين كان يعينهم السلطان ٠

ومن الناحية النظرية ، كان الوالى يمارس السلطة العليـا للسلطان على البوسنة كلها ٠ كان بوصفه حاكما على « ايالة » ، يحمل لقب بيك البكوات أو وزير ، وكان كما رأينا آنفا ، يملك أعلى الرتب الثلاث لكلمة باشا وهى المسماة « الباشا ذو ثلاثة الذيول » من البيرق المزين بثلاثة من ذيول الخيل الذى يتقدمه اثناء المعركة (٣١) ٠ وكان دونه البكوات السناجقة (وعند نهاية حروب القرن السابع عشر ، كانت البوســنة تتكون من اربع سنجقيات : هى البوســنة والهرسك وتسفورنيك وكليس (Klis) وكلهم يعينون من قبــل السلطان مباشرة ٠ وكان هناك عند مستوى المنطقة ، بالاضافة الى القابيطانات ، أربع أغالوكات (Agaluk) مستقلة أعنى مناطق سيادة مستقلة ، وكان فى الامكان أيضا أن يحكم الأحياء « مؤسيليمين » (Musselims) وهم مديرون يعينهم الوزير نفسه (٣٢)٠ ولكن الذى حدث فى الواقــع هو أن سلطة الوزيــر أخذت تتقلص أكثــر

فأكثر ، منذ بواكير القرن الثامن عشر فصاعدا • وكان في مستطاع وزير همام مثل حكيم أوغلو علي باشا أن يستنفر البوسنيين للجندية ، حين يكون من مصلحة البوسنيين أن يستنفروا للقتال ، بيد أنه لايكاد يستطيع السيطرة على الاقليم ، عندما ينقلب عليه ، ولم تكن هناك من وسيلة لذلك الا القوة الغاشمة ، ومع ذلك فان استخدامها لم يكن من المعتاد • وعند نهاية القرن ، يتفق معظم المراقبين على أن سلطان الوزير الحق ، لم يكن يمتد الا على المنطقة المحيطة بمدينة ترافنيك ، وهى محل اقامته ومجلسه (٣٣) •

وقد انتقل وزراء البوسنة الى خارج سراييفو بعد الحرب التى نشبت في تسعينيات الألف وستمئة ، ثم وجدوا أن عودتهم اليها تكاد تكون مستحيلة • فان نمو سراييفو وكذلك (الى حد أقل) موستار ، كان عاملا آخر حد من سلطان السلطة المركزية • لأنهما كانتا حريصتين أشد الحرص على استقلالهما السياسى ومنذ أقدم الأزمان ، منح محمد الثانى سراييفو فى ستينيات الألف وأربعمئة امتيازا Mufname ، يتضمن بعض اعفاءات ضرائبية ، مكافأة لها على صمود أبنائها أثناء الغزو الأصلى للبوسنة • وقد أصبح ذلك الفرمان أساسا تطالب به — وخاصة من قبل زعماء النقابات القوية ، الذين اكتسبوا السلطة (المحتفظ بها للدولة بأماكن أخرى) لتعيين الرئيس الأعلى للمدينة (٣٤) • وبعد نهاية نظام الدوشرمة فى القرن السابع عشر ، اضمحلت طبيعة قوات الانكشارية فى سائر أرجاء الامبراطورية : حيث تحولت في البوسنة أثناء القرن الثامن عشر الى شيء يكاد يشبه النقابة أو الجمعية أو نحو ذلك ، أى الى شيء يهتم بالامتيازات الاجتماعية قدر ما يعنى بالواجبات العسكرية (أو أكثر) • وقد لاحظ معلق فرنسى فى ١٨٠٧ « أن لقب « انكشارى » يحمله كثير من الرجال المسلمين فى المدينة » ، وقد أخبره الناس أنه من بين ثمانية وسبعين ألف انكشارى فى البوسنة ، لم يكن هناك الا ستة عشر ألفا يتلقون الرواتب ويؤدون الواجبات العسكرية الحقة ، وأما الباقون فانهم حرفيون يستمتعون باللقب فحسب (٣٥) • ولما كانت سراييفو تحتوى على الأقل على عشرين ألف انكشارى ، كان بعضهم رجالا عسكريين ، لم يكن فى امكان أى وزير أن يهمل امتيازاتهم أو يلقيها جانبا ، وكان بها موسيليم يمثل الوزير ، رسميا وان كانت سلطته الحقيقية دون ذلك •

وكانت سراييفو هى البادئة بمقاومة السلطة المركزية : فقد لاحظ مدون أخبار بوسنى أنه فى ١٧٧١ ، عندما فرضت ضريبة جديدة ، انتظرت أماكن أخرى لترى ما اذا كان السراييفيون سيقبلونها قبل أن تدفعها هى نفسها ؟ (٣٦) على أن موستار كانت لها هى الأخرى أهميتها •

وان لم تذكر السجلات المكتوبة أنها منحت أية امتيازات خاصة حيث كانت تحاول دائما أن تتخذ لنفسها وضعا مماثلا ، فكانت تقاوم كل محاولات التحكم والسيطرة . واشتبكت في مصادمات كثيرة مع جند الوزير . وجردت على موستار حملات في ١٧٦٨ و ١٧٩٦ ، وفي ١٨١٤ تطلب الأمر جيشا من ثلاثين ألف رجل لاعادة حكم الوزير الى نصابه هناك : ووضع على رأس السلطة موسيليم . ولكن الناس سريعا ما نبذوه ، واختاروا رجلهم وعينوه في المنصب (٣٧) . وكان موظفو المدينة هؤلاء الذين قادوا المقاومة في موستار يحملون لقب آجان (ajen) . ومنذ تلك اللحظة أصبحت تلك الوظيفة حصنا منيعا ضد السلطة المركزية . وعندما أدخلت هذه الوظيفة الى البوسنة لأول مرة أثناء حرب ١٦٨٣ - ١٦٩٩ ، كان الآجان موظف مدينة ، تنحصر مسئولياته في استتباب القانون والنظام ، ويختار من بين الفرسان (السباهي) وضباط الانكشارية وغيرهم من الشخصيات الكبيرة ، ومع أن ذلك اللقب تطور وأصبحت له دلالة وأهمية أوسع بمواطن أخرى من البلقان ، التي كان يطلق فيها بوجه عام على جميع الأنواع من المسلمين السادة الأعيان المحليين شبه المستقلين ، فانه في البوسنة احتفظ بمعناه بوصفه منصبا اداريا بحتا . وفي كثير من أرجاء البوسنة الاقليمية ، كان لرتبة القابيطان أيضا نفس وظيفة الآجان وأعماله ، ولكن الدور الخاص للآجان كان يوجد في المدن الرئيسية التي كانوا ينتخبون فيها بالفعل ، أثناء الشطر الكبير من القرن الثامن عشر ، على يد ممثلين للمواطنين - المسيحيين والمسلمين أيضا . فأما الآجان أنفسهم فكانوا مسلمين بطبيعة الحال ، وفي كل من سراييفو وموستار كان لتنظيمات الانكشارية نفوذ قوي في تعيينهم . وفي سراييفو فان مواطني المدينة العاديين كان يمكن أن يكونوا آجانا ، وأما في موستار ، فان طبقة الأرستقراطية المحلية المالكة للضياع ، استولت على ذلك المنصب ، وانتهى بها الأمر الى تحويله الى النظام الاقطاعي ، جاعلين من الانتخاب مجرد « شكلية » بحتة . وعن طريق ممارسة هذه الوظيفة أو ذلك المنصب ، تمكن زعماء موستار ، بمعاونة أبناء الطبقة المحلية من ملاك الأرض الآخرين ، من الاحتفاظ بمدينتهم في حالة من المقاومة المستمرة للحكومة المركزية من ستينيات الألف وسبعمئة حتى ثلاثينيات الألف وثمانمئة (٣٨) .

الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع في البوسنة العثمانية ١٦٠٦ ـ ١٨١٥

كان هناك ـ كما يستبان من تاريخ القابيطانات والآجانات ، تغير احتماعى ذو أهمية هائلة يمضى أشواطا بعيدة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر · فقد ولى بالتدريج ذلك النظام القديم للحيازة العسكرية الاقطاعية ، ونشأ في مكان طبقة التيمار ، نوع جديد من الأرستقراطية المحلية ممن يمتلكون مزارع ضخمة ملكية كاملة وراثية · وقد سبق أن لخصنا بعض أسباب هذا التغير : نمو طبقة الدوشرمة من موظفى الامبراطورية الذين كانوا يتنافسون فى اسطنبول فى القرن السابع عشر على المنح المكونة من المزارع الخاصة اللاعسكرية . والتحول فى الأهمية العسكرية من الفرسان (السباهى) الى جند المشاة مدفوعى الأجور ، وازدياد الحاجة بصورة متناهية لجمع الايرادات المالية ، وهى حالة أفضت الى أن مناطق شاسعة من الارض قد سلمت الى السادة المحليين مقابل جمع الضرائب وتسليمها نقدا · وحدث في البوسنة أن سيل فرسان السباهى والإنكشارية والموظفين المتدفق من بلاد المجر وسلافونيا وكرواتيا ودالماشيا ذى ١٦٨٣ ـ ١٦٩٧ زاد الضغط على تحويل أراضى التيمار الى مزارع خاصة (ويطلق عليها ذلك المصطلح العام « تشفتليك أو جفالق » (Ciftlik)[٧] : حيث كان معظم هؤلاء الناس يبحثون عن الأمن الذى سوف يظللهم به ملاك الأراضى فقد كان من الممكن اعتصار ايرادات أكبر من الجفالق ، حيث لم يكن الأهالى ينعمون بحقوق قانونية كبيرة ·

وكانت بعض هذه المزارع التى تحولت بهذه الطريقة تعرف فى البوسنة بالأغالوكات كما يعرف أصحابها باسم الأغاوات : وكان الفلاحون هنا يحتفظون ببعض حقوق الاستخدام ، ولكن أعباء الضرائب والعشور والسخرة زادت فداحتها · أما المزارع التى كانت تؤسس على ملكية أراض

غير محددة ، فكانت تعرف باسم البجليكات (Begliks) كما يسمى اصحابها باسم البكوات وهى الكلمة العامة الدالة على السادة والأعيان (١)٠ وكان الكثير من هذه ملكيات مترامية يديرها نظار زراعة ، وكانوا يبتزون أكبر مبلغ يستطيعونه من الفلاحين المستخدمين فى تلك المزارع : وكان فى مقدورهم أن يرتبوا تعاقداتهم مع الفلاحين كيفما شاءوا حيث لم ينظمها القانون العادى ٠ وقد تغير معنى مصطلحى « الأغا » (الذى كان يشير فى الأصل الى ضباط الانكشارية) و « بك » ، فأصبحا يستخدمان للاشارة الى أفراد من طبقة النبلاء الدنيا والعليا مالكة الأرض ، وفى نفس الحين أصبح الفلاحون المسلمون ، الذين كان يبيح لهم القانون على الدوام امتلاك قطع صغيرة خاصة بهم ، يتحولون بازدياد نحو ذلك النوع من الزراعة ، حينما أخذت أحوال العمل فى المزارع الكبرى فى الانهيار ٠ وبهذه الطريقة حدثت عملية طويلة من الاستقطاب الاجتماعى والدينى : من القرن الخامس عشر ، يوم كان مالكو المزارع من المسيحيين أو المسلمين ، وكذلك فلاحوهم الذين يعملون فى مزارعهم حتى القرن التاسع عشر عندما كان جميع كبار ملاك الأراضى من المسلمين والغالبية العظمى للفلاحين غير المالكين للأراضى من المسيحيين (٢) ٠ وكان هؤلاء الفلاحون لا يزالون يسمون بـ « الأقنان » ، ولكن لو شئنا الدقة فى التعبير فان أولئك الذين كانوا لا يزالون يعملون فى أبعديات البكوات ، لم يكن لهم الوضع القانونى للأقنان ٠ اذ أنهم كانوا مجرد فلاحين مغلوبين على أمرهم فى نظام لا يمنحهم الا أقل القليل جدا من القدرة على المساومة ٠

وأخذت الأحوال المعيشية للأقنان تتردى يوما بعد يوم ، الأمر الذى دفع عددا متزايدا على الدوام منهم الى هجر الأرض بحثا عن العمل فى المدن الكبيرة (٣) ٠ وفى القرن السادس عشر كان من المألوف تماما لفلاحى البلقان العثمانية الاحتفاظ بفائض المحصول بعد الضرائب ، وكانوا عندئذ يستطيعون أخذه الى السوق لبيعه (٤) ٠ على أن هذا الحق سرعان ما أصبح مستحيلا فى الأبعديات الخاصة (الجفالق) ، حيث هبط الفلاحون الى درك لا يكاد يزيد كثيرا عن عيش الكفاف ٠ اذ حدث ذات يوم أن الكاتب الفرنسى فوركاد (Fourcade) اضطر وهو فى طريقه الى تسلم عمله كقنصل لفرنسا فى سالونيكا فى ١٨١٢ ، أن يقضى ليلة فى أحد بيوت أقنان الأرض فى كوجاراك (Codjarac) : وكانت مساحته عشرين قدما فى اثنى عشر، ويقوم فى وسطه موقد نار ، ولكن لم تكن له مدخنة ولا نوافذ (وانما مجرد فتحات فى الحوائط وثقب فى السقف) ، وكانت الأرضية من الطين ، كما كان الأثاث الوحيد هو الصناديق ، وكانوا ينامون وأقدامهم فى مواجهة

النار ملتفين بجلود الأغنـــام على أكوام من القش وكانت الحشرات تنهش أجسامهم (٥) ٠

بلا شك أن هذا التقرير يقدم صورة قميئة للحياة فى المناطق الريفية من البوسنة ٠ ومع ذلك فان من أهم اكتشافات المؤرخين الجدد للبلقان أن عدد السكان كان يزداد بقوة أثناء القرن الثامن عشر ـ وبخاصة فى البوسنة ٠ على أنه كان هناك على وجـــه الاجمال انخفاض عام فى العدد أثناء القرن السابع عشر لأسباب غير واضحة تماما : ولعل من الأسباب الممكنة انتشار مرض التيفوس (٦) ٠ والواقع أن عدد المسلمين النازحين الى الداخل كان يعادل فيض الكاثوليك النـــازح الى الخارج أثناء القرن السابع عشر بأكمله ٠ وتقدر المصادر الكاثوليكية عدد الذين غادروا البلاد بأكثر من خمسين ألفا أثناء حرب ١٦٨٣ ـ ١٦٩٩ ، كمـــا أن مجموع النازحين الى الخارج على وجـه الاجمال أثنـاء الحرب مع البندقيــــة فى ١٦٤٥ ـ ١٦٦٩ ، بلغ على الأرجح عشرات الآلاف أيضا (٧) ٠ ومع ذلك فان السكان المسلمين هم الذين حملوا معظم عبء النشاط العسكرى ـ ولم يكن ذلك فقط دفاعا عن البوسنة بل كان أيضا مشاركة فى حروب العثمانيين التى لا تكاد تنقطع فى أركان اخرى من امبراطوريتهم ٠ ولا أدل على أهمية القوات البوسنية فى الجيش العثمانى من قائمة تحوى أسماء ١٥٥٣ من الفرسان (السباهى) البوسنيين الذين خدموا فى الحملة على الروسيا فى ١٧١١ : حيث كان كل واحـد من هؤلاء الفرســان مكلفا بأن يحضر معه مجموعة من رجاله المقاتلين (٨) ٠ ولا شك فى أن آلافا عدة من البوسنيين المسلمين هلكوا فى هذه الحملات القاصية الشقة ، فمن بين خمسة آلاف ومئتى رجل أرسلوا للقتال فى بلاد فارس فى الحرب من ١٧٢٣ ـ ١٧٢٧ مثلا لم يعد الى أرض وطنهم الا خمسمئة رجل (٩) ٠ وهناك أسباب أخرى للوفيات ، تتضمن الطاعون الذى استمر كما رأينا يعيث فسادا فى البوسنة فى بواكير القرن الثامن عشر ٠ وليس من الصعب أن نفهم السر فى بطء نمو عدد السكان المسلمين بعد عمليـــة النزوح التى جرت فى تسعينيات الألف وستمئة ٠

وأما أشد زيادة فكانت فى عدد السكان المسيحيين ، حيث تشـــير مجموعة من سجلات الضرائب فى المحفوظات العثمانية الى أن عدد السكان نما بأكثر من ٢٠٠ فى المئة أثناء القرن الثامن عشر ٠ غير أن هذا الرقم ينبغى أن يعامل بحذر شديد ٠ على أن اتجاه خط السير نحو النمو واضح ٠ فاذا ضربنا عدد الذكور البالغين فى ثلاثة فان المجاميع الكلية لأقرب ألف لعدد السكان المسيحيين وفق العوائد الضريبية يبلغ ١١٨٠٠٠ فى ١٧١٨ ،

و ١٩٠٠٠٠ في ١٧٤٠ ، و ٢٩٥٠٠٠ فى ١٧٨٨ ، و ٣١٢٠٠٠ فى ١٨١٥ ٠ (ومع ذلك فهذه أرقام لا يمكن اجراء مقارنة صحيحة بينها فالمناطق الادارية التى تغطيها مختلفة) (١٠) ٠ والأرقام المقدرة على أساس آخر مخالف عن البوسنة والهرسك بكامل أرجائهما تشير الى أن عدد السكان المسيحيين زاد من ١٤٣ ألف نسمة فى ١٧٣٢ الى ٤٠٠ ألف فى ١٨١٧(١١) ٠ وليس بين أيدينا سجل يدل على قيام هجرة عظيمة قام بها الفلاحون المسيحيون الى البوسنة ، وان نزح اليها بين الحين والآخر قوم من الصرب أو مقدونيا واستقروا فيها (١٢) ٠ وعلى الرغم من الاضطرابات المتكررة فى أرض الهرسك أثناء القرن الثامن عشر ، فان الايالة البوسنية كانت على وجه الاجمال أحسن ادارة وحكما من المناطق المجاورة مثل صربيا وأقل تعرضا لهجمات العصابات المغيرة ، ومن المحتمل أنها كانت تجذب تيارا مستمرا من سكان الأراضى الصربية طوال القرن كله ٠ غير أن السبب الأكبر فى زيادة السكان لابد أنه كان النمو الطبيعى ٠ وهذا يشير الى قيام اقتصاد فعال فحتى وان عاش معظم المسيحيين بالأقاليم الريفية فى فقر ، فانهم لم يكونوا يعيشون معيشة الكفاف ٠

ومن ناحية أخرى فان قلة صغيرة من السكان المسيحيين تمتعت بعيش رغيد فى المدن الكبيرة بالبوسنة ، حيث نمت طبقة من التجار المسيحيين (واليهود أيضا) ٠ وكان الكاثوليك ، بما لهم من علاقات راجوزية قديمة ، يسيطرون على التجارة البوسنية حتى نهاية القرن السابع عشر ، ولكن بعد ذلك أصبح الصربيون والأفلاق ، واليونانيون والأرمنيون يلعبون دورا أعظم ٠ وكان بعض الصناع المهرة أيضا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية ، وبخاصة صياغ الذهب (١٣) ٠ وكان المسلمون من سكان المدينة يمتهنون الحرف اليدوية ، ولكنهم ما عتموا عند منتصف القرن الثامن عشر أن شرعوا هم أيضا يشتغلون بالتجارة (١٤) ٠ وكانت سراييفو المزدهرة فى القرن السابع عشر احدى عجائب البلقان ، كما أنها كانت أهم المدن الداخلية على الاطلاق فى غربى سالونيكا ولا تدانيها من قريب أية مدينة أخرى ٠ فقد لاحظ زائر فى ١٦٢٨ أن مخزون بعض التجار كان يساوى مئتى ألف أو ثلاثمئة ألف دوقية (١٥) ٠ وهناك وصف لا يبرح ينمو لسراييفو تحتويه يوميات الرحالة التركى الذى لا يكل ابفليا تشيليبى (Evlija Celebi)، الذى زار المدينة فى ١٦٦٠ ، فقد لاحظ أنها : كانت تحتوى على سبعة عشر ألف منزل (ويعنى ذلك أنها كانت تضم عدد سكان يزيد على ثمانين ألفا) ، وبها مئة وأربعة من المساجد ، وسوق تحتوى على ألف وثمانين دكانا تبيع سلعا واردة من الهند وبلاد العرب وفارس وبولندة وبوهيميا ٠ وقد انبهر أيضا بالسكان أنفسهم : « لما كان

المناخ هنا جميلا ، فان وجوه الناس وردية • وهناك مراع جبلية تقوم على جميع جهات المدينة الأربع ، ومياه جارية كثيرة • من أجل ذلك فان السكان أقوياء وأصحاء • بل ان هناك أكثر من ألف معمر يزيد عمره على سبعين عاما » (١٦) • وهناك رحالة فرنسى مر بها قبل ذلك بسنتين كان متحمسا بنفس الدرجة ، وقد لاحظ أن : « هناك شوارع جميلة جدا وقناطر بديعة مصنوعة من الحجر والخشب ، ومئة وتسع وستون نافورة جميلة ، والمدينة مليئة بالحدائق : ومعظم البيوت لها حدائقها الخصوصية ، وكلها مملوءة بأشجار الفاكهة وبوجه خاص أشجار التفاح » • وأعجب اعجابا شديدا بالسوق « بما حوت من عدد لا حد له من الناس وجميع أنواع السلع » ، كما أخذ أيضا بتلك السوق الأسبوعية الكبيرة للخيل ، وهى سمة تختص بها البوسنة (١٧) •

واحتاجت سراييفو الى وقت طويل لتسترد عافيتها بعد تخريبها ونهبها فى ١٦٩٧ ، كما أنها تعرضت للحريق أيضا فى١٧٢٤ و١٧٨٨(١٨)• وكان المعتقد أن تعداد سكانها فى ١٨٠٧ بلغ ستين ألفا : وهو أقل من الرقم الذى اقترحه تشيليبى فى ١٦٦٠ ولكنه مع ذلك تعداد كبير لو قارناه بتعداد بلجراد فى ١٨٣٠ وهو ١٢٩٦٠ نسمة أو زغرب فى ١٨٥١ وهو ١٤٠٠٠ نسمة (١٩) • وشهدت بلاد البلقان نهضة قوية فى تجارتها بعد معاهدة باساروفيتش ، وهى التى فتحت طريق التجارة مع الامبراطورية النمساوية وعادت بالفعل بمزية تجارية على العثمانيين (٢٠) • فسرعان ما جاء تجار من سراييفو وأخذوا يعملون فى الأسواق التجارية العظيمة فى لايبزيج وفيينا ، وكانت أهم صادرات البوسنة وأعظمها شأنا هى المنتجات الزراعية (الجلود غير المدبوغة والفراء والفواكه ، وبخاصة البرقوق المجفف : القراصيا) ، كما أن أهم الواردات كانت المنسوجات (٢١) • أما مناجم البوسنة الثرية فقد أصبحت آنئذ مهملة (فيما عدا بعض عمليات استخراج الحديد الخام قرب فاريش Varesh) ، كما أن البلاد لم يكن بها نشاط صناعى كبير عدا ما يقوم به أرباب الحرف بالمدن ممن يشتغلون فى دبغ الجلود وسبك المعادن وما الى ذلك (٢٢) • ولقد فاتهم فى الامبراطورية العثمانية اقامة مشروعات انتاجية ضخمة ، وكان اخفاقهم ذاك موضع تعليق معقب حكيم من القرن الثامن عشر ، هو مرادجيا دوهسون (Mouradgea d'Ohsson) الذى اعتنق الاسلام حيث أنحى بلائمته على انعدام الضمانات القانونية : « ان أحدا لا يجرؤ أن يجعل ثروته عرضة للأعين مخافة استلفات نظر الحكومة » (٢٣) •

وكان الفساد الذى شاع فى النظام العثمانى المتأخر موضع الملاحظة من كثير من الناس : « كان هم سياسة كل وزير تركى هى مصلحته فى المقام الأول » ، ذلك ما كتبه الدبلوماسى الانجليزى سير جيمس بورتر فى ١٧٦٨ (٢٤) • على أنه لاحظ أيضا أن ذلك كان ثمرة الخطأ فى النظام الادارى السياسى وليس مسألة انحلال خلقى عام • وحتى فى هذه الفترة من الركود الآسن ، فان أولئك الذين وصفوا الحياة فى أوربا العثمانية كما شاهدوها بعيونهم — على عكس هؤلاء الذين كانوا يشنعون عليها عن بعد — أعجبوا ببعض سماتها الخلقية والاجتماعية • وروى لنا بورتر بعض تعليقات أفندى (سيد مهذب) عثمانى « كان فى الأصل من أبناء البوسنة كما أنه عاش طويلا بأرض وطنه » وقد أخبره أنهم « لا يكادون يعرفون فى أية قرية تركية (مسلمة) أى مكر وتحايل أو غش او خداع أو لصوصية فيما بينهم » • وعلاوة على ذلك لاحظ بورتر قلة السرقات فى اسطنبول : « يمكنك أن تعيش هناك فى أمن تام وتظل أبوابك مفتوحة على الدوام تقريبا » (٢٥) • وربما ظن البعض أن السبب فى هذا السلوك الذى لاتثريب عليه ، هو أن الناس كانوا يعيشون فى حالة خوف من تطبيق الحدود الصارمة للشريعة الاسلامية ، بيد أن هناك بينات كثيرة تشهد بأنه وان كان مستوى التقوى العام قد ظل عاليا فى نفسية السكان المسلمين ، فان قوانين الشريعة لم تكن منفذة بصرامة وهناك دراسة تاريخية لمواقف الناس من شرب الخمر فى البوسنة ، أظهرت أن وجهات النظر أصبحت أقل تشددا أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : فلم يعد الناس عرضة للابلاغ عنهم من جيرانهم لتناولهم الشراب كما كانوا فى القرن السادس عشر •

وقد راح محدث بورتر ومبلغه يلقى تبعة الفساد الأخلاقى على الطائفة الأرثوذكسية • على أنه ليست هناك أية بينة حقيقية (عدا تلك التعليقات العارضة) ، يمكن أن تساند فكرة أن السكان الأرثوذكس كانوا أكثر فسادا من المجموعات الدينية الأخرى • على أنه كانت هناك عدة تقارير عن الفساد بين كهنوت الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث هيمنت عليها عائلات « الفاناريوت » الناطقة باليونانية فى اسطنبول وقد ترددت فى بعض الممارسات السيئة • وبعد أن حصلت هذه العائلات على أعلى المناصب الكنسية بأموالها عادت فباعت بعد ذلك المناصب الدنيا لتعوض ما دفعت • وحصل مطران البوسنة على مقر رسمى بسراييفو فى ١٦٩٩ ، وما وافت بداية القرن الثامن عشر حتى كان معه أربعة أساقفة تحت رياسته بسراييفو وموستار وزفورنيك ونوفى بازار (وهى الآن داخلة فى نطاق صربيا الحديثة) (٢٧) • ولكن الوثائق لاتسجل الا النزر اليسير من

الأنشطة الرعوية الدينية أو الذهنية الفكرية لهؤلاء الأساقفة فى البوسنة أثناء تلك المدة . ثم أعيد بناء « الكنيسة الأرثوذكسية القديمة » (من القرن السادس عشر) لسراييفو ، كما أصلحت فى أوقات مختلفة ، كما شيدت مدرسة ابتدائية أرثوذكسية بالمدينة فى ١٧٢٦ (٢٨) . وكان المستوى العام لنشاط رجال الدين الأرثوذكسى العاديين منخفضا جدا ، فانهم تلقوا تعليما سيئا جدا أو هزيلا ، كما كانوا يعتمدون بوجه رئيسى على المطابع فى روسيا ورومانيا للحصول على حاجتهم القليلة من الكتب المقدسة والأناجيل وكتب الصلوات (٢٩) . وفى أثناء القرن الثامن عشر ، وهى الفترة التى كان عدد السكان الأرثوذكس فى أثنائها ينمو بسرعة عظيمة ، دمرت الحرائق او الحرب بعض الأديرة الأرثوذكسية ، كما أن بعضها الآخر توقف استخدامه . فعند نهاية القرن كان هناك اثنا عشر ديرا فى الهرسك ، ولكن عددها كان اثنين فحسب فى البوسنة الحقة أحدهما فى ديرفنتا (Derventa) والآخر فى بانيالوكا (٣٠) . فأما الكنيسة الكاثوليكية التى ظل الفرنسيسكان ممثليها الوحيدين ، فلم يكن لها أى رجال فى بيع الوظائف . وكان الرهبان قد مارسوا مدة طويلة عادة طلب الصدقات أو المكوس من رعاياهم ، وهى عادة كان يدافع عنها رجال الكنيسة الزائرون على أساس أنه ليس لهم مصدر آخر للرزق (٣١) . على أن هذه الممارسة كانت عرضة لسوء الاستغلال كما يستدل على ذلك من تقرير لاذع وارد من أولوفو فى ١٦٩٥ ، وقد كتب حارس الدير بأن ديره اذ لم يتلق المال من روما فلابد له من أن يغلق أبوابه : اذ أنه لم يتلق أية صدقات من الأبروشيات منذ سبع سنوات ، لأن الشخص الذى كان مكلفا بجمعها ، وهو الأب ستانيتش (Stanic) قد اختلسها (٣٢) . بيد أن معاناة الكنيسة الكاثوليكية فى البوسنة من الفاقة تتضح من تقارير كثيرة . فقد لاحظ الأسقف مارافيتش فى ١٦٥٥ ، أنه « قل من الأبروشيات ما له كنائس يمكن أن تقام فيها القداسات وأن تقام فيها العبادات المقدسة ، وفى العادة كان القداس يقام فى الجبانات وفى البيوت الخاصة للكاثوليك » (٣٣) . ويضطر الفرنسيسكان لأداء العبادات المقدسة الى أن يركبوا خيولهم الى القرى النائية ويقضوا الليل ، فلا يعرفهم أحد من ثيابهم غير الدينية ولا يميزهم من الفلاحين ، ولذا كانوا يخاطبون بكلمة « العم (Ujak) » ، وهى عادة عاشت الى يومنا هذا . وقد صدم القنصل الرسمى الفرنسى شوميت دى فوسيه (Chaumette-des-Fosses) فى ١٨٠٨ ، لما شهده من جهل الرهبان الفرنسيسكان وشيوع الخرافات بينهم ، فضلا عن تدخلهم فى حياة الناس (٣٤) .

• ومع ذلك ، فانه وبفضل صلتهم شديدة الالتصاق بالعالم الفكرى للكنيسة الكاثوليكية الأفسح رحابا ، فان هؤلاء الرهبان البوسنيين قد ألقوا أعمالا منشورة كان أكثرها كتيبات دينية ، ولكن منها عملا أو اثنين تتجلى فيهما روح من الأصالة أحدهما قصيدة ترجع الى بواكير القرن الثامن عشر ، ندد مؤلفها بشراسة بما تحتويه الأغاني الشعبية من بذاءة وقذر(٣٥) • وكان أهم كاتب منهم هو فيليب لاستريتنش (Filip Lasetric) (١٧٠٠ - ١٧٨٣) ، الذى أصبح رئيسا للفرنسيسكان البوسنيين ، ودافع عن حقوق اقليمهم « البوسنة الفضية » ، برسالة يفند فيها اقتراحا قدم فى روما بتخفيض مركزها • وكانت الرسالة التى سطرها من أجل ذلك الغرض (Epitome vetustatum bosnensis provinciae) « خلاصة رسالة عن المركز القانونى لاقليم البوسنة » فى ١٧٦٥ ، أول كتاب مطبوع عن البوسنة كتبه بوسنى من أبناء البلاد (٣٦) •

ولم يكن الفرنسيسكان البوسنيون بحاجة فحسب الى الدفاع عن أنفسهم ازاء تهديدات روما وحدها • اذ دامت طوال تلك الفترة المنافسات بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، حيث تقول رسائل من البوسنة الى البابا فى ١٦٦١ ان البطريرك الأرثوذكسى يحاول أن يجبر جميع الكاثوليك هناك على ممارسة شعائر الأرثوذكس ، وأنه قد حصل على مرسوم من وزير البوسنة يكفل له قمع الكاثوليك • وكان على الكاثوليك البوسنيين عندئذ أن ينفقوا مبلغا طائلا من المال فى التقاضى » (٣٧) • لكن الفرنسيسكان احتفظوا بالعهدنامة (Ahdname) أى منحة الامتيازات التى حصلوا عليها من محمد الثانى ، والتى جددها (بفضل التدخل الدبلوماسى من المبعوثين النمساويين والفرنسيين والراجوزيين بل حتى الانجليز فى اسطنبول) كل سلطان تولى الحكم طوال تلك الفترة • كما أن هناك فرمانات أخرى ترجع الى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكلها تضمن بالفعل اعفاءات للفرنسيسكان من ضرائب منوعة ، والحماية من كل محاولات الاستيلاء التى كانت تقوم بها الكنيسة الأرثوذكسية •

وعند بداية القرن التاسع عشر ، كان بعض المراقبين يلاحظون أن السياسة العثمانية فى البوسنة ، كانت أكثر ايثارا للكاثوليك منها للأرثوذكس (٣٨) • ويحتمل أن يكون هذا انعكاسا للتطابق المتزايد بين الأرثوذكس وبين حركة المقاومة للحكم العثمانى بصربيا ، كما أن كاثوليك البوسنة كان يمكن الاعتماد عليهم والثقة فيهم بأنهم لن يتواطئوا مع القوة الجديدة المجاورة : وهى الامبراطورية النابوليونية ، وذلك لأن قساوستها كانوا يرون فيها عنصرا الحاديا بالغ الخطورة (٣٩) • وكانت المنافسة بين

رجال الدين الأرثوذكس والكاثوليك فى البوسنة موضع الملاحظة والتعليق من جانب كثير من الزوار لتلك المنطقة : فان شوميت دى فوسيه الذى قضى سبعة أشهر بالبوسنة ، لاحظ أن العداوة بين هاتين الطائفتين الدينيتين كان « يضرمها على الدوام رجال اكليروس الكنيستين كلتيهما ، الذين كانوا يتبادلون التشنيعات » (٤٠) ولولا تحريضات هاتين الفئتين المتنافستين ذوى المصالح الخاصة ، لما وجد الفلاحون الكاثوليك والأرثوذكس تلك الأسباب الكثيرة لاشعال نار العداوة بينهما ، ذلك بأنهم قوم يتكلمون اللغة نفسها ، ويرتدون الملابس عينها ، ويذهبون أحيانا الى نفس الكنائس، ويتقاسمون معا بالضبط عين الأحوال المعيشية فى الحياة ·

ولو اكتفينا بالروايات المعتمدة عن البلقان العثمانية لسهل علينا الخروج بانطباعة بسيطة ، وهى أن هذه القرون الطويلة التى انصرمت ، انما كانت أقفرت من النشاط الثقافى فيما خلا بعض الأشكال البدائية الساذجة · تلك هى الصورة التى ترتسم لنا من كثير من الأعمال التاريخية للمؤرخين اليوغوسلاف ، وقدمها الينا بصورة كاريكاتورية أو تكاد الروائى ايفو أندريتش (Ivo Andric) فى رسالته عن الثقافة العثمانيه البوسنية ، التى تطفح بالمرارة حيث قال : « كان أثر الحكم التركى سلبيا بصورة مطلقة · ان الترك عجزوا عن جلب أى مضمون ثقافى او احساس برسالة سامية ، حتى لأولئك السلاف الجنوبيين الذين قبلوا الاسلام واتخذوه دينا » (٤١) · وعندى أن هذه الملحوظات انما هى تعبير عن التحيز الأعمى — وهى عماية متعمدة تجاهلت المنشآت الأثرية الضخمة للعمارة العثمانية فى البوسنة ، كما أنها أغفلت بسبب مفهوم المجال الواسع للأعمال الأدبية التى كتبها المسلمون البوسنيون فى ظل الحكم العثمانى ، فالكثير منها كان مجهولا تماما فى المدة التى كتب فيها أندريتش مؤلفاته فى ١٩٢٤ · ولا يزال من العسير علينا تماما اصدار أى حكم صائب على هذه الكتابات البوسنية التى لا نعرفها الا حفنة قليلة من العلماء المتخصصين فى العالم : فان الذى ترجم منها قلة لاتذكر ، كما أن الكثير منها لا يزال موجودا ولكن فى صورته المخطوطة الأولى (لو فرضنا ، بعد ذلك التدمير الهائل والمتعمد للتراث الثقافى البوسنى الاسلامى فى ١٩٩٢ — ١٩٩٣ ، أنها لاتزال موجودة) · وقبل قذف سراييفو بالمدافع فى ١٩٩٢ كانت هناك سبعة آلاف وخمسمئة مخطوطة بدار غازى خسرو بك ، وخمسة آلاف فى معهد الدراسات الشرقية ، وألف وسبعمئة واثنتان وستون نسخة فى دار المحفوظات التاريخية ، وأربعمئة وثمان وسبعون فى دار الكتب القومية (٤٢) · ومن هذه الأرقام وحدها يستطيع المرء أن يستنتج أن البوسنة العثمانية لم تكن صحراء ثقافية ، كما أن هناك عددا ضخما من

الأعمال التى سطرها الكتاب البوسنيون باللغات التركية والعربية والفارسية ، لاتزال موجودة فى مجموعات جيدة بكل من اسطنبول وفيينا والقاهرة وغيرها من البلاد ٠

وهناك نوع من الكتابة حاز التفاتا خاصا هو ذلك المسمى بالأدب « الألياميادو » (Aljamiado) ، وهى أعمال كتبت باللغة الصربوكرواتية ولكن بالحروف العربية ٠ (وهذا الاسم هو لفظ اقتبسه العلماء المعاصرون من مواد غير عربية مماثلة كتبت بالحروف العربية فى أسبانيا الاسلامية) ٠ وفى أثناء القرنين الأولين من الحكم التركى ، ظل الخط « البوسانتشيكى » (Bosančica) وهو البديل البوسنى للسيريليكى (Cyrillic) مستخدما عند بكوات البوسنة ، أما الخط الرومانى فقد شاع استعماله بين الرهبان الكاثوليك ، كما أن الأعمال المطبوعة بالسيريليكية كان يتلوها أيضا رجال الدين الأرثوذكس ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ ولكن التحول للكتابة بالخط العربى كان من الطبيعى أن يتم بين المسلمين : فانه الخط الذى كانت تكتب به العربية والتركية والفارسية جميعا ، كما كانت تعلم بجميع المكاتب (الكتاتيب) الاسلامية أى المدارس الأولية فى كل أرجاء البلاد (٤٣) ٠ ويتكون الأدب الألياميادو فى معظم شأنه من شعر مختلف الأنواع مكتوب وفق الأوزان الشعرية العربية الكلاسيكية : منها الشعر الدينى والقصائد ذات الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية ، وكذلك أيضا بعض القصائد الغزلية التشبيبية ، فأما الشعراء فكان منهم شيوخ الدراويس والجند والنساء (٤٤) ٠ وهناك كاتب من كتاب الأليامياادو هو محمد خفاجى أسقفى (الذى توفى فى ١٦٥١) (Mehmed Havaji Uskufi) ، كتب أيضا بالشعر المنظوم قاموسا صربوكرواتيا تركيا ، وهو ثانى أقدم معجم فى أية لغة سلافية جنوبيه ٠ وبالاضافة الى انتاج هذه الكتابات ، لعب المسلمون دورا كبيرا فى خلق ونقل التراث الثرى للشعر الشعبى فى البوسنة ونقله الينا : ومنها قطع البالاد وأشعار الرثاء (مثل قصيدة زوجة حسن أغا الشهيرة التى سلف ذكرها) ، ثم القصائد الملحمية ، وذلك النوع الخاص من أغانى الغزل الذى تشيع شعبيته عند كل من المسلمين والمسيحيين والمعروف باسم « سفداالينكه » (Sevdalinke) (٤٥) ٠

وليس من المدهش واللغة الصربوكرواتية تقوم بعمل اللغة الثالثة فى الامبراطورية العثمانية أن يكتب بها بعض الأدب العثمانى ٠ فان كاتبا بوسنيا من القرن الثامن عشر هو مدون الحوليات التاريخية ملة

مصطفى شوقى باشيسكيا . Mula Mustafa Ševki Baseskija (الذى أضاف مجموعة من الأغانى الصربوكرواتية الى مدوناته التاريخية) ، صرح بأنها لغة أشد ثراء بكثير من العربية لأنها تحتوى على خمســـة وأربعين لفظا لكلمة « يذهب » (٤٦) • فقد أضفى المؤرخون العصريون أهمية ودلالة كبيرة على اطلاق الكتاب فى تلك المدة على لغتهم اسم « البوسنية » ، وان كان كل ما عنوه من ذلك ببساطة هو اللغة التى يتكلم بها الناس بالبوسنة ، ولم يكونوا يقصدون أبدا أن يشيروا الى أنها كانت منفصلة تماما عن اللغة المنطوقة فى أى مكان آخر • وبالطبع فانه كانت هناك اختلافات فى اللهجات الصربوكرواتية بين المناطق المختلفة ، وهكذا نرى أن أحد الفرنسيسكان فى القرن الثامن عشر يقول ان اللغة البوسنية مختلفـــة عن الكرواتيـــة الدالماشية والراجوزية (٤٧) • على أنه بين جميع ضروب الصربوكرواتية المتنوعة ، ظلت البوسنية طويلا تعد أحسنها جميعا • ففى ١٦٠١ كتب ماورو أوربينى يقول : « لو نظرنا الى جميع الشعوب الناطقة بالسلافية ، لوجدنا أن البوسنيين لديهم أكثر اللغات نعومة ورشاقة ، وأنهم يشعرون بالفخر من أنهم هم وحدهم الدين يحتفظون فى أيامنـــا هذه بنقاء اللسان السلافى » (٤٨) • وكان فوك كارادجيتش (Vuk Karadžic) ، الكاتب وجامع الأغـــانى الشعبية والمصـــلح اللغـــوى الصربى الكبير فى القـــرن التاسع عشر ، يعد لهجة وســـط الهرسك ممثلة للغة الشعبية فى أحسن أشكالها وأنقاها (٤٩) •

ومع هذا ، فان معظم الأعمال الأدبية لمسلمى البوسنة كتبت بالتركية أو العربية أو الفارسية • وأسباب ذلك واضحة تماما : فان بعضهم كان يكتب فى أشكال تكون فيها اللغـــة جزءا لا سبيل الى فصله من الضرب الأدبى ، مثل ذلك الشعر الفارسى التقليـــدى المتقن الديباجـــة والرائـــع الأسلوب ، وبعضهم كان يعالج موضوعات مثل الفلسفة التى كان لها فى العربية قاموس فنى كامل وقائم بين الأيدى ولكنه يعوز الصربوكرواتية ، وبطبيعة الحال كان الكثير منهم يكتبون لقراء يعيشون خـــارج الأراضى السلافية • فأما الكتابات النثرية فتغلب عليها الأعمال الدائرة حول علم الكلام والفلسفة والتاريخ والقانون ، ولكن المجال ، كان كما هو واضح ، شديد الاتساع ، ولا يستطاع الا ذكر قلة منهم فقط • وكان من الكتاب الكبـــار أحمـــد ســـعدى البوســـناوى Ahmed Sudi al Bosnawi (توفى ١٥٩٨) ، وقد كتب تعليقات على شـــعراء الفرس الكلاســـيكيين ، وحسن أفندى بروشتشاك Hasan efendi Pruščak (توفى ١٦١٦) ، وقد كتب رسالة شهيرة حول الحكم والحكومة أسماها « مرآة الأمراء » ، وكتبا فى المنطق وعلم البيان والقانون ، كما أنه جمع ســـجلا بأســـماء

المؤلفين البوسنيين المتبحرين في العلم ، وعبدى البوسناوى Abdial Bosnawi (توفى ١٦٤٤) . وهو الذي ألف رسائل صوفية ممتازة بالأسلوب الصوفى التقليدى ، ومنهم ابراهيم على بيجوفيتش Ibrahim Alajbegović ، المعروف باسم بيتشيفى Pečevi ، (توفى ١٦٥١)، وهو الذى صنف بالتركية تاريخا للفترة بين ١٥٢٠ و ١٦٤٠ ، واستقى معلوماته من المصادر الأوربية المطبوعة • وأحمد الموستارى رشدى Ahmed al-Mostari Rushdi (توفى ١٦٩٩) ، وهو واحد من شعراء عديدين من موستار الذين كانوا يكتبون الشعر التركى على أساس النماذج الفارسية ، ومصطفى الموستارى اجوبوفيتش Mustafa al-Mostari Ejubović ، المعروف باسم الشيخ يويو Shejh Jujo (توفى ١٧٠٧) ، وقد كتب ما يقارب الثلاثين رسالة فى المنطق والنحو والشريعة الاسلامية ، ومصطفى الآكوهيسارى Mustafe al Aquhisari (توفى ١٧٥٥) ، الذى كتب عدة أعمال أخلاقية ودينية ، كما كتب رسالة اطراء فى البن (القهوة) ، ومصطفى شوقى باشيسكيا وهو الذى سبق ذكر مدونته الاخبارية حول سراييفو ألقرن الثامن عشر بلغة تركية دارجة •

وبعض هؤلاء الكتاب كانوا يعملون أيضا بالتعليم أو الادارة خارج البوسنة • بيد أنه كان هناك عدد كبير من رجال العلم ، يعملون فى حكومة البوسنة نفسها • فان الشيخ يويو كان هو مفتى موستار ، كما أن أحد ولاة البوسنة ، وهو درويش باشا البوسناوى (توفى ١٦٠٣) كان شاعرا مطبوعا ، قام بترجمة الشعر الفارسى الى التركية (٥٠) • ولا شك فى أن البوسنة كان لها أيضا نصيبها الوافر من رجال الادارة أو الولاة الجهله والأجلاف والغلاظ الأكباد أيضا • وهنا يتبين أن القول بأن البوسنة كانت صحراء ثقافية أثناء الحكم العثمانى ، انما هو قول سخف وهراء • وذلك فضلا عن الفن الزخرفى كفن الخط والرسم الدقيق ، وهما فنان انتشرت ممارستهما بين مسلمى البوسنة طوال القرون العثمانية بأكملها (٥١) •

وكثير من الكتاب الوارد ذكرهم أعلاه كانوا أعضاء فى جمعية الدراويش الصوفية التى لعبت دورا مهما فى الحياة الاسلامية البوسنية • وللمرة الثانية نشعر أن من الصعب الكتابة حول مثل هذا الموضوع ، ليس فقط لأن المادة اللازمة لذلك لاتزال غير مطبوعة (كالمخطوطات المئتين والاثنتين والعشرين المأخوذة من احدى دور الدراويش وهى تكية سنان فى سراييفو) ، بل وأيضا لأن الطرق الصوفية ظلت على الدوام تمارس عملها كنوع من النشاط « الاسلامى غير الرسمى » ، خارج الهيكل الرسمى للمدارس الاسلامية الدينية والجوامع ــ بحيث ان كتب التاريخ المعتمدة دأبت على التقليل من دورها • وما هذه الطرق الا جمعيات أو اخوانيات

يديرها معلمون روحانيون أو شيوخ يجتمعون فى العادة وبانتظام فى التكايا (الرواقات) التماسا للانضمام للزمالة ، ومن اجل الاحتفالات التى ربما انطوت على الحركات الشعائرية : وأشهرها المولوية (« الدوارة » حيث يدور الدرويش حول نفسه فى سعيه للوصول الى النشوة عن طريق الخروج من دائرة الوعى العادى الى الوعى الباطنى) وطراز من الشعر الدينى الذى ينبع تلقائيا من لحظات الوله يعرف باسم «الالهى» وتعاورت على جمعيات الدراويش فى أوقات مختلفة من تاريخها أحوال متقلبة ، فكانت ذات يوم من دعاة الهدوء وعدم التدخل فى السياسة ، أو تكون نشطة سياسيا ومتمردة النزعات ، كما حدث ذات مرة من حركة المريدين الشهيرة وهى الجماعة التى قاومت تقدم الروس فى شمال القوقاز المسلم • وكان اتجاههم الدينى ينمو عادة الى التصوف الذى ينحو فى بعض الأحيان الى التفكر بعقل متفتح يقتات من الأفكار الفلسفية وشعر الغزل ، بل حتى من اللاهوت المسيحى ، حتى لقد عده المسلمون المتشددون الحادا هرطيقيا • وكان هذا ينطبق بوجه خاص على مؤسسة البكتاشية التى كانت تعمل بين الانكشارية (٥٢) •

ولقد جاءت طرق الدراويش الى البوسنة فى زمن مبكر ، ولعلها لعبت هناك دورا جوهريا ، كما فعلت فى غيرها من الأماكن ببلاد البلقان ، فى تلك العمليتين المترابطتين هما التحول الى الاسلام ، وتطور المدن المسلمة وازدهارها (٥٣) • وكانت أولى تكايا الدراويش بسراييفو ، وهى تكية ايشاكبيجوفا (Ishakbegova) ، التابعة لجماعة المولوية وقد بنيت قبل عام ١٤٦٣ ، وتكية اسكندر باشا (Skender Pasha) التابعة لجماعة النقشبندية وقد بنيت فى ١٥٠٠ ، كما أن هناك تكيتين أكثر أهمية (تكية سنان باشا والبيستريجينا Bistrigina) وقد أضيفتا فى أثناء القرن السابع عشر (٥٤) • وهناك أيضا مجموعة من التكيات الأصغر حجما تم بناؤها وزالت من الوجود الآن : وقد أحصاها ايفليا تشيليبى فوجد مجموعها سبعا وأربعين تكية فى سراييفو فى منتصف القرن السابع عشر (٥٥) • وكان فى الامكان تأسيس التكايا فى أجزاء بعيدة من الريف أيضا ، وقد ظلت واحدة منها تعمل فى سبعينيات الألف وتسعمئة بقرية جبلية منعزلة فوق فوينيكا Fojnica — وهى موطن ميلاد زعيم الدراويش الأشهر فى القرن الثامن عشر ، الشيخ حسين (٥٦) • ولم تكن مجرد مراكز للتآخى والتقوى ، بل انها كانت أيضا جزءا من شبكة دولية هائلة ، وكان البعض من أكبر جماعة وهى النقشبندية يسافرون الى أماكن بعيدة الشقة قد تحملهم الى وسط آسيا ، التماسا للقاء الشيوخ المشهورين • والطائفة الوحيدة التى لم تحظ قط بالشعبية فى البوسنة ،

وهو أمر عجيب ، هى جماعة البكتاشية الخاصة بالانكشارية : نعم انها كانت لها بالفعل التكايا هناك ولكنها كانت تعتمد بوجه رئيسى على الزائرين من الألبان والأتراك • ويبدو أن هالة الزندقة التى كانت تكتنف الطريقة البكتاشية لم تكن تلقى قبولا فى البوسنة (٥٧) •

والاسلام فى البوسنة العثمانية كان فى غالب أمره سنيا سلفيا • وكانت الحركة المارقة الجدية الوحيدة هى حركة « الحمزاوية » ، وهم أتباع لشيخ يدعى حمزة بالى بوشنياق (Hamza Bali Boshniak) وقد أعدم بتهمة الزندقة فى ١٥٧٣ • ونحن لانكاد نعرف عن تعاليمه الا النزر اليسير ، وواضح أنها كانت تتجاوز كثيرا ما فعله البكتاشيه حين أدخلوا على عقيدتهم عناصر من اللاهوت المسيحى • وتمكن بعض أعضاء الحركة الحمزاوية فى البوسنة فى أثناء ما أنزل عليهم بعد ذلك من عذاب واضطهاد ، من أخذ ثأرهم باغتيالهم الصدر الأعظم محمد باشا سوكولوفيتش • ويبدو أن أولئك الحمزاويين واصلوا العيش كنوع من الحركات المعارضة الخفية طوال القرن السابع عشر (٥٨) •

كان معظم المراقبين يعدون مسلمى البوسنة سنيين أتقياء صالحين وقد كتب ايفليا تشيليبى بحرارة عن مسلمى سراييفو ، قال : « انهم جميعا قوم يخافون الله ، لهم عقيدة نقية مستقيمة لا تشوبها شائبة ، ونفوسهم خالية من الحسد والبغضاء ، كما أنهم جميعا صغيرهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم ملتزمون بشدة بتأدية الصلاة » (٥٩) • على أنهم وان كانوا قوما « يخافون الله » فانهم كانوا بوجه ملحوظ تماما ، أقل تدقيقا من بعض المجتمعات الاسلامية الأخرى ، فى تمسكهم بكثير من الأعراف الاسلامية ، فان بهم ضعفا نحو احتساء شراب الراكى ، وكان استخدام الحجاب لا يراعى فى بعض المناطق (وبخاصة فى ريف منطقة الهرسك) ، كما أن ممارسة البوسنيين للغزل وحتى العلاقات الغرامية كانت موضع التعليقات الكثيرة من المراقبين الأجانب (٦٠) • وقدم مسلمون آخرون أوصافا للسمات الأخلاقية للبوسنيين ، وكلها تتفق تماما مع بينة تشيليبى • وهناك كاتب سورى كان يضع قاموسا فارسيا تركيا ابان أخريات القرن السابع عشر ، فقد كتب فى بيانه فى مادة البوسنيين : « يعرف البوسنيون برقة الأخلاق والكرامة واللوذعية والفهم الدقيق والتعقل الذهنى الممتاز والولاء والجدارة بالثقة ، تلك هى صفاتهم المميزة » (٦١) • وبعد أن قضى الرحالة الفرنسى كيكليه (Quiclet) شهرين كاملين فى سراييفو ، صرح قائلا : « لم أتلق من جميع مسلمى هذه المدينة سوى جميع

أنواع المعاملة الحسنة وكل أشكال الفضل والمجاملة ، حيث كان كل انسان يصادقني ويبدي لي المودة » (٦٢) ٠

ولا شك في أن مثل هذه الأوصاف جديرة بأن يحملها الانسان في عقله عندما يقرأ ما يكتب عن « تعصب » مسلمي البوسنة في القرن التاسع عشر ٠ ومن اليسير جدا أن يفترض أي انسان أن ذلك التعصب كان خلة دائمة متوارثة في اسلام البوسنة ٠ ولا ريب أن اتجاها الى التعصب قد نما بالتأكيد ابان القرن التاسع عشر بين بعض البكوات ورجال الدين الاسلامي والطبقة الدنيا من المسلمين ، ولكن هناك أسبابا قوية للظن بأن وراء ذلك أسبابا سياسية واقتصادية من نوع خاص ٠ وقد كتب شوميت دي فوسيه ، بعد ان قضى سبعة أشهر في البوسنة في ١٨٠٨ ، تعليقا عميقا حول تشكك البكوات في المسيحية ، قال : « لو شئنا النصفة لمسلمي هذا الاقليم ، وجب علينا أن نقول ، كما يسلم بذلك الرعية (أي الفلاحون المسيحيون بصفة رئيسية) أنفسهم ، انهم كانوا شديدي اللين في تلك السنوات الأخيرة القليلة ٠ ولكن منذ بداية هذا القرن دفعهم مركزهم السياسي الى الامتلاء بالريبة والشكوك » ٠ وقال انه بعد استيلاء الفرنسيين على منطقة دالماشيا والعصيانات المسلحة للصرب والجبل الأسود ، شعروا أنهم محوطون ومهددون ٠ ان هذا الموقف وقد أثار مخاوفهم ، جعلهم يشعرون بالتوجس من كل انسان ٠ وقد بث فيهم ذلك شعور الخوف من أن تتمرد رعيتهم ، ولكي يضمنوا خضوعهم اضطروا الى معاملتهم بشيء من الهمجية البربرية » (٦٣) ٠ ومعلوم أن الاستقطاب السياسي الاجتماعي الديني بين ملاك الأراضي والفلاحين ، كان قد قارب الاكتمال في تلك الفترة ، ولا بد أنه قد لعب هو أيضا دوره ٠ وكان ما أثار مخاوف رجال الدين المسلمين هو قيام صربيا بوصفها دولة مسيحية مسلحة وشبه مستقلة ، وقد طردت جميع المسلمين الذين نجوا من المذابح طردا وحشيا عنيفا ٠ ومما زاد في حدة مشاعر التشكك والحسد في أنفس سكان المدن المسلمين العاديين ، تلك الزيادة المستمرة في أهمية طائفة التجار المسيحيين في سراييفو ، الذين نعموا في أوليات القرن التاسع عشر بحماية الموظفين القنصليين التابعين لفرنسا والنمسا وبروسيا ٠ ولذا فانه عندما وافت ١٨٢٢ كان في امكان زائر فرنسي آخر هو شارل برتوزييه Charles Pertusier أن يكتب أن « المسلم متطرف في ايمانه الى حد التعصب » (٦٤) ٠ ولا ريب في أن هذا الحكم العام كان ينطوي في ذلك الحين ولو على شيء من الصدق ٠ بيد أن الحال لم يكن كذلك على الدوام ٠

الفصل التاسع

يهــود وغجر البوسنة

لم نعرض حتى الآن ليهود وغجر البوسنة الا بأدنى قدر من الذكر ، رغم أن وجودهما فى البوسنة منذ مرحلة مبكرة : وربما سبق وجود الغجر الغزو التركى ، واليهود الذين وفدوا خلال القرن الأول من الحكم التركى· وسيقدم هذا الفصل خلاصة موجزة لتاريخهم بأرض البوسنة منذ وطئت أرضها أقدامهم حتى بواكير القرن العشرين · وبدهى أن هذين الشعبين لا يكادان يشتركان فى شىء تقريبا ، فضلا عن أن كلا منهما احتفظ تماما بطبيعته وهويته ، وهو مشتت فى عدد لا يحصى من البلدان · ولكن فى الحالين كان الفارق فى المعاملة التى كانا يلقيانها فى الامبراطورية العثمانية وتلك التى كانوا يتعرضون لها فى أوربا الغربية والشمالية ، فرقا هائلا يسترعى الأنظار · وعلى أولئك الكتاب الذين يشيرون بصورة آلية الى عدم تسامح الحكم العثمانى ، أن ينظروا نظرة أعمق الى تاريخ هاتين الأقليتين · ولا جدال أن التحامل على اليهودى والغجـرى كان موجودا فى المجتمع البلقانى ، ولكن هذا التحامل المحلى لم يهلك هذه الآلاف المؤلفة منهم كما حـدث لهم فى القـــرن العشرين · فما كان يستطيع أن يفعــــل ذلك الا أيديولوجية تطورت فى الأجزاء « المسيحية » الأكثر تقدما فى أوربا ·

وكما هو الحال مع الاسلام ، يمكننا أن نتكهن بوجود صلات شديدة القدم بين اليهودية والأرض البوسنية · ونحن بفضـــل الحفائر الأثرية التاريخية ، نجزم بأن كثيرا من اليهود قد ســكنوا فى المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الرومانى : تشهد بذلك أطـلال المعابد اليهودية الباقية لنا منذ القرنين الثالث والرابع ، والمقابر اليهـــودية فى دالماشيا ومقدونيا والجبل الأسود ، وعند مدينة أوسييك (Osijek) التى تبعد ثلاثين ميـــلا من الحد البوسـنى الشـمالى الشرقى · وأشـد تلك الاكتشافات سحرا وأخذا بالألبـــاب ، جبانة للآفار من القـرن الثامن

أو التاسع تقع قرب نوفى ساد (شرقى أوسـيبك ، وعلى بعد مماثل من البوسنة) ، وهى تحتوى على عدد كبير من القبور عليهـا رموز يهـودية ونقوش عبرية ، وهو أمر يشير الى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرم القديمة التى اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن (١) ٠

وظلت مجموعة من السكان اليهود تعيش فى مقدونيا طوال الحكم البيزنطى بأكمله ، وبسبب أهمية طريق التجارة البرى الى سالونيكا ، اجتذبت أعضاء جددا من الطوائف اليهودية فى بعض الأجزاء الأخرى من أوربا ، الذين انضموا الى أحفاد يهود سالونيكا الرومانية ٠ وهناك يهودى مقدونى شهير هو ليون مونج (Leon Mung) الذى تحول الى المسيحية وأصبح كبير أساقفة أوريد (Ohrid) فى ١١٢٠ ، لعله كان من الذين فروا من وجه الاضطهاد فى ألمانيا ٠ ولابد أن لاجئين آخرين قد فروا الى مقدونيا بعد طرد اليهود من المجر فى القرن الرابع عشر ، وفى ذلك الوقت كانت هناك أيضا وبالمثل ، مجتمعات يهـودية فى راجـوزا وسـبليت وبلجراد (٢) ٠ ولكن أكبر نزوح من نوعـه هو الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر ، حيث رحبت الامبراطورية العثمانية باليهود المطرودين من اسبانيا وأكرمت مثواهم وأحسنت معاملتهم ٠ واسـتقر كثير مـن هؤلاء اليهود السفرديم فى مدينة سالونيكا ، كما تحرك بعضهم شمالا الى مدينة سكوبيى (Skopje) التى سرعان ما حولوها الى مركز تجارى مهم ٠

ولم تكن البوسنة واقعة على طريق التجارة من الشمال الى الجنوب (الذى مر من خلال صربيا) ،ولكن طريقا مهما من الشرق الى الغرب امتد من راجوزا خلال فوتشا (جنوب سراييفو) حتى نوفى بازار واستمر حتى سكوبيى ٠ ولابد أن التجار اليهود من سكوبيى وراجوزا كانت لهم تعاملات تجارية كثيرة مع الوسطاء البوسنيين ٠ ولكن يبدو أن التطور الذى ألم بسراييفو بوصفها مدينة تجارية فى حد ذاتها هو الذى جلب اليهود الى التربة البوسنية والاقامة بها واستيطانها ٠ على أن تاريخ وصولهم الى هناك ليس معروفا ، لكن ثلاثة سجلات للمحاكم فى ١٥٦٥ تشـير الى أن هناك تجارا من اليهود ، كان من الواضـح أنهـم مستقرون تماما فى سراييفو (٣) ٠ والراجح أن العامل الحاسم فى ذلك هو بناء « سـوق المنسوجات » فى بورصة وهو سوق أقامه غازى خسرو بك فى ثلاثينيات الألف وخمسمئة : حيث كانت تجارة الحرير مع بورصة الى حد كبير فى أيدى يهود الأناضول (٤) ٠ ومن غير المعروف ما اذا كان اليهود جاءوا عبر هذا الطريق الطويل من بورصة ليستقروا فى سراييفو ، فقد كانت الروابط الرئيسية لطائفتهم فى سراييفو مع سكوبيى أو سالونيكا خـلال القرنين

التاليين ، ويمكن افتراض أن كثيرا من المستوطنين اليهود كانوا من أبناء هاتين المدينتين • وقدر لتجارة المنسوجات التى هى على رأس الواردات الى البوسنة طوال الفترة العثمانية بأكملها ، أن تظل فى أيدى اليهود حتى تم تدمير طائفتهم ابان الحرب العالمية الثانية (٥) •

وكان يهود سراييفو يعيشون أولا فى محلة أو حى المسلمين ، لكن سمح لهم فى ١٥٧٧ ، مكافأة لهم على العون الذى قدموه ضد الهابسبرجيين، بتأسيس حى خاص بهم (٦) • وكلمة « حى » تكاد تكون ترجمة مضللة لكلمة « محلة » ، فكما لوحظ فى الفصل الخامس أن هذه انما كانت اقساما أصغر للمدينة ، ربما لم تحو أكثر من أربعين بيتا • فأما لفظة « جيتو » (Ghetto) ، التى تستخدم للدلالة أحيانا على هذه المحلة اليهودية ، فانها أيضا تسمية غير صحيحة : فقد كانت حرية الحركة التامة مكفولة ، دون بوابات أو حظر تجول أو أى نوع من الاجراءات التمييزية • وهناك قصة وردت فى مخطوطة من القرن الثامن عشر تقول : ان المسلمين قد اشتكوا من الضجة التى كان يحدثها اليهود ومن الخطر من الحريق • ومغزى هذه القصة ، على فرض أن لها نصيبا من الصدق ، هو أنها تدل على أن يهود سراييفو كانوا بالفعل يشتغلون بالصناعة ، ولعلهم كانوا فى الراجح يديرون مسبكا للمعادن (وهو شىء كان مشهورا بأنه واحد من أعمالهم فى السنوات التالية لذلك) • واذا كانوا يعاونون فى صنع الأسلحة والمهمات المعدنية التى كانت تحتاجها حملة عسكرية ، فربما كان ذلك تفسيرا لامتنان السلطات التركية لهم • ومع ذلك ، فان كاتبا يهوديا من القرن السابع عشر سجل أن نقل اليهود لحى خاص بهم تم بناء على طلبهم (٧) • ومهما يكن السبب ، فان اليهود الأكثر ثراء انتقلوا الى بيوت متجاورة فى منطقة قرب السوق المركزى ، وانتقل آخرون الى مبنى خاص هناك أقامه حاكم خبر للبوسنة فى ١٥٨٠ ـ ١٥٨١ ، وعرف المبنى باسم « وقف سيافوش باشا » (Siavus Pasina Daire) وكان المبنى يتكون من بيت كبير يحتوى على ٤٦ حجرة وحوش داخلى : وبه كانت تسكن العائلات الأفقر ، تسكن كل منها فى حجرة أو حجرتين صغيرتين • وكان اليهود يسمونه باسم « الحوش » (Il Cortijo) ، فأما المسلمون فكانوا يسمونه « الحوش الكبير » أو « بيت اليهود » • (وكانت مثل هذه البيوت المجمعة تبنى أيضا فى مناطق أخرى من البلقان : منها المبنى المقام فى بلجراد والمسمى بيت اليهود الأتراك Turkischer Judenhof وكان يحتوى على ١٠٣ غرف و ٤٩ مطبخا و ٢٧ بدروما للتخزين) (٨) • وفى نفس الوقت شيد فى سراييفو أول معبد لليهود ، على امتداد الحوش (٩)

وآثار المجتمع اليهودى فى القرن السابع عشر بسراييفو قليلة . ونحن نعلم يقينا أنه كان له وجود مستمر ، ولكن ليس ممكنا أن يكون له بروز بالغ ، وذلك لأنه لا يكاد يرد ذكر عنه فى أية كتابات أخرى لليهود فى تلك الفترة . وكان أول حاخام عرف لهم وهو صمويل باروخ قد جاء من سالونيكا فى بواكير القرن السابع عشر ، والمأثور أن قبره هو أقدم قبر بجبانة اليهود بسراييفو (١٠) . وعندما زار ايفليا تشيليبى المدينة فى ١٦٦٠ لاحظ أنه أصبح لليهود فى المدينة محلتان (١١) . وكان الوضع القانونى لليهود مماثلا لوضع المسيحيين : اذ أنه حسب قانون الرعية لم يكن مباحا لهم بناء أماكن جديدة للعبادة بغير اذن خاص . وكان هذا ، شأن معظم أنواع التدابير القانونية الأخرى، يتم الحصول عليه بدفع الأموال المناسبة . واليهود شأن المسيحيين ، كانت تعوزهم المساواة القانونية بالمسلمين فى المحاكم العثمانية ، على أنه كان مباحا لهم استخدام محاكم خاصة بهم للحكم فى القضايا المدنية بداخل مجتمعهم اليهودى . وكان اليهود أيضا يدفعون الخراج ، كما أنهم كانوا خاضعين لقواعد قانون الرعية فى تحديد نوع الملابس ، بما فى ذلك الشروط الاضافية التى أمر بها السلطان مراد الرابع فى ١٥٧٤ ، حيث أصبح بموجبها محرما على اليهود أن يلبسوا العمائم والملابس الحريرية ولا أى لباس باللون الأخضر . وما لبثت أن استقرت فيما بعد ممارسة السماح للحاخامات بارتداء العمائم شريطة أن تكون صفراء اللون (١٢) . ولكن يمكن القول على وجه الجملة ان معاملة اليهود كانت تنطوى على قدر أقل كثيرا من التمييز الدينى مما كان يطبق عليهم فى أية أرض مسيحية الى الشمال والغرب ، أثناء أواخر العصور الوسطى وبواكير العصر الحديث .

وفى ١٦٦٥ أصابت يهود الامبراطورية العثمانية هزة شديدة نشأ عجيب تداول أسماءهم . فان حاخاما شابا من سميرنا (Smyrna) ذا حضور شديد هو ساباتاى شيفى Sabbatai Sevi ، اعلن أنه المسيح المنتظر . واخترق هذا الاعلان كل أرجاء أوربا شرقا وغربا ، وأخذت الكتابات الدينية الغيبية لأتباع ساباتاى ، وخاصة كتابات تلميذه وحواريه الأول والداعية الأكبر له وهو ناتان من غزة ، نقرأ بشغف شديد : اذ يذكر تقرير أن يهود فيينا تلقوا نسخا من أعمال ناتان التعبدية فى ١٦٦٦ من سراييفو (١٣) . وقد قامت مبادىء ساباتاى وأتباعه (الساباتاينيين) على التقاليد المأثورة على القبالة ، وهى طريقة تقوم على استخلاص التنبؤات والحقائق اللاهوتية الخفية من كلمات وحروف النصوص العبرانية المقدسة . على أن أعظم لغز وفضيحة فى قصة الساباتاينيين بأكملها انما حدثت فى ١٦٦٦ عندما وافق ساباتاى شيفى ، وقد اعتقل وأحضر بين

يدى السلطان ، على اعتناق الاســلام • وتبعه فى ذلك كثير من أتباعه ، واحتفظ غيرهم ممن ظلوا على عقيدتهم اليهودية ، بتعاليمه وكونوا لاهوتا عجيبا متطرفا ، كان فيه هذا المروق العجيب عن اليهودية يعد عملا ضروريا وغيبيا (يكاد يمكن مفارنته بطبيعة موت المسيح فى اللاهوت المسيحى) • وكان من أبـرز الساباتاينيين فى الجيـل التالى نحميا خايون (Nehemia Hayyon) ، الذى ولد فى سراييفو فى ١٦٥٠ ، وكانت عائلتــه (التى ينطق اسمها كايون Kajon أو جايون Gojon أو جـاون Gaon بالصربوكرواتية) من العائلات اليهودية القديمة بالمدينة ، قد ظلت مقيمة هناك حتى عهد متأخر من القرن العشرين • وقد قام خايون برحلات فى فلسطين واليونان وايطاليا وألمانيا • وأصدر فى بلين فى ١٧١٣ كتابا هو « قدرة الله » Oz l'Elohim ، وصف بأنه الوثيقة الوحيدة المطبوعة للقبالة الساباتاينية ، وهو يحتوى على رسالة نسبت الى ساباتاى نفسه ، وأحدثت ضجة عظيمة فى الدوائر اليهودية • ثم وجهت الى خايون فيما عقب ذلك من الزمان تهمة الهرطقة ، حيث وجهها اليه أحد حاخامات أمستردام وهو سيفى اشكينازى ، وهو ممن عاشوا فى سراييفو من ١٦٨٦ حتى ١٦٩٧ يوم فر الى الشمال مع جيش الأمير يوجين (١٤) • (ولعل هذا الحاخام هو اليهودى الوحيد الذى شعر بالامتنان نحو الغزو النمساوى ، فقد أصاب المحلة اليهودية تدمير شديد من جراء قصف مدفعية الأمير يوجين • وفى مقابل تخفيض فى الضرائب ، وافق يهود سراييفو على المعـاونة فى دفع نفقات اعادة بناء المنطقة بأكملها) (١٥) •

وكانت أقدم سجلات مجتمع سراييفو التى بقيت لنا فى أى شكل من الأشكال ، هى التى ترجع الى عشرينيات وثلاثينيات الألف وسبعمئة • وقد تولى المؤرخ موريتس ليفى طبع بعض فقـرات منهـا ، لكن الوثائق نفسها ما لبثت أن دمرت مع جميع المحفوظات اليهودية فى سراييفو أثناء الحرب العالمية الثانية (١٦) • وتذكر أسماء ست وستين عائلة من تلك الفترة الباكرة ، كما أن قائمة بالأسماء تعود الى ١٧٧٩ تحوى ٢١٤ رئيسا للعائلات ، وهو ربما يعادل سكانا يزيد عددهم قليلا عن الألف نسمة • وجاء أيضا ذكر مدرسة أولية يهودية صغيرة (تلمود توراه Talmud Torah) وكان يهود سراييفو يمارسون ضروبا منوعة من المهن : فبالاضافة الى التجار كان هناك الأطباء والصيادلة والخياطون وصناع الأحذية والجزارون وعمال الخشب والمعادن وصناع الزجاج والصاغون (١٧) • وكان يتولى الخدمات الدينية بينهم فى معظم تلك الفترة حاخامات مجتلبون من مناطق أخرى : وكان أشهر هؤلاء الحاخامات هو دافيد باردو ، وهو يهودى من البندقية ، الذى كان رئيس حاخـامات سراييفو فى ستينيات وسبعينيات القـرن

الثامن عشر ، وكان علامة بارزا وكاتبا متميزا ، وقد أسس كلية تدريب الحاخامات (yeshivah) هنـــاك أثناء فترة توليه منصبه • وحتى ذلك الحين كانت سراييفو تابعة للمجتمع اليهودي في سالونيكا ، أما الآن فانها أصبحت قادرة على انتاج حاخاماتها الخاصين بها (١٨) • ومع ذلك فقـــد أضحت الغلبة في مجالي التجارة والثقافة لطائفة بلجراد المجاورة • وكان بتلك المدينة ، عاصمة المستقبل لصربيا ، مجتمع مختلط من يهـود السفرديم والاشكنازي ، ويبدو محتملا أيضا أن بعض الاشكنازية كانوا يأتون أيضا الى سراييفو ، على أنهم لو استقروا هناك فلابد أنهم قد امتصهم المجتمع السفرديم الناطق باللغة اللادينوية (Ladino) وذلك نظرا لأنه لم يكن هناك معبد اشكنازي في سراييفو حتى أخريات القرن التاسع عشر • واللادينو هي لهجة من أسبانية القرن الخامس عشر التي كان يتكلم بها أحفاد اليهود المطرودين من أسبانيا في ١٤٩٢ ، ولا يزال يتحدث بها بعض يهود سراييفو الباقين على قيد الحياة حتى اليوم • وهناك آية خاصة لاتزال تدل على تراث سراييفو الأسباني ، هي « هجادة سراييفو » (Sarajevo Haggadah) وهي مخطوط أسباني من القرن الرابع عشر للقداس الذي يقام في الليلة الأولى من عيد الكيبور وكان مملوكا لاحدى العائلات اليهودية في المدينة حتى ١٨٩٤ وهو من أبدع الأعمال الفنية من نوعه في العالم كله (١٩) •

وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود في البوسنة يعادل ألفين أو أكثر • فقد كتب القنصل الفرنسي في سالونيكا تقريرا تفصيليا ، بعد أن ذهب الى سراييفو لجمع المعلومات حول أحوال التجارة في ١٨١٣ ، قال فيه : ان هناك ألفي يهودي في سراييفو ، ولاحظ أنه من أهم الأعمال التجارية في المدينة كانت هناك اثنتان يهوديتان وواحدة يونانية وواحدة نمساوية وواحدة فرنسية (٢٠) • وكانت هناك حتى ذلك الحين جالية يهودية صغيرة تتكون من ستين فردا بمدينة ترافنيك : وقد اكتسبت هذه المدينة أهميتها لكونها مقر والي البوسنة وكان عدد سكانها يبلغ سبعة آلاف معظمهم من المسلمين (٢١) • وفي ستينيات الألف وثمانمئة كانت هناك عائلات يهودية قليلة تعيش في موستار أيضا (٢٢) •

وهناك قصة تأخذ بالألباب ، ترجع الى أوليات القرن التاسع عشر ، وتدور حول مصير يهودي من ترافنيك هو موسى كافييو Moses Chavijo الذي اعتنق الاسلام واتخذ اسم الدرويش أحمد ، وراح يثير المســـلمين المحليين على اليهود • وفي ١٨١٧ شكا زعماء اليهود البوسنيين من مهاجمته لهم ، وتمكنوا من تقديمه للمحاكمة واعدامه • وما عتم جماعة من أتبـــاعه أن شكوا فيما بعد الى والي البوسنة وهو رشدي باشا ، الذي انتهز الفرصة

فابتز بعض المال من أيدى اليهود غصبا ، وطالبهم بأن يدفعوا خمسمئة ألف جروشن (وهى عملة نمساوية) ، وألقى القبض على عشرة من كبار اليهود كان من بينهم الحاخام ، وهدد بقتلهم اذا لم يسدد المال فعلا • وانتهت القصة بخروج جماعة من ثلاثة آلاف مسلم حملوا أسلحتهم وطالبوا باطلاق سراح اليهود ، فسارع الباشا بتلبية طلبهم (٢٣) • ويبدو أنه على وجه العموم كانت العلاقات بين المسلمين واليهود طيبة ، وكثيرا ما كانت أحسن منها بين المسلمين والمسيحيين • وفى كثير من أرجاء الامبراطورية العثمانية كان المسيحيون ينظرون الى اليهود نظرة امتعاض ، ولذلك أسباب منها أن الشعور بالعداء نحو اليهود يجد تربة خصبة فى اللاهوت المسيحى ومن المرجح أيضا أن بعض الولاة العثمانيين كانوا يعتمدون على الأطباء والتجار اليهود ، ويتخذون منهم مستشارين شخصيين ودبلوماسيين ، بحيث ان الوجود اليهودى بدا فى أعين المسيحية والمسيحيين كأنما هو طرف ملازم للدولة التركية • (والواقع أن ارتداء اليهود نفس ملابس الأتراك ، كان عاملا اضافيا ببعض أقطار البلقان الأخرى ، ولكن ليس بالبوسنة ، حيث كان المسيحيون يلبسون نفس ثياب المسلمين ، فيما خلا بعض التفاصيل التافهة التى تميزهم بنص قانون الرعية) •

أصدر بعض السلاطين من ذوى النزعات الاصلاحيــة فى ثلاثينيات وخمسينيات الألف وثمانمئة قوانين تمنح حقوقا مدنية مماثلة لرعايا جميع العقائد الدينية ، ولكن ذلك ظل مسألة نظرية أكثر منها ممارسة عملية • وجاء أكبر تغير فى الوضع القانونى لليهود مع احتلال دولة النمسا والمجر للبلاد فى ١٨٧٨ : وبعد ذلك بسنوات أربع ، شكلت لليهود فى سراييفو طائفة على غرار نظام الطوائف الدينيــة النمساوى عرفت باسم « طائفة السفرديم الاسرائيلية الدينيــة » وكانت هذه الطوائف تنتخب الهيئــات الحاكمة الخاصـــة بهــا وتضع سجلا لجميع اليهــود السفرديم المقيمين فى المدينـــة ، كما خول لهــا أن تفــرض الضرائب عليهـــم بمقــدار يصــل الى ما يعــادل عشرين فى المائة من الضرائب المباشرة المدفوعة للدولة ، وقد أقبل كثير من اليهود الاشكنازى من المجر وغاليسيا وبولندا وأرض التشيك وغيرها من الأماكن ، على الاستيطان فى البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى أيام امبراطورية النمســا والمجــر ، فشكلت لهم طائفة مستقلة أيضا (٢٤) • وكان اليهود الناطقون باللادينوية ينظرون اليهم نظرة ازدراء ، وعاشت كل طائفة من هذه الطوائف عيشة خاصة بها • ويصفهم مراقب فى ١٩٠٨ بأنهم : « قوم متميزون بشـــدة أحـــدهم عن الآخر» (٢٥) • وهذا التدفق أو النزوح الشديد للسكان اليهود الى المدينة

حيث ظل ثابت العدد حول ألفين طوال القرن كله ، ثم نما الى ٢٦١٨ نسمة في ١٨٨٥ ، ثم ٤٠٥٨ في ١٨٩٥ ، ثم ٦٣٩٧ في ١٩١٠ (٢٦) ٠

وكان عدد السكان اليهود في الأجزاء الأخرى من البوسنة في ازدياد هو الآخر بفضل الهجرة : ففي ١٩٠٠ كان هناك ٩٩١١ نسمة في سائر أرجائها (٢٧) ٠ وعادت السياسة الاقتصادية التي اتبعها النمساويون بفرص جديدة على البوسنيين اليهود ، وعلى العكس من المسلمين انخرطوا على الفور في المشروعات الصناعية ٠ وكانت النتيجة أن أكبر ثلاثة من ملاك المصانع البوسنيين كانوا جميعا من اليهود السفرديم ٠ وكذلك أيضا كان للسياسة النمساوية أثر فعال في ادماج اليهود مع سائر المجتمع البوسني : ومن ثم فان اللغة الصربوكرواتية قررت في مناهج الدراسة بالمدارس الابتدائية اليهودية ، كما أن بعض اليهود أرسلوا أطفالهم ليتلقوا لأول مرة في تاريخ هذا المجتمع اليهودي ، تعليما دنيويا في مستوى المدارس الثانوية (٢٨) ٠ وحتى عام ١٩٤١ ظل يهود البوسنة يلعبون دورا جوهريا في الحياة الاقتصادية لوطنهم ، فقد كان هناك مجتمع يهودي في سراييفو وترافنيك وموستار وبانيالوكا وزينيكا ويوجوينو وباييلينا وفرشيكو وروجاسيكا وفلاستينيكا وتوتسلا (٢٩) ٠ وقد مزق هذا المجتمع اليهودي شر ممزق في طوفان البربرية الذي اجتاح العالم في ١٩٤١ ٠

أما غجر البلقان فالغموض يكتنف تاريخهم أكثر كثيرا من اليهود ، اذ أنهم لم يتركوا وراءهم تراثا كبيرا من المنشآت المعمارية والمباني أو السجلات المكتوبة أو الكتاب أو المتعلمين ٠ ومع هذا فان عددهم كان أعظم ، كما أن وجودهم في البوسنة كان على الأرجح أقدم كثيرا ٠ ومع اننا لا نعلم شيئا عن تاريخ خروجهم من الهند ، فانهم كانوا موجودين في الأرض البيزنطية في عام ٨٣٥ ، وهناك من البينات الأكيدة ما يدل على أن الغجر قد عبروا الى الجزء الأوربي من الامبراطورية البيزنطية بحلول القرن الحادي عشر ٠ وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان المركز الرئيسي للاستيطان الغجري هو جنوب بلاد الاغريق ، كما أنهم أيضا كانوا مستقرين في جزيرة كورفو ٠ ولعل بعضهم قد واصل المسير قدما على الساحل الأدرياتيكي ، ولعل بعضهم الآخر انتشروا برا ٠ وقد ورد ذكر للقرى الغجرية في غرب بلغاريا ، في عقد هبة عقارية يعود الى منحة عام ١٣٧٨ ، وهو أمر يشير الى أنهم كانوا مستقرين آنئذ مدة طويلة تماما بتلك المنطقة ٠ وهم أيضا شأن الأفلاق كانت لهم بعض التقاليد العسكرية : اذ يسجل التاريخ ضربا من التجمع العسكري بين الغجر في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس عشر ٠ ومن ثم فان مما يثير الاهتمام أن يعرف المرء أن أول سجل يحدد التاريخ عن الغجر بأرض يوغوسلافيا العصرية انما هو وثيقة قانونية

من راجوزا فى ١٣٦٢ ، قدمها اثنان من « المصريين (Egyptians) » (أى الغجر Gypsies) اسمهما فلاك وفيتانوس (٣٠) ٠

وقد ربط البعض بين اســـم ذلك المواطن الغجـرى « فلاك » وبين الأفلاف وزعموا أنه كان هناك شىء من التعايش بين الغجر والأفلاق فى تلك المناطق أثناء العصور الوسطى المتأخـرة ٠ ولا ريب فى أن حياة البداوة لدى هذين الشعبين كانت من نوعين مختلفين تمام الاختلاف ، ولكن اذا كان الغجر قد عملوا بأشغال المعادن وما اليها من حرف ، فقد كان من الممكن أن يكون لهم نفع لدى قوم يشتغلون بتربية الخيل والتجارة ٠ وهناك كذلك بينات لغوية تساند فكرة وجود علاقات أفلاقية غجرية بالبلقان الغربى والأوسط ٠ وقاموس مفردات معظم اللهجات الغجرية بغرب أوربا ، لا يدل فقط على وجود دين ثقيل عليهم للغات اليونانية والسلافية الجنوبيـــة ، وانما يحتوى أيضا على بعض آثار للغة الرومانية أو الأفلاقية ٠ ونحن نعلم أن هذه القبائل من الغجر تحركت خارجة من جنوب شرقى أوربا فى أوليات القرن الخامس عشر ، وربما قضوا بعض الوقت فى رومانيا ، ولكنه زمن غير طويل ، وليس هناك أى أثر لأى تغلغل أو نفوذ لغوى مجرى على مفردات لغتهم ٠ وكل الدلائل تشير الى احتكاك أطول مدى مع الناطقين بالأفلاقية فى الجنوب من الدانوب (٣١) ٠

ولو صـــح هذا الرأى أو الافتراض النابع من الوثيقــة الراجوزية فمعنى هذا أن الغجر كان لهم وجـود بالهرســـك أقدم كثيرا من الغزو العثمانى ٠ ولسنا ندرى شيئا عن نشاطانهم بالبوســـنة ابان السنوات العثمانية الأولى ، غير أن بعضهم ربما اعتنقوا الاسلام فى مرحلة مبكرة : فان قانونا أصدره فى ١٥٣٠ سليمان القانونى حـول الايالة الروميليـة (وكانت فى ذلك الوقت تضم البوسنة أيضا) ، يميز تمييزا حـادا بين الغجر المسلمين وغير المسلمين ٠ فأما الأولون فكان عليهم أن يدفعوا ضريبة مقدارها اثنان وعشرون أسبيرا (عملة فضية عثمانيـة) ، وغير المسلمين يدفعون خمسة وعشرين أسبيرا ٠ وكان محرما على الغجر المسلمين السكنى مع غير المسلمين منهم (٣٢) ٠ وقد وردت أول اشارة خاصة الى الغجر فى البوسنة فى عام ١٥٧٤ ، عندما أصـــدر سـليم الثـــانى فرمانا يمنح امتيازات ضريبية للغجر الذين يعملون بالمناجم : وقد نص الفرمان على ذكر العمال الذين يعملون فى مناجم الحديد الخام قرب بانيالوكا ، فضـلا عن الغجر الآخرين الذى يعملون فى مناجم « خارج نوفى بازار » ــ ولعله كان يعنى مناجم كوسوفو الشمالية ٠ وبالاضافة الى ذلك أبيح لعمال المناجم الغجر انتخاب قائد لكل مجموعة من خمسين رجلا (٣٣) ٠ فهل كان هؤلاء

غجرا محليين جنحوا الى الاشتغال بالمناجم أم كانوا نازحين جاءوا ـ شأن عمال المناجم الساكسون ـ هابطين من الأراضي المجرية الرومانية ، ذلك أمر لايمكن معالجته الا بالحدس والتخمين • وما أن وافت أواخر القرن الرابع عشر حتى كان الغجر مستقرين تماما شمالي الدانـوب ، وبينهـم الفئات التقليدية لغجر ترانسلفانيـا الرودارية (Rudari) البايشيـة (Baiesi) مـن رجـال المناجـم . والأورارية (Aurari) من غسـالي الذهب (٣٤) • ولعل بعض هؤلاء الغسالين للذهب الذين لاحظ وجودهم الراهب بنديكت كوريبيشتش في نهر قريب من جايس في ١٥٣٠ ، كانوا غجرا من هذا النوع (٣٥) •

كان الغجر أثناء معظم الفترة العثمانيـة ، يلقون معاملة حسنة من الادارة التركية • ويشير فرمان صدر في ١٦٠٤ حول غجر جنوب ألبانيا وشمال غربي اليونان الى الغجـر المسيحيين والمسلمين ، وينص على : « لايجوز أن يرهق أي انسان أو يضطهد ذلك الجنس المذكور » (٣٦) • وهو موقف يتسم بروح انسانية أكبر مما أظهرته أية حكومة في أوربـا المسيحية في ذلك الزمان ، مثال ذلك أنه حدث قبل ذلك بثمانية أعوام أن مئة وستة من الغجر قد أدينوا في مدينة يورك وقطعت رؤوس تسعة منهم بمقتضى قانون من البرلمان في العهد الاليزابيثي يهدف الى « مواصلة انزال العقوبات بالمتشردين الذيـن كانـوا يسـمون أنفسـهم بالمصريين (Egyptians) » (٣٧) • وبطبيعة الحال ظـل معظم الغجر عند القاعدة الدنيا للسلم الاجتماعي في الحياة العثمانية ، شأنه في كل مكان آخر • وكانت ادارات المدن تفضل تركهم يعيشون خارج حدود المدن ، بدلا من أن تخصص لهم محلة خاصة بهم ، الا اذا تمكنوا من اقناعهم بالاستيطان بوصفهم صناعا مهرة • ويوضح سجل من بلغاريا في ١٦١٠ أن الجزية أو ضريبة الرأس حددت بمئتين وخمسين أسبيرا على كل غجري غير مسلم ، ومئة وثمانين لكل غجري مسلم ، وبغض النظر عن هذا التخفيض ، فان هذا يبدو كأنما هو ضرب من التمييز ، اذ لم يكن مطلوبا من المسلمين أن يؤدوا هذه الجزية اطلاقا (٣٨) • وعند نهاية القرن السابع عشر يبدو أن الموقف والقلوب اشتدت وقست في الادارة العثمانية ، وقامت ضدهم حملة اتهمت نساءهم بأنهن من البغايا ورجالهم بأنهم قوادون ، ومن ثم زيدت الرسوم على الغجر زيادة ثقيلة (٣٩) •

ومع هذا ، فان الحقوق القانونيـة الأساسية للغجر كانت هي نفس القواعد المطبقة على اخوانهم من المسيحيين أو اخوانهم من المسلمين • وكانت الغالبية العظمى من الغجر البوسنيين مسلمة ، ويبدو أنهـم غلبت عليهم البداوة والترحل حتى قرب نهاية الدولة العثمانية ، وأنهم كانوا موفوري

العدد : اذ ذكر الأسقف مارافيتش فى تقرير من البوسنة فى ١٦٥٥ : « لقد وجدنا الغجر بكل مكان » (٤٠) • وعندما فتح النمساويون البوسنة فى ١٧٨٨ انضم عدد كبير من الغجر الى القوات البوسنية ليقاتلهم (٤١) • ولسنا نعرف عدد السكان الكلى فى البوسنة فى تلك الأيام • ويقدرهم شوميت دى فوسيه بثلاثين ألفا فى ١٨٠٨ • ولكن برتوزييه ، الذى كان هناك بعد ذلك بأربع سنوات ، يحدد عددهم بأنه ثمانية آلاف ليس غير (٤٢) • ولو حكمنا بواسطة الاحصائيات الأخرى التى قدماها لنا ، عرفنا أن برتوزييه كان أجدر الاثنين بالثقة ، وتقدر الاحصائيات التركية لعام ١٨٦٥ جملة تعداد الغجر ب ٩٣٣٠ بالبوسنة والهرسك ، ثم جاء مصدر ألمانى فى أواخر ذلك العقد وقدر عددهم ب ١١٥٠٠ ، أما احصاء ١٨٧٠ فيحدد عددهم ب ٥١٣٩ فقط ، ولكن الاحصاء اعتمد على مسح للبيوت ولعله أغفل كثيرا من الناس الذين كانوا لايزالون يحيون حياة الترحال خارج المدن (٤٣) • وقد بذلت جهود كثيرة لاقناع الغجر بالاستقرار ، وفى أثناء القرن التاسع عشر كانت هناك « محلات » كثيرة للغجر فى سراييفو وترافنيك (حيث لاحظ شوميت دى فوسيه أن عددهم ثلاثمئة) وبانيالوكا وفيسوكو (٤٤) •

وفى ذلك الوقت ، كانت هناك ثلاث فئات من الغجر نعيش فى البوسنة • أقدمهم المعروفون باسم « الغجر البيض » ، وكانوا أكثر استقرارا ، كما أن أعضاء تلك الفئة كانوا يهجرون اللغة الرومانية بالتدريج • ولكن لم يبرح معظمهم حتى فقدوها تماما عند حلول القرن العشرين • وهؤلاء الغجر كانوا مسلمين داخل البوسنة ، ولكن « الغجر البيض » الذين كانوا يقيمون بصربيا ومقدونيا كانوا من الأرثوذكس • وكانت لهجتهم الرومانية تشير الى اقامتهم الطويلة فى الأراضى السلافية الجنوبية • ثم كان هناك من الناحية الأخرى « الغجر السود » الذين احتفظوا بحياة ترحل أكثر ، وعملوا بصفة خاصة فى صناعة السمكرة ، وكانوا يعرفون باسم تشرجاشى (Cergasi) المشتقة من الكلمة التركية تشرجى ومعناها « الخيمة » • وقد أسلموا ولكنهم فى بعض الأحيان منعوا من المساجد بحجة أنهم نجساء غير طاهرين وكانت الصورة التى كانوا ينطقون بها اللغة الغجرية ، تحتوى على عناصر رومانية أكثر ، وهو أمر يشير الى أنهم قد هبطوا من ترانسلفانيا أو اقليم البانات أثناء العصر العثمانى الأول • (ومن الممكن كما أشرنا أعلاه أن عمال المناجم الغجر أثناء القرن السادس عشر كانوا ينتمون الى تلك الأرومة نفسها) • وكانت تلك الطائفتان تشيران الى أنفسهما بأنهم « ترك » ، يعنون بذلك « مسلمون » •

وكانت المجموعة الثالثة تسمي نفسها «قرافلاقي» أي الأفلاق السود، وكانوا يرفضون أن يوصفوا بأنهم من الغجر ويدعون أنهم رومانيون • والحق أنهم كانوا يتحدثون بالرومانية ، كما أن أحد الكتاب الرومانيين القوميين الوطنيين ، دبج أكثر من مئة صفحة فى ١٩٠٦ حاول فيها أن يثبت أنهم ليسوا من الغجر على الاطلاق • ولكن كل من كانت له عينان كان يستطيع أن يرى بنفسه أنهم من الغجر الذين جاءوا فى الأصل من رومانيا، ذلك أنهم بغض النظر عن الرومانية نفسها كانوا يتكلمون لهجة من اللسان الغجرى مشبعة بمفردات رومانية • وكان السكان المحليون يسمونهم الغجر « الصربيين » ، وهو اسم محير ربما كان أصله أنهم عاشوا فيما سلف من الزمان شطرا من الوقت فى صربيا ، أو لأنهم كانوا من أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية (٤٥) •

ولم تكن لهم بطبيعة الحال أية علاقة بالمورلاتش أى « الأفلاق السود » الوارد اسمهم فى التاريخ الأقدم • لقد كانوا يشكلون جزءا من أولئك السكان الغجر المتكلمين بلهجة رومانية مما يدعونه بالأفلاقية (أى اللهجة المتأثرة باللغة الرومانية) ، الذين انتشروا الى أوربا الغربية فى موجة جديدة من الهجرة وكونت الأساس للسكان الغجر الأمريكيين • وكان بعضهم من مدربى الدببة » ، وهى حرفة رومانية غجرية قديمة يعرف محترفوها باسم الأورسارى (ursari) ، وكان بالامكان العثور على مدربى الدببة البوسنيين ، وهم يضربون فى الأرض بفرنسا حوالى سبعينيات القرن الألف وثمانمئة (٤٦) • ولاحظ مسافر انجليزى بالبوسنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أنهم كانوا يتجولون فى كل أنحاء أوربا مع دببة راقصة (*) ، كما أن الكابتن فون روث ، وهو ضابط نمساوى بالبوسنة قال انه رأى أحدهم بمدينة لندن » • ويواصل حديثه فيصفهم بقوله : « انهم قوم عجيبو الشأن ، يعيشون فى حفر فى الأرض » (٤٧) • وأول رد فعل للقارىء ازاء هذا القول هو أن القائل انما يكرر فى الواقع الآراء المتحيزة التى كان يرددها عليه محدثوه من النمساويين أو البوسنيين • ولكن الواقع أن الغجر الرحل فى الأراضى الرومانية ، كانوا لعهود طويلة يتجولون وهم يحملون الخيام أثناء الصيف ، ويحفرون لأنفسهم فى أرض الغابات ملاجىء أثناء الشتاء (٤٨) •

(*) وقد رآهم المترجم بمدينة رشيد فى عام ١٩١٦ ، حيث مرت مجموعة من الأجانب ومعهم دب أعمى يلعبونه فى الشوارع - (المترجم) •

وكان هناك دون أدنى ريب عدد من التحركات الأخرى الأصغر شأنا للسكان الغجر الى داخل البوسنة ٠ وكانت أهم تلك الجماعات النازحة فى أوائل القرن التاسع عشر جماعة نزحت من سنجقية نوفى بازار ، (وكانت آنذاك جزءا من الايالة البوسنية) ، وسكنت بقرية بوجلى جالا قرب روجاتيكا الى الشرق من سراييفو ٠ وأقام رادى أوليك ، وهو خبير فى شئون الغجر البوسنيين ببوجلى جالا قبل الحرب العالمية الثانية ووصفها آنذاك بأنها : « دون أدنى ريب أشد مستوطنات الغجر حيوية واثارة للاهتمام بالبوسنة » ٠

ان الناس شديدو الجد فى العمل والكفاية وحسن التدبير ، وهم سمكرية أمناء يظهرون كفاية فى التنظيم ٠ ليسوا بالبدو الرحل ، وهم يسكنون فى بيوت تبدو عليها سمة الفقر ٠ وهم يجوبون البوسنة أثناء فصل الدفء فيما بين الربيع والخريف ويمضون فى اتجاهات مختلفة متنوعة ، بقطارات السكك الحديدية ، ملتمسين العمل فى كل عام ٠٠ ومعظمهم يستطيعون الكتابة ، وهم يحتفظون بلسانهم الغجرى بمنتهى الحرص (٤٩) ٠

وعندما عاد رادى أوليك الى بوجلى جالا بعد الحرب العالمية الثانية ، وجد القرية خالية قد هجرها سكانها : « اليوم هى يباب تماما ، والبقية الباقية من الغجر الأحياء فروا الى الجزء الشمالى الغربى من البوسنة » ٠ وقد أبيد ثمانية وعشرون ألف غجرى ابادة تامة داخل دولة الأوستاشا ، ولكن الغجر المسلمين كانوا أحسن حالا من الأرثوذكس القرافلاق ٠ وقد كتب رادى أوليك يقول : « وبفضل تدخل الأئمة الكبار من المسلمين منعت مذبحة أكبر كانت تدبر للغجر البوسنيين » (٥٠) ٠ فأما السبب الذى دعا الغجر المسلمين فى بوجلى جالا الى الفرار من جنوب شرقى البوسنة ، فكان فتك الصرب بهم ، وكان من المقدر للأحياء الاسلامية الغجرية فى مدن كثيرة ، فى جنوب شرق وشمال شرق البوسنة ، أن تشهد أحداثا مماثلة من القتل والتدمير فى ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ ٠

الفصل العاشر

المقـاومة والاصـلاح
١٨١٥ ـ ١٨٧٨

عندما اقتربت الفترة النابوليونية من نهايتها ، كان واضحا للسلطات فى اسطنبول أنه كانت هناك نقاط ضعف فى بنية الامبراطورية العثمانية لابد من معالجتها بشدة وقوة ان لم يشأ لها أن تتمزق اربا . وكان توالى نجاح الثورات الصربية ضربة أصابت الكبرياء العسكرية التركية ، كما أن الحروب النابوليونية فى حد ذاتها ، قد أبرزت مستوى جديدا من الكفاية العسكرية فى أوربا الغربية ، جعل الجيش العثمانى يبدو متهالكا وقديم الطراز ـ وهو درك كان قد انحط اليه بالفعل . وكان وضع صربيا شبه المستقل الجديد سابقة يمكن أن تحتذيها بقية أجزاء الامبراطورية ، وبدت بوادر التمرد فى بلاد اليونان ، كما أن اتجـاه الدول الأوربيـة من ناحية أخرى ، وبخاصة روسـيا والنمسا الى جعـل نفسها نصراء وحماة لجميع أنواع السكان المسيحيين ببلاد البلقان ، أنزل بالسلاطين ضغطا مضاعفا لاصلاح الوضع القانونى للرعية (أى غير المسلمين) ، كما أن الحاجة دعت الى ادخال اصلاحات قانونية وادارية أخرى لمجرد طبع النظام كله بالطابع العصرى وتحديثه وتحسينه . بيد أن أعظم مشكلة سـياسية فى المدى القريب ، كانت نمو السلطة والاسـتقلال الذاتى ليس فى أيدى الرعايا المسيحيين وحدهم ، بل فى أيدى الحكام المحليين المسلمين شبه المستقلين . وكان أوفرهم طموحا هما على باشا حاكم أيبينا فى شمال غربى اليونان ، الذى حاصرته هناك القوات التركية فى ١٨٢٠ ، وما لبث فى النهاية أن قتل فى ١٨٢٢ ، ومحمد على باشا فى مصر ، وهو شخصية جبارة أقوى شكيمة بكثير ، شاد قوته بنقله الطرائق العسكرية والادارية عن غـرب أوربا : وقد باءت محاولة لخلعه بالقوة فى أوائـل ١٨٣٠ بفشل ذريع . وكان حكام آخرون أقل منه قدرا وقدرة ، يعملون هم أيضـا على توطيد مكانتهم ، ولكن قل بينهم من فهم أن الحاجة ماسة الى الاصلاح على الطريقة

التى اتبعها محمد على ، ولم يكن هناك شخص يبشر بالاصلاح المستقبلى بالتأكيد بين الثائرين من بكوات وقابيطانات وأغاوات البوسنة ·

وجاءت أولى المتاعب نتيجة لتصادم بين شخصية حاكم للبوسنة شديد الاعتداد بنفسه وكبرياء أهل مدينة سراييفو وامتيازاتهم المتوارثة ، وكان هذا الحاكم وهو على باشا السلحدار ، قد تولى منصبه فى ١٨١٣ ، وكان رجلا عسكريا قوى الشكيمة حاد الطبع متهورا عازما على كبح استقلال البوسنة · فأعلن عند وصوله الى سراييفو أنه لا ينتوى أن يقضى بها الأيام الثلاثة فقط التى يسمح بها العرف المتبع ، بل بدلا من ذلك فانه سيبادل بين سراييفو وترافنيك على فترات كل منهما ستة أشهر · ورفض هذا الاقتراح ، وعندئذ اضطر الى ارسال قواته (ومعظمهم من الترك والألبان) لاخضاع المدينة (١) · كما أن موستار ، كما سبق أن رأينا ، هوجمت هى أيضا فى ١٨١٤ بجيش عظيم · واتخذت اجراءات مماثلة فى ١٨٢٠ عندما رغب السلطان فى أن يضمن ألا تقوم البوسنة باحداث أية متاعب له حين يكون الجيش العثمانى مشغولا بالقضاء على على باشا فى شمال غربى اليونان : حيث أرسلت قوة تأديبية بقيادة جلال الدين باشا هاجمت موستار وسريبرينيكا ، وقتلت القابيطانات الثائرين فى بانيالوكا وديرفينتا (٢) ·

ولم تكن هذه المصادمات الا من قبيل مقابلة المقاومة بالقوة ، بيد أن هجوما نظاميا أكثر على القوة المحلية ، كان مبيتا فى أثناء عشرينيات الألف وثمانمئة ، وكان يتضمن اصلاح النظام العسكرى والسياسى الذى كان هؤلاء السادة المحليون يستمدون منه السند · وكانت نقطة البداية ، شأن جميع محاولات الاصلاح العثمانية السابقة ، هى الجيش ، وهناك حقيقة واقعة وهى أن السلطان اضطر تماما الى أن يعتمد على جيش محمد على الذى دربه الفرنسيون فى مصر ، لسحق الثورة القائمة ببلاد اليونان ، وهى تدل على أن اصلاحا عسكريا جذريا كان شيئا لابد منه · وعندما أصدر السلطان محمود الثانى أمره بانشاء قوة حربية جديدة ، احتشد الانكشارية فى ميدان تدريبهم ، للزحف على القصر الامبراطورى وتنفيذ الانقلاب الانكشارى المعهود · ولكن السلطان محمود كان أعد عدته ، وركز قوات موالية له مجهزة بالمدافع حول الميدان ، وبعد نصف ساعة من القصف المدفعى القوى تم القضاء على القوات الانكشارية فى اسطنبول وأبيدت ابادة تامة · وهذا الحادث (الذى يشار اليه فى التاريخ العثمانى باسم الواقعة « الميمونة ») ، مكن السلطان محمود من الغاء نظام

الانكشارية ، منشئا بذلك جيشا نظاميا جديدا مقره الأساسي اسطنبول ووحدات جديدة فى الولايات يجند لها الجنود مدة خدمة تدوم اثنى عشر عاما (٣) • وكان رد فعل ذلك فى البوسنة ، حيث كان الانكشارية يكونون مؤسسة اجتماعية لها امتيازاتها وينتمى اليها بعض سكان المدن هناك ، هو الغضب الشديد • فأرسل عليهم السلطان وزيرا جديدا هو حاجى مصطفى باشا يصحبه ستة قومبسارية لفرض الاصلاح على ذلك البلد ، ولكن البوسنيين ردوه على أعقابه • وعندئذ أرسل السلطان قوة بقيادة عبد الرحمن باشا فى ١٨٢٧ ، فدخل سراييفو وقضى على الانكشارية هناك ونفذ حكم الاعدام فى سبعة من زعمائهم • ولكن المقاومة ما لبثت أن اشتعلت مرة ثانية فى ١٨٢٨ ، وبعد ثلاثة أيام من القتال فى سراييفو ، اضطر عبد الرحمن باشا الى ترك المدينة والعودة الى العادة القديمة وهى الاقامة فى ترافنيك (٤) •

وأدت التغييرات الأساسية فى الجيش ، وهى تتضمن استخدام طرق تدريب تقوم على النظام الأوربى الغربى الحديث والبدل العسكرية الأوربية ، الى استمرار المقاومة فى البوسنة ، وانتهز السادة المحليون الفرصة فسخروا هذا الاستياء الشعبى العام بين المسلمين لتوجيهه نحو مصلحتهم السياسية الخاصة • وفى ١٨٣١ تقدم قابيطان شاب ذو مواهب قيادية من جراداشاك بشمال البوسنة ، يدعى حسين حتى وصل الى ترافنيك بقوة صغيرة واحتل المدينة • وقد أمر الوزير كنوع من التحقير له بخلع زيه العسكرى الحديث ، ثم آمره ، بعد الوضوء ، بالعودة الى ارتداء ملابسه التقليدية القديمة • وأراد أن يحتفظ بالوزير أسيرا ، بيد أن أسيره غافله وفر الى النمسا • (وأقام ذلك الحادث سابقة للتعاون فى المستقبل بين السلطات النمساوية والعثمانية ، على هذه الحدود : حيث كان النمساويون ملوا من مواصلة الاغارة على البوسنة بتحريض من القابيطانات المحليين المتمردين)(٥) • وفى الآونة نفسها تفجر عصيان آخر مماثل ولكنه أشد خطورة فى شمال ألبانيا ، وكان الجيش الثائر يتحرك شرقا ليشتبك فى القتال مع القوات العثمانية بقيادة الصدر الأعظم • وانتهز القابيطان حسين هذه الفرصة ، فقاد جيشا عدته خمسة وعشرون ألف بوسنى حتى بلغ كوسوفو ، وهو يظهر أنه يريد أن يساعد القوات العثمانية • فلما وصلوا قدموا فجأة طلباتهم : الاستقلال الذاتى الادارى ، وانهاء الاصلاحات بأرض البوسنة ، ووعدا بأن يكون وزير البوسنة منذ ذلك الحين على الدوام بيكا بوسنيا أو قابيطانا بوسنيا ، وتعيين القابيطان حسين فى تلك الوظيفة فورا •

ووافق الصدر الأعظم على تلك الطلبات ، ولكن لم تكن لديه أية نية في انفاذها ، وسرعان ما أخذ يعمل ناشطا على اثارة المشاحنات بين هؤلاء البكوات البوسنيين المختلفين · وفى ١٨٣٢ تمكن من ابعاد قابيطانات الهرسك الذين كان يقودهم علي أغا ريزفان بيجوفيتش (Ali-aga Rizvan begovich) من الانضمام لتمرد حسين قابيطان ، ثم عاد فى ١٨٣٢ فأرسل جيشا على البوسنة عدته ثلاثون ألف رجل · وحاول حسين قابيطان الصمود فى سراييفو ولكن مساعديه تفرقوا عنه ، ثم اضطر هو أيضا الى أن يلتمس الملجأ بالنمسا · ولكنه ما لبث فيما بعد أن منح عفوا مشروطا من السلطان ، ثم أرسل الى منفى في داخل البلاد بمدينة طرابيزوند · وكانت مكافأة علي أغا ريزفان بيجوفيتش أن فصلت له الهرسك عن ايالة البوسنة ، ومنحت له كولاية منفصلة تحت حكمه (٦) · ثم وقعت بعد ذلك بعض عمليات المقاومة الجديدة فى البوسنة ، ولكن الوالى الجديد وهو محمد صالح باشا فيجهيا (Mehmed Salih-pasha Vedjehija) قمعها بقسوة ثم اختدع آجان من بانيالوكا دائم الشغب حتى حضر الى سراييفو ثم شنق (٧) ·

وبينما حسين القابيطان يحلم بقيام بوسنة ذات استقلال ذاتي داخل الامبراطورية العثمانية ، استمر التحول التدريجي لتلك الامبراطورية· فألغى نظام اقطاعيات التيمار فى ١٨٣١ · ولكن ذلك لم يقلب الأوضاع فى البوسنة : اذ أن كثيرا من الفرسان (السباهى) تجاهلوه ، وتشجعت مجموعة أخرى من ملاك الأراضى على الاسراع بتحويل التيمارات الى « أغالوكات » و « بيجيلوكات » (٨) · ولا شك فى أن احتمال ثورة الفلاحين على ملاك الأراضى كان قائما وقد تحقق فى ١٨٣٤ و ١٨٣٥ ، والأمر الملفت فى ثانية هاتين الثورتين هو التعاون الذى حدث بين موالى الأرض الكاثوليك والأرثوذكس (٩) · ومن ثم فقد تقرر اصلاح خاص بالبوسنة والهرسك وحدهما ، وبه تم الغاء نظام القابيطانات فى ١٨٣٥ · ولا ندرى كيف استقبل هؤلاء القابيطانات أنفسهم ذلك الاصلاح · ولكن لا ريب فى أن غضبتهم كانت أقل كثيرا مما كان متوقعا · وبدلا من القابيطانات أصبح حكم البلاد منوطا بموسلمين (وهم موظفون يمثلون الوالى ويعينون من قبله) · وعين فى وظيفة الموسيليم هذه كثير من القابيطانية والآجانات والسباهى السابقين ، وهو أمر لعله رد اليهم كبرياءهم وان حرموا من بعد ذلك من قيادة قوانهم الخاصة المحلية ، وتوريث المنصب · ورغم أن بعضهم قد ثار فى البوسنة الغربية فى ١٨٣٦ لكن ثورتهم أخمدت على يد جنود من الأناضول · وما لبث بعض الأغاوات أن ثاروا مرة ثانية فى السنة التالية · وحدث تمرد آخر فى ١٨٤٠ ، أدى الى طرد الوالى مؤقتا من ترافنيك ، ولكن أخمدته بعد ذلك الجند النظامية · وسنرى فيما بعد كيف أن القابيطانات الآخرين البعيدين

عن هذه الأحداث والذين لم يعينوا موسيليمين ثاروا فى آخـر الأمر فى ١٨٤٩ و ١٨٥٠ فلقيوا نفس المصير (١٠) ٠

لم تمس معظم الاصلاحات الأخرى التى ادخلتهـا الدولة العثمانيـة فى ثمانينات القرن التاسع عشر وضع البوسنة الا بدرجة أقل ٠ ومنهـا ادخال نظام الخدمة البريدية وانشاء جريدة رسمية وانشاء مدارس جديدة ، واصلاح الوزارات ٠ ولكن فى ١٨٣٩ ، تولى العرش بعد السلطان محمود ابنه عبد المجيد الأول الذى أصدر فى نوفمبر من تلك السنة فرمانا مكونا من عدد اكبر كثيرا من الاصـــلاحات فى وثيقة تسمى الخط الشريف جولخانه Hatti-i Sherif (وهو اسم معناه الحرفى الفرمان النبيل الموقع فى فناء حديقة الورد ٠ وقد أسمى بذلك الاسم تيمنا بفناء سراى التوبكابى الذى صدر منه ذلك الفرمان) ٠ وأعلن هذا الفرمان أن جميع الرعايا ، بغض النظر عن دينهم ، مخولون أمانا متســاويا على الحيـــاة والشرف والممتلكات — وبذلك ألغي في الواقع قانون الرعية ، وقد أقام أساسا جديدا للتجنيــد فى الجيش ، وكان يحتوى على طرائق جديدة لتقييم الضرائب وجمعها ، ملغيا بذلك طريقة « الالتزام » القبيحة السيرة ٠ كما تم احكام هذه المبادىء بسلسلة متلاحقة من الاجراءات التالية ، وكررت فى فرمان مماثل صادر فى ١٨٥٦ هو خط همايون (Hatti-i Humayun) ٠ والمجموع الكلى لاجراءات الاصلاح أثناء تلك الفترة يعرف باسم جامع هو «التنظيمات» ٠ ويعنى ذلك اعادة تنظيم الامبراطورية ، أو لو شئنا أن نستخدم له مصطلحا صدر فى أخريات القرن العشرين ، مع كل ما صاحبه من أصداء سوء الحظ والمصير والنجاح ، وهو مصطلح البروسترويكا (١١) ٠ والمبادىء المقدمة فى الخط الشريف مبادىء نبيلة أجيد تمحيصها والتفكير فيها ٠ولكن لم يكن لها لسوء الحظ الا أثــر طفيف (أو حتى لا أثر اطـــلاقا) ، فى المناطق الخارجيـــة البعيدة من الامبراطورية كالبوســـنة مثلا ، حيث قوبلت بتجاهل تام ٠

وكانت البوسنة عند ذلك الوقت ترزح تحت حال شديد من السوء ٠ وربما لم يقاس أى جزء من البلاد بدرجة بالغة الســـوء من كثرة القتال والاضطرابات ، وينبغى لنا أن نتردد قبل أن نفترض أن كل سكان البوسنة جميعا غرقوا فى وهدة البؤس والشقاء : فإن امرأة أرثوذكسية أبلغت زائرا انجليزيا فى منتصف سبعينيات الألف وثمانمئة أنه « قبل ثلاثين سنة كان عامة الناس أيسر حالا بكثير منهم الآن ، اذ لم يكن عليهم آنذاك من ضرائب الا الخراج ٠٠٠ كانوا أغنياء ويملكون الخيل والثيران والخنازير والأغنام والدواجن ٠٠٠ ومع أنهم لم يكونوا ينعمون بأية حرية ، فمع ذلك كان

البكوات وغيرهم من ســادة الأرض يحمون ويدافعون عن موالى الأرض التابعين لهم » (١٢) · ولكن لا يجب أن ينسى أنه على الدوام يبدو للناس أن الأمور كانت أحسن حالا منذ ثلاثين عاما · وفى الواقــع كانت الأحوال شديدة السوء فى منتصف سبعينيات الألف وثمانمئة ، ومن المؤكد أن الحال العامة فى البوسنة لم تكن حسنة فى أربعينيات الألف وثمانمئة ، فان بنيتها الأساسية والاقتصادية دخلهما الضعف بسبب ما مر عليها من القتال · وقد أصـــدر الجغـــرافى والمؤرخ الفرنسى العظيم أمى بوويه (Ami Boué) تصنيفا للطرق البلقانية فى ١٨٤٠ ، وفيه وصف أدنى فئة بأنها « فى حالة يرثى لها » ، وخص بها البوسنة وألبانيا ، وهو يصف هذه الطرق بأنها : « سلالم من أحجار » (١٣) · وها هو القنصل الرسمى النمساوى ، وهو ديميتر أتاناسكوفيتش (Demeter Atanaskovič) يبلغ ميترنيخ بعد زيارة للبوسنة فى ١٨٤٤ : « أن الانطباعات التى خرجت بها عند رحيلى من البوسنة تكاد تكون أسوأ من التى كونتها عند وصولى»(١٤) · فقد كانت طبقة ملاك الأرض ، وقد أفعمتها المرارة وسحقت آمالها السياسية القومية مرارا أخذت تكرس كل طاقتها فى محاولة اغتصاب أقصى ما يمكن من الأموال من أيدى الفلاحين بدلا من السعى لتحسين الأوضاع ، وكانت نفوس البكوات ممتلئة بالشكوك المتزايدة ، كما لاحظ بوويه ، خشية أن يلجأ المسيحيون الى استدعاء أبناء ملتهم من الأجانب الى غزو البلاد ، وكانت المشاكل الجوهرية اقتصادية وسياسية وليست دينيـــة (١٥) · وكان الفلاحون المسلمون يعانون من ، نفس « الاعتصــار » البالغ الذى يتعرض له اخوانهم المسيحيون ولدينا التماس يمزق نياط القلب موجــه الى والى البوسنة فى ١٨٤٢ يشكو فيه كاتبه من ارتفاع الرسوم والضرائب فوق طاقة الناس ، وقد بدأ بقوله : « نحن المواطنين المسلمين والمسيحيين التعساء فى كل أرجاء منطقة تيشانى (Tišani) ··· » (١٦) ·

وحاول الوالى الجديد الذى وصل فى ١٨٤٧ ، واسمه طاهر باشا ، أن يصلح النظام المعتاد من الرسوم والضرائب المفروضة على الفلاحين ، بالنسبة للمزارع الأغالوقية : فألغى السخرة ، (وهى الشغل الاجبارى فى أرض صاحب الملك) ، كما أنه فى مقابل ذلك رفع نسبة القمح التى كان ينبغى تقديمها الى مالك الأرض من الربع الى الثلث · ولسوء الحظ أن معظم الملاك نفذوا البند الثانى من هذه التغييرات دون الأول وهو السخرة (١٧) · وعندما حاول طاهر باشا كذلك تنفيذ اصلاحات الجيش ، التى لم تكن تطبق حتى آنذاك بطريقة مثلى ، فى البوسنة ، انفجرت ثورة البكاوات والأغاوات للمرة الثانية ، وانغمست البــلاد فى موجة قتال فى ١٨٤٩ ،

كما أن التمرد كان لايزال فى الذروة عندما توفى طاهر باشـــا فى ١٨٥٠ (١٨) ٠

وعندئذ أرسل السلطان الى البوسنة واحدا من أشد الولاة فاعلية وذكاء ، فى هذا القرن الأخير من الحكم العثمانى ، وهو عمر باشا لاتاس ٠ كان اسمه فى الأصل ولد ميشيل لاتاس ، اذ كان سلافيا من منطقة ليكا وشغل رتبة جاويش فى الجيش النمساوى على التخوم العسكرية ، وكان يجيد الحديث بالألمانية ، ويفهم كيف تسير الأمور فى جيش أوروبى غربى ، ويملك مهارات سياسية وعسكرية حقة ٠ وبعد أن قضى على التمرد قضاء مبرما فى ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ ، أرسل كثيرا من البكوات وغيرهم الى المنفى ببلاد الأناضول، وألغى أيضا الباشالوكية (Pashaluk) المنفصلة لبـلاد الهرسك ، ووضع تقسيما اداريا جديدا للبوسنة والهرسك ، حولهما الى تسع مناطق . وضع كل منها تحت امرة قائمقام Kajmak (وهو ممثل للوالى يكاد يكون صورة عسـكرية أكثر للموسليمين) (١٩) ٠ وقد التقى به ديمتر أتاناسكوفيتش ، الذى عاد الى البوسنة كقنصل عام للنمسا فى ١٨٥٠ ونقل عنه هذا التعليق ، قال : « هنـاك أسباب سياسية لا نستطيع الحكومة العثمانية من أجلها الا أن تسير بتمهل شديد وحذر فى مسألة اصـلاح احوال المسيحيين ، حتى لا تغضب المسلمين الذين تعتمد عليهم الدولة من حيث السند والقوة تماما » (٢٠) ٠ ولم تكن بعض اجراءاته الاصلاحيـة مقبولة تماما لدى الفلاحين المسيحيين : فان سياسته فى نزع السلاح من أيدى السكان جميعا جعلتهم يشعرون بأنهم مستضعفون ، كما أن بعض من عينهم من القائمقامات ممن ليسوا من أصل بوسنى ، قد ارتكبـوا بعض الأخطاء ٠ كتب أتاناسكوفيتش فى ١٨٥١ يقول : « قد عم الناس التذمر والسخط » (٢١) ٠ ولكن القوة السياسية للطبقة القديمة من ملاك الأرض قد قصمت قصما لا رجعة فيه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح فى الامكان بذل المحاولات لادخال الاصلاحات الواردة فى التنظيمات العثمانية ٠

ولا أدل على الحاجة الماسـة الى هذه الاصلاحات من التماس أرسله مسيحيو البوسنة الى السلطان فى ١٨٥١ ٠ وقد جاء من بين ما طلبوه من مطالب أنهم يرجون أن يعاملوا بوصفهم أتـراكا لا بوصفهم « رعيـة » ٠ وطالبوا بالمساواة أمام القانون ، ورغبوا فى وجود عدد متساو من القضاة المسلمين والمسيحيين ، والتمسوا ازالة ضريبة الرأس أو الخراج (٢٢) ٠ فأما الطلبان الأولان فكانا من حقهم منذ صـدور فرمان حديقـة الورد فى ١٨٣٩ ، كما أن الثالث كان امتدادا وتوسعة لنفس المبدأ ٠ (والواقع أنه كان هناك فعلا ثلاثة قضاة مسيحيين بمحكمة المدينة فى ترافنيك ، بيد أن

هذا كان ترتيبا استثنائيا) (٢٣) • وقدر لالغاء الخراج أن يتم فى ١٨٥٣ عندما رفع الحظر التاريخي القديم الذى كان يمنع المسيحيين من الانتظام فى الخدمة العسكرية النظامية • ولكن نظرا لأن الخراج قد بدل به رسم بدلية عن الخدمة العسكرية ، وهو رسم كان يجمع بنفس الطريقة ، ونظرا لأن معظم الرعايا المسيحيين استمروا فى امتناعهم القديم عن الانخراط فى الجندية ، فالواقع أن هذا التغيير لم يحدث أى فارق عند المسيحيين فى الممارسة العملية للأمر • والفرق الحقيقى الوحيد أنه وجب على غير العاملين فى الجيش من المسلمين دفع ضريبة اضافية لابد من دفعها (٢٤) •

وكما أشرنا آنفا ، كان موقف المسلمين من البوسنيين ازاء المسيحية قد اتخذ سمة شيء من الصرامة قرب النصف الأول من القرن التاسع عشر • تقدم التقارير القنصلية أثناء تلك المدة أمثلة كثيرة فى هذا الشأن • وعندما حصلت الجالية الأرثوذكسية على اذن بمدينة ترافنيك لبناء كنيسة فى ١٨٥٣ ، أصر المواطنون المسلمون على أنها لابد أن تبنى خارج المدينة • وفى نفس العام رفض طلب الكاثوليك أن يبتنوا لأنفسهم كنيسة فى سراييفو (وان منح ذلك التصريح بعد ذلك سريعا ، ولكن ذلك من ناحية جزئية نتيجة للضغط من جانب الهيئات القنصلية الأجنبية) • وشكا القسس الكاثوليك فى ليفنو من أن المسيحى من هؤلاء لم يكن ليستطيع أن يحصل على حكم لصالحه من احدى المحاكم فى حالة واحدة من مئة (٢٥) • على أننا حين نقرأ هذه الشكاوى ، ينبغى لنا أن نتذكر أن عددا لا بأس به من الكنائس الجديدة ومشيخات الكنائس والمدارس كان يجرى بناؤها فى أجزاء مختلفة بين ١٨٢٠ و ١٨٥٠ وما بعدها • وبالاضافة الى المدرسة الأولية بسراييفو ، التى كانت لديهم منذ بواكير القرن الثامن عشر ، كانت للطائفة الأرثوذكسية مدرسة ثانوية هناك فى ١٨٥١ ، وكانت لهم من قبل بالفعل مدارس أولية فى عشر مدن بوسنية أخرى ، ولابد أنه فى ١٨٧٠ قد كانت لهم بالفعل ثمان وعشرون مدرسة أولية ، وربما بلغ مجموع ما لديهم من مدارس سبعا وخمسين • وفى ستينيات الألف وثمانمئة كانت للكاثوليك مدارس ثانوية ببعض المدن الكبرى ، و ٢٧ مدرسة أولية ، وبنيت عدة كنائس كاثوليكية فى خمسينيات الألف وثمانمئة (٢٦) •

أما من حيث الكم والعدد ، فقد انتعشت أحوال كلتا الكنيستين بالبوسنة فى أواخر العهد العثمانى : ففى خمسينيات الألف وثمانمئة ، كان هناك بالتقريب ٣٨٠ قسيسا كاثوليكيا وأكثر من ٤٠٠ قسيس أرثوذكسى (٢٧) • ولو نظرنا الى ذلك السجل من حيث الكيف فان السجل يكون أقل تأثيرا • وقد عقب معظم الملاحظين الأجانب على ضعف مستوى

الفرنسيسكانيين بوجـه عام ، كمـا أن جميع المراقبين أصيبوا بصدمة لما رأوه من شح رجال الدين الأرثوذكسي : وقد لاحظ زائر ألمانى أنهم كانوا يشترون أبروشياتهم مقابل مبلغ يتراوح بين عشرين دوقية ومئتى دوقية ، ووصفهم بأنهم « حثالة البشرية » (٢٨) • ولاحظ آخـر أن الأسـاقفة الأرثوذكس كانوا يشترون كراسى وظائفهم بمبالغ طائلة من المال ، ثم يحاولون بعد ذلك استرداد هذه الأموال عن طريق استغلال رعيتهم ، وأفضى بهم ذلك الى « صداقة حميمة بصـورة مفرطـة مع السـلطات المحلية المسلمة » (٢٨) • ولكن لا شك فى أنه كان يوجد بين ظهرانى رجال الدين المسيحيين والمدرسين من كل من الكنيستين ، قلة من الأفراد الناشطين النابهين • فبعضهم كانوا متدينين أصـلاء مثـل جـرجو مارتيتش (Grgo Martić) زعيم الفرنسيسكان فى سراييفو من خمسينيات حتى سبعينيات الألف وثمانمئة • ولكن البعض الآخر منهم لم يكتفوا بالأنشطة الدينية ، بل جمعوا السياسة الى الدين • وهؤلاء كانوا رجالا من أضراب الفرنسيسكانى ايفان فرانيو يوكيتش الذى التقينـا من قبل بملحوظته التاريخية حول تحول النبلاء الى الاسلام فى أثناء العصور الوسطى ، وهناك أيضا تيوفيل بترانوفيتش (Teofil Petranović) ، وهو مدرس بالمدرسة الأرثوذكسية بسراييفو فى ستينيات الألف وثمانمئة • وقد شكل جماعة من الناس كانوا ينطلقون الى القـرى ليبلغوا الفلاحين الأرثوذكس بأنه « ينبغى لهم الكف عن تسمية أنفسهم باسم هيرشانى Hirščani ، (وهو المصطلح المحلى الذى يطلق على الأرثوذكس) ، وأن يشرعوا فى تسـمية أنفسهم باسم الصرب » ، وفاسو بيلاجيتش ، ناظر المدرسة الأرثوذكسيه فى بانيا لوكا الذى كان يدعو الناس لنصرة قضية «القومية الصربية»(٣٠) • وأخيرا اعتقل بيلاجيتش وحكم عليه بالسجن ، وان أذن له بالبقاء فى مقر المطرانية الأرثوذكسية بسراييفو بدلا من الذهاب الى السجن •

ولكن على وجه العموم ، فان الأمر المستلفت للنظـر هو تسـامح السلطات البوسنية ازاء مثل هذه النشاطات ، وقد كانوا بطبيعة الحال على وعى بأن القوميين على كل من جانبى الأراضى البوسنية فى كرواتيا وصربيا ، كانـوا يهدفون الى ضـم البوسـنة الى أراضيهم • فان ضابطا من الجرينتسر (قوات الحدود النمساوية المجرية) بكروايـا هو الميجور أنطونيى أوريشكوفيتش (Antunje Orešković) بلغ به الأمر أن حاول ان ينظم شبكة ثورية فى البوسـنة فى أوائل ستينيات الألف وثمانمئة بقصد تفجير ثورة عامة وانشاء ولاية سلافية جنوبية جديدة ، ولكنه كان يعتزم كذلك تخليص الشعب من حكم النمساويين ، لذا كانت السلطات النمساوية هى التى انقضت عليه فى النهاية هو وأصدقائه (٣١) • أما فيما

يتعلق بالدولة الصربية المستقلة استقلالا شبه ذاتي ، فان أطماعها في البوسنة كانت واضحة تماما . فان المفكر الصربي الأكبر فوك كاراجيتش نشر مقالا في ١٨٤٩ بعنوان « صربيون جميعا وفي أي مكان » ، ادعى فيه أن شعب البوسنة ودالماشيا أيضا ينتميان عرقيا الى الشعب الصربي (٣٢) . وفي ١٨٤٤ وجدنا وزير الداخلية الصربي ايليا جاراشانين (Ilija Garasanin) قد كتب مذكرة سرية وضع فيها بالتفصيل الخطط والوسائل التي تؤدي الى اثارة عاطفة موالية للصرب بين أبناء البوسنة ، وذلك بقصد استلحاقها في نهاية الأمر وضمها الى صربيا . ومن بين تلك الخطط تدريب البوسنيين الشبان داخل الادارة الصربية واستثمار جهود كبار الرهبان الفرنسيسكان (٣٣) . ونخطيء اذا نظرنا الى هذه المحاولات في ضوء الأطماع التوسعية التي ترمي الآن الى تأسيس « صربيا الكبرى» ، فهو أمر ينطوي على مفارقة تاريخية . ففي ذلك الأوان كانت صربيا هي الدولة الوحيدة التي كان في مستطاعها لعب الدور الذي لعبته « بيدمونت » في توحيد ايطاليا . فكل صربي شاء أن يرى دولة سلافية جنوبية تولد وتنمو ، كان من الطبيعي أن يرى ذلك لا يتم الا على أساس توسعة صربيا نفسها . على أنه من الناحية الأخرى كان هناك كثير من قادة الفكر الكرواتيين ، مثل أنتي ستارتشيفيتش (Ante Startcevic) ويوجين كفاترنيك (Eugen Kvaternik) وهم قوم كانت لهم أيديولوجية مماثلة ولكنها معاكسة ومناقضة ، يعلنون فيها أن البوسنيين من الكروات (٣٤) . على ان السلطات المسلمة في البوسنة لم تكن بطبيعة الحال تتابع هذه المجادلات الفكرية متابعة تفصيلية ، بيد أنهم كانوا على وعي كامل واضح بأن البوسنة كانت مطمعا يتنافس عليه كلا الجارين الأرثوذكسي والكاثوليكي تنافسا واضحا للعيان .

وبينما كل هذه الاضطرابات تمضي في سبيلها ابان ستينيات الألف وثمانمئة ، كانت البوسنة تنعم بعقد من الزمان ذهبي الى حد ما ، تحت رجل من أعظم حكامها أريحية ، هو توبال عثمان باشا (Topal Osman-Pasa) . ويكاد يكون من المستحيل عليك ألا تبدي اعجابك بهذا الرجل ، وذلك من ناحية جزئية لأن كثيرا مما نعرفه عنه قد جاءنا من مذكرات طبيب سويسري محب للأتراك هو يوزف كوتشيت (Josef Koetschet) ، الذي كان يقيم بسراييفو في ١٨٦١ حيث فتح بها صيدلية ، وأصبح محل ثقة ومستشارا لمجموعة متعاقبة من حكام البوسنة . وكان واضحا أن توبال عثمان باشا كان أحبهم الى قلبه . (وبدهي أن الأحوال لم تكن رغدة آنذاك وكان سبب مجيء كوتشيت الى البوسنة هو في المقام الأول أنه كان الطبيب الشخصي لعمر باشا لاتاس الذي أعيد

ارساله للمرة الثانية الى هناك قائدا عسكريا للقضاء على ثورة أخرى أشعلتها في الهرسك ، جارتها الجبل الأسود) (٣٥) • غير أن توبال عثمان باشا (وقد لزمته كنية توبال أي الأعرج ، اشارة الى اصابته بالعرج من جراء جرح أصابه في احدى المعارك) ، كان كما هو واضح خير مثال لرجل الادارة التركي المتحضر ، وكان فيما سبق أميرالا وحاكما مدنيا لبلجراد • وكان يجيد التركية والعربية والفارسية وآدابها جميعا ، كما كان يجيد كتابة الشعر التركي ، ويتحدث الفرنسية واليونانية • وشيد في سراييفو مدارس اسلامية جديدة ، واذن للمجتمعات المسيحية ببناء مدارس أكثر لأولادها ، وبدأ مكتبة عامة تجمع الأعمال والكتب العربيــة والفارسية والتركية في مسجد بيجوفا ، وأنشأ مطبعة كانت تنتج الكتب المدرسية ، كما انشأ صحيفة أسبوعية هي « بوسنيا » ، كانت تصدر بالصربوكرواتية والتركية • ثم طفق يعمل في مشروع انشاء طرق ناشط طموح ، حتى أتم طريقا رئيسيا يمضي من سراييفو الى الشمال حتى يصل الى بوسانسكي **برود** (Bosanski Brod) في مدى سنة واحدة • بل انه أمر فمد فرع السكك الحديدية من بانيالوكا الى الحدود الكرواتية ، وكذلك أيضا أنشأ مستشفى بسراييفو ، وهو أول مستشفى عام بالبوسنة كلها ، يحتوى على أربعين سريرا للمرضى من جميع الديانات (٣٦) •

وتمت على يديه أيضا بعض الاصلاحات السياسية • فان النظام الجديد للتجنيد العسكرى للمسلمين أدخل أخيرا الى البوسنة في ١٨٦٥ ، وكان توبال عثمان باشا حذرا معهم ، فوعد بأنهم لن يستخدموا خارج البوسنة ، ورسم تخطيطا للاصلاح وبدأ في تنفيذه بأن جند ما يربو على ألف متطوع ، وفي السنة التالية نفذ بالفعل التغيرات البعيدة المدى التي استوجبها قانون اصلاح الأقاليم الصادر في ١٨٦٤ • وقد شمل ذلك التغيير اعادة تنظيم ايالة البوسنة بأكملها ، (التي أصبحت تسمى منذ تلك اللحظة « ولاية »)، وبذلك تم انشاء محاكم جديدة (مع محكمة استئناف مختلطة تجمع بين المسيحيين والمسلمين) ، وتم تقسيم المناطق البوسنية والهرسكية الى سبع سنجقيات كانت كل منها ترسل آنذاك ممثليها (اثنان منهم مسلمان والثالث مسيحي) الى جمعية استشارية كانت تجتمع لمدة قد تصل الى أربعين يوما مرة كل سنة ، لتشير على الوالي في الشئون الاقتصادية والمالية : الزراعة وفرض الضرائب ، وانشاء الطرق ، وما الى ذلك كله • كما كان هناك بالاضافة الى ذلك مجلس تنفيذي صغير : مكون من اثنين من المسلمين ومسيحيين ويهودي واحد ، كان يجتمع برئاسة الحاكم مرتين كل أسبوع • ورغم الوضع الاستشاري للمجلسين ، لكن تأسيسهما كان

تقدما هائلا جدا ، عن الطريقة التى كانت تدار بها الأمور فى البوسنة على امتداد القرون الأربعة السالفة (٣٧) ٠

ومن أكبر المشاكل ، شأن الأحوال فى تلك الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى فى البوسنة ، مشكلة العلاقات بين الفلاحين وملاك الأرض ٠ فهنا كان الاجراء الاصلاحى الرئيسى هو الفرمان الذى صدر فى ١٨٥٩ ، قبيل وصول توبال عثمان باشا بزمن يسير جدا ٠ وبذلك واجهه الدور الأصعب لتنفيذه ٠ كان الفرمان محاولة لتقنين العرف حول واجبات الفلاحين الذين كانوا يعملون بمزارع الاغالوكات ، وهى مزارع اقطاعيات التيمار السابقة التى ظل لها أساس قانونى فى العلاقات بين الفلاح ومالك الأرض ٠ حيث حددت المكوس المدفوعة لمالك الأرض بثلثى المحصول ، وهى المسماة بالتريتينا Tretina ومعناها الثلث) ٠ ولما كانت عشور الدولة ، وهى مدفوع نقدى يعادل عشر المحصول ، تخصم أولا وتقدر التريتينا أى الثلث على الباقى من المحصول ، فان ذلك كان معناه أن هذه المدفوعات الأساسية كانت تصل الى أربعين فى المئة من المحصول الكلى للفلاح ، كما كانت هناك ضرائب أخرى رسمية شتى ، كالضريبة الجديدة التى فرضت بدلا من الخدمة العسكرية ٠ وعندما يصف المؤرخون العصريون نظام الضرائب فى البوسنة بأنه « باهظ وتعسفى » لأنه « يمتص أكثر من أربعين فى المئة من ايراد الفلاح » ، فان قولهم هذا يكاد يغرينا أن نشير بأنه يماثل نسبة اجمالى الانتاج القومى المأخوذة من جميع أشكال رسم الضرائب فى كثير من دول القرن العشرين (٣٨) لكن المقارنة صعبة لأن العاملين فى عصرنا هذا يتوقعون أن يعود اليهم معظم ما يدفعونه من مبالغ فى صورة الرعاية الصحية والتعليم وما الى ذلك ، ولم يكن ذلك هو الوضع أيام الفلاح البوسنى ٠ ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الفلاحون غير مضطرين الى شراء بيوتهم ولا استثمار أى مال فى الأرض ٠ وهناك مبدأ آخر قننه فرمان ١٨٥٩ ، هو أن مالك الأرض ينبغى أن يزود الفلاح بالدار التى يسكنها ، ويساعده فى وقايتها واصلاحها ٠ وكان الفلاحون أحرارا فى ترك مالك الأرض ، وكان لمالك الأرض الحق فى طردهم ، ولكن ذلك فقط بشرط عدم قيامهم بالعمل على الوجه المرضى ، وعدم دفع المكوس المفروضة ، وذلك مع الحصول على موافقة موظفى الحكومة الرسميين (٣٩) ٠ ومن سوء الحظ أن هذه القواعد لم تكن تنطبق الا على الأغالوكات ولم يكن لها أثر على البكليكيات ، حيث كان ملاك الأراضى يستطيعون أن يقيموا أية علاقات تعاقدية شاءوا ٠ ومن ثم فان أثرها الرئيسى كان تشجيع ملاك الأراضى على نقل وتحويل حيازتهم للأرض من هذا الشكل الى ذاك ٠

ويرى يوسف كوتشيت فى دراسته لهذه الفترة أن هناك مبالغة وتضخيما فى تصـــوير ضروب الابتزاز وسوء المعاملة التى تعرض لها الفلاحون على أيدى ملاك الأراضى آنذاك حيث يقول :

كان معظم موالى الأرض (الكميتس) يعيشـــون على أساس مقبول من المودة والصداقة مع ملاك أراضيهم • والواقع أنه كان يحدث فى السنوات السيئة أن ملاك الأراضي ـ وأعنى بهم الأغنياء والمحترمين فيهم كانوا يبذلون كل مساعدة ممكنة لموالى أرضهم • حقا انه كان هناك أيضا بعض الأغوات غلاظ الأكباد الذين كانت قبضتهم الحديدية ترسخ بثقل على كاهل الفلاح المسكين الذى لا يجد مدافعا يدفع عنه • ومع هذا فان العداء الذي كان ينمو ويستفحل فى مثل تلك الأحـوال كان ناجما عن المصلحة الاقتصادية ، أكثر منه عن مسببات دينيـة أو سياسية (٤٠) •

ومن المؤكد أن الصورة التى يصورها كوتشيت للحياة فى سراييفو فى ذلك الوقت انما هى صورة وردية • حيث يستعيد ذكريات أيام الأحد فى الصيف ، يوم كانت العائلات الكاثوليكية والأرثوذكسية تخرج فى العصر للنزهة على سفح التـلال المطلة على الطريق الى ايليـدج (Ilidze)، وكان « المسلمون والمسيحيون واليهود يمضـون فى طريقهـم بسلام ••• وهم يستمتعون بدرجة واحدة من الاحساس بالأمن فى ذلك الزمن المبارك حينما كانت القلوب تجهل معنى التعصب عن الكراهية الدينية ».(٤١) • ولم يحدث الا عند نهاية ستينيات الألف وثمانمئة حسبما يروى كوتشيت. أن الجو اخذ يربد بعد أن انتهت السنوات النسع التى حكم فيها توبال عثمان باشا البوسنة • وفى ١٨٦٩ صدرت عن اسطنبول أوامر ملحة بالبحث عن مثيرى الشغب من السلاف الذين يدعمهم الروس ، ولذلك صـــدرت الأوامر الى كوتشيت نفسه ، من الوالى الجديد بالبحث عن مروجى الدعاية الصربيـــة فى ديـر دجيتوميسلبتش (Djitomislich) الأرثـــوذكسى ، قرب موسـتار ، وهو أمر أثار ضيفه (٤٢) • وحدث المزيـد من التذمر العلنى فى ستينيات الألف وثمانمئة أيضا ، ولم يكن موجها ضد ملاك الأراضى ، بل ضد جباة الضرائب التابعين للولاية ، الذين جـرت عادتهم على تحديد قيمة محصولات الفلاح (والمطالبة بالدفع) قبل جنيها ، وكانذلك من أبغض الأشياء الى الناس • وحدث فى ١٨٦٨ أن ألفـا من الفلاحين الأرثوذكس والمسلمين احتجوا فى منطقة بوسافينا (Bosavina) بشمال البوسنة ، وفى ١٨٦٩ اجتمعت جماعة تقدر بمئة من الفلاحين المسلمين والأرثوذكس فقدموا احتجاجا مماثلا فى فوتشـــا (٤٣) • وهذه الأمثلة

للتعاون الديني المتبادل تؤيد ، والحق يقال ، وجهة نظر كوتشيت بأن الأسباب الأساسية للغضب والاضطراب كانت في الحقيقة اقتصادية أكثر منها دينية • ولكن في الوقت نفسه كان هناك بكل تأكيد احساس جديد بالعداء نحو المسيحية ، أخذ ينتشر بين صفوف رجال الدين المسلمين والحجات (Hodžas) أي معلمي الدين بمدينة سراييفو • ولم يحدث الا في فترة ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ حسب رواية كوتشيت أن بدأنا لأول مرة نشهد صورة للكراهية الدينية » (٤٤) •

وهناك قضية بارزة هي قضية بناء الكاتدرائية الأرثوذكسية • وكان بناؤها ذاك رمزاً للوضع القانوني المتغير للمسيحيين البوسنيين، الذين كانت ترعى مصالحهم آنئذ الهيئات القنصلية الأجنبية وحكومتا الدولتين «الحاميتين» ـ روسيا للأرثوذكس وحكومة النمسا والمجر (وذلك كان اسمها في تلك الآونة) للكاثوليك • والحق ان تدخل المنظمات المسيحية المتمتعة بالرعاية الأجنبية بأرض البوسنة ، يعد من أبرز مظاهر تلك الفترة : ففي ١٨٦٩ سمح لجماعة من الرهبان الكاثوليك من أرض الراين ، أن تبتني ديرا في بانيالوكا ، وفي ١٨٧٠ أنشأت بولين ابري (Pauline Ibry) مدرسة في سراييفو تمولها هيئة مسيحية انجليزية ، وتعمل بها معاونات بروتستانت من ألمانيا ، وفي السنة التالية وصلت الى البوسنة جماعة من الراهبات النمساويات (هن أخوات الصدقة والاحسان) لكي يبتنين ديرا ويشتغلن بالتعليم الأولي (٤٥) • وعندما صدر التصريح في ١٨٦٣ ببناء كاتدرائية أرثوذكسية في سراييفو ، جمع لها المال من كل أرجاء العالم الأرثوذكسي ، وأخذ مبعوث من مطرانية البوسنة يطوف بكل أنحاء روسيا وهو يحمل أثرا دينيا مقدسا هو يد القديس تكلا ، ليجمع التبرعات (٤٦) •

وبينما المبنى يقترب من نهايته في ١٨٧٢ ، نشب نزاع مرير بين المجتمع الأرثوذكسي ورجال الدين المسلمين ، الذين أصروا أن برج الجرس الكاتدرائية ينبغي ألا يعلو على مئذنة مسجد بيجوفا (٤٧) • فأما قرع الأجراس فكان في حد ذاته أعجوبة وبدعة ، فقد جرت العادة الثابتة أمدا طويلا أنه ليس بالمسموح في المدن العثمانية بأي دق للأجراس المسيحية • وشرع بعض الديماجوجيين من الحجاب والأئمة في اثارة السكان المسلمين وتهييج أنفسهم على هذه المسائل • وكان أحدهم رجلا ضخم الجثة متبجحا فظا يدعى الحاج لويو (نظرا لأنه حج الى مكة) ، وكان يعامل على أنه حجة في الدين وان كان في الحقيقة غير متعلم على الاطلاق (٤٨) • فأما الآخر فهو الامام المتعصب لمسجد بيجوفا • ومهما يكن من شيء ، فانه عندما أثار ذلك الامام الجدل حول قرع الأجراس في الكنائس ، وجد من هو كفؤ له في الوالي الجديد ، وهو ألباني لا يحب الهراء اسمه محمد عاكف باشا ؛

وبدأ الامام حديثه بتلاوة آية من القرآن · فصاح به الوالي : « صمتا أيها الحمار ! أتريد أن تعلمني القرآن ؟!! ··· أنت اذن لا تطيق سماع صوت الأجراس أيها الكلب ؟!! ··· وأنتم أيضا يا من معه من الناس ··· أبلغتم من الغباء حتى لا تدركوا أن هذا الوغد لن يمتنع أن يدق الأجراس بنفسه ، ما دام سيدفع له خمسون قرشا في كل شهر على أداء ذلك ؟ » (٤٩) ·

وفي صيف ١٨٧٣ ، فر أربعة وعشرون تاجرا مسيحيا من البوسنة الى كرواتيا ، وقالوا ان « كثيرا » من المسيحيين نفذ فيهم حكم الاعدام في البوسنة بسبب تآخيهم مع القنصل النمساوي (٥٠) · وأعطيت مثل هذه الحوادث أهمية عظمى في الكتابات النمساوية حول أحداث سبعينيات الألف وثمانمئة ، وذلك نظرا لأنها بدت كأنما تضع التزاما خلقيا أو دينيا على النمساويين للتدخل · ولكن الأسباب الحقيقية التي أدت الى انهيار الحكم العثماني وتدخل الجيش النمساوي كانت أسبابا اقتصادية وسياسية وليست دينية · اذ حدث في صيف ١٨٧٥ أن جاءت الأخبار بأن الفلاحين المسيحيين في منطقة نيفيسيينا في الهرسك (شرق موستار) ، قد فروا الى الجبال تجنبا لدفع العشور الحكومية التي كانت تشكل عشر أو ثمن محصولاتهم ، وذلك لأن المحصول فشل فشلا تاما في ١٨٧٤ ، ولكن جباة الضرائب المحليين (واثنان منهم مسلمان والثالث مسيحي) ، لجأوا الى اجراءات عنيفة مع الناس لاجبارهم على الدفع · وما كاد شهر يوليو يبلغ منتهاه حتى كان جميع الفلاحين في المنطقة قد لجأوا الى الجبال وقد شرعوا في القيام بمقاومة مسلحة (٥١) · وكانت هذه منطقة حساسة جدا من الناحية السياسية بسبب شدة قربها من تخوم الجبل الأسود : وقد نقلت حكايات أخرى كثيرة سابقة حول الصراع بين القوات العثمانية وقوات الجبل الأسود ، كحملة عمر باشا في ١٨٦٠ - ١٨٦١ ، كما أن أمير الجبل الأسود ، وهو عميل للروس حامت حوله الشبهات بأنه أرسل الرجال والأسلحة لاثارة الشغب في الهرسك (٥٢) ·

وسرعان ما أخذت ثورات أخرى للفلاحين تحدث بشمال البوسنة ، ففر من جراء ذلك أعداد ضخمة من الناس الى كرواتيا والجبل الأسود - اما بسبب تعرضهم لأعمال العنف أو من جراء الضرائب الفادحة ، أو بسببهما كليهما (٥٣) · وكان السبب الأساسي للتذمر بين الناس زراعيا بحتا ، ولكن السكان الأرثوذكس ، الذين أنشأوا علاقات اتصال مع صربيا ، ركبوا الموجة وصرحوا الآن علنا بولائهم للدولة الصربية (٥٤) · وعندئذ تقاطر على البلاد متطوعون من صربيا وسلافونيا وكرواتيا وسلوفينيا ، بل حتى من روسيا نفسها (بالاضافة الى بعض الغاريباليين الايطاليين ومغامر هولندي يدعى يوحنا باولوس) ، وذلك لاعتقادهم بأن

اليقظة لسلاف الجنوب كانت على الأبواب (٥٥) • وجمع والى البوسنة جيشا فى البوسنة والهرسك ارتكب أعمالا وحشية لكنها لم تؤت أى أثر أثناء خريف ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ وشتائها القارس • وهنا استنفر البكوات فرق جندهم غيرالنظامية المسماة بالباش بزق (Bashi-bazouks)واذ خافوا من هزيمة عامة فى البوسنة شرعوا فى ترويع السكان الفلاحين • وتم فى أثناء ١٨٧٦ احراق مئات من القرى وقتل خمسة آلاف فلاح على الأقل ، وعند نهاية السنة بلغ عدد اللاجئين من البوسنة فيما يرجح مئة ألف انسان وربما كانوا ٢٥٠ ألفا (٥٦) •

وعند منتصف ١٨٧٦ كانت هذه الأزمة الكبيرة قد أصبحت أزمة دولية • فأخذت الأنباء تنتشر بكل أرجاء أوربا عن شبوب ثورة مماثلة فى بلغاريا ، وعن اخمادها بوحشية بالغة (وهى الفظائع البلغارية التى روعت الشيخ المسن جلادستون (*)) ، بل وحدث أيضا فى يوليو ١٨٧٦ أن صربيا والجبل الأسود أعلنتا الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد أن اتفقتا فيما بينهما على أن تستلحق الأولى البوسنة وتضم الثانية الهرسك • وحققت الجبل الأسود بعض النجاح العسكرى ، ولكن صربيا منيت بهزائم فى الحرب ولم ينقذها من اعادة الفتح العثمانى لها الا تدخل الحكومة الروسية ، التى أجبرت الترك على قبول هدنة فى شهر نوفمبر • ولكن تصرفات صربيا أدت الى زيادة شدة السلطات البوسنية فى موقفها المعادى لسكانها وأبناء وطنها من الأرثوذكس • فان هناك لاجئا سمع تقارير فى ١٨٧٧ بأن « هناك عملية تنظيف تام لأبناء الشعب الصربى فى البوسنة ، ذلك لأن السلطات التركية تقتنصهم وتقضى عليهم وتعطى تفويضا تاما للباش بزق والغجر وكذلك للكاثوليك واليهود بالقضاء عليهم » • (ومع هذا فان هذه الملحوظة عن الكاثوليك واليهود انما تشير بوضوح الى أن اللاجئين كانوا من الأرثوذكس المتحيزين ، ولاحظ آرثر ايفانس أنه « كانت من أعجب الظواهر فى التمرد الحالى هى الطريقة التى حاربت بها جنبا الى جنب الطائفتان المسيحيتان » (٥٨) •

وفى ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الامبراطورية العثمانية • وجرت بالفعل قبل ذلك مفاوضات كثيرة وراء الكواليس بين الروس والنمساويين ابتغاء وضع خطة لاقتطاع نصيب من أرض البلقان لكل منهما • ومع ذلك فقد حدث فى بواكير ١٨٧٨ ، يوم أوشكت القوات الروسية أن تصل الى

(*) جلادستون • وليم ايوارت (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨) سياسى بريطانى خطيب حجة فى الشئون المالية وفى عهد رئاسته للوزارة احتلت بريطانيا مصر ـ (المترجم) •

أبواب اسطنبول ، أن تمكنت الروسيا من املاء شروط صـــلح ، أشبعت مصالحها أكثر مما أرضت مصـــالح النمســا • وبمقتضى هذه الاتفاقية ، المسماة بمعاهدة سان استيفانو ، وسعت بلغاريا ، أكبر عميل لروسيا بأرض البلقان ، توسيعا هائلا ومنحت ما كاد أن يكون اســـتقلالا ذاتيا تاما • وظلت البوسنة أرضا عثمانية ، شريطة أن تدخل اصلاحات متنوعة اليها ، وبمقتضى المادة الرابعة عشرة من المعاهدة وجب أن تستخدم ايرادات البوسنة لخدمة الأغراض البوسنية البحتة (تعويض اللاجئين والسكان) مدة السنوات الثلاث التالية (٥٩) •

عند ذلك استيقظت الأحلام القديمة للبكوات البوسنيين ، في الحصول على حق الحكم الذاتي للبوسنة داخل الامبراطـورية العثمانيـة • ولاحظ آرثـر ايفـانس في ١٨٧٧ ، أن الولاة والموظفين الرسـميين العثمانيين « موضـــع مقت المسلمين البوســـنيين والمسيحيين البوســنيين على السواء » (٦٠) • ومن سوء الحظ أنه بعد أحداث السنوات الثلاث الأخيرة ، بلغ المقت المتبادل بين البوسنيين المسلمين والمسيحيين من الشدة بحيث انه لو تركت البوسنة وشأنهـــا ، لأصبحت دار قلاقل حامية أمد سنين طويلة آتية • كانت تلك احدى الاعتبارات التي ثقلت وطأتها على الدول الاوربية عنـدما اجتمعت في مؤتمر برلين في يوليـو ١٨٧٨ لاعادة كتابة التسوية التي تمت في سان استيفانو ، ورسم الخريطة من جديد • وأهم من هذا كانت رغبتها في اعادة التـوازن ازاء نفوذ الروس القـديم في البلقان ، ووضع حد لاتجاهه الى البحر المتوسط • وهكذا لم يقتصر مؤتمر برلين على قصقصة أطراف بلغاريا ودفعها الى الجنوب ، بل وأعلن أيضا أن البوسنة والهرسك ، وان ظلتـــا من الناحية النظرية تحت السيادة العثمانية ، لابد لهما من أن تحتلهما وتديرهما النمسا والمجر •

وللمرة الثانية وقع النمساويون في نفس الخطأ الذي وقعوا فيـه أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر : حيث افترضوا أنهم سيكونون موضع الترحاب من معظم الشعب البوسني ، والا لما أقدموا البتة على ارسال أخبار قرارات المؤتمر الى سراييفو البرق في اليوم الثالث من يوليو ، قبل حصول الصحف الأوربية عليها بعشرة أيام • وفي اليوم الخامس من يوليو عقد اجتماع عام للمسلمين بمسجد بيجوفا ، وظهر الحاج لويو المثير القديم للشغب وبسط برقا أخضر ، (رمزا للاسلام) وشد على رأس المجتمعين الى دار الوالي (٦١) • ووافق الوالي على تعيين « قومنـدان » عســـكري والاستعداد لمقاومة النمساويين • ولكنـه فيما يبدو لم يكن مؤيدا لهذه السياسة التي تنطوي على تحد علني لالتزامات السلطان في المعاهدة • وفي

اليوم العشرين حذرت صحيفة سراييفو من وقوع غزو نمسوى وشيك ، وبعد أربعة أيام عبرت طلائع الجيوش النمساوية بالفعل نهر السافا • وقاد الحاج لويو مظاهرة أخرى الى دار الوالى فى السابع والعشرين ، وشجع الحامية على التمرد ، وحصل من الوالى عنـوة على قرار بطـرد كثير من الموظفين الرسميين وتأليف « حكومة قومية » • وفر القائد العسكرى من المدينة مع مئة من الجند الراكبة ، ولكن تم القبض عليـه ، واقنـاعه بأن يساعد فى تنظيم الدفاع ضد النمساويين (٦٢) •

وفى الحين نفسه ، حصل الحاج لويو على المساندة المتحمســة من كبار القساوسة الأرثوذكس ، الذين سعدوا بالظن بأن البوسنة قد رمت عن كاهلها الحكم العثمانى وأنها ليست لديها أدنى رغبة فى أن يحل محله حكم النمسا • وعقد اجماع عام للمسلمين والأرثوذكس كان من شـأنه كما يذكر بعد ذلك يوزيف كوتشيت: «أن الأرشمندريت سافا كوسانوفيتش (Sava Kosanovic) والقسيس ريستو كانتا نوفاكوفيتش (Risto Kanta Novakovcic) ، وقد ارتديا ثيـاب رؤساء القرابضة (قطاع الطرق) اللصوص ، بما فى ذلك التمنطق بالغدارات والخناجر ، وضعا نفسيهما على رأس جمهور من الشباب الصربيين وطفقوا يرددون الأناشيد » • وفى اليوم الثانى من أغسطس عقدت مســيرة من المتطوعين المسلمين تصحبهم « الكتيبة المسيحية التى تتكون من الأرثوذكس بشكل ساحق جارف ، مع قلة قليلة جدا من الكاثوليك » • ولكن رصيد لويو انتهى بعد ذلك بزمن غير بعيد ، عندما أطلق النار على فلاح مسيحى شاب • ولكن أعماله نجحت فى اثارة المسلمين فى أجزاء أخرى من البوسنة أيضا ، وهنا تجمعت قوات غير منظمة الى حد ما ، بأجزاء متنوعة من الاقليم بلغت عدتهـا ما يقارب الأربعين ألف رجل (٦٣) •

فأما النمساويون فكانوا من الناحية الأخرى اثنين وثمانين ألف رجل • منهم ٩٤٠٠ جندى كانوا يؤلفون «قوة احتلال» المنوط بها التقدم الى داخل البلاد من دالماشيا والتمسك بالأماكن التى تستولى عليهـا القوة المحاربة الرئيسية • وكانت القوة الرئيسية ، تحت قيـادة قومندان كرواتى هو البارون يوزيب فيليبوفيتش (Josip Filipovich) تتحرك بسرعة مخترقة شمال البوسنة مستولية على بانيالوكا ومجلاى ويايسه • وكان النمساويون فى جودة من عدة السلاح ، كما كانوا على علم جيد بمدن البوسنة وطرقها وكباريها ، وكان ذلك بفضل رجل مساحة نمساوى عسكرى سمحت له السلطات البوسنية ، بمنتهى البراءة والسذاجة ، أن يطوف فى أرجاء القطر فى ١٨٧١ ــ ١٨٧٣ (٦٤) ، وفى(١٦)أغسطس تمكنوا من أن ينزلوا هزيمة

ثقيلة بقوة بوسـنية بمعـركة كلوكوتى (Klokoti) قرب فيتيز (Vitez) .
وفى ١٨ أغسطس وصل النمساويون الى أرباض سراييفو · فبدءوا الهجوم فى الصباح التالى بقصف مدفعى فى الساعة السادسة والنصف صباحا .
ثم دخلت المشاة المدينة حيث أطلقت عليهم النيران « من كل بيت ، ومن كل نافذة ومن كل باب ··· حتى النساء أنفسهن اشتركن فى ذلك » ·
ولكن المعركة حسمت فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وبلغت خسائر النمساويين ٧٥ قتيلا و ٣١٤ جريحا · ثم تحرك الجيش الى الأمام مخترقا أرض الهرسـك وسنجقية نوفى بازار فيما تبقى من أغسطس وسبتمبر ، وفى العشرين من أكتوبر كان الاحتلال التام للبوسنة والهرسك قد اكتمل · ولم يستغرق ذلك منهم الا أقل من ثلاثة أشهر · نعم أنه قد حدثت مقاومة عنيفة بشكل ما ، وتكررت هجمات من نوع حرب العصابات:
والخلاصة ، وقعت ثلاث وخمسون معركة ، انتهى الكثير منها بالاستيلاء على مدن محصنة ، وبلغ عدد الخسائر النمساوية النهائى ٩٤٦ قتلى و ٣٩٨٠ جرحى· ولم تستطع أية مدينة أن تصمد أكثر من يومين كاملين، ولو سلمنا بالحالة الرهيبة التى كانت عليها الطرق ، لم يكد يكون من المبالغة بأية حال القول بأن الجيش النمساوى فتح البوسنة فى مدة زمنية لاتزيد كثيرا عن الوقت الذى يتطلبه ذرع أرجاء الاقليم (٦٥)

الفصل الحادى عشر

البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى
١٨٧٨ ـ ١٩١٤

لم تتخذ دولة النمسا والمجر قرارها بالاستيلاء على البوسنة الا بعد تردد وتمنع • وبطبيعة الحال ظل المعقبون يحاجون طويلا بأن البوسنة تمتلك قدرا عظيما من الثراء (الزراعة والغابات والموارد المعدنية) ، وأن من المعقول لها أن تنمى كجزء من وحدة اقتصادية مع الساحل ـ الذى كان أرضا نمساوية • وكان العسكريون فى النمسا حريصين أيضا على فتح الأراضى الداخلية التى تقوم وراء الســاحل الدالماشى المستهدف وغـير الحصين (١) • ولكن عندما طرحت فكرة الاستيلاء على البوسنة للمناقشة فى ١٨٦٩ ، كان اثنان من صناع السياسة فى الدولة ضدها : وهما جيولا أندراسى (Gyula Andrassy) وزيــر الخارجيـــة ، وبنيامين كاللاى (Benjamin Kallay) خبير التاريخ السلافى الجنوبى (والمؤلف فيما بعـد لتاريخ معتمد عن الصرب) ، وكان يشغل آنذاك وظيفة القنصل النمساوى فى بلجراد • ولم يكن واحد منهما ليريد للنمسا والمجر أن يبهظ عاتقها بثقل مليون أو ما يقاربه من السلاف (٢) •

ولقد كانت هناك مشاكل سياسية لابد أن يتمخض عنها ذلك التكوين ذو النوع الخاص للملكية الثنائية : فهل تحكم النمسا البوسنة أم تحكمها المجر ؟ أو تحكمها لجنة مشتركة ؟ أم هل سوف توحد مع كرواتيا ، التى كانت تستمتع منذ ١٨٦٨ بنوع من الحكم الذاتى (مع حاكم تعينه المجر)، ولها برلمان كرواتى خاص بها ومجموعة من أعضــاء البرلمان فى البرلمان المجرى ؟ لقد كانت المتاعب التى لاقتها النمسا من كرواتيا أقوى سبب دعا الى عدم الرغبة فى ضم البوسنة هى الأخرى : فزيادة عنصر ضخم آخر من السلاف الجنوبيين لابد أن يزيـد من قوة حجـة أولئك الكروات الذين

يطالبون بوضع قانونى أعظم لوطنهم . وكان بعضهم يطلب أن ترفع كرواتيا الى درجة المشاركة المتساوية مع النمسا والمجر (وهو ذلك الرأى المسمى بالفكرة الثلاثية) . وكان غيرهم يهدف الي منح كرواتيا استقلالا تاما وتأسيس دولة سلافية جنوبية . ولكن لم تلق واحدة من هاتين الخطتين ترحابا لا من فيينا ولا من بوادبست . ولكن كان هناك شيء كانت السلطات النمساوية والمجرية أشد حرصا على تجنبه : فان توسيع كرواتيا حتى تصبح دولة سلافية جنوبية سيكون أمرا سيئا والحق يقال . ولكن اذا كان لصربيا أن تفعل ذلك وتنفذه بدءا بامتصاص البوسنة وانتقالا الى تقويض الحكم النمسوى المجرى في دالماشيا ، فهو أمر أسوأ كثيرا . وكان اعلان صربيا الحرب على العثمانيين في ١٨٧٦ هو العامل الحاسم الذى أفضى بالنمساويين الي التفكير جديا في الاستيلاء على البوسنة ، ولو أنهم كانوا على يقين من أن السلطان يستطيع أن يحتفظ بالسلطة فى البوسنة الى أبد الآبدين ، لما أهمهم الأمر فى قليل ولا كثير .

حتى اذا وقع المحظور ، وأصبحوا هم المسئولين عن حكم البوسنة لم يبق مجال لأنصاف الحلول . وتم الاتفاق مع الحكومة العثمانية على مجموعة من البيانات حول ما ينبغى أن يحدث فى البوسنة فى أبريل ١٨٧٩ ، ولكن بعض هذه البيانات كانت أنصاف حقائق ، وبعضها الآخر لاينطوى على أية حقيقة اطلاقا . وتم الاتفاق على أن : الحاق البوسنة بالنمسا والمجر « لايمس حقوق السيادة لصاحب الجلالة الامبراطورية السلطان » ، وأن العملة التركية ستظل مستمرة التداول ، وأن ايرادات البوسنة ستستخدم محليا ، وأن الادارة الجديدة ستستخدم موظفين من الأتراك فضلا عن الأهالى البوسنيين ، وأن يباح للمسلمين حرية العبادة ، وأن يظل اسم الخليفة السلطان قائما يردد فى صلاة الجمعة (٣) . تلك وعود صدرت ، ولكن لم ينفذ منها بدقة الا الاثنان الأخيران ، فاستبعدت النقود التركية وأدخلت البوسنة فى اتحاد الجمارك النمساوية المجرية (وكان معنى ذلك أن ايرادات الجمارك التى تجمع على الحدود البوسنية كان فى الامكان انفاقها فى أى مكان من الامبراطورية) ، وانتقلت الادارة الى حد كبير الى مواطنين نمساويين مجريين . أما فيما يتعلق بسيادة السلطان فان أية فكرة بأن هذه الولايات المحتلة قد تعود ذات يوم الى الحكم التركى كانت مستبعدة منذ البداية ولم يعد أمام البوسنة ما تصبو اليه أكثر من أن يتحول الاحتلال الى ضم بحيث تغدو جزءا من الامبراطورية . وعندما انضم الامبراطور النمساوى الى حلف الأباطرة الثلاثة مع روسيا والمانيا فى ١٨٨١ ، كان من بين الفقرات السرية نص : « ان دولة النمسا

والمجر تحتفظ لنفسها بالحق فى ضم الولايات فى أية لحظة تراها مناسبة » (٤) .

أما مشكلة ضم البوسنة ، وهل يكون ذلك الى النمسا أو المجر ، فقد حلت بجعلها أرض تاج (Crown Land) ، ومعنى ذلك أنها كانت لا يحكمها أحد منهما ، وفى الوقت نفسه كان يحكمها كلاهما . وأنشئت لجنة مشتركة تابعة لوزارة المالية المشتركة (أى النمساوية والمجرية) ؛ ومن الناحية النظرية كانت السلطة الرئيسية فى البوسنة بيد الحاكم العسكرى المسؤول مباشرة أمام التاج ، غير أن وزير المالية المشتركة هو الذى كان يضع القرارات السياسية الواجب اتباعها . ومن الناحية النظرية أيضا كانت البوسنة تعيش تحت ظل القانون العسكرى ، ولكن اعلانا صدر فى أواخر ١٨٧٨ يعلن أن جميع القوانين العثمانية ستظل نافذة المفعول حتى اعلان آخر ، ولم تكن هذه القوانين تستبدل بأخرى أو تستكمل بالقوانين النمساوية المجرية وبالقوانين الجديدة المخصوصة بها البوسنة الا بالتدريج البطىء . وكذلك بقيت سلطة المحاكم الشرعية التى تنفذ الشريعة الاسلامية وتحكم مجموعة من المسائل المدنية بين المسلمين . وعلى العموم لم تمس الادارة الجديدة البنية الأساسية للادارة العثمانية فى الجوانب التى رأت أنها صالحة للعمل فلم تطبع بالطابع النمسوى المجرى الا من حيث الاسم وهيئة العاملين بها : وأعيدت تسمية السنجقيات بالمناطق ، كما أن أحياءها الصغرى وهى القاضيلوكات سميت بالنواحى ويرأس كلا منها مشرف . لكن بينما كان العثمانيون يحكمون تلك الأراضى كلها بمئة وعشرين موظفا ، فان عدد الموظفين الاداريين النمساويين المجريين ـ من جراء خليط عجيب من البيروقراطية المطلقة وقوانين باركنسون ـ ارتفع حتى وصل فى ١٩٠٨ الى ٩٥٣٣ (٥) .

وكانت السنوات القليلة الأولى أصعب السنوات وطأة على الادارة الجديدة . وكانت هناك منذ البداية مشاكل كبيرة مثل الحاجة الى اعادة أكثر من مئتى ألف لاجىء الى ديارهم ، وكانت نيران العنف تشتعل أحيانا فى بعض المناطق ، وذلك بوجه خاص فى تلك المناطق من الهرسك التى كان الجبل الأسود لايزال يضمر نحوها بعض الأطماع : فثارت فتنة فى منطقة نيفيسينيا للمرة الثانية فى ١٨٧٩ ، كما حدث هجوم خطير على وحدة من الجند قرب جاكو (Gacko) قرب الحدود مع الجبل الأسود فى ١٨٨١ (٦) . ولكى تبث الحكومة النمساوية دعائم الثقة بين السكان فى الهرسك ، وتشجع اللاجئين على العودة الى ديارهم ، عمدت الى انشاء قوات ميليشيا عسكرية محلية خاصة هى « البانذور » ، على أن كثيرا من

أعضاء الميليشيا هؤلاء تمردوا هم أنفسهم ، فتحول بعضهم الى عصابات قطاع طرق (٧) • وفي نوفمبر ١٨٨١ بلغ عدد جند النمسا والمجر ١٢٨٤٠ في البوسنة وحدها فقط ، و ٤٠٠٠ في الهرسك • وكل هذا العدد لابد أن يكفي لحفظ السلام والنظام ، الا أن السلطات أعلنت اجـراء جديدا قدر له أن يكون موضع بغض الشعب : وهو قانون للجيش يجعل جميع البوسنيين من الذكور تحت طائلة التجنيد في القوات المسلحة النمساوية المجرية • وسرعان ما نشأ عصيان مسلح ببلاد الهرسـك ، وما انتصف شهر يناير ١٨٨٣ حتى انتشرت عصابات الثوار بالمنطقة (٨) •

وتشير التقارير النمسـاوية الى هؤلاء العصاة بأنهم « لصوص » ، ولا شك في أن بعضهم كان ينطبق عليه ذلك الوصف ، ولكن انضم اليهم زعماء الباندور ورؤسـاء القرى الكبـار أيضا ، ولم تكن أنشطتهم الأولى ولا الأساسية هي السرقة بل مهاجمة مراكز الشرطة ومواقع الجيش • ووقع طابور من المشاة أرسل لمنازلتهم ، تحت نيران كمين كمن له في طريق بين التلال واضطر الى التقهقر الى موستار • وعندئذ أرسلت عليهم قوات أكبر • وتواصل القتال أثناء فبراير بأكمله بالمنطقة المحيطة بفوتشا التي تضم بعض الجبال الممتدة بين فوتشا وسراييفو • وقدر أن العصاة وصل عددهم الى ألف رجل مقسمين الى رهط يغلب عليـه الأرثوذكس بقيـادة ضابط من ميليشيا الباندور هو بترو تانجوز (Petro Tanguz) وثلة مسلمة تحت قيـادة مالك أرض شـهير هو عمـر شاتشيتش (Omar Satcić) وثلتان مختلطتان (٩) • وبالتدريج تمكنت القوات النمسـاوية المجرية من استعادة سيطرتها على المنطقة • حسـب نص التقرير الرسمي : « ان المنطقة كلها التي كانت تغطيها شبكة كثيفة من الطوابير السريعة الحركة ، التي كانت لا تبرح تلتف حول العصـابات وتضيق عليهم الخناق حتى انهم بعد محاولات عديدة من المقاومة العنيدة ، عادوا فاستسلموا تمـاما في شهر يناير » (١٠) • واستمرت عصـابات من أنواع مختلفة بأرض الهرسك مدة تزيد على عقد من الزمان • كان هذا هو التمرد الخطير الأخير على الحكم النمساوي •

وهناك سبب لضعف المقاومة وهو أن عددا ضـخما من العناصر المتشددة في عدائها للنظام الجديد غادر البلاد بصورة نهائية • وكانوا في غالبيتهم من المسلمين الذين رحلوا الى بلاد الترك ـ ومنهم من كان يأبى لدواع دينية أن يعيش في ظل الحكم الكافر ، كما أن بعضهم ، بلا شك ، ممن خافوا أن تأخذهم العدالة بمـا فعلوا أو الانتقام منهـم على الأشـياء الرهيبة التي أنزلوها بالمسيحيين أثناء السنوات الأخيرة من الحكم العثماني •

وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين من الفلاحين ، بيد أنه كان بينهم أيضا بعض ملاك الأرض الذين أسسوا في اسطنبول جماعة تطالب بضغط سياسي تركي أكبر على الحكومة النمساوية المجرية في البوسنة (١١) • فكم كان عدد المهاجرين النهائي ؟ تلك مسألة دار حولها جدل شديد وحام بين المؤرخين المحدثين • على أن السلطات النمساوية المجرية أصدرت بيانا رسميا يذكر أنه بين ١٨٨٣ ـ ١٩٠٥ غادر البلاد ٣٢٦٢٥ وعاد اليهـا ٤٠٤٢ (١٢) • ويفيد بيان آخر بأن أربعة وعشرين ألفا غادروا البلاد بين ١٩٠٦ و ١٩١٨ • على أن هذه الأرقام لاتذكر الا الذين حصلوا على تصريحات رسمية بمغادرة البلاد ـ وهو شرط فرض في ١٨٨٣ عندما أحست الحكومة بالانزعاج ازاء عدد الناس الذين يهاجرون تجنبـا للتجنيد • وهو لايضم عدد أولئك الذين خرجوا من البلاد بطريقة غير قانونية ، ولا أحدا من أولئك الذين فروا في السنوات الأربع الأولى • وادعى بعض مؤرخي المسلمين أن العدد الكلي للمهاجرين بلغ ثلاثمئة ألف انسان ، بيد أن ذلك الرقم يبدو عاليا جدا الى درجة غير محتملة • وهناك جغرافي درس عدد السكان المهاجرين وذرياتهم ، وقدر بأنه يوجـد الآن ٣٥٠ ألف بوسنياك (*) في تركيا ، ومع ذلك ، فان ذلك المصطلح يطلق في تلك البلاد (أي تركيا) على أولئك الذين جاءت أسراتهم من صربيا والجبل الأسود بالاضافة الى البوسنة أيضا ـ كما أن العـدد الكلي اليوم يتضمن أعدادا ضخمة ممن انتقلوا عن البلاد في فترة ما بين الحربين(١٣) • على أن المؤرخين الصربيين من الناحية الأخرى ، يقدرون العدد الكلي بأنه يقارب الستين ألفا ، وهو رقم معناه القبول بصحة الاحصائيات الرسمية بما لايترك الا ما لايزيد عن ثمانية آلاف في الفترة المنقضية بين ١٨٧٣ و ١٨٨٣(١٤) • ولا شك في أن عددا يقارب دائرة المئة ألف يعد رقما محتملا أكثر كثيرا لصافي الهجرة والمهاجرين ، على أن هذا لا يخرج عن كونه مجرد حدس فقط • وينبغي ألا ننسى أنه ليس كل هؤلاء من المسلمين ، فان مئات كثيرة من الفلاحين الأرثوذكس ظلوا يغادرون بلاد الهرسك كل عام حوالي منعطف القرن(١٥) • وهناك اديث درهام ، وهي من أشد المراقبين الأجانب دقة ادراك وبعدا عن التعاطف مع النمسا ، وهي تورد سببا بسيطا للهجرة بين ١٩٠٠ و ١٩١٠، قالت : « كانت الأجور منخفضة ، والفلاحون في غاية الفقر • وكان بالامكان الحصول على أجور عالية جدا بأمريكا ، فبلغ عدد المهاجرين اليها الألوف •

(*) بوسنياك : مصطلح يسمى به أهل البوسنة المهاجرون منها الى تركيـا ـ (المترجم) •

ورغم أنهم كانوا ينسبون هجرتهم الى الحكم النمسوى ، بيد أن الشيء نفسه كان يحدث بالجبل الأسود ··· لقد كان الأمر كله مسألة اقتصادية من عرض وطلب » (١٦) ·

وكان السبب الرئيسى فى السخط على النمسا والمجر بين هؤلاء الفلاحين المسيحيين ، هو خيبة توقعاتهم فى حدوث اصلاح لنظام الملكية الزراعية · وكان هذا أبرز مثال من أمثلة السياسة النمساوية المجرية فى حرصها على الاستمرار على القديم · والتدرج فى التحديث · وقد استقر الرأى منذ مرحلة مبكرة جدا ، على أن آخر اصلاح عثمانى ضخم ، وهو فرمان ١٨٥٩ سيظل قائما ومعمولا به ، وأنه لن تدخل أية تغييرات جذرية على ذلك القانون منذ تلك اللحظة · وقد بذلت جهود صغرى لتحسين حال الفلاحين : فان تقدير قيمة محاصيلهم وكل الى مندوبين ضرائبيين عدول ، والى خبراء فى التقدير ، وأنشىء سجل للأراضى ديدنه الاعتدال لمنع التعديات التى كان يقوم بها ملاك الأراضى ، كما انشىء نظام لتقدير متوسط العشور · (ومعنى ذلك أن العشور كانت تحدد على أساس متوسط أو معدل الانتاج فى السنوات العشر الأخيرة ، وبذلك يدفع فلاح يكون محصوله فى ازدياد أقل من نسبة العشور المتوجبة على محصول سنته الجارية) · وتم التأكيد على حق موالى الأرض فى تحرير أنفسهم بدفع مبلغ على سبيل التعويض ـ وهى قاعدة كانت قد أقرت فى قانون تركى صدر فى ١٨٧٦ ، كما أدخلت اجراءات اضافية على الوسائل التى تزيد قدرتهم على دفع ذلك المبلغ بسهولة · وتمكن ٤١٥٠٠ من أقنان الأرض من تحرير أنفسهم بهذه الطريقة فى المدة من ١٨٧٦ الى ١٩١٣ ، ولكن فى أوائل ١٩١٤ قدر وجود ٩٣٣٦٨ آسرة من موالى الأرض يعملون فى مزارع الأغالوك التى كانت تمثل على وجه التقريب ثلث الأرض الزراعية كلها (١٧) · ولا يغيبن عن الأذهان أن تسميتهم باسم أقنان الأرض لا يعنى مع ذلك أنهم كانوا جميعا يعيشون فى ضنك وضغط وظلم · فان المؤرخ البريطانى وليم ميللر لاحظ عندما زار البوسنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أن « قن الأرض البوسنى أيسر حالا من الفلاح الدالماشى أو الصقلى » ، كما أنه لاحظ أيضا أن تكرار تقسيم الأرض حسب شريعة الأتراك فى قوانين ميراثهم ، أدى الى تفتيت ثروة الكثير من الأغاوات بحيث أصبحت لاتزيد على ثروة الفلاحين من أصحاب الحيازات الصغيرة (١٨) ·

وبينما كان رجال الادارة النمساوية المجرية شديدى الحذر من اتيان أى شىء يؤدى الى تغييرات اجتماعية كبيرة ، فانهم كانوا بالغى النشاط فى سعيهم نحو تطوير الاقتصاد البوسنى · وكان العائق الوحيد الذى يقف حجر عثرة فى سبيل خططهم ، قانون صدر فى فيينا فى ١٨٨٠ يقرر فى

صورة معكوسة ذلك الوعد الذى أبـرم للسلطـات بأن نفقات الادارة البوسنية ينبغى أن تغطيها الايرادات البوسنية نفسها ، وهو أمر جعل من الصعب تمويل مشروعات البنية الأساسـية الضـخمة اللازمة لتطوير البوسنة ، فاستعاضوا عن ذلك بالقروض • وفى السنوات القليلة الأولى مد خط حديدى من التخوم الكرواتية الى زينيكا (بطول ١٩٠ كيلومترا) بنفقات تقدر بثمانية ملايين من الفلورينات • وما لبث بعد ثلاث سنوات أن مد الى سراييفو ، (وهى مسافة ثمانين كيلومترا أخرى) بنفقات قيمتها اربعة ملايين فلورين أخرى (١٩) • وكان معيار الاستثمار العام هائلا فعند ١٩٠٧ كانت الحكومة قد مدت ١١٧ كيلومترا من خطوط السكك الحديدية العريضة المقاس ، و ٩١١ من الضيقة المقاس وأكثر من ١٠٠٠ كيلومترا من الطرق الرئيسية ومثلها أيضا من الطرق الفرعية ، بالاضافة الى ١٢١ كوبريا (٢٠) • وتعلق اديث درهام فى ١٩٠٦ : « والطرق الجبلية لا تقل عن جميع ما فى أوربا » (٢١) •

وكان وراء انشـاء بعض هذه الطرق والسكك الحديدية أهداف عسكرية بطبيعة الحال ، ولكنها كانت كذلك جزءا من اتجـاه هائل نحو الاصلاح والتحسين الاقتصادى • وأعطيت دفعة نمو هائلة لنشاطى قطع الغابات والتنقيب عن المناجـم ، وكذلك تم اسـتخراج معادن أخرى مثل النحاس والكروم ، واستخرج خام الحديد من منطقة بريدور (Prijedor) وأسست أيضا عدة مصانع للحديد والصلب ، كما افتتحت مصـانع كيماويه كثيرة • وعندما وافت ١٩١٢ ــ ١٩١٣ كانت للبوسنة صادرات تقدر بثمانيـة وعشرين مليونا من الدولارات ، وقوة من العمـال عدتها ٦٥ ألفـا من الرجال (٢٢) • وكانت اليـد العاملة فى كثير من المدن من النساء (معظمهن من المسيحيات ، والقليل من المسلمات) ، مثال ذلك أنهن فى سراييفو كن يصنعن السـجائر والأبسطة • وبلغ الأمر بعمال مصنع التبغ أنهم نظموا اضرابا فى ١٩٠٦ ابتغاء تقليل ساعات العمل اليومية ورفع الأجور وسوى ذلك الاضراب فى مدة خمسة أيام ، ولكن اضرابات أخرى مماثلة حدثت بمدن أخرى ، وأطلق الرصاص على مظاهرة لعمال الصلب فى زينيكا فأصاب كثيرا من الناس • ولم يكن لهذا الاضراب أى أثر ضخم فى سياسة القطر ، وان شجع على انشاء نقابات للعمـال فى كثير من الحرف والصناعات فى السنة التالية (٢٣) • ومع هذا ، فانه لما كان من دأب البلاد الاشتراكية أن تتصيد لنفسها من خلال ماضيها السابق على الاشتراكية ، أحداثا بطوليـة من هذا النـوع ، فان « الاضراب العام » لسنة ١٩٠٦ بولغ فى تصويره ، فى كتب التأريخ اليوغوسلافى العصرى عن تلك المدة (٢٤) •

ولم يفت السلطات النمساوية المجرية الاهتمام بالزراعة التى تعتبر عماد الاقتصاد · فقد أنشأت المزارع النموذجيـــة ، ومنهـا مزرعة عنب نموذجية ، قرب موستـار ، وكذلك مزرعة أسـماك نموذجية ، كما جرى تدريب المعلمين على مناهج التدريس الحديثـة ، كما أسست كلية زراعة بمدينـة ايليدج قرب سراييفو (٢٥) · وأسست مزارع لتربيـة الماشية ورغبة فى تشجيع تربيـة الخيل ، أنشئت مضمارات سـباق الخيل فى مدينتى ايليدج وبريدور · (فان تلك السباقات التى أصبحت شعبية ، لم تكن تدار فى البلاد حسب قواعد أندية « الجوكية » : بل كان الفرسان يركبون الخيل عارية الظهر بلا سروج ، فاذا اقتربوا من عمود السبق قذفوا بأنفسهم بعيدا رغبة فى التخفيف عن خيولهم ، التى كانت تصل الى خاتمة الشوط منفردة ») (٢٦) · ولم تكن كل هذه الأنشطة الانمائية موضـع التقدير العام من الفلاحين البوسنيين ، فان أحد ضباط الشرطة النمساوية المجرية أبلغ اديث درهام فى ١٩٠٦ : أن هذه التغييرات كانت سريعة جدا فلم يتقبلها الناس الذين كانوا يفضلون الشوارع التركية القديمة ويؤثرون ركوب الدواب على العربات والطرق الجديدة ، كما أنهم كانـوا ينظرون بارتياب الى كل جديد » · وفى هذا الجزء الذى كان يعمل به من بلاد الهرسك ، رفض الفلاحون استخدام حتى المحاريث الحديدية التى كانت تمدهم بها الحكومة بأقل من سعر التكلفة · « لقد أنفقنا النقود بلا نهاية ، محاولين تحسين نسل الماشـية الحية : الكباش والخنازير من أرقى أنـواع الذرارى · وقد أرسلنـا خنزيرا بديعـا (لاستخدامه فى تحسـين النسل) فى السنة الماضية الى احدى القرى وجعلناه فى حيازة رجل كنا نراه جديرا بالثقة ، فلما أتى عيد الميـلاد ، ذبحه وشـواه وجعله وليمة دعا اليها القرية بأكملها » (٢٧) ·

ومن أشد نواحى اثارة الجدل فى السياسة الزراعيـــة ، تشجيع الأجانب على الاستيطان · وكانت أول جالية من هذا القبيل جالية جاءت بناء على مبادرة من قسيس ألمانى نشر اعلانا فى احدى المجلات الدينية فى ألمانيا ، ملتمسا من الأتقياء من الفلاحين الحضور والسكنى فى البوسنة · فجاءت الى البلاد عائلات من سيليزيا وأرض الراين ، واشترت أرضا قرب الحدود الكرواتية وأنشأت مستوطنة عرفت رسـميا باسـم فيندهورست (Windhorst) ، وجزء منها تم تسميته « رودلفشتال » (Rudolfstal) تيمنا بزيارة ولى العهد الأمير رودولف فى ١٨٨٨ ، وأنشأت مستوطنة أخرى جمـاعة من البروتستـانت الألمان وفدوا من المجـر وأسـموها « فرانتس يوزفسفيلد (Franzjosefsfeld) · وكانت الدولة تنظر بعين الرعاية الى هؤلاء الفلاحين ، فأعطتهم تنازلات ضرائبية ، وفى ١٨٩٠ أصدرت

قانونا خاصا « بالمستوطنات الزراعية» ، وبمقتضاه تمنح كل عائلة ما يصل الى اثنى عشر هكتارا معفية من الايجار في السنوات الثلاث الأولى وبعد ذلك يسددون ثمنها على أقساط بفائدة بسيطة تنتهي بعد عشر سنوات ، ان هم أخذوا الجنسية البوسنية · وفي المجموع تم انشاء ٥٤ مستوطنة من أصول ألمانية ، وكانت الغالبية من السلاف (البولنديين والتشيك والروثينيين) الذين اختلطت سلالتهم مع السكان البوسنيين السلاف · ولكن مهما كان أصل المستوطنين وجذورهم ، فان تلك السياسة لقيت الرفض في ذلك الوقت ، وعندما حصل البوسنيون على برلمان لأول مرة في ١٩١٠ ، كان من أوائل ما طلبوه وقف بناء هذه المستوطنات (٢٨) · وحتى تلك الآونة كانت الزيادة المتواصلة في عدد السكان الأجانب بالبوسنة بدأت تبعث القلق في نفوس الزعماء السياسيين المحليين · اذ لم يكن هناك بأرض البوسنة في ١٨٨٠ الا ٤٥٠٠ مواطن نمساوى واثنا عشر ألف مواطن مجرى ، ولما وافت ١٩١٠ حتى كان عدد المواطنين النمساويين سبعة وأربعين ألفا وعدد المجريين واحدا وستين ألفا · على أن هذه الأرقام ليست مزعجة تماما كما قد يبدو في ظاهرها · فان الكثيرين منهم كانوا من رجال العمل الادارى في الدولة أو رجال الأعمال الذين لاينوون على الاطلاق الاقامة الدائمة بتلك البلاد · وكان بعضهم جندا : حيث جرت العادة العامة بأن يعمل الجند النمساويون المجريون في أرض البوسنة ويعمل الجند البوسنيون في النمسا والمجر · فأما عن المواطنين المجريين ، فان معظمهم كانوا من الكروات ، ولم يكن منهم من المجيار الا أقلية صغيرة (٢٩) · وبغض النظر عن النهوض « بالمستوطنات الزراعية » الذى كان الغرض الأساسى منه زراعيا بحتا أكثر منه ديموجرافيا سكانيا ، فلم يكن هناك البتة أية سياسة جدية للاستعمار الجماعى للبلاد ، ولكن التدفق الذى حدث كان كافيا لتذكير أهالى البوسنة بأنهم كانوا في الواقع واقعين تحت نوع من الحكم الاستعمارى ·

ولكن على وجه العموم كان رجال الادارة النمساوية المجرية يفهمون مثل هذه الحساسيات ويحاولون أن يتجاوزوا عنها · فأبيح لكل طائفة أن تكون لها مدارسها الخاصة ، التى أصبحت آنذاك تدعم من الحكومة بالمال · كما أن الحكومة أسست مدرسة للشريعة لتدريب قضاة المحاكم الاسلامية في ١٨٨٧ · وفى ظل نظام المدارس المجانية الحكومية التى أقامتها الادارة للناس ، كان أعضاء كل جماعة يتلقون التعليم الدينى على حدة على يد رجال دينهم الخاص · وقد صب الكتاب اليوغوسلاف العصريون جام زرايتهم على الجهود التعليمية التى بذلتها حكومة النمسا والمجر ، مشيرين الى أنه لم يكن يذهب للمدارس الا أقلية صغيرة من الأطفال ·

ولكن حكومة تبنى ما يقارب المئتين من المدارس الابتدائية وثلاث مدارس ثانوية ومدرسة صنائع وفنون وكلية للمعلمين ، لا يمكن أن توصف بأنها مهملة اهمالا مطلقا فى سياستها التعليميـــة • وليس ذلك بعجيب ، فان الفلاحين الذين رفضوا فيما مضى أن يستخدموا المحاريث الحديدية ، لم يكن يعقل أو يحتمل منهم أن يندفعوا الى ارسال أبنائهم ليتلقوا تعليما لم يتلقوه هم أنفسهم فيما سلف • وأدخل التعليم الاجبارى فى ١٩٠٩ ، أما حتى آنذاك ، فقد كانت السياسة هى كما لخصها وليم ميللر بقوله : « ليس الفلاح مجبرا على ادخال أبنائه الى المدرسة على الاطلاق ، ولكن السلطات المحلية كانت تلجأ الى أساليب النقاش والحوار لاقنـــاعه بمزايا التعليم ان اختار أن يحرم أولاده منه » (٣٠) •

على أن معالجة شئون الطوائف الدينية الثلاث الكبرى ، كانت الى أقصى حد أدق وأحرج دور يواجه الادارة النمساوية المجرية • وبطبيعة الحال كان انفاق المال على مدارســهم وســيلة لكسب تعاونهم وممارسة درجة ما من السيطرة عليهم • وبذلت أيضــا جهود لضـــمان أن تكون للسلطات النمســاوية المجرية السيطرة على تعيين الشخصيات الرئيسية فى كل طائفة دينية : فان الامبراطور منح من البطريرك الأرثوذكسى الحق فى تعيين الأساقفة فى البوسنة ، وتيسر الحصول من البابا أيضا على حق مماثل لهذا لتعيين الأساقفة الكاثوليك • واقترح المسلمون بأنفسهم انشاء مشيخة دينية فى البوسنة مستقلة عن اسطنبول ، وتم ذلك فى ١٨٨٢ بتعيين الامبراطور لأحد الشيوخ رئيســا للعلماء (أى رئيسا للطائفـــة الاسلامية) يترأس مجلسا مكونا من أربعة أعضاء أو هيئة من المستشارين •

ومن بين هذه التنظيمات الدينية الثلاثة ، كانت الكنيسة الكاثوليكية أشدهن وضوحا ظاهرا من حيث النمو والتغيير • وفقـــد الفرنسيسكان احتكارهم واجتذب الجزويت (*) الى البلاد • وأنشئت ثلاث كليات كهنوتية ليعلم فيها الجزويت الناس ، كما شيدت فى سراييفو كاتدرائية كاثوليكية، ما لبثت أن أتبعت بكنيسة للقديس أنطونيو من بادوا • وزاد تدفق الناس من النمسا والمجر عدد السكان الكاثوليك زيادة كبيرة (حيث نما عددهم فى سراييفو وحدها من ثمانمئة فى ١٨٧٨ الى ٣٨٧٦ فى مدى ست سنوات فقط ، وكذلك بفضـــل جهود أربعة أساقفة وكبير أساقفة يتصف بالعزم الشديد (هو المونسنيور ستادلر Stadler ، الذى خدم بسراييفو طوال

(*) الفرنسيسكان والجزويت : جماعتان من الرهبان الكاثوليك تابعتان لبابا روما ـ (المترجم) •

تلك المدة الممتدة من ١٨٨٢ الى ١٩١٨) ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية أكثر نشاطا مما كانت عليه فى أثناء ألف السنة تقريبا السابقة من تاريخ البوسنة كله (٣١) . على أن السلطات كانت تعى تماما ذلك الخطر القائم فى تحويل الكاثوليك البوسنيين الى طائفة مميزة ، فان وليم ميللر الذى كتب فى ١٨٩٨ ، مبينا ما كانت عليه سياستهم من حذر :

« لقد أصيب الكاثوليك ... الذين طالما شخصوا بأبصارهم الى النمسا للمعاونة والتأييد ، كما أنهم بالطبيعة رحبوا بوصولها ، بوصفها دولة كاثوليكية عظمى ، بشىء من خيبة الأمل ، لأنهم ـ وهم الذين كانوا يكونون أكثر قليلا من خمس سكان البلاد ـ لم يسمح لهم أن يقوموا بوظيفة « الشريك المسيطر » فى « الشركة » البوسنية . وفى اعتقادى أنه لا يقوم هنالك أى دليل يدل على الاتزان والمساواة فى معاملة العقائد الدينية المتنوعة من جانب الحكومة أكثر من هذا الاحساس بخيبة الأمل » (٣٢) .

كما أن الصحفى الأمريكى و . ا . كيرتس الذى زار البوسنة فى ١٩٠٢ ، تكونت فى ذهنه انطباعة مماثلة عن هذه العدالة والتوازن فى المعاملة ، حيث شهد أن « اتباع مختلف العقائد الدينية يتبادلون الصداقة والمودة ، ويبدون احتراما وتسامحا متبادلا » ، وتدار الأمور فى المحاكم بحكمة وأمانة ، والعدل مكفول لكل مواطن ، بغض النظر عن دينه أو مركزه الاجتماعى » (٣٣) . ولكن كان من الممكن بين الحين والحين أن تعرقل المشكلات الدينية سير أجهزة الحكم ولو كانت مشيدة على أعلى درجة من الدقة .

وكانت أشد المشاكل المثيرة للفرقة والجدل مسألة التحول من دين لآخر . وكانت هذه القضايا تمس فى العادة البنات المسلمات ، اللائى كن يتحولن الى الكاثوليكية على يد خطابهن وأزواجهن ، وبذلك ينزلن الفضيحة الكبرى والخزى الأعظم بأسرهن . وهنا تجد القسس الكاثوليك ، وان لم يجهروا بدعوة التنصير بين المسلمين ، فانهم كانوا يبذلون أقصى ما فى وسعهم لمساعدة أولئك الذين كانوا يأتون اليهم ـ وذلك اما بتخبئة البنات فى الأديرة أو فى مقر كبير الأساقفة مثلا ، ورفض الكشف عن مكانهن للشرطة . وبعد أحداث متعددة من هذا القبيل خضعت السلطات للضغط الاسلامى فى ١٨٩١ ، وأصدرت قانونا يسمى « قانون اعتناق الأديان » ، وضع اجراءات للقضايا المتنازع فيها : بدءا بفترة انتظار طولها شهران ، قبل اعلان التحول رسميا الى الدين الآخر ، مع تشكيل لجنة حكومية للتحرى حول أى اتهام بالاجبار والقهر ، وما الى ذلك من اجراءات .

وأدت تلك الاجراءات الى تهدئة مخاوف المسلمين ، ولكن وقعت بعد ذلك باثنى عشر عاما حادثة تورط فيها كبير الأساقفة ستادلر وكان الآخر خاصا بأرملة مسلمة وطفليها ، وقد اعترف بأن الحكومة عقدت اتفاقية سرية مع البابا فى ١٨٩٥ ، منحت بها رجال الدين الكاثوليك الحق فى الاتصال بمن ترى فيهم الرغبة من الناس فى اعتناق المسيحية ـ وهو أمر قوض بطريقة سرية « قانون اعتناق الأديان » • وهنا ثارت ثائرة المسلمين مرة أخرى • وقدموا الالتماسات والشكاوى • ومع هذا فانهم ما لبثوا حتى هدأت نفوسهم عندما اكتشفت الحكومة مكان اختفاء الأرملة صاحبة هذه القضية هى وطفليها فى أحد الأديرة • وقامت الشرطة بالقبض عليها ، وأعيدت الى قريتها ، حيث وافقت على العودة الى الاسلام ثانية (٣٤) •

ومن المؤكد أن مشاعر الغضب العامة استثيرت بمثل هذه الأحداث ، ولكن الطريقة التى تناول بها زعماء المسلمين تلك الوقائع ، والتى ربطوا بها هموما أخرى (مثل الشكاوى حول الضرائب وغير ذلك) ، تدل على وجود استراتيجية سياسية لديهم فهى ليست وليدة التعصب الأعمى • والأمر كما تعبر عنه دراسة تفصيلية حديثة لتلك الأحداث يتلخص فى التالى : « ان النشطاء المسلمين حرصوا على ستر أهدافهم فى ثوب الاخلاص الدينى ، ولكن غرضهم الحقيقى انما هو الاحتفاظ بقوتهم وسلطانهم أو حتى زيادتها » (٣٥) • فقد شهدت العقود الثلاثة الأولى للحكم النمسوى المجرى تنافسا على السلطة ، بين النخبة الممتازة المسلمة التى اكتسبت القوة والنفوذ عن طريق التعاون مع الحكومة ، وبين زعماء المسلمين الأشد تصلبا فى كل من ترافنيك وموستار ، الذين اتخذوا موقفا معارضا متشددا ، وأخذوا يشوهون سمعة منافسيهم من أبناء سراييفو ، محاولين بذلك انتزاع السلطة منهم • (وفى تسعينيات الألف وثمانمئة ، زادت الصورة تعقيدا بظهور منافسات قوية بين مسلمى موستار أنفسهم أيضا) •

كانت أشد المسائل أهمية هى السيطرة على المؤسسات الخيرية الاسلامية • وكما أوضحنا فى الفصل الخامس ، كانت هذه المؤسسات المعروفة باسم الأوقاف تلعب دورا جوهريا فى المجتمع الاسلامى ، وتدعم بالمال شئون المساجد والمدارس ، والتكايا بل حتى الخانات والكبارى : وكان وضعها المالى يكاد يكون دعوة ضخمة الى اساءة استخدامها على طول القرون • اذ كان على المعطى الواهب أن يعين على ادارتها أولاده وأحفاده كنظار مدفوعى الأجر يتوارثون ذلك العمل الى أبد الآبدين ، وبذلك يخلق الواقع وديعة مالية عائلية تكاد تكون معفاة من الضرائب • وفى ١٨٧٨ قدر أن الثلث تقريبا من الأرض الصالحة للزراعة بالبوسنة كانت تملكها

الأوقاف • وكان من المبادىء الاساسية في الشريعة الاسلامية أنه متى حدث أن ملكية تحولت الى أرض وقف لم يجز اطلاقا ردها الى الملكية العادية • وكان من أوائل ما فعله النمسويون المجريون أن جمعوا القوانين العثمانية التى حاولت قديما تنظيم ادارات ونظارات الوقف وقضت بوضع حسابات جيدة التنظيم وما الى ذلك من معالجة وقاموا بنشرها وعلى ذلك أنشأوا لجنة للأوقاف فى ١٨٨٣ ، وعين فى عضويتها بعض وجوه الطائفة الأسلامية : فوضعت جميع الأوقاف الأهلية أى العائلية المحلية تحت سيطرة مركزية ، ورسمت لها ميزانيات مضبوطة ووضعت خطة لسياسة شاملة للبوسنة كلها من أجل توفير الأموال اللازمة للمساجد والمدارس • وقد أرتضى الجميع هذا كله ، باعتباره مصلحة عامة ولكن اللجنة خضعت لسيطرة الشخصيات الأكثر تعاونا مع الحكومة من مسلمى سراييفو ، فأصبحت من ثم موضع حقد وبغض من وجوه المسلمين فى المناطق الأخرى من الاقليم • وحتى عندما وسعت لجنة الأوقاف فى ١٨٩٤ ، لتضم ممثلين عن كل أرجاء البوسنة ، ظل تعيين هؤلاء الممثلين بيد

زعيمهم ذى العزم الشديد ملة مصطفى

(M ، هم الذين حولوا موضوع ادارة

خمة • فلقد تزعموا حملة لارسال

من الأنشطة ، خاصة وقد استفزهم تحول

• تمكنوا من الحيلولة دون صدور مشروع

باء « جمعية أوقاف » ذات استقلال ذاتى

التعيين الحكومى من أكبرها الى أصغرها

قائما على الجمعيات المحلية : فتقوم تلك

الجمعيات بتعيين أعضاء من جمعيات النواحى ، ثم ترسل جمعيات النواحى مندوبيها الى مجلس المقاطعة (٣٧) • وكان أول رد للحكومة على ذلك هو أنها أخذت تعامل هؤلاء المسلمين بوصفهم مثيرين خطرين للشغب ، ثم أغلقت النادى الذى كان مركز أنشطتهم • وعندئذ بدأ زعماء موستار فى حشد الانصار بكل أرجاء الهرسك والبوسنة أيضا • وباستخدام السلطة المعنوية لجابيتش وطاقات المهيجين الحركيين الأصغر سنا مثل شريف أرناؤوطوفيتش (Sherif Arnautović) كونوا تنظيما شمل القطر كله ـ كان فى الواقع حزبا سياسيا فى طور جنين ـ فى مدى سنة ، وعقدوا جمعية لزعماء البوسنة المسلمين بفندق بمدينة بودابست فى صيف ١٩٠٠ • وبذلك بدءوا عملية مطولة من الدعوة للتمرد والمفاوضات ، وأخذت السلطات تسعى تارة الى ارضائهم وتارة للصلح معهم وتارة أخرى لبث الفرقة بينهم وتارة ثالثة لقمع المشاغبين منهم (٣٨) •

وكان هذا النجاح للنشطاء المسلمين ، موضع سخط شديد من الرجل المسئول عن شئون البوسنة في ذلك الزمان ، وهو بنيامين كاللاى ، وهو المؤرخ والدبلوماسى السابق ، الذى تولى وظيفة وزير المالية المشترك من ١٨٨٢ - ١٩٠٣ . وكانت لكاللاى سياسة بوسنية عامة ، تنحصر في عزل البوسنة عن الحركات السياسية القومية بكل من صربيا وكرواتيا ، وتطوير الفكرة الداعية الى قيام القومية البوسنية كعامل منفصل وداع الى توحيد الصف . والواقع أن الأتراك استخدموا فى قديم الزمان مصطلحا معناه : « البوسنيون » ، وهو بوسنياكلر (Bosniaklar) للاشارة الى كل من كان يسكن البوسنة من الناس ولكن باللغة الصربوكرواتية ، كان الشعب الوحيد الذى كان يسمى نفسه حسب المأثور التقليدى باسم « البوسنيين » (بوشنياق) هو المسلمين البوسنيين (٣٩) ؛ (وكان الكاثوليك يطلقون على أنفسهم اسم « لاتينيزى » أى اللاتينيين ، أو الكريستيشيانى Krisćjani ، وهى كلمة تدل على المسيحيين - ولا يجوز أن تختلط مع كلمة « كريستيانى » Krstjeni الشائعة فى العصور الوسطى - كما أن الأرثوذكس أسموا أنفسهم « فلاسى » أى الأفلاق ، أو « هرشيانى Hrsćiani » ، وهى كلمة أخرى معناها المسيحيون) . وكان كاللاى يأمل أن يبسط مصطلح « بوسنى » على الناس من جميع الطوائف الدينية ، وكان من الضرورى لأهدافه أن يتقبل المسلمون أولا فكرة القومية . اذ كان يعرف أن خير الفرص المتاحة له كانت بين أيديهم ، وذلك لأنهم على عكس الكاثوليك والأرثوذكس ، لم يكن لهم أية قوى خارجية تدعمهم ويستطيعون التطلع اليها خارج الحدود البوسنية ، وكان من الواضح أنه لو حدث وطوروا شخصيتهم وهويتهم الخاصة المنفصلة بدلا من ذلك فسيخفق مشروعه بأكمله .

ونجح كاللاى نجاحا تاما مع مسلمى سراييفو الأكثر تعاونا ، الذين رأوا فى خط الفكر هذا استمرارا طبيعيا لسعيهم السابق للحصول على الحكم الذاتى في عهد العثمانيين . وأسس زعيمهم ، وهو عمدة مبرز سابق لسراييفو ، اسمه محمد بك كابيتانوفيتش (Mehmed-beg Kapetanović) ، صحيفة يومية فى ١٨٩١ تسمى « بوشنياق Bošnjak » ومعناها « البوسنى » . ومع أنها كانت تخاطب القراء من كل الأنواع ، فانها كانت فى جوهرها صحيفة اسلامية وكانت تهاجم النزعات المحافظة بين رجال الدين المسلمين ، كما حاولت أن تدرأ محاولات القوميين الكروات والصربيين الذين زعموا أن مسلمى البوسنة كانوا فى « الحقيقة » كرواتا أو صربا . وأعلنت هذه الصحيفة أنه « بينما كان

الكروات يجادلون بأن الأرثوذكس هم أعظم أعدائهم وأن عالم الصربية هو نفسه الأرثوذكسية ، أخذ الصرب ينسجون تاريخا زائفا ، ضربوا فيه صفة الصربية على العالم كله » • ومرة أخرى صرحت : « لن ننكر أننا ننتسب إلى العائلة السلافية الجنوبية • على أننا مع ذلك سنظل بوسنيين مثل آبائنا ، ولا شيء غير ذلك » (٤٠) •

وما كان ليبدو في عيني أحد أن مشروع كاللاى سخيف وغير مجد عندما ينظر فحسب الى تاريخ البوسنة قبل الاحتلال النمساوى المجرى بجيل أو أكثر قليلا • وكما رأينا ، فان الكاثوليك والأرثوذكس بالبوسنة احتفظوا طويلا بروابطهما الدينية مع الكروات والصرب • فأما في أثناء القرون العثمانية ، فقد كانت هناك عدة هويات دينية في البوسنة ، وكان بالامكان أن تكون لهذه الهويات فعلا معان ومضمونات سياسية : اذ كان كثير من الكاثوليك البوسنيين يشخصون بأبصارهم الى الأراضى خارج الحدود الكرواتية والدالماشية ، التماسا للعون بل حتى التحرير • غير أن ذلك كان شأنا من شئون الدين وليس من شئون القومية • فقد كان هؤلاء الكاثوليك يتطلعون بأبصارهم الى النمسا الكاثوليكية أو الى البندقية الكاثوليكية أو الى كاثوليك آخرين الذين يتصادف أنهم كانوا من الكروات ، ولم يكونوا ينظرون الى أمة الكروات بوصفها ذاك • ولم يحدث الا في منتصف القرن التاسع عشر فقط على أبكر تقدير ، أن بدأت الفكرة العصرية للقومية في الانتشار من كرواتيا وصربيا الى كاثوليك البوسنة وأرثوذكسها • ومن بين المعايير الثلاثة الأساسية التى كانت الأمتان الصربية والكرواتية تؤسسان وتميزان نفسيهما عليها أثناء تلك الفترة — وهى التاريخ واللغة والدين — لم يكن هناك الا عامل واحد ينطبق على البوسنة هو عامل الدين ، حيث انها قطر كان له تاريخه الخاص المنفصل ، وفيها كانت الخطوط الكفافية (الكنتورية) للخريطة اللغوية تقطع وتعبر جميع الحدود الدينية ؛ ولم يحدث البتة أن كانت هناك أسباب اجتماعية ولا اقتصادية للكراهية مع الأرثوذكس والكاثوليك بأرض البوسنة ، كما أن الأسباب التى كانت قائمة للعداوة مع المسلمين قد أزالها الحكم النمساوى المجرى الى حد جزئى • وهذا كاتب انجليزى يعلق في ١٨٧٩ على موقف المسيحيين من المسلمين في البوسنة :

« من العجيب أنهم يحملون مثل هذا القدر القليل من الكراهية نحو جلاديهم السابقين ، وربما كان تفسير ذلك أنهم كانوا جميعا أبناء جنس واحد • فمهما يكن السبب ، فانه يؤيد تأييدا تاما الرأى الذى خرج به كل من درسوا تلك

البلاد في الأزمان التركية .. ومفاده أن الحالة التعسة الأليمة التي كان عليها السكان ، انما تعود الى أسباب زراعية أكثر منها دينية . وأنه لو أمكن ازالة هذه الأســـباب لانقشــع بالتدريج الاحساس السيء الذي خلقته تلك الأسباب»(٤١) .

فلو أن كاللاى قدر له بشكل ما أن يعزل البوســنيين الأرثوذكس والكاثوليك عن التطورات السياسية الثقافيــة الموجــودة في الأراضي المجاورة ، فلربما أمكن لسياسته أن تجد لنفسها فرصة ، ولكن مثل هذا العزل المطلق التام ، كان مستحيلا . وبينما كانت القوميـــة الصربيـــة والكرواتية تنتشر بين صفوف البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس من خلال هذه الشبكات من القسس والمدرســين والمتعلمين من قراء الصحف ، التي ساعد الاحتلال النمسوى المجرى على انشائها ، أصبحت مشروعات كاللاى البوسنوية المتميزة مقدرا عليها الفشــل أكثر فأكثر . حتى اذا حلت سنة ١٩٠٨ ، اذ مراقب نافذ البصيرة هو عضو البرلمان النمساوى يوزيف بيرنرايتر (Josef Baernreither) ، يعلن على رؤوس الاشهاد « موتها » (٤٢) .

وفي نفس الحين ، فانه خارج الحدود البوسنية ، كان غباء السياسة النمساوية المجرية يشعل نار القومية الكرواتية والصربية ويزيدها أوارا سنة بعد سنة . واتبع الحاكم المجــرى لكرواتيــا سياسة متعمدة من اثارة العداء بين الكرواتيين والصرب ، باتخــاذ اجراءات وتدابير سخيفة لا ضرورة لها مثل اصداره قرارا بضرورة أن يتكلم جميع عمال السكك الحديدية في كرواتيا اللغة المجرية . وتدهورت العلاقات بين الحكومة الثنائية الملكية وبين صربيا ، كما أنه نظرا لأن تجارة الصرب كانت تعتمد اعتمادا قاطعا على النمســا والمجر ، فان ذلك لم يزد الصربيين الا تململا وضيقا من سيادة آل هابسبرج وتسلطهم على المنطقة . وعندما حاولت صربيا أن تجد لنفسها مخارج لتجارتها في أماكن أخرى في ١٩٠٦ ، انتقم منها النمساويون المجريون بفرض رسوم تأديبية على الصادرات الصربية الرئيســية : وهي الخنازير . (وهذه العقوبة التي ســـميت « بحــرب الخنازير » كان من شأنها شأن غيرها من العقوبات التجارية في التاريخ الحديث ، أن شــجعت بالفعل على تطوير المزيد من المنافذ التجــارية) . وكانت العلاقات بين الدولتين في تلك الآونة مفرطة المرارة . فشرع وزير خارجية النمسا والمجــر ، وهو البارون فون أرنتــال (Baron Von Aehrenthal) ، ينظر جديا في الاستيلاء على صربيا في خاتمة المطاف ، كما أن رأى سلطات النمسا والمجر في البوسنة كان يؤيد بسط حدود الامبراطورية الى سالونيكا أيضا : اذ بينما اديث درهام تســـافر بأرض

البوسنة فى ١٩٠٦ ، لاحظت أن النمساويين كانوا تواقين الى تقوية مركزهم فى البوسنة بجهد الطاقة ، بحيث يكونون مستعدين للزحف الى الأمام : « فان عبارة نحو سالونيكا ، أصبحت موضوع حديث محبب اليهم جميعا » (٤٣) ·

وفى هذا الجو والسياق ، قر القرار على تغيير الوضع القانونى للبوسنة ، من أرض عثمانية محتلة الى أرض مستلحقة بصورة كاملة بالامبراطورية النمساوية المجرية · وكان الذى عجل بتلك الحركة الى الظهور هو ثورة تركيا الفتاة فى ١٩٠٨ ، وبدت الثورة وكأنما ستخلق نظاما فى اسطنبول ربما طالب ـ ولا اثم عليه ـ باسترجاع حقوق تركيا على البوسنة ، وذلك بمنح البوسنيين دستورا أكثر ديمقراطية من الذى ينعمون به فى ظل الحكم النمسوى المجرى · وتصرف البارون فون أرنتال بسرعة ، حيث أعلن استلحاق البوسنة بالكامل الى النمسا فى ٥ أكتوبر ١٩٠٨ · وأدى ذلك الى ثورة الرأى العام فى صربيا : اذ أحس القوميون هناك أن أرض البوسنة قد خطفت من قبضتهم ظلما وعدوانا بعد أن باتوا قاب قوسين أو أدنى من هدفهم ونظمت مظاهرات ضخمة فى بلجراد ، وأنشئت بعد ذلك جمعيتان سريتان لعمل حملة لتوحيد الكتلة الصربية : وهما على التوالى ناورودنا أودبرانا (Narodna Odbrana) ومعناها «الدفاع الوطنى» ، وأيدينى ايلى سمرت (Jjedjenje ili Smrt) ومعناها « الوحدة أو الموت » ، وهى المعروفة أيضا باسم كرنا روكا (Crna Ruka) أى « اليد السوداء » · ولم يبلغ عام ١٩٠٨ نهايته حتى كانت هناك فروع كثيرة لجمعية « ناورودنا أودبرانا » بأرض البوسنة (٤٤)· ولم يمنع صربيا من اعلان الحرب على النمسا والمجر الا تدخل وزير خارجية روسيا ايزفولسكى (Izvolski) الذى كان يشعر بالألم الشديد لأن فون أرنتال خدعهم ، ولكنه مع ذلك نصح بلجراد بأنه : « يجب أن تظل صربيا ساكنة ، وألا تفعل شيئا يمكن أن يستنفر النمسا ويزودها بفرصة تقضى فيها على صربيا قضاء مبرما » (٤٥) · وما لبثت الحكومتان النمساوية المجرية والتركية حتى وصلتا فى نهاية المطاف الى اتفاقية عقدت فى فبراير ١٩٠٩ ، وبمقتضاها تصبح للحكومة الأولى الحقوق الكاملة على البوسنة وأن تنسحب من سنجقية نوفى بازار ، وأن تضمن حرية العبادة كاملة للمسلمين البوسنيين ، وتدفع لاسطنبول مليونين وخمسمئة ألف جنيه تركى ، ومع ذلك فان الأزمة السياسية ظلت تدوى شهورا عديدة بعد ذلك (٤٦) · وهنا يتبين أن التفاعل الذى أحدثه تنافس الدول الكبرى على وطنية الولايات البلقانية والذى كشفت عنه هذه الحادثة ، كان نذير شؤم ينذر بأحداث أغسطس ١٩١٤ ·

ولكن الأثر الأعظم الذى أحدثه الاستلحاق فى حيـاة البوسنة الداخلية ، كان أثرا كبير النفع لها والحق يقال • اذ شعرت السلطات فى كل من فيينا وبودابست باحـكام قبضتهما على البوسنة ، وأصبحت من ثم أشد رغبة فى السـماح بقيام حيـاة سياسية فى داخلها • وفى ظل وزير المالية المشترك المتحرر الفكر ، البارون بوريان Baron Burian (الذى ظل يشـغل هذا المنصب من ١٩٠٣ حتى ١٩١٢) ، حصلت البوسـنة على تنـازلات ضـخمة : فمنح المسلمون أولا نظام ادارة الأوقاف الذى طالما طالبوا به ، ثم فى السنة التالية ، انتخب برلمان بوسنى • نعم ، انه كان مؤسسا على نظام اقتراع محدود ، كما لم تكن له أية قوة تشريعية مباشرة ، ولكنه مكن بالفعل المنظمات التى أقامتها المجتمعات المحلية ، فى السنوات الأخيرة ـ مثل المنظمة الوطنية الاسلامية (١٩٠٦) ، والمنظمة الوطنية الصربية (١٩٠٧) ، والجمعية الوطنية الكرواتية (١٩٠٨) ـ أن تبدأ العمل بوصفها أحزابا سياسية حقا (٤٧) •

وبذلك أتيح للنخبـه الممتازة من المتعلمين والأثرياء فى كل طائفة من هذه الطوائف أن تلعب دورا نشيطا فى هذه الأحزاب بطبيعة الحال • وهذه الحقيقة تساعد على تفسير السبب الذى من أجله لم يقم الحزبان المسيحيان الرئيسيان بأية حملة شرسـة لاصـلاح نظام ملكية الأراضى الزراعية - وذلك رغم أن معظم النـاس الذين كانـوا حينئذ يدعون أنهم يمثلونهـم ، كانوا من الفلاحين • وكانت هناك مسألة حسابيـة برلمانية لها وزنهـا أيضا : فعن طريق عدد أعضاء مجلس النواب الذى عكس بدقة تامة النسب العـامة بين السكان : (٣٧ أرثوذكس ، و ٢٩ مسلمون ، و ٢٣ كاثوليك وواحد من يهود) ، لم تكن أى من الطائفتين المسيحيتين تستطيع أن تسيطر منفردة ، ولذا فانهـم سرعان ما وجـدوا أنفسهم مضطرين الى التنافس على التماس تعـاون المسلمين معهم (٤٨) • وفى ١٩١١ فاز الكاثوليك فى المنافسة وكونوا اتفاقا مع الزعماء المسلمين ، الذين كانوا يرون أن احتمال قيام الكاثوليك بمساندة الاصلاح الزراعى أبعد منه لدى غيرهم •

ولم يكن هذا التدليل الذى يلقاه المسلمون الا مجرد جانب من عملية تدليل فكرية وثقافية كانت مستمرة مدة عشر سنوات على الأقل ، حيث كان كل طرف من الأطراف يحـاول أن يركز فى الأذهان أن مسلمى البوسنة كانوا كرواتا « أقحاحا » أو صربا « أقحاحا » • وفى أثناء معظم هذه المدة ، أصاب الكروات نجاحا أكبر من حيث تطبيع الهوية الثقافية ، وبخاصة مع أصحاب العقول النابهة من المسلمين ، الذين قضوا ردحا من الزمان فى زغرب ، أو فى جامعات أخرى نمساوية مجـرية من التى يتردد عليهـا

الكروات · وكانت أكبر الجمعيات الثقافية شأنا فى سراييفو ، بل الأولى فيهن جميعا ، وهى « النجايرت » (Gajret) ، وقد أسست فى سنة ١٩٠٣) ، يتسلط عليها فى سنيها الأولى ، كتاب من أصحاب النزعة الكرواتية مثل الشاعر والمؤلف صفوت بك باشاجيتش (Safvet-beg Basagić) (٤٩) · ولكن فى الحين نفسه كان هناك قدر أكبر من التعاون السياسى ، وان جاء على شكل فضفاض غير رسمى ، بين زعماء المسلمين والصربيين فى السنوات التى سبقت تكوين البرلمان · وقام الصربيون بحملتهم الخاصة هم أيضا ، يقودهم مناضل آخر من موتسار هو فويسلاف شولا (Voislav Šola) ، وكان يطالب بانشاء هيئة دينية تكون أكثر استقلالا ذاتيا ، وقد أرسلوا كذلك وفدهم لكى يؤازر المسلمين سياسيا فى بودابست فى عام ١٩٠٠ ، بل وعقدوا مؤتمرا ثقافيا مشتركا بينهم جميعا فى السنة التالية (٥٠) · لقد كانت هذه الجوانب الثلاثة جميعا تقوم بلعبة دقيقة من الانتهازية السياسية ، وكانت عملية الانحياز بينها مائعة دائما · ومع أن بعض البارزين من المفكرين الاسلاميين « أعلنوا » أنفسهم صربيين أو كرواتا ، فان هذه الأعمال الفردية لم تقوض بأية حال · المركز العام للمسلمين ، الذين ترسخت أقدامهم وتدعمت أركانهم فى كتلة سياسية متميزة أى (كيان خاص) · والأمر كما لخصه روبرت دونيا (Robert Donie) الخبير الأول فى تاريخ تلك المدة : « أن هذه الاعلانات كانت فى معظم أمرها تكتيكية وسياسية فى طبيعتها ، وكان بعض المسلمين يتنقلون من معسكر لآخر تبعا لاختلاف المناسبات · ولو لجأنا الى التعبير عن الوضع ببساطة لقلنا ان قيام هوية اسلامية منفصلة كان فكرة بالغة التقدم بحيث لا يستطيع بسهولة أى مسلم ذى شأن أن يتخلى عنه » (٥١) ·

ولسنا نستطيع أن نعلم الا على سبيل الظن ما الذى كان سيحدث لو تركت هذه الترتيبات العقائدية والحزبية فى مسارها ، لكن ذلك لم يكن مقدرا له أن يكون ، اذ كان اختمار الوطنية الصربية الذى أثير بعد ضم البوسنة الى النمسا والمجر ،قد أخذ ينتشر بين قطاعات أخرى من السكان البوسنيين الأرثوذكس — أو على الأقل بين فئة قليلة من مئات تلاميذ المدارس وطلابها · وكان الشعور المضاد للنمسا والمجر آخذا فى النمو فى كرواتيا أيضا ، وفى المدة ما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ كان آخذا بصورة متزايدة فى التحول الى شكل من التعاون مع الصربيين فى عملية انشاء دولة سلافية جنوبية مشتركة · ويتجسد ذلك فى الاسم المعقد لمنظمة من الطلبة كانت تعمل فى جامعات خارج البوسنة ويرأسها الكاتب البوسنى الشاب ايفو أندريتش ، اذ كانت تسمى نفسها « حركة الشباب التقدمية

الصربوكرواتية أو الكرواتوصربيـــة أو اليوغوسلافية » (٥٢) · وشرع الطلبة الصربيون فى داخـل البوسنة يغيرون سريعا موقفهم بعد ١٩١٠ من النزعة الصربيــة الضيقة الى المطالبــة بدولة يوغوسـلافية · وهناك تجمع هش من تلاميذ المدارس وطلبتها يسمى « جمعية البوسـنة الفتاة » (Mlada bosna) ، التى اتخذت لنفسـها هذا الاتجاه الذى كان أبسط موقف مشترك يستطيع أن يتحد عليه جميع « أعداء آل هابسبرج »، وبذلك أصبح الانضمام الى عضويته يمكن أن يضم الكروات بل حتى بعض المسلمين أيضا (٥٣) · والأمر كما عبر عنه أشهر أعضاء جمعية البوسنة الفتاة أثناء محاكمته في ١٩١٤، وهو جافريلو برنسيب (Gavrilo Princip) « انني وطني يوغوسلافي ، أهدف الى توحيد جميع اليوغوسلاف في وحدة متراصة ، ولا يهمني أى نوع من الدولة يتمخض عنه الأمر ما دام يكون خاليا من النمسويين » (٥٤) ·

ولقد عالج الكتاب الشيء الكثير من جوانب الفلسـفة السياسـية لهؤلاء « البسطاء » الشبان ، ولعلهـم أسرفوا فيما كتبوا فلم يكن هؤلاء الصبية ، الذين لم ينالوا قسطا وافرا من التعليم الجيد ، من الفلاسـفة ولكنهم كانوا ضد رجال الدين وعارضوهم بشدة وكانوا يريدون الثورة الاجتماعيــة ، بالضبط بنفس قدر ما يريدون من التحـرر الوطنى ، وكانوا شديدي التهافت على كتابات الفوضـويين أو الفوضـــويين الاشتراكيين ، من أمثال باكونين (Bakunin) وهرتســـن (Herzen) وكربوتكين (Kropotkin) ، وكانوا فوق كل شيء يبتغون أن يصبحوا أبطالا · وكان الأول الرائد بين عدد متعاقب من هؤلاء الذين اتجهـوا الى عمليات الاغتيال السياسي ، طالب من الهرسك يسمى بوجدان جيراييتش (Bogdan Žjerajić)، الذى ذهب الى سراييفو يـوم افتتـاح البرلمان البوسنى الجديد فى ١٩١٠ ، وهنـــاك أطلق خمس طلقات على الحاكم العسكرى ، وهو يغادر الموكب ، فلما رأى أنه أخطـــأ التصويب فى كل واحدة منها ، أطلق السادسة على رأسه حتى ينتحر (٥٥) · وفي صيف ١٩١٢ حاول لوكا يوكيتش (Luka Jukić) وهو بوســنى كرواتى أن يغتال الحاكم العام لكرواتيا فى زغرب وقبل ذلك بقليـــل من نفس السنة ساعد يوكيتش فى تنظيم مظاهرات احتجاج من تلامذة المدارس فى سراييفو ، بالاشتراك مع جافريلو برنسيب وعدد كبير مــن الشـــبان ، ممن أصبحوا فيما بعد مشتركين فيما يعده برنسيب من خطط الاغتيال سى ١٩١٤ · وفي هذه المناسبة ، كما دون أحد هؤلاء في مفكرته ، « كان برنسيب ينتقل من فصل مدرسى الى آخر وهو يتهدد ، بقبضة من الحديد ،

جميع الأولاد الذين كانـــوا يترددون في الاشتراك في تلك المظاهــرات الجديدة (٥٦) .

ولم يكن ما اجتلب الناس الى الشـــوارع فيما بعد في ١٩١٢ هو القبضة الحديدية لبرنسيب ، وانما هو الأحداث الدرامية التى حدثت فى شرق البوســنة وجنوبها . ففى أكتـوبر أعلنت الجبل الأسود وصربيا الحرب على تركيا ، وبمساعدة بلغاريا واليونان تمكنوا من طرد الترك من سنجقية نوفى بازار وكوســوفو ومقدونيا . وقد أدت السرعة والحجم الضخم لانتصارات الصرب والجبل الأسود في هذه الحرب البلقانية الأولى، الى ظهور موجة عظيمة من المشاعر بين النشطاء المناوئين لآل هابسبرج بكل من البوسنة وكرواتيا . حيث اندفـــع عدد كبير من أعضـــاء جمعيـــة « البوسنة الفتاة » للعمل متطوعين مع القوات الصربية ، ومن عجب أنه من بينهم بعض الصبيان المسلمين (٥٧) . ولعلهم لم يكونوا يعلمون ، أو حتى يهتمون ، بأن الصربيين وحلفاءهم كانوا يذبحون القرويين الألبان المسلمين ، مما جعل عشرات الآلاف من المسلمين الســلاف يفرون من مقدونيا ، وأوقـــع المسلمين الناطقين بالبلغـــارية تحت طائلة التحويل الاجبارى الى المسيحية (٥٨) .

وبلغ الأمر انه عند حلول ربيع ١٩١٣ كانت العلاقات بين النمســا والمجر ، وصربيا بالغة التوتر ، خاصة وأن الفتوح الصربيـــة أوشكت أن تضاعف من حجم رقعتها ، ولو كانت اســتولت على جزء من الســاحل الألبانى أيضا (وهو أمر كانت تنتويه بالفعل) ، لكانت قد تسببت فى وقوع تهديد استراتيجى للنمسا والمجر فى البحر الأدرياتيكى . ومع ظهور ظرف تبـدو فيه الحرب وشـــيكة الوقوع بين الدولتين ، فان الحاكم العسكرى للبوســـنة ، وهو الجنرال بوتيوريك (Potiorek) ، طبق خطة أمن عنيفة . فأعلن حالة الطوارىء فى ٢ مايـو ، وحـــل البرلمان ، وأوقف المحاكم المدنية عن العمـــل ، وأمر باغــلاق كثير من الجمعيات الصربية ، ووضع تحت تصرفه جميع المدارس البوسنية (٥٩) . ومضت تلك الأزمة المباشرة الى خاتمتها عندما انتهت الحرب البلقانيـــة الأولى بمعاهدة لندن فى الثلاثين من مايو ، ثم اشتعلت نار الحرب بعد ذلك بين الحلفاء المنتصرين ، فى الحرب البلقانية « الثانية » فى شهرى يونيو ويوليو . غير أن سياسة الجنرال بوتيوريك البالغة الشدة ، كانت رسخت جذورها الآن فى البوســـنة ، فان الوزير المشترك للماليـــة ليون فون بيلينسكى Leon Von Bilinski (وهو الذى تقلد الوزارة بعد بوريان فى ١٩١٢) ، كان يفضل سياسة مرنة أكثر ، بدفع الجماعات البوسنية

احداها ضد الأخرى ، والاستفادة من الطفات الصربية التجارية والمهنية ، ولكن سياسة بوتيوريك المناوئة للصرب، كانت لها الغلبة (٦٠) ٠

وبذلك تهيأ المسرح لمناورات الصيف الكبرى للجيش النمساوى المجرى فى البوسنة فى ١٩١٤ ، التى كان من المقرر أن يشهدها الأرشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد العرش الهابسبرجى والمفتش العام للقوات العسكرية للامبراطورية ٠ وكان من الحماقة البالغة أن زيارته لسراييفو حدد لها اليوم الثامن والعشرون من يونيو ، وهو العيد السنوى لمعركة كوسوفو ، ومن ثم فهو أشد الأيام قداسة فى التقويم الروحى للوطنية الصربية ٠ واتباعا لخط سير نشر فى اليوم السابق فى صحيفة البوسنة « بوسنيشى بوست Böshische Post » ، مرت عربات الليموزين بموكبة على ما لا يقل عن ٦ من أعضاء جمعية « البوسنة الفتاة » المسلحين بالقنابل والمسدسات الذين كانوا يضمرون اغتياله ٠ وأخفق خمسة لكن أحدهم وهو نيديليكو تشابرينوفيتش (Nedeljko Tchabrinovic) ألقى قنبلة انفجرت خلف سيارة الأرشيدوق وجرحت من كان فى السيارة التى خلفه ٠ وعندئذ اتخذ جابريلو برنسيب موقعا آخر لنفسه فى مكان متقدم من خط السير الرسمى المقرر لليوم عند منعطف شارع فرانز جوزيف ٠ وفى الوقت نفسه كان الأرشيدوق قد قرر أن يغير الطريق ، لأنه شاء أن يذهب رأسا الى المستشفى لزيارة الضباط المصابين ، ولكن أحدا لم يبلغ سائقه بذلك ، فعرج السائق بالسيارة الى شارع فرانز جوزيف وفقا للخطة المرسومة ، وأمره الجنرال بوتيوريك بالتوقف والعودة ٠ وهكذا عاد بالسيارة الى الخلف ببطء أمام الموقع الذى كان برنسيب واقفا فيه بالضبط ٠ وقال برنسيب لوكيل النيابة الذى تولى التحقيق : « لا أدرى أين صوبت مسدسى ، ولكنى أعرف أنى كنت أصوب المسدس نحو ولى العهد ، وأعتقد أنى أطلقت النار مرتين ، ولعلى أطلقتها أكثر من ذلك ، وذلك بأنى كنت منفعلا جدا ٠ وسواء أصبت الضحايا أم لم أصب ، فذلك شأن لا أستطيع أن أقوله لأن الناس انهالوا فورا على بالضرب » (٦١) ٠ وتوفى كل من الأرشيدوق وزوجته الدوقة هوهنبرج ببطء متأثرين بجراحهما ٠ وبعد شهر واحد بالضبط ، أعلنت النمسا والمجر الحرب على صربيا ٠

الفصل الثاني عشر

الحرب والمملكة : البوسنة ١٩١٤ ـ ١٩٤١

لايزال المؤرخون مختلفين هل كان وراء السبب في ذلك الاغتيال هو القومية الصربية أو اليوغوسلافيـــة ، أم الجمعيات الصربيـــة السرية ، أم كان مبادرة محلية صرفة ؟ ولكن كثيرا من البوسـنيين سرعان ما حددوا من هو الملوم : ففي مساء اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ ، حدثت اضطرابات مضادة للصرب في سراييفو ، صحبها تدمير الدكاكين والبيوت التي يملكها الصربيون . وعندئذ صرح رئيس العلماء الشيخ جمال الدين شوشيفيتش (Gjemaludin Tchaushevic) معلنا استياءه من هذا الاجرام المـــدبر الذي راح ضحيته الأبرياء ، ووضـــع بعض الصربيين تحت حمايته (١) . وكذلك أيضا شعر بعض الزعماء الصرب البوسنيين أن هناك حملا من الآثام الصربية لابد من تقديم الغفران عنه وعندما بدأت الحرب قدموا التماسا الى السلطات أن تســـمح لهم بالذهاب رأسا الى الخط الأمامي ضـــد صربيا ، وأن يبدوا ولاءهم للامبراطور (٢) . وهناك حقيقة تبـــدو دلالتها واضـــحة ، وهي أن معظـــم المتآمرين كانـــوا من الصرب البوسنيين ، وعندما ظهر في النهاية أن الفاعلين الرئيسيين وهما برنسيب وتشابرينوفيتش تلقيا دراستهما في بلجـــراد ، وحصلا على قنابلهما منها وعبرا بها الحدود الى داخل البوسنة ، بدا الاتهام دامغا وقاطعا . ومن الواضح أنهما تلقيا بالفعل شيئا من المعونة من عميـــل لمنظمة « الدفاع الوطني » الصربية (النارودنا أودبرانا) ، كان يعمل في خدمة الكولونيل أبيس (Apis) رئيس ادارة المخابرات الصربيـــة (٣) . والنظريات لاتزال تتضارب حول مدى اشتراك أبيس في المســـألة وحول دوافعـــه السياسية الممكنة ، ولكن الفكرة الذاهبة الى أن الحكومة الصربية كانت هي التي دبرت للاغتيال ، قول يمكن رفضه بكل حزم .

وبلغ الأمر أنه حتى الحكومة النمســـاوية المجرية نفسها لم تحمل الصرب المسئولية المباشرة عما حدث . وذلك لأن الانذار النهائي الصادر

في ٢٣ يوليو لم يشك الا من مجرد أن الحكومة الصربية « تسامحت ازاء مؤامرات جمعيات ومنظمات عدة معادية للنظـــام الملكي ، واللغـــة غير المهذبة التي تستخدمها الصـــحافة ، وتمجيد المحرضـــين على العنف ، ومشاركة الضباط والموظفين في الحركات الهدامة » ، ــ وكلهـــا حقيقيـــة تماما في جوهرها • وقد قبلت صربيا جميع المطالب العشرة التي قدمت اليها لانهاء هذه النشاطات الا واحدا فقط ، كان يتطلب حضور مندوبين نمساويين مجريين من محققين أو رجال شرطة وتوليهم تحقيقهم على الأرض الصربية (٤) • وكان هذا الاعتراض على نقطة واحـــدة سببا كافيا لهؤلاء السياســـيين في بودابست وفيينا وبرلين ــ وعلى الأخص برلين ــ الذين كانوا يريدون الحرب • واعتاد المؤرخون أن يكتبوا ما يشاءون كأنمـــا الحرب تسبب فيها شيء غير شخصي يسمى « النظـــام الدولي » ، ولكن الحقيقة المتفق عليها بين الناس عامة هي أن ألمانيا كانت تدفع الأمور دفعا شديدا نحو الحرب ، لكي تضع حدا حاسما لقوة روسيا المتزايدة (٥) • أما النمساويون المجريون فكانوا أكثر ترددا ، حيث كانوا يخشون تدخل روسيا (بوصفها حامية صربيـــا) بقدر ما كان الألمان يسعون الى ذلك • ومع أنه كان بين وزراء الحكومة النمســـاوية المجـــرية من كان يرغب في اتخاذ اجـــراءات تأديبية نحو صربيـــا ، فانهم لم تكن لديهم خطط جديدة لزيادة الرقعة الأرضية في بلاد البلقـــان : بل على العكس فان الوزيـــر المجرى تيستسا (Tisza) ، أصر (بسبب الخوف المجـــرى القديم من زيادة عدد السلافيين أكثر مما ينغى على أرضـــها) على أنه لا ينبغي ، بأية حال ضم أية أرض صربية • فحتى عندما فكرت حكومة النمسا والمجر في شن الحرب على صربيـــا في ١٩٠٦ و ١٩١٣ ، فانهـــا لم تعرف قط معرفة يقين ماذا تفعل بتلك البلاد لو أنها فتحتها • ذلك بينما كان واضـــحا أن صربيا كانت تريد فعلا الاستحواذ على اقليم البوسنة ، رغم أنها لم تتصور يوما أنها تستطيع أن تنتصر في حرب حاسمة على الامبراطورية النمساوية المجرية • ولو أنك أنعمت النظر في صميم هذا النزاع البلقاني المحلي ، لوجدت فيه أسبابا قوية لزرع العداوة ، لكنك لن تجد دوافع كافيـــة لشن الحرب • فلولا الضغط الألماني لما أثار حـــادث الاغتيال في سراييفو فيما يحتمل حتى ولو حربا بلقانية خطيرة الشأن ، ناهيك عن حرب تتورط فيها جميع القوى العالمية الكبرى •

قاتل الصربيون ببســـالة ، وكان كثير من الجنـــد الذين أرسلوا الى صربيا تحت قيادة الحاكم العسكرى للبوسنة ، وهو الجنرال بوتيوريك ، هم أنفسهم صربيين من البوسنة نفسها ومن المناطق الحدودية العسكرية بكرواتيا في السابق • وهنـــا ترى الأرثوذكس يقاتلون الأرثوذكس :

وكأنما هذه عودة إلى الأيام القديمة للحروب الهابسبرجية والعثمانية . ولكن كان من بين الجنود النمساويين المجريين كثير من المسلمين والكاثوليك أيضا والطائفة الأخيرة كان من ضمنها شاب صغير نصف كرواتي ونصف سلوفيني يدعى جوزيب بروز اشتهر فيما بعد باسم تيتو . وفي عام ١٩١٤ رد الجيش النمساوى المجرى على أعقابه مرتين عن الأراضى الصربية ، مع تكبد الطرفين خسائر جسيمة . وصمدت صربيا حتى أخريات صيف ١٩١٥ ، ثم حدث بعد ذلك هجوم جديد على الجيش الصربي بقيادة الجنرال الألماني فون ماكنسن (Von Mackensen) ودخلت بلغاريا الى ساحة الحرب الى جانب المانيا والنمسا ، وعندئذ أخذ يتراجع الجيش الصربي متجشما خسائر جسيمة في الأرواح عبر جبال شمال ألبانيا الساحل الأدرياتيكي ، وأما من بقى من ذلك التقهقر على قيد الحياة فقد كتب عليهم أن ينضموا الى جيش الحلفاء الذى قاتل فى سالونيكا ، ومن هنالك شقوا طريقهم حتى بلغوا مقدونيا وصربيا فى خريف ١٩١٨ ، معيدين فتح بلجراد في الأول من نوفمبر ، ثم متحركين الى داخل البوسنة والفويفودينا .

وكان بين صفوف الجيش الصربي متطوعون كثيرون من البوسنة وغيرها من الأراضى السلافية التابعة للنمسا والمجر . وكان من المعروف أن ما يقارب خمسة آلاف من البوسنيين انضموا الى « الفرقة الأولى للمتطوعين الصربيين » ، كما أنه كانت هناك ثلاث كتائب من المتطوعين من الهرسك فى جيش الجبل الأسود (٦) . ومن ثم فليس مما يدهش له أن السلطات بالبوسنة بقيادة بوتيوريك أولا ثم بقيادة خلفه البارون ساركوتيتش (Sarkotić) ، قامت ببعض العمليات شديدة الوطأة على الوطنيين الصرب وعلى « النشطاء » السياسيين وعلى غيرهم من المتعاطفين المتوقعين على القضية الصربية . وتم نقل صربيين من منطقة تخوم البوسنة الشرقية ، وأعيد توطينهم بغرب الاقليم ، وذلك تجنبا لنشاط الطابور الخامس . كما أن ما يصل بالتقريب الى خمسة آلاف عائلة صربية دفعوا عبر الحدود حتى دخلوا صربيا والجبل الأسود (٧) . وتعرض البعض للاعتقال ، اذ أن روائى المستقبل ايفو أندريتش مثلا ، الذى عاد الى البوسنة فى اليوم الذى سمع فيه بالاغتيال اعتقل يوم ٢٩ يوليو ، واحتجز فى عدد متعاقب من السجون بدالماشيا وسلوفينيا ، (وأخيرا وضع فى قيد من النفى الداخلى فى قرية قرب مسقط رأسه ترافنيك ، حتى صدر العفو العام عن مثل هذه الحالات فى ١٩١٧) (٨) . ولا أقل من ٣٣٠٠ ربما حوالى ٥٥٠٠ من أبناء البوسنة المشتبه فيهم ، ومعظمهم من الصربيين ، ظلوا محتجزين فى معسكرات اعتقال بكل من البوسنة

والمجر . والمظنون أنه مات عدد يتراوح بين ٧٠٠ و ٢٢٠٠ من المعتقلين هناك . وكانت وطأة الضغوط الشديدة على جمعية « البوسنة الفتاة » وغيرها من التجمعات الأخرى من تلامذة المدارس ، قاسية وعنيفة . وقدم ٢٤٣ فردا من هؤلاء الى المحاكمة فى ١٩١٥ . وفى أشهر هذه المحاكمات اسما ، وهى محاكمة قوم مرتبطين بحركة « الدفاع الوطنى » الصربية ، والتى عقدت فى بانيالوكا فى ١٩١٦ ، كان عدد المتهمين ١٥٦ متهما ، صدر حكم الاعدام فى خمسة عشر منهم ، وحكم بالأشغال الشاقة على ٨٦ (٩) . ولم تجد كثيرا هذه الأفعال الحكومة النمساوية ولا التجهد الحربى النمساوى المجرى كما كان متوقعا ، وان أكسبت الغايات الصربية ، قضية الوطنية اليوغوسلافية تعاطفا شديدا .

ومع ذلك فان غالبية البوسنيين ، مهما تكن شكوكهم فى الجو المحيط بهم ، ظلت موالية للدولة النمساوية المجرية . ومع أن بعض المسلمين انضموا فعلا متطوعين فى الجيش الصربى فان معظمهم لم تكن لديهم أدنى رغبة فى أن يروا صربيا تبتلع وطنهم بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ورغم أن زعماءهم رضوا من قبل أن يقيموا أحلافا تكتيكية مع الصرب البوسنيين أثناء السنوات الخمس عشرة السابقة على الحرب وذلك ابتغاء اكتساب تنازلات خاصة من الحكومة ، لكن التحالف مع صربيا كان أمرا مغايرا تماما (١٠) . أما الكروات البوسنيون فكان الخلاف بينهم أشد ، عاكسا اختلاف الرأى داخل كرواتيا نفسها . وهناك تحليل شائق يصف مركز الكروات البوسنيين ، ورد فى خطاب أرسله مدير المدرسة الكاثوليكية فى ترافنيك الى الحكومة النمساوية ، قال : « ان بعضهم كان يريد الانضمام الى صربيا ، بينما كان آخرون ضد ذلك على الاطلاق ، فأما الذين أرادوا الوحدة غير المشروطة مع صربيا ، فكانت غالبيتهم من بين المثقفين ، بل لقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أنهم كانوا على استعداد للتخلى عن كاثوليكيتهم : ذلك بأن ميولهم فى « التحرر من روما » كانت تتناغم وميولهم فى « التحرر من النمسا » (١١) .

ولو استعرضنا القادة السياسيين فى كرواتيا نفسها ، ومنهم من انضم الآن الى « لجنة يوغوسلافية » فى المنفى ، ما وجدنا فيهم أحدا يتصور أن الدخول فى الأرثوذكسية يمكن أن يكون ثمنا للاتحاد مع صربيا ، فقد كانوا يريدون الاحتفاظ بهوية كرواتيا المميزة داخل نطاق دولة يوغوسلافية مستقبلة ، كما كانوا يرتابون فى أية خطة تصل الى خلق « صربيا العظمى » . وازدادت شكوكهم فى ١٩١٥ ، يوم قبلت الحكومة الصربية اتفاقا تقتطع بمقتضاه أجزاء كبيرة من دالماشيا وايستريا

وسلوفينيا ، وتعطى لايطاليا كمكافأة على دخولها الحرب الى جانب الحلفاء • وكانت مثل هذه الحركات تقوى من حجة أولئك السياسيين الذين كانوا لايزالون نشيطين داخل الأراضي النمساوية المجرية ، الذين كانوا يصيغون شكلا موسعا جديدا للحل السياسي الثلاثي الأطراف القديم ، الذي يدعو الى « وحدة ذاتية يوغوسلافية موحدة » كشريك مساو للنمسا والمجر من خلال امبراطورية هابسبورجية مستمرة • وكان هذا هو الموقف الذي اتخذه الممثل الأول للسلوفينيين في البرلمان النمساوي وهو المونسنيور كوروشيك (Korošec) (١٢) •

وفي يوم ٣٠ مايو ١٩١٧ ، أصدر كوروشيك وبعض زملائه اعلانا يدعو الى « توحيد جميع الأراضي الموجودة في المملكة التي يسكنها السلوفينيون والكروات والصرب » • وأوتي « اعلان مايو » هذا أثرا قويا في البوسنة ، فانحاز اليه كثير من السياسيين الصرب والكروات • ورحب الصربيون بادخال اسم الصرب صراحة في مقترح الوحدة (اذ يعد ذلك تقدما على كل التعبيرات والصور السابقة الثلاثية الأطراف) ، ورأوا فيه أقرب صورة لدولة يوغوسلافية يمكن التوصل اليها تحت الحكم النمساوي المجرى • وكان المعتدلون من الكرواتيين البوسنيين يؤازرون خطة من هذا النوع ، فأما الكاثوليك المحافظون ، يقودهم كبير الأساقفة ستادلر ، فكانوا يفضلون صورة محدودة أكثر لنفس الفكرة ، يكون فيها الكيان المقصود شاملا للبوسنة ، على أن تتسم بطابع كرواتيا العظمى •
عندما ذهب اثنان من قادة
ش وصفوت بك باشاجيتش
ن ذلك بالإستقلال الذاتي
تيون ، وكان معظم المسلمين
، تستمتع به كرواتيا فعلا من
قبل ، ثم نحن في الحق الا احياء للحلم القديم بالاستقلال الذاتى الذى شغل بال زعماء المسلمين منذ أيام حسين قابيطان في ثلاثينيات الألف وثمانمئة • وكان التماسها الأساسي هو الحيلولة دون ابتلاع البوسنة داخل دولة يسيطر عليها الكرواتيون ، وكان معظم المسلمين حريصين على تجنب ذلك ، وان أبدي صفوت بك باشاجيتش نفسه ميلا للكروات في نظرته العامة الي الأمور ، حتي انه سرعان ما تحول الي موقف مؤيد لقيام « كرواتيا الكبرى » (١٤) • على أنه كان بين المسلمين كثرة ترى أن الاستقلال الذاتي بنفسه تحت سيطرة المجر ، تسوية غير مرضية ، وكانوا أميل الى الدخول في غمرة دولة يوغوسلافية منفصلة • وكان من

هؤلاء رئيس العلماء تشاوشيفيتش ، الذى أبلغ المونسنيور كوروشسيك فى ١٩١٧ أنه قد سئم من حكم الترك أو الألمان (١٥) .

وانكبت السلطات النمساوية المجرية على دراسة هذه المقترحات لكنها لم تفعل شيئا . ولما حان الوقت لأخذها مأخذ الجد ، كان الأوان قد فات ، ففى فبراير من تلك السنة حدث تمرد فى الأسطول النمسوى المجرى باقليم الجبل الأسود ، وكان الهروب من الجيش والاضرابات تتزايد يوما بعد يوم ، ولم يبق الا توطين النفس على قبول الهزيمة الشاملة . وبدأ الحاكم العام للبوسنة البارون ساركوفيتش فى الاقدام على سلسلة من المناقشات والمجادلات ، رغبة منه فى محاولة ادخال بعض التعديلات السياسية فى النظم التى ربما تقيض سبيلا للاحتفاظ بحكم آل هابسبرج . فبدأ أولا بأن حسن للامبراطور فى مارس أن تضم البوسنة لكرواتيا ، ثم عاد فاقترح فى مايو اندماج البوسنة مع كرواتيا أو الحصول على الاستقلال الذاتى بوصفها « كيانا منفصلا » تحت ظل التاج المجرى ، ثم عندما نوقشت هذه المسائل بالمجلس الامبراطورى فى آخر مايو تحول الى تحسين الاتحاد مع كرواتيا مرة ثانية (١٦) . وفى أغسطس ، يوم كان الجهد الحربى النمسوى المجرى يترنح ويتداعى يوما بعد يوم ، نظم المونسنيور كوروشسيك اجتماعا جديدا لرجال السياسة تخلى تماما فيه عن فكرة السيادة النمساوية المجرية ، وأخذ يعلن وجوب قيام « مجلس قومى » بقصد « توحيد الشعوب اليوغوسلافية داخل دولة مستقلة » . والآن وقد أصبحت النهاية على مرمى البصر أرسل الامبراطور الوزير المجرى الكونت تيستسا لزيارة كل من زغرب وسراييفو فى سبتمبر ، فى محاولة نهائية مقضى عليها بالفشل ، لاقناع السياسيين المحليين بقبول هيئة دستورية جديدة ، تحت ظل التاج المجرى .

والاجابات التى تلقاها تيستسا فى سراييفو تعطينا صورة مدهشة لمواقف زعماء السياسيين البوسنيين . وقام الصربيون والكرواتيون (بقيادة السياسى الصربى فويسلاف شولا) ، بتقديم مذكرة مشتركة قالوا فيها انهم شعب واحد ، وانهم يرغبون فى اقامة دولة يوغوسلافية مع جميع الصربيين والكروات والسلوفينيين . وشكوا بمرارة من التدابير التى أملتها ظروف الحرب : مثل القضاء على الحكومة المحلية والمصادرات والمحاكمات السياسية . وكان من بين مطالبهم اصدار العفو العام عن السجناء السياسيين واعادة الحكم الدستورى مع الانتخابات الحرة وعقد برلمان جديد . ومن بين زعماء المسلمين ، كان أرناؤوطوفيتش لايزال يستسيغ ويؤيد اقامة استقلال ذاتى تحت حكم المجر ، وباشاجيتش كان

يرغب في أن يجعل ذلك الاستقلال مطلبه المفضل الثاني بعد الأول الذي هو التوحيد مع كرواتيا · ولكن الاتجاه المسيطر عبر عنه رجل كان يشغل آنذاك وظيفة سكرتير غرفة التجارة ، ولكنه ما لبث أن أصبح الرجل السياسي البوسني الأول ابان سنوات ما بين الحربين وهو محمد سباهو · وقد شكا هو أيضا بمرارة من سوء ما لاقاه شعب البوسنة من معاملة أثناء الحرب وبخاصة مصادرة المؤن وتجنيد الشيوخ من الرجال والمراهقين من الأولاد في الجيش · وقال ان عوامل التفريق بين المسلمين والمجتمعات الدينية الأخرى قد هبطت حدتها بسبب ما يعانونه من بؤس وشقاء من جراء الحرب ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح معظم مسلمي البوسنة الآن — على حد قوله — يؤيدون انشاء دولة يوغوسلافية (١٧) ·

وسرعان ما حلت النهاية · ففي أكتوبر عقد في زغرب اجتماع عام « للمجلس الوطني » ، فأما المندوبون البوسنيون الذين حضروه فعادوا الى سراييفو حيث أقاموا مجلسهم القومي الخاص للبوسنة · وفي يوم ٢٩ أكتوبر ألغى البرلمان الكرواتي رسميا حكم آل هابسبرج وسلم السلطة الى « المجلس الوطني » معلنا قيام دولة ذات سيادة من السلوفينيين والكروات والصرب · وهذا الاعلان وان انطبق فقط على الأراضي النمساوية المجرية السابقة ، فانه كان مؤذنا بقرب قيام دولة يوغوسلافية · والآن ولم يبق على التوحد مع دولة الصرب الا بضعة أيام · كما أصبح الجيش الصربي على مسافة قريبة جدا من الأراضي البوسنية ، فان الصربيين هم الذين شعروا بأنهم أقرب الناس الى النصر بين شعب البوسنة · وكتب البارون ساركوتيتش في يوم ٢٩ أكتوبر يقول : « يبدو أن مشاعر الابتهاج والفرح التي أعرب عنها الصربيون وبالغوا في اظهارها كان لها الى حد ما أثر مهدىء على الكروات والمسلمين » (١٨) · وفي اليوم التالي جاء زعماء المجلس الوطني البوسني لزيارته ، وكانوا يحملون التماسات وطلبات متنوعة ، مثل التوقف عن مصادرة الماشية ، ولكن من أعجب الأمور أنهم لم يطالبوه بأن يسلمهم السلطة · وكانت وزارة الحرب في فيينا هي التي أبلغته برقيا في تلك الليلة أن جميع القوات العسكرية في البوسنة ينبغي أن توضع تحت تصرف المجلس الوطني · وفي اليوم الأول من نوفمبر دعا ساركوتيتش قادة الجيش وزعماء المجلس الوطني لمقابلته وأخبرهم بتنازله عن الحكم · وعندئذ سأله أحد زعماء الكروات البوسنيين وهو يوزيب سوناريتش (Josep Sunarić) أن يطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وكان جوابه بسيطا : « ان السلطة لكم الآن » · وبعد ذلك بيومين اثنين شكلت « الحكومة الوطنية الأولى للبوسنة والهرسك » (١٩) ·

وكانت أول نتيجة لانهيار الدولة النمساوية المجرية ، هي حالة عامة من الفوضى وثورات الفلاحين بالمناطق الريفية • وكانت أبشع الحالات من هذا النوع هي التي حدثت في شمال كرواتيا ، حيث نهبت كثير من المزارع الكبيرة وسرق كل ما فيها من مواش • ولما حدث ذلك الشيء نفسه في البوسنة ، كان المسلمون وحدهم هم ضحايا هذه الهجمات لأنهم كانوا هم المالكين لمعظم المزارع الكبرى • بيد أنه كان هناك أيضا نوع من الاحساس بالنصر من الصرب على المسلمين ، خاصة بعد وصول جند صربيا والجبل الأسود في أوائل نوفمبر • وفي مارس ١٩١٩ أبلغ رئيس العلماء جمال الدين تشاوشيفيتش صحفيا فرنسيا أن ألف رجل مسلم قد قتلوا وأن سبعا وستين امرأة أحرقت حتى الموت وأن مئتين وسبعين قرية قد نهبت نهبا مع المساعدة ، سلبية كانت أم ايجابية ، من الجند الصربيين • وعندما نشر هذا الصحفي هذا البيان في الجرائد الفرنسية ، ضغطت الحكومة الجديدة في بلجراد على رئيس العلماء لكي يسحب أقواله (٢٠) • وهذه الفظائع لا تعد مع ذلك دليلا على عودة البغضاء العرقية القديمة بين أهالي البوسنة من الصربيين والمسلمين ، لأنها حدثت في ظروف غير عادية ، في نفس لحظة انتهاء حرب لقي فيها الناس ضروبا من المعاناة القاسية • (من العسير علينا أن نحصى عدد الذين ماتوا في البوسنة من جراء العمليات العسكرية والتيفوس : ولكن من المعتقد أن سدس عدد السكان تقريبا هلكو أو هجروا ديارهم أي ٣٠٠ ألف نسمة ، ويشمل ذلك جماعة من المسلمين فروا في موجة ثانية من الهجرة الى تركيا بعد ١٩١٨) • وطوال سني الحرب كلها ، كان مسلمو البوسنة موالين بوجه عام للحكومة التي كانت تشن الحرب على صربيا • وكذلك اشترك المسلمون (مع الكروات وبعض الصربيين أيضا) في فيلق الشوتس (Schutzcorps) ، وهي وحدة الدفاع المحلية التي نفذت سياسات الحكومة المضادة للصربيين في شرق البوسنة ، مستخدمة في بعض الأحيان أساليب وحشية فظيعة (٢٢) • ومن اليسير أن نفهم أن بعض ابناء الطائفة الصربية المحليين قد أفعمت المرارة نفوسهم • كما أنه لا شك في أن الجند الذين أتوا من صربيا كانوا يحملون ضغينة الأجيال السابقة ضد المسلمين ، فمعظمهم لم يكن عايش المسلمين من قبل ، كما أنهم قد ربوا على أن المسلمين رموز أسطورية خفية لأعداء صربيا • ولكن هذا ينطبق على القرويين الصرب البوسنيين ، الذين عاشوا في سلام تام مع جيرانهم المسلمين مدة أربعين عاما أو تزيد •

ومع هذا كان من الواضح أن المسلمين البوسنيين كانوا بحاجة ماسة الى تنظيم سياسي قوي يحمي مصالحهم • وتشكلت عدة تجمعات في

هذه الشهور الأولى : فشكلت « منظمة المسلمين » ، و « الحزب الديمقراطى للمسلمين اليوغوسلاف » فى ديسمبر ، و « اتحاد المسلمين » فى بانيالوكا فى أوائل عام ١٩١٩ (٢٣) ، ولكن الحزب الرئيسى الذى سرعان ما أجمع المسلمون على تأييده كان « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » التى تأسست فى سرايفو فى فبراير ١٩١٩ ، وانضم محمد سباهو الى قيادتها . وسرعان ما وجد نفسه متورطا فى المجادلات حول المبادىء الأساسية للدولة اليوغوسلافية الجديدة ، وهنا ظهر أن جماعة فى داخل الحزب ، يقودها رئيسه ابراهيم ماجلايليتش (Ibrahim Maglajlić) ، كانت تؤيد فكرة قيام يوغوسلافيا موحدة ومركزية من النوع الذى كان يحض على ايجاده الزعيم الصربى السياسى نيقولا باشيتش (Nikola Pasić) ، وكان كثير من هؤلاء المسلمين من المثقفين ، ممن تشكلت آراؤهم ووجهات نظرهم فى الجمعية الثقافية الاسلامية ، « جايرت » : ذلك بأن جايرت كانت منذ ١٩٠٩ تميل نحو الصرب ، (وبلغ من شدة ميلها ذاك أن فرضت السلطات عليها حظرا أثناء الحرب) ، وهى تدفع بأنه لكى تستقل البوسنة عن النمسا والمجر ، كان من الضرورى للمسلمين أن يوحدوا هويتهم مع الصرب (٢٤) ، ولكن تأييد هذا الاتجاه ما لبث أن تلاشى ازاء العنف الموجه ضد المسلمين من الفلاحين الصربيين والجنود الصربيين فى أعقاب الحرب العظمى الأولى ، ولو أن البوسنيين المسلمين عرفوا الآراء الخاصة لأحد وزراء الحكومة الصربية هو ستويان بروتيتش (Stojan Protić) ، الذى استصوب ونصح فى ١٩١٧ ، « بحل » مشكلة مسلمى البوسنة من خلال برنامج يرمى لحملهم على تغيير هويتهم الدينية وانزال المذابح بهم ، لاضمحل هذا الاتجاه بصورة أكثر حدة (٢٥) ،

وكانت وجهة نظر محمد سباهو التى ما لبثت أن انتصرت فى تلك الأيام داخل « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » ، هو أنه ينبغى للبوسنة أن تحاول الاحتفاظ بهويتها كوحدة ذاتية الاستقلال داخل الدولة اليوغوسلافية ، ولكن على وجه العموم ، وضعته آراؤه تلك فى صف كرواتيا فى المعركة الطويلة التى نشبت بين المركزية الصربية والاقليمية الكرواتية ، التى قدر لهما أن تسيطر على السياسات أثناء فترة ما بين الحربين ، وأدى ذلك بالتأكيد الى وضعه موضعا أوثق قربا من موضع الكروات البوسنيين ، الذين كان زعيمهم يوزيب سوناريتش ناقدا شرسا للمركزيين فى بلجراد ، ودافع عن قيام يوغوسلافيا كونفيدرالية ، فأما حزب الصربيين البوسنيين الرئيسى ، وهو « الديمقراطيون الراديكاليون » ، فانه كان يؤيد فكرة اقامة دولة يوغوسلافية مركزية ، كما أنه ظل صادق الالتزام بأصولها الأولى فى حركة ما قبل الحرب « البوسنة الفتاة » ،

بمطالبته باصلاح اجتماعي بعيد المدى . وكانت هناك أيضا منظمة شديدة الميل للكتلة الصربية تصدر صحيفة تسمي الفجر الصربي(Srpska Zora) كانت تطالب بامتصاص البوسنة كلها في صميم صربيا (٢٦) .

وعندما عقدت الانتخابات اليوغوسلافية الشاملة بكل البلاد في نوفمبر ١٩٢٠ ، للحصول على جمعية تأسيسية تقرر قرارها في مستقبل شكل الدولة اليوغوسلافية ، فاز حزب سباهو بكل الأصوات المسلمة تقريبا بالبوسنة ، محرزا بذلك أربعة وعشرين مقعدا (٢٧) . ونظرا لأن أصوات هؤلاء النواب ، بالاضافة الى أصوات ستة مسلمين غيرهم انتخبوا في مقدونيا ، كانت قادرة على قلب التوازن في الجمعية ، تكالب على اكتسابها الساسة اليوغوسلافيون الآخرون . وهناك مطلب كان سباهو شديد الحرص عليه ، وهو التخفيف من وقع قوانين اصلاح الأراضي على ملاك الأرض المسلمين . وأصدرت الحكومة اليوغوسلافية مراسيم في ١٩١٩ ، تلغي نظام أقنان الأرض ، وتقضي بأن عائلاتهم ينبغي أن يكون لها حق قانوني في الأرض التي يفلحونها . وقاتل سباهو قتالا عنيفا لتعويض ملاك الأرض التعويض العادل من خزانة الدولة ، وما لبثت الحكومة أن دفعت ملايين الدينارات ، ولكن كان المستوى العام للتعويض أدنى من قيمة السوق للأرض . ويبلغ عدد العائلات المسلمة التي تأثرت بهذا الاصلاح أربعة آلاف عائلة ، ومنهم من أنزل به الى حضيض الفاقة (٢٨) . وعرضت اهتمامات سباهو هذه حزبه للانتقاد والتنديد به باعتباره مثلا للطبقات الاقطاعية القديمة ، لكن الواقع أنه لم يكن من بين مرشحيه الثمانية والسبعين الذين قدمهم حزبه للانتخابات في ١٩٢٠ ، سوى ستة من ملاك الأراضي ، بينما كان اثنان وخمسون منهم من المحامين والمعلمين وغير ذلك من الحرفيين (٢٩) . وعلى كل حال ، فان ملاك الأراضي كانوا مجرد أقلية صغيرة من السكان المسلمين ، بينما الغالبية العظمى كانت فلاحين من ذوي الحيازة الصغيرة .

وكانت النقطة الثانية التي تشغل بال سباهو في الجمعية التأسيسية هو الابقاء على الهوية الاقليمية الادارية للبوسنة . وقد وفق في هذه النقطة الى شيء من النجاح ، وإن كان الثمن العجيب الذي دفعه هو أنهم اضطروه الى أن يؤيد الدستور المطلق التمركزي الذي قدمه القادة الصربيون . (وأصبح ذلك معروفا باسم دستور الفيدوفان (Vidoven) أي يوم عيد القديس فيتوس ، لأنه تم تطبيقه في ١٩٢١ يوم الثامن والعشرين من يونيو ؛ يوم الذكرى السنوية لمعركة كوسوفو) . ولم يكن هناك بد مما حدث ، وذلك نظرا لأن زعيم الحزب الكرواتي

الرئيسى ، كان من الحماقة بحيث سحب نوابه سحبا تاما من الجمعية ٠ هكذا حدث لما تمت اعادة تنظيم جميع الأراضى اليوغوسلافية وتقسيمها الى ثلاث وثلاثين مقاطعة ، أن معالم خطوط كرواتية اختفت من الخريطة ، ولكن معالم خطوط البوسنة تم الاحتفاظ بها ٠ والحق ان المقاطعات الست البوسنية كانت تقابل بالضبط عددها فى عهد النمساويين المجريين ، التى تم تأسيسها بدورها قبل ذلك على أساس السنجقيات فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى (٣٠) ٠ وبفضل جهود سباهو صارت البوسنة هى العنصر الأساسى الوحيد فى يوغوسلافيا الذى احتفظ بهويته بهذه الطريقة ٠

وكانت هذه المناورات المستمرة التى دامت طوال العشرينيات من هذا القرن العشرين بينما التوترات تزداد بين زغرب وبلجراد تفسر لنا لماذا أقبل بعض أبرز المسلمين أن يعلنوا أنفسهم على الملأ « كرواتا مسلمين » أو « صربا مسلمين » ٠ وقد رأينا من قبل أن بعضهم فعل ذلك فى سنى ما قبل الحرب ، نتيجة لاحساسهم بالحاجة لاظهار هويتهم الثقافية ، وبخاصة الكتاب منهم ، مثل صفوت بك باشاجيتش ، الذى غرق الى الأذنين فى الثقافة الأدبية الكرواتية ٠ غير أن الأساس الأصلى لكل هذه التصريحات كان سياسيا بحتا ٠ وكما أن الاتجاه فى أثناء العهد الأول كان الانحياز الى الصرب بوصفهم حلفاء طبيعيين على فيينا ، فكذلك أصبح الاتجاه الآن هو الانحياز الى الكروات بوصفهم حلفاء طبيعيين على بلجراد ٠ وفى البرلمان اليوغوسلافى لسنة ١٩٢٤ ، وصف جميع النواب البوسنيين أنفسهم بأنهم كروات ، اللهم الا سباهو نفسه الذى أصر على أن يسمى يوغوسلافيا (٣١) ٠ ومع هذا فان لأخوى سباهو قصة : فان أحدهما أصر على أن يسمى نفسه كرواتيا ، وأصر الآخر أن يكون صربيا ٠ وهناك مقال رئيسى نشر فى صحيفة المنظمة الاسلامية اليوغوسلافية فى ١٩٢٠ ، استصوب الكاتب فيه علنا أن يطبق المسلم على نفسه هوية أية أمة تهبه أعظم فرصة « للتطور الاقتصادى » (٣٢) ٠ لقد كانت فكرة اختيار « الهوية الوطنية » على أساس السياسات الاقتصادية المتنافسة فكرة سطحية ، ان لم تكن سخيفة ٠ والواقع أن الأسباب التى كانت تدعو المسلم لاتخاذ الهوية الكرواتية أو الصربية فى البوسنة كانت أضعف من الأسباب التى تدعو اخوانهم لاتخاذ هويات مماثلة ، مثلا المسلمون فى مقدونيا مع المقدونيين أو مسلمو الصرب مع الصربيين ٠ وكما رأينا آنفا ، كان الأساس الوحيد الحقيقى الداعى للأرثوذكس والكاثوليك البوسنيين لأن يسموا أنفسهم صربا كرواتا هو هويتهم الدينية ، وطبيعى أن ذلك كان هو الشىء الوحيد الذى لم يكن المسلمون البوسنيون بمستطيعين المشاركة فيه ٠ والشىء الذى تظهره تلك المطابقة الذاتية ، المتصفة بالسطحية والقدر

الكبير من اللباقة والكياسة ، مع الصرب أو الكروات أثنــاء تلك المدة ، هو أنه كان لايزال هناك تردد وتمنع نظرى فى استعمال كلمة « مسلم » بوصفها بطاقة ثقافية تاريخية على نفس المستوى ، ولكن الواقع العملى هو أن المسلمين كانوا يعملون فعلا بوصفهم طائفة تعادل الطوائف الأخرى تماما ، وندافع عن هويتهــا ، بل كان يفعل ذلك فعلا بطريقة أشد أثرا من اى تجمع آخر فى اطار السياسات البوسنية ٠

وبينما مصطلح « مسلم » يحتاز أهمية سياسية على هذا النحو ، كذلك أيضا كان الأساس الدينى الدقيق للمصطلح يتآكل بالتدريج بفعل مؤثرات القرن العشرين المتجهة الى بث العلمانيــة ٠ ولم يكن المسلمون المتمسكون بدينهم فى البوسنة من «المتعصبين» ، وان وصفهم بعض الزوار العارضين بذلك ، أجل كان فيهم رجال دين شديدو التمسك بالأصول ، ولكن السكان بوجه عام كانوا أكثر تراخيا فى ممارستهم ٠ وكما لاحظ آرثر ايفانز فى ١٨٧٥ : « فان حظر تصوير الأشياء الحية ينفذ ويراعى بنفس القدر الذى يراعى به تحريم الخمر » (٣٣) ٠ ولكن الأمر أخذ يتغير مع اتجاه أعداد متزايدة من المسلمين الى تلقى العلوم الحديثة بمدارس الدولة ، كما أن بعضهم الآخر واصل دراسة موضــوعات مثــل الطب والهندسة بفيينا وبودابست ٠ وبينما أخذت المزايا القديمة للسلطان الاقتصادى النابع من امتلاك الأرض تتدهور وتتناقص ، كان من الطبيعى أن الطبقة العليا من المجتمع الاسلامى أخذت تتنقل الى ممارسة الحرف والمهن ، وهو أمر كان يستلزم أساسا من التعليم الغربى ٠ وقد دهش مراقب فى ١٩٢٠ من ضخامة عدد الشبان المسلمين الذين يدرســون العــلوم فى الجامعــات والكليات الفنية (٣٤) ٠ وفى الحين نفسه تشجعت النســـاء المسلمات العاديات على الانخراط فى سلك العمل بالمصانع فى سراييفو ـ وهو شئ لم يكن من الممكن تصوره فى المجتمعات المسلمة فى ذلك الزمان ٠

ولقيت هذه الميول والاتجاهات الجديدة تشــجيعا قويا من رئيس العلماء تشاوشيفيتش الذى تلقى العــلم فى اسطنبول ، وقرأ أعمال دعاة التحديث والاصلاح العظماء كالشيخ جمــال الدين الأفغــانى والشيخ محمد عبده ، كما زار تركيا أتاتورك ٠ وفى ١٩٢٧ أحدث ضجة عظمى بين رجال الدين المسلمين الأشــد محافظة ، حين اقترح أولا أن تحول أراضى الأوقاف فى مراكز المدن التى كانت تستخدم مقابر الى اســتخدامات أنفع كبناء المدارس عليها ، ثم بتصريحه فى حديث صــحفى فند فيه تحجب النساء ، قال : « انى أفضل أن أرى فتاة مسلمة غير محجبة تتكسب قوتها بشرف عن أخرى تمشى يومها بأرجاء الشوارع محجبة نهارا ، ثم تقضى مساءها فى احدى القهوات » (٣٥) ٠ وأصر بأن النقاب انمــا هو عادة

وحسب ، وليس واجبا دينيا بأية حال · كما أنه أبدى استحسانه أيضا لالغاء الطربوش واستخدام قبعة عادية بدلا منه ، على طريقة أتاتورك · (ولا يخفى أن الطربوش نفسه قد فرضه على الناس أحد السلاطين كوسيلة لطبع الدولة بطابع غربى فى ١٨٢٨ ، فلقى مقاومة شرسة فى ذلك الزمان ، بوصف كونه رمزا للكاثوليك ، ولكن أحدا لم يدرك ذلك على الاطلاق بعد ذلك بتسع وتسعين سنة) (٣٦) · وتسببت ملاحظات تشاوشيفيتش تلك فى اثارة عاصفة ضخمة من الاحتجاج ، فألقيت الخطب وكتبت المنشورات، وصدر قرار من المجلس الاسلامى فى سراييفو يدين آراءه · وقد كان تشاوشيفيتش يعمل بمفرده ومعه قلة ضئيلة من بين رجال الدين المسلمين ، وكان لايزال أمام عملية الطابع الغربى مشوار طويل لابد من قطعه قبل أن يمس قلوب ممثلى الشعب البوسنى العاديين · ولكن فى الوقت الذى وجدت فيه بالفعل بريمادونا مسلمة وهى بحرية نورى هاجيتش (Bahrija Nuri Hadjió)، التى كانت تغنى فى دار أوبرا بلجراد ، أصبح من البين تماما أن التغيرات الاجتماعية كانت تمضى سائرة فى طريقها بلا تردد ، ولن يستطيع أى قدر من الأحكام التى يصدرها رجال الدين أن يقف فى سبيلها أو يوقفها (٣٧) ·

وربما بدا للزائر العابر فى أثناء سنوات ما بين الحربين هذه ، شىء من التفرقة والتمييز بين المسلمين والمسيحيين أكثر مما سلف ، لسبب بسيط هو أن المسيحيين كانوا أسرع من المسلمين فى التخلى عن الملابس « الشرقية » · وكتب بعضهم فى زمن قريب هو ١٩٠٣ : « يجد الأجانب صعوبة شديدة فى التمييز بين المسيحيين والأتراك فى البوسنة ، لأن الطرفين كليهما يرتديان العمائم والصديريات المطرزة والسترات المفتوحة الفضفاضة والسراويل المتجمعة عند الركبة ، والأحذية غير ذات الكعوب وذات المقدمة المعقوفة لأعلى (المركوب) » (٣٨) · والآن وقد ميز الكاثوليك والأرثوذكس أنفسهم بوصفهم كرواتا وصربا ، فانهم ألقوا جانبا ، وذلك فى المدن على الأقل ، ملابسهم البوسنية القديمة ، وقد عقب الصحفى جون جيبونز فى ١٩٣٠ بأن : « المسلمون واضحون فى شوارع سراييفو بسبب ملبسهم التقليدى » ، وقال : « وادعى الأشياء الى العجب مع ذلك بدا فى الطريقة التى كانوا يتوافقون بها كل مع الآخر تماما وبكامل السعادة » (٣٩) · وقبل ذلك بسنوات ثلاث كان كاتب امريكى كون لنفسه انطباعة مماثلة لهذه حيث قال : « هنا يرى المرء فلاحا بوسنيا من أبناء العقيدة الأرثوذكسية يضع صدقة فى كف سائل كفيف مسلم يقعد القرفصاء وهو يلعب على نايه على باب أحد المساجد ·

ولو نظرت الى الدكاكين الصغيرة الوادعة التى يختلط فيها المسيحيون والمسلمون واليهود فى أعمالهم التجارية ، بينما يذهب كل منهم بعد ذلك الى الكاتدرائية والمسجد والكنيس ، لا يسعه الا أن يعجب : أليس التسامح واحدا من أعظم الفضائل ؟ » (٤٠) ٠

وكان التهديد الأكبر للتسامح يجيء شأنه فى الكثير الأعم من التاريخ البوسنى ، من خارج التخوم البوسنية ٠ وكان التوتر السياسى الذى لم يهن بين دعاة المركزية وخصومهم ، يزداد على الدوام شدة وقسوة أثناء عشرينيات الألف وتسعمئة ٠ وكان محمد سباهو مشتركا فى تلك الحكومات العديدة غير المستقرة التى شكلت فى تلك السنوات ، وكثيرا ما كان يجد نفسه وهو يعمل فى خط متواز مع القائد السلوفينى المونسنيور كوروشيك ، بوصفه نوعا من القوة الثالثة التى تتوسط بين الكروات المناوئين للمركزية والصرب الداعين لها ٠ وساعد الاثنان على اسقاط الرئيس المستبد نقولا باشيتش فى ١٩٢٤ ، وأدخل الاثنان كوزراء فى حكومة واحدة يرأسها الصربيون فى فبراير ١٩٢٨ ٠ وفى تلك الآونة ، كان الجو فى السياسة اليوغوسلافية آخذا فى التلبد ، اذ أسقطت عضوية الزعيم الكرواتى ستييبان راديتش (Stejepan Radić) فى البرلمان فى مارس ١٩٢٨ ، لأنه قال لوزير الشئون الاجتماعية : « انما أنت رضيع بكاء أوتى عجورة بدلا من رأس انسان ! أيها الجهول ! انك لص تجلس فى كرسى الوزارة ! » (٤١) وبعد ذلك بثلاثة أشهر ثارت ثائرة نائب من الجبل الأسود لمقاطعته أثناء القائه خطابا ، فأخذ غدارته وأطلق النار على نواب عديدين كان فيهم راديتش ٠ وحاول الملك ألكسندر فى البداية تبديد الأزمة وتعيين حكومة جديدة برئاسة كوروشيك ٠ ولكنه عاد بعد ذلك فى يناير ١٩٢٩ ، فاتخذ اجراءات أكثر شدة وفعالية ، فأوقف الدستور وفرض على البلاد نظاما سياسيا أشد وأعنف وأوثق توحيدا بكثير من أى نظام آخر حاول السياسيون الصربيون قبل ذلك تطبيقه ٠

وكان أول تغيير له رمزيته هو الاعلان أن « الدولة منذ الآن ستدعى دولة يوغوسلافيا » ــ وهو مصطلح أكثر توحيدية من « مملكة الصرب والكروات والسلوفين » ٠ وقد أراد الكسندر أن يمحو عن الخريطة السياسية تلك الهويات الاقليمية القديمة ، ولذلك فانه أدخل تقسيما جديدا تماما على الأراضى اليوغوسلافية الى تسع بانوفينات (Banovine أى بانات Banate ــ وكان استخدام هذا المصطلح الكرواتى القديم يكاد يكون بلة الريق الوحيدة للكبرياء الكرواتى) ، وقضى لكل بانوفينا نظاما تقطع بمقتضاه الحدود القديمة للعناصر الأصلية المكونة للدولة

اليوغوسلافية • وأسميت البانوفينات حينما أمكن على أسماء الأنهار • وقسمت البوسنة بين أربع بانوفينات : فرباسكا (Vrbaska) ، التى كانت تضم بعض الأراضى الكرواتية ، ودرينسكا (Drinska) ، التى كانت تضم شطرا كبيرا من صربيا ، وزيتسكا (Zetska) التى كانت تتكون بصفة رئيسية من الجبل الأسود ، وبريمورسكا (Primorska) التى كانت تمتد الى الساحل الدالماشى • وبذلك حدث لأول مرة منذ أكثر من أربعمئة عام أن قسمت البوسنة •

وكان « البانات » (Bans) حكاما يعينهم الملك ، كما أنهم كانوا بدورهم يعينون لهم مفوضين فى مكان مسئولى الحكومة المحلية المنتخبين • وهناك قس بوسنى صربى هو سيمو بيجوفيتش (Simo Begović) ، وهو شخصية محترمة كان النمساويون المجريون قد حكموا عليه بالاعدام فى محاكمات بانيالوكا السياسية فى ١٩١٦ ، قد قاد وفدا منوبا عن الفلاحين من بالى (Pale) الى دار البان فى سراييفو لكى يقدموا الشكوى حول هذه التغييرات • فطلب من البان أن يعطيه أربعة آلاف دينار ، فسأله البان لماذا ؟ ، فأجابه : « أريد أن أسافر بها الى فيينا لأن فيها قبر فرانز يوزيف ، وبذلك أستطيع أن أقول له : استمع الى يا فرانز •• لو أننى علمت مقدما بالمصيبة التى ستقع فيها البوسنة بعد موتك ، ما حاولت قط ابعادك » (٤٢) • فاذا خامر قس صربى أرثوذكسى مثل هذا الاحساس ، فيمكننا أن نتصور كيف كان الكرواتى العادى يحس ، وهو الذى كان يعد يوغوسلافيا الموحدة الجديدة شيئا لا يقل فى واقع الأمر عن تحقيق آمال صربيا • ان أحدا لم يسعد بهذه التغييرات ولا حتى الساسة الصرب أنفسهم الذين ساءتهم الطريقة التى قصقص بها أجنحتهم الانقلاب الملكى • وكان أهل البوسنة المسلمون يعانون من التعاسة : خاصة وأنهم كانوا أقلية فى كل بانوفينا من تلك الأربع التى كانت كل منها تضم جزءا من البوسنة السابقة ، وكان الموظفون المسلمون لايعطون الا أدنى الوظائف فى وزارات ومصالح الحكومة الملكية الجديدة • بيد أن الكروات كانوا أقلهم سعادة وأتعسهم مزاجا • وهنالك غادر البلاد أشد السياسيين الكروات راديكالية وهو أنتى بافليتش (Ante Pavelić) ، وشرع ينظم فى الخارج بمعاونة موسولينى ، « الأوستاشا » وهى حركة المقاومة الكرواتية ، التى ستناضل لتحقيق استقلال كرواتيا (٤٣) • وجاء بعد ذلك دور زعيم الحزب الكرواتى الرئيسى ، وهو فلادكو ماتشك (Vladko Maček وهو خليفة الزعيم ستيبان راديتش الذى اغتيل) • فأصدر « قرارا » فى نوفمبر ١٩٣٢ يدعو الى العودة الى الديمقراطية وانهاء السيطرة الصربية ، ثم صدرت بعد ذلك بيانات أخرى مماثلة ،

أولها من كوروشيك فى سلوفينيا ، وسباهو فى البوسنة ، وعندئذ تم القبض على ثلاثتهم • فأما الزعيمان السلوفينى والبوسنى فقد أفرج عنهما سريعا ، وأما ماتشك فقد حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات (٤٤) •

ومن بين التدابير الأقل شأنا الهادفة الى تطبيق المركزية أثناء تلك الفترة من الحكم الفردى القرار الذى أصدره الملك باعادة تنظيم المجتمع المسلم فى يوغوسلافيا • فقد كان هنالك حتى الآن تنظيمان مختلفان ، أحدهما تنظيم مسلمى البوسنة والآخر تنظيم مسلمى مقدونيا وكوسوفو (المتركزة فى سكوبيه) • وبمقتضى المرسوم الملكى الصادر فى ١٩٣٠ ، وضع جميع المسلمين اليوغوسلاف تحت رئاسة رئيس علماء واحد ، ومجلس منفرد ، مع نقل مقر رئيس العلماء الى بلجراد • وعندئذ استقال تشاوشيفيتش بعد أن اعترض على هذه الخطة ، وكان رئيس العلماء الجديد المعين ليوغوسلافيا كلها هو ابراهيم مجلايليتش ، وهو الرئيس السابق لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف الذى عرف بانحيازه للعرب (٤٥) • وهناك تغييرات أخرى أصغر شأنا حدثت فى نفس الوقت ومنها ادخال منهج دراسى عمومى غربى الى المدارس الاسلامية ، وكان ذلك الاجراء جزءا من سياسة تهدف الى توحيد المناهج الدراسية بكل أرجاء المملكة (٤٦) • وغنى عن البيان أن القانون الصادر فى ١٩٣٠ أعطى الملك درجة ضخمة من التحكم والهيمنة على المجتمع الاسلامى ببلاده ، ومع ذلك فانه بعد وفاة الملك الكسندر (*) ، صدرت قوانين جديدة ، وتم الاعداد لبنية ديمقراطية أكثر ، واعطاء الحق لجمعيات نظار الأوقاف المحليين لتسمية ثلاثة مرشحين لمنصب رئيس العلماء ، يختار الملك منهم واحدا •

وحدث شيء من التراخى الحذر فى النظام الأوتوقراطى الملكى بعد اغتيال الملك الكسندر فى ١٩٣٤ • وكان الوصى الجديد على العرش وهو الأمير بول (الذى كان يحكم بالأصالة عن الوارث للعرش الملك بيتر الذى كان يبلغ الحادية عشرة من عمره) ، قد أفرج عن ماتشك من السجن وعقد انتخابات جديدة فى صربيا فى ١٩٣٥ وعين سياسيا صربيا شابا هو ميلان ستويادينوفيتش (Milan Stojadinović) لتشكيل حكومة تراض • وكان السياسيون الوحيدون المعروفون الذين أدخلهم فى وزارته هما كوروشيك وسباهو • وبمعاونتهما ، كما قال ذلك فيما بعد ، كانت الحكومة « قوية أمام الشعب ولكنها ضعيفة فى البرلمان » : ومن قبل كان حزب كوروشيك قد قاطع الانتخابات ، وكانت منظمة المسلمين اليوغوسلاف برئاسة سباهو قد حاربت الانتخابات كجزء من قائمة المعارضة التى

(★) الملك الكسندر قتله بعد ذلك بقليل صربى فوضوى بمدينة مرسيليا ـ (المترجم) •

ترأسها ماتشك (التى قاست بفعل نظام انتخابى أعطى عددا لا يتناسب من المقاعد « للقائمة » الفـــائزة) (٤٨) • وحدث بعد ذلك فى ١٩٣٥ أن ألف ستويادينوفيتش حزبا جديدا للحكومة هو « حزب الاتحاد الراديكالى اليوغوســلافى » وحـــد فيـــه بين حزبى (الحزب الراديكالى الصربى) وكوروشيك وسباهو • على أن لجنـــة الحزب الراديكالى عدلت عن ذلك التنظيم فى الربيع التـــالى وأعلنت معارضتها للحكومة • وبذلك وجـد ستويادينوفيتش نفسه فى موقف غريب بغير تأييـد الحزب الكرواتى او الصربى أصحاب الأغلبية وقائما فقط على السلوفينيين والمســلمين البوسنيين ومن بقى معه من مؤيديه الشخصيين •

دامت وزارة ستويادينوفيتش أربع سنوات ، وفى أثناء ذلك أحرز بعض التقدم التدريجى نحو الديمقراطية ، وسمح بمواصلة المباحثات مع ماتشك حول اعادة تنظيم يوغوسلافيا وصـــولا الى نظام فيدرالى فى خاتمة المطاف ، واستحدث سياسة خارجية تقوم على التصالح والتراضى وتهدف الى تنمية الشئون التجارية والعلاقات الوديه مع كل من ايطاليا وألمانيا • وكانت أشد القوى المدمرة فى السياسة اليوغوسلافية أثناء تلك السنوات هى الوطنية الصربية : حيث نجحت الكنيسة الأرثوذكســية فى اثارة الصربيين وحملهم على الخروج فى مظاهرات عنيفة ، وتمكنت من ايقاف وفاق بين يوغوسلافيا والفاتيكان فى ١٩٣٧ • وفى اليوم الثالث من فبراير ١٩٣٩ ، ألقى أحد وزراء ستويادينوفيتش الصربيين خطابا فى البرلمان أكد فيه سيادة الصربيين على الكروات والسلوفانيين : « ان سياسة الصرب ستكون على الدوام هى سياسة هذا المجلس وهذه الحكومة » ، وعندئذ طلب محمد سباهو من ستويادينوفيتش أن يستنكر ذلك البيان ، ولكن ستويادينوفيتش لزم الصمت • وفى تلك الليلة نظم كوروشيك استقالة خمسة وزراء احتجاجا على ذلك بما فيهم ســـباهو والوزيـــر الصربى دراجيشـــا سفيتكوفيتش (Dragisa Cvetkovió) وجعفـر كولينوفيتش (Djafer Kulinovió) ، الذى كان نائب ســـباهو فى منظمة المسلمين اليوغوســـلاف • وتمكن الأمير بول بفضـــل هذا الفعل من أن يطرد ستويادينوفيتش من السلطة واحلال سفيتكوفيتش فى محله (٤٩) •

والآن وهتلر يتقـدم نحو تشيكوسلوفاكيـــا ، والمعجب به أنتى بافلبتش فى ايطاليـــا قد بات أكثر جــرأة فى مطالبته بفض اتحـاد يوغوسلافيا ، أصبح واضـحا أن مشكلة ايجـاد حل فيدرالى مقبول من الكروات لم يكن من الممكن تأجيله أكثر من ذلك • وعندئذ بدأت المباحثات فى أبريل بين سفيتكوفيتش وماتشـك بهـدف اعادة تشكيل أرض وطنيه

لكرواتيا ومنحها بعض السلطات السياسية الخاصـــة بها • وكان أول ما اتفقا عليه أن البانوفينتين الرئيسيتين الكرواتيتين سافسكا وبريمورسكا (اللتين كانتا تضمان أجزاء من البوسنة) ، ينبغى أن تتوحدا مع منطقة دوبروفنيك ، وأن سكان بقية البوسنة ينبغى أن (يقرروا باستفتاء عام ما اذا كانوا يرغبون فى الانضمام الى كرواتيا أو صربيا » ـ وعندئذ يكون الهدف النهائى دولة فيدرالية ثلاثية الأطراف تتكون من صربيا وكرواتيا وسلوفينيا (٥٠) • ولكن الأمير بول رفض أن يقبل هذا البناء الدستورى ، وبدأت دورة جديدة من المباحثات • وفى هذه المرة اقتطعت أجزاء اضافية من أراضى البوسنة ببساطة تامة من الخريطة وأضيفت الى كرواتيا : وهى تتضمن برنشكو ، وجراداتشاك ، وديرفينتا ، وترافنيك ، وفوينيكا • وبدلا من دولة ثلاثية الأطراف ، فالنظام الجديد يعامل كرواتيا بوصفها بانوفينة ذات وضع خاص ولها برلمانها الخاص بهـا : وبذلك تظل بقايا البوسنة موزعة بين البانوفينتين الموجودتين أصلا والمنقوصتين أيضا : بانوفينة فرباسكا وبانوفينة درينسكا • هذه هى الخطة التى تم اتباعها فى النهاية فى اتفاقية أغسطس ١٩٣٩ (٥١) •

وتوفى محمد سباهو فى يونيو ١٩٣٩ ، وهذه المفاوضات فى أشد مراحلها حرجا • لقد كان سياسيا حصيفا ، عمـل على اعطـــاء مسلمى البوسنة درجة من الضغط السياسى فى فترة ما بين الحربين ، لا تتناسب مع قوتهم العددية ، ولكن حتى معارضته العنيفة لم تستطع ايقاف القصقصة • ودعا خلفه جعفر كولينوفيتش الى انشاء بانوفينا خاصة بالبوسنة • ولكن طلباته لقيت التجاهل التام ، ولم يكن أقل أسباب ذلك أن المناطق الباقية من البوسنة كانت بها غالبية من الصربيين الذين لم يكونوا راغبين فى أن ينفصلوا عن باقى البانوفينات التى يسيطر عليها الصرب (٥٢) • وظل كولينوفيتش عضوا فى الحكومة ولكنه أصبح معزولا وازداد حزنا واكتئابا • وعندما ذهب كوروشيك لزيارته فى أوائل ١٩٤٠ ليسأله لماذا كان يقاطع اجتماعات مجلس الوزراء ، انهمر من فمه سيل من الشكاوى • فلم يكن حزبه يتلقى سوى الفتات النزر من الرعاية السياسية ، وأوضح أنه بات لايطيق استمرار المباحثات حول انشاء بانوفينات سلوفينية وصربية ذات وضع متساو لكرواتيا ، دون أى ذكر لفكرة اعطاء البوسنة وضعا مماثلا • أنه كان يطالب بانشاء بانوفينا جديدة مكونة من الجزء الباقى من الأرض البوسنية ، وسنجقية نوفى بازار التى يسكنها غالبية من المسلمين (٥٣) • وللمرة الثانية تجوهلت رغبته مما أفعم نفسه بالمرارة ، وبات يضمر عداوة متزايدة نحو الصرب الذين كانت رغبتهم فى ابتلاع البوسنة تتضح يوما بعد يوم •

وبينما هذه المسائل تناقش بدون نتيجة حاسمة ، أثناء الجزء الباقى من ١٩٤٠ ، كان الضغط الذى تمارسه دول المحور على يوغوسلافيا يزداد فى كل يوم شدة . وصدم الرأى العام صدمة شديدة بانهيار فرنسا السريع ، كما ثار غضبه بسبب مهاجمة ايطاليا لليونان ، ومع هذا اضطر الزعماء اليوغوسلافيون ، ازاء التماس بين حدود الرايخ الألمانى وبينهم (منذ ضم النمسا لألمانيا) ، وبسبب ما كان واضحا من عجز الحكومة البريطانية عن تقديم أية حماية فعالة فى البلقان ، الى أن يتخذوا سياسة هادئة ومسالمة . على أن الأمير بول وحكومته صمدوا شهورا عدة ازاء الضغط الألمانى وأبوا الانضمام الى حلف المحور ، ولكن بعد أن وقعت بلغاريا على ذلك فى أول مارس ١٩٤١ ، رأوا أنهم لن يستطيعوا المقاومة أكثر من ذلك . ووقع زعماء يوغوسلافيا على الانضمام الى الحلف فى فيينا ، فى ٢٥ مارس ١٩٤١ . وفى اليوم التالى لعودتهم طردوا جميعا مع والأمير بول نفسه فى انقلاب غير دموى قام به الجيش والأحزاب السياسية الصربية القديمة وحظى بتأييد شعبى . فضلا عن بعض الوزراء السابقين . ودعت الحكومة الجديدة الى سياسة من السلم والهدوء تجاه المانيا . ولكن الذى حدث بعد ذلك بعشرة أيام ، أى فى السادس من أبريل أن شن سلاح الطيران الألمانى سلسلة من غارات القصف المركز على بلجراد . وما عتمت يوغوسلافيا أيضا أن اجتاحتها قوات ألمانية وايطالية وبلغارية ومجرية . وبعد قتال دام أحد عشر يوما استسلم الجيش اليوغوسلافى استسلاما تاما للقيادة العليا الألمانية (٥٤) .

الفصل الثالث عشر

البوسنة والحرب العالمية الثانية
١٩٤١ ـ ١٩٤٥

ان تاريخ الحرب العالمية الثانيـة في يوغوسلافيا ، إنما هو تاريخ حروب كثيرة تراكمت احداها فوق قمة الأخرى • فكانت هناك أولا بطبيعة الحال ، الحرب الأولى التي شنتها ألمانيا وايطاليا على يوغوسلافيا نفسها • وضمت بعض الأراضي : فاستولت ألمانيا على نصف سلوفينيا ، وأخذت ايطاليا النصف الآخر من سلوفينيا وعدة أجزاء من دالماشيا ، كما نالت المجر وبلغاريا وألبانيا الخاضعة لسيطرة ايطاليا ، أجزاء أخرى • وكان القصد من تمزيق صربيا «تأديبيا» ، ولكن الهدف الرئيسى كان الاخضاع والسيطرة • وفضلا عن ذلك كانت يوغوسلافيا مهمة للمواصلات وللامداد بالمواد الخام وبالعمال لتوفير حاجة المجهود الحربى فى الحرب الدائرة ضد الحلفاء • وكانت هناك أيضا حرب محتدمة بين جنود المحور وحركات المقاومة اليوغوسلافية ، على أن هذه الحرب ظلت ثانوية بالنسبة للأغراض الأوسع لاستراتيجية المحور ضد الحلفاء • وبعد ذلك شبت على الأقل نيران حربين أهليتين • أولاهما حرب شنها المتطرفون الكرواتيون على السكان الصرب الآمنين من أهل كرواتيـا والبوسـنة ، وهى حـرب عدوانيـة إنتقامية شعواء لم يميزوا فيها بين محارب أو مدنى • وأخيرا شبت هناك حرب بين تنظيمى المقاومة الرئيسيين ، اللذين تطوع فيهما الصرب مـن تلك النواحى : وهما تنظيما التشيتنيك والشيوعيين (البارتيزان) • وضمت الحركتان ، بمضى الزمن ، فى عضويتهما جماعات عرقية أخرى كذلك • وليس من اليسير علينا أن نفك الاشتباك بين جميع هذه الخيوط المتشابكة ، لنحدد مسؤوليـة كل منها عن العدد النهائى للوفيـات فى يوغوسلافيا أثناء تلك السنوات الأربع الفظيعة ؛ ولكن الواضح تماما أن الذين لقوا حتفهم فى ذلك الوقت لا يقل عددهم عن مليون انسان • ومن المحتمل أن غالبيتهم كانوا من اليوغوسـلاف الذين قتلهم اخوانهـم اليوغوسلاف (١) •

وفي اليوم العاشر من أبريل ١٩٤١ ، وحتى قبل أن تنتهى « حربهم الخاطفة Blizkrieg » ، أعلن الألمان قيام « دولة كرواتيا المستقلة » الجديدة ، وتضم البوسنة بكاملها والهرسك · ولم تكن مستقلة بطبيعة الحال ، كما أنها قسمت بين منطقتين من الاحتلال العسكرى الألماني والايطالى يفصلهما خط التقسيم الذى يمضى مائلا من خلال البوسنة من الشمالى الغربى الى الجنوب الشرقى · وبناء على اقتراح موسولينى ، دعا الألمان أنتى بافيليتش ليتولى الحكم فى دولة كرواتيا المستقله بوصفه حاكما عالما أى فيرر (*) · ولم يكن لحركته « الأوستاشا » (وهى الحركة القومية الكرواتية المتطرفة التى تولت السلطة فى دولة كرواتيا المستقلة) حتى ذلك الحين تكتل بين الناس (اذ ربما لم ينضو تحت لوائها أكثر من اثنى عشر الف عضو فى كل كرواتيا بأكملها) ، ولكنها سرعان ما أصبحت ذات تكتل كبير بمجرد أن تولت السلطة · وبعد عقدين من المقاومة السياسية لمركزية بلجراد ، فان الغالبية العظمى من الكروات رأوا أن اقامة « دولة كرواتيا المستقلة » حدث يحتفى به ، مهما تكن ظروف ميلادها ومهما تكن لا شرعية وضعها « المستقل » · وأيا كان الأمر ، فقد بقى السياسيون المسئولون البارزون فى مدة ما بين الحربين ، مثل فلادكو ماتشك ، سلبيين لايتحركون ، بينما المتعصبون يتولون زمام السلطة ويستغلون الدولة أداة للرعب وابادة الجنس ·

وصدر أول قانون مضاد لليهود فى « دولة كرواتيا المستقلة فى ١٨ أبريل ١٩٤١ · وبعد ذلك باثنى عشر يوما صدرت ثلاثة قوانين للدولة : عن المواطنة ، والهوية العرقية ، وحماية الدم الآرى ، وشرف الشعب الكرواتى » (٢) · على أن اضطهاد اليهود قد بدأ فعلا حتى قبل ظهور هذه الشكليات القانونية · ففى ١٦ أبريل ، وهو اليوم التالى لوصول الألمان الى سراييفو ، هاجم الجند الألمان المعبد أو الكنيس القديم هناك · وفى مدى يومين من السلب والنهب ، كانت محتويات جميع المعابد اليهودية فى المدينة قد دمرت تماما (٣) · وفى الوقت نفسه ذهب ضابط ألمانى على الفور الى المتحف القومى ليصادر هاجادا (**) سراييفو التى لاتقدر بثمن ، ولكن بفضل فطنة مدير المتحف ، أنقذت هذه المخطوطة وخبئت طوال فترة الحرب فى احدى القرى الجبلية (٤) · وعندما صدرت الأوامر فى الشهر التالى بأنه ينبغى لجميع الحوانيت ومحلات الاستثمار الأخرى

(★) فيرر (وليس فوهرر كما تنطق عادة) تعنى القائد أو الزعيم بالالمانية ، ولها دلالتها الخاصة فى النظم الفاشية القائمة على عبادة الفرد ·

(★★) الهاجادا · الجزء الأسطورى من التلمود ــ (المترجم) ·

« أن يكون لها مندوب من « الأوستاشا » للاشراف عليها » ، خصت الأعمال اليهودية بأشدهم غلظة وضراوة • وعندئذ بدأت سلسلة متلاحقة الحلقات من الاستيلاء على الأموال والاغنيالات ، وبدأ الاعتقال الجماعي لليهود فى دولة كرواتيا المستقلة ، أما فى صربيا التى عين لها رئيس غير متعصب ولكنه عميل خائن ومتواطىء مع الأعداء ، هو الجنرال نيديتش (Nedić) فقد بدأت فيها ملاحقة اليهود بعد ذلك بقليل ، وعندما حلت نهاية ١٩٤١، كانت غالبية اليهود قد نقلت الى معسكرات اعتقال بكل من المنطقتين • وتعاونت هيئات الموظفين المحلية فى هذه الملاحقات فى صربيا فضلا عن دولة كرواتيا المستقلة : ولم تكن أية منطقة بريئة من ذلك اطلاقا • ونهب جميع ما بالبوسنة من معابد يهودية ، كما دمر كثير منها تدميرا تاما • وعند نهاية الحرب قدر أنه من بين أربعة عشر ألف يهودى بالبوسنة قتل ما لايقل عن اثنى عشر ألفا (٥) •

وغنى عن البيان ، مع ذلك ، أن معاداة السامية كانت فى الدرجة الثانية من الاهمية فى أيديولوجية الأوستاشا • وكان الهدف الأساسى هو « حل » مشكلة الأقلية الصربية الكبيرة (١٫٩ مليونا من اجمالى ٦٫٣ مليونا) فى أرض دولة كرواتيا المستقلة (٦) • وفى مايو بدأت حملة من الترويع ضد المواطنين الصربيين • وفى يونيو حدث اعتقال جماعى للصرب فى موستار ، فضرب المئات منهم بالرصاص وألقيت جثثهم فى النيريتفا ، ونفذت فظائع مماثلة لهذه فى دولة كرواتيا المستقلة بما فى ذلك المدن البوسنية مثل بيهاتش وبرتشكو ودوبوى ، دمرت قرى بأكملها فى منطقة سراييفو • وبلغ الأمر فى يوليو أنه حتى الألمان أنفسهم أخذوا يشكون من فظاعة ووحشية هذه الاعتداءات (٧) • وكان رد هؤلاء الفلاحين الصرب ــ وخاصة ببلاد الهرسك ــ وهى معقل ثورة الفلاحين المسلحة فى ١٨٧٥ و ١٨٨٢ ، معروفا مقدما : ففى منطقة نيفيسينى أرجفوا بالثورة فى يوليو ١٩٤١ ، وطردوا قوات مليشيا الاوستاشا من مواقعها ، وأسسوا الى حين محدود ، « منطقة محررة » ، ضموها الى منطقة أخرى للمقاومة قائمة فى الجبل الأسود المجاورة • وعند ذلك استداروا على القرويين المحليين من كروات ومسلمين • اذ كانوا يعدون دخولهم تحت حكم دولة كرواتيا المستقلة نوعا من التواطؤ ، فقتل أكثر من ٦٠٠ مسلم فى الركن الجنوبى من الهرسك ، وفى يوليو وأغسطس بلغ عدد القتلى بالتقريب ٥٠٠ بالمنطقة المحيطة بفيشيجراد (٨) • وفى منتصف أغسطس كتب أحد المنظمين الشيوعيين رسالة يقول فيها من سراييفو : ان الثوار نهبوا سكان

القرى المسلمين فى منطقة موســتار ، وبهذا قلبــوا على أنفســهم جميع السكان المسلمين كافة » (٩) ٠

وأدت سياسات ابادة الجنس التي انتهجها نظام دولة كرواتيــا المستقلة الى اندفاع الآلاف من الصرب البوسنيين الى الانخراط فى واحدة من حركات المقاومة المنظمة ٠ وكانت هناك اثنتان من هذه التنظيمات تعملان فى الأراضى البوسنية ، مع صفات مميزة مختلفــة وأهداف شــديدة التباين ٠ وبلغ من شدة اختلافهما أن أصــبح جليا أن هناك حربا أهلية رعناء بينهما تتراءى من بعيد أمام الأنظار حوالى أكتوبر ١٩٤١ ٠ وقد شكل الأولى كولونيل فى الجيش اليوغوسلافى اسمه دراجــــا ميخايلوفيتش (Dradja Mihailović) ، وهو ضــــابط ملكى النزعة محب للانجليز ، وخبير متمرس فى حرب العصابات ، وكان يقيم فى البوسنة عندما حدث الغزو الألمانى ٠ فسافر شرقا بصحبة بقية الرجال الذين كانوا تحت امرته الى منطقة تلال رافنا جورا (Ravna Gora) ، فى غرب وسط صربيا . وهناك أقام مقر قيادته ٠ وكان بوصفه ضابطا فى الجيش ، يمثل البقية الباقية حيــة من السلطة الملكيــة (وعندئذ عمــدت الحكومة الملكيـــة اليوغوسلافية فى المنفى فيما بعد الى ترقيته الى رتبة الجنرال وتعيينه وزيرا للحرب) ، وتمكن بوصفه صربيا وطنيــا من ضمان ولاء كثير من المواطنين الصرب العاديين ٠ وأصبح رجاله يعرفون باسم التشيتنيك أى رجال العصابات ، وهو المصطلح التقليدى المأثور لأولئك القراضبة قطاع الطرق من الفرسان الكماة الصناديد ، والمقاتلين البواســل فى التاريخ الصربى القديم ٠ وكان ذلك الاسم مصدرا لعدة التباسات ، وذلك لأنه كانت هناك قبل ذلك منظمة رسمية من « التشيتنيك » تقوم على حركة من قدامى المحاربين من الحرب العالمية الاولى ، وأصبحت ساعدا للنظام العميل الصربى ٠ ونشأت تجمعات صربية كثيرة فى أمكنة أخرى وأسمت نفسها « تشيتنيك » ٠ ولكن لم تكن لها أدنى علاقة بجماعة ميخايلوفيتش ، وكانت نقطة الضعف الكبرى فى مهمته ، هى أن قواده المتفرقين بكل مكان كانوا يعملون آمادا طويلة فى استقلال تام ، أو عدم اهتمام بأى أوامر تصدر عنه (١٠) ٠ وبدأ الجند التشيتنيك التابعون له المقاومة الناشطة الفعالة ضد الألمان فى مايو ، ولكن السياسة العامة التى اتبعها ، كمــا طلبت اليه ذلك الحكومة فى المنفى فى يوليــو وسبتمبر ، كانت التربص وبناء منظمة ، وتسريب العملاء فى قوات نظام العميل الخائن نيديتش ، والتهيؤ للقيام بثورة ، لابد فى خاتمة المطاف أن تأتى ، عندما يكون الحلفاء قد انقلبوا ضد الألمان (١١) ٠

فأما المنظمة الأخرى وهى منظمة « البارتيزان » (الأنصار) وهم رجال المقاومة الشيوعية ، فكانت لها أغراض أخرى مخالفة تماما . فقد لعب الحزب الشيوعى دورا يكاد يكون مكنونا فى السياسات اليوغوسلافية فى فترة ما بين الحربين ، وذلك لأنه كان محظورا أمد تلك الفترة . وفى ١٩٤٠ لم يكن به سوى ستة آلاف عضو فى كل أرجاء البلاد كافة (١٢) . وكان قائد المنظمة تيتو (جوزيف بروز ، وهو الجاويش السابق فى الجيش النمسوى المجرى) ، من المخلصين لستالين ، ونجا من عمليات التطهير التى جرت فى موسكو ، وفى أثناء المدة المنحصرة بين عقد حلف مولوتوف ريبنتروب وغزو هتلر لروسيا ، كان يواصل اتباع خط « الكومنترن » الرسمى من الشكوى من العدوان البريطانى على ألمانيا . بيد أنه كان رجلا واسع الحيلة والتدبير ، كما أنه كان ذا قدرة فطرية على تدبير المؤامرات وتنظيمها . وبعد أيام من غزو ألمانيا لروسيا فى يونيو ١٩٤١ ، كان يدبر عملية مقاومة ، لم تكن تقتصر فقط على تدبير محاولة لطرد الألمان من البلاد (بينما تكون ألمانيا فيما قدر بتفكيره قد هزمت سريعا على يد روسيا (، بل واشتغل أيضا فى تحضير ثورة اجتماعية تتسلم السلطة اعدادا لدولة شيوعية بعد الحرب . وكان معنى ذلك الهدف الأخير امكان أن تكون تكتيكاته مخالفة تماما لتكتيكات قائد التشيتنيك . وكان ميخايلوفيتش يريد أن يحافظ ، ليس فقط على السكان بل وأيضا على النظام الاجتماعى بأكمله ، فكان من ثم شديد الحرص على عدم استعداء الألمان أو اعانة الخراب بمناطق كاملة من البلاد . ولكن من الناحية الأخرى كان تدمير المجتمع ، وخلق نوع جديد من أهل البلاد والسكان منزوع من جذوره وملقن بالراديكالية ، أمرا يعد فى مصلحة تيتو ، كأنما هو يقدم لطحنته . ومن ثم فان المناطق التى كانت تحررها قواته كانت تصبغ علنا بالصبغة السوفيتية » ، وعلى ذلك فان كثيرا من البورجوازيين المحليين نفذ فيهم حكم الاعدام ، بل لقد حدث أنه حتى بين صفوف أنصاره ، نفذ ألكساندر رانكوفيتش رئيس الأمن لدى تيتو ، تطهيرات قام بها من تلقاء نفسه . فالثورة الاجتماعية كانت الهدف الأسمى فوق كل شىء : وكما عبر واحد من أشد معضدى تيتو ، وهو ميلوفان ديلاس : « ان العمليات العسكرية .. كان الدافع اليها أيديولوجيتنا الثورية . فالثورة لم تكن ممكنة بغير كفاح عام مشترك متزامن ، ضد قوات الاحتلال » (١٣) فلا عجب اذن فى أن تعاونا خشنا ولكنه وثيق بين الفلاحين والتشيتنيك وقوات البارتيزان الشيوعية تمكن من أن يحرر مؤقتا مناطق فسيحة من الجبل الأسود والبوسنة وغرب صربيا فى أخريات صيف ١٩٤١ وخريفها ، ولكن كان من المستحيل أن يقوم التعاون طويل الأمد بين المنظمتين . فلقد حدثت فعلا بعض خلافات

وصدامات بينهم ، قبل أن يجيء هجوم ألمانى فى شتاء تلك السنة ، فمزق جيوش ميخايلوفيتش فى صربيا واجبر البارتيزان على الانتقال الى المرتفعات فى جنوب شرق البوسنة ٠

وهناك ناحية أخرى سياسات التشيتنيك والشيوعيين المتنافسة تحتاج هى الأخرى أن تذكر هنا : هى طريقة تعاملهم مع المسلمين ووضع البوسنة ٠ وقد كان بين التشيتنيك عدة أفراد من الرابيد (Rabid) وهم قوم صربيون وطنيون ، كانوا لا يرغبون فقط فى ابتلاع البوسنة بل وأيضا دالماشيا والجبل الأسود وأجزاء من كرواتيا وسلافونيا ، بل حتى أيضا شمال ألبانيا وضمهن جميعا الى أرض صربيا (١٤) ٠ ولقد كان يغذى هذه الأهداف اثنان من رجال الفكر فى الحركة التشيتنيكية : أحدهما هو المحامى والسياسى الصربى دراجيشا فازيتش (Dragisa Vasić) والمحامى الصربى البوسنى (من بانيالوكا) ستيفان موليفيتش (Stevan Moljević) ٠ وأصدر الأخير منهما فى يونيو ١٩٤١ مذكرة عنوانها « صربيا المتجانسة » ، وفيها طالب بأن تدمج فى صربيا جميع الأراضى سالفة الذكر ، وأوضح أن « الواجب الأساسى » هو أن « تخلق وتنظم صربيا متجانسة تشمل المناطق العرقية التى يسكنها الصرب »(١٥)٠ وكتب موليفيتش فى خطاب أرسله الى فازيتش فى فبراير ١٩٤٢ : « أن الأرض الصربية ينبغى أن تبسط على طول الخط الى دالماشيا ، وأنه ينبغى أن ينبع ذلك عندئذ تطهير الأرض من جميع العناصر غير الصربية ٠ وعندئذ يكون الشيء الواجب عمله هو ارسال جميع هؤلاء المعتدين الى حال سبيلهم : فالكروات الى كرواتيا ، والمسلمين الى تركيا أو ألبانيا » ٠ والآن وقد أصبح قوم من أمثال هذا الرجل هم الذين يؤثرون فى سياسة قيادة التشيتنيك ، (حيث أصبح موليفيتش المدير السياسى للحركة فى أوليات ١٩٤٣) ، صار واضحا أنه كان هناك أساس نظرى لسياسة مضادة للمسلمين بصورة لا هوادة فيها ٠

ولكن من الناحية الأخرى ، ليس هناك أى دليل قاطع يدل على أن دراجا ميخايلوفيتش قد دعا البتة الى التطهير العرقى ٠ والوثيقة الوحيدة التى طالما استشهد بها على أنها دليل على ذلك ، هى مجموعة من التعليمات أرسلت الى اثنين من القواد المحليين فى ديسمبر ١٩٤١ ، انما هى فيما يحتمل وثيقة مزيفة ــ وان وجب علينا أن نبين أنها وثيقة لم يزورها أعداء يريدون منها الحط من قدر ميخايلوفيتش ، بل القواد أنفسهم الذين رجوا أن يتناولها الناس على أنها وثيقة أصلية تشيتنيكية صحيحة (١٧) ؛ ومن المسلم به أن ميخايلوفيتش كان قادرا على استخدام منطق الوطنية الصربية

وبلاغتها • فان اعلانا عاما نسب اليه تصريحا يقول : « انى من أبناء شوماديا الصربية (وهى منطقة فى وسط صربيا) ، من أرض صربيا ، ومن أرومة صربية • وبصفتى هذه فانى سأقاتل من أجل أسمى المثل العليا التى يستطيع صربى أن يفاخر بها : من أجل التحرير الدائم والتوحيد الى الأبد للأرض الصربية ••• فحيثما وجدت قبور صربيا •• فثم أرض الصرب ••• » (١٨) ورغم ذلك ، فانه ظل خادما مخلصا مواليا للملك وحكومته فى المنفى ، التى كانت سياستها انقاذ واعادة بناء مملكة يوغوسلافيا بأكملها • وقد علق ميخايلوفيتش ذات مرة قائلا : « ان الصرب من حقهم أن يقولوا : نحن منذ الآن لم نعد نريد يوغوسلافيا ، ولكن هناك مصالح أسمى تضطرنا اضطرارا الى اعادة صنع هذه البلاد » (١٩) • وهو ابتداء كان يعد نفسه مقاتلا فى سبيل اعادة يوغوسلافيا الى الوجود ، بما فى ذلك بانوفينة كرواتيا شبه ذاتية الاستقلال ، الى سابق عهدها بالضبط قبل الحرب • على أنه عندما أدرك المدى البعيد القدر لمذابح الأوستاشا ، وافق على أن تؤخذ من كرواتيا بعض الأراضى : مثل طرفها الشمالى (سرم وبرانيا) ، الذى ينبغى أن يضم الى صربيا ، وينبغى أن تنضم جنوب دالماشيا الى البوسنة ، كما ينبغى أن تأخذ صربيا القسم الشرقى من الهرسك • وسيطلق للبوسنة نفسها الحق فى أن تقرر عن طريق الاستفتاء هل تريد أن تنضم الى صربيا أم لا ؟ (٢٠) ولما كان الجذع الأساسى من البوسنة يضم غالبية من السكان الصرب ، فان هذه التسوية الاقليمية لابد أن تنتج نتيجة مماثلة تماما لتلك التى يخططها مستشاروه الأعمق منه أيديولوجيا ، وكانت نقطة الفارق الرئيسية بينه وبينهم هى أنه شخصيا لم يكن لديه أية خطة لطرد المسلمين • ولكن مهما يكن الأمر ، فانه على العكس من تيتو ، لم يكن يتوقع أن يدير القطر بنفسه • فان كل هذه القرارات ، لو قدر له النجاح ، ستكون فى قبضة السياسيين والملك •

فلو سلمنا بأن تيتو كان ينوى بالفعل أن يدير الدولة بعد الحرب ، فستعجب عند أول نظرة من قلة المعلومات التى قدمها للشاكلة التى ستنتظم بها البلاد أو ستقسم • بل ان هناك سببا بسيطا لذلك ، فانه فى تلك المرحلة كان لايزال خادما مخلصا مواليا لستالين، وكان لايمتنع اطلاقا عن اتيان كل ما تطلبه موسكو : سواء أكان دولة مركزية قوية التمركز أم اتحادا يوغوسلافيا من جمهوريات فيدرالية اشتراكية ، أو حتى تكوين اتحاد فيدرالى بلقانى يضم أيضا بلغاريا وألبانيا • ويمكنك أن تقول ان الخليط المكون من الغيهبة التنظيرية والانتهازية القاسية التى لا ترحم ، وهى الصفات التى نعتت بها سياسة ستالين ازاء « مسألة القوميات » كانت كلها أمورا واضحة فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى

أيضا . وحتى منتصف تسعينيات الألف وتسعمئة ، كانت سياسة الكومنترن تعد يوغوسلافيا جزءا من جدار الدول المناوئة للاتحاد السوفييتي في فرساي . وقد دعا الكومنترن الى تفكيك يوغوسلافيا في ١٩٢٤ ، وتلقى الشيوعيون اليوغوسلاف تشجيعا على استفزاز القوميات المعادية على بلجراد ، كوسيلة تتخذ لتلك الغاية . ولكن في ١٩٣٥ تغير خط الاتجاه تغيرا تاما : اذ كان المطلوب من الشيوعيين الآن أن يحافظوا على يوغوسلافيا ، وأن يعملوا بروح « الجبهة الشعبية » ضد الفاشية الدولية (٢١) . وليس هناك أدنى شك في أن ستالين لو أنه كان قد أبدى كراهية لجميع أشكال الهوية الوطنية ولو كان قد سبها بأنها بورجوازية وطالب بالغائها ، لقفز تيتو من خلال ذلك الطوق أيضا . وفي غمرات الحرب تعلم بعض الدروس من واقع تجربته في محاولة بث التلاحم في صفوف جيشه بين كل ما حوى من أعضاء القوميات اليوغوسلافية المختلفة المتنافسة .

من أجل ذلك لا ندهش اذ نجد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي يفتقر الى فكرة واضحة عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه البوسنيون المسلمون . على أن ذلك الحزب في أولى مراحله من ١٩١٩ الى ثلاثينيات الألف وتسعمئة ، لم يكن يعير الا أقل القليل من الالتفات لذلك الموضوع ، لأن الحزب الشيوعي للبوسنة نفسها لم يكن الا شظية منعزلة من الناس ، ولم يكن به حتى ١٩٣٩ الا مئة وسبعون عضوا فقط (٢٢) . وجرت عادته أثناء تلك المرحلة برفض الفكرة القائلة بأن أية مجموعة من الناس تحددها ديانتها يمكن أن تكون لها هوية سياسية أو قومية . ولكن بعد التحول الجذري في موقفه في ١٩٣٥ ، شرع الشيوعيون في أن يقدموا ما يشبه أن يكون عدة مقترحات شبه فيدرالية ، لدولة أو قطر يتكون من سبع وحدات اقليمية تكون البوسنة واحدة منها . وكان معنى ذلك مقاومة الدعاوى المتناحرة بأن البوسنة « كرواتية حقة » أو « صربية حقة » ، وأرغمت الشيوعيين على أن يهتموا بهوية المسلمين الخاصة (٢٣) . وفي ١٩٣٦ كتب أحد المفكرين الشيوعيين المبرزين وهو ادفارد كارديلي (Edvard Kardelj) السلوفيني يقول : « لسنا نستطيع الكلام عن المسلمين كأمة ، ولكن كجماعة عرقية خاصة » (٢٤) . وقال « خطاب مفتوح » كتبه الشيوعيون في البوسنة : « ان المسلمين ظلوا في البوسنة دائما كلا خاصا أو كيانا خاصا » . ولكن التصنيف ظل غامضا بصورة متعمدة ، وفي مؤتمر الحزب الذي عقد في ١٩٤٨ ، وصف الرجل المنوط به سياسة شئون القوميات وهو ميلوفان ديلاس المسلمين بأنهم : « جماعة عرقية » ، ومع ذلك فانه أخرجهم من قائمة الشعوب اليوغوسلافية (٢٥) .

وفى أثناء الحرب ظلت منشورات قواد الحزب غامضة بل حتى متناقضة . فان وثيقة نشرها « مجلس البوسنة المضاد للفاشية » (وهى الجمعية الشيوعية الاقليمية) فى ١٩٤٣ أشارت الى « ممثلى الشعوب الصربية والكرواتية المسلمة » ، ولكن الذى حدث فى نفس السنة أن اجتماع « المجلس المضاد للفاشية » ، الذى وضع أسس يوغوسلافيا الفيدرالية الاتحادية بعد الحرب ، رفض الفكرة الذاهبة الى أن المسلمين أمة . وقد أقيمت الخطة التى قدمها ديلاس على شاكلة النموذج السوفييتى : « خمس جمهوريات قومية » ، من أجل « أمم يوغوسلافيا الخمس » (الصرب والكروات والسلوفين والجبل الأسود والمقدونيين) . أما البوسنة فتكون وحدة منفصلة متميزة ، على أن تكون ولاية ذات استقلال ذاتى ليس الا وليست جمهورية قومية . وكأنه كانت هناك مباراة « شد الحبل » ، بين الموفدين الصربيين الذين أرادوا أن تكون البوسنة مدمجة فى صربيا ، والمندوبين البوسنيين الذين شاءوا لوطنهم أن يكون له وضع معادل ، بوصفه جمهورية . وأخيرا جاءت التسوية النهائية ، باعطائها وضعها الجمهورى ولكن مع وصفها بأنها جمهورية يسكنها « أجزاء من الأمتين الصربية والكرواتية ، بالاضافة الى المسلمين البوسنيين » (٢٦) .

وكل هذه المناقشات كانت على كل حال أكاديمية نظرية بحتة ، حتى انتصر رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) فى الحرب - وأعنى بها الحرب على التشيتنيك . وكان كل من الجانبين يحارب من وقت لآخر ضد قوات المحور ، وكان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يفعلون ذلك أكثر من التشيتنيك ، وذلك من ناحية جزئية للأسباب السابق ذكرها ولكن الحرب على التشيتنيك ، هى التى سيطرت على استراتيجية تيتو . وبعد فرازه من صربيا الى منطقة فوتشا فى الجنوب الشرقى من البوسنة فى نهاية ١٩٤١ ، انحصر قلق تيتو فى خوفه من أن تصبح منطقة وسط صربيا هى والسنجقية اقليما تشيتنيكيا ، الأمر الذى حدث فعلا . وما أسرع أن أصبح الجبل الأسود وأجزاء من الهرسك تحت سيطرة القوات التشيتنيكية أيضا بقيادة قواد محليين ، الذين اصطنعوا ترتيبا للعمل مع المحتلين الايطاليين ! . (وكان الذى يحدو الايطاليين على ذلك هو الرغبة فى الحصول على حياة هادئة والتحصن ضد البارتيزان) ، وارادة حقيقية فى ترك السكان المحليين يحمون أنفسهم من رجال الأوستاشا . وفى صيف ١٩٤٢ ، زحف تيتو الى الشمال الغربى مخترقا البوسنة على امتداد الخط الفاصل بين منطقتى احتلال الألمان والايطاليين. واستقر بمنطقة تتمركز حول بيهاتش لا توجد بها أية قوات للمحور .

وهناك أقام بضعة أشهر وهو يحشد حشوده اذ أخذ يجمع فيها البوسنيين الصرب وبعض الكروات أيضا • وعند حلول الخريف ادعى أنه سيطر على « منطقة محررة » في حجم سويسرا ، وذلك لأن قوات المحور وقوات دولة كرواتيا المستقلة لم تأبه بمهاجمته •

ومع أن جيش تيتو كان يضم آلافا من الرجال البواسل الأشداء فلابد أن يقال ان القتال الضخم المعيار الذى شب بينه وبين قوات المحور ، انما حدث بناء على مبادرات من قادة المحور ، الذين كانوا يقررون بين حين وآخر اجلاء رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان من مناطق بعينها• فأما « تحرير المناطق » على يد تيتو وهى مناطق الريف السحيقة البعد ، فلم يكن له أثر حيوى على الجهد الحربى الألمانى اذ كان الألمان والايطاليون يواصلون السيطرة على المدن الكبرى ، وعلى الطرق والسكك الحديدية الرئيسية ، وعلى المناجم • وكثيرا ما قيل ان تيتو قد « ألزم » أعدادا ضخمة من الفرق العسكرية الألمانية و « ربطها » فى مواقعها ، ولكن الراقع أنه لم يكن هناك عند بداية ١٩٤٣ سوى أربع فرق عسكرية ألمانية ، ذات مستوى خفيض ، بكل يوغوسلافيا بأسرها • (وفي أغسطس من تلك السنة انضمت اليهم فرقتا احتياط من مجندين تحت التدريب ، وفرقة واحدة منهوكة القوى من ستالينجراد • ثم أضيفت اليهم قلة بعد ذلك قرب نهاية العام بعد استسلام القوات الايطالية فى سبتمبر) (٢٧) • وكما كتب ناقد معاد لتيتو ، وان كان قوله يتسم بقوة الادراك ونفاذ البصيرة : « هناك فى مناطق البوسنة والهرسك وكرواتيا حيث كان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يروحون ويغدون ، جرت بالطبع اشتباكات متكررة بينهم وبين قوات المحور • وقد دمرت جميع المواصلات بأعمال التخريب ، ولكن لم يكن ذلك وفق أية خطة استراتيجية • وعلى اغلب الظن أنها خربت لحماية تقهقر رجال المقاومة البارتيزان ، كما أن الحركات كلها كانت فى واقع الأمر تقهقرات دائما » (٢٨) •

والسبب الرئيسى الذى من أجله قرر الألمان اجلاء قوات تيتو من الشمال الغربى للبوسنة فى أوائل ١٩٤٣ ، هو خوفهم من أن ينزل الحلفاء جيوشهم على الساحل الدالماشى ، وهم من ثم شاءوا أن يحكموا سيطرتهم على تلك المنطقة الداخلية من الأرض المهمة من الناحية الاستراتيجية ، ولنفس السبب صمم الألمان على القيام بهجوم على التشيتنيك فى الهرسك والجبل الأسود (٢٩) • وكانت فكرة نزول الحلفاء برا ، مسيطرة على استراتيجية وفكر جميع القواد العسكريين • وكان ميخايلوفيتش يريد ازاحة رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، حتى لا يكون هناك أى عائق

يمنع تقدم الحلفاء السريع الى الداخل لينضموا الى قواته أيضا (٣٠) . فأما تيتو فانه أرسل ثلاثة من كبار موظفيه للتفاوض مع الألمان فى مارس ١٩٤٣ ، وذلك أولا فى مدينة جورنى فاكوف البوسنية ، ثم بعد ذلك فى زغرب : فأبلغوا الألمان أنه « فى حالة نزول برى أنجلو أمريكى ، كان تيتو مستعدا للتعاون مع الفرق العسكرية الألمانية فى كرواتيا فى عمليات مشتركة ضد الغزاة » (٣١) . وكان تيتو على يقين من أن احتلال الحلفاء ليوغوسلافيا لم يكن له الا معنى واحد هو اعادة الملك وحكومته الى البلاد ، وانتهاء كل حلم بقيام استيلاء شيوعى سريع على البلاد . وظلت هذه المخاوف تؤرقه حتى بعد أن أخذ يتلقى مساعدات مباشرة من الحلفاء فى أخريات صيف ١٩٤٣ . وكما لاحظ أحد كبار الموظفين الألمان فى يوغوسلافيا : « فى ١٩٤٤ كانت هناك لحظات أصبح فيها قلق رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان من الألمان أقل منه من نزول الحلفاء برا » (٣٢) .

وفى أثناء ١٩٤٣ أدى هذا التضارب فى الأهداف الى مجموعة من الانحيازات التكتيكية المتعاقبة بين استراتيجيات القوات المختلفة الثلاث ـ أو قل الأربع ، وذلك نظرا لأن سياسة الايطاليين نحو التشيتنيك كانت تختلف عن سياسة الألمان المتشككة . ودفع الألمان رجال المقاومة الشيوعيه البارتيزان نحو الهرسك فى أوائل ١٩٤٣ ، وعلى كل حال ، فان تيتو كان يفكر فى خطة الانزلاق الى الجنوب للتعرض للقوات التشيتنيكية فى الهرسك والجبل الأسود . وفى مارس تمكن ـ وان لاحقه الألمان وقاومه التشيتنيك ـ من النجاح فى عبور نهر نيريتفا بالهرسك والتحرك جنوبا حتى دخل الجبل الأسود معقل التشيتنيك الحصين . (وعند تلك النقطة بالضبط شرع فى اجراء مفاوضاته مع الألمان ، لاقناعهم بأنه من مصلحتهم السماح له باطلاق يديه على ميخايلوفيتش) (٣٣) . وكان الايطاليون يتعاونون تعاونا وثيقا مع التشيتنيك ، ولكن الألمان كانوا لا يزالون يعتبرون تدمير قوات ميخايلوفيتش هدفا استراتيجيا مهما : ومن ثم فانهم قبضوا على بضعة آلاف من التشيتنيك بالجبل الأسود ، وجردوهم من سلاحهم فى مايو ، وأرسلوا قائد المنطقة التشيتنيكى الى معسكر اعتقال فى جاليسيا (٣٤) . ثم ما لبث الألمان أن انقلبوا فى أوائل صيف ١٩٤٣ على رجال المقاومة الشيوعية البارتبزان ، وأوشكوا أن يحاصروهم على جبل دورميتور بشمال الجبل الأسود . بيد أن رجال تيتو قاتلوا بعزم فائق أكيد ، وأخيرا استطاعوا شق طريق لهم من خلال القوات المحاصرة ، متحركين من خلال جنوب شرق البوسنة ، ثم الحول بدورة نحو الشرق من

سرايبفو ثم السير غربا من أولوفو الى ترافنيك (٣٥) • وأخيرا تمكن تيتو من اقامة مقر قيادته في منطقة جايس في غرب وسط البوسنة •

وعلى جبل دورميتور ، انضم الى تيتو ضابط بريطاني هو وليام ديكون • وكان عميق الاعجاب بقدرات رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) القتالية • وأدت التقارير التي أرسلها هو وكثير من الضباط البريطانيين الآخرين ممن زاروا رجال المقاومة أثناء الصيف والخريف ، الى اقناع الحلفاء بنقل مساندتهم من ميخايلوفيتش الى تيتو • وفي الحين نفسه فاز رجال المقاومة البارتيزان بميزة عظيمة على التشيتنيك ، عندما استسلم الايطاليون في سبتمبر ١٩٤٣ ، فسقطت بذلك في أيدي رجال المقاومة البارتيزان مقادير ضخمة من المعدات الايطالية ، وعندئذ أخذ قواد ميخايلوفيتش الاقلبميون يتعاونون لأول مرة مع الألمان (٣٦) • وفي أثناء ١٩٤٤ زيدت مساندة الحلفاء لتيتو قوة ، كما أن قواته زادت حجما وعددا عندما أدى السقوط العام لحكم الأوستاشا الى ملء صفوف جيشه بالنافرين من الكروات والبوسنيين وكذلك الصربيين • وفي صيف تلك السنة بدأ الألمان انسحابهم من يوغوسلافيا • وأرسلت مقادير ضخمة من الأسلحة الى تيتو لتمكينه من تعويق انسحابهم ، ولكن أهم ما كان يشغل تيتو في ذلك الحين هو اتمامه انتصاراته في الحرب الأهلية • وفي سبتمبر أقنع الحلفاء الملك بيتر أن يوصي جميع اليوغوسلاف بمساندة تيتو • ولكن عند نهاية السنة تمكنت القوات السوفيتية (الجيش الأوكراني الثالث بقيادة المارشال نولبوخين (Talbu Khın) من احتلال ما يقارب ثلث مساحة البلاد • وبذلك تأكد الآن الحكم الشيوعي ليوغوسلافيا •

ولا شك في أن موقف الكروات البوسنيين والصرب البوسنيين أثناء سنوات القتال الأربع هذه واضح سهل الفهم • فان الأولين منهما سلكوا مسلك الكروات في كرواتيا : اذ عمدت قلة منهم الى تقديم المساندة الفعالة الى الأوستاشا ، بينما رحبت الغالبية بتأسيس دولة كرواتيا المستقلة في البداية فقط ، ثم أخذت رويدا رويدا تفيق من الانبهار بها ، الى أن بلغ الأمر بهم في ١٩٤٣ و ١٩٤٤ أن أخذت أعداد غفيرة منهم تنضم الى رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، على أن الصرب البوسنيين ، كما رأينا سابقا ، سرعان ما دفعوا الى معارضة دولة الأوستاشا واحتلال المحور العسكري • وكانت هناك ثلاث فترات رئيسية قضى فيها جيش المقاومة البارتيزان عدة شهور بمكان واحد ، وهو يجمع المؤونة ويضم اليه مجندين

جدا . وكانت كلها فى الأراضى البوسنية (فوتشا فى النصف الأول من ١٩٤٢ وبيهاتش فى النصف الثانى من نفس السنة ويايسه فى النصف الثـــانى من ١٩٤٣) ، ومن ثم فقد ســنحت فرص كثيرة أمام الصربيين البوسنيين لكى ينضموا الى قوات المقاومة البارتيزان . وكانت قوات ميخايلوفيتش التشيتنيكية تجند الصرب البوســنيين أيضا ، وخاصة فى منطقة وادى الدرينا الواقعة فى شرق البوسنة ، وفى أراضى الحدود للهرسك والجبل الأسود .

وكان موقف البوسنيين المسلمين أكثر تعقيدا . فكما رأينا كانت العواطف السياسية العامة للمسلمين أميل الى زغرب أكثر منها الى بلجراد طوال فترة ما بين الحربين . ومع أن السياسة الرسمية لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف كانت تتجه الى « اليوغوسلافة » المخففة الى حد ما بدرجة من الاستقلال الذاتى الاقليمى ، ومع أن سباهو ظل على الدوام يصف نفسه بأنه يوغوسلافى ، فان معظم زملائه المسلمين قد سموا أنفسهم كرواتا مسلمين : ومع ذلك فان هذا التحديد للهوية كانت له جوانب قصور ، فعندما أقام أشـــد المسلمين السياسيين ميـــــلا الى الكروات وهو حقى حاجيتش (Hakija Hadzić) فرعا اسلاميـــا لحزب الفلاحين الكرواتى استعدادا لانتخابات ١٩٣٨ لم ينضـم اليـه الا حفنة من خصوم سباهو ، ولم يحصل على بضعة آلاف من الأصوات الا بشق الأنفس (٣٧) . وشـــاع بين رجال الدين المسلمين اتجاه عجيب التخليط نحو فكرة « الكروتة » (أى الصبغة بالصباغ الكرواتى) . وكان فهيم شـقيق محمد سباهو ، الذى تولى منصب رئيس العلماء من ١٩٣٨ ـ ١٩٤٣ ، وقد اعتبر نفسه « كرواتيا » ولعب دورا زعيما فى الجمعية الثقافيـة الاســلامية المسماة « نارادونا أوزدانيكا » التى كانت تناصر الكروات . (وذلك بينما الجمعية المنافسة ، وهى جمعية جايرات ظلت تبدى هوى نحو الصرب) . بيد أن فهيم سباهو حرص أيضا على الاحتفاظ بهوية المسلمين الخاصة ، التى شعر بأنها معرضة للخطر . ومن ثم فانه أصدر التعليمات بمنع الزيجات المخلطة ومنع استخدام الأسماء غير الاسلامية فى تسمية الأطفال ، بل لقد بلغ به الأمر أن نصح المسلمين بعدم الدخول الى الكنائس الكاثوليكية خشية أن يضطروا الى خلع طرابيشهم متى دخلوا هناك (٣٨) .

وعندما قوبل المسلمون بضرورة الاختيار بين أن يحكموا من بلجراد أو زغرب ، اختـــار معظم السياسيين المسلمين وكبار رجال الدين زغرب شريطة الحصول على ضمانات بأن ممارسـة العقيدة الاســلامية ستستمر غير معرضة لأية مضايقة . وذلك ما حرص اننى باديتش على أن يعدهم به

فى مدى أيام من وصوله الى الرئاسة . وفى ٢٥ أبريل ١٩٤١ أرسل اليهم مبعوثا ليؤكد لفهيم سباهو أنه يريد من المسلمين البوسنيين أن يشعروا « بأنهم أحرار وراضون تماما ويمتلكون حقوقا متعادلة » . وقدمت الضمانات للمسلمين بحرية العقيدة ، بما فى ذلك نظام التعليم الخاص بهم ، ودعى أحد عشر سياسيا من رجال منظمة المسلمين اليوغوسلاف السابقين للانضمام الى البرلمان المنعقد فى زغرب (٣٩) .

وعين جعفر كولينوفيتش زعيم الحزب نائبا لرئيس حكومة دولة كرواتيا المستقلة فى نوفمبر ١٩٤١ . وكان على الدوام رجلا محبا للكروات فى تطلعه ونظرته ، كما أنه ، كما رأينا ، يئس من سياسة بلجراد فى السنوات الأخيرة السابقة على الحرب ، بيد أنه لم يكن متحمسا للأوستاشا . وكما عبر أحد الخبراء المتخصصين فى دراسة هذه المدة ، حيث قال : « ومع أنه بقى فى الحكومة حتى النهاية ، فانه لم يحرز قط ثقة الأوستاشا ، كما أنه فقد سمعته بين أتباعه من أعضاء منظمة المسلمين اليوغوسلاف » ، وبفعل الضغط الذى كانوا يمارسونه عليه أخذ يقول : « انه ليس ممثلهم أو نائبهم فى حكومة دولة كرواتيا المستقلة وانه لا يمثل الا نفسه » (٤٠) . وبعد وفاة محمد سباهو ، أصبح أعظم الزعماء نفوذا فى « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » رجل أعمال من سراييفو هو آوزير آغاحاجى حسنوفيتش (Uzeir-aga Hadzihasenović) . وقد شجع كولينوفيتش فى الانضمام الى حكومة دولة كرواتيا المستقلة ليحول دون حدوث مخالفات للقانون ، كما استخدم نفوذه ضد المتطرف المحب للكروات وهو حقى حاجيتش الذى عين آنذاك مندوبا ساميا للأوستاشا فى البوسنة . وفى نهاية أبريل ١٩٤١ اشترك حاجى حسنوفيتش فى عضوية وفد مشترك مسلم — صربى مع السياسى المسلم الصربى ميلان بوجيتش ، ليطلب من حقى حاجيتش الاستقلال الذاتى للبوسنة . وكانت نتيجة هذه المبادرة أن اعتقل بوجيتش وزملاؤه الصربيون ثم قتلوا بعد ذلك بقليل ، وأبلغ حسنوفيتش بأنه ينبغى له أن يتخلى عن جميع آرائه المناهضة للكروات (٤١) .

وما لبثت أكنة الخداع أن أزيلت سريعا عن أعين كثير من المسلمين . ومع أنه لم يكن هناك برنامج ضدهم ، الا أنه كان واضحا أن الوعد باحترام حقوقهم لم ينفذ ، وببساطة لم تطبق دولة كرواتيا المستقلة مبدأ سيادة القانون . وأصدر علماء المسلمين سلسلة من القرارات والاحتجاجات فى أثناء صيف وخريف ١٩٤١ ، بدءا باليوم الثانى من اغسطس . وظهرت تلك القرارات فى سراييفو وبرييدور وموستار

وبانيالوكا وبييلينا وتوزلا · وأشار قرار موستار الى : « ما لا حصر له من الجرائم والاعتداءات والأساليب غير القانونيـــة والتحويـل الدينى القهرى ، التى كانت ومازالت تستخدم ضد الصرب الأرثوذكس ، وغيرهم من المواطنين ، وشكا رجال الدين فى بانيالوكا من سرقة ونهب ممتلكات ومتعلقات الصربيين واليهود ، كما أن التماســا أعده حاجى حسنوفيتش ووقعه مئة من سراة المسلمين فى سراييفو ، شـــجب أعمال العنف التى تمارس ضـــد اليهود والصربيين وطالب : « بتأمين الحيـــاة والكرامة والممتلكات والدين لجميع المواطنين بغير استثناء » · وفى نهـــاية العام نفســه كان الألمان يبلغون رئاستهم أن « العلاقات بين الحكومة والمسلمين قد تدهورت تدهورا شديدا » (٤٢) ·

وفى الحين نفسه ، أدت أفعـال العنف التى كان يرتكبها القرويون الصربيون ضد المسلمين ، وبخاصة فى بلاد الهرسك الى أن يشعر المسلمون فى النهاية بأنه من المستحيل عليهم أن ينضموا اليهم فى كفاحهم ومقاومتهم للأوستاشا · وعلى العكس من ذلك تماما فقد دفع بعض المسلمين الى أن ينخرطوا فى ميليشيا الأوستاشا بدلا من مقاومتهـا · بل بلغ الأمـر أن المسلمين البوســنيين لم يكن لهم ممثل فى الحـكومة فى المنفى ، ومن ثم فلم يشعروا الا بقدر قليل من الولاء لذلك الممثل العسكرى لتلك الحكومة وهو ميخايلوفيتش · ولكن الذى حدث فى النصف الثـانى من ١٩٤١ ، عندما أصبح البارتيزان أقوى من الناحيتين السياســية والعسكرية من التشيتنيك (وعندما أصدر قواد المقاومة البارتيزان أوامرهم بمنع هجوم رجالهم على القرى المسلمة) ، شرع المسلمون ينضمون الى جيش تيتو · وشكلت أول وحدة مقاومة بارتيزان اســلامية وهى المسماة موييناتشيتا (Mujina ćeta) بعد أغسطس ١٩٤١ ، حتى اذا وافى ديسمبر كانت قد أصبحت كتيبة · ثم تكونت وحدة من شباب المسلمين أيضا أثناء اقامة تينو فى فوتشــا فى شــتاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ، وفى أوائل ١٩٤٢ ظل المسلمون يواصلون الانضمام الى كتائب المقـاومة البارتيزان فى زينيكا والهرسك · وتشكلت وحدات اسلامية أخـــرى فى أثنـاء تلك السنة ، ولم يلبث شهر ديسمبر أن شـــهد تشكيل « الآلاى الثامن الاقليمى الاسلامى » بقيادة عثمان كاربيجوفيتش (Osman Karabegović) (٤٣) · وكان عدد المسلمين المجندين قليلا فى بادىء الأمر ، ولم ينضم الا سياسى مســلم بارز وحيـــد فقط هو نورى بوزدراك (Norija Pozderac) الى الشيوعيين فى تلك المرحلة المبكرة ، وكان من العسير اقنـاع أئمة ومفتى البوسنة ، بأن مستقبل شعبهم انما يقوم مع الشيوعية الالحادية · ولعلهم قد سمعوا قبل ذلك بتلك المعاملة الرهيبة التى يلقاها الاسلام فى الاتحاد

السوفييتي ، أثناء السنوات العشرين السابقة . ولم يكونوا يشعرون بأي اقتناع لدى قراءة النشرات التي كان يكتبها تنظيم تيتو آنذاك ، التي تظهر روسيا ستالين وكأنما هي أرض عجائب من التســـامح والحرية الدينية الاسلامية (٤٤) .

ومـع ذلك ففي أثنـــاء تلك المدة ، وبينما كان القواد التشيتنيك لايزالون يسمحون لجندهم بمهاجمـة القرى الاسلامية ، كان التشيتنيك يلتمسون العون رسميا من المسلمين ، وكما كتب في ١٩٤٢ ، أحد الزعماء لتشيتنيك بالهرسك وهو دوبروساف يفديفيتس (Dobrosav evdjević) في يوليو ١٩٤٢ : كان من الضروري أن نتجمل بالتســامح نحو المسلمين لأسباب تكتيكية ، وذلك « دون أن ننسى أنه لايمكن أن تقوم هناك وحدة حقيقية معهم » (٤٥) . ولم يكن من المحتمل ولا المنتظر من مسلمي جنوب شرقي البوسنة والهرسك أن ينســوا ذلك ، وذلك نظـراً لأن التشيتنيك وغيرهم من القوات المحلية الصربيـــة ، قتلت عدة آلاف من المسلمين في شتاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ وصيف ١٩٤٢ . وكان من أشنع المذابح ما حدث في منطقة فوتشا ــ نشاينيتشي ــ حيث قتل ألفا مسلم على الأقل هناك على يـــد قوات تحت امرة قائد نشيتنيكي هو زاهاريا أوســــتوبيتش (Zaharia Ostojić) في اغسطس ١٩٤٠ ، وفي فبراير ١٩٤٣ قتل أكثر من تسعة آلاف من الأفراد ، بينهم ثمانية آلاف من الشيوخ والنســـاء والأطفال (٤٦) . والآن ، أصبح العداء قائما بين الطرفين . وكلما زاد عدد المسلمين المنضمين الى البارتيزان اشتدت نظـرة التشيتنيك الى المسلمين كأعداء ، وكلما فتك التشيتنيك بالمسلمين ، زاد احتمال تعاون المسلمين المحليين مع قوات المقاومة والألمان والايطاليين ودولة كرواتيا المستقلة ضد التشيتنيك .

ومع هذا كله ، فقد كانت الصـــورة والنموذج يتغيران من مكان الى آخر . حتى بلغ الأمر في بعض المناطق ، أن كان من الممكن والمحتمل أن يتبادل المسلمون والتشيتنيك التعاون ، فقد حدث أن جماعات التشيتنيك والمسلمين بمنطقة زينيكا بعثت برســالة الى الألمان في مايو ١٩٤٢ قالت فيها : « أزيلوا الأوستاشا من البوسنة ، وعندئذ نعدكم نحن المسلمين والصرب باتبـــات النظام هنـا في مدى أســبوعين » (٤٧) . وكان أشد المسلمين المؤازرين للتشيتنيك نشـاطا همـا الدكتـور عصمت بوبوفاك (Ismet Popovak) عمدة كونيكا ، وفؤاد موسى كاديتش رئيس شرطة سراييفو الأســبق . وكتب بوبوفاك الى ميخايلوفيتش مقترحـا عليـه أن يجند المسلمين في قواته ، وكان هناك من يؤيدون هذه الفكرة بين المسلمين الأكثر ميـلا الى الصرب والأكثـر مضاداة للشيوعية في كثير من المدن

البوســنية ، وعند ديسمبر ١٩٤٣ كان النـاس يقـدورن أن عدد مؤيدى ميخايلوفيتش من المسلمين قد يصل الى ثمانية فى المائة من جندهم ــ ولعلهم كانوا يبلغون أربعة آلاف أو أكثر (٤٨) · وقاد بوبوفاك بنفسه هجوما قام « بتحرير » قرية مسلمة فى يناير ١٩٤٣ · وحدث فيما بعد فى تلك السنة نفسها ، أن قبض الشيوعيون على بوبوفاك وموسى كاديتش ، وأعدموهما رميا بالرصاص (٤٩) ·

وفى بحران هذا الدردور (الدوامة) من القوى المتصارعة ــ التى كانت كل واحدة منها ، كما يلحظ القارىء ، ذات مصـــادر من خـــارج البوسنة ــ كان خط السير الأقرب الى الطبيعة والأحب الى قلوب الناس ، الذى ينبغى للمسلمين أن يتبعوه ، هو أن يشكلوا وحدات دفاعهم المحلية الخاصة ، ويحاولوا حماية أنفسهم من كل وارد من الخارج · وحدث فعلا أن نشأت جماعات صغيرة من هذا النوع بكل أرجاء القطر · وفى أكتوبر ١٩٤٢ نشأ أيضا « فيلق من المتطوعين المسلمين » يتكون بالتقـريب من أربعة آلاف رجل ، اشتبك فى حرب مع المقاومة البارتيزان أكثر مما اشتبك مع التشيتنيك · وأدى عدم اطمئنانه نحو حكومة الأوستاشا (ومنها كان مع ذلك يحصل على امدادات من السلاح) ، أن حاول أن يتعامل رأسا مع الألمان (٥٠) · وتجمعت قوة مماثلة ولكنها أكثر استقلالا ، بمنطقة كازين (Cazin) بشمال غرب البوسنة قرب (بيهاتش) فى صيف ١٩٤٣ : يقودها قائد كان فى السابق من المقاومة البـارتيزان يدعى هوســـكا ميليكوفيتش ، ويتكون فى معظمه من المحاربين السابقين من البارتيزان الخارجين على كل سنة خلقية والفارين من الجندية من قوات الدفـــاع المحلى ، وكانت تنطوى على ثمانى كتائب وتسيطر على منطقة متسعة من الأراضى · وكان هوســـكا ميليكوفيتش تتجاذبه اغـراءات كل من دولة كرواتيا المستقلة والبارتيزان ، ولكنه تباعد عنهما حتى ١٩٤٤ ، عندما عقد اتفاقا مع المقاومة البارتيزان ــ وعندها اغتاله بعض أفراد جينســه الميالين الى الأوستاشا (٥١) ·

وكان كثير من الزعماء السياسيين من المسلمين يرى أن الحل الوحيد للمسألة هو فى اعطاء البوسنة نوعا ما من الاستقلال الذاتى · وأن الطريق الوحيدة للوصول الى ذلك الاستقلال ، هى التوجــه مباشرة الى الألمان ، لأنهم هم الوحيــدون الذين يستطيعون منح ذلك العطــاء · ولم يـكن ذلك مجرد ابتعاث أو انتعاش للحلم القديم للسياسيين المسلمين ، وان ردد صدى الالتماس الذى قدمه أقوام مثـل شريف أرناؤوطوفيتش لبـلوغ الاستقلال الذاتى تحت الحكم المجرى ، عند نهاية الحرب العالمية الأولى : لقد كان ذلك محاولة للوصول الى حل عملى لموقف لا نبرح وطأته تزداد

شدة على كواهل الناس • ومن هنا نشأت « المذكرة » الشهيرة التي وجهها زعماء البوسنة المسلمون الى هتلر في نوفمبر ١٩٤٢ ، وهى المذكرة السالف ذكرها في الفصل الأول من هذا الكتاب • وبعد الافاضة في الفخر بالأصل القوطي ، شكت المذكرة من الشكوى من كثرة المذابح التي ارتكبتها الأوستاشا ضد المسلمين ، والتمست ايقاف جميع الأنشطة الأوستاشية في الأراضي البوسنية ، ولحماية البلاد التمست المذكرة الاذن بتوسيع عدد فيلق المتطوعين المسلم ، ورغبة في بث الطمأنينة في نفوس الألمان ، اقترحت أن يوضع الفيلق تحت السيطرة الألمانية المباشرة (٥٢) •

كانت هذه طائفة من المقترحات محسوبة بكل عناية وحرص ، ولكن الطلب الأساسي فيها ، وهو الاستقلال الذاتي للبوسنة ، كان غير مقبول عند الألمان ، الذين كانوا يعلمون مقدما أن ذلك لابد أن يعود عليهم بغضب لا يمكنهم تحمله من زغرب • على أنهم كان يهمهم شيء واحد ، هو زيادة فرص تجنيد الجند من تلك المنطقة • وفي ديسمبر أمر هتلر فرقة « الأمير يوجين » التي كانت تتكون أصلا من رومانيين من أصل ألماني بالانتقال الى دولة كرواتيا المستقلة وجمع عدد أكبر من ذوى الأصل الألماني هناك • وعندما قال في فبراير ١٩٤٣ انه يريد من تلك الفرقة أن تتولى انشاء فرقة كاملة جديدة في دولة كرواتيا المستقلة ، اقترح هملر انشاء فرقة من مسلمي البوسنة • ومضى الاقتراح في طريقه جادا رغم الاعتراضات الشرسة من زغرب (٥٣) • ولا يخفى أن مبدأ تجنيد فرق ألمانية متطوعة من الأقطار المحتلة ، كان مبدأ ثابتا ومعمولا به من زمن بعيد وسبق تنفيذه بفرق من فرنسا وبلجيكا وهولندا والدانمرك • ولقبت الفرقة المسلمة بالفرقة الثالثة عشرة وأطلقت عليها كنية « الخنجر » وهو اسم السلاح التقليدي في المنطقة وهو الخنجر التركي القديم المقوس أو السيف المقوس •

وابتدأ التجنيد في أبريل ١٩٤٣ ، وانتهز الألمان فرصة زيارة مفتي القدس الأكبر الموالي للألمان ، ليطلبوا منه العون لدى رجال الدين المسلمين (ومعلوم أن المفتي الأكبر كان قد استفزته الحماسة على البريطانيين أمدا طويلا من الزمان : فبعد تصريح « بالفور » حول فلسطين في ١٩١٧ ، دعا العرب جميعا الى تشكيل معاهدة أو اتفاقية عربية ألمانية ، لمقاومة السياسة البريطانية) • وأقبل بعض المفتين والأئمة المسلمين يمدون يد العون لتجنيد المسلمين ، وأعطيت كل وحدة في الفرقة مفتيا شابا ليفتيهم في أمور الدين ، ومع هذا فان جميع الضباط تقريبا كانوا من أصل ألماني (٥٤) • وما انتهى شهر أبريل حتى بلغ عدد المجندين اثنى عشر ألف شاب • كما

أن القوة النهائية للفرقة بلغت واحدا وعشرين ألف رجل • وكان التجنيد تطوعيا فى معظم الحالات ، وان كان الكثير منهم قد أعطى صورة للمستقبل مضللة جدا ، حول الأغراض التى ستستخدم فيها الفرقة (٥٥) • وبالخيبة ظن مسلمى البوسنة ! ، فقد خدعهم الألمان بالوعود البراقة وظنوا أن الفرقة ستستخدم لحماية مدنهم وقراهم ولكنهم أرسلوا فى صيف ١٩٤٣ الى ألمانيا وفرنسا ، ليتلقوا مدة طويلة من التدريب • وأرسلت مجموعتان من المسلمين من سراييفو وبانيالوكا للانضمام الى بعض المهندسين الكرواتيين فى مركز للتدريب فى فيل فرانش دى رويرج (Villefranche-de-Rouergue) قرب تولوز بفرنسا • وهناك فى ليلة ١٧ سبتمبر ، وبقيادة أحد المسلمين ، واسمه فريد جانيتش (Ferid Djanié) وكرواتى اسمه بوزوبيلينك (Bozo Jelenek) ، ألقوا القبض على ضباطهم ذوى الأصل الألمانى ، وقدموهم الى محاكمة سريعة ، ثم أعدموهم رميا بالرصاص • كانوا يدبرون أن ينفلتوا وينضموا الى المقاومة الفرنسية ضد الألمان ، ولكن ضابطا أعطى الانذار ، فهاجمتهم القوات الألمانية • وفر بيلينك ، ومات خمسة عشر من المتمردين وقتل مائة وأربعون آخرون فيما تلا ذلك من عمليات التطهير • ولايزال العيد السنوى لذلك التمرد يحتفل به الى اليوم بمدينة فيل فرانش دى رويرج وقد أطلق على هذا التمرد اسم يدل على الانحياز هو «ثورة الكروات»(٥٦) •

وبينما كانت فرقة الخنجر ترسل لمزيد من التدريب فى منطقة سيليزيا النائية ، كان التذمر يتصاعد فى البوسنة • فثمة شكايات متزايدة من البوسنيين المسلمين ، حول هجمات تشن على أبناء شعبهم من جانب الوحدات الأوستاشية • وشرع كثير من المسلمين فى انشاء وحدات دفاعية محلية ، عرفت باسم « النواة الخضراء » • وحصلت تلك المنظمة على زعيم سياسى هو البروفسور نيشاد توبتشيتش (Nesad Topčic) وكان ممن يدعون الى الاستقلال الذاتى للبوسنة • وثمة حركة مماثلة قام بها أحد كبار أعضاء مجلس رجال الدين المسلمين فى سراييفو محمد بنجة (Muhamed Pandja) ، الذى دعا المسلمين فى ديسمبر ١٩٤٣ الى أن ينزعوا عن أعناقهم نير حكم الأوستاشا ، وينشئوا ولاية بوسنية ذات استقلال ذاتى ، تضمن حقوقا متساوية متكافئة لجميع المواطنين ، بغض النظر عن دياناتهم • فكان لدعوته هذه أثر بالغ القوة فى فرقة « الخنجر » ، وذلك نظرا لأنه كان أحد أوائل المؤيدين الأصليين للدعوة الى التجنيد فيها (٥٧) • ومع هذا ففى نفس الوقت أيضا ، حدث هجوم بين المسلمين على التطوع فى صفوف المقاومة ، وتكوين « الآلاى المسلم السادس عشر » التابع لتيتو فى سبتمبر ١٩٤٣ (٥٨) •

وبعد تقديم عدة التماسات ترجو عودة فرقة الخنجر ، أعادها هتلر في النهاية الى البوسنة في مارس ١٩٤٣ ، من أجل عمليات «حفظ النظام»، وأنزلت الفرقة في شمال البوسنة وشرقها ، (توزلا وجراداتشاك وبييلينا وبرتشكو وزفورنيك) ، حيث قامت الفرقة أثناء ربيع تلك السنة وصيفها بأعمال انتقامية بلا تمييز ، ـ من قتل وغيره من أنواع الجرائم ـ ضد السكان الصربيين المحليين (٥٩) • والعدد الدقيق للضحايا غير معلوم ، ولكن لا مراء أنه ربما بلغ مئات كثيرة ، وربما كان بضعة آلاف• وبينما السنة تتقدم ، حدثت تطورات عديدة جعلت المسلمين أشد ميلا الى أن يلقوا بحظهم ونصيبهم مع المقاومة البارتيزان • فان ما أبرم من اتفاقيات ، تتزايد في علانيتها وصراحتها بين الألمان والتشيتنيك كانت تزيد في شكوك المسلمين في الألمان ، ومما زاد الأمر سوءا ، قطع العلاقات السياسية بين ألمانيا وتركيا • وكان تيتو في ذلك الحين يفوز بنجاحات عسكرية جديدة ، وبعد استيلائه على مدينة ديرفينتا في سبتمبر ، أصدر انذارا نهائيا بالزام القوات الكرواتية والبوسنية جميعا بالانضمام الى المقاومة البارتيزان • وبلغ عدد أفراد قوات الخنجر الذين انضموا فعلا ألفي رجل • وكان الشعور المضاد لدولة كرواتيا المستقلة يشتد ساعة بعد بعد أخرى بين الجنود المسلمين ، وذلك بينما أصبح الأوستاشا مستهينين بكل شيء في محاولاتهم ادخال الرهبة في نفوس السكان المسلمين بما كانوا ينفذونه من أعمال الاعدام بدون محاكمة • فتفرق شمل فرقة « الخنجر »• وفي أكتوبر أبلغت السلطات الألمانية في زغرب رئاستها في برلين أن تلك الفرقة لم تعد تصلح للعمل اطلاقا • ومن أسخف السخف ، أنه قدمت في تلك اللحظة مقترحات بانشاء فرقة أخرى ، ولكن تلك المقترحات لم تنفذ قط • وفي نهاية ١٩٤٤ ، حلت جميع وحدات الفرقة الألمانية المسلمة في دولة كرواتيا المستقلة (٦٠) •

وحررت المقاومة البارتيزان سراييفو في ٦ أبريل ١٩٤٥ ، ولم تمض أسابيع قليلة ، حتى كان القطر البوسني بأكمله تحت سيطرتهم الكاملة • ونعينت « حكومة الشعب » في ٢٨ أبريل • وأصبح كثير من المسلمين راضين بامكان قيام حكم شيوعي : فبدلا من أن تمتص كرواتيا قطر البوسنة (وهو الحل الذي تقترحه الأوستاشا) أو الامتصاص داخل صربيا (وهو خطة التشيتنيك) ، ـ يعرض عليهم الآن حل فيدرالي غامض ، تظل فيه البوسنة موجودة قائمة • ولكن فوق كل شيء ، كانوا يتطلعون شاخصين بأبصارهم أماما الى زمن ينقطع فيه الاغتيال والقتل • والمظنون أن مجموع من توفوا في الحرب من المسلمين قد بلغ ٧٥٠٠٠ مسلم : وهو ما يعادل

١ر٨٪ من مجموع عدد السكان الكلى ، وهى نسبة تعلو ما قاساه الصرب ، (حيث بلغت النسبة ٣ر٧٪) أو ما قاساه أى شعب آخر اللهم الا اليهود والغجر (٦١) ٠ لقد قاتل المسلمون فى جميع الجوانب ـ الأوستاشا ، والألمان ، والتشيتنيك والبارتيزان ، ـ كما أنهم لقوا حتفهم على يد كل جانب من الجوانب ٠ فقتل الكثيرون فى معسكرات الموت الكرواتية والألمانية بما فى ذلك ياسينوفاك وبوخنفالد وداخاو وأوشفيتس (٦٢) ٠ لم يكونوا هم الذين أوقدوا نار هذه الحرب وأججوا لظاها ، كما أنهم كانوا يقاتلون قبل كل شىء دفاعا عن أنفسهم ٠ بيد أن القتل لم ينته بعد ٠

الفصل الرابع عشر

البوسنة فى يوغوسلافيا تيتو
١٩٤٥ ـ ١٩٨٩

كثيرا ما ينسب الى تيتو فضـــل عظيم فى احـلال السلام الداخلى والصلح الى يوغوسلافيا ، بعد الحرب العالمية الثانية ٠ والواقع أن السلام قد جاء فعلا ، وأن جراح الحرب لم تلبث حتى اندملت بالتدريج ، ومن الحق أيضـــا أن تيتو أعار بعض فكره لايجـــاد التـوازن بين الدعاوى المتصارعة ، لشعوب يوغوسلافيا ومناطقها ٠ بيد أن القوة والسلطان كانت أهم قدرا عند تيتو من كل صـلح ، كما أن النظام الشيوعى فرض على يوغوسلافيا بثمن فاحش وثقيل جدا ٠ وأبرز مثال على ذلك ، تلك المعاملة التى عوملت بها بقايا القوات المعادية للمقاومة البارتيزان المدنيين المشاركين فى تلك القوات المعادية ، الذين لجئوا لبـلاد النمســا المشمولة بسيطرة الحلفاء ، فى أثناء أبريل ومايو ١٩٤٥ : ما بين « حرس وطنى » سلوفينى ، وجنـد أوستاشـــا وتشيتنيك صربيين ومسلمين ٠ والكروات والصرب والمسلمون البوسـنيون كانـوا على هذا النحو موجودين فى هذه الكتلة المهولة الضخمة من الجند المهزومين ٠ وأعيـــد الى يوغوسلافيـــا أكثر من ١٨٠٠ جندى ، اذ أعادهم البريطانيون ، ردا على اصرار تيتو ، وأعمـل الذبح فى معظمهم فى مدى ساعات من وصولهم الى الأراضى اليوغوسلافية٠

ويقدر أن ٢٥٠ ألف شخص قد قتلوا سواء رميا بالرصاص أو خلال مسيرات « الموت » القسرية أو فى معسكرات الاعتقال خلال عامى ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ (١) ٠ وهناك تقرير حول الموقف أرسله موظف أمريكى فى فبراير ١٩٤٥ جاء فيه « ان الدعاية والمظاهرات المنظمة « التلقائية » ، والاجبار على العمل سخرة ، والمصادرة الطاغية ، والاعتقالات والعقوبات ، كانت كلها أدوات تذكر الناس بالاحتـلال الى أقصى حد » (٢) ٠ وكان بوليس تيتو السرى ، المسمى « ادارة حماية الشعب » ، شديد النشاط فى ملاحقـة الأعداء السياسيين الحقيقيين أو المتخيلين ٠ وهو ما حدده تيتو بقوله : « ان الهدف من وجود هذه الادارة هو « بث الرعب » فى صدور أولئك الذين لا يحبون هذا النوع من يوغوسلافيا » ــ وكانوا كثيرين (٣) ٠ وكان

السعداء منهم الذين نجوا من القتل ، يستخدمون مصـــدرا للعمالة في مشروعات البـــلاد البنائيـة الكثيرة التي شارك فيها معهم بعض المتطوعين الأجانـب ، الذين كانـوا يأتـون للعمـــل في « خطوط ســكك حديد الشبـــاب » ، وكان أول خط أنشيء منهـــا في ١٩٤٧ من سراييفو الى شاماك (Samac) ، (على الحدود الفاصلة بين البوســنة وكرواتيا) . وقد أشار أحــد المعلقين الى أن ذلك الطريق العــام الموصــل بين بلجراد وزغرب ، كان من الأعمال العظيمة التي تفخر بها تلك الفترة ، فلم تعمل في بنائه فيالق الشباب المتطوعين فحسب كما ذكرت ، بل شـــارك فيه عمــال من السجناء ، وبخاصــة من أســموهم « الأعداء الطبقيين » ، من البرجوازيين » (٤) .

وما كاد ستالين يطرد يوغوسلافيا من الكومنفورم (وهي المنظمة التي خلفت الكومنترن) في ١٩٤٨ ، حتى أعيدت كتابة التاريخ اليوغوسلافي سريعا لاظهار أن تيتو كان على الدوام يتبع سياسية مستقلة تماما ومتحررة مضادة للمسارات الستالينية . والحقيقة هي أنه قبــل قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي ، ولمدة عدة سنوات بعده ، كانت سياسات تيتو تسير موازية بدقة شـــديدة مع النماذج الستالينية (٥) . بل بلغ الأمر أن الدستور اليوغوسلافي نفسه ، الذي أعلن في يناير ١٩٤٦ ، كان ببساطة تامة ، محاكاة مباشرة للدســتور السوفييتي الذي أعلن قبل ذلك بعشر سنوات . حيث كان يحتوي على ذلك الخليط المألوف من التصريحات الرنانة المدوية والمغالطات المنطقية ، كاعلانه مثلا ، أن كلا من الجمهوريات المكونة للدولة تعتبر « جمهورية ذات سيادة » ، ولكنه أيضا ألغى الحق في الانسحاب عندما أعلن أن شعوب يوغوسلافيا قد اختاروا بمحض ارادتهم العيش معا للأبد (٦) . ولا حاجة بنا الى القول ان الدستور لم يشر أية اشـــارة الى الحزب الشيوعي ، الذي كان في الواقع مصـــــدر جميع السلطات . واستخدم تيتو الطريقة المماثلة المتبعة في أقطار شرق أوروبا الأخرى ، في تمويه الحزب الشيوعي واظهاره بصورة الجبهة الشعبية ، وذلك كخطوة البــداية الأولى ، حتى يجيء الوقت الذي يمكن فيــه ازالة جميع التعدديات السياسية في خاتمـــة المطاف (٧) . وأعلن في ١٩٤٧ مشروع خطة خمسية » مبالغ ومسرف في طموحه ، وفي ١٩٤٩ بعد قطع العلاقات مع ستالين حولت المزارع الخاصة بالقوة الى ملكيات جماعية ، بكل أرجاء البلاد ، وكانت نتيجة ذلك أن هدد شبح المجاعة جميع المدن الكبرى في السنة التالية (٨) .

ومن أشد الظواهر النموذجية المعبرة عن السياسات الستالينية ، تلك الحملة التي شنت على الدين . فعوملت الكنيســة الكاثوليكية بغلظة

وقساوة خاصة ، وذلك على أساس التواطؤ الذى كان جـاريا بين بعض رجالها وبين الأوستاشا فى كرواتيـا والبوسنة • ودمرت بعض الكنائس تدميرا تاما ، كما أغلقت أبواب الأديرة والرهبانيات والمعاهد اللاهوتية • ولكن الكنيسـة الأرثوذكسـية لقيت معاملة أحسن قليـلا ، وان لقيت مؤسساتها ضغطا شديدا أثناء السنوات الثـلاث أو الأربع الأولى • وقد تعاون بعض كبار رجال الدين بها مع النظام العميل فى صربيا ، بيد أنه كان هناك أيضا العديد من صغار القساوسة « التقدميين » ممن عملوا وعاظا دينيين فى جيش تيتو • وكانت تنظيمات شباب القسيسين تلقى التشجيع داخل الكنيسة ، كوسيلة للسـماح للحزب الشيوعى أن يمارس سيطرة غير مباشرة عليها (٩) • أما الاسلام ، فيبدو أنه قاسى اسـاءة مزدوجة فى أعين حكام يوغوسلافيا الجدد : فأولا كان ينظر اليه على أنه (وذلك صدق وحق) نمط من الدين لا ينطوى فحسب على معتقدات شخصية ، بل وأيضا ممارسات اجتماعية ، وثانيا لأنه كان ينظر اليـه باعتباره عقيدة رجعية آسيوية • وكان هناك أيضا نوع من الاحساس بأحقاد قديمة تمت تسويتها فى نهاية الحرب ، وهى الأحقاد التى عاد المسلمون النشطون الى تذكرها فيما بعد : « وأنزلت به فى ذلك الوقت على يد الشيوعيين أشد الخسائر عندما كانت الوحدات العسكرية تدخل القرى • فقد كان كل من يحتمل كونهم خصوما ، خاصة الأشخاص ذوى المقام الاجتماعى الأعلى والمفكرين المعروفين بايمانهـم ، يعدمون بدون اتخـاذ أية اجـراءات قانونيـة أو تحقيقات (١٠) • وبطبيعة الحال كان دستور ١٩٤٧ يحتوى على العبارات المألوفة المعتادة : التى تعلن أن يوغوسلافيا ستحافظ على حرية العقيدة ، وتصون الفصل بين الكنيسة والدولة ، ولكن الأحداث توحى بغير ذلك•

فألغيت المحاكم الاسلامية الشرعية فى ١٩٤٦ ، وصدر قانون بمنع النساء من ارتداء الحجاب فى ١٩٥٠ ، وفى نفس السنة صدر قرار باقفال آخر كتاتيب تحفيظ القرآن ، وهى المدارس الأوليـة التى كان الأطفال يتلقون فيها التعاليم الأساسية للقرآن الكريم ، واعتبر تعليم الأطفال فى المساجد جريمة يعاقب عليهـا القانون ، وفى ١٩٥٢ أقفلت جميع التكايا الموجودة بأرض البوسنة ، وحظرت جميع طرق الدراويش • وذكرت بعض التقارير أن المسلمين الذين كانـوا يؤدون الخدمة العسكرية ويعملون فيما كان يسمى (ادعاء) باسم فيالق العمل ، كانوا يرغمون على تناول لحم الخنزير ، وحذر الموظفون الرسميون الشيوعيون بألا يجروا عملية الختان لأولادهم • والغيت الجمعيات الثقافية والتربوية الاسـلامية : جايرت ونارودنا وأوزدانيكا وغيرها الغاء تاما ، ولم تسمح السلطات الا بوجود جمعية اسلامية واحدة (وقد أصبحت تحت سيطرة الدولة منذ ١٩٤٧) ،

مع مدرستها الاسلامية التى عليها اشراف حريص لتدريب رجال الدين المسلمين . كما أن دار المطباعة الاسلامية فى سراييفو أغلقت هى الأخرى ، ولم يعد يصرح بصدور أى كتاب دراسى اسلامى حتى ١٩٦٤ . ولكن بعض هذه الاجراءات قوبلت بمقاومة مستترة مع ذلك : فان كتب النصوص الاسلامية ظلت تدور فى التداول ، وظل الأطفـال يتلقون التعليم فى المساجد ، واحتفظت طرق الدراويش الصوفية بشعائرها وممارساتها داخل البيوت الخاصة ، ولكن تنظيما للطلبة هو « تنظيم الشباب الاسلامى » قاوم الحملة الموجهة على الاسلام ، فسجن بعض أفراده فى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ .

وعانى المجتمع الاسلامى بالفعل دمارا ماديا شديدا أثناء الحرب : فحسب التقديرات المحسوبة فى جميع أجزاء يوغوسلافيـا ، فان ٧٥٦ مسجدا دمرت أو خربت تخريبـا شديدا . وأعيد بنـاء كثير منها بالجهود المحلية الخاصة ، ولكن لما وافت ١٩٥٠ كان لايزال هناك من المساجد غير المستخدمة مئة وتسعة وتسعون بالبوسنة ، كان بعضها لا يزال ينتظر اعادة البناء ، وحولت السلطات المحلية بعضها الآخر الى متاحف ، أو مخازن ومستودعات ، بل حتى الى اسـطبلات . أما الهيئـة التى كانت تدبر الأوقاف ، فقد وضعت فى الواقع تحت سيطرة الدولة ، وصدرت اليها التعليمات أن تسـلم كثيرا من أثمن ممتلكاتهـا وأعلاها قيمة (بما فى ذلك أول مبنى مكاتب عصرى فى سراييفو) الى السلطات المحلية . وحولت كثير من الجبانات الاسلامية الى حدائق عامة أو الى متسعات من الأرض لبناء المصالح الحكومية والمساكن ، صحيح أن رئيس العلماء تشاوشيتش سبق أن اقترح أشياء من هذا القبيل قبل الحرب ، ولكن الشيء الذى لم يخطر بباله هو أن يتم ذلك بغير رضاء المجتمع الاسلامى . كما أن الضربة النهائية التى أنزلت بالأوقاف التى صودرت أملاكها من قبل قطعة بعد قطعة بانتزاع ملكية الأراضى الزراعية ، جاءت عند تأميم الممتلكات الايجارية فى ١٩٥٨ مما قضى على المؤسسات الخيرية الكبرى التى أنشأها غازى خسروف بك فى ١٥٣٠ وظلت من بعده تعمل ٤٠٠ عام (١١) .

على أن الظروف العادية العامة للحيـاة الدينيـة فى يوغوسـلافيا تحسنت بعد ١٩٥٤ ، عندما مرر قانـون جديد يضـمن حرية العبـادة (مرة ثانية) ويضع الكنائس تحت سيطرة حكومية مباشرة . ووضـع برنامج قوى لترميم الأديرة الأرثوذكسية منذ ١٩٥٦ فصاعدا ، وكان ذلك من ناحية جزئيـة لأغراض تتعلق بالسياحة ، ومن ناحية جزئية ثانية لأن العلاقة بين كبار رجال الدين الأرثوذكس والدولة كانت قد بدأت تكتسب

شيئا من الود (١٢) • وتحسنت معاملة العقيدة الاسلامية بوجه عام فى أخريات خمسينيات وستينيات الألف وتسعمئة ، وكان ذلك بسبب خاص جدا : اذ أصبح المجتمع اليوغوسلافى الاسلامى يستخدم أداة « لسياسة عدم الانحياز » الخارجية التى اختطها تيتو لنفسه •

وشأن كثير من الانجازات الواسعة الاعلام لتيتو ، كانت سياسة عدم الانحياز تلك سياسة عثر فيها تيتو بالصدفة تقريبا ، فبعد أن طرد (لدهشته) من الكومنفورم ، أصبح معتمدا اعتمادا شديدا على القروض والمعونات والمساندات الدبلوماسية الغربية ، بات بحاجة الى أيديولوجية يعلو بها فوق ذلك الموقف الشاذ الحرج حتى يبدو مستهدفا هدفا مقصودا أو نافعا ، ويمكنه فى نفس الوقت من أن يجد مبررا يقربه من الديمقراطيات الغربية التى تحرجه مساعداتها ومعوناتها • ووجد بغيته فى جولة قام بها فى اثيوبيا والهند ومصر فى ١٩٥٥ أثمرت عن تلك السياسة • وسرعان ما شرع بعد ذلك يلقى الخطب والبيانات التى تنعى على العالم انقسامه الى كتل ، وفى السنة التالية تابع اصدار بيانات حركة عدم الانحياز أثناء زيارة ليوغوسلافيا قام بها جمال عبد الناصر ونهرو (١٣) • وتم التعارف بين كل من جمال عبد الناصر وسوكارنو وبين رئيس العلماء عند زيارتهما لبلجراد فى ١٩٥٦ ، وبينما تلقت الهيئة الرسمية التى تمثل المسلمين اليوغوسلافيين ، وهى « المجتمع الدينى الاسلامى » ، التعليمات بمقاطعة المؤتمر الاسلامى العالمى الذى عقد فى كراتشى ١٩٥٢ ، فان أعضاءها ما لبثوا حتى أرسلوا سريعا فى جولات عامة حول العالم ، ليراهم مسلمو العالم الثالث والتجمعات غير المنحازة (١٤) • وسرعان ما أصبحت الخلفية الاسلامية تعتبر مزية ايجابية لأى انسان يأمل فى العمل فى مجال السلك الدبلوماسى اليوغوسلافى • وفى منتصف الستينات ، كان الدبلوماسيون المسلمون البوسنيون يمثلون يوغوسلافيا فى كثير من الدول العربية ، وفى أندونيسيا أيضا ، وكان من بينهم ابن لرئيس سابق للعلماء (١٥) • ورغم أنهم كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى وأنهم تخلوا الى حد كبير عن ديانتهم ، لكن أحدا لم يبال بذلك طالما كانت أسماؤهم محمد وأحمد ومصطفى •

ولكن التساؤل ظل قائما حول ماهية الاسلام فى البوسنة ، هل هو هوية دينية أو عرقية أو قومية وذلك على الرغم من اعتقاد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى فى سنوات تيتو الأولى أن هذه المسألة سوف تتوارى عن الأذهان • وكان الموقف الرسمى فى الأربعينات هو أن هذه المشكلة لابد لها أن تحل نفسها بنفسها بالتدريج ، عندما تذوب هوية المسلمين فى هوية

الكروات أو الصرب · وفي أول مؤتمر للحزب بعد نهاية الحرب ، ذكر أن : « ليس بالامكان تقسيم البوسنة بين صربيا وكرواتيا ، وليس ذلك فقط لأن الصرب والكروات يعيشون مخلطين بعضهم ببعض في كل أرجاء المنطقة ، بل وأيضا لأن المنطقة يسكنها مسلمون لم يستقر رأيهم بعد على هويتهم القومية أو الوطنية » (١٦) · فأما ما كان يعنيه تعبيرهم : « يقررون هويتهم القومية » ، فهو أنهم « يقررون أيكونون صربيين أم كرواتيين » · وكان أعضاء الحزب يتعرضون لشيء من الضغط ليقرروا ويعلنوا أهم من أولئك أم من هؤلاء · وان تحليلا لموظفي الحزب من ذوي الأسماء الاسلامية في أول دليل عام للشخصيات في يوغوسلافيا ، ليوضح أن ١٧٪ اعلنوا أنفسهم كرواتا وأن ٦٧٪ صربا ــ وهي علامة تدل بين أشياء أخرى على الجهة التي كانت تهب منها الريح في الحياة السياسية البوسنية في ذلك الوقت · وفي تعداد ١٩٤٨ كان المسلمون مخيرين فيه بين خيارات ثلاثة : فكان في امكانهم أن يسموا أنفسهم صربا مسلمين أو كرواتا مسلمين أو مسلمين غير معلني القومية « أي غير محددين » · وأدى ذلك الى اعطاء المسلمين البوسنيين فرصة يظهرون فيها كم هم غير راغبين أن يصبغوا بالصباغ الصربي (يتصربوا) أو بالصباغ الكرواتي (يتكروتوا) : فعد اثنان وسبعون ألفا منهم أنفسهم من الصرب ، وعد خمسة وعشرون ألفا أنفسهم من الكروات ، ولكن ٧٧٨ ألفا سجلوا أنفسهم غير « معلنين » · وكانت نتيجة التعداد التالي في ١٩٥٣ مماثلة لهذه · وهذه المرة ، كانت السياسة الرسمية تدعو لتطوير وتنمية الروح اليوغوسلافية » : فأزيل بند مسلم من التعداد ازالة تامة ، ولكن سمح للناس بأن يسجلوا أنفسهم بأنهم « يوغوسلاف غير معلني القومية » · والذي حدث في البوسنة أن ٨٩١٨٠٠ فعلوا ذلك (١٧) ·

ولم تبدأ السياسة الرسمية في التغير الا في الستينيات وليس واضحا على الاطلاق لماذا حدث هذا التغير · ففي السنوات الخمس عشرة الى العشرين الأولى بعد الحرب ، كانت المناصب الرسمية العليا في البوسنة يسيطر عليها الصرب : وفي الأربعينيات كانت عضوية الحزب الشيوعي البوسني تتألف من عشرين في المئة من المسلمين ، وستين في المئة من الصرب · وكانت سياسة حكومة الجمهورية البوسنية شديدة الخضوع لبلجراد ، مع جنوح الى معاملة الجمهورية كما لو كانت احدى مقاطعات صربيا الخارجية أو البعيدة · ولكن خلع ديورو بوكار (Djuro Pucar) الصربي من زعامة الحزب في البوسنة في ١٩٦٥ أدى الى اضعاف هذا النفوذ ، وعندما طرد الكسندر رانكوفيتش ، الرئيس الجبار لجهاز أمن تيتو ، من اللجنة المركزية اليوغوسلافية ، اتسمت سياسة التعامل

مع الشعوب اللاصربية بجميع أنحاء البلاد بشيء من اللين • ومع ذلك ، فان الانتقال الى الاعتراف بالبوسنيين المسلمين كأمة ، كان يمضي في طريقه فعلا قبل أن تطرأ هذه الأحداث • ولعله نشأ عند اقتران عاملين مهمين : استقرار الرأي على نبذ سياسة « التكامل اليوغوسلافي » ، وتدعيم الهويات الجمهورية بدلا من ذلك في بواكير الستينيات وبروز نخبة من المسؤولين الشيوعيين المسلمين في جهاز الحزب في البوسنة وهو أمر كان قد تأخر كثيرا (١٨) •

وجاءت أول دلالات التغير في تعداد ١٩٦١ ، حيث سمح للناس بتسمية أنفسهم « مسلمين بالمعنى العرقي » • ثم جاء دستور ١٩٦٣ ، فأشار بدرجة متعادلة في ديباجته الى « الصرب والكروات والمسلمين . الذين كانت تجمعهم في الماضي حياة مشتركة » ، وان لم يذكر صراحة ، أنهم سيعتبرون أمما متساوية (١٩) • واعتبرت هذه خطوة حاسمة ، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا أصبح من الشائع المعلوم في البوسنة ، معاملة المسلمين بأنهم تجمع قومي يتعادل تماما مع الآخرين ، وانعكاسا لهذا التغير ، اقتصرت مستندات انتخابات الموظفين في « رابطة البوسنة للشيوعيين » في ١٩٦٥ على تسجيل أسماء الناخبين بوصف كون كل منهم اما « صربي » أو « كرواتي » أو « مسلم » (٢٠) • ومع هذا ، فان تسمية المسلمين بالتحديد أمة لم يتم اعلانه رسميا • كما أن عددا من الأكاديميين والموظفين (تحت القيادة الفكرية للبروفيسور محمد فليبوفيتش (Muhemed Filipović) ، بمساعدة مجموعة من الموظفين الشيوعيين مثل عاطف بوريفاترا Atif Purivatra) ، واصلوا الدعوة للتفريق بين كلمة المسلم كوصف لأحد أبناء الأمة الاسلامية والمسلم كأحد أبناء أتباع العقيدة الاسلامية • وقاوم هذا بعض أعضاء الحزب • مما أدى الى طرد البروفيسور فيليبوفيتش من الحزب في ١٩٦٧ • على أن الفوز التام ما لبث أن أتى في النهاية في اجتماع للجنة البوسنة المركزية في مايو ١٩٦٨ ، حيث صدر عنها بيان يحتوى على النص التالي : «أظهرت الممارسة العملية أضرار مختلف أنواع الضغط •• من اليوم الذي كان فيه المسلمون يسمون فيه كرواتا أو صربا من وجهة النظر الوطنية • وأظهرت الأيام كما أكدت الممارسات الاشتراكية الحالية أن المسلمين أمة متميزة بنفسها »(٢١) • وعلى الرغم من الاعتراضات الشرسة الصادرة في بلجراد من الشيوعيين القوميين الصربيين ، مثل دوبريكا تشوسيتش ، قبلت الحكومة المركزية تلك السياسة • وهكذا حدث في نماذج ابداء الرأي في تعداد ١٩٧١ أن ظهرت لأول مرة عبارة : « مسلم ، بمعنى أمة » (٢٢) •

وظهر مصدر آخر لمعارضة هذه السياسة هو هرم رياسات الحزب الشيوعى فى مقدونيا · ذلك لأن المقدونيز أنفسهم لم يعترف بهم كأمة الا مؤخرا جدا فى ١٩٤٥ ، فلم ترقهم فكرة أن أقليتهم المسلمة السلافية الخاصة ، التى لها حجمها ووزنها الكبير ربما تنزع الآن الى الانسلاخ بطريقة مماثلة من القومية المقدونية (٢٣) · ولكن المقارنة بالبوسنة تمكننا من أن نرى لماذا كانت السياسة البوسنية معقوله تماما ، وان بدت فى ظاهرها عجيبة · ففى حالة للمسلم السلافى المقدونى يكون من السهل الحديث عن الدين بوصفه قشرة ظاهرية ، يمكن أن نرى من خلالها الطبقة التحتية العرقية أو القومية السميكة · ولو أنك أزلت هذه القشرة لوجدت نفسك وجها لوجه أمام « سلافى » تحسبه مقدونيا قحا ، بمحك اللغة والتاريخ · ولكن الأمر يختلف فى حالة البوسنى المسلم : فماذا ينبغى للانسان أن يسمى تلك الطبقة التحتية العرقية ؟ انه يستطيع أن يسميها « سلافية » أو « بوسنية » ، ويستطيع المرء أن يسميه أيضا « بالصربوكرواتى » ، لكن تسميته اما « بالصربى » أو « الكرواتى » تكون خطأ لسببين : أولهما أنه ليست هنالك أية هويات صربية أو كروانيه متميزة فى البوسنة فى الفترة السابقة على نشر الاسلام ، ومن ثم فان من الخطأ التحدث عن « صربى مسلم » ، لان ذلك يوحى بأن أجداده كانوا من الصربيين قبل أن يكونوا مسلمين · أما السبب الثانى فهو أنه عندما شرع البوسنيون المسيحيون فى مرحلة متأخرة جدا فى اتخاذ هويتهم كصربيين أو كرواتيين ، لم يكونوا يفعلون ذلك الا على أساس دقيق من الدين فقط · (وهكذا حدث أن أحفاد وسلالة المستوطنين الكاثوليك المجريين أو الألمان الذين جاءوا الى البوسنة فى الفترة النمساوية المجرية ، انتهوا الى تحديد هويتهم بأنهم « كروات » ، كما أن حفدة الغجر الأرثوذكس الرومانيين ، اختاروا « الهوية الصربية ») (٢٤) · وكما رأينا ، فان الكثير من البوسنيين الأرثوذكس ربما كانوا ينحدرون من مهاجرين صربيين أو من أفلاق ، ولكن كان هناك عدد كبير من عمليات النزوح عن البلاد واليها ، والتحول من دين الى دين ، بحيث انه يندر من الأفراد من يستطيع أن يحدد بدقة أصله العرقى · ولقرون طويلة ظلت لغة الأرثوذكس والكاثوليك البوسنيين واحدة وكذلك تاريخهما والموطن الجغرافى لاقامتهما ــ وهو أمر معناه أن الطبقة التحتية التى تقع تحت هويتهما الدينية الخاصة ، طبقة واحدة لا اختلاف بينها اطلاقا فى النواحى الجوهرية ·

على أن الانتقال والتحول المصطنع بعبارة أخرى ، كان هو التحول الذى احدثه البوسنيون الارثوذكس أو الكاثوليك فى أخريات القرن

التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ، عندما شرعا يسميان أنفسهما بالاسم العرقى : « الصرب والكروات » • وهو أمر كانت له مبرراته التاريخية كما رأينا • ولكنهما ما أن شرعا فى تلك الحركة حتى أصبح من المحال على المسلمين أن يتخذوا السبيل المنطقى ، والذى كان يحتم عليهم أن يصفوا دينهم بأنه الاسلام ، والطبقة العرقيــة التحتية من كيانهــم بالبوسنية اذ كان ذلك سيؤدى الى البدء فى استخدام كلمة « بوسنى » كمصطلح ثالث فى مقابــل « صربى » و « كرواتى » ــ وهو شىء يماثل استعمال مصطلح « مسلم » كمصطلح ثالث ، وهو ما يؤدى أكثر للانقسام والفرقة ، وذلك لأنه يمكن على الأقل أن يشار الى الجماعات الثلاث بأنهم البوسنيون المسلمون والبوسنيون الصرب والبوسنيون الكروات •

ولم يكن الدافع الى المطالبة بالاعتراف بالبوسنيين كأمة لها كيانها فى أخريات الستينيات فصاعدا وبواكير السبعينيات ، حركة اسلامية • بل على النقيض من ذلك ، فانه كان على رأس قيادتها شيوعيون وغيرهم من المسلمين المتطبعين بالطابع العلمانى ، الذين شاءوا للهوية الاسلامية فى البوسنة أن تتطور الى شىء بالتأكيد ليس دينيا • وفى أثناء تلك الفترة يمكن مشاهدة شيئين متميزين تماما فى البوسنة : هذه الحركة القومية الاسلامية العلمانية وحركة انتعاش للعقيدة الاسلامية (٢٥) • وان كانت كلتا الحركتين منفصلة عن الأخرى ، وكان خير تعبير عن الحركة الثانية فى الرسالة القصيرة التى كتبت (ولكنها لم تنشر) فى الستينيات ، مؤلفها هو على عزت بيجوفيتش (Alija Izetbegovic) المعنــونة « الاعــلان الاسلامى » (٢٦) • اذ أن الأفكار التى تحتويهــا رسالة عزت بيجوفيتش (التى سنناقشها فى الفصل التالى) ، لم تكن متميزة الاختلاف عن حجج السياسيين مثل بيوريفاترا فحسب ، بل كانت مناقضــة لهم مناقضــة ايجابية : فلم تكن تدور حول مشكلات البوسنة ومسائلها ، وانما تدور حول موقف الاسلام فى العالم أجمع ، وكتب عزت بيجوفيتش عن الوطنيه والقومية بأنها قوة تدعو الى الانقسام والشقاق ، وعن الشيوعية بأنها نظام غير واف • ولم يكن هذا الانتعاش الدينى المضــاد للشيوعيــة الا ظاهرة صغيرة فى بداية الأمر ، وان كانت سياسة تيتو فى ميدان « عدم الانحياز » سهلت لهم أن يتصلوا ويحتكوا بالعالم الاسلامى على اتساع أرجائه ، الأمر الذى نشط بذلك دراسة الدين الاسلامى فى البوسنة • وسمح لعدد أكبر من البوسنيين بأن يدرسوا فى الجامعات الاســلامية العربيـــة فى السبعينيات • وفى ١٩٧٧ بلغ الأمر أن أقيمت كليــة للشريعة الاسلامية (بتمويل من المملكة العربية السعودية) بجامعة سراييفو (٢٧) •

ولكن مثل هذه التطورات كانت أبعد ما تكون عما كان يعمـل عليه ويصبو اليه أرباب الدعوات القوية مثل بيوريفاتيرا • وكان أشد ما يشغل بالهم هو أن مسلمي البوسنة لا يحظون بالعـــدد الكافي من الممثلين لهم في الادارة الشيوعية للجمهورية ، وأن الجمهورية في مجملها كانت تعد أخفض الى حد ما في وضعها القانوني ، من جمهوريات يوغوسلافيا الأخرى • وقد جاءت هذه المعاملة الدنيا — على حد احساسهم — لأن البوسنة كانت ينظر اليها لا على أنها أمة واحدة ، بل قطعة من أمتين أخريين (هما الصرب والكروات) ، بالاضافة الى عنصر لا أممي • وقد كان ذلك القول تحليلا ينطوي على قدر عظيم من الصدق • فان البوســـنة كانت تعامل معاملة أقل من وزنها في نظام الاتحـاد الفيدرالي اليوغوسلافي ، وكان تطورها الاقتصادي يمضي متثاقلا ومتأخـرا تأخـرا بعيدا خلف تطورات جيرانها الأشد قوة منها • ثم حدثت بها طفرة من التنمية استمرت فترة وجيزة بعد الانفصال عن الكومنفورم في ١٩٤٨ ، عنـدما عزم تيتو عزما أكيدا ، وقد شغل باله احتمال قيام السوفييت بغزو بلاده ، أن يضع مصانع الأسلحة والصناعات الأخرى ذات الأهمية الاستراتيجية في أجزاء البوسنة الوعرة التي لا سبيل الى ولوجها • على أنه سرعان ما عدل عن هذا ، وتـركت البوسنة تعج بما وصفه أحد المحللين بأنه « مصانع جديدة (وغير مكتملة في غالب الأحيان) ، أسست في مناطق نائية رائعة الجمال لكنها بعيدة عن الأسواق والطرق واليد العاملة الماهرة » (٢٨) •

ولو قورنت البوسنة بما عليه حال الأجزاء الباقية من يوغوسلافيا من الركود والتدهور الاقتصـادي ، لرأينـا أنهـا عانت أثناء الخمسينيات والستينيات من الركود والتدهور الاقتصادي حتى انخفضت انتاجيـــة الفـــرد من ٧٩٪ فـــي ١٩٥٣ الى ٧٥٪ في ١٩٥٧ ، والى ٦٩٪ فـي ١٩٦٥ • وفي ١٩٦١ اعتبر جزء كبير من مساحتها منطقة « نامية » أي دون درجة التطور الواجبـــة • وهي وحـــدها دون ســـائر الجمهوريات اليوغوسلافية ، كانت تمتلك أقل نسبة من النمو الاقتصادي على طول المدة بأكملها من ١٩٥٢ الى ١٩٦٨ ، فأما دخل البوسنة القومي الذي كان دون المعدل القومي العام بعشرين في المئة في ١٩٤٧ ، فقد هبط الى ٣٨٪ تحت المعدل عند حلول ١٩٦٧ (٢٩) • وتحدثنا الاحصائيات الاجتماعية بقصة مماثلة تماما ، وتكشف عن مشاكل كانت من ناحيـــة جزئيـــة أعراضا « للتأخر » الاقتصادي ، كما أنها من ناحية جزئية أخرى تعد أسبابا له • ففي أوائل السبعينيات ، كان بالبوســـنة أعلى نسـبة لوفيات الأطفال ، في يوغوســـلافيا عدا كوســـوفو ، وكانت بهـــا أعلى درجـــات الأمية (فيما عدا كوسوفو للمرة الثانيـــة) ، وأعلى نسـبة للأشخاص الذين

لم يقضوا سوى ثلاث سنوات في التعليم الابندائي (عدا كوسوفو أيضا)، وأقل نسبة للناس الذين يعيشون في المدن (عدا كوسوفو) • وكان بها أيضا أقصى حد للهجرة الى باقي الجمهوريات اليوغوسلافية ــ بالتقريب ١٦ ألف انسان في كل ســـنة طوال الخمسينيات والستينيات • وكان معظم هؤلاء قوما صربيين نزحوا منها ليعيشوا في صربيا (٣٠) • ونتيجة لهذا أن غلب المسلمون على الصرب في البوســـنة ، بوصفهم أكبر عنصر سكاني للسكان في منتصف الستينيات •

وكان تأسيس « وضع الأمة الاسلامية » في أواخر الستينيات لعب دورا ما في انعاش الكبرياء الجمهوري ، ساعد على تحويل مسار الاقتصاد البوسني • وأدت التغيرات الكثيرة في الدســـتور الفيدرالي أثنـــاء تلك المدة بأكملها ، بدءا بالدستور الجديد لعام ١٩٦٣ ، وانتهاء بكتابة جديدة للدستور في ١٩٧٤ ، الى اعطاء اقتصاد البوسنة مجالا أوسع لمتابعة السير في سياسات التنمية التي أخذتها كل جمهورية على عاتقهـــا • وأثنـــاء السبعينيـــات أقامت السلطات البوســـنية مشروعات صناعيـــا هامة ، ونمت ضـــواح من أبراج عاليـــة المباني في مدنها الكبرى • حتى قال أحد من زاروها في ١٩٨٠ ان « سراييفو بدت كأنمـــا هي مشروع ضـــخم لاقامة المرافق العامة • وأعيـــد تشكيل نظـــام أنابيب الصرف والميـــاه واحتفرت الشوارع في أقسام المدن وأعيد اصلاحها • وانتزعت خطوط الترام ليحل محلها خطوط أعرض » ، وهكذا دواليك (٣١) وكان السبب المباشر في كل هذه الأنشطة في العاصمة البوسنية ، هو اعدادها لألعاب الأولمبياد الشتوية التي أقيمت هنـــاك في ١٩٨٤ • على أن هذا التطور الجديد كان مجرد مثال من عمليـــات التحديث التي جـــرى تنفيذها في كثير من أجزاء الجمهورية ، واعتمد في تمويلها أساسا على القروض •

ومن عجب أن ازالة المركزية من يوغوسلافيا التي بلغت أوجها في دستور ١٩٧٤ ، كانت مع ذلك تخلق مشاكل أكثر مما كانت تحل • وأن مبدأ انشاء الهويات المنفصلة القومية السياسية شحذ شهية أبناء القوميات المختلفة الى المزيد • ويرينـــا التاريخ بأوضح صورة أن النظم الفيدرالية أو الاتحادات التي تتكون من كيانات قومية مختلفة ، لا تستطيع أن تعمل بنجاح الا اذا أقيمت على نظام ســـياسي حقيقي الديمقراطية ، بيد أن ذلك لم يكن هو الحال السائد في يوغوســـلافيا الشيوعية ، حيث كانت كل محاولة تلتمس قدرا أكبر من الاستقلال الذاتي القومي ملزمة أن تمتص كما يمتص ورق النشاف كل صنوف الامتعاض السياسي المرير ، الذي كان النظام السياسي بأكمله ينضح به • ومن الســـهل عليك أن تقنع أمة

بأنها تظلم وتضطهد أو تدبر لها المؤامرات من أمة أخرى ، بينما النظام الذى حاصر الأمتين كلتيهما كان نظاما غير ديمقراطى ولا عادل بأكمله ، وانما هو ظالم بطبيعته • كما أن السبب الطبيعى لكل أنواع التذمر انما هو الاقتصاد الضعيف المختل ــ وهو شيء كان مضمونا تماما بظل النظام اليوغوسلافى الشيوعى • على أن سوء الادارة زاد سوءا نتيجة التدابير اللامركزية التى طبقت فى الستينيات والسبعينيات ، وذلك نظرا لأنه كانت هناك ازدواجات زائدة عن الحاجة فى الصناعات ومشروعات البنية الأساسية بين الجمهوريات • وغنى عن البيان أن أسوأ أنواع المنافسة هو ذلك النوع الذى يحدث بين المصانع عندما يكون عملها معتمدا على القروض والدعم من السلطة السياسية ، مع عدم جعل المنافسة نفسها خاضعة للنظام الحق للأسواق •

وظهرت بعض الفورات القومية الكبيرة التى عبرت عن امتعاضها من النظام القائم أثناء الفترة بين الستينيات وأواخر الثمانينيات ، وكان أهم هذه الحركات فى كرواتيا وصربيا • وفي الستينيات بدا عدد من التنظيمات المختلفة يتجمع فى كرواتيا : ومنها شكاوي من تطوير صورة جديدة رسمية للغة الصربوكرواتية تتغلب فيها أشكال الكلمات الصربية ، ثم القبضة القوية التى كانت تقبض بها البنوك في بلجراد على اقتصاد السياحة في دالماشيا ، كما دارت الشكاوي أيضا حول مجال واسع من المسائل الاقتصادية والسكانية الأخري (٣٢) • وهذه الحركة التى تدعو باصرار للحفاظ على حقوق كرواتيا ، والتى أصبحت مرتبطة بحملة تطالب بتحرير أكبر للنظام السياسي اليوغوسلافي ــ وقد أصبحت معروفة فى الغرب باسم « الانتفاضة الكرواتية » ــ كانت فى جوهرها موجهة ضد الصربيين ، ولكنها ما لبثت حتى حملت وطيس المعركة الى صميم البوسنة أيضا •

وعندما حل عام ١٩٧١ نشرت صحيفة كرواتية تحليلا للهويات العرقية لجميع الموظفين الذين يعملون فى الادارة البوسنية ، أظهر أن الكرواتيين كانوا لا يمثلون الا جزءا قليلا منهم • ومع أنهم كانوا يشكلون أكثر من عشرين فى المائة من السكان ، فانهم لم يكونوا يصلون الا بشق الأنفس الى الأوساط والمستويات المهمة من المناصب ، مثل وظائف الادارة العامة لراديو وتليفزيون سراييفو ، فكل رؤساء القضاة كانوا من الصرب ، ولم يكن أحد من الكروات يشغل وظيفة المدير فى أى من الوكالات الجمهورية (الهيئات السيادية) المتنوعة • وأجاب كبار السياسيين البوسنيين مثل حمدى بوزدراك بأنه ليس ينبغى أن تهم الناس قومية

الموظف ، شريطة أن يعمل لمصلحة البوسنة بأكملها (٣٣) • ولكن المنافسة بين اهتمامات ومصالح القوميين الصرب والكروات حول البوسنه ، أصبحت من القوة بحيث لا تستطيع مثل هذه المجادلات أن تستبعدها • ولم يفت أحد الكتاب الصربيين وهو يوزيب بوتكوزوراك أن يصدر كتابا فى ١٩٦٩ يدفع بأن جميع سكان البوسنة قاطبة (وسكان دالماشيا أيضا) كانوا فى الحقيقة صربيين • واستمرت هذه المجادلات فى السبعينيات ، وشرع الكروات والصرب القوميون فى التحدث علنا عن استقطاع أجزاء من الأراضى التى تسكنها العرقيات من البوسنة وضمها الى كرواتيا وصربيا على التعاقب (٣٤) • ولم تبد أية اشارة توضح أن سياسات السلطات البوسنية كانت مناوئة للكروات أو ضد الصرب أثناء تلك المدة ، ولكن تعاقبت على المسرح ظاهرتا الضغط الاحصائى من ناحية والتاريخ العرقى المزيف من الناحية الأخرى ، وكان الأثر الوحيد الذى أنتجته تلك المجادلات الاحصائية على الطريقة التى تدار بها الأمور فى البوسنة ، هو نشوء نظام حصص مرهق لتعيين الموظفين فى الوظائف يكون تناسبيا ، أو يكون على أساس « واحد من كل منهم » ــ وهو اسهام صغير اضافى للفوضى الاقتصادية والادارية •

ولكن قدر لنمو الوطنية الصربية فى النهاية أن يكون له أثر مدمر • وفى ظاهر الأمر ، لم تكن لصربيا الا أسباب للتذمر أقل عددا من أية جمهورية يوغوسلافية أخرى ، أثناء السنوات العشرين الأولى من الحكم الشيوعى • لقد أصبحت البلاد تحكم من بلجراد مرة أخرى • وكان الصربيون يهيمنون على الحزب والقوات المسلحة ، وكان يخامر الذين عاشوا الحرب احساس قوى بأن سجل صربيا أعلى معنويا من سجل كرواتيا • ولكن « تسوية ما بعد ١٩٤٥ » من جانب تيتو ، لم تعط صربيا مكاسب اقليمية • فحولت أرض مقدونيا اليوغوسلافية بكامل أرجائها الى جمهورية منفصلة ، ومع أن سكانها كانوا غير صربيين ، لكن الجيوش الصربية كانت قد غزتها فى حرب ١٩١٢ ــ ١٩١٣ ، وأدمجتها بالمملكة الصربية تحت اسم مصطنع هو « صربيا الجنوبية » • ومن ثم فان التغيير الذى حدث فى ١٩٤٥ كان يراه الصربيون الوطنيون نوعا من السرقة للأراضى الصربية • أما المنطقة الشمالية من فويفودينا ، حيث كان عدد الصربيين يقل عن ٥٠٪ من السكان ، فانها أصبحت جزءا من المملكة اليوغوسلافية فى ١٩١٨ ، ولكن تيتو منحها وضع « ولاية ذات استقلال ذاتى » داخل صربيا • وكان هذا عند بعض الصربيين يعد عملا معاديا لنصربية ، وان لم يحدث قط أن فويفودينا كانت فى أى يوم جزءا من صربيا نفسها • كما أن منطقة كوسوفو ، التى تسكنها أغلبية ألبانية ،

وهى أيضا منطقة فتحها الصربيون فى ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، اعتبرت مستقلة استقلالا ذاتيا » من صربيا • ان هذه التغييرات ألهبت بالضغينة صدور كثير من الصربيين ، وجعلتهم يستهينون بذلك الكسب الاقليمى الذى احرزته صربيا عندما أعطاها تيتو منطقة سترم وهى الحافة الشرقية الضخمة للأراضى الكرواتية • (ولم يحدث تيتو أى تغيير على الاطلاق فى التخم التاريخى الذى يفصل بين صربيا والبوسنة ، الذى ظل ثابتا كما هو فى أخريات الحكم العثمانى والفترة النمساوية المجرية) •

كانت جميع الأحوال ملائمة لتوليد نظرية تآمرية تزعم أن تيتو نصف السلوفينى قد تآمر على صالح صربيا التاريخى • كما أن ذلك الشعور لم يبرح يزداد نموا فى الستينيات وبواكير السبعينيات • وذلك بينما تتابعت التغييرات الكثيرة فى الدستور ، وكانت تمنح مقادير أكثر فأكثر من الاستقلال الذاتى الادارى لفويفودينا وكوسوفو ، حتى وصل الأمر فى دستور ١٩٧٤ ، أن أصبحتا تملكان بعض ـ وان لم يكن كل ـ سلطات الجمهوريات الكاملة السيادة ، بما فى ذلك تمثيلهما فى الهيئات الفيدرالية الرئيسية • وبعد سقوط رئيس ادارة الأمن ، ألكسندر رانكوفيتش ، والذى حكم كوسوفو بقضيب من حديد ، ومستعينا بعدد ضخم من الموظفين الصربيين ، تغير الموقف هناك تغيرا درميا • فأولا حدثت انتكاسة الى الخلف اذ انقض الألبانيون المحليون على الصرب المحليين أيضا مع حركات شغب مضادة للصربيين فى ١٩٦٨ ، وأعمال عنف موجهة ضدهم ثم حدثت بعد ذلك حركة سريعة ترمى الى اضفاء الطابع الألبانى على كوسوفو ، مما أقلق صرب كوسوفو بشأن وضعهم كأقلية صغيرة بين سكان الاقليم • وهنا غادر آلاف من الصربيين الولاية الى صربيا نفسها ، وكان بعضهم يفر فرارا لشعوره بأنه يطارد ويهدد ، ولكن الكثير منهم كانوا يتطلعون الى الحصول على عمل أو قل انهم كانوا يشاركون فى ذلك الشعور العام الذى دفع أبناء الأقليات الى النزوح الى مراكز قوميتهم الأساسية • وهى الحركة التى رأينا أنها أثرت أيضا فى الصرب البوسنيين كذلك أثناء تلك المدة نفسها (٣٥) •

والموقف فى كوسوفو الذى بلغ من شأنه فى أوليات الثمانينيات أن أصبح أزمة مستحكمة واحتلالا عسكريا ، بات بيت القصيد والبهرة الأساسية وانتعاش الوطنية الصربية • ومنذ زمن مبكر هو ١٩٦٨ ، كان الشيوعيون الوطنيون من الصرب مثل دوبريكا تشوشيتش يظهرون الشكوى من انقلاب السياسة فى كوسوفو بعد سقوط رانكوفيتش • « كان المرء يستطيع أن يرى الهدف التاريخى القديم ، والفكرة القومية ـ

فكرة توحيد الشعب الصربي في دولة واحدة ـ يتأججان من جديد في نفوس الصربيين » ، هذا ما قاله ذلك الرجل (٣٦) • وهذا القول الذي قيل بلغة التحذير ولكنه صدر بروح التهديد ، تسبب في طرد تشوشيتش من اللجنة المركزية • وكان تشوشيتش يعارض أيضا كل اتجاه لمنح الوضع القومي لمسلمي البوسنة وان لم يكن ذلك شيئا جاء من قبيل الاتفاق المتزامن • وذلك لأن الألبانيين في كوسوفو كانوا في أغلبهم من المسلمين مما جعل الشعور المضاد للاسلام ظاهرة للنزعة القومية الصربية • ولم يكن ذلك بالشيء الجديد ، فانه طالما كان جزءا من الثقافة الأدبية الصربية ، ولكن يتم التعبير عنه الآن بقوة اكثر كثيرا ، كما حدث في تلك الروايه المتمرسة التعصب ضد الاسلام المعنونة « السكين » ، التي نشرها القومي الراديكالي فوك دراشكوفيتش (Vuk Draskoviĕ) في أوليات الثمانينيات (٣٧) • ولم تشأ الكنيسة الأرثوذكسية الصربية هي الأخرى أن تفوت فرصة احياء الاحساس بالهوية الدينية ، في ثقافة البلاد الأدبية والسياسية ، وهناك أيضا ادعاءات التملك الصربية المتهوسة حول كوسوفو ، فانها في الواقع كانت تقوم على وجود بعض أقدم الأديره الأثوذكسية الصربية ومباني الكنائس ، بما في ذلك البطريركية نفسها ، في ذلك الاقليم •

وواكب انتعاش الأرثوذكسية أيضا ، انتعاش بالاهتمام بموضوع التشيتنيك المحظور أثناء الحرب العالمية الثانية • وفي الحقيقة كانت سياسة الشيوعيين هي حظر كل ما هو تشيتنيكي بدون تمييز ولا تحليل بسبب تواطؤ التشيتنيك مع الفاشية ، ولذا جاء رد فعل الوطنية الصربية ، متعاطفا معهم ضد هذا النظام • وأصدر دوبريكا تشوشيتش رواية قصصية في ١٩٨٥ بطلها أيديولوجي ومنظر تشيتنيكي ، وفي السنة نفسها ظهر كتاب حول التشيتنيك للمؤرخ فازيلين جوريتيتش في حفلة أقامتها أكاديمية العلوم الصربية • وكانت هذه الحادثة نقطة تحول مهمة ، ومؤشرا على أن القومية الوطنية الصربية أصبحت أمرا مقبولا لدى المؤسسة الفكرية في بلجراد • وفي يناير من السنة التالية ، وقع مثتان من أبرز الأكاديميين والكتاب في بلجراد ، على التماس أشار بعبارات هستيرية الى « العدوان الألباني » والى « التطهير العرقي » بمقاطعة كوسوفو • فكأن جميع أنواع الاستياء الصربي قد ظهرت الآن على السطح : وشكا ذلك الالتماس من « أن هناك محاكمة سياسية شائكة للأمة الصربية وتاريخها ، ظلت مستمرة عقودا متتالية من الزمان » (٣٨) •

وفيما بعد في ١٩٨٦ ، سطرت مذكرة في الأكاديمية الصربية للعلوم (أو على الأقل على يد لجنة عينتها تلك الأكاديمية معلوم أن تشوشيتش

كان بين أعضائها) ، اجتمعت فيها الشكوى من كوسوفو الى الاتهام الصريح لتيتو بأن سياسته كانت تهدف الى اضعاف صربيا · وقد شكت تلك المذكرة من أن : « القومية الوطنية انما خلقت من أعلى » · وبطبيعة الحال ، لم تكن هذه الكلمة اشارة الى الوطنية الصربية ، التى جاهد هؤلاء الكتاب لخلقها من وجهة نظرهم ومصلحتهم الخاصة ، وانما الى الهويات الوطنية للكروات والسلوفيين والمقدونيين ومواطنى الجبل الأسود والمسلمين البوسنيين · وادعت المذكرة أيضا أن مخطط استيعاب القوميات كان يجهز فى كرواتيا ، ويهدف الى تحويل من بها من الصرب الى كروات · وكذلك شكت أيضا من أن الكتاب الصرب العرقيين الذين يعيشون فى أماكن مثل الجبل الأسود ، كانوا يوصفون بأنهم يكتبون لا أدبا صربيا ، بل أدب « جبل أسودى أو بوسنى » بدلا من ذلك · وكانت نقطة الجدل الأساسية فى المذكرة هى أن « الشعب الصربى » بكل أرجاء يوغوسلافيا ، كان نوعا من الكيان الابتدائى ، يمتلك مجموعة توحيدية من الحقوق والدعاوى التى تعلو على أى أقسام سياسية أو جغرافية بحتة : « ان مسألة تكامل الشعب الصربى وثقافته بكل أرجاء يوغوسلافيا تفرض نفسها كموضوع حاسم بالنسبة لبقاء ذلك الشعب وتطوره » (٣٩) · ومن أسف أن السعى لتحقيق ذلك « التكامل » هو الذى أدى فى النهاية الى تدمير يوغوسلافيا وانزال الخراب بالبوسنة أيضا ·

ومع انتشار هذا الرأى فى صربيا فى السبعينات والثمانينات ، كانت هناك حساسيات متزايدة فى صدور السلطات فى البوسنة لإزاء أى تعبير عن احياء النزعة الاسلامية الذى ربما ينطوى على معان سياسية · ولا ننكر القول بأن الحكومة البوسنية الجمهورية لم تكن تعمل مسترشدة بالروح الجديدة « للوطنية الصربية » المضادة للمسلمين · وانما هى كانت على العكس من ذلك تحاول أن تحتفظ بالسياسة الشيوعية الرسمية التى تهدف الى اذابة وازالة أى عنصر دينى فى الهوية الوطنية القومية فى خاتمة المطاف · ومن ثم فانها كانت تنزعج لأية دلالة على وجود نشاط سياسى نابع من بواعث دينية بين المسلمين بنفس الشدة التى انزعجت بها من الحلف الجديد الناشىء بين النزعة القومية والأرثوذكسية المنتشر بين الصرب ، كما أمكنها أن تدرك أن أى نمو فى الأولى سيمد الثانية بالزاد والذخيرة · وأخذ أعضاء الهيئة الدينية الاسلامية فى البوسنة يعبرون بصراحة أكثر عن انتقاداتهم للنظام الشيوعى ، وترددت الشائعات والأقاصيص بعد الثورة الايرانية فى ١٩٧٩ بأن صورا لآية الله الخومينى قد شوهدت معلقة بالنوافذ البوسنية ، وهو أمر سبب للسلطات شيئا آخر من الانزعاج · ومع أنه كان لسياسة عدم الانحياز القديمة دور كبير فى

رفع الاسلام من مهاوى الركود والفتور فى البوسنة وزادت من اتصالها بسائر أجزاء العالم الاسلامى ، فان السلطات قررت الآن أن تعمل ضد حدوث أى نمو جديد فى شعبية العقيدة الاسلامية . وفى ١٩٧٩ تلقى شيوعى مسلم هو درويش شوشيتش شيئا من التشجيع على أن ينشر فى صحيفة سراييفو « أوسلوبودينى » سلسلة من المقتطفات من كتاب له كان يكتبه ، وكان يعرض (بتشديد وكسر الراء) بتعاون كبار الأعضاء من رجال الدين المسلمين مع الأوستاشا ومع الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما هوجم شوشيتش لذلك فى الصحيفة الناطقة بلسان الجماعة الاسلامية رسميا وهى « بريبورودPreporod » ، دافع عنه علنا أحد كبار الرجال المعبرين عن السياسة الرسمية فى الدين ، وهو البروفيسور فؤاد ميوهيتش ، أحد أساتذة جامعة سراييفو . وما لبث أن نزل الحومة رجل من أقطاب الشيوعيين المسلمين ، وهو حمدى بوزدراك ، الذى انتقد علانية ما أسماه بنزعة الجامعة الاسلامية (٤٠) .

وفى اطار هذه الخلفية ، جرت أحداث أشهر انقضاضة على النشطاء المسلمين فى البوسنة حيث قدم للمحاكمة فى سراييفو فى ١٩٨٣ ثلاثة عشر رجلا اتهموا بأنهم « قاموا بأعمال معادية ومضادة للثورة نابعة من القومية الاسلامية » . وكان على رأس المتهمين الدكتور على عزت بيجوفيتش ، وهو محام ومدير متقاعد لشركة مبان ، وكان قد أتم كتابه « الاعلان الاسلامى » قبل ذلك بثلاثة عشر عاما . وكان هو وثلاثة من المتهمين أعضاء فى « منظمة شباب المسلمين » ، التى كانت تعارض الهجوم الشيوعى على الاسلام فى نهاية الحرب العالمية الثانية . ووجهت تلك التهمة اليهم أيضا حيث ، اتهموا باحياء أهداف منظمة « ارهابية » . واتهم عزت بيجوفيتش أيضا بأنه كان يدعو الى ادخال الديمقراطية البرلمانية على الأسلوب الغربى الى البلاد . وكان أهم دليل اتهام قدم ضدهم هو « الاعلان الاسلامى » الذى كان حسب منطوق صحيفة الاتهام اعلانا بانشاء دولة بوسنية اسلامية نقية العنصر صافية العرقية . ولكن عزت بيجوفيتش أوضح أن الاعلان لم يكن يحتوى على أى شىء يتحدث عن تطهير البوسنة عرقيا ، وأنه فى الحقيقة لم يكن يحتوى على أية اشارة الى البوسنة على الاطلاق : ولكن هذه التفاصيل وأمثالها لم توقف المحكمة التى حكمت عليه بالسجن أربعة عشر عاما ، خفضت بناء على التماس قدم منه الى أحد عشر عاما (٤١) .

وكان لهذه المحاكمة أثرها السيىء فى بث الخوف فى جميع الأنشطة الإسلامية الدينية بأرض البوسنة ، كما أنها قوت الى حين مركز كبار الشيوعيين من المسلمين مثل حمدى بوزدراك الذى كان فى الامكان أن يتقبل

ويقتنع بفكرة الهوية الاسلامية الوطنية ، ما دامت ستظل فى جوهرها علمانية . لكن لم يمض وقت طويل حتى قوض أيضا هذا الشكل من السياسة الاسلامية بفعل فضيحة مالية صارخة تسببت فى سقوط بوزدراك . وكانت الفضيحة تدور حول مشروع فى الركن الشمالى الغربى للبوسنة يسمى « أجروكومرك » ، بدأ كمشروع مزرعة دواجن فى الستينيات ثم أخذ ينمو فى ظل مديرها ذى الموهبة القيادية فيكرت أبديتش (Fikret Abdic) ، بلغ من عظم نموها أنه عندما وافت سنة ١٩٨٧ كانت تستخدم ثلاثة عشر ألف عامل وموظف فى المنطقة ، وكانت واحدة من أكبر المشروعات الاستثمارية الثلاثين فى يوغوسلافيا كلها . وكان السر وراء نموها أنها أصدرت أوراقا تعهدية مالية ذات فوائد عالية النسبة دون أن يساندها رأس مال ضامن ، وذلك شىء كان ممكنا آنذاك ما دامت الأوراق ممهورة ومظهرة بالخاتم الرسمى للبنك المحلى . (وواضح أن الخاتم قد سلم الى شركة أجروكومرك بدلا من الاضطرار الى أخذ الأوراق الى البنك) . ولم تكن هذه القصة بالشىء العجيب أو الغريب فى يوغوسلافيا : ولكن الشىء الوحيد الغريب هو مجرد حجم العملية كلها ، حيث بلغت قيمة هذه الأوراق التعهدية خمسمئة مليون دولار . والأمر كما عبر مصرفى كبير القدر من بلجراد : « أن جميع أقطاب رجال البنوك والسياسيين لابد أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن مشروع الأجروكومرك كان يسحب على المكشوف . وكان ما فعله أبديتش يتم فى كل مكان ، وكانت غلطته الوحيدة هو أن فعل ذلك بدرجة مفرطة » . وبالمثل كان كل انسان يعرف أن كبار مسئولى الحكومة البوسنية كانوا على صلة بذلك المشروع بما فى ذلك بوزدراك الذى كان أخوه حقى مستشارا لمشروع الأجروكومرك . أما أبديتش نفسه فكان عضوا فى اللجنة المركزية البوسنية ، ولكنه الآن فصل . وكان بوزدراك يشغل منصبا أكثر هيبة ومقاما ، وهو منصب نائب رئيس يوغوسلافيا ، على أنه استقال فى نهاية الأمر ، رغم أنه ظل يؤكد براءته (٤٢) .

مع هذا ظل أبديتش شخصية محبوبة من المسلمين العاديين الى أقصى حد ، حيث شعروا أنه بذل جهودا عظيمة فى جذب المشروعات وتحقيق الرفاهية والرغد فى البوسنة . وكان كثير من الناس على اقتناع بأن المسألة كلها انما دبرتها بلجراد كوسيلة للقضاء على أبرز رجال السياسة المسلمين . وكان أوزدراك نفسه يعد فى طليعة المرشحين لرئاسة يوغوسلافيا ، وكان كذلك رئيسا باللجنة الدستورية التى كانت تعد مراجعة جديدة للدستور ، الذى كانوا يعتقدون فى بلجراد أنه سيكون « مناهضا لصربيا » فيما سيأتى به من تغيرات . ومن المؤكد أن الذى حمل

بوزدراك على الاستقالة هو الضغط الذى أنزلته الصحافة ، وبخاصة صحيفة البوربا (Borba) • وكانت نتائج ذلك الأمر مدمرة رهيبة العاقبة على اقتصاد الشطر الشمالى الغربى من البوسنة ، بما حوى من أغلبية مسلمة كبيرة •

وهذه القصة بحذافيرها ترمز بطريقتين الى التوتر والانزعاج الذى نكبت به البوسنة ويوغوسلافيا قاطبة عند منتصف الثمانينيات • فأولا كان هناك الانهيار التام للنظام الاقتصادى المتهالك الذى لم يستطع العيش الا على الأموال المقترضة ، حيث ملأ البلاد بالمصانع المهولة الجبارة التى كان لا مفر من أن تعمل بالخسارة حتى مع عدم سداد الفوائد على القروض التى مولت اقامتها • مثال ذلك أنه قد أقيم فى زفورنيك بالبوسنة الشرقية أعظم مصنع للألومينيوم فى أوربا ، وهو يستخدم أربعة آلاف عامل • وهو مصنع بنى هناك ومول بالقروض الأجنبية ، للاستفادة فيه من خام البوكسيت المحلى ، وما كادت آلات المصانع تصل حتى اكتشف المديرون أن خام البوكسيت المحلى لم يكن على درجة عالية من الجودة ، وعند حلول عام ١٩٨٧ أصبحوا مضطرين الى أن يستوردوا خام البوكسيت من أفريقيا بدلا من الخام المحلى (٤٣) • ولا يخفى أن نظام تيتو الاقتصادى الذى وصف أدق وصف بأنه « الادارة الذاتية السيئة » ــ كان فى حالة من الاضمحلال المطلق ، مع هبوط انحدارى شديد وثابت فى الأجور الحقيقية ، وارتفاع فى نسبة غياب العاملين واضراباتهم • وعندما عين الزعيم البوسنى الكرواتى برانكو ميكوليتش ، رئيسا للوزراء للحكومة الفيدرالية فى ١٩٨٦ ، وعد بأن ينجز اصلاحات بعيدة المدى ، وأن تخفض درجة التضخم الى عشرين فى المئة • وأدخلت بعض اجراءات التقشف ، فأدى ذلك الى كراهية الشعب للحكومة بوجه عام ، ومعها النظام الفيدرالى كله ، بيد أن الاصلاحات العظمى فى البنية الأساسية لم تتحقق أبدا ، وبدلا من ذلك قضت الحكومة شهورا طويلة فى البت فى أمور مثل : امكانية رفع عدد العمال المستخدمين فى المشروعات الخاصة الى عشرة عمال لكل مشروع • وفى نفس الحين ارتفع التضخم الى ١٢٠٪ فى ١٩٨٧ ، والى ٢٥٠٪ فى ١٩٨٨ • وعند نهاية تلك السنة بلغ دين يوغوسلافيا الأجنبى الكلى ٣٣ بليون دولار ، منها ٢٠ بليونا قد وجب سدادها الى دول الغرب بالعملة الأجنبية • وعلى هذا النحو أصبح التراث الطويل الأجل لسياسات تيتو الاقتصادية هو زيادة أعداد الفقراء والساخطين وبذلك تهيأ خير جو لعمل الديماجوجيين الذين كانوا يستغلون هذا الاستياء لصالحهم •

والطريقة الثانية التى كانت ترمز بها مسألة شركة الأجروكومرك الى نظام نيتو السياسى كله ، تجلت فيما كشفنه من أمر طبقة كبار المسؤولين السيوعيين • اذ مضت عقود عديدة من السنين ومعظم البلاد تحكمه أسر محلية متوارثة وهى عائلات من السياسيين جمعت فى أثناء الحرب ثروات ميسرة ، وظلت تتلقى الرفعة والرقى من زمن مبكر وتصل الى مناصب تستطيع منها أن تطور شبكة قوية من الرعايات الشخصية لكل من حولها • فأما الذين حاربوا مع رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) ، فكان فى امكانهم أن يتوقعوا المشاركة فى ثمار مكاسب القوة والسلطة مع تيتو ، طوال المدة الباقية من حياتهم • وقد عبرت احدى النكات اليوغوسلافية عن تلك المسألة على الوجه التالى : « ما الفرق بين يوغوسلافيا والولايات المتحدة ؟ » ، الاجابة : « أنت فى الولايات المتحدة تشتغل أربعين عاما ثم تصبح رئيسا أربعة أعوام ، أما فى يوغوسلافيا فانك تحارب أربع سنوات ثم تظل رئيسا لمدة أربعين عاما » • كانت أسرة بوزرداك أبرز مثل على ذلك فى البوسنة : وذلك نظرا لأن أكبر الأخوة « نورى » انضم الى تيتو فى ١٩٤١ وعندئذ ضمن المستقبل السياسى للعائلة بأسرها • كما أن الزعيم السياسى الصربى الأقدر فى أثناء السبعينيات والثمانينيات ، وهو ميلانكو رينوفيتسا ، كان هو الآخر يتاجر بسجله التاريخى أثناء الحرب ، لأنه كان أحد القلة من الصربيين الموالين لرجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) فى منطقة يغلب عليها طابع الميل الى التشيتنيك •

كان هذا النظام يعمل كأنما هو قطاع متراكب من الدوقيات القروسطية ، وبين راحتيه شباك متدلية من النفوذ والسلطان يشمل بها هؤلاء الأفراد المتميزين بالرضا والقبول أثناء جميع أدوار حياتهم ، شأن أى نظام آخر من الرعاية ، كان هذا النظام يستطيع أن يمنح المساعدة والرفعة والترقية لمن يستحقون ذلك من الأفراد ، ولكن النظام بأكمله كان فاسدا • كما أنه كان يدفع بالبلاد الى الركود ، وذلك نظرا لأن الجيل الذى خاض القتال فى الحرب قد تخطى سن المعاش والتقاعد • وبرز جيل جديد شق طريقه الى أعلى فى ذلك الهرم الأشم ، وأخذ يناور لبلوغ السلطة والقوة ، وهنا سهل عليهم الركود والأسن السياسى العام والاضمحلال الاقتصادى أن يلتمسوا الأوناش التى يستطيعون بها ازالة من يقفون فوقهم فى الطريق • وكان الاحساس بخيبة الأمل عند اليوغوسلافيين العاديين عاما وشائعا بين الناس جميعا • وكان هذا عند الكثير منهم يتخذ شكل الانسحاب من كل نوع من أنواع الحياة السياسية • وفى مؤتمر ١٩٨٧ لعصبة البوسنيين الشيوعية ، برزت الشكوى من النظام ، وكان هناك « جنوح متزايد من الشباب الى اظهار السلبية ، وعدم المبالاة

والحياد اظهارا وعكسا لعدم رضائهم عن الأحوال الجارية » (٤٥) ٠ ومع انهيار الاقتصاد ظهرت انفعالات أو عواطف أخرى فى مناطق مختلفة من البوسنة ٠

وفى يوليو ١٩٨٨ ، تظاهر الآلاف من عمال المصانع فى بلجراد ، احتجاجا على اجراءات حكومة ميكوليتش التقشفية ٠ وحدثت بعد ذلك فى أثناء الصيف مظاهرات ضخمة جدا احتجاجا على كبار رجال الحزب المحليين فى فويفودينا والجبل الأسود ، حتى انتهى الأمر فى النهاية الى استقالة المكاتب السياسية بأكملها بكل من الاقليمين فى أكتوبر ١٩٨٨ و ١٩٨٩ على التعاقب ٠ والذى دبر هذا الضغط الشعبى وأحكم تنظيمه هو الزعيم الجديد للشيوعيين الصربيين ، سلوبودان ميلوشيفيتش ، الذى تمكن آنئذ من تعيين أعوانه فى المكاتب السياسية ٠ والذى فعله ميلوشيفيتش هو أنه استغل التذمر الحقيقى الذى كان يملأ نفوس الناس العاديين من أبناء فويفودينا والجبل الأسود ــ الذى تولد من خيبة الأمل فى النظام الشيوعى بأكمله ــ واستخدمه لمنافعه الخاصة ٠ وكان فى الحين نفسه يضغط ضغطا شديدا على المسئولين الشيوعيين فى كوسوفو ، بقصد تحويلهم من المعارضة الى التبعية له ، والواقع أن مقاومة الألبان المحليين لذلك الضغط الصادر من بلجراد سهل عليه أن يصور العمليات فى صورة معان وطنية وقومية ، فزعم بأنها دفاع عن المصالح القومية الصربية ضد الألبانيين المتقلبين الغادرين ٠ وفى مارس ١٩٨٩ ، أقرت الجمعية الصربية ، بناء على طلبه ، تعديلات دستورية ألغت الاستقلال الذاتى لكل من كوسوفو وفويفودينا : وأثار هذا التصرف مظاهرات حاشدة واضرابا عاما فى كوسوفو ، فأخمدتها قوات الأمن الصربية (٤٦) ٠ والآن أصبحت جميع أجزاء لعبة الألغاز فى مكانها الصحيح ٠ وقد حل فى بلجراد سياسى طموح تعلم طرائق سياسات القوة وشق طريقه الى أعلى فى جسم النظام كله ، وكان هناك بالفعل شعور عام بالقلق والاستياء والتذمر ، جعل الناس يحنون حنينا شديدا الى قيادة حاسمة ، كما أن أيديولوجية القومية الصربية ، التى طالت بها خيبة الأمل والاحباط ، أخذت تجد لها الآن تعبيرا عنها فى سياسة « ارجعت » فويفودينا وكوسوفو الى السيطرة الصربية ٠ وبدا الأمر كأن هناك طريقتين قد صهرتا احداهما فى الأخرى فأصبحتا شيئا واحدا : جمع السلطة كلها فى يدى ميلوشيفيتش ، وتجميع الصربيين فى وحدة سياسية واحدة تستطيع اما أن تتسلط وتسيطر على يوغوسلافيا أو تمزقها اربا ٠

الفصل الخامس عشر

البوسنة ومنية يوغوسلافيا

١٩٨٨ ـ ١٩٩٢

فى اليوم الثامن والعشرين من يوليو ١٩٨٩ اجتمعت عدة مئات الألوف من الصربيين بموقع معركة جازيمستان خارج مدينة برشتينا عاصمة كوسوفو للاحتفال بالعيد الستمائة لمعركة كوسوفو (١) • وقبل ذلك بعدة أسابيع جرت عملية لاستثارة الشعور القومى فى صربيا ، فاستخرجت عظام الأمير لازار الذى لقى مصرعه في المعركة ، وداروا بها دورة كاملة بكل أرجاء البلاد ، حيث أصبحت محجا للناس جميعا حيثما كانت • وفى حوش دير جراتشانيكا (جنوب برشتينا) ، بينما كان الناس يحتشدون لتقديم ولائهم وحبهم لعظام الأمير فى الداخل ، كانت الأكشاك تبيع ايقونات الصور ليسوع المسيح والأمير لازار وسلوبودان ميلوسيفيتش ، وفى الاحتفال الذى أقيم بموقع المعركة اصطحب ميلوشيفيتش معه مطارنة من الكنيسة الأرثوذكسية فى مسوحهم السوداء ، ومغنين يرتدون الملابس الشعبية الصربية التقليدية ، وأفراد من شرطة الأمن فى ملبسهم التقليدى وهو البدلة السوداء والنظارات الشمسية ، وصاح ميلوشيفيتش وهو يخطب فى جماهيره : « اليوم وبعد قرون ستة عدنا ثانية ننشغل بالمشاجرات ، ورغم أنها ليست معارك مسلحة لكننا لانستطيع أن نتجنب ذلك حتى الآن » (٢) • وزأر الجمهور كله بالاستحسان والموافقة •

ولم يكن ذلك الا نقطة تحول رمزية فى تاريخ البلاد اليوغوسلافية • فقد حقق ميلوشفيتش الآن الشيء الكثير مما أراد • وقد حصل على مكانة ببلاد الصرب لا سبيل الى تحديها ، مكانة شخصية عن طريق خليط من الشيوعية والبلاغة القومية الوطنية • ولذلك أصبح الآن يسيطر فى الحكومة الفيدرالية على أربعة أصوات من ثمانية : هى صربيا وفويفودينا وكوسوفو والجبل الأسود • ولم يبق عليه الا أن ينزل مقدونيا الى مستوى

التبعية ، لكى ينيسر له آن يفعل ما يشاء مع الحكومة الفيدرالية ، وعندئذ يمكن اعادة كتابة الدستور الفيدرالى ، لكى يتبت دعائم هيمنة الصرب وسيطرتهم .

ومع هذا ، فان نفس العمليه التى اجتذبته الى هذه النقطة جعلت من غير المحتمل أن أجزاء يوغوسلافيا التى لم يتمكن من السيطرة عليها ستخضع أبدا لمثل هذه الاعادة التنظيمية . فالاحساس القومى الكرواتى الذى كان يغلى بسموم التنمر منذ القضاء على الانتفاضة الكرواتية فى أوليات السبعينيات لدغ لدغة دفعته الى الحركة والفعل ازاء انعاش تلك القومية الصربية فى منتصف الثمانينيات . فان ميلوشيفيتش لم يقتصر فقط على انهاء ذلك الحظر المفروض على أشكال معينة من الانتقادات الموجهة للكروات ، بل انه شجعها تشجيعا ايجابيا بحيث ان الاعلام الصربى الرسمى أصبح الآن على العموم يشير الى زعيم الشيوعيين الكروات ايفيكا رانسان على أنه « أوستاشا » اى من الحركة الوطنية الارهابية المتطرفة للكروات (٣) . ومن تم عادت جميع المواجع الكرواتية القديمة فطفت الى السطح تانية ، وفى هذا الجو الجديد الذى تحطمت فيه المحرمات حول الحرب العالمية الثانية ، شرع الكثيرون يحسون بالنفور من الربط الأوتوماتيكى للكروات بالأوستاشا ، وتلك الكتابات التاريخية الرسمية التى بالغت بسذاجة فى الأعداد الكلية لمن قتلوا فى كرواتيا أثناء الحرب . وكانت النتيجة هى ظهور كتابات تدافع عن القومية الكرواتية بل وعن الأوستاشا فيما بعد ، وكان من مؤلفيها عضو المقاومة الشيوعية البارتيزان القديم ، الجنرال السابق فى الجيش اليوغوسلافى فرانيو توجمان ، الذى كان يريد أن يميز بين الآمال القديمة التى كانت تراود الكروات فى الاستقلال عن بلجراد وفصلها عن تاريخ الأوستاشا الذى أصبح تهمة لصيقة بهم . وبغض النظر عن جميع المجادلات التاريخية ، كانت هناك مخاوف من المستقبل أيضا ، كتلك التى تمخض عنها فكر دوبريكا تسوشيتش فى يوليو ١٩٨٩ عندما أخبر أحد الصحفيين الذى كان يحادثه أن شطرا كبيرا من كرواتيا ينبغى « التخلى عنه الى جمهورية أخرى » (٤) .

وفى الحين نفسه عمدت أشد الجمهوريات تأثرا بالطابع الغربى واستقلالا فكريا وهى جمهورية سلوفينيا ، الى اعداد الترتيبات للوقاية من المراحل التالية من الضربة أو الانقلابة الدستورية المتمهلة التى يدبرها ميلوشيفيتش . فمى سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٩ وضعت مشروع دستور سلوفينى جديد ، ومررته قانونيا ، فكأنها أعطت لنفسها ولاية تشريعية ـ

أو بمعنى آخر أنها قالت ان قوانينها الخاصة سوف تكون لها الأسبقية على قوانين الدولة الفيدرالية مع اعلانهـا صراحة حقها فى الانفصال (٥) ٠ وبينما ذلك كله يجرى كان الانهيار الدرامى للدولة الشيوعية الكبرى فى شرق أوربا يملأ شاشات التليفزيون ليلة بعد أخرى ٠ ولذا فان الخيط الرفيع من الأحزاب السياسـية المستقلة ، التى بدأت فى التكون فى يوغوسلافيا فى ١٩٨٨ أصبح الآن فيضا جارفا ٠ وفى ينـاير ١٩٩٠ خرج الشيوعيون السلوفينيون من مؤتمـر الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، وبعد ذلك بأسبوعين أطلقوا على أنفسهم اسم حزب التجديد الديمقراطى ، واعدت كل من سلوفينيا وكرواتيا الترتيبات لانتخابات تجرى فى ربيع ١٩٩٠ : وفاز بهذه الانتخابات فى الجمهورية الأولى ائتلاف قومى ليبرالى وفى الثانيـة فاز الحلف الوطنى الكرواتى الجديد « الرجـال الجدد الكرواتيون الديمقراطيون » بزعامة فرانيو توجمان ٠

وكذلك غير ميلوشيفيتش اسم حزبه : فأسماه « الحزب الاشتراكى الصربى » ، ثم أخذ يتحدث عن اجراء انتخابات متعددة الأحزاب بصربيا ٠ ثم أجلت هذه الانتخابات حتى نهاية العام : وربما ألم بمليوشفيتش شىء من التزعزع بسـبب انخفاض شـعبيته لفترة فى النصـف الأول من ١٩٩٠ ، وربما كان يود أن ينتظر حتى تحـل أزمه وطنيـة ، عسى ان يستطيع أن يعـاود دوره بوصـفه « المنقذ » لصربيـا ٠ ولما كان يملك الاذاعة والتليفزيون الصربيين ، ويضعهما تحت سيطرة محكمة ، فليس هناك الا الخطر الضئيل فى فقدانه الانتخابات الجيدة التخطيط ٠ ولكن أمست الحاجة واضحة فى النصف الأول من ١٩٩٠ الى أن « يحدث » (بتشديد وكسر الدال) استراتيجيته ويصبغها بالعصرية ، فحتى الآن ظل يواصل هدفه الأثير الأول : وهو الوصول الى السيطرة على يوغوسلافيا عن طريق الهياكل الموجودة للحزب الشيوعى والحكومة الفيدرالية ٠ بيد أن هذا الاختيار قد أفلت من قبضته بسبب تفكك الحزب الشيوعى والتفسيم « الرأسى » للسياسات اليوغوسلافية الى مجموعة من الأحزاب القومية بين الجمهوريات المختلفة ٠ غير أن ذلك خلى بينه وبين اختياره الثانى : فان لم يمكنه السيطرة على يوغوسلافيا كملكية منفردة فانه سيشكل منهـا كيانا جديدا ، يكون قطـرا صربيـا موسعا ، يصير له وله حده ٠ وقضى رجال السياسة فى سلوفينيا وكرواتيـا شـطرا كبيرا من ١٩٩٠ وهم يترافعون ويتحاجون فى طلب اتفـاق سلمى يقوم على المفاوضـة لنقل نظـام يحول يوغوسلافيا من دولة فيدراليـة الى دولة كونفيدرالية ــ وأعنى بذلك أن نتحول من دولة يكون فيها القانون الفيدرالى والمؤسسات الفيدرالية هو الأساس، الى دولة تكون فيها الجمهوريات هى التى تمسك بقبضتها بالسلطة

الحقيقية ، بينما المؤسسات الفيدرالية لا تقوم ببساطة الا بدور وكالات الربط والتنسيق • ولكن ميلوشيفيتش لم يبد أى اهتمام بتلك الخطط •

وجاءت أولى العلامات الواضحة على استراتيجية ميلوشيفيتش بمنطقة كنين (Knin) فى كرواتيا وهى جزء من الحد العسكرى القديم بمنطقة « كرايينا » التى بها غالبية السكان من الصرب • واستعدادا للانتخابات الكرواتية فى أبريل ١٩٩٠ نظم هؤلاء الصرب أنفسهم فيما أسموه « حزب الصرب الديمقراطى » ، والراجح أن ميلوشيفيتش شعر منذ البداية بشىء من الاهتمام بهذا التطور ، ولكن يبدو أنه كان بمبادرة محلية ، تعبيرا عن مخاوف الصرب المحليين من أن يفقدوا هويتهم الثقافية فى كرواتيا الوطنية الجديدة • وراح بعض أعضاء الحزب الأكثر تطرفا ، فى ترديد أصداء الدعاية الصادرة من بلجراد ، يصرحون بأنهم اضطروا للدفاع عن أنفسهم ضد « دولة الأوستاشا » ـ وهى اشارة تجىء فى المقام الأول الى الراية الكرواتية الشبيهة بمربعات لوحة الشطرنج ، التى كانت بالفعل رمزا للأوستاشا ومع هذا ، فقد كانت أيضا الراية الوطنية الكرواتية أمد مئات السنين • وبعد الانتخابات ، عندما شرعت الحكومة الجديدة فى طرد الموظفين الشيوعيين من مناصبهم ، علت الصيحة بأن الصرب انما يطردون من أعمالهم زمرا • ولما كانت نسبة الصرب العاملين فى الجهاز الحكومى بكرواتيا تفوق نسبتهم الحقيقية فى عدد السكان (ويشكلون ما يقارب ٤٠ ٪ من أعضاء الحزب الشيوعى و ٦٧٪ من قوة الشرطة) ، فلم يكن بد من أن يظهروا فى عمليات التصل بصورة غير متناسبة اطلاقا ، ولا شك فى أنه حدثت بعض المحاولات الجائرة لتصفية الأحقاد القديمة أيضا •

ومع هذا ، فانه حدث فى صيف ١٩٩٠ أن رأس حزب الصرب الديمقراطى فى كنين زعيم متطرف يبدو أنه كان على اتصال وثيق مع ميلوشيفيتش • وعقد استفتاء محلى فى أغسطس على « الاستقلال الذاتى » للصرب ، حيث خرج الصرب فى تحد للحكومة الكرواتية التى اعتبرته غير قانونى ، وبدأ جند ميليشيا صربيون مسلحون يظهرون فى شوارع كنين ، وكان يساعدهم ضباط من ناحية الجيش الفيدرالى (وكان قائدهم العام الجنرال راتكو ملاديتش Ratko Mladić) ، وحاولت السلطات الكرواتية أن تصادر امدادات الأسلحة الخاصة بوحدات الاحتياط فى البوليس المحلى ، وعندئذ عمد الصرب ، وقد أبلغهم زعماؤهم ووسائل الاعلام فى بلجراد بأن « الأوستاشا » يخططون ليذبحوهم ، لطلب الحماية من الجيش الفيدرالى • وحدثت قلاقل شديدة ، وأطلقت النار على رجال الشرطة الكرواتية • وفى يناير ١٩٩١ كان زعماء الصرب

المحليين يصفون المنطقة بأنها منطقة « كرايينا الصربية المستقلة ذاتيا » ، وأخذوا يشكلون « برلمانهم » الخاص · وبعد ذلك بشهرين حاول مسلحون من كرايينا أن يستولوا على حديقة بلينفيس القومية ، وهى أهم مكان يقصده السياح فى داخل كرواتيا : وكان هذا يعد تحديا مباشرا ومتعمدا للحكومة الكرواتية · وحدث اطلاق نار مع الشرطة الكرواتية ، وعندئذ أمرت القيادة الفيدرالية قوات الجيش (رغم اعتراضات كرواتيا القوية) باحتلال الحديقة « لاعادة السلم والنظام الى نصابه » (٦)

وهذه الأحداث التى حدثت في الجانب الآخر من حدود البوسنة الشمالية الغربية جديرة بأن ينظر اليها فى شيء من التفصيل ، لأنها تشكل « مسودة » لما تم فعله في البوسنة ذاتها فيما بعد · فقد اتبعت هنا ثلاثة أساليب ، كان الأول منها هو تعبئة الأهالى الصرب بسلسلة متواصلة من الأكاذيب والاشاعات وبث الرعب والخوف فى قلوبهم من خلال وسائل الاعلام السياسيين المحليين : فكل عمل تقوم به حكومة توجمان يعرض على الناس فى صورة عمل ارهابى « للأوستاشا » · (وينبغى لنا أن نوضح أن بعض اجراءات الحكومة الكرواتية كان فيها شيء قليل من الغلظة ، مثل اصدار الأمر بحذف علامات للطريق بالحروف السيريليكية ، بينما أخذت الحكومة البوسنية تتراجع لاستمالة الصرب من سكانها) · والطريقة الثانية كانت أسلوبا نموذجيا يمكن العثور عليه فى الكتب والمراجع الخاصة بحرب العصابات : وهو أسلوب « تعريض القرى للخطر » ، مثل الذى كانت تستعمله المقاومة الفرنسية والفييت كونج وما لايمكننا حصره من حركات حرب العصابات الأخرى · وكان هذا الأسلوب يعتمد على اصطناع حادثة ــ مثل اطلاق النار على عربة شرطة خارج قرية معينة حتى يداهمها رجال الشرطة ، ثم توزيع الأسلحة على السكان ، وتحذيرهم من أن الشرطة تخطط للهجوم عليهم · وعندما تصل الشرطة المسرح فعلا ، يكون من السهل نشوب معركة ، وبذلك تصبح قرية بأكملها ، وهى بريئة فى السابق تماما من كل ذلك ، منضمة تماما الى جانب الثوار · أما الأسلوب الثالث فكان حيلة بسيطة ، بل كان حيلة مكشوفة الى أقصى حد : وهى اثارة أعمال عنف ثم طلب تدخل الجيش بوصفه حكما غير متحيز ، بينما كان من الواضح تماما ، أنه انما كان فى الحقيقة يعمل لصالح ميلوشيفيتش والصرب ، نظرا لولائه لبلجراد وهيمنة القيادات الصربية عليه ·

وهذا الاستقطاع من الرقعة الكرواتية ، الذى بدأ قبل سنة من اعلان الكرواتيين استقلالهم فى يوليو ١٩٩١ ، كان يعتمد الى أقصى حد على

ادعاء أن الصرب فى كرواتيا كان يتهددهم نظام « الأوستاشا » . فأما فى البوسنة فلم تكن هناك امكانية لجعل مثل هذا الادعاء يبدو مقبولا ، ومن ثم وجب أن يبتدع نوع آخر مخالف من التهديد للصرب ، فبدلا من التلويح بخطر « الأوستاشا » حذروا الصرب البوسنيين من خطــر الأصوليــة الاسلامية . ومن الضرورى لنا الآن أن ننظر نظرة موجزة الى كيف أن امكانية هذا الادعاء نشأت وكيف كانت زائفة كاذبة .

ففى البوسنة كما فى معظم الجمهوريات الاخــرى كان الحزب الشيوعى قد انحلت عراه فى أوائل ١٩٩٠ ، وتشكلت مكانه مجموعة من الوطنيين أو الأحزاب الوطنية . ومنذ عام ١٩٨٩ فصاعدا كانت القوميات المجاورة فى كل من صربيا وكرواتيا قد أصبحتا وجودين مخيفين ، ولم تكن تخفى عن الأعين الطموحات الكبرى لميلوشــيفيتش وتوجمــان . اذ كان ميلوشيفيتش داعية صريحا للمشروعات الجامعة الصربية السياسية التى وضعها تشوسيتش والأكاديمية الصربية ، وكان توجمان مؤمنا بأن معظم المسلمين البوسنيين « من أصــل كرواتى » ، وأن البوسنة وكرواتيا تشكلان كيانا جغرافيا واقتصاديا لا سبيل الى تقسيمه » (٧) . وفى خريف وشــتاء ١٩٨٩ أخذ كبار الموظفين البوسنيين يبدون مخاوفهم من أنه سيجىء الوقت الذى تضطر فيه كل من صربيا وكرواتيا الى أن تعيدا فيه رسم الخريطة ، وفى مارس ١٩٩٠ اجتمع مجلسا الجمعية الوطنية البوسنية فى دور انعقاد مشترك للتنديد بفكرة ادخال أى تغيير على حدود البوسنة . ومع ذلك ، فان الموقف لم يكن متعادلا بين الصرب والكروات . وكان هناك احساس واضح بأن ميلوشيفيتش هو الذى كان يقود التيــار ، وكانت الســياسة الرسمية لحزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى تعارض تماما فكرة ادخال تغييرات على الحدود ــ وذلك نظرا لمعرفتها بأنه متى ســمح بدخــول هذه الفكرة ، فستكون حدود كرواتيــا أول من تقاسى . ولكن الدعاية المدوية التى أخذت تروج لهــا بلجــراد ، حول « تعريض الصرب فى البوســنة للخطر » ، والتى بدأت آنفا فى صيف ١٩٨٩ ، كان من شأنها أن جمعت كلا من البوسنيين الكروات والمسلمين فى صف واحد وجعلت الصرب فى الصف المضاد . ولما تأسس حزب كرواتى فى البوسنة فى بواكير ١٩٩٠ ، فانه لم يكن الا فسيلة نبتت من شجرة حزب توجمان الاتحاد الديمقراطى الكرواتى ، وكانت سياسته الرسمية المعلنة هى الاحتفاظ بتخوم البوسنة سليمة لا يمسها سوء . على أنه عندما أسس حزب صربى فى البوسنة فى يوليو من تلك السنة ، أسمى نفسه الحزب الديمقراطى الصربى ــ وهو نفس الاسم الذى كان يدعو « للاستقلال الذاتى » فى كرايينا الكرواتيــة والذى كان على أهبة التمرد الصريح (٨) .

وفى مايو ١٩٩٠ تأسس الحزب البوسنى المسلم الرئيسى الذى أسمى نفسه « حزب الحركة الديمقراطية » ، وكان زعيمه هو على عزت بيجوفيتش ، الذى أطلق سراحه فى عام ١٩٨٨ · ولما كان المتهم الرئيسى فى أشهر محاكمة جرت فى ذلك العقد ، فانه كان المرشح والمختار الطبيعى لحزب البوسنة الاسلامى الأول ـ فيما بعد الشيوعية ـ « اللاشيوعى » · (والواقع أنه عندما أصبح فى النهاية رئيسا للحكومة البوسنية ، فانه كان الوحيد من بين رؤساء الحكومات فيما بعد الشيوعية فى أى من الجمهوريات اليوغوسلافية ، الذى لم يكن أبدا مسئولا فى الحكومات الشيوعية السابقة) · والآن وقد وضع مسلمو البوسنة بين المطرقة والسندان للقومية الصربية والكرواتية ، فانهم تصرفوا بطريقتين مختلفتين : فانهم قووا قوميتهم المسلمة بالتركيز على أكبر السمات المميزة لهويتهم وهو المقوم الدينى فيها · كما أكدوا أنهم يؤيدون الاحتفاظ بطابع التميز للبوسنة بوصفها جمهورية متعددة القوميات والأديان · وتم التعبير عن العنصر الدينى فى ذلك الرمز العام لحزب الحركة الديمقراطية براياته الخضراء ذات الأهلة ، أما العنصر التعددى فقد تم التعبير عنه فى برامجه ومناهجه · وبالطبع تصادم هذان العنصران ففى سبتمبر ١٩٩٠ قبل اجراء الانتخابات البوسنية بثلاثة أشهر ، عندما انشق من حزب الحركة الديمقراطية ، المليونير العائد من الخارج عادل ذو الفقار باشيتش، ليؤسس حزبه الخاص وهو « المنظمة المسلمة البوسنية » ، وهو حزب له برنامج غير دينى واضح ومقصود · وعلى الرغم من التسمية الصريحة الدلالة لحزبه الجديد فان ذا الفقار باشيتش كان يحاول أن يضع أسس سياسات جديدة للبوسنة تبعدها عن الطائفية ، يصوت فيها الناس باختيارهم التام على برامج سياسية (ليبرالية أو اشتراكية أو أى شئ آخر) وليس لمجرد التصويت لابراز هويتهم القومية · وكان هذا ـ كما أوضح ذلك على عزت بيجوفيتش نفسه ـ طموحا غير واقعى فى ذلك الوقت · حيث كاشف احد الصحفيين بقوله :

لقد خلق الشيوعيون بما أنزلوه بالناس من المظالم هذا التطلع الى التعبير عن هويتهم الدينية أو القومية ، ولعلنا نستطيع فى مدى أربع سنوات أو خمس أن نعبر حقل الألغام الى آفاق المجتمع المدنى العادى · أما الآن ، لسوء الحظ ، فلا مفر أمام حزبنا من أن يكون طائفيا · والأحزاب التى تحاول أن تمثل كل انسان وكل فرد صغيرة وضعيفة · وهناك خطر حقيقى من نشوب حرب أهلية هنا ، وهدفنا الأساسى كحزب هو أن نحافظ على تجمع البوسنة والهرسك معا (٩) ·

ولكن عزت بيجوفيتش كان بطبيعة الحال متطابقـــا شخصيا مع العنصر الدينى « للهوية الدينية أو القومية » • فالرسالة التى استخدمت أساسا للتهم الموجهة اليه فى عام ١٩٨٣ ، وهى « الاعلان الاسلامى » ، أعيد طبعها فى سراييفو فى عام ١٩٩٠ • وربما ظن بعض القراء أن نشر الاعلان كان نوعا من البيان الشخصى والدعاية للانتخابات البوســـنية ، على أنه كثيرا ما كان يقدم على يد أرباب الدعاية الصربية على أنه مسودة لتحويل البوسنة الى دولة اسلامية أصولية • رغم أنه لم يكن يحوى خطة من هذا النـــوع •

فهذه الرسالة المكتوبة فى الستينيات ، انمـــا هى بحث عـــام فى السياسة والاسلام موجهة الى العالم الاسلامى قاطبة ، وهى لاتدور حول البوسنة بل انها حتى لم تذكر اسم البوسنة أبدا • ويبدأ عزت بيجوفيتش بعنصرين أساسيين هما المجتمع الاسلامى والحكومة الاسلامية • والحكومة الاسلامية كما قال : « لا يمكن ادخالها ما لم يكن هناك من قبلها مجتمع اسلامى ، وهذا المجتمع الاسلامى لا يمـكن أن يقوم الا اذا كانت الغالبية الساحقة المطلقة من المسلمين الصادقين المخلصين المتمسكين بدينهـــم • وبدون هذه الغالبية يتحول النظام الاسلامى الى مجرد سلطة (لأن العنصر الثانى وهو المجتمع الاسلامى ، غير موجود) ، وفى الامكان أن يتحول الى حكم استبدادى طاغ » (١٠) • وهذا الشرط كان يلغى انشـــاء حكومة اسلامية فى البوسنة ، حيث كان المسلمون أقلية ـ سواء المسلمون منهم بالاســـم ، أو المتدينون منهـــم • ومن ثم تغدو طبيعة النظـــام السياسى الاسلامى ، وهو موضوع الرسالة ، غير ممكنة التطبيق على البوســـــنة أيضا • وعندما يقول عزت بيجوفيتش مثلا (وهى جملة طالما رددها أيضا انصار الدعاية الصربية على طريقة « ولا تقربوا الصلاة ») ، انه « لا سلام ولا تعايش بين العقيدة الاسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية غير الاسلامية » ، فهو انما يشير الى دول ، على العكس من البوسنة ، يسود فيها المجتمع الاسلامى ، ويدفع بأنه حيثما كانت الغالبية من السكان من المسلمين الصادقى الايمان ، فانهم لايستطيعون أن يقبلوا أن تفرض عليهم مؤسسات غير اسلامية (١١) • وليست هناك الا فقرة واحدة فى الرسالة بأكملها تنطبق بطريق مباشر على الوضع السياسى لمسلمى البوســـنة : « ان الأقليات الاسلامية فى داخـل مجتمعات غير اســـلامية ، تكن الولاء نحو تلك المجتمعات وتلتزم بما يلتزم به أفرادها الا ما يؤذى الاســـلام والمسلمين مادام هناك ضمان بحرية العقيدة وبالحيـــاة الســوية والتطور الطبيعى » (١٢) •

وبعض الحجج الواردة فى هذه الرسـالة ، التى وصفت بأنهـا « أصولية » ، انما هى بسط للعقيدة السنية السوية التى لابد لكل مسلم مخلص أن يوافقها • وهكذا يكتب عزت بيجوفيتش : « ان دولة اسلامية لابد لها من أن تمنع شرب الخمر والاباحية والبغاء » ، وهو يدفـع بأن الاسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الخاصـة ولكنـه أسلوب حياه كامل له أيضا أبعاد اجتماعية وسياسية ، كما أنه يصر على أن الأخوة العامة بين المسلمين المؤمنين فى جميع أرجاء العـالم أى « الأمة الاسلامية » تعلو فوق كل حدود قومية (١٣) • وليس فى هذه النقاط نقطة واحدة يمكن وصفها بأنهـا أصوليـة متعصبة • ونفس مصطلح « الأصوليـة » كلمة فضفاضة تسمح بانطباعات عدة : وهو مصطلح لا يستخدمه كثيرا علماء الاسلام ، عندما يحاولون التمييز بين أنواع الحركات الاسلامية المختلفة من المحافظة الحديثة والراديكالية والمضـادة للعصرية التى تتراوح بين المذهب الوهابى التقليدى الاتجـاه والأيديولوجيـة الثـورية لايـران آية الله الخومينى (١٤) • وبدلا من ذلك فان مصطلح « الأصولية » انما يستخدمه بصفة رئيسية رجال السياسة والصحافة ليحشروا فيها عددا من الخصائص بعضها فوق بعض • ومن بينها التطرف السياسى ، وهو الاعتقاد بأن الغـاية من انشـاء الدولة أو السلطة الاسلامية تبرز اسـتخدام أية وسيلة وكل وسـيلة • ويرفض عزت بيجوفيتش هذا الاعتقاد صراحـا وجهارا ، ويهاجم فكرة الاستيلاء على السلطة بغية خلق مجتمع اسلامى من أعلى • والنقطة الرئيسية فى حججه هى أن : فى الامكان خلق مجتمع اسلامى (بين سكان تكون غالبيتهم ، على الأقل ، من المسلمين اسما) وذلك فقط عن طريق عملية طويلة من التربية الدينية والاقناع الأخلاقى (١٥) •

وهناك سمة مميزة أخرى لمصطلح « الأصولية » الفضفاض وهى ابداء عداء سياسى وثقافى شرس نحو الغرب • ولم يفت عزت بيجوفيتش أن ينتقد ما أحدثه أتاتورك من عامنة فى تركيا ، وهو أمر يرى فيه أنه أسس على افتراض أن كل شىء اسـلامى كان من الناحية الثقافية رجعيا وبدائيا ، كما أنه يهاجم بشدة « دعاة الاستغراب والتحديث التقدميين » ، وهم الذين يطبقون سياسة مشابهة لهذه بأمكنة أخرى من العالم الاسلامى (١٦) • على أنه مما لا شك فيه أن موقفه العام فى هذه الرسالة لا يتضمن بتة نبذ الحضارة الغربية بأية حال • فانه كتب يقول : « ان الاسلام منذ ابتداء تأسيسه تولى دون أدنى تحامل ، عملية كبيرة هى دراسة وتجميع تراث المعرفة الذى ورثه من الحضارات الأقدم منه • ولذا ، فلسنا نرى لماذا يتخذ الاسلام اليوم موقفا مخالفا لمنجزات الحضارة الأوروأمريكية ، التى هو على اتصال عريض جدا بها (١٧) • ولم تلبث وجهـات نظر عزت بيجوفيتش

في هذه المسائل أن عرضت بايفاء أكبر في كتاب أطول وأهم ، ألفه في أوليات الثمانينيات ، وسماه « الاسلام بين الشرق والغرب Islam Between East and West » وفيه حاول أن يقدم الاسلام على أنه نوع من الترابط الروحاني والذهني والفكري ، يضم بين دفتيه كل القيم السائدة في أوربا الغربية • ويحتوي الكتاب على صفحات شديدة البلاغة في اطراء فن عصر النهضة (شاملا التصوير) والأدب الغربي الأوربي ، وهو يصف المسيحية بأنها « شبه اتحاد بين السمو الديني والسمو الأخلاقي » ، كما أنه يحتوي أيضا على فصل خاص يطري فيه الفلسفة والثقافة الأنجلوساكسونية ، ويثني على التقاليد الاجتماعية – الديمقراطية (١٨) • وما من شك في أن أصوليا كان يستطيع أن يكتب هذا •

وعندي أن الحديث عن تهديد بقيام الأصولية في البوسنة كان على كل حال غير صحيح بصفة خاصة ، وذلك لأن المسلمين البوسنيين كانوا عند تلك اللحظة من بين أشد الأمم المتطبعة بطابع علماني في العالم كافة • نعم ان محاولات صغيرة الحجم ومتباعدة لاثارة الاضطرابات الأصولية في البوسنة ، قد حدثت دون أدنى ريب في ثمانينات القرن العشرين : فان تقريرا صدر في صحيفة متطرفة مقرها في لندن يعلن بفخر وكبرياء أن هذا الاضطراب قد « أشعل جذوة الاسلام وألهم مئات من المسلمين البوسنيين » (١٩) • ولكن المتعصبين ، حتى وان كانوا بالمئات ، لايمكن أن يكون لهم الا أدنى تأثير على مجموعة من السكان يربو عددهم على مليونين من المسلمين ، أغلبهم لا يرى في الاسلام سوى نوع من الثقافة والتقاليد الموروثة • وقد أجري استقصاء في ١٩٨٥ بين أن نسبة المؤمنين يبلغ ١٧٪ في البوسنة (٢٠) • ولا ننسى أن عقودا متعددة من التعليم والثقافة الشيوعية السياسية دعمت بشدة ذلك الاتجاه • ومن العوامل ذات الأثر أيضا ذلك التحضر النامي الذي حدث للبوسنة ، وان جاء متباطئا الى حد ما في بداية الأمر ، ففي الثمانينيات كانت ٣٠٪ من الزيجات في مناطق الحضر « زيجات مخلطة » بين دينين • وفي كثير من المناطق الريفية المسلمة ولدى الأغلبية الساحقة من سكان المدن ، أصبح معنى كلمة مسلم يدل بطريقة مبسطة جدا على مجموعة من التقاليد الثقافية : « الأسماء الاسلامية والختان والبقلاوة والاحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر ، ودعوة اشبين ليقص شعر الطفل متى بلغ السنة الأولى ، وشرب القهوة في أقداح صغيرة بلا آذان والشفقة على العناكب ، وغير ذلك من مختلف الممارسات التقليدية ، التي كثيرا ما يكون الأصل فيها مجهولا لمن يمارسونها » (٢١) • وبدهي أن برنامجا « أصوليا » ما كان يمكن على الاطلاق أن يتبناه أي حزب يكون عليه أولا أن يحصل على أصوات هؤلاء المسلمين اسما ، ثم يعود بعد

ذلك لينشىء تحالفا مع واحد على الأقل من الحزبين القوميين الآخرين فى البلاد ٠

وعندما أحصيت الأصوات توطئة لانتخابات ١٩٩٠ ، فاز حزب عزت بيجوفيتش بستة وثمانين مقعدا من بين المائتين والأربعين المنتخبين فى المجلس ، كما أن مسلمين آخرين كان من بينهم حزب « ذو الفقار باشيتش » فازوا بثلاثة عشر مقعدا أخرى ٠ أما الحزب الديمقراطى الصربى ، الذى يتزعمه الطبيب النفسى رادوفان كارادينش (Radovan Karadijic وأصله من الجبل الأسود) ، فقد فاز باثنين وسبعين مقعدا ٠ وقد دعا فى حملته فى شىء من الغموض الى الدفاع عن حقوق الصربيين ولكنه لم يقل شيئا حول تقسيم البوسنة حتى ولا بالوسائل السلمية ، ناهيك عن الحرب ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نستبعد فكرة أن هذه الانتخابات التى هيأت الدكتور كارادينش بدرجة ما أن يسمى نفسه « زعيم » الصربيين البوسنيين قد اعطته أى سند ديمقراطى لأعماله اللاحقة ٠ (وفى الحقيقة فان كثيرا من الصربيين لم يعطوه أصواتهم ، كما أن المجلس كان به ثلاثة عشر صربيا آخر من غير أعضاء حزبه) ٠ أما حزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى فقد حصل على أربعة وأربعين مقعدا ٠ وفى المجموع الكلى كان هناك ٩٩ مسلما ، و ٨٥ صربيا ، و ٤٩ كرواتيا ، و ٧ « يوغوسلاف » ٠ ولو نظرنا الى هذه النسب (٤١٪ مسلمين ، و ٣٥٪ صربا ، و ٢٠٪ كرواتا) ، لوجدنا أنها تضاهى الى حد ما نسب كل السكان (٤٤٪ ، و ٣١٪ ، و ١٧٪ على الترتيب) (٢٢) ٠ وشكل عزت بيجوفيتش ما كان فى حقيقة الأمر حكومة وحدة قومية ، مكونة من تحالف رسمى بين جميع الأحزاب الكبرى الثلاثة ، وتقاسم الجميع المناصب الوزارية ٠ وكان من دلائل صدق عزت بيجوفيتش وأمانته ، أنه آثر هذا الوضع ، بينما كان يستطيع أن يحكم البلاد بطريق تحالف اسلامى كرواتى ، ولكن أصبح واضحا منذ اللحظة الأولى فى حياة هذه الحكومة أن الحزب الصربى قد وضع جدول أعمال مختلفا تماما ٠

كان الموقف العام فى السياسات اليوغوسلافية عندما تولت حكومة عزت بيجوفيتش زمام الأمور فى نهاية ١٩٩٠ تمديد التوتر ٠ ومما زاد الأمور تعقيدا ، أن اشتدت وطأة الكفاح بين صربيا من ناحية وسلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى ، فى النصف الثانى من السنة الى حد أن صربيا فرضت رسوم استيراد فى أكتوبر على السلع المستوردة من هاتين الجمهوريتين ٠ وكذلك أصبح من الواضح تماما أن ميلوشيفيتش استولى

بجرة قلم على شطر كبير من الموازنة اليوغوسلافية الفيدرالية وأنفقها على صربيا ، وبذلك نسف خطة الاصلاح الاقتصادى التى كان يحاول بهـا أنتـى ماركوفيتش (Atne Markovic) رئيس الوزراء الفيـدرالى التحكم فى التضخم الاقتصادى الصاروخى المتزايد فى البـلاد • وفى ديسمبر ١٩٩٠ عقد السلوفينيون استفتاء مداره : هل تصبح الجمهورية دولة منفصلة وذات استقلال ذاتى ، واشترك فى التصويت أكثر من ٩٠٪ من الناخبين ، وكانت النتيجة ٨٩٪ مؤيدة للاستقلال (٢٣) • وذهب بعض السياسـيين الغربيين فى ١٩٩١ ـ ١٩٩٣ الى آراء مبهمة أرجعت حـركة سلوفينيا نحو الاستقلال الى « الضغط » الألمانى • ولكن جميع المراقبين المحايدين فى سلوفينيا فى ذلك الوقت ، كانـوا يرون بوضـوح تام أن الضغط الذى كان يجعل الحياة الاقتصـادية والسياسـية للسلوفينيين مستحيلة فى اطار الاتحاد اليوغوسلافى فى أخريات ١٩٩٠ كان آتيا من بلجراد مباشرة •

وفى أوليات ١٩٩١ كان ميلوشيفيتش يقول علنـا انه لو بذلت أية محاولة ليحل محـل البنـاء الفيدرالى ليوغوسلافيـا ترتيب كونفيدرالى فضفاض فانه سيسعى الى ضم مناطق كاملة من كرواتيا والبوسنة • ومع هذا فانه فى الوقت نفسه ، بدلا من أن يدافع عن الوضع القائم الفيدرالى ، أخذ يدمر بالفعل الدستور الفيدرالى • ففى يونيو ١٩٩٠ ألغى من جانب واحد المجلس الاقليمى فى كوسوفو مخفضـا وضـع الاقليم الى أقل من بلدية ، لكنه ظل محتفظا بممثل لحكومة كوسوفو المحلية التى أصبحت غير موجودة آنذاك ، فى الرياسة اليوغوسلافية الفيدرالية • وفى مارس ١٩٩١ وقد أرهبته مظاهرات الطلبة المضادة له فى بلجـراد ، حـاول أن يجبر الرئيس الفيدرالى ، بوريساف جوفيتش (Borisav Juvic)، على أن يعلن حالة الطوارىء فى كل أنحاء البلاد ، وعندما رفض جوفيتش هذا الطلب دبر ميلوشيفيتش استقالته على سبيل التلاعب ، كما طرد بالقوة ممثلى الجبل الأسود وفويفودينا وكوسوفو • وعند ذلك ذهب ميلوشيفيتش الى التليفزيون ليعلن أن صربيـا لم تعد تطيع أوامر الرياسـة الفيدراليـة • وبدا الأمر لمدة يومين كاملين وكأنما انقلابتـه الدسـتورية قد دخلت فى مرحلتها الأخيرة • ولكن الذى حدث آنذاك هو أن جوفيتش عاد ببساطة الى منصبه • ثم تراجع ميلوشيفيتش من حـافة الهاوية كما أنه أقام ، بطريقة غير قانونيـة ، على تعيين « ممثل » جديد لكوسـوفو فى مجلس الرياسة • وكما لاحظ برانكا ماجاش (Branka Magas) فى ذلك الوقت : « فان ذلك الرجل الجديد ، سيدو بايراموفيتش (Sejdo Bajramovic) ، شخصية عجيبة جـدا ، حتى بالنسـبة للسياسيين الصربيين الحديثين :

حيث لم ينتخبه الا ٣٠ر٠٪ فى دائرته الانتخابية ٠٠ ان ذلك الجاويش المتقاعد من الجيش لا يشتهر بشيء الا ادمانه التومبولا » (٢٤) ٠

وكان مركز الحكومة البوسنية منطفيا ، ولكنه حرج مع ذلك ٠ ففى أية دراسة أو مناقشة كانت تجرى حول تغيير البناء الفيدرالى ، وتحويله الى كونفيدرالية فضفاضة ، كانت البوسنة تتضم الى جانب سلوفينيا وكرواتيا وهما تضغطان فى سبيل التغيير ، وذلك لأنها هى الأخرى كانت تريد أن تخفض من نطاق تسلط وسيطرة بلجراد على يوغوسلافيا ٠ ولكن فى الوقت نفسه لم يكن فى مستطاع البوسنة أن تساند سلوفينيا وكرواتيا الى آخر المدى فى هذه المناقشات والمجادلات ٠ فان احتمال تنفيذ تهديد هاتين الجمهوريتين فعلا بالانفصال عن يوغوسلافيا ، كان شيئا شديد الازعاج لمعظم البوسنيين ، وذلك لأنهم عندئذ كانوا سيتركون ومعهم جمهورية أخرى ضعيفة هى مقدونيا ، تماما تحت اصبع صربيا ٠

وبينما كان عزت بيجوفيتش يحاول أن يقوم بأداء هذه الحركة التوازنية الصعبة ، فى أثناء النصف الأول من ١٩٩١ ، راح الصرب يهددون مستقبل كل من كرواتيا والبوسنة علانية ٠ فهناك منطقة « الكرايينا المستقلة ذاتيا » والتى أقامها الحزب الديمقراطى الصربى فى كرواتيا وقد أصبحت لديها نزعة عسكرية أكثر فى مطالبها ، كما أنها أصبحت مسلحة تسليحا أكثر على يد صربيا ٠ وفى مايو شرع الحزب الديمقراطى الصربى فى البوسنة يطالب بتسليم أجزاء ضخمة من شمال وغرب البوسنة ، وهو أمر ينتهى عندئذ الى ضمها الى «الكرايينا» الكرواتية لتتكون منها جمهورية جديدة ٠ وأعلن الحزب الديمقراطى الصربى أن ثلاث مناطق من البوسنة يغلب فيها العنصر الصربى من السكان انما هى « مناطق صربية ذات استقلال ذاتى » ٠ متبعا فى ذلك بالضبط نفس الطريق الذى اتبع فى الصيف السابق فى كرواتيا ٠ ولم يمض بعد ذلك زمن طويل ، حتى قام حزب صغير فى كرواتيا هو حزب الحقوق الوطنية المتطرف، يطالب بأن تضم كرواتيا اليها كل البوسنة ٠ ومما زاد الطين بلة أنه حدثت فى يوليو ١٩٩١ شواهد تدل على أن تهريبا سريا للسلاح الى الصربيين البوسنيين جرى بترتيب من ميلوشيفيتش ووزير الداخلية الصربى ميهالى كيرتيس (Bihalj Kertes) وزعيم الحزب الديمقراطى الصربى البوسنى رادوفان كاراجيتش (٢٥) ٠ وجاءت البيانات التى تؤكد ذلك فى أغسطس ، عندما سمح رئيس الوزراء الفيدرالى المتفتح - أنتى ماركوفيتش - باذاعة تسجيل لمحادثة تليفونية سمع فيها ميلوشيفيتش وهو يخبر كاراجيتش ، بأن دفعة الأسلحة التالية سيمده بها الجنرال نيقولا أوزيلاك

(Nikola Uzelac) قائد الجيش الفيدرالى فى بانيالوكا (٢٦) . ولم يعد هناك مجال للشك آنذاك فى أن أعمال كاراجيتش كانت تدار خطوة بخطوة ، من الرئيس الصربى نفســـه : بـل لقد بلغ به الأمر أن فاخر لصحفى بريطانى أنه « يتبـادل الحديث التليفونى مع ميلوشـــيفيتش عدة مرات كل أسبوع » (٢٧) .

وعند ذلك كانت قد بدأت فى يوغوسلافيا حرب على نطاق واسع . وكانت القشة الأخيرة لسلوفينيا وكرواتيا قد تمثلت فى رفض صربيا فى مايو تقبل الكرواتى شتيبى ميسيتش (Stipe Mesić) لتولى الرئاســـة الدورية للجمهورية الفيدرالية . وبذلك أصيب النظام الفيدرالى ، الذى كانت صربيـــا تدعى أنها تدافع عنه ، بالشلل مرة أخرى . عندئذ أجرت كرواتيا استفتاء (فى ١٩ مايو) على الاستقلال التام : وفيه صوت لصالح الاستقلال ٩٢٪ من المنتخبين . وفى ٢٥ مايـو أعلنت كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما ، وفى الصباح التالى دخل سلوفينيا طابور من دبابات الجيش الفيدرالى . وأحس ميلوشيفيتش أن بامكانه أن يجعل من سلوفينيا عبرة « حتى يخاف الآخرون » ، وذلك بتشجيع من المجموعة الاقتصادية الأوربية التى أعلنت فى أبريل أنهـا مسئولة عن « وحـدة يوغوسلافيـا وسـلامة اراضيها » ووزير الخارجيـة الأمريكى جيمس بيكر الذى أخذ على نفسه عهدا مماثلا فى بلجراد فى ٢٠ يونيو . فاما قيادة الجيش الفيدرالى التى يسيطر عليها الصرب والتى كانت تؤيد على وجـه الاجمـــال أهداف ميلوشيفيتش ، (ولا يخفى أنها كانت تعتمد على استمرار بقاء يوغوسلافيا فى تامين امتيازاتها وتمويلاتها ــ حيث كان لهما أكثر من ٥٥٪ من الميزانية الفيدرالية ونظام كامل من الصناعات العسكرية) ، فقد ظنت أنها سوف تتكمن سريعا من بث الرعب فى قلب كل من سلوفينيا وكرواتيا واعادتهما الى جادة الصواب . ولكن سلوفينيـا نظمت مقاومة جيـــدة التخطيط وسرعان ما أسقطت من الخطط الاستراتيجية لكل من ميلوشيفيتش والجيش أيضا . وأما فى كرواتيا فقد دبرت هناك سياسة ذات خطين متوازيين : أولهما التهديد العسكرى العام (بدلا من الغزو والفتح وذلك فى الابتداء) لبث الخوف والذعـــر فـــى قلوب الكرواتيين ، وفى نفس الحين تقوية التماسك بين جيوب المناطق المسكونة بالصربيين التى كانت فعـلا تحت سيطرة صربيين مسلحين . وفى أواخر أغسطس تم تصعيد هاتين العمليتين الى نقطة ومستوى الحرب الكاملة الأوار : فكانت المدن تهاجـم فعلا فى سلوفينيا ، ثم بدأ قذف دوبروفنيك فى سبتمبر بالمدافع (٢٩) .

وهناك ظاهرة فى القتال تنذر بالويل والثبور ، وكانى بهـــا تنذر بصورة مشئومة لما ستكون عليه الحرب فى البوسنة ، وهى استخدام

الجند الصربيين غير النظاميين . ولاحظ أحد المعلقين فى سبتمبر ١٩٩١ « أن الاستراتيجية العامة التى تتبع تقوم على وصل جيوب الاستيطان الصربى ، عن طريق طرد الكروات المتواجدين بين هذه الجيوب بأساليب الترهيب والتخويف » (٣٠) . وكانت وحدات الميليشيا تعمل منذ ١٩٩٠ بأجزاء كرواتيا التى يسيطر عليها الصرب : وقد سبق أن استخدمت تلك الوحدات فى عمليات من أمثال الهجوم الذى شن على الحديقة القومية فى بليتفيس فى مارس ١٩٩١ . وفى وقت مبكر من ١٩٩١ كان وزير الداخلية فى بلجراد وهو ميهالى كيرتيس ، قد أقام معسكر تدريب تدرب فيه ذلك النوع من القوات ، وهو الذى عرف بعد ذلك باسم « حرس المتطوعين الصرب » ، تحت قيادة زيليكو رازنياتوفيتش (Zeljko Raznjatovic) المعروف باسم « أركان Arkan » . وكان مجرماً من نوع زعماء المافيا ، يطلبه البوليس الدولى الإنتربول من أجل جرائم عديدة ارتكبها ، وكان مشتبهاً على نطاق واسع بأنه عمل لحساب المخابرات اليوغوسلافية فى عملية اغتيال المهاجرين اليوغوسلاف (٣١) . وبادئ ذى بدء ، فان هذه القوة كانت تمول من وزارة الداخلية ، ثم حدث بعد ذلك فى نفس السنة ، عندما أصبحت تعرف باسم « نمور أركان » ، أنها أصبحت تمول نفسها بنفسها بفضل الغنائم التى سلبتها من المدن والقرى الكرواتية .

وكانت هناك قوة مماثلة لهذه أسمت نفسها « الجيش التشيتنيكى Četnik Army » الذى أنشأه صربى متطرف هو فويسلاف شيشيلى ، وهو رجل قدم الى المحاكمة فى سنة ١٩٨٥ ، لأنه دعا الى تقسيم يوغوسلافيا الى دولتين هما صربيا وكرواتيا ، مع تقسيم البوسنة بينهما (٣٢) . وقد أصبح شيشيلى الآن زعيماً للوطنيين المتطرفين « الحزب الراديكالى الصربى » ، وهو مركز كان يستطيع منه أن ينخرط فى نوع من المزايدات السياسية مع ميلوشيفيتش . (وكانت المنافسة قائمة على أساس من التنسالد المتبادل ، وكان ميلوشيفيتش هو الذى صمم عملية انتخاب شيشيلى فى البرلمان الصربى فى يوليو ١٩٩١) (٣٣) . وفى حديث صحفى مع جريدة دير شبيجل Der Spigel الألمانية فى أوائل أغسطس ١٩٩١ ، قدم للناس آخر صورة لخطته ، وهى تنطوى على أن يرد الى صربيا كل اقليم البوسنة ومقدونيا والجبل الأسود ، ومعظم كرواتيا ، مع ترك الكروات يستقلون « بما تستطيع أن تسراه من الأرض من أعلى كاتدرائية زغرب » . ولما سأله محدثه الصحفى عن البوسنة ، أجاب : « الحقيقة أن مسلمى البوسنة صرب دفعوا للاسلام ، كما أن جزءا من السكان المسمين بالكروات يتكون فى الحقيقة من الصرب الكاثوليك » . واستمر المحدث يسأل : « وماذا يحدث لو قاوم المسلمون الغاء وضعهم كأمة ؟ » فأجاب

شيشيلي : « فى تلك الحالة سنتركهم خارج البوسنة » ، « الى أين ؟ » ، « الى الأناضول » (٣٤) ٠

وازاء التصريح علنا بمثل وجهات النظر هذه على ألسنة الصرب البوسنيين أيضا ، أصبحت امكانية واحتمال أى حل سياسى للأزمة القائمة فى البوسنة بعيدة بعدا مطلقا ٠ وفى أوائل أغسطس أقدم حزب الأقلية المسلم « المنظمة البوسنية المسلمة » وزعيمه ذو الفقار باشيتش على محاولة عقد اتفاق مع كاراجيتش يضمن سلامة كيان الجمهورية البوسنية ، لكنها كانت محاولة مقضيا عليها بالفشل ٠ وفسر البروفسور محمد فيليبوفيتش نائب زعيم حزب المنظمة البوسنية المسلمة ، الأمر على الوجه التالى : « ان الصرب مدججون بالسلاح ، وقد أنشأوا دولة داخل الدولة فى البوسنة ٠٠٠ ومن الممكن أن ينشب الصراع بين الصرب والمسلمين فى أى يوم من الأيام ٠ وللحيلولة دون ذلك تبذل الآن محاولة لتوقيع معاهدة تنص على الاحتفاظ بسلامة كيان البوسنة » ٠ ولكن هذه الاتفاقية لم تكن الا مجرد تعهد سياسى بين ضخم كبير وآخر صغير ، ولم يكن لها وضع دستورى ، كما أن الرئيس عزت بيجوفيتش الذى كان يحاول أن يحدث تماسكا بين أطراف الحكومة الثلاثية القوميات ، اعترض على هذه الاتفاقية على أساس أن الكروات لم يتقدم أحد لاستشارتهم فى الأمر ٠ وأيا كان الحال ، فقد جاء هذا التعهد من جانب كاراجيتش فارغا من المضمون ، اذ كان يعلن حزبه أن أجزاء كبيرة من البلاد « مناطق مستقلة ذاتيا » ، ويطالب بنزعها من البوسنة ٠ وبعد بضعة أيام من تعبير عزت بيجوفيتش عن انتقاده انتهز ممثلو الحزب الديمقراطى الصربى فى الرئاسة الجمهورية فرصتهم للتصريح بأنهم سوف يقاطعون اجتماعات الرئاسة من الآن فصاعدا (٣٥) ٠

وفى سبتمبر ١٩٩١ ، اتخذ الصرب البوسنيون ، أو قل تلك الفئة القليلة النشطة منهم فى القيادة المحلية للحزب الديمقراطى الصربى ، خطوتهم التالية ٠ فان « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » ، وكانت عدتها فى ذلك الحين أربعة ، طلبت من الجيش الفيدرالى أن يتدخل « ليحميهم » بعد نشوب عدد من الحوادث المحلية الصغيرة واطلاق الرصاص ٠ (وكانوا فى تلك الآونة قد أصبحوا بفضل ما كانوا يتلقونه من مساعدات الجيش الفيدرالى ووزارة الداخلية جيدى التسليح الى درجة هائلة) ٠ وعلى الفور نشر الجيش الفيدرالى فى البلاد ، وأرسل طابور مكون من مائة عربة الى غرب الهرسك ، وأرسل طابور آخر الى مركز المواصلات فى نيفيسينى ، كما أرسل ٥٠٠٠ جندى الى الهرسك من

سراييفو . وما أن بلغ سبتمبر نهايته حتى كانت هذه القوات تمكنت من اقامة « حدود » لتلك « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا بالهرسك » ، كما أنهم أسسوا أيضا نقطة ارتكاز ثقيلة الحشد بالجنود توطئة لعملياتهم ضد دوبروفنيك التى تقع بالضبط على خط الحدود الفاصل بين البوسنة وكرواتيا (٣٦) . (وفى مقابل ذلك أرسل صرب الهرسك مئات من رجالهم ، يقودهم عمدة تريبينى Trebinje للمساعدة فى ضرب المدينة الكرواتية بالقنابل) . ولم يقتصر الجيش الفيدرالى على هذه العملية فقط ، على التراب البوسنى ، فان مركز التدريب على الدبابات فى بانيالوكا كان أحد قواعد العمليات على كرواتيا منذ منتصف أغسطس . وحاول طابور فيدرالى مدرع متجه الى فيوكوفار Vukovar أن يمر من خلال فيشيجراد Visegrad فى نهاية سبتمبر ، فأوقفه عن التقدم المدنيون المسلمون والكروات : فأطلق عليهم النيران (٣٧) .

ولم يعد بوسع الحكومة البوسنية ، أن تسكت على هذا الوضع فصرح الرئيس عزت بيجوفيتش (الذى ذكر ذات مرة فى ملحوظة قالها عن الأحوال هناك أن الاختيار بين توجمان وميلوشيفيتش شنيع كاضطرار المرء الى الاختيار بين سرطان الدم (اللوكيميا) وورم فى المخ) فى أوائل أكتوبر بأن البوسنة تقف موقف الحياد بين صربيا وكرواتيا . وعندئذ أعلن رادوفان كاراجيتش استياءه من هذا التصريح ، اذ اتهمه بأنه « عمل مضاد للصرب » ، موضحا أن الحرب فى كرواتيا انما هى حرب على « الفكر الفاشيستى الدموى » . ثم قال : لا تستطيع أن تعلن حيادها الا حكومة ذات سيادة (٣٨) . وهو محق تماما فى هذه النقطة الأخيرة ، وعندئذ شرعت الجمعية البوسنية بكل جدية فى بحث فكرة اعلان السيادة البوسنية . ولم تكن تعنى بذلك الاستقلال التام ، ولكن السيادة التشريعية داخل يوغوسلافيا ، بحيث يتهيأ لها أن تصدر قوانين ــ ولو من الناحية القانونية النظرية على الأقل ــ تجب حقوق الجيش الفيدرالى فى استخدام أراضيها . وفى ١٤ أكتوبر خرج كاراجيتش هو والتابعون له من النواب من المجلس الذى صوت عند ذاك على سيادة البوسنة . وبعد ذلك بأيام قليلة أقام كاراجيتش وحزبه ما أسموه « الجمعية الوطنية الصربية » فى معقل الجيش الفيدرالى بمدينة بانيالوكا ، متخذا جميع المظاهر الكاملة للبركان والحكومة بل حتى مظاهر الدولة الكاملة (٣٩) .

والخطوات التى اتخذها كاراجيتش وحزبه ــ وهى اقامة « المناطق المستقلة ذاتيا » وتسليح السكان للصربيين ، وتدبير حوادث عنف على

الصعيد المحلي ، وممارسة الدعاية بصورة مستمرة ، و « طلب الحماية » من الجيش الفيدرالي ، ثم عقد « البرلمان » الصربي — انما كانت تضاهي بالضبط ما كان يحدث في كرواتيا . ومن ثم فانه كان بين المراقبين من كان يشك بأن هناك خطة واحدة تنفذ . وتبدد كل شك حول طبيعة تلك الخطة في مؤتمر حزب ميلوشيفيتش الصربي الاشتراكي في مدينة بيتش (Beć) في ٩ أكتوبر عام ١٩٩١ . وبوضوح تام وصف نائب رئيس الحزب ، وهو الفيلسوف المنشق السابق ميهايلو ماركوفيتش ، في خطبته التي ألقاها في المجلس ، طبيعة ذلك التمزيق الذي كان هو وسيده يدبرانه :

سيكون هناك في الدولة اليوغوسلافية الجديدة ثلاث وحدات فيدرالية على الأقل : هي صربيا والجبل الأسود ومنطقة متحدة تجمع بين البوسنة وكنين (بمعنى أنها ستكون منطقة تتكون من بعض أجزاء « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » والمنطقة الكرواتية الرئيسية المستقلة ذاتيا) . واذا رغب المسلمون البوسنيون أن يظلوا داخل الدولة اليوغوسلافية الجديدة ، فسيسمح لهم بفعل ذلك . فان هم حاولوا أن ينسلخوا وجب عليهم أن يعرفوا تماما .. أن الدولة المسلمة البوسنية ستكون محاطة بالأراضي الصربية من كل جانب .

وقد كتبت تعقيبا على هذا الخطاب في ذلك الحين : « وعلى ذلك تكون خطة المستر ميلوشيفيتش انما تهدف الى انشاء دولة يوغوسلافيا بالاسم فقط ولكنها في الحقيقة صربيا الكبرى ، مع استثناء واحد هو دويلة مسلمة ضعيفة في الوسط على غرار دويلات السود في جنوب أفريقيا ابان نظام الفصل العنصري السابق » (٤٠) . وسوف تطرق الأسماع هذه المقترحات مرات ومرات أثناء المناقشات حول مستقبل المسلمين البوسنيين في ١٩٩٣ .

وقوبلت هذه التصريحات الواضحة عن نيات صربيا في الحرب بتجاهل تام من معظم زعماء الغرب ومن المفاوض المعين من قبل المجموعة الاقتصادية الأوربية وهو اللورد كارينجتون ، حيث ظلوا على اعتقادهم بأنه لا يزال من الممكن قيام صورة مفككة أكثر قليلا ليوغوسلافيا الفيدرالية القديمة . وفي سبتمبر فرضت الأمم المتحدة حظرا على الأسلحة على كل أرجاء الأراضي اليوغوسلافية : ولم يكن لذلك الحظر أدنى أثر

على الجيش الفيدرالى اليوغوسلافى بترسانته الضخمة ، وصناعاته العسكرية الهائلة ، ولكنه أضعف القوات الكرواتية ، التى كانت آنذاك قد شرعت فى ايقاف تقدم الجيش الفيدرالى فى أجزاء كثيرة من غرب كرواتيا وشمالها الشرقى . ولو أنهم كانوا مسلحين التسليح الصحيح لجاز أن يتمكنوا من صد الهجوم على مدن من أمثال فيوكوفار ، والواقع الذى حدث هو أنهم صمدوا هناك فى أماكنهم فى جلد خارق للعادة الى حد أن قادة وجنرالات الجيش الفيدرالى شرعوا يحسون أن فتح الأراضى فى كرواتيا ، عملية خاسرة . (وعندما سقطت فيوكوفار فى النهايه ، وقد دمر كل بناء فى المدينه تقريبا ، طهر الرجال من أتباع « أركان » المدينة تطهيرا تاما وقتلوا المئات من سكانها) . وتمكنت الحكومة الكرواتية فعلا من تأسيس خطوط تموين من الأسلحة من دول حلف وارسو السابق ومن الشرق الأوسط ، ونزلت ضربة ثالثة بخطط صربيا عندما صدر الاعتراف الدولى بكرواتيا وسلوفينيا ، وهو أمر ما لبثت فى النهاية أن وافقت عليه المجموعة الاقتصادية الأوربية تحت الحاح ألمانيا فى منتصف ديسمبر ، وجرى تنفيذه الفعلى فى ١٥ يناير ١٩٩٢ . وتمت تسوية سلمية فى كرواتيا أجرى المفاوضات فيها سيروس فانس ممثل الأمم المتحدة بعد ذلك بعدة أسابيع : وقد وضعت التسوية الأراضى التى غزتها القوات الفيدرالية وغير النظامية فى مجموعة من المناطق المشمولة بحماية الأمم المتحدة ، وهى مناطق ظل الوضع بها على المدى الطويل شديد الغموض .

وقد أدى الاعتراف بكرواتيا الى انهاء الحرب بتلك الجمهورية ، وكان على كل حال اعترافا بالحقيقة الواقعة : فان أية فكرة تقول بأنه كان بامكان كرواتيا أن تعود للانضمام الى يوغوسلافيا الفيدرالية ، بعد أن تحولت مدن مثل فيوكوفار الى حطام وأنقاض ، كانت فكرة غير واقعية على الاطلاق . ومع ذلك فان هناك عاقبة لهذه الحركة هى أنه أصبح الآن ضروريا للبوسنة أن تسعى وراء الاستقلال هى الأخرى ، والا وقعت تحت الهيمنة الصربية . وكانت المجموعة الاقتصادية الأوربية متفهمة لذلك تماما مقدما ، وكانت تدعو الى تقديم طلبات استقلال من الجمهوريات الأخرى ، وتطالب البوسنة كشرط أساسى للاعتراف بها أن تجرى استفتاء على تلك المسألة . وقد شكا اللورد كارينجتون من أن المجموعة « قد وأدت خطته الرامية الى الوصول الى تسوية عامة فى الجمهوريات الست جميعا داخل اطار يوغوسلافيا العامة . لكن الأمر الواضح أن خطته لم يكن من الممكن قبولها من الكروات أو السلوفينيين ، ولا كانت أيضا بمستطيعة أن ترضى مطامع صربيا وطموحاتها (٤١) . والأمر الوحيد

الصحيح هنا ، هو أن اتجاه البوسنة صوب الاستقلال ، كان ذريعة تذرع بها ميلوشيفيتش وكاراجيتش لبدء المرحلة العسكرية لتمزيق البوسنة ٠

وكان التخطيط العسكرى محكما ٠ فقد احتل الجيش فى خريف ١٩٩١ ، مراكز المواصلات المهمة للبوسنة ٠ وأقيمت مواقع المدفعية الثقيلة حول المدن البوسنية الكبيرة بما فى ذلك سراييفو نفسها ، فى شتاء ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ ٠ وبانحسار القتال فى كرواتيا فى يناير وفبراير. « سحبت » منها طوابير دبابات ومدفعية الجيش الفيدرالى ، بموافقة الأمم المتحدة ، الى البوسنة ٠ ومن العجيب أن الرئيس عزت بيجوفيتش سمح للجيش بمصادرة الأسلحة التى لدى وحدات الدفاع المحلى : وكأنه كان يحاول بذلك أن يؤكد لقواد الجيش ويطمئنهم نواياه السلمية التى يكنها ، وربما كان هو أيضا ضحية التضليل ، كما كان مقصودا بكل تأكيد « مصادرة » الجيش لبعض الأسلحة من بعض القوات الصربية شبه العسكرية (٤٢) ٠ أما أن الجيش لم يكن غير منحاز وغير سياسى الاتجاه ، فأمر أوضحته تماما أحداث يومى ٢٩ فبراير وأول مارس ، عندما عقد الاستفتاء فى البوسنة ٠ فبينما كانت قوات حزب كاراجيتش الديمقراطى الصربى تمنع الصربيين من التصويت فى ذلك الاستفتاء وتقيم نقاطا فى الطرق لمنع صناديق الانتخاب من دخول مناطق البوسنة التى كانت تحت هيمنتها ، فان كثيرا من طائرات الجيش أسقطت على الناس منشورات تؤيد المقاطعة ٠ ولكن الذى حدث هو أنه مع ذلك تقدم فعلا للادلاء بأصواتهم ما يقارب ٦٤٪ من مجموع الناخبين بما فيهم آلاف من الصربيين فى المدن الكبرى ، وذلك للاجابة على سؤال فى ورقة انتخاب يقول : هل تؤيد قيام دولة البوسنة والهرسك ذات سيادة واستقلال ، تكون دولة من أفراد متساوين من المواطنين والقوميات المسلمين والصرب والكروات وغيرهم ممن يعيشون فيها ؟ » وكان التصويت باجماع الآراء تقريبا هو « نعم » ٠

وفى صبيحة الثانى من مارس ١٩٩٢ وهو اليوم الذى أعلنت فيه نتائج الاستفتاء ، أقام أعضاء من القوات الصربية شبه العسكرية الموانع والمتاريس ومواقع القناصة قرب مبنى البرلمان فى سراييفو ٠ وانقضت ٢٤ ساعة بدا فيها أن العسكريين استولوا على السلطة فى البوسنة ، بيد أن مئات من مواطنى سراييفو خرجوا الى الشوارع ـ أمام القناصة ـ وقاموا بمظاهرات ، ولسبب ما أجهض الانقلاب ٠ وكان السبب المعلن والظاهر لذلك العمل هو مقتل صربى بالرصاص على يد شابين مسلمين فى حفلة زفاف فى سراييفو فى اليوم السابق ٠ وكان مقتل ذلك الصربى، الذى يبدو أنه وقع نتيجة لاحتدام مفاجىء بلا تدبير مسبق ، اتخذ ذريعة

للتشهير ب « الارهاب » الاسلامي (٤٤) • لقد كان التكتيك هنا أوضح من الشمس ، كما أنه من طبيعة الحال لم يكن يدور بخلد أحد ولم يفكر أحد في اقامة المتاريس في سراييفو احتجاجا على اعمـــال قتل المسلمين على كثرتها . ومثلهـــا من الحوادث في الأشـــهر السابقة ، مثـل قتل محمد جانيبيجوفيتش على يد جماعة من شـــبه العسكريين الصربيين في شيبوفو في يوم ٧ أكتوبر أو اطلاق المدافع الرشاشة على مسجد محمد أغا بمدينـــة توزلا مـــن جانب الجنـــد الاحتياط بالجيش الفيـــدرالي في ١٣ أكتوبر (٤٥) •

وبعد هذا كله تبقى اختيار ممكن واحد أمام السياسيين الصربيين : فاما أن يمزقوا البوسنة اربا بالوسائل العســـكرية ، أو أن يمزقوها بالطرق السياسية التي يدعمها تهـديد القوة العسكرية • على أن هذه الطريقة الثانيـــة ظلت احتمالا حتى الأســـبوع الأخير من مارس ، كما أنها كانت تتوقف كثيرا على موقف الكروات البوسنيين • وروعيت درجة ما من السيمترية والتوازن مدة طويلة جدا بين المواقف الصربية والكرواتية حول البوسنة : ففي مارس ١٩٩١ التقى الرئيسان ميلوشيفيتش وتوجمان للتباحث في الوسائل الممكنة لتقسيم يوغوسلافيا ، وكان تقسيم البوسنة في جدول الأعمال المطروح أمامهم (٤٦) • ولكن ضرب السيمترية لم يكن الا على وجه جزئي فقط : فان صربيا تقدمت نحو الأمام شوطا كبيرا ومبكرة أكثر كثيرا ، وبينما كان الصربيون البوســـنيون يقيمون « مناطق مستقلة ذاتيا » في مايو ١٩٩١ و « برلمانا » في أكتـــوبر ١٩٩١ (منتهين بعـد ذلك الى اعلان « جمهورية صربيـــة بوســـنية » في ٢٧ مارس ١٩٩٢) ، فأما المقابل الكرواتي وهو « اللجنــــة الكرواتية للبوسنة والهرســك » فلم تعلن الا في يوليو ١٩٩٢ ، بعد انقضاء ثلاثة أشـــهر على العـدوان العســكري الصربي على البوســـنة • وكان زعيم الحزب الكرواتي في البوسنة وهو ستيبان كليوينتش ، يؤثر الاحتفاظ بحدود البوسنة ، ومن ثم فان حزبه صـــوت بالموافقـــة على استقلال البوسنة • أما فكرة تحويل البوسنة الى كونفيدرالية على غرار ســـويسرا أي الى مجمـــوعة من « الكانتونات » ، فلم تنل موافقة زعامة الاتحاد الديمقراطي الكرواتي • وبوصفه السكرتير العام للحزب ، قال ايفـــان ماركشيتش في أكتـــوبر ١٩٩١ : « انه حتى فيما يسمى باســـم المنطقة « الصربية » كبانيالوكا مثلا يوجد مائة وعشرون ألف كرواتي • وليس من الممكن تقسيم البوسنة الى كانتونات قوميـــة • فأما ما جـــرى في سويسرا ، فان الكانتونات كانت موجودة أولا ثم تكونت سويسرا من هذه الكانتونات • ولكن الكانتونات

في البوسنة ليس لها الا معنى واحد هو تقسيم القطر وليس بمستطاع أن يحدث ذلك الا بحرب (٤٧) ٠

ومع هذا ، فان فريقا من الكروات الهرسكيين يتزعمهم ماتى بوبان أخذ يزيد من نفوذه داخل الحزب حتى انتهى به الأمر فى يناير ١٩٩٢ ، فى حركة شاع أن تدبيرها تم على يد الرئيس الكرواتى توجمان ، ليحل بوبان محل كرويتش بوصفه زعيما لحزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى البوسنى (٤٨) ٠ وكان لكروات الهرسك بعض الحق فى أن يكونوا أكثر تشددا بعد الذى شهدوه من عمليات الحشد العسكرى وتأسيس « المنطقة الصربية المستقلة ذاتيا » هناك ، (ولقد كانوا أيضا على اتصال وثيق باتحاد الدفاع الكرواتى ، وفى أواخر ١٩٩١ رفضوا أن يسلموا أسلحة دفاعهم المحلى للجيش الفيدرالى ، ثم شرعوا يشكلون استعداداتهم العسكرية الخاصة) (٤٩) ٠ ولو استعرضنا النموذج العام للأحداث ، سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، لوجدنا أن تحركات الكروات كانت ردودا على تحركات الصرب ، كما أنهم كانوا الى حد ما يقلدونهم فى كل حركاتهم ٠ وهكذا عندما حدث أن الحزب الديمقراطى الصربى أصدر خريطة مقترحا تقسيم البوسنة الى كانتونات (مع جعل ٧٠٪ من الأراضى تقريبا كانتونات صربية) ، رد الاتحاد الديمقراطى الكرواتى فى ديسمبر ١٩٩١ على ذلك فى مدن غير بعيدة بخريطة خاصة به هى نفسها ، (تنطوى على ما يقارب ٣٠٪ من الكانتونات الكرواتية) (٥٠) ٠ وكان واضحا تماما أن ما كان يعنيه الصرب بالتقسيم الى كانتونات هو إنشاء بنية دستورية يستطيعون استغلالها فى تنفيذ الانفصال الكامل الذى طلبوه فى الماضى ، وعندما ذهب رادوفان كاراجيتش الى النمسا فى أواخر فبراير ١٩٩٢ للتباحث فى مستقبل البوسنة مع ميلوشيفيتش وتوجمان ، كان الذى يتحدثون عنه هو التقسيم لا الاتحاد الكونفيدرالى الكانتونى (٥١) ٠ ولكن المجموعة الاقتصادية الأوربية واللورد كارينجتون حاولوا الحفاظ على قشة الكانتونات ، فاشتركا فى رئاسة عدة جلسات مفاوضات حول هذه النقطة بين الأحزاب البوسنية الكبرى الثلاثة فى كل من بروكسل ولشبونة أثناء شهر مارس ٠ وفى اليوم التاسع من مارس كان الوفد الصربى هو الذى رفض قبول خطة تقضى بانشاء دستور فيدرالى بوسنى ، يكفل فيه لكل مجموعة « عرقية قومية » حق الفيتو أى الرفض فى كل مسألة كبرى سياسية أو اقتصادية (٥٢) ٠ وفى وقت تال من ذلك الشهر عبرت المجموعة الاقتصادية الأوربية عن موافقتها على فكرة خطة « كانتوناتية » مبنية على صورة معدلة من الخريطة الصربية ٠ وقبل الجوانب الثلاثة الخطة بادىء الرأى ، ورضوا أن تتخذ

أساسا لمفاوضات تالية ، ثم عاد حزب الاتحـــاد الديمقراطي الكرواتي فرفضها في يوم ٢٤ مارس • وتبعه حزب عزت بيجوفيتش (حزب الحركة الديمقراطية البوسنية) في اليوم التالي لأن الكروات كانوا من رفضها • ولسنا ندهش لأن الكروات كانـوا أول من رفضها ، وذلك لأنها لم تكن تعطيهم الا ١٧٪ من أرض البوسنة ، وتركت ٥٩٪ من السكان الكروات في كانتونات لا كرواتية (٥٣) •

والشيء الذي أظهرته كل هذه الخطط مجتمعة في نهاية الأمر ، هو استحالة القيام بأى شيء من هذا النوع من التقسيمات بطريقة لا تشقى مئات الألوف من « المواطنين » البوسنيين • ومهما يكن الأمر ، فان غالبية سكان البوسنة صوتوا من أجل بوسنة ديمقراطيـة ومستقلة يسكنهـــا مواطنــون متكافئون متســاوون • ولو غضضنا الطرف عن تيار الدعاية البلاغية في الأعلام الصربي الذي صـــور البوســـنة واقعة في قبضة « تحالف أصولى أوستاشي » ، فلا يوجد أى دليــــل يشــير ولو من بعيد الى وجود قوانين عنصرية تمييزية في البوسنة أو حتى يجعلنا نصدق أن الحكومة البوسنية كانت عازمة على اصدارها أو فكرت فيها • ولكن نوعا ما من الجنون والاضطراب العقلي الســـياسي خلقـــه الصرب ورجال السياسة الصربيون والاعلام الصربي حول قضية « الدفاع » عن « حقوق » الصرب البوسنيين ، بحيث كف الناس حتي عن التســـاؤل والتعجب عما اذا كانوا عرضة حقا للهجوم والاعتداء • حتى اذا تم لهذا الهوس أن يستقر في الأذهان تماما ، باتت الخطوة النهائية وهي التحـــرك العسكرى قاب قوسين أو أدنى •

الفصل السادس عشر

تدمير البوسنة

١٩٩٢ ـ ١٩٩٣

في اليوم السادس من أبريل ١٩٩٢ تم اعتراف المجموعة الاقتصادية الأوربية بالبوسنة كدولة مستقلة . وقد مرت على البوسنة لحظات عظيمة تمتعت فيها بما يشبه الاستقلال الذاتي أو شبه الاستقلال التام أثناء القرنين الأخيرين ـ فان فترة الصعود التي مر بها حسين قابيطان في ١٨٣١ والحكومة القومية في سراييفو في يوليو ١٨٧٨ ، وتسليم البارون ستازكوتيتش السلطة الى المجلس الوطني البوسني في نوفمبر ١٩١٨ ـ ولكن لو شئت القول الصحيح ، فان هذا كان أول ظهور للبوسنة بوصفها دولة مستقلة منذ ١٤٦٣ . وسارع المعقبون الى توضيح أن البوسنة قضت هذه السنوات الخمسمائة والتسع والعشرين وهي جزء من امبراطوريتين ثم مملكة ثم جمهورية شيوعية . وقد ادعوا أن البوسنة لايمكن أن تكون دولة ، لأنها انما تحتوي ثلاث قوميات مختلفة ، وأظهر التاريخ أنها لا يمكن أن تعيش الا كجزء من كل أعظم منها . وغالط الادعاء الأول حين ادعى أن الدول الأممية وحدها هي التي يحق لها الوجود . ولو كان الأمر كذلك ، فان غالبية الأعضاء الذين يقاربون المائة والسبعين في هيئة الأمم المتحدة ينبغي أن توسم بميسم عدم الصلاحية للعيش . أما التاريخ ، فلا يعلمنا أنه ينبغي للبوسنة الخضوع لدولة أكبر لمنعها من تدمير نفسها من الداخل ، بل ان الأمر يكاد يكون على العكس من ذلك : فان الشيء الوحيد الذي ظل طوال الأيام يهدد البوسنة بالأخطار لم يكن هو التوترات الداخلية الحقيقية ، وانما كان مطامع الدول الأكبر منها والولايات المجاورة لها . ويرينا تاريخ البوسنة أنه ، لو طرحنا جانبا ذلك الصراع الاقتصادي بين ملاك الأراضي والفلاحين ، لوجدنا العداوات القومية داخلها لم تبلغ نقطة تصل الى العنف العنصري الا نتيجة للضغوط الآتية من خارجها . ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أنه حتى الصراع

بين ملاك الأراضى والفلاحين كان بطريقة مهمة ـ وربما حاسمة أيضا ـ يشتد بسبب الوضع الدولى السياسى أثناء القرن التاسع عشر ، وذلك بصورة متوازية مع قيام صربيا جديدة تتمتع بلون من ألوان الحكم الذاتى ، وخلق ذلك احساسا بالعزلة فى نفوس الطبقة الحاكمة المسلمة بالبوسنة .

وأدت عملية طويله من التنافس القومى بين صربيا وكرواتيا منذ أخريات القرن التاسع عشر فصاعدا الى جعل السياسات الداخلية البوسنية شائكة حيث راحت تقنع البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس أنهم لابد أن يفكروا فى أنفسهم بوصفهم صربا أو كرواتا . وبعد أن جمعتهم يوغوسلافيا فى قطر واحد مع صربيا وكرواتيا مدة أربع وسبعين سنة ، كان من الطبيعى أن كثيرا من أفراد هذين المجتمعين بالبوسنة لابد أن يربطوا هويتهم بهذين الاثنين من أرض الأجداد . ولكن الآن وقد انتهت يوغوسلافيا من الوجود ، فان نفس الحقيقة التى جعلت الحفاظ على البوسنة أمرا شاقا ـ وهى سكانها المختلطون عرقا وأجناسا ـ جعلت ذلك الأمر اجباريا لا مفر منه . فقد اختلط هذان الشعبان مع شعب ثالث لم يكن له أرض أولى ولا أجداد يتطلع اليهـا ، اختلاطا كان من الشدة بحيث ان التفرقة بينهم لم يكن من الممكن الوصول اليها الا بثمن رهيب لا مبرر له فى الوقت الذى كان يمكنهم جميعا العيش معا بسلام ووئام ، لو توافر قدر صغير من حسن النية وسلامة الطوية . وكانت الأغلبية تود العيش فى سلام ، ولكن أقلية كانت تعمل بتوجيه من دولة مجاورة ، لم تكن ترى ذلك ، وكانت تملك البنادق .

وفى يوم الاعتراف الدولى ، كررت القوات غير النظامية الصربية العملية التى أجهضت فى سراييفو قبـل ذلك بشهر . وفى هذه المرة اجتمع ما يتراوح بين خمسين ألفا ومئة ألف من البوسنيين ، مع كافة المجموعات القومية ، وخرجوا الى الشوارع احتجاجا على ما يجرى . وأوردت الأنباء على لسان أحدهم : « فليذهب جميع المتعصبين الصرب الى صربيا ، ويذهب جميع الأوستاشا الكروات الى كرواتيا ، فانا انما نريد البقاء هنا بعضنا مع بعض . نريد أن نحتفظ بالبوسنة وحدة متماسكة » . لكن قوله هذا قطعته دفعات من طلقات الأسلحة النارية التى صوبت على المدنيين (١) . ولم تكن عمليات اطلاق النار هذه ، مع ذلك ، الأولى من نوعها . فقد حدثت فى مدى أكثر من أسبوع عمليات اطلاق نار وتفجير قنابل فى كثير من المدن البوسنية : بانيالوكا وبوسانسكى وموستار . وفى المدينتين الأوليين كان واضحا أن القوات

غير النظامية الصربية بدأت باطلاق النار ، أما فى موستار فقد انفجرت سيارة صهريج لنقل البترول قرب معسكرات الجيش الفيدرالى وربما كان ذلك من عمل القوات غير النظامية الكرواتية ، أو أنه كان محاولة عملها الصربيون لاثبات ان الجيش الفيدرالى كان معرضا للتهديد (٢) . وفى الثلاثين من مارس أعلن قائد الجيش الفيدرالى ، وهو الجنرال آدجيتش ، قبل الأوان وكأنه يتنبأ ، أن جيشه مستعد للتدخل لحماية الصرب « ضد العدوان الصريح » (٣) .

لكن أسوأ تطور فى الأيام الأولى من أبريل كان وصول قوات « أركان » غير النظامية الى مدينة بييلينا الواقعة فى الشمال الشرقى من البوسنة . فهؤلاء الرجال المدججون بالسلاح ، ومعظمهم من الصرب وليسوا من الصرب البوسنيين ، فرغوا لتوهم من عمليات التطهير فى فيكوفار . وقد انتقل بعض منهم الى بانيالوكا عند نهاية شهر مارس ، حيث بسطوا هيمنتهم على المدينة ، وأقاموا المتاريس فى الطرق ، وراحوا يتجولون فى الشوارع بقاذفات قنابل اليد ومسدسات سكوربيون الأوتوماتيكية » (٤) . ثم وصلوا الى بييلينا المدينة المسالمة التى يغلب على سكانها المسلمون ، وشرعوا فى « تحرير » أجزاء منها بما فيها المسجد الرئيسى . وهوجم المسلمون بعنف وطردوا وأرهقوا بالغارات المتكررة ، وحاول عضو مسلم من أعضاء الرئاسة البوسنية هو فكرت آبديتنس دخول المدينة ، فرد تحت تهديد البنادق، وفى اليوم الرابع من ابريل أعلن أن موارد الماء والكهرباء قطعت وأن أجساد القتلى ترقد فى الشوارع (٥) . وواضح أن الهدف الأساسى من ذلك كان : أولا ارهاب المسلمين المحليين حتى يفروا من المدينة ، وثانيا بث روح التطرف القومي فى نفوس الصرب من السكان من تجنيد بعض شبابهم لينضموا الى صفوف جيش الاحتلال الفوضوى العجيب هذا ، ابتغاء تأسيس الهيمنة الصربية على المنطقة بأكملها . ومن أجل هذين الغرضين لم يكن القتل أو الذبح الجماعى ضروريا ، وكان يكفى عدد من عمليات القتل العشوائى . وجاء فى تقرير آخر بعد ذلك أن عدد القتلى المسلمين يقدر بمئة تقريبا (٦) . وكما ستدلنا أحداث الأسابيع التالية ، فقد وقع الاختيار على بييلينا قبل غيرها بسبب أهميتها الاستراتيجية . فانها كانت النقطة المحورية القريبة من الحدود الصربية التى كانت تمتد منها الشقتان العريضتان من الأراضى التى لابد للقوات الصربية من الاستيلاء عليها : وهى شقة عريضة من الأرض تمتد عبر شمالى البوسنة ، وتوصل ما بين صربيا وبين القاعدة العسكرية فى بانيالوكا وهى « الكرايينا » البوسنية ، والمناطق المحتلة من كرواتيا ، ثم بعد ذلك قطاع فى الجانب الشرقى من

البوسنة يمتد امتدادا طويلا في خط الحدود البوسنية الصربية (وبذلك يتضمن نقاط الدخول الحيوية لخطوط الامدادات الواردة من صربيا) الى المناطق العرقية الصربية الموجودة في شرق الهرسك (٧) ٠

وفي مدى بضعة أيام بعد ذلك أخضع عدد كبير آخر من المدن ذات العدد الأكبر من السكان المسلمين في تلك الشقة الشرقية من البوسنة ، ولقيت المعاملة نفسها ٠ وبالاضافة الى « نمور أركان » ، استخدمت الجماعات الأخرى غير النظامية من الجنود بما في ذلك « النسور البيضاء » التى يقودها ميركو يوفتش والتشيتنيك الذين يقودهم شيشيلي (*) ٠ وحدث في حالات كثيرة من الهجوم الذى تعرضت له سفورنيك في الأسبوع الثانى من أبريل ، أن استخدمت وحدات المدفعية التابعة للجيش الفيدرالى لقصف المدينة عدة أيام متتالية ، وعندما استسلمت ، أرسل عليها الجند غير النظاميين ، ليتعاملوا مع السكان ٠ ولم تكن سيكولوجية الرعب والارهاب التى أدخلها قواد الجنود غير النظاميين في تلك الأماكن قاصرة على تخويف المسلمين المحليين حتى يفروا من ديارهم ـ وان نجحوا في هذا تماما ـ وقدر عدد الذين فروا من ديارهم عند نهاية أبريل من مسلمي زفورنيك وفيشيجراد وفوتشا بخمسة وتسعين في المئة (٨) ، فهناك جانب منها لا يقل شأنا ، وهو اقناع الصربى المحلى بأنه مضطر الى أن « يدافع » عن نفسه من عدوان جيرانه المسلمين ٠ ولقد مهد السبيل لذلك بطبيعة الحال ، ما كانت تبثه اذاعات راديو وتليفزيون بلجراد ، محذرين الصرب من الأوستاشا ومذابحهم المنظمة التى يذهب ضحيتها الآمنون ، ويبعثون فيهم الذعر من المجاهدين الأصوليين ، وحيث انهم شهدوا بأعين رؤوسهم مناظر حقيقية من القتل والقتلى والمدن المشتعلة بالنيران في كرواتيا على امتداد الأشهر التسعة الأخيرة ، فان بسطاء الفلاحين وسكان المدن اقتنعوا بسهولة تامة بأن تلك التهديدات كانت حقيقية فعلا ٠ وكل ما كان الأمر يحتاجه لا يتجاوز بضع تفصيلات محلية قليلة لاستكمال الصورة ٠ وهناك تقرير صحفى يجمد الدم في العروق بعث به مراسل رويتر أندريا جوستينتشيتش يبين كيف تم الأمر على وجهه المطلوب :

سألتنى امرأة صربية قائلة : « أترى ذلك الحقل ؟ (مشيرة الى مرج مترام بجوار نهر الدرينا) ٠ لقد كان مفهوما أن « الجهاد » سيبدأ هنا ٠٠ وكان المقرر أن تصبح فوتشا هى « مكة » الجديدة ٠ وكتبت قوائم بأسماء الصرب

(*) الشيشيليون : هم اتباع الزعيم هانيسلاف شيشيلى ـ (المترجم) ٠

الذين يجب القضـــاء عليهم » • ذلك ما قالته المرأة مكرره بذلك اعتقادا سرى بين أهل المدن وحملة البنادق • « لقـد كان ولداى مكتوبين فى تلك القائمـــــة التى تقول انهما سيذبحان كالخنازير • فأما أنـا فقـد أدرجت فيها تحت بند الاغتصاب » • وغنى عن البيان أن أحدا منهم لم ير القائمة ولكن ذلك شيء لا يمنع أى فرد من الاعتقاد بصـــــدق تلك الأراجيف دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من وجودها (٩) •

فهل كان القائد العام للجيش الفيدرالى بشرق البوسنة وهو الكولونيل ميلان يوفانوفيتش يصدق كل تلك الحكايات ؟ •• ذلك ما نشك فيه • وبينما كان رجاله يطردون المسلمين من بيوتهم فى مدينة فيشيجراد ، فانه أبلغ صحفيا بريطانيا أنه واقف على أرض يوغوسلافية ، وأضاف الى ذلك قوله : « كان هناك تمرد قام به المسلمون • وكانوا يعدون له منذ وقت طويل نسبيا للقضاء على الصرب » (١٠) • على أن الشيء الواضـح تماما هو أن هذه العملية المشتركة بين القوات النظامية وغير النظامية هى التى كان يجرى اعدادها منذ مدة طويلة من الزمن • والمسألة ، كما جاء فى عبارة أحد المحللين الكبار : « بالنظر الى السرعة التى تم بها اعداد وتسليح هذه الجموع ، والمستوى العالى من التناسق والتآزر الذى تكشف للعيان ، فان من الواضح الجلى أن هذه العمليات لم تشن تلقائيا (١١) • إذ بفضل استخدام مزايا المفاجأة من ناحية ، والتفوق الساحق الجارف من ناحية أخرى ، تمكن الجيش الفيدرالى ومساعدوه اللا نظاميون من أن يقتطعوا فى مدى ستة أو سبعة الأسابيع الأولى منطقة تقدر مساحتها بأكثر من ٦٠٪ من مساحة اقليم البوسنة كله •

وجندت بعض القوات الصربية المحلية من بعض « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » من البوسنة ، فانضمت أيضا الى هذه العمليات بمناطق كثيرة من البلاد • ولكنه من الواضح تماما أن الغزو انما تم فى معظمه على يد قوات الجيش الفيدرالى (بما فى ذلك الطائرات التى استخدمت لقصف مدن كوبريس ودوبوى وتوزلا وكلها تدار من بلجراد) ، وكتائب الجنود غير النظاميين الوافدين من صربيا • وبتعبير آخر ، فانه ولو كان بعض الجنود الذين يخدمون فى الجيش الفيدرالى « كانوا » من صرب البوسنة ، ومع أنهم كانوا ينسقون ، فى تآزر تام مع عناصر صربية متمردة فى بعض المناطق ، فان الذى جرى كان قبل كل شيء غزوا للبوسنة موجها من الأرض الصربية ذاتها • وفى أثناء الأسابيع الأولى للغزو ، كانت البيانات الرسمية التى يصدرها ميلوشيفيتش وقادة الجيش الفيدرالى تروج لادعاءين كلاهما

كاذب وزائف : أولهما أن الجيش انما يعمل كمحافظ على السلام للتفريق بين المقاتلين المحليين ، وثانيهما أن وحدة صربية واحدة لم تكن لتعبر الحدود الى داخل البوسنة (١٢) • والواقع أنه لم تكن هناك فقط قوات غير نظامية تعبر الحدود الى داخل الاقليم فقط بل وأيضا ، كما عبر شاهد عيان من منطقة الحدود ، حشد الجيش الفيدرالى فى غضون هذا الأسبوع على حين بغتة ارتالا من الرجال والمدفعية والدبابات على طول الطريق الواصل من صربيا عند انزلاقه بالبوسنة » (١٣) •

ومع ذلك ، ففى يوم ٢٧ أبريل أعلن الرئيس ميلوشيفيتش وحكومة الجبل الأسود ، قيام دولة فيدرالية جديدة ليوغوسلافيا تتكون من هاتين الجمهوريتين وحدهما ، وذلك أمر أوقع الجيش الفيدرالى فى البوسنة فى موقف حرج غريب ، وذلك لأنه لم يعد يستطيع أن يدعى أنه يتخذ صفة حافظ السـلام فى الأراضى اليوغوسـلافية • وفى أوائل مايـو أعلن ميلوشيفيتش أنه سوف يسحب من البوسنة كل جنود الجيش متى كانوا من مواطنى هاتين الجمهوريتين ، أما من هم من صرب البوسنة فسينقلون ومعهم جميع أسلحتهم وعتادهم ، الى ما يسمى « بالجمهورية الصربية » حيث سيوضـعون تحت امـرة الجنـرال راتـكو ملاديتش الذى كان ميلوشيفيتش ، هو من عينه فى منصبه القيادى كما أن هذا التغير الشامل بأكمله كان مناورة تجميلية • ولم يكن أمام أى مراقب أجنبى أية وسيلة للتأكد من صحة أن الجنود الصربيين وجنود الجبل الأسود قد سحبوا من البوسنة حقا ، وفى ٢٠ مايو ادعت السلطات أن أربعة عشر ألفا خرجوا من البلاد ، ولكن ذلك كان معنـاه ترك ثمانين ألفـا من الجند على الأقل هناك (١٤) • ولو اطلعنا على الشهادات التى أدلى بها ضحايا الحرب فى زمن متأخر من ١٩٩٢ ، لصادفنا عديدا من الاشارات الى جند من صربيا والجبل الأسود • وليس من الممكن لنا أن نعتقد أن الجيش الذى كان يقاتل فى البوسنة منذ أواخر مايو فصاعدا كان يتكون بأكمله من الصرب البوسنيين • وبالنسبة للجند المنتسبين الى البوسـنة فان هذا التغير لم يحدث أى تغير جوهرى فى خططهم : فقد واصلوا القتال بنفس أسلحة الجيش الفيدرالى ، واستمر تلقيهم لامدادات من المؤن والذخيرة والطعام والوقود من صربيا وواصلوا العمل فى تعاون تام مع القوات غير النظامية من صربيا ، وحافظوا على الاستراتيجية الشـاملة التى وضـعها الزعيم الصربى • ولم يظهر الا بعد أحد عشر شهرا ، يوم أن اختلف ملاديتش مع ميلوشفيتش ، حول تقبل خطـة فانس ــ أوين ، أن هناك اختلافا بين استراتيجية « صرب البوسنة » وبين زعامة بلجراد وسياستها •

ومهما يكن من أمر ، فان هذا المحاولة التجميلية آتت آثارها المرجوة ، فان السياسيين المبرزين الغربيين مثـــل وزير الخارجية البريطـــانى دوجلاس هيرد ، سرعان ما أخذوا يصفون القتال الناشب فى البوسنة بأنه « حرب اهليـــة » • كمـــا أن محررا سابقـــا مبرزا فى جريدة التايمز نشر عددا من المقالات وصف فيها القتال بأنه « حرب أهلية » بمعنى الكلمة• وظلت الاذاعة البريطانية تشير باستمرار الى كل جوانب ذلك الصراع ، بما فى ذلك الحكومة البوسنية نفسها بأنها « أحزاب متناحرة » ، ووصفت الحرب بأنها « انهيار للقانون والنظام » • (اذ حدث فى مناسبة ما فى أبريل ١٩٩٢ ، عندما قطعت الطريق على ست سيارات للأمم المتحدة قوات غير نظامية صربية ، أعلنت الاذاعة البريطانية أن « جهود تقديم المساعدة للاجئين يحول دونها انهيار للقانون والنظام » ، ولعـــل هذا هو الحادث الاول من نوعه والوحيد فى التاريخ الذى يشار فيه الى اختطاف ســـيارة محملة بالأغذية على يد انهيار القانون والنظام !) (١٥) • ولم يكن بوسع بريطانيا أن فهم ما كان يحدث هناك لسبب آخر وهو أنه فى الأيام الحرجة الحاســـمة الأولى فى أبريل ١٩٩٢ كانت بريطانيـــا تجتاز انتخابات عامة ، ومن ثم لم يكن فى المستطاع الالتفات الى ما كان يجرى فى البوسنة الا من جانب قلة من المعلقين والساسة ، وأخيرا عندما تنبهوا الى وجود حرب حقيقية ناشبة فى ذات الاقليم لم يستطيعوا أن يروا الا مجموعة من المتقاتلين المتشابهين تماما فى الشراسة ، يقاتلون بعضهم بعضا من أجل أســـباب لا ســـبيل الى فهمها • فأما فى الولايات المتحدة • فان موعد انتخابات الرئاسة كان بعد سبعة أشهر ، ولكن ادارة بوش حرصت على تجنب أية سياسة تنطوى على التورط ، وتؤثر على نتيجة الانتخابات ، وكانت قانعة بقبول رأى زعماء المجموعة الاقتصادية الأوربية ، الذين كانوا ادعوا منذ بداية الحرب اليوغوسلافية أن هذه انما هى « مسألة أوربية بحتة » •

وأخذت قوات الدفاع المحلية التابعة للحكومة البوسنية على غرة ، (ربما كان عدد رجالها لا يتجاوز ٣٥٠٠ رجل فى مجموعها كله) ، ولكنها حاولت بالفعل أن تظهر شيئا من المقاومة أثناء شـــهر أبريل • ولكن فى هذه الفترة المبكرة كانت المقاومة الرئيسية من جانب الكروات • ففى غرب الهرسك ، كان الكروات قد أعدوا بعض العدة ، وانضم اليهـــم رجـــال من القوات الكرواتية غير النظامية • فقد كانت هذه القوة ممتزجة بالجيش الكرواتى امتزاجا رسميا أثناء حرب ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ التى دارت رحاها فى كرواتيا ، حتى اذا انتهت تلك الحرب أو أوشكت ، ذهب كثير من أعضائها الى الهرسك كوسيلة للهرب من رقابة الجيش الكرواتى عليهـــم • وفى أبريل ١٩٩٢ شكلوا ما يقارب ٥٠٠٠ من تلك القوة ذات الخمسة عشر ألف

رجل من المقاتلين الكروات ، التى كانت مجتمعة بتلك المنطقة : أما الكروات المحليون فانهم نظموا تحت رعاية « مجلس الدفاع الكرواتى » • وبدءوا فى نهاية مايو فى القيام بهجوم مضاد نجح ، بعد أكثر من شهر من القتال ، فى دفع قوات الجيش الفيدرالى بعيدا عن منطقة موستار • وانضم اليهم فى تلك المدينة ما قد يصل الى خمسة عشر ألفا من قوات الجيش النظامى من داخل كرواتيا ، وقد جلبوا معهم كمية صغيرة من الدبابات وبضع قطع من المدفعية ، وفى ١٦ يونيو وقع الرئيس عزت بيجوفيتش مع توجمان محالفة بين قطريهما تبيح استخدام كل من قوات الجيش الكرواتى وقوات مجلس الدفاع الكرواتى المحلية (١٦) • وفى أجزاء من شمال البوسنة أيضا ، وبخاصة بمنطقة بوسافينا ، تمكنت مقاومة القوات الكرواتية ، من وقف التقدم الصربى تماما ، كما أنها تمكنت فى بعض الأماكن الأخرى من رده على أعقابه •

وكانت النوايا السياسية لزعامتى الكروات والبوسنيين الكروات . عرضة لبعض الشكوك • فانهـــم أقاموا لعدة أســـابيع وهم يحاجون عزت بيجوفيتش أن يعلن قيام دولة كونفدرالية بين البوسنة وكرواتيا ، ولكنه كان يرفض على الدوام فعل ذلك ، اما لأنه كان يخشى من امتصاص البوسنة فى النهاية فى داخـل كرواتيا أكبر منها ، أو لأنه ظن أن حركه كهذه ستعطى تبريرا لحجج الصرب • وتفكيره هذا يدل على أنه كان يعتقد فى ضرورة أن تمثل حكومته الصربيين ، كما تمثل المسلمين والكروات ، بل الواقع أنه احتفظ فعلا بالوزراء الصرب فى وزارته طوال مدة الحرب بأكملها • ولكن محاولة عزت بيجوفيتش أن يكون متوازنا ، أثارت عليه الكروات ، الذين كان هدفهم الاستراتيجى العسكرى واضـــحا فى تلك المرحلة ، كما أنه أغضبهم ، بأن عين فى القيادة العامة للجيش ، الضباط المسلمين القلائل الذين ارتقوا الى رتبة الجنرال فى الجيش اليوغوسلافى الفيدرالى ــ وهو شفير هلالوفيتش ، وله سابقة قيادة وحدات آلية كثيرة هاجمت كرواتيا أثناء الحرب السابقة • وطوال يونيو ويوليــو ظل زعيــم حزب الاتحاد الكرواتى الديمقراطى فى البوسنة ، ماتى بوبان يضغط على عزت بيجوفيتش عسى أن يوافق على قيام الدولة الكونفيدرالية ، وذلك اما بتهديده بسحب قواته أو بسد الطريق على امدادات الجيش • وفى أوائل يوليو أعلن بوبان قيام « مجتمع الهرسك والبوسنة الكرواتى » ، أى تأسيس اقليم كرواتى يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ، وأدخلت فيه العملة الكرواتية ورفع فيه العلم الكرواتى • ثم حدث فيما بعد أن صدر بيان رسمى على لسان أحد مشيرى بوبان أكد فيه أن ذلك انما هو اجراء

مؤقت ، وأن المنطقة لابد أنها ستكون فى نهاية الأمر « جزءا لا يتجزأ من البوسنة » مرة أخرى (١٧) ٠

فأما ان بوبان نفسه كان يريد حقا لهذه المنطقة أن تنضم الى كرواتيا ، فأمر ظاهر يمكن افتراضه مقدما ، ولكن اعلانات الرئيس توجمان الرسمية استمرت تطرى فكرة الحفاظ على سلامة الحدود البوسنية على أن بعض مستشارى توجمان المقربين ، وبخاصة وزير دفاعه الهرسكى المولد ، جويكو شوشاك ، كان يحبذ اقتطاع بعض مناطق من البوسنة ، بيد أن كثيرا من الوزراء الآخرين ومعظم حزب المعارضة فى كرواتيا كانوا معارضين لذلك ٠ ولعل من العدل أن نقول ان موقف توجمان الخاص كان ينطوى على موقف انتهازى عقلانى ٠ فلو أنه أعطى اشارات واضحة من العالم الخارجى ، بأنهم لن يسمحوا بهزيمة البوسنة وتقطيعها ، فسيمضى قدما بتلك السياسة ، ولكن اذا كان العالم مستعدا أن يسمح للصرب بأن يستولوا على الأراضى ويستمسكوا بها ، فانه كان يرجو أن ينال نصيبه من الكعكة هو أيضا ٠ لكن المجتمع الدولى لم يعطه أية اشارة واضحة تدل على عزمه على الحفاظ على وحدة البوسنة فى حين أن مستقبل المناطق المأهولة بالصرب فى البوسنة كان غامضا ، مع صدور اجراءات متعاقبة مماطلة كسبا للوقت ، كان المقصود منها بسط انتداب الأمم المتحدة عليهم ٠ وذلك ما أتاح لتوجمان سببا اضافيا للمساومة على أرض البوسنة ٠

وعلى العموم كان رد فعل المجتمع الدولى مرتبكا أو سلبيا ٠ وعندما بدأ القتال فى البوسنة كانت الأمم المتحدة فى بداية انشاء مقر قيادة عليا فى سراييفو ، فضلا عن قواعد فى بعض مدن البوسنة الشمالية ، لكى تدير عمليات حفظ السلام فى كرواتيا ٠ وفى أوائل مايو رفض الأمين العام بطرس بطرس غالى استخدام قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة ، وفى يوم ١٦ مايو سحبت معظم قوة الأمم المتحدة الموجودة أصلا فى سراييفو ٠ وبعد ذلك بأسبوعين أصدر بطرس غالى تقريرا كرر فيه الخط الأساسى لمناورة ميلوشيفيتش ، وهى أن الجيش والقوات شبه النظامية بالبوسنة كانت « مستقلة » ولا علاقة لها ببلجراد ٠ كان الهدف من وراء هذا التقرير هو المحاجة ضد فرض العقوبات على صربيا — وهو اجراء اقترحته الحكومة الأمريكية ، ولكن قاومته كل من فرنسا وبريطانيا اللذين قالا انهما يريدان اعطاء ميلوشيفيتش « فرصة أخرى لايقاف ما يجرى فى البوسنة من عنف » (١٨) ٠ (والواقع أن العقوبات فرضت على صربيا فى ٣٠ مايو ، ولكن لم يكن لها أى تأثير فى الجهد الحربى

الصربى ، كما أنها قوضت تقويضا شديدا بما سلم من البترول وغيره من الامدادات ، التى كانت تصل برا من اليونان أو ترسل عبر الدانوب من روسيا وأوكرانيا) ٠

كانت نقطة الاخفاق الجوهرية التى وقع فيها الساسة الغربيون ، هى أنهم لم يكونوا ينظرون الا الى أعراض الحرب ، ولم يكونوا ينظرون الى أسبابها : وكأنما لم يكونوا يريدون حتى أن يفهموا طبيعة مشروع ميلوشيفيتش ٠ لقد أصروا على معالجة الحرب بوصفها فى جوهرها مشكلة عسكرية اكثر منها مشكلة سياسية ٠ ولم يعد اقتسام المسئولية أو توقيع اللائمة الا مجرد الاشارة بالاصبع الى أقوام يتبادلون اطلاق البنادق ، ولما كانت هناك الآن جهتان تتبادلان ذلك الاطلاق وقع اللوم عليهما كلتيهما ٠ « وبذلك تقع اللائمة على كل فرد ازاء ما يحدث فى البوسنة والهرسك » ، ذلك ما صرح به مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوربية ، لورد كارينجتون ، فى احدى ملحوظاته التى تنم تماما عن عدم فهمه للموضوع ٠ وقال : « وبمجرد الوصول الى تنفيذ ايقاف تبادل النار ، لن تكون هناك حاجة الى لوم أى جانب من الجانبين » (١٩) ٠ والتشبث عند حد ايقاف تبادل النار ــ وهو أمر تم خرقه أكثر من مئة مرة أثناء الجزء الباقى من السنة ــ أصبح أوضح دليل وأكبر عارض على سوء الفهم السياسى ٠

ونظرا لأن الحرب كانت ترى فى جوهرها مجرد مشكلة عسكرية وحسب ، سببه شىء ما يسمى « العنف » الذى « انفجر فجأة » من « كل من الجانبين على السواء » ــ فان جهود الغرب كانت موجهة الى ما كان يوصف آنذاك « بتقليص حجم القتال » ٠ ومن هنا جاء دمار البوسنة وكان أكبر عامل فى ذلك رفض رفع حظر توريد السلاح على الحكومة البوسنية ٠ لقد فرض ذلك « الحظر » من جانب الأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٩١ على يوغوسلافيا بأكملها التى كانت لا تزال فى تلك المرحلة من الناحية الرسمية دولة واحدة ٠ وبالرغم من أن الأمم المتحدة اعترفت بالبوسنة وأدخلتها دولة عضوة متميزة ومستقلة عن يوغوسلافيا فى ٢٢ مايو ١٩٩٢ ، فانها استمرت فى تطبيق الحظر كأنما لم يحدث أى تغيير ٠ وهى بطبيعة الحال قد استمرت فى تطبيقه على صربيا أيضا ٠ بيد أن صربيا كانت تمسك بكلتا يديها معظم أكداس الأسلحة المتبقية عن الجيش الفيدرالى السابق ، كما أنها كانت تمتلك صناعة سلاح ضخمة خاصة بها ٠ (ومن بين مصانع الأسلحة الرئيسية العظمى فى البوسنة ما كانت قائمة فى المناطق العرقية للصربيين : مثل مصنع قنابل المدفعية القائم فى المنطقة الصربية فوجوتتما

خارج سراييفو ، وهو المصنع الذى استولت عليه القوات الصربية عند بداية الحرب) ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فان الجيش اليوغوسلافى اشترى مقدارا اضافيا يقدر بأربعة عشر ألف طن من الأسلحة من الشرق الأوسط قبيل تنفيذ قرار حظر السلاح فى ١٩٩١ (٢٠) ٠ وكان القواد العسكريون الصربيون يفاخرون ، فى أحيان كثيرة ، بأن لديهم من الأسلحة والذخيرة ما يكفى لمواصلة الحرب فى البوسنة ست أو سبع سنوات أخرى ، ولم يكن فى امكان الحظر والحالة هذه ، أن يكون له أدنى أثر حقيقى على قدرتهم العسكرية ٠ ولكن ذلك الحظر كان بالنسبة لقوات الدفاع البوسنية قرارا بالاعدام على المدى الطويل ٠

ومن المسلم به أن امدادات قليلة من الأسلحة كانت تصل الى البوسنيين بالفعل ، وذلك على يد كرواتيا فى غالب الأمر رغم ذلك الحصار المضروب على الساحل الكرواتى منذ يوليو ١٩٩٢ من جانب حلف شمال الأطلنطى والأساطيل الصغيرة التابعة لاتحاد غرب أوربا ٠ وبقيت بضعة مصانع أسلحة قليلة داخل المناطق التى تسيطر عليها الحكومة البوسنية ، وظل بعضها قادرا على الانتاج رغم الاضطراب فى الامدادات ٠ وفى بعض الأحيان كانت قوات الحكومة البوسنية تستولى أيضا على بعض المواد من الجيش الصربى : ومن أبرز تلك العمليات بشمال توزلا الاستيلاء على طابور مدرع بأكمله ٠ ولكن الشىء الذى كان يعوز البوسنيين على الدوام هو المدرعات الثقيلة والمدفعية ، والأسلحة المضادة للدبابات ٠ وفى سبتمبر قدر أنهم يمتلكون دبابتين واثنتين من حاملات الجنود المدرعة وذلك بينما كان الجيش الصربى فى البوسنة يمتلك ثلاثمئة دبابة ومئتين من حاملات الجنود المدرعة وثمانمئة قطعة مدفعية وأربعين طائرة (٢١) ٠ ثم جاء تقدير آخر صدر فى يونية ١٩٩٣ ، وهى يحدد الأسلحة التى استولى عليها البوسنيون بأنها تصل الى أربعين دبابة وثلاثين حاملة جنود مدرعة بالاضافة الى عدد ضخم من قطع المدفعية الخفيفة ، وكان المظنون أن القوات الكرواتيه تمتلك ما يقرب من خمسين دبابة وأكثر من مئة قطعة مدفعية (٢٢) ٠

ومع هذا ، ورغم الفارق الكبير فى التوازن التسليحى ورغم الفيض المستمر للوفود والامداد الموجه الى القوات الصربية ، فان التاريخ العسكرى للحرب أثناء ١٩٩٢ ، كان تاريخ تعادل حقيقى وندى منذ اللحظة التى بدأت فيها قوات حكومتى البوسنة والكروات فى تنظيم صفوفها فى أواخر ١٩٩٢ ٠ وفى الشهور التسعة التالية ، أمكن ايقاف القوات الصربية ، كما أنها فى بعض المناطق اضطرت الى التراجع : وبخاصة فى الهرسك أثناء شهرى مايو ويونيو ، وحول جورازده (Gorazde)

فى أغسطس ، وفى ممر برتشكو بشمال البوسنة الشرقى ، بدرجة منقطعة طوال الخريف ، وفى أجزاء من وادى الدرينا بشرق البوسنة فى يناير ١٩٩٣ · كان هناك فارق فى التكتيكات العسكرية بين الجانبين ، يعبر عن فارق فى السيكولوجية والدوافع · وكان التكتيك الأساسى للجانب الصربى هو نفس التكتيك الذى سبق استخدامه فى كرواتيا ، وهو القعود على مسافة معقولة حذرة ، ودك المناطق التى كانت تهاجمها بالقصف المدفعى ، مدة أسابيع ، بل حتى شهورا متتالية بلا توقف · وكان كثير من المجندين الذين يعملون فى هذا الجيش الفيدرالى سابقا يفتقرون الى حافز يدفعهم لمهاجمة ديار المسلمين والكروات ، بينما كان (٢٣) هؤلاء لديهم الحافز للدفاع عنها ، ولو كانت الحكومة البوسنية قادرة على أن تمارس الحق الطبيعى لأية حكومة أخرى ، فى الحصول على الأسلحة للدفاع عن شعبها ، فان من المحتمل تماما أن المكاسب الصربية ما كانت الا لترد على أعقابها فى كثير من أرجاء البوسنة ، ان لم يكن ذلك الى حد الهزيمة المطلقة لزعماء الصرب ، وعند ذلك قد تكون الهزيمة الى حد أنهم يدركون ويعلمون أنهم لن يستطيعوا الحصول على الأرض التى يريدون عن طريق الفتح · وعندئذ ما كانت الحرب الا لتنتهى فيما يحتمل فى مدى أربعة أو ستة أشهر · ولكن ذلك لم يحدث ، لأن تسليم الأسلحة الى الحكومة البوسنية كان يلقى مقاومة شديدة من رجال من أمثال دوجلاس هيرد ، الذى كان يحاج بأن السماح للبوسنيين بالدفاع عن أنفسهم لن يعود الا « بتطويل أمد القتال » ·

وكانت أول بادرة باحداث تغيير ممكن فى السياسة الغربية فى أوائل أغسطس ١٩٩٢ ، بعد أن قام عدد من رجال الصحافة ومجموعة من مندوبى التليفزيون بزيارة أحد « معسكرات الاعتقال » التى يديرها الصرب بشمال البوسنة · ولأول مرة استطاع الرجال العاديون والساسة أن يشهدوا بأعينهم الدلائل القاطعة التى تشهد بمأساة السكان المسلمين بتلك المنطقة · ولم تكن الحقائق مجهولة ، أو لم يكن يجوز أن تكون مجهولة ، لدى الأمم المتحدة ولدى الحكومات الغربية : خاصة وأن تيارا ضخما من التقارير من موظفى الأمم المتحدة فى المناطق المجاورة بكرواتيا ، أشار الى معسكرات الاعتقال هذه أثناء الشهرين السابقين ، كما أن تقريرا أصدرته المنظمة العالمية لحقوق الانسان فى ٢٩ مايو ذكر أمثلة كثيرة للمسلمين المدنيين الذين اعتقلوا واحتجزوا بالمدارس وغيرها من المراكز ، فضلا عن أنهم كانوا فى بعض الحالات يقتلون (٢٤) · وفى أوائل شهر يونيو أصدرت الحكومة البوسنية قائمة بأسماء أربعة وتسعين مكانا

لسجون ومعسكرات اعتقال يديرها الصرب ، ومعها تقدير لعدد الناس الذين قتلوا حتى ذلك الحين بأنه تسعة آلاف وثلاثمئة من الأنفس (٢٥) ٠ وهذا الرقم لم يكن بأية حال قريبا من المجموع الكلى للمدنيين ممن اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص : وبغض النظر عن ضحايا القصف المدفعى ، كان هناك كثيرا ممن اعتقلوا وأعدموا فى القرى والمدن بجميع أرجاء البوسنة ٠ وهناك حالة تدعمها وثائق جيدة بوجه خاص ، وهى حالة مدينة زاكلوباتشا المسلمة (Zaklopatča) ، حيث أعدم ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين قرويا ــ يكادون يشكلون مجموع الرجال المقيمين بتلك القرية ــ حيث « نفذ فيهم حكم الاعدام بالجملة » على يد الجند غير النظاميين الصربيين فى يوم ١٦ مايو ١٩٩٢ ٠ وهاكم مثالا نموذجيا لها :

« كان زوج أختى حاسو هودجيتش ، واقفا فى الخارج أمام المنزل، عندما اقترب منه جند التشيتنيك وبدءوا بندائه بالأوستاشا ٠ فشرع زوج أختى فى السير نحوهم ، فطلبوا منه تسليم أسلحته ٠ فأخبرهم بأنه لا يملك اسلحة ، وأنه يمكنهم أن يأخذوا بقراته ٠ وعند ذلك فتح عليه النار أحد التشيتنيك فأرداه صريعا » (٢٦) ٠

وفى بعض الأماكن ، جرى قتل متعمد لكل المسلمين المتعلمين ، ووجوه المجتمع المحلى : المعلمين والأطباء والمحامين ٠ وقد أظهرت التقارير المفصلة التى ظهرت بعد ذلك ، فى نفس السنة ، أن بعض معسكرات الاعتقال قد استخدمت أيضا مقرا للقتل المنظم ٠ وكان هناك أيضا كثير من التقارير المدعمة بالأسانيد والوثائق عن نساء يقبض عليهن ويحتجزن فى مبان خاصة بغرض الاغتصاب المنظم (٢٧)

كان رد فعل الساسة الغربيين ازاء مشاهد السجناء المعذبين فى المعسكرات ، هو مجرد التعبير فقط عن الغضب والاهتمام ٠ مثال ذلك أن لورد اوين وهو يكتب كمعلق مستقل ، دعا الى شن غارات جوية على القوات الصربية ٠ فرد دوجلاس هيرد على كل هذه الدعوات الى التدخل ببيان قال فيه : « ان هناك « مبررا » كبيرا للتدخل ٠ واذا قدرنا أن تدخلا عسكريا يستمر لمدة أيام قليلة سيضع نهاية لتلك الآلام ، فان الأمر لن يكون مجرد « مبرر » كبير بل سيكون دافعا هائلا » (٢٨) ٠ وهنا ، كان سيادته يعترف لأول مرة بصحة المبدأ القائل بأنه ربما كان من الصواب أن « نزيد حدة القتال » فى المدى القصير لكى ننهيه فى المدى الطويل ٠ بيد أنه كان لا يزال يعارض باصرار تام فكرة تطبيق هذا المبدأ بالسماح للحكومة البوسنة

بالدفاع عن نفسها ، مستخدمة قواتها الخاصة وقدرا كافيا من الأسلحة . ولكنه كان ، شأن معظم الزعماء الغربيين الآخرين ، لايزال ينظر الى القتال على أساس أنه حرب أهلية (« وأنها حرب لا خط لجبهة فيها .. فالقرية منقسمة على نفسها الى شطرين متعادين») ، ومفهوم وواضح للعيان أنه كان كارها للتدخل بالجند البريطانيين - وهو شيء لم تكن الحكومة البوسنية على كل حال تسأله أن يفعله .

ووقع على عاتق الحكومة البريطانية ، كمتولية لرئاسة المجموعه الأوربية الاقتصادية ، أن ترأس مؤتمرا مشتركا للمجموعه والأمم المتحدة حول الموقف في يوغوسلافيا بأكملها ، وهو مؤتمر عقد في لندن خلال الأسبوع الأخير من أغسطس . وبات الشلل الذى أصاب الغرب أوضح كثيرا . فحصل جون ميجور على ما زعمه تعهدات جادة قاطعة من زعماء الصرب برفع الحصار عن المدن البوسنية كبيرها وصغيرها ، وأن يضعوا أسلحتهم الثقيلة تحت اشراف الأمم المتحدة . ولكن الاشراف فسر بمعناه الأصلى الحرفي : فسمح لمندوبى الأمم المتحدة بأن يرصدوا قطع المدفعية الموجهة الى سراييفو كل يوم وهى تطلق قذائفها دون التدخل لمنعها . والاجراء الآخر الذى تم الاتفاق عليه في المؤتمر كان يتضمن تشديد العقوبات على الصرب عند نهر الدانوب ، (وان لم تكن هناك حتى آنذاك اية وسيلة لايقاف الصنادل العائمة عن التقدم بما تحمل ، اللهم الا استخدام مكبرات الصوت) ، وحظر تحليق الطائرات فوق البوسنة (وان لم نعد العدة لتنفيذ ذلك) ، وتعيين اللورد أوين المقاتل المحارب ليحل محل لورد كارينجتون في وظيفة مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوروبية (وان كان اللورد أوين قد أسقط على الفور تهديده بالعمل العسكرى ، وبدأ يعامل الصرب بوصفهم فئة متكافئة في المفاوضات لها ادعاءاتها الصحيحة مثل الأطراف الأخرى تماما) .

وللمرة الثانية فشل المجتمع الدولى في أن يدرس الأسباب الجوهرية الصراع . والآن أصبح التأكيد مركزا على شيئين : الحلول العسكرية للمشاكل العسكرية ، والحلول الانسانية للمشاكل الانسانية . ومع أن مصطلح « التطهير العرقى » كان دائرا على الألسن في كل مكان ، فقد ظل الافتراض قائما بأن المشكلة الجوهرية عسكرية بحتة ، وأن فرار السكان المذعورين والمرعوبين ، لم يكن الا نتيجة ثانوية للقتال . وعند ذلك أصبحت المسألة توصف بأنها مسألة أو مشكلة انسانية ، يمكن ان « نحل » بنقل اللاجئين الى معسكرات لاجئين خارج البوسنة . فأما الشيء الذى لم يكن مفهوما تماما ، فهو أن التطهير العرقى لم يكن نتاجا ثانويا للحرب، وانما هو

جزء محورى أساسى من المشروع السياسى الذى كان مقصودا من الحرب آن تنجزه . وأعنى بذلك خلق مناطق صربية متجانسة ، يمكن فى خاتمة المطاف أن تضم الى مناطق صربية أخرى ، بما فى ذلك صربيا نفسها ، بغية خلق دولة صربية عظمى ٠

وأما البعثات الانسانية التى كان يرسلها العالم الخارجى ، فانها كانت تنقذ الحياة البشرية دون أدنى مراء ٠ على أنها كانت لها عواقب أخرى غير مرغوبة ولكنها ايضا غير بعيدة عن العقول ولا غير متوقعة : اذ كانت الميليشيات المحلية تتعامل واياها بوصفها مصدرا للمئونة ، حيث كانت تتلقى منها بانتظام مقدارا يصل الى ربع المقادير المسلمة للناس ، والتى كانت تمر من خلال نقط تفتيشهم ، مع ابتزاز مبالغ طائلة من الأموال أيضا (٢٩) ٠ وبينما وكالات المعونة العامة والخاصة تبذل جهودا مضنية لجلب الطعام والأدوية الى البوسنة أثناء النصف الثانى من عام ١٩٩٢ ، انضم اليهم عدد متزايد من جند الأمم المتحدة (بلغوا ثمانية آلاف تقريبا عند نهاية السنة) ، وكان دورهم ، بالاضافة الى حماية قوافل المساعدات ، غير واضح ، وكانت العاقبة السياسية لوضع هذه القوة الصغيرة الخفيفة التسليح فى البوسنة هى أنها أصبحت فى وضع الرهينة ، ومن ثم صارت الدول الغربية أكثر ترددا فى تبنى أية سياسات قد يترتب عليها الانتقام من جانب الصرب من هذه الحشود المكشوفة من الجند ٠ وهكذا حدث عند حلول ديسمبر ، أن الحكومة البريطانية التى ساعدت فى اقامة منطقة « حظر الطيران » فوق البوسنة ، كانت تجادل فى الأمم المتحدة ضد اتخاذ أى اجراء لتطبيق الحظر ، خشية ما ربما قد يقع منه من ضرر على الجنود البريطانيين فى البوسنة اذا حدث وأسقط سلاح الطيران الملكى البريطانى طائرة صربية (٣٠) ٠

وفى أواخر أكتوبر ١٩٩٢ قدم مفاوضا المجموعة الاقتصادية الأوروبية والأمم المتحدة وهما لورد أوين وسيروس فانس ، أول اقتراح تفصيلى لتسوية سياسية ٠ كانت تلك التسوية عبارة عن « حل » وصلا اليه بتنفيذ مطالب الصرب والكروات والمسلمين عن طريق رسم خطوط هندسية بين الأطراف جميعا ٠ كانت النتيجة أن أعطى الصرب مساحة كبيرة من الأرض ، مما استفز المسلمين الى الشعور بأن الصربيين قد كوفئوا على عدوانهم ، ومما أشعر الصرب بأنهم لو استمروا فى أعمالهم، فلابد أنهم سينالون قدرا أكبر ٠ وقد وضع هذه الخطة أصلا دبلوماسى فنلندى اسمه مارتى اهتيسارى (Martti Ahtisaari) وترمى الخطة الى تحويل البوسنة الى « مقاطعات ذات استقلال ذاتى » أو كانتونات تقوم بجميع وظائف

الحكومة بما فى ذلك أعمال الشرطة . وتتولى الحكومة المركزية فى البوسنة مسائل الدفاع القومى والشئون الخارجية فقط . وعندئذ ضغط الصرب ضغطا أشد عندما صدرت الخطة فيما قيل انه آخر اطار نهائى لها بمدينة جينيف فى يناير ١٩٩٣ ، حتى أن شئون الدفاع انتزعت من سلطات هذه الحكومة المركزية المقترحة (٣١) .

كانت مزايا خطة فانس ـ أوين تنحصر فى اصرارها على أن يسمح للاجئين بالعودة الى ديارهم بكل أرجاء البوسنة ، واصرارها على عدم توصيل الكانتونات التابعة للمناطق التى يحتلها الصرب بطريقة تجعل من السهل عليها أن تحاول أن تنضم الى صربيا بوصفها كتلة أرضية واحدة . ومن أسف أن هذين المبدأين الجديرين بالثناء كانا متناقضين مع بقية الخطة ، ومع الواقع نفسه ! . اذ أن بقية الخطة كانت تعطى سلطات تشريعية كاملة وقضائية وتنفيذية (بما فى ذلك الشرطة) للكانتونات ، وهو أمر كان من المستحيل معه أن يعود اللاجئون المسلمون فى أمان الى الكانتونات التى يحكمها الصرب (٣٢) . كما أن واقع الأمر على سطح الأرض كان يشير الى أن المناطق التى استولى عليها الصرب كانت متصلة ، وكان من المستحيل على زعماء الصرب أن يفرطوا فى هذه الروابط التى كانت عنصرا أساسيا فى خططهم الخاصة .

ومن العيوب الأخرى فى هذه الخطة والتى تجلت فى صورتها التى نشرت فى يناير ، أن أعطيت الكانتونات أسماء « عرقية » على الخرائط ، رغم أن هذا الأمر لم يكن منصوصا عليه فى صورتها الأصلية ، كما أنها أوحت فى نفس الوقت بأن الحدود الدقيقة على الخرائط ليست مع ذلك نهائية بعد . الأمر الذى جدد التنافس على احتياز الأرض . على أنه مما يزيد الطين بلة ، أن الخطة كانت تستنفر التنافس بين القوات الكرواتية والمسلمة ، على أجزاء من وسط البوسنة ، التى يعيش فيها خليط من السكان المسلمين والكرواتيين . وهنا تكون هذه ، بعد قرار حظر الأسلحة على المسلمين ، ثانى أهم مساهمات الغرب التى أسداها فى سبيل تدمير البوسنة ، اذ أنها وضعت أسسا لتطوير حرب أهلية حقيقية ، واذ فعلت ذلك ، فانها قصمت ظهر التحالف الكرواتى المسلم ، الذى كان الحاجز الوحيد الذى يوقف الصرب عند حدهم .

وكما رأينا آنفا ، كانت هناك توترات بالفعل بين المسلمين البوسنيين وزعماء الكروات . ففى سبتمبر ١٩٩٢ ، ظهر تقرير بأن الزعيم الكرواتى ماتى بوبان كان يحض قوات مجلس الدفاع الكرواتى على أن يكفوا عن

مساعدة قوة الدفاع البوسنية ، في محاولاتها كسر الحصار حول سراييفو (٣٣) • وحدثت في أكتوبر بعض مناوشات بين الميليشيات المسلمة والكرواتية في ترافنيك وبروزور ، كما حدث تبادل من مرير اللوم بين الجانبين حول سقوط يايسه في أيدي الصرب • ولكن حتى الآن لم يكن هناك أي قتال واسع المدى بينهما ، كما أن التحالف العام ظل قائما • ولم يلبث ذلك الموقف أن تغير تدريجيا بتأثير خطة فانس ـ أوين في أوائل ١٩٩٣ • وفي فبراير حوصرت القوات المسلمة في جورني فاكوف بواسطة قوة جند مجلس الدفاع الكرواتي ، وفي المنطقة بين فيتيز (Vitez) وكيسيلياك (Kiseljak) (وهي منطقة خلاف على خريطة فانس ـ أوين) اشتبك كل من المسلمين والكروات في قتال وصفه تقرير بأنه « تطهير عرقي مستقل » (٣٤) • وفي أوائل أبريل ، وقعت اشتباكات من القتال الثقيل بين المسلمين والكروات بمنطقة ترافنيك ـ فيتيز ـ زينيكا في وسط البوسنة (٣٥) • وأصدر مندوب هيئة الأمم المتحدة لشئون حقوق الانسان ، تادوتس مازوفيسكي (Tadeusz Mazowiecki) تقريرا في الشهر التالي ، محذرا بوضوح أن خطة فانس ـ أوين كانت تثير عملية التطهير العرقي ، ولكن سبق السيف العذل (٣٦) •

واجتمع الأثر المزدوج لحظر توريد الأسلحة ، وخطة فانس ـ أوين ، فأضعف بصورة قاتلة كل المقاومة العسكرية ضد الصرب • وحتى وقت متأخر هو يناير ١٩٩٣ ، كانت تنشر تقارير عن صد القوات الصربية على أعقابها بمناطق عديدة ، وبخاصة في منطقة براتوناك في وادي درينا (٣٧) • بيد أن نقص الذخائر كان قد أخذ بدرجة خطيرة في تعويق قوات الدفاع البوسنية • وفي الشهور الأولى من ١٩٩٣ ، صعدت القوات الصربية بدرجات واضحة حملتها على عدد من الجيوب المسلمة المحاصرة داخل المنطقة التي غزاها الصرب بشرق البوسنة • وعلى الرغم من مبادرات أجيد تدبيج الدعاية لها بقلم القائد العام لقوات الأمم المتحدة وهو الجنرال موريليون وبقلم القوات الجوية الأمريكية التي كانت تسقط عليها الامدادات والأغذية بالمظلات ، فان هذه الجيوب لم تستطع أن تصمد طويلا • وهنا انقلبت سربرينيكا ، التي كانت في أخريات العصور الوسطى أعظم مدن البلقان الغربية رغدا لاحتوائها على عمال مناجمها الألمان وتجارها الراجوزيين ورهبانها الفرنسيسكان ، الى معسكر عملاق للاجئين التعساء • أما زيبا (Zepa) ، فانها لما دخلها المراقبون الأجانب ، وجدوها مهجورة : فعندما نفدت ذخيرة المدافعين عنها ، فر سكانها الى التلال المطلة عليها وعاشوا في الكهوف على المئونة التي كانت الطائرات الأمريكية تسقطها عليهم (٣٨) •

وتحت هذا الضغط العسكرى ، تحركت الحكومة البوسنية ، خلال مارس وأبريل ، نحو تقبل خطـة فانس ــ أوين · اذ تيقنت علم اليقين يومئذ ، بانقطاع الأمل فى أن يزيل الغـرب السبب الأسـاسى فى ضعف البوسنة العسكرى ، وهو حظر الأسلحة عن البوسنة : وقد عبرت كل من الحكومتين الأمريكيـة والألمانيـة بايجاز مختصر عن استقرار نيتهما على الغائه ، ولكن سـعى دوجــلاس هيرد المجدد لديهما أقنعهما بأن يغيرا رأيهما (٣٩) · وحتى التدخل الصريح الواضح من جانب الليدى تاتشر فى التليفزيون البريطانى والأمريكى فى منتصف أبريـــل ، لم يستـطع أن يهز سياسات "كل من حكومتى هاتين الدولتين · وكانت الحكومة البريطانية بوجه خاص مفتونة بخطة سلام فانس ــ اوين ، ولا تقبل مطلقا النظر فى أى تغيير أو حركة ، يمكن أن تعرض هذه الخطة للخطر · والأمر فى تلك المرحلة لم يكن يحتاج الى أى نوع من الفراسة للقول « بأنه حتى الأعمى كان يرى ان خطة فانس ــ أوين لايمكن تنفيذها على الاطلاق » (٤٠) ·

والطريقة الوحيدة التى كانت تستطيع بها خطة فانس ــ أوين أن تحصل ولو على قبول رمزى من الصرب ، هى أن تكون محطة على طريق الانفصال الكامل للمناطق التى غزاها الصرب · على هذا الأســـاس قام رادوفان كاراجيتش ، بتشجيع من سلوبودان ميلوشيفيتش ، بالتوقيع على الخطة فى اجتماع خاص عقد فى أثينا فى الثانى من مايو ١٩٩٣ · وموقف صربيا هذا ، شرحه دراجوسلاف راتشيتش ، وهو المتحدث الرسمى لداعية القومية الصربية دوبريكا تشوسيتش (الذى كان قد أصبح رئيسا لصربيا والجبل الأسود) ، بقوله : « انها مجرد المرحلة الأولى ، وانها لن تدوم طويلا · وانه حتى اللورد أوين نفسه لا يؤمن بها » · وأضاف الى ذلك قوله ان المسلمين سيجدون فى النهاية أنهم يعيشون فى معازل كالسود فى جنوب أفريقيا » · وأن الصرب سيحصلون على كل شىء يريدونه (٤١) · ومع هذا فان كثيرا من سياسيى وقادة صرب البوسنة كانوا يعتقدون بأنهم مستطيعون ان يحصلوا على ما يشاؤون دون أن يكلفوا أنفسهم باتباع خطة فانس ــ أوين · وكانت المعارضة قوية بوجه خاص من أولئك السياسيين الصرب ، الذين أصبحوا فى واقـع الأمـر الحكام الشخصيين لاقطاعيات أضخم حجما ، ولا يرغبون أن تقتطع سلطتهم بأى تدخـــل ادارى (٤٢) · فرفضوا الخطة التى وقعها كاراجيتش فى أثينـــا ، ونظموا استفتاء فى الخامس عشر من مايو تمكنوا بفضله من اقناع الجنود والفلاحين الصرب أن يرفضوها أيضا · وعضد موقفهم هذا ، الجنرال ملاديتش ، الذى يبدو أنه كان على خلاف مع ميلوشيفيتش حول هذا التكتيك · وظل ميلوشيفيتش بضعة أيام وهو يصر علنـا على أنه سيغلق الحدود بين صربيا والبوسنة ،

ولكنه رفض أن يسمح للمراقبين الدوليين بأن يرصدوا الحدود • وفي مدى أسبوعين عاد فيض المؤن والامدادات سيرته الأولى (٤٣) •

على أن شهادة الوفاة النهائية للبوسنة كتبت يوم ٢٢ مايو في واشنطن في اجتماع عقد لوزراء خارجية بريطانيا وروسيا وفرنسا والولايات المتحدة • والآن أسقط تماما كل حديث عن الضربات الجوية الذى استخدم تهديدا للصرب أثناء التمهيد لعقد اجتماع أثينا • بل ان فكرة فرض خطة فانس ــ آوين بالقوة قد نبذت تماما هى أيضا • وتقرر بدلا من ذلك أن يسمح لبقايا المليونين من مسلمى البوسنة بالتجمع فى عدد مما يدعى « بالمناطق الآمنة » ، حيث لا يضمن أحد فى الواقع سلامتهم: نعم انهم سيستمتعون بحراسة قوات الأمم المتحدة الذين كان يخول لهم حق أن يردوا على اطلاق النار ، ليس عند اطلاق النار على المسلمين ، بل عندما يتعرضون هم أنفسهم (أى جنود الأمم المتحدة) لأى هجوم (٤٤) • وعندما سمع الرئيس عزت بيجوفيتش بأخبار هذه الاتفاقية ــ حيث لم يكلف وزراء الخارجية أنفسهم مشقة مجرد استشارته فى الأمر ــ أصدر البيان التالى :« اذا لم يكن المجتمع الدولى مستعدا للدفاع عن المبادىء ، التى سبق وأعلن أنها أساساته ، فليقل ذلك صراحة ، لكل من شعب البوسنة وشعوب العالم بأجمعها • وليعلن معيارا جديدا للأخلاقيات تكون فيه القوة العاتية هى أول وآخر حجة » (٤٥) • وفى أثناء شهور الصيف التالية ، أقدم الذين يمارسون تلك الحجة ــ وهم سلوبودان ميلوشيفيتش وفرانيو توجمان واللورد أوين ، على وضع مشروعات خطط أشد فجاجة وأكثر انكشافا وعريا ، فى تعاقب صفيق ، لتقسيم البوسنة الى ثلاث دول• وسواء أتم الاحتفاظ بورقة التوت ، المسماة دولة البوسنة الكونفيدرالية الشاملة ، أم لم يتم الاحتفاظ بها ، فأمر لا يكاد يستحق أى اعتبار • فان كل شكل لتلك الخطة لابد أن يخلق دولة مسلمة على غرار معازل جنوب أفريقيا لا يمكن العيش فيها ، وهى تسوية لن يقبلها حتى أكثر الجنود المسلمين ابتعادا عن التراث الاسلامى ومثل هذا المطمع ، بكل ما يحويه من عدم استقرار طويل المدى يسببه أى استقطاع من أراضى البوسنة ، وصفه اللورد أوين بأنه « ليس حلا مثاليا » ولأجل أن نكون أكثر دقة ، فهو ليس حلا على الاطلاق •

★★★

ولو نظرنا خلفا واستعرضنا تاريخ هذه الحرب ، لوجدنا أن الأسباب الحقيقية لتدمير البوسنة لم تكن تجىء من الداخل ، وانما من خارج البوسنة نفسها • كما أنها جاءت على هذا الوجه مرتين متتاليتين : فجاءت أولا فى صورة السياسات الاستراتيجية التى اتخذتها زعامة الصرب ،

ثم جاءت ثانية في صـورة سوء الفهم والتدخـل الأخرق من قبـل زعماء الغرب • ومع هذا فان كل مشـاهد نظر بباصرتيـه الى تلك الفظائع التى لايتصورها عقل ، والتى ارتكبت أثناء تلك الحرب • (وهى فظائع ارتكبت فى المقام الأول ، وبدرجة فاحشـة جـارفة على المسلمين والكروات ، ثم عادت فعدت على الصرب أيضا) ، لا يسعه أحيانا الا التعجب والتساؤل : الا ينطوى سكان البوسنة فى مجموعهم على شىء من الذهان العقلى انتهى فى خاتمة المطاف الى الظهور على السطح ؟! • فلن يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت هنـــاك بعض الممارســات البشعة ، كالتمثيل بالقتـلى ، وهو تقليد قديم يرجع الى أيام الحروب الأولى وتحدثنـا عنـه المرويات الشعبية ، والقصص التى تحكى عن المارتولوس المخيفين فى القـــرن السادس عشر • وكان لايزال هناك فى البوســنة رجال أحيـاء مسنون يستطيعون تذكر هذه الفظائع وأمثالها منذ عهد الحرب العالمية الثانية • ولكن الظن بأن هذه الحرب البوسنية انما تعتبر ضربا تلقائيا من مواصلة الحرب الاهلية العرقيـة التى شـهدتها يوغوسلافيا أيام الحرب العالمية الثانية ، فكأنما هو ضرب من تلاوة جديدة لذلك السيناريو الذى أعده كل من كاراجيتش وميلوشيفيتش •

ان فظائع البوسنة فى ١٩٩٢ ، لم يكن يرتكبها كهول ، ولا حتى شبان يريدون اثارة الأحقاد الدفينـة ولبدة الحرب العالمية الثانية • وقد بدأ النموذج بأفراد عصابات من شبان من سكان المدن يضعون على أعينهم نظارات شمس غالية الثمن ، وينطلقون من صربيا ، ونعنى بهم أفراد القوات شـبه النظامية أو الميليشيات التى جندها أركان وغيره ، وبالرغم من أن الأفراد الذين يرتكبون هذه الأعمال البشعة ربما كانوا يحصلون منها على لذة سادية ، فان كل ما كانـوا يفعلونه هو تنفيذ استراتيجية عقلانيـة مدروسة ، يمليها عليهم قادتهم السياسيون ـ وهى استراتيجية محسوبة بعناية وحرص كامنين ، لدفع مجموعتين عرقيتين من السكان خارجـا ، وتعبئة مجموعة ثالثة بالتطرف حتى جذورها • ذلك أنى بعد أن تجولت فى جميع أنحاء البوسنة أمد خمسة عشر عاما ، أقمت بقرى مسلمة وكرواتية وصربية ، فانى غير مستطيع أن أصدق الادعاء القائل بأن ذلك القطر ظل منذ الأزل وسيظل الى الأبد ، يغلى بالكراهية والبغضاء العرقية • ولكنى بعد أن استمعت وشـاهدت راديو وتليفزيون بلجـراد فى المدة بين ١٩٩١ و ١٩٩٢ ، أستطيع أن أفهم لماذا أصبح الصربى البوسنى البسيط يعتقد أنه معرض للتهديد من جحافل الأوســتاشا ، ومن الأصـــوليين المسلمين أو غيرهم • والأمر انما هو كما وصـفه الصحفى البلجرادى المستقل ، ميلوش فاسيتش ، أمام جمهور من الأمريكيين : كأنما استولت

جمعية الكوكلوكس كلان على جميع المحطات التليفزيونية : « تصـــوروا ولايات متحدة وقد اتخذت كل محطـة تليفزيونيـــة نفس خط الاذاعه والتحريض ـ الذى يمليه دافيد ديوك • فلو تم ذلك لنشبت الحرب فى بلادكم فى مدى خمس سنوات » (٤٦) • على أنه ربما كان خير تعليق على تكتيكات ميلوشيفيتش وكاراجيتش وعلى ما أحـرزاه فى البوسـنة من انجـازات ـ هو مئة وخمسين ألف قتيـل ، وأكثـر من مليونى نازح من ديارهم ، وقرى بل مدن بأكملها تحرق حرقا وتنهب ، وعدة مئات من المساجد والكنائس تنسف عمدا ـ ذلك كله حكم من مؤرخ آخر على خلة موروثة فى الدم لقطر آخر :

وكان على البلشفيك ـ شـــأن الدعـــاة فـى رواية دستويفسكى (الممسوس) ـ أن يسفكوا الدماء لكى يحكموا الرباط بين أتباعهم المترددين بحبل متين من الذنب الجماعى • فكلما زاد عدد الضحايا الابرياء الذين ضمهم الحزب الشيوعى الى شـعوره ووعيه لاثمـه ، زاد يقين الأفراد العاديين مـن البلاشفة بأنه ليس هناك أى مجـــال للتراجع ولا التردد ، ولا المساومة ولا الحلول الوسط ، وأنهـم مرتبطون ارتبـاطا لا فكاك منه الى زعمائهم ، وليس أمامهم ثمة طريق الا السير معهـــم قدما الى « النصر النهـــائى » بغض النظـــر عـن الثمن (٤٧) •

معجم توضيحى

هذه القائمة بالمعجم التوضيحى تحوى المصطلحات التى يكثر وجودها فى ثنايا الكتاب. فحيثما ذكرت أكثر من صورة لنفس الكلمة استخدمنا هنا حرفى ت و ك للدلالة على التركى والصربوكرواتى على الترتيب.

اتحاد الدفاع الكرواتى H.O.S.، وهو قوة كرواتية غير نظامية.

الاتحاد الديمقراطى الكرواتى H.D.Z.، وهو الحزب الوطنى الكرواتى برئاسة فرانيو توجمان فى كرواتيا، الذى نشأ منه فرع فى البوسنة يقوده ستيبان كليوينتش أولا، ثم تزعمه ماتى بوبان.

آجان Agan: موظف وإدارى محلى منتخب.

أسبر Asper: وحدة نقدية عثمانية، وهى عملة معدنية كانت فى الأصل تحتوى على ثلاثة جرامات من الفضة، ولكنها تعرضت لتخفيضات كثيرة فى القيمة (إلى أقل من جرامين فى منتصف القرن السادس عشر، وأقل من جرام واحد عند عام ١٦٠٠).

أغا Aga: المعنى الأصلى: السيد أو المولى، أو الضابط الإنكشارى/ الكبير. والمعنى الأول فى التاريخ البوسنى هو السّرى مالك الأرض الذى ينتسب إلى الطبقة السرية الأخفض فى طبقتى ملاك الأراضى.

أغالوك Agaluk: المعنى الأصلى فى التاريخ البوسنى: الأرض المملوكة لأحد "الأغاوات" (حيث كانت علاقات صاحب الأرض بالفلاح يحكمها القانون الإقطاعى التقليدى). والمعنى الخاص: قسم أو مقاطعة أرضية من البوسنة يحكمها "أغا".

أفلاقى (فلاتش) Vlach: أحد سلالة سكان البلقان المُرَمَّنين، قبل السلافيين.

أوستاشا Ustasha: الحركة الوطنية الإرهابية المتطرفة التى يتزعمها أنتى بافليتش، وهى التى تسلمت السلطة فى "دولة كرواتيا المستقلة".

إمام Imam: الذى يؤم المسلمين فى الصلاة.

إنكشارى Janissary: جندى عثمانى، كان فى الأصل يجند رقيقاً للسلطان من خلال "الدوشرمة"، ولكن منذ منتصف القرن السابع عشر كان يجند من بين المسلمين العاديين.

إيالة Eyalet: الولاية فى الإمبراطورية العثمانية (وهى أعظم قسم إدارى فى الدولة، يقابل قطراً عصرياً أو أكثر من قطر).

باتارين Patarin: مصطلح استخدمه الراجوزيون والإيطاليون للإشارة إلى أعضاء الكنيسة البوسنية، (ويستخدم فى إيطاليا أيضاً للدلالة على الكاثاريين الإيطاليين).

باشا Pasha: اسم عام يطلق على الحاكم العام للمنطقة.

باشالوك Pashaluk:المنطقة التى يحكمها الباشا.

بان Ban: مصطلح كرواتى، استخدم أيضاً فى البوسنة القروسطية، للدلالة على الحاكم. وأعيد استخدامه فى ١٩٢٩، عندما قسمت يوغوسلافيا إلى "بانوفينات"، يحكم كل منها "بان".

باندور Pandur: الجندرمة، رجل ميليشيا محلى.

بانوفينا Banovina: منطقة يحكمها أو يديرها "بان".

بك أو بج Beg: سيد أو سرى أو مالك أرض، ينتمى إلى الطبقة الأعلى من طبقتى ملاك الأراضى.

بكلر بك Beglerbeg (ك)، أو بلربك Beylerbeyi (ت): أعلى طبقة فى رتبة باشا، وهو الوزير أو حاكم البوسنة.

بكليك Beglik: الملكية التى يملكها "بك" (حيث لم تكن القوانين الإقطاعية التقليدية تهيمن على علاقات السيد صاحب الأرض بالفلاح).

بوتور Potur: الفلاح السلافى العادى فى البوسنة الذى هدى للإسلام (ولعلها مشتقة من الكلمة التركية "بوتور" ومعناها ضرب من السراويل التى يرتديها أولئك الفلاحون).

بوجوميل Bogomil: المثنوى البفغارى الهرطيق فى العصور الوسطى.

بوسانتشيكا Bosantchica: هو الخط الذى كان يستعمل فى البوسنة القروسطية، وهو مرتبط بالخط السيريليكى ولكنه مختلف عنه.

بيزستان Bezistan: سوق الأقمشة أو السوق المسقوفة.

تشيتنيك Chetnik: مصطلح صربى تقليدى للمقاتل غير النظامى أطلق على القوات بقيادة دراجا ميهايلوفيتش فى الحرب العالمية الثانية، يستعمل عادة للإشارة إلى كل غير النظاميين من الجند الصربيين المقاتلين فى الهرسك والبوسنة فى ١٩٩٢-١٩٩٣ (كما يستخدم بنوع خاص جدا للإشارة إلى غير النظاميين الصربيين بقيادة فويسلاف شيشيلى).

تشيفتليك Chiftlik: مزرعة كبيرة خاصة.

تريتينا Tretina: تسديد موالى الأرض ثلث المحصول إلى مالك الأرض.

تيمار(ت) Timar: مزرعة إقطاعية.

تيماريوت Timariot: حائز التيمار.

التكية Tekke: محل إقامة الدراويش.

جد Djed: هو رئيس الكنيسة البوسنية ومعناها الحرفى "الجد أو أبو الأب".

جروشن أو غروشن Groschen: وحدة عملة نمساوية.

جرينتسر Grenzer: جندى نمساوى مجرى لحراسة الحدود، ساكن بمنطقة التخوم التى تحد الإمبراطورية العثمانية.

الجزية Gizye: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين.

جوبا Djupa: قسم إدارى فى الفترات السلافية الأبكر عهداً.

الجوبان Djupan: حاكم الجوبا.

جوست Gost: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (ومعناها الحرفى هو "المضيف").

الحِجة Hidja: بيت ديرى يتبع الكنيسة البوسنية.

حزب الحركة الديمقراطى .S.D.A ، وهو الحزب الذى يقوده على عزت بيجوفيتش.

حزب الصرب الديمقراطى .S.D.S ، وقد ألف أولاً فى منطقة كينين فى كرواتيا. ثم أعيد تكوينه فى البوسنة، حيث كان زعيمه هو رادوفان كارادجيتش بإشراف سلوبودان ميلوشيفيتش فى بلجراد.

حمام Hammam: هو الحمام التركى.

الخراج Harag: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين (وهى فى الأصل ضريبة الأراضى، ولكنها مزجت مع الجزية لتشكل ضريبة رؤوس متدرجة).

دفتر Defter: سجل الضرائب.

دوشرمة Devshirme: جزية الصبيان، وهى جمع الصبيان الذكور المسيحيين لكى يحولوا إلى الإسلام ويصبحوا إنكشارية وموظفين إمبراطوريين.

"**دولة كرواتيا المستقلة**" .N.D.H، وهى الدولة الألعوبة التى كانت تشتمل على معظم كرواتيا والبوسنة ١٩٤١-١٩٤٥.

رئيس العلماء Reis ul-ulema: كبير أو شيخ الجماعة الإسلامية الدينية.

رعية Raya: وهى فى الأصل الشعوب الخاضعة غير العثمانية (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين)؛ وفى القرن التاسع عشر أصبح معناها على العموم الرعايا المسلمين فقط.

سباهى Spahi: الخيال أو الفارس.

ستارك Starac: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (معناها الحرفى "الأكبر سناً")

ستروينيك Stroijnik: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية. (معناها الحرفى "الساقى").

ستيتشاك Stetchak (الجمع ستيتشى Stetchi): شواهد قبور بوسنية من العصور الوسطى.

سنجق بك Sandjak-beg: حاكم السنجق.

السنجق Sandjak: أكبر قسم فى "إيالة". وهو فى الأصل يدل على منطقة عسكرية.

شريعة Sheriat: القوانين الإسلامية.

عهدنامة Ahd-name: منحة من السلطان بامتياز ما.

فوينوك Vojnuk: قاطع الطريق أو جندى مشاة مسيحى (سواء أكان صربيا أو أفلاقياً).

قابيطان Kapētan: هو فى الأصل مدير عسكرى على منطقة حدود. والمعنى الأصلى لهذه الكلمة فى التاريخ البوسنى: مدير لأحد المناطق التقسيمية فى البوسنة، وله سلطات واسعة جداً، ووظيفته وراثية.

القابيطانية Kapetanija: المنطقة التى يحكمها "قابيطان".

قاضيزاديـة Kadizadeler: أعضـاء فـى فرقـة إسـلامية شـديدة التمسـك بالأصولية.

قاضيلوكية Kadiluk: المنطقة التى تقع فى منطقة اختصاص "قاض".

قـانون الرعيـة Kanun-i raya: مجموعـة القوانيـن التقليديـة المطبقـة علـى "الرعية".

كارافلاق Karavlach:غجرى من أصل رومانى فى البوسنة.

كازا Kaza: انظر "قاضيلوك".

كايماك Kaimak: مدير يقوم بدور الممثل العسكرى للوالى.

كراجينا Krajina: منطقة حدودية.

كريستيانى (أى مسيحى) Kristian: مصطلح استخدم فى السـجلات العثمانيـة للدلالة على العضو العادى فى الكنيسة البوسنية.

كريستيانين (أى مسيحى) Krsjanin: عضـو ديرى فـى الكنيسـة البوسـنية. ومعناها الحرفى مسيحى).

كميت Kmet: مولى أرض أو فلاح.

مـارتولوس Martolos: مسـيحى محلـى (سـواء أكـان مـن الأفـلاق أو الصربيين). من قطاع الطرق من البيادة أو المشاة.

المانويين Manichaean, Manichee: وهم فى الأصل من أتباع مانى، معلـم المعتقد المثنوى غير المسيحى فى القرن الثالث. ثـم أصبـح يسـتخدم فيمـا بعـد مصطلحاً يطلق على الهراطقة المثنويين فى المسيحية.

مجلس الدفاع الكرواتى H.V.O.، وهو المنظمة العسكرية التى أقامها "الاتحاد الديمقراطى الكرواتى" فى البوسنة.

محلة Mahala: قسم صغير من المدينة.

مدرسة Medresa: معهد دراسة الشريعة الإسلامية.

مكتب Mekteb: كتاب ابتدائى إسلامى.

المنظمة البوسنية المسلمة M.B.O، وهى الحزب الذى يتزعمه عادل ذو الفقار باشيتش.

مورلاتش Morlach: نوع الأفلاق المقيم فى دالماشيا، وبخاصة منطقة "الحدود" (الكرايينا) الكرواتية.

موسيلليم Mosselim: مدير يقوم بدور ممثل للحاكم العام.

هازدوك Hazduk: لص أو قاطع طرق، أو محارب حرب عصابات.

هاس Hass: مزرعة إقطاعية ضخمة.

وزير Vizier: أعلى رتبة فى المديرين والموظفين فى الإمبراطورية العثمانية.

الوقف Vakuf: هو المؤسسة الدينية الخيرية، التى تحبس الأرض إلى الأبد على أعمال الخير.

الولاية Vialet: القسم الكبير من الإمبراطورية العثمانية (التى حلت محل "الإيالة" فى ١٨٦٤).

الهوامش

الفصل الأول: الأجناس والأساطير والأصول: البوسنة حتى ١١٨٠

١- خير استعراض عصرى للبينات الأثرية والتاريخية واللغوية هو كتاب ويلكس Wilkes, Illyrians. انظر أيضا ستيبتشيفيتش Stipcevic, Illyrians ؛ وروسو Russu, *Illırii*؛ وستادموللر Stadmuller, *Forschungen zur albannischen Fruhgeschichte*.

٢- ويلكس، Illyrians، ص ٢٤٤؛ وستيبتشيفيتش، Illyrians، ص ١٣٧.

٣- ويلكس، Illyrians، صفحات ٢٠٥-٢١٣.

٤- انظر ويلكس *Dalmatia*، صفحات٢٦٦-٢٨٠؛ و*Gıschichte Bosniens*، صفحات ٤٨-٤٩؛ وييريتشيك Jirecek، فى *Die Handelsstrassen*؛ وميللر، فى *Essays on the Latin Orient*.

٥- ماركوتيتش Markotic، 'Archaeology'، صفحات ٤٥-٤٦.

٦- آلفولدى Alfoldy، *Bevolkerung der Provinz Dalmatien*، صفحات١٨٤-١٨٨.

٧- ديو كاسيوس Dio Cassius، الذى أخذ عنه ويلكس فى كتابه Illyrians ، ص ٢٦٠.

٨- ستيبتشيفيتش، Illyrians ، ص ٨٠.

٩- درهام Durham، *Some Tribal Origıns*، ص ١٠٢. انظر أيضا تروهيلكا Truhelka، 'Die Tatowirung'.

١٠- انظر ستيبتشيفيتش، Illyrians ، ص ٢٤١، عن النظرية حول الموسيقى المتعددة الأصوات التى طورها عالم الموسيقى الإثنولوجية السراييفى سفيتكو ريتمان Cvjetko Rihtman. ولا تذكر المصادر الكلاسيكية إلا مجرد أن الإلليريين كانوا مغرمين بالموسيقى.

١١- لإطلاق مصطلح 'الإلليريين' على السلافيين الجنوبيين تاريخ طويل، يعود إلى الكتاب الإنسانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى: انظر هاجياهيتش Hadzijahic ، 'Die Anfange der nationalen Entwicklung'، صفحات ١٧١-١٧٢.

١٢- ستادموللر، Geschichte Sudosteuropas، ص ٢١.

١٣- عن موضوع *Lıbellus Gothorum*، انظر المقدمة التى كتبها فيردو شيشيتش Ferdo Sısic، لترجمته للمدونة *The Chronıcle, Letopis popa Dukljanına*، وييريتشيك فى *Istorıja Srba*، المجلد الأول، صفحات ١٦٦-١٦٧. ونص المدونة مطبوع فى فون شواندنر von Schwandner, *Scrıptores rerum hungarıcarum*، المجلد الثالث، صفحات ٤٧٦-٥٠٩؛ انظر صفحات ٤٧٦-٤٧٧ عن هجرة القوط.

١٤- أوربينى *Il Regno de gli Slavi*، ص ٩٧. وعن أوربينى انظر رادويتشيتش Radojcic, *Srpska istorija Mavra Orbinija*، صفحات ٥-١١؛ وعن 'القوطية' فى عمله وأعمال غيره من الكتاب الراجوزيين، انظر زلاتار Zlatar, *Our Kingdom Come*، صفحات ٣٦٥-٣٧١. ولابد أن نظرية أوربينى قد لاحت بعيدة الاحتمال حتى فى ذلك الوقت، ولكنها لا بد أن تقدم فى سياق النظريات الأخرى لتلك الفترة التى كانت تنسب فحولة أو أهمية للأجناس الجرمانية-الاسكندنافية. وكان العلامة الهولندى جروتيوس Grotius يذهب إلى أن الأجناس الأصلية بأمريكا الشمالية كانت اسكندنافية أصلاً؛ وادعى المنظر الفلمنكى جوربيوس بيكانوس Goropius Becanus أن الألمانية كانت اللغة المستخدمة فى جنة عدن.

١٥- راجيتش Radzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٧٢. (وادعت المذكرة كذلك، أن تسعين بالمئة من البوسنيين شقر الشعر). كما أن ادعاءات مماثلة ذكرت عن الكروات بواسطة أنتى بافيليتش فى ١٩٤١: Didijer *et al.*, *History of Yugoslavia*، ص ٥٧٧.

١٦- كوفاتشفيتش Kovacevic, *Istorija Crne Gore*، صفحات ٢٨٢-٢٨٨.

١٧- ماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٤٩. وقد استمرت مملكة آفارية صغيرة قائمة فى بانونيا (المجر الجنوبية) حتى قضى عليها شارلمان نهائياً فى تسعينيات السبعمئة.

١٨- آنديليتش Andjelic، 'Periodi u kulturnoj historiji'، ص ٢٠٠.

١٩- مالينجوديس Malingoudis، *Slavoi ste mesaionike Ellada*، ص ٣٩.

٢٠- يوجد فى الواقع بيانان مختلفان حول تلك الأحداث فى كتاب قنسطنطين. انظر المناقشة فى كتاب فاين Fine. *Early Medieval Balkans*، صفحات ٤٩-٥٩.

٢١- روستوفتسف Rostovtsef, *Iranians and Greeks*، صفحات ١٣٥-١٤٦.

٢٢- كاولفوس Kaulfuss, *Die Slawen*، صفحات ٦-٩.

٢٣- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، ص ٦٠.

٢٤- فاين، *Early Medieval Balkans*، ص ٥٦.

٢٥- أوبولنسكى، Obolensky. *Byzantine Commonwealth*، ص ١٣٦؛ وجولدسكو Guldescu, Political History، ص ٨٦.

٢٦- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، صفحات ١٤٠-١٤١. وعن موضوع *zadruga* انظر سيكارد Sicard, *La Zadruga sud-slave*، وبيرنس Byrnes. ed. *Communal Families in the Balkans*.

٢٧- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، صفحات ١٦٥-١٦٨؛ وماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٥٢.

٢٨- دفورنيك Dvornik، *Byzantine Missions to the Slavs*، صفحات ٩-٢٠.

٢٩- تشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*، صفحات ١٣٣-١٣٤.

٣٠- هاجياهيتش Hadzijahich, 'Sinkretisticki elementi'، صفحات ٣٠٤-٣٠٥ (قمم الجبال)، صفحات ٣٠٩-٣١٣ (أسماء الآلهة).

٣١- أنديليتش Andjelic, 'Periodi u kulturnoj historiji'، صفحات ٢٠٢-٢٠٣.

٣٢- فاين ، Early Medieval Balkans ، صفحات١٥٩، و٢٦٢-٢٦٥؛ أوبولنسكى، Obolensky, Byzantine Commonwealth ، صفحات ١٥٩-١٦٠.

٣٣- قنسطنطين بورفيروجينيتوس ، De administrando imperio ، ص ١٦٠ ('kai eis to chorion Bosona to Katera kai Desnek'). ومن المحتمل أن ديسنيك المذكورة هى ديسنيك العصرية (على الرغم من أن بيريتشيك ظن إنها تيشانى Tishani الواقعة على نهر أوسورا Usora)، وكاتيرا هى فى الغالب قرية كوتور أو كوتوراك العصرية، بالقرب من سراييفو: انظر بيريتشيك، Die Handelsstrassen، صفحات ٢٩-٣٠؛ وسكاريتش Skaric, Sarajevo i njegova okolina ، ص ٣٢؛ وتشوروفيتش Corovic, Historija Bosne، ص ١١٢.

٣٤- فاين، Early Medieval Balkans ، صفحات ٢٠١ و٢٧٨-٢٨٠؛ أوبولنسكى، Obolensky, Byzantine Commonwealth، صفحات ٢٨٧-٢٨٨.

٣٥- فاين، Early Medieval Balkans ، ص ٢٨٨.

٣٦- كيناموس Cinnamus, Epitome ، ص ١٠٤، (الكتاب الثالث، الفصل السابع).

٣٧- أنديليتش Andjelic 'Periodi u kulturnoj historiji' ، صفحات ٢٠٤-٢٠٥.

٣٨- تشيركوفيتش Cirkovic, 'Die bosnische Kirche' ، صفحات ٥٤٧-٥٤٨.

٣٩- تشوروفيتش Corovic, Historija Bosne، ص ١١٣؛ و د. مانديتش D. Mandic, Etnicka povijest Bosne ، ص ٣٣.

الفصل الثانى: الولاية البوسنية القروسطية ١١٨٠-١٤٦٣

١- تروهيلكا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen' ، ص ٧٢؛ فاين، Late Medieval Balkans ، صفحات ١٨-٢١.

٢- يذكر أوربينى محاولة أخمدت فى مهدها خلال حكم ستيفن كوترومانيتش: Regno de gli Slavi ، صفحات ٣٥٤-٣٥٥.

٣- ميللر Essays on the Latin Orient ، ص ٤٦٨؛ والمثل المأثور: 'عادت أيام بان كيولين'، سجله أيضاً أوربينى فى ١٦٠١ : Regno de gli Slavi ، ص ٣٥١.

٤- ميللر Essays on the Latin Orient ، ص ٤٦٨؛ كوكيل Coquelle, Histoire du Montenegro، ص ٨٢.

٥- انظر الخطاب الذى أرسله فولكانوس من زيتا (فيوكان) Vulcanus of Zeta (Vukan) إلى البابا إينوسنت الثالث فى سبتمبر ١١٩٩، فى Fermendzin,ed., Acta Bosnae، ص ٥.

٦- فاين، Late Medieval Balkans ، صفحات ١٨،٤٣-٤٧؛ وعن تحليل مفصل عن مجلس بولينو بوليى، انظر فاين، Bosnian Church ، صفحات ١٢٦-١٣٤. وواقعة الارتداد مطبوعة فى مينج Minge, ed , Patrologia latina، المجلد ٢١٥، عامود ١٥٣-١٥٥.

٧- Fermendzin, ed., Acta Bosnae ، صفحات ٨-١١.

٨- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ١٤٤-١٤٥. ويحدد البروفيسور فاين هذه بأنها مدينة فرهبوسنا (سراييفو العصرية)؛ ولكن الإشارة بالتأكيد لمنطقة فرهبوسنا، حيث إن المدينة لم تكن وجدت بعد. وهناك تقرير فى ١٢٤٤ يذكر أن 'جوبا' فرهبوسنا كان مركزها فى مدينة بردو Brdo، التى كانت مقر حكم البان والأسقف الكاثوليكى (ومن المحتمل إنها قرية بان بردو Ban-Brdo العصرية): انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen*، ص ٣١.

٩- فاين، *Late Medieval Balkans* ، ص ١٤٦.

١٠- فاين، 'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary'?

١١- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٧٣؛ فاين، *Late Medieval Balkans*، ص ١٤٨.

١٢- عن فترة الشوبيتش، انظر تالوزى *Studien zur Geschichte Bosniens* ،Thalloczy، صفحات ٤٦-٤٨.

١٣- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٢٦٥-٢٧٩.

١٤- د. مانديتش D Mandic, Franjevacka Bosna ، صفحات ١٧، ٣٩.

١٥- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢٨.

١٦- فاين، *Late Medieval Balkans* ، ص ٢٨١.

١٧- المرجع السابق، صفحات ٢٨١-٢٨٢.

١٨- المرجع السابق، صفحات ٣٦٨-٣٧٠.

١٩- المرجع السابق، صفحات ٣٨٤-٣٨٦؛ كلايتش *Geschichte Bosniens* ،Klaic، صفحات ٢٠١-٢٠٣؛ تشيركوفيتش *Istorija bosanske drzave* ، Cirkovic، صفحات ١٣٥-١٤٠.

٢٠- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٣٩٤-٣٩٨؛ كوكيل Coquelle, *Histoire du Montenegro*، صفحات ١١٣-١١٨.

٢١- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٤٠٨-٤١١؛ إيمرت Emmert, 'The Battle of kosovo'. وعن استعراض موجز عن مأثورات كوسوفو فى الشعر الملحمى الشفوى (الصربوكرواتى والألبانى)، انظر لورد Lord, 'The Battle of Kosovo'.

٢٢- لو بوفييه Le Bouvier, *Le Livre de la description*، ص ٢٢.

٢٣- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٤٥٣-٤٦٩؛ فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢١٠-٢٤١.

٢٤- عن النظرة التقليدية، انظر سكاريتش Skaric, Sarajevo i njegova okolina، صفحات ٣٥-٣٦ (وهى تذهب أيضاً إلى أن فرهبوسنا وهوديجد Hodidjed أخضعت أولاً للأتراك بمقتضى اتفاقية فى ١٤٢٨، ثم ضاعت من أيديهم ثم استعادوها فى ١٤٣٥). وعن النظرة المعدلة، انظر شابانوفيتش Sabanovic, 'Pitanje turske vlasti'. ويصف شابانوفيتش التطورات فى تلك المنطقة فى 'Bosansko krajiste'.

٢٥- تالوزى Thalloczy, *Studien zur Geschichte Bosniens* ، صفحات ١٤٦-١٥٩؛ فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٥٧٧-٥٧٨.

٢٦- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢١١.

٢٧- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٣٢-٣٣٣. والمؤرخون السابقون (مثل ميللر *Essays on the Latin Orient*، ص ٤٨٥) أخطئوا فى تفسير هذا الدليل، حيث ذكروا أن عدد اللاجئين كان أربعين ألفاً بدلاً من أربعين فقط.

٢٨- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٥٨٣-٥٨٤ (موجهاً للبابا)؛ Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢٥٢ (موجهاً إلى البندقية).

٢٩- Lachman, ed., *Memoiren eines Janitscharen* ، صفحات ١٣٩-١٤٠. واستطاعت أرملة الملك، الملكة كاتارينا، الفرار إلى روما؛ وتوفيت هناك فى١٤٧٨، ولا تزال مقبرتها تشاهد إلى يومنا هذا فى كنيسة سانتا ماريا فى أراكولى Aracoeli، علـى الكـابيتول: انظـر Thalloczy, *Studien zur Geschichte Bosniens* ، صفحات ١١٠-١٢٠، و J.Turtcinovic, ed., *Povijesno-teolosko simpozij*.

٣٠- ويرجع بيريتشيك تاريخ وصولهم إلى القـرن الثـالث عشـر (*Die Handelsstrassen*، ص ٤٣). ومن المؤكد أن عمال المناجم الساكسون قد وصلـوا إلـى صربيـا حوالـى النصـف الثـانى مـن القـرن الثـالث عشـر: انظـر تاكـاكس Takacs, 'Sachsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien'، على أن أشد الدراسات العصرية لأشغال المناجم فى البوسنة القروسطية، لا تستطيع أن تجد بينـة وثائقيـة أقدم مـن ١٣١٢ (منجم تريشنيكا)، و١٣١٩ (فى ليبنيك): دينيتـش Dinic, *Za istoriju rudarstva*، ص ٤٦.

٣١- دينيتش Dinic, *Za istoriju rudarstva* ، صفحات ٧-٨.

٣٢- لكافة التفاصيل السالف ذكرها، انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen* ، صفحـات ٤١-٤٩؛ وفاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٢٨٢-٢٨٤.

٣٣- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic, *Kulturna istorija Bosne* ، ص ٤١١.

٣٤- يشتق مصطلح "كميت" kmet من اللفظة اللاتينيـة *comitatus* ، وهـى كلمـة وضعـت فى المزارع (وهى على الأرجح ديريـة) التـى كـانوا يعملـون عليهـا. علـى أنهـا فـى صربيا تطورت إلى معنى مخالف، حيث تشير إلى كبير القرية.

٣٥- فيرليندن 'Verlinden, 'Patarins reduits en esclavage.

٣٦- عن كل هذه الطبقات والرتـب، انظـر تروهيلكا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، صفحات ٩٠-١٠٥.

٣٧- وأهميـــة هـــذا المجلــس أكدهـــا كـــل مـــن تشـــيركوفيتش (Cirkovic, *Istorija srednovjekovne drzave* ، صفحـات ٢٢٤-٢٢٥) وأنديليتـش ('Barones Regni (drzavno vijeche'، وتتشكك فيها فاين (*Late Medieval Balkans*، صفحات ٤٥٣-٤٥٤).

٣٨- تروهيلكا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، ص ١١٠. ولاحـظ تروهيلكا أيضـاً وجود 'الإيستريونس' 'istriones' فى بلاط تفرتكو الثانى فى ١٤٤٠،

وتساءل عن معنى هذا المصطلح؛ وكان بالتأكيد إشارة إلى 'الهيستوريونس' 'histriones'، أو ممثلو المسرح.

٣٩- آنديليتش Andjelic، 'Periodi u kulturnoj historiji'، ص ٢٠٩. وطبيعة البوسانتشيكا كانت موضوع مجادلة بحثية معقدة بين العلماء؛ انظر الدراسة الممتازة التي أعدها تروهيلكا Truhelka.'Die Bosancica'، والمناقشة الحديثة في ليفلدت Lehfeldt, *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum*. ويقدم تانداريتش Tandaric بعض البينات التي تشهد أن الجلاجوليتية (وهي البديل البلقاني الغربي المبكر للسيريليكية) كانت تستخدم أيضاً في البوسنة القروسطية المبكرة ('Glagoljska pismenost'، ص ٤٣)؛ على أن البينة التي يقدمها عن استخدامها في بوسنة القرن الخامس عشر إنما تجئ من مناطق كانت عندئذ جزءاً من كرواتيا-المجر.

٤٠- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic, Kulturna istorija Bosne، ص ٤٢٢-٤٣١.

٤١- تشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*، ص ٩.

الفصل الثالث: الكنيسة البوسنية

١- عن استعراض حديث جيد لمجادلات المؤرخين، انظر Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، صفحات ١-٦٨؛ وهناك تقرير تاريخي هام أقدم عهداً في شيداك Sidak, 'Problem "bosanske crkve" u historiografiji'. كما أن هناك مجموعة مراجع غنية في فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٣٩٣-٤٣٤، يمكن أن يضاف إليها مراجع أخرى في الملاحظات في Okic, 'Les Kristians de Bosnie'.

٢- راتشكي Racki, Bogomili i patareni.

٣- المراجع الممتازة العامة عن البوجوميل هي رانسيمان Runciman, *Medieval Manichee*، صفحات ٦٣-٩٣، وأوبولنسكي Obolensky, *Bogomils*. وعن البوجوميلية في صربيا انظر سولوفييف Solovjev, 'Svedocanstva pravoslavnih izvora'. وتوجد دراسة فائقة عن البوجوميلية في بلغاريا في أنجلوف Angelov, *Bogomilstvoto*؛ ولكن معالجته للبوسنة (صفحات ٤٢٠-٤٢٨) ضئيلة وغير دقيقة. وعن المعتقدات المانوية، انظر ليو Lieu, *Manichaeism*، وكان ماني رجلاً فارسياً من القرن الثالث، وقد شملت تعاليمه المثنوية كل من الزرادشتية والغنوسطية الإغريقية -اليهودية والمسيحية.

٤- عن الكاثاريين، انظر بورست Borst, *Katharer*، وديفرنوي Duvernoy, *Le Catharisme*. ولم تكن الكاثارية مجرد شكل للبوجوميلية منقول إلى أوربا الغربية: فإنها نمت على تقاليد محلية قوية للهرطقة شبه الغنوسطية (انظر بويتش Puech, 'Catharisme et Bogomilisme').

٥- يبدو أن أول كاتب اتصل بالبوجوميلية كان شوميت دي فوسسي، في عمله المنشور في ١٨١٦ (شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ١٣١). وعن الكتاب

الكاثوليك المبكرين، انظر ماتاسوفيتش Matasovic, 'Tri humanista o patarenima' ، وفاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٦٣-٧٣.

٦- بترانوفيتش Petranovic, Bogomili, crkva bosanska i krstjani.

٧- وأيد جلوشاك النظرية فى ١٩٢٤ ('Srednjovekovna crkva')، ولكن هاجمها شيداك فى ١٩٣٧ ("Problem "bosanske crkve" u historiografiji").

٨- انظر ثبت المراجع؛ ولقائمة أكثر اكتمالاً لإصدارات سولوفييف، انظر فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٤٢٨-٤٢٩.

٩- أهم شراح هذه النظرية هما الأب ليو بتروفيتش (*Krscani bosanske crkve*)، وياروسلاف شيداك (*Studije o 'crkvi bosanskoj'*) بالرغم من إقرار متزايد بالميول الهرطيقية فى كتاباته المتأخرة.

١٠- انظر الفصل الخامس، تحول البوسنة للإسلام.

١١- عن ملخص مختصر عن الإحصائيات والجغرافية والتورايخ، انظر كتاب M Wenzel, 'Bosnian Tombstones' ، صفحات ١٠٢-١١٥. والدكتورة ونزل أصدرت أيضاً تحليلاً جغرافياً مفصلاً عن الموتيفات المختلفة المستخدمة: *Ukrasni motivi* . وعن مناطق التوزيع الخارجية، انظر المراجع فى فاين، *Bosnian Church*.

١٢- انظر فون أسبوت von Asboth, *Bosnien und die Hercegowina*، صفحات ٩٤-١١٨؛ وسولوفييف 'Le Symbolisme' ، و-'Bogumilentum und Bogumilengraber'.

١٣- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، صفحات ٢٥-٢٦.

١٤- م. ونزل M. Wenzel, 'Bosnian Tombstones'، ص ١٠٣.

١٥- فون أسبوت *Bosnien und die Herzegowina* ، ص ١٠١. ويقر سولوفييف أن الصليب لا يظهر على ٨٥ ستيتشى على الأقل: 'Simbolika srednjovekovnih spomenika'، ص ١٧.

١٦- عن التصميمات الوثنية، انظر م. ونزل M. Wenzel's 'Medieval Mystery Cult'؛ وعن تصميمات شعارات النبالة والأفلاق، انظر كتابها 'Bosnian Tombstones'. (وعن هوية الأفلاق، انظر الفصل السادس). وهناك انتقادات أخرى لنظرية سولوفييف وردت فى س. رادويتشيتش S. Radojcic, 'Reljefi bosanskih stecaka'. ويلخص فاين مجالاً رحيباً من الاعتراضات فى *Bosnian Church*، صفحات ٨٨-٩٣.

١٧- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٤٨-٦٢.

١٨- المصدر هو مخطوط صربى من القرن الخامس عشر نقل عنه روسى فى ١٨٥٩. ولم ينشر العلامة الروسى أصل النص أبداً، ومنذ ذلك الحين اختفى الأصل بطريقة ملائمة؛ ولا يوجد مخطوط آخر باق عن نفس العمل متضمناً كلمة "بوجوميل" (انظر المرجع السابق ص ٤٤).

١٩- المرجع السابق صفحات ٢١٢-٢١٣.

٢٠- ماتاسوفيتش Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'. ومن المحتمل فـي بعض الحالات أنه كـان هنـاك تلاعـب متعمـد بالألفـاظ، يشـير إلـى "المونـاتشـى" البوسـنيين (الرهبـان) علـى أنهـم "مانيتشـى" (مانيشـيين أو مـانويين): انظردراجويلوفيتـش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، ص ١٥٤. ومصطلـح "المانيشـيين" (المانويين) استمر يستخدم، ولو أنه كان ذا معنى عام، فى الكتابات البيزنطيـة؛ وفـى تلخيص لقوانين جستينيان يرجع إلى القرن الرابع عشر، تم استخدام هـذا المصطلـح بمثابة مرادف فعلى "للهرطقة" (Lieu, *Manichaeism*، ص ١٧٧). وإنه ليظهر فعلا فـى إعـلان بولينـو بوليـى فـى ١٢٠٣ كمصطلح للدلالـة علـى الهراطقـة الذيـن وعـد الرهبان البوسنيون ألا يقدموا لهم المأوى.

٢١- يقدم فاين مثالاً واضحاً لاستخدام الكلمة منسوبة إلـى البوسـنيين (*Bosnian Church*، ص ٢٤٨)، ولكنه أساء فهم اللاتينيـة. فـالمعنى ليـس "هيئـة كهنـوت مملكـة البوسـنة يدعون باتارين بواسطة البوسـنيين أنفسـهم"، ولكـن "الباتـارين يدعـون "الدينييـن" (أى "الرهبان") فى مملكة البوسنة بواسـطة البوسـنيين أنفسـهم". وعـن الأصـل اللاتينـى، أنظر ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia*، ص ٥٢؛ وعـن معنـى وأهميـة "الدينيون Relegiosi"، انظر المرجع السابق، صفحات ٥٦-٦٢.

٢٢- عن تاريخ المصطلح، انظر توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، صفحات ٢٠٤-٢٢١. ويكتب لامبرت انه استخدم فـى المرسـوم البـابوى ضـد الهرطقـة فـى ١١٨٤ بوصفه "مصطلحاً فنياً يشير للهراطقة الإيطاليين، وينطبق فى الأعـم الأغلـب على الكاثار" (*Medieval Heresy*، الطبعـة الأولـى، ص ٨٤)؛ والمرسـوم المذكـور كان ضد الكاثار والولدانيين والهيوميلياتيين Humiliati، وكلهـم كـانوا يوجـدون فـى الأراضى الإيطالية، وعلى ذلك لم تكن هناك مطابقة لاهوتية "فنية" لهوية "الباتـارين" مع المذاهب المثنوية التى كانت غريبة على الكاثار.

٢٣- توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، ص ٢١٦: وهـذا ملخـص لخطـاب كبير الأساقفة ورد فى خطاب آخر من البابا.

٢٤- عن المناظرة التاريخية حول هذه القصة، انظر فاين، 'Aristodios and Rastudije'.

٢٥- شـيداك Sidak, *Studije o 'crkvi bosanskoj'*، صفحـات ١٧٧-٢٠٩؛ فـاين، *Bosnian Church*، صفحـات ١١٨-١٢١؛ لامـبرت، *Medieval Heresy*، الطبعـة الثانية، صفحات ١٢٨-١٣١. وذهب دراجويلوفيتش إلى أن 'ecclesia sclavoniae' كانت هى الكنيسة البوسنية، و'ecclesia dalmatiae' كـانت تشـير إلـى الهراطقـة فـي صربيا (*Krstjani i jereticka crkva*، صفحـات ١٢٤-١٢٧)؛ ولكـن البينـة تبـدو شديدة الاضطراب بحيث لا تستطيع أن تدعم مثل هذه العلاقة المتبادلة المحكمة.

٢٦- عن النص، انظر ميني Migne, ed., *Patrolgia latina*، مجلد ٢١٥، عـامود ١٥٣-١٥٥.

٢٧- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، ص ٥٥.

٢٨- فاين، *Bosnian Church*، ص ٦٤؛ ماتاسـوفيتش، Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'، صفحات ٢٣٧ و٢٤٠.

٢٩- ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحـات ٥٠-٦٦، و ١١٧-١٢١. ويلاحظ دراجويلوفيتش أنه فى الديرية السلافية المبكرة كـان مصطلح جاست gast (=جوست gost) يستخدم أحيانـا لرئيس الدير (*Krstjani i jereticka crkva* ، ص ١٥٧). ولفاين بعض تعقيبات مفيـدة علـى الطبيعـة الديريـة للإعـلان (*Bosnian Church*، صفحات ١٢٦-١٣٤)، ولكن القصور الرئيسى فى كتابه هـو أنـه لـم يكـن يعلم بعمل ميليتيتش عندما كتبه.

٣٠- تقدم ميليتيتش الدليل فى *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحات ٥٢-٥٣؛ فإنها تلحظ أن كلمة 'christianus' كانت تستخدم أيضاً بهـذا المعنـى فـى بعـض المصـادر السـلافية المبكرة من كييف وبراج (صفحات ٦٥-٦٦). انظر أيضـاً دراجويلوفيتـش *Krstjani i jereticka crkva* صفحات ١٥٠-١٥١.

٣١- ميليتيتش، *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١٠٢: ويضيـف فـاين (*Bosnian Church*، ص ١٥٥) أنه كان مستخدماً كلقب للرئيس الأعلى للدير فى كرواتيا القـرن الحـادى عشر.

٣٢- كنيوالد Kniewald, 'Hierarchie und Kultus' ، صفحات ٥٨٨-٥٨٩.

٣٣- انظر ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١١٢ للنص الأصلـى ومعـه الترجمـة (وهى أفضل من تلك التى فى فاين، *Bosnian Church* ، ص ٢٦٢).

٣٤- إنجيل متى ٨:١١ (إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئـون مـع إبرهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات)؛ وإنجيـل لوقـا ١٦:١٩-٣١ (قصـة دايفـس ولعازر). وإذا كنتُ مصيباً، فإن رأى فاين أن هـذا النقـش فـي حـد ذاتـه يثبـت قبـول العهد القديم (*Bosnian Church* ، ص ٢٦٢) يصبح أقل إقناعاً.

٣٥- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢٥٦-٢٦٠.

٣٦- المرجع السابق، صفحات ١٧٦-١٧٧.

٣٧- عن نظرية الكاثار، انظر لوس Loos, *Dualist Heresy*، صفحات ٢٩٨-٣٠٢.

٣٨- انظر بيريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens' ، الجـزء الأول، صفحات ٥٠-٥٧.

٣٩- كنيوالد Kniewald, 'Hierarchie und Kultus' ، ص ٦٠٠. وقد حرمت الكنيسة بنـاء أية "أديرة مزدوجة" جديدة فى ٧٨٧ (ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ٥٦)، ولكن ربما عُدّ هذا التحريم غير ممكن التنفيذ، ما دامت الأديرة التـى كـانت موجـودة سمح لها بالاستمرار.

٤٠- لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٧-٣٧٨.

٤١- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٣٥. واستمرت الصلـوات الجلاجوليتيـة فى أجزاء كثيرة من دالماشيا وكرواتيا حتى قـامت حركـة الإصـلاح المضـاد: انظـر زيمرمان Zimmermann, *Reformation bei den Kroaten*، صفحات ٥ و ٢٠.

٤٢- جايا Dzaja, 'Fineova interpretacija' ، صفحات ٥٨-٥٩.

٤٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ١٣٧-١٥٠.

٤٤- عن النصين، انظر سولوفييف 'Solovjev, 'La Messe cathare؛ وعن تصحيح هام لتفسيره لإحدى الجمل، انظر ويكفيلد وإيفانز، الهرطقات Wakefield and Evans, Heresies ، ص ٧٨١. والمخطوط يشير إلى "أيام الجد راتكو"، وعلى ذلك فإنه من المظنون أنه يأتى من داخل الكنيسة البوسنية. ويمكن أن يكون تاريخه يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، ولكن النص منسوخ من مصدر أقدم عهداً.

٤٥- دراجويلوفيتش *Dragojlovic, Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ٢٠٨-٢١٣.

٤٦- لامبرت، *Medieval Heresy* ، الطبعة الثانية، ص ١٠٩ (الكاثاريين)؛ أوربيني *Orbini, Regno de gli Slavi* ، ص٣٥٤ (الكنيسة البوسنية).

٤٧- دراجويلوفيتش *Dragojlovic, Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٧٣-١٧٤.

٤٨- كل هذه النقاط (وغيرها) نوقشت فى فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٥٧-٣٦١، فيما عدا البينة المستخرجة من وصية جوست رادين (لهذا الدليل ،انظر لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٤-٣٨٠) ومن السجلات التركية (انظر أوكيتش 'Okic, 'Les Kristians de Bosnie ، ص ١٢٥). ولمزيد من الاختلافات، انظر دراجويلوفيتش *Dragojlovic, Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٦٥-١٧٢ ، و١٩٩-٢٠١.

٤٩- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢٦٤-٢٧٥.

٥٠- لامبرت، *Medieval Heresy* ، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٥-٣٧٦؛ والملك ماتياش Matijas هو ماتياس كورنفينوس Matthias Corvinus المجرى.

٥١- لاسيتش *Lasic, De vita et operibus S. Iacobi* ، ص ٤٣٨. وهذه هى أقل المعجزات الأربعة التى أتاها القديس جاكوب فى البوسنة جدارة بالحمد.

٥٢- كنيوالد 'Kniewald, 'Vjerodostojnost latinskih izvora ، صفحات ١٥٦-١٦٣.

٥٣- Fermendzin, *ed.,Acta Bosnae* ، صفحات ٣٨، و٢٤٨.

٥٤- لوس 'Loos, 'Les Derniers Cathares.

٥٥- كنيوالد 'Kniewald. 'Vjerodostojnost latinskih izvora،صفحات ١٦٨-١٦٩.

٥٦- انظر تعقيبات فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٥٦-٥٨.

٥٧- المرجع السابق، صفحات ٥٨ و٣٠٨-٣٠٩؛ وانظر ماتاسوفيتش 'Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'. والجدل الذى أثاره نيكولاس لوبيز مارتينيز أن توركمادا كان لديه دون شك معلومات تفصيلية عن البوسنة، غير مقنع على الإطلاق (توركمادا 'Introduccion' *Symbolum pro informaione manichaeorum,* ،صفحات ٢٠-٢٣).

٥٨- دراجويلوفيتش *Dragojlovic, Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٠٩-١١١.

٥٩- Fermendzin, *ed.,Acta Bosnae* ، ص ٢٢٥.

٦٠- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٣٤.

٦١- أوكيتش 'Okich, 'Les Kristians de Bosnie ، صفحات ١٢٩-١٣٠.

٦٢- المرجع السابق، ص ١١٥. وبعض هؤلاء المسيحيين (*kristianlar*) مسجلون مع أبنائهم (ص ١٣١) ونحن نعلم أن كلا من الرهبان البوسنيين والبوجوميل "المختارين" (elect) كان المقصود أن يكونوا عُزباً.

٦٣- دراجانوفيتش Draganovic, 'Izvjesce apostolskog vizitatora' ، ص ٤٤. ومع ذلك، فإن مساراتشي ضمّن في تقريره مادة عن الباتارينيين سبق له جمعها من مصادر مكتوبة أبكر (فاين، *Bosnain Church* ، صفحات ٦٥-٦٨)؛ ولم يتضح أي من تعقيباته حولهم قدمت معلومات أصلية أو معاصرة.

الفصل الرابع: الحرب والنظام العثماني ١٤٦٣-١٦٠٦

١- لاتشمان Lachmann, ed., *Memoiren eines Janitscharen* ، ص ١٤٠.

٢- عن بيان دراماتيكي عن بعثة لإحضار الأغذية إلى جايس، انظر ج. ونزل G Wenzel, ed., *Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai*، المجلد الثالث(=٢٥)، صفحات ٣٣٢-٣٤٢.

٣- شيركوفيتش Cirkovic, *Herceg Stefan Vukcic-Kosaca* ، صفحات ٢٦٠-٢٦٧.

٤- شابانوفيتش Sabanovic, *Bosanski pashaluk* ، صفحات ٤٤-٤٧؛ فاين *Late Medieval Balkans*، صفحات ٥٨٥-٥٨٩.

٥- عن بيان مجمل ولكنه تفصيلي عن التوسع العثماني، انظر شو، Shaw, *History of the Ottoman Empire* ، المجلد الأول، صفحات ٥٥-٩٤؛ روتنبرج، Rothenberg, *Austrian Military Border* ، صفحات ١٧-٣٩.

٦- شو، Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٨٤-١٨٧؛ وروتنبرج، *Austrian Military Border* ، صفحات ٥٢-٦١؛ وانظر الفصل السادس فيما بعد.

٧- عن موجز واف عن النظام العسكري، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٢٢-١٣١. وعن النظام في البوسنة، انظر شابانوفيتش، 'Vojno uredjenje Bosne' ، وخاصة صفحات ٢١٦-٢١٩ عن القوات الاحتياطية.

٨- أفضل بيان عن هذا النظام هو بابوليا Papoulia, *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese'*.

٩- كونت Kunt, 'Transformation of *Zimmi* into *Askeri*' ، ص ٦٢.

١٠- يورد بيليتييه قائمة بأسماء الصدور الأعظمين ويلاحظ أنه كان يوجد ٦٥ واليا للبوسنة من مواليد البوسنة فيما بين ١٤٨٨ و ١٨٥٨: Pelletier, *Sarajevo*، ص٧٥.

١١- شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٥٨؛ وشو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤.

١٢- رايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire* ، ص ١٩٧. وآخر دوشرمة فى صربيا كان فى ١٦٣٨ (توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*). وربما حدثت محاولة لإحيائه: فإن السيد دولاكرواه، وهو سكرتير السفارة الفرنسية فى اسطنبول كتب فى ١٦٨٤ أنه يعقد الآن كل عشر سنوات (*Memoires* ، ص ٢٠١-٢٠٢).

١٣- شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، ص ٥٦.

١٤- ليفلدت Lehfeldt, *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum*، ص ٤٨؛ هوتينجر Hottinger, *Historia orientalis* ، ص ٤٦٣.

١٥- شو Shaw, 'Ottoman View of the Balkans' ، صفحات ٦٩-٧٠.

١٦- عن التفاصيل، انظر شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٣٧-٣٨؛ ورايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*، صفحات ١٧٢-١٧٣.

١٧- عن نظام التيمار، انظر توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٢٨-٣٣؛ وشوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٩٨-٩٩، و ٢١٢.

١٨- فاين، Fine, *Late Medieval Balkans* ، ص ٥٨٣.

١٩- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change* ، ص ٢٤.

٢٠- كونت Kunt, 'Transformation of *Zimmi* into *Askeri*' .

٢١- كان يمكن تقسيم القاضيلوكية إلى ناحيتين Nahije أو أكثر يحكم كل منها نائب قاض؛ وفى البوسنة كانت تلك تتبع الحدود القديمة للجوبا. انظر كريشفلياكوفيتش Kreshevljakovich, *Kapetanije u Bosni* ، صفحات ٩-١٠.

٢٢- فيما عدا سنجقيات بوجيجا Pozega (فى سلافونيا) وزفورنيك، اللتان كانتا فى إيالة بودا Buda من ١٥٤١ حتى ١٥٨٠: انظر المرجع السابق، ص ١٠.

٢٣- عن التفاصيل، انظر المرجع السابق، صفحات ٩-١٠، وديوردييف، Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٣.

الفصل الخامس: اعتناق البوسنة الإسلام

١- مازورانيتش، Mazuranic, *Sudslaven im Dienste des Islams* ، صفحات ٢١-٢٧؛ هوكيتش Hukic, ed., *Islam i muslimani u Bosni* ، صفحات ٢٠-٢١.

٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٨٤-٨٩.

٣- فيليبوفيتش Filipovic, 'Napomene o islamizaciju' ؛ جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، صفحات ٧١-٧٣. ولدلائل أخرى، من وثائق وشواهد قبور، تظهر أن سراييفو كان بها سكان مسلمون قبل ١٤٦٣، انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ٦٦.

٤- أوكيتش Okich, 'Les Kristians de Bosnie' ، صفحات ١١٨-١١٩.

٥- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kırche'* ، ص ٧٤.

٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٤. والأرقام التى قدمها د. مانديتش (*Etnicka povijest Bosne*، ص ١٥٤) غير صحيحة. وعدد السكان الإجمالى محسوباً من دفاتر عشرينيات الألف وخمسمئة لسنجقيات البوسنة وزفورنيك والهرسك هو ٢١١٥٩٥ من المسيحيين و١٣٣٢٩٥ من المسلمين (هاجياهيتش Hadzijahich, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٦٥).

٧- هاجياهيتش Hadzijahich, *Porijeklo bosanskı Muslimana* ، ص ٧٨. ويلاحظ د. ماندیتش أيضاً اعتناقاً أسرع للإسلام فى نواحى كونيتش وفوتشا فى أوائل القرن السادس عشر: *Etnicka povijest Bosne* ، ص ١٦١.

٨- د. ماندیتش D. Mandıch, *Etnicka povijest Bosne* ، ص١٥٣-١٥٨.

٩- هانجيتش Handzic, *Tuzla ı njena Okolina* ، صفحات ١١٨-١٢٢ و ١٣٦-١٤٢. انظر أيضاً مناقشة هذا الموضوع فى جايا Dzaja, *Die 'bosnısche Kirche'* ، صفحات ٨٠-٨٨.

١٠- د. ماندیتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٢١١. وكان اسم القسيس "أثاناسيو جورجيسيو 'Athanasio Georgiceo'، الذى ينطقه المؤرخون العصريون بصور مختلفة: جرجسيفيتش Grgicevic ، (وهو نطق خاطئ بكل تأكيد)، وجورجيفيتش Georgijevic ويوريفيتش Jurjevic . و"البوسنة" فى تقارير القرن السابع عشر تلك تعنى كل المقاطعة الفرنسيسكانية التى تحمل ذلك الاسم، وتطابق تقريبا "إيالة" البوسنة، وهى مساحة أكبر كثيراً من سنجقية البوسنة.

١١- دراجانوفيتش Draganovic, 'Izvjesce apostolskog vizitatora' ، ص ٤٣، حيث ذكر التالى: 'De Turchı saranno tre parti, et a pena de Catholici una, Schismaticı saranno per la meta di Catolici, de quali saranno cento cinquata milla anime in circa' [*sic*]. وهناك ملخص وضع فى أول التقرير (ص ١٠)، بواسطة كاتب آخر، شرح ذلك خطأً بأنه يعنى ١٥٠٠٠٠ أرثوذكسى و٣٠٠٠٠٠ كاثوليكى (ويعنى ذلك ٩٠٠٠٠٠ مسلماً)؛ وقد تبعه فى ذلك جميع من تلاه من الكتاب تقريباً.

١٢- كلمة *Turkush* مشتقة من *turk usakli* ، وتعنى ابن التركى.

١٣- كيوليشيتش Kulisic, 'Razmatranja o porijeklu Muslımana' ، صفحات ١٤٥-١٤٧؛ هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskıh Muslimana* ، صفحات ١٢٨-١٤١؛ فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٢؛ جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Natıonalıtat* ، ص ٥٧. وأساس كل تبحّر حول هذا الموضوع هو البحث الموجود فى محفوظات إسطنبول والذى أعده عمر لطفى باركان، الذى لم يجد دليلاً واحداً على أى استيطان لمجاميع من الترك أو الأسيويين فى البوسنة؛ انظر بحثه 'Les deportations comme methode de peuplement'.

١٤- جايا Dzaja, *'Dıe Bosnısche Kırche'* ، ص ٨٤.

١٥- اسمايلوفيتش Smailovic, *Muslimanska imena* ، صفحات ٥٠-٥٤؛ ويورد بلاو قائمة بألقاب المسلمين ويلاحظ أن بعضها أيضاً كان مشتقاً من أسماء الأماكن: *Reisen in Bosnien* ، صفحات ٦٢-٦٣.

١٦- انظر شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٤٥-٤٦.

١٧- عن المنحة والعهد نامة أو فرمان حماية الوضع القانونى، انظر باتينيتش Batinic, *Djelovanje frànjevaca u Bosni* ، المجلد الأول، ص ١٣٢.

١٨- ج. ونزل G. Wenzel, ed., *Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai*، المجلد الأول (=١٤)، ص ١٥٥.

١٩- جايا *Konfessionalitat und Nationalitat* ،Dzaja، صفحات ١٥٩-١٦٤؛ Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٤٧٧-٤٧٨.

٢٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٣٤١.

٢١- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٩٣.

٢٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٩٢-٩٤.

٢٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٨٤-٣٨٥.

٢٤- جايا Dzaja, *Die 'Bosnische Kirche'* ، ص ٩١.

٢٥- ويلر، Wheler, *Journey into Greece* ، ص ٤٤١.

٢٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ١٣.

٢٧- بوردو، Bordeaux, *La Bosnie populaire* ، ص ٥٢. وعن دراسة أكثر تفصيلاً لاستخدام المسلمين فى البوسنة للتمائم والكتابات الواقية، انظر Kriss and Kriss-Heinrich, *Volksglaube* ، المجلد الثانى، صفحات ٩٩-١٠٣. وطبع إيفانز رسوماً لبعض التمائم النموذجية، ولاحظ (وهو يكتب فى ١٨٧٦) أن تجارة الكتابات الواقية "مصدر منتظم للدخل لدى الرهبان الفرنسيسكان": *Through Basnia* ، صفحات ٢٨٩ و٢٩٢. وعن ممارسات ومعتقدات شعبية أخرى، انظر درهام Durham, *Some Tribal Origins* ، صفحات ٢٤٨-٢٧٤، وليلك Lilek, 'Vjerske starine'.

٢٨- بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves* ، ص ٣١. ويفرق هاجياهيتش Hadzijahic ('Sinkretisticki dementi') ، صفحات ٣١٦-٣٢٢، بين مختلف الطرق التى كان المسلمون يحتفلون فيها بالأعياد المسيحية، ويلاحظ أن للكثير منها أصولاً سابقة على المسيحية.

٢٩- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Sinkretisticki elementi'، صفحات ٣٢٦-٣٢٧ (أيقونة العذراء فى أولوفو)؛ جيبونز، Gibbons, *London to Sarajevo*، ص ١٨١ (كنيسة سانت أنطونيو الكاثوليكية فى سراييفو: "حيث الأرثوذكس واليهود والمسلمون جميعاً يذهبون إليها للصلاة")؛ شوميت دى فوسسيه، Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، صفحات ٧٤-٧٥ (عن القداسات من أجل المرض، ملاحظاً أن المسلمين كان لهم "نوع من الولع بالشعائر الكاثوليكية").

٣٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٥٢٥-٥٢٦.
٣١- ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam*، المجلد الأول، صفحات ٧٧ (الدراويش)، ٦٩ (اقتباس). ويلاحظ هازلوك أيضاً سجلاً في ١٦٢١ عن الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين ينتجعون صورة للعذراء التماساً للشفاء (ص ٦٦).
٣٢- ومن بين هؤلاء العلماء الأجلاء صفوت بك باشاجيتش وشيرو تروهيلكا: انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana*، صفحات ٩١-٩٢.
٣٣- شو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤ (ناطقاً إياها "بوتور").
٣٤- عن كل هذه المصادر التركية، انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana*، صفحات ٨٧-٩٠.
٣٥- Akademia e shkencave, *Fjalor igjuhes se sotme Shqipe*، وعن صورة لبوتور ألباني، انظر ستارت ودرهام، Start and Durham, *Durham Collection of Garments*، ص ٣٥.
٣٦- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne*، ٢٠٧-٢٠٨ و٢٢٥.
٣٧- المرجع السابق، ص ٢١١. و"النار" هنا هي، بالطبع، عقاب الردة عن الإسلام، وليست معاملة عامة للمسيحيين على إطلاقهم.
٣٨- عن أمثلة عثمانية أخرى، انظر ف. و. هازلوك، *Christianity and Islam*، المجلد الثاني، صفحات ٤٦٩-٤٧٤؛ ودوكينز Dawkins, 'Crypto-Christians of Turkey'؛ وأمانتوس Amantos, *Scheseis Ellenon kai Tourkon*، صفحات ١٩٣-١٩٦.
٣٩- رايكوت، Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*، صفحات ١٢٩-١٣١ (الكتاب الثاني، الفصل ١٢).
٤٠- سولوفييف، Solovjev, 'Le Temoignage de Paul Rycaut'.
٤١- رايكوت، Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*. وعن البكتاشية، انظر ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam*، المجلد الثاني، وبيرج، Birge, *Bektashi Order*.
٤٢- قابل جورج ويلر في ١٦٧٦ بولندي تحول للإسلام يعمل ترجماناً، وقال إنه كان من أهم مصادر معلومات رايكوت: *Journey into Greece*، ص، ٢٠٢.
٤٣- هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana*، صفحات ٩٠-٩١.
٤٤- ستانويفيتش Stanojevic, 'Jedan pomen o kristjanima': وهذا التقرير، الذي يرجع إلى ١٦٩٢، والذي كثيراً ما يستشهد به في الدراسات العصرية عن البوسنة، لا يذكر البوتور، وهو في الواقع من دالماشيا.
٤٥- يوكيتش Jukic, *Zemljopis i poviestica Bosne*، ص ١٤٣، وقد نقل عنه أندريتش، Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٢٠.
٤٦- تشوبريلوفيتش Cubrilovic, 'Poreklo muslimanskog plemstva'.
٤٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، ص ٤٢.

٤٨- ب. زلاتار 'B. Zlatar, 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama.
٤٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٧٦.
٥٠- براودل Braudel, *Mediterranean* ، المجلد الأول، صفحات ٤٢٠-٤٢١، و٥٩٥.
٥١- كيوريبيشيتش Kuripesic, *Itinerarium der Botschaftsreise* ، ص ٤٤.
٥٢- عن الدور العام للدوشرمة فى عملية اعتناق الإسلام، انظر بابوليا Papoulia, *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese'*، صفحات ٩٨-١٠٨.
٥٣- عن نص "القانون"، انظر أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٢٣-٢٤؛ ونشره روشكيفيتس أيضا وعلق أن كثيرا من مواده لم تعد مطبقة قبل إلغائه فى ١٨٣٩ بزمن طويل: *Studien uberBosnien* ، صفحات ٢٥١-٢٥٢.
٥٤- د. مانديتش D. Mandic. *Etnicka povijest Bosne* ، صفحات ٢٤٦-٢٤٧. وعن اختطاف القوات المسيحية للأطفال المسلمين من البوسنة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، انظر 'Klen, 'Pokrstavanje "Turske" djece.
٥٥- هانجيتش 'Handzic, 'O gradlskom stanovnistvu u Bosni ، صفحات ٢٥٢-٢٥٣.
٥٦- هراباك 'Hrabak, 'Izvoz plemenitih metala iz Bosne.
٥٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، صفحات ٣٦-٣٨؛ باشاليتش وميشيفيتش Pasalic and Misevic, eds., *Sarajevo* ؛ ب. زلاتار 'B. Zlatar, 'Une ville typiquement levantine.
٥٨- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ٧٦.
٥٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٥١.
٦٠- شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، ص ٥١.
٦١- ب. زلاتار 'B. Zlatar, 'Une ville typiquement levantine ، ص ٩٦.

الفصل السادس: الصرب والأفلاق

١- فاين، *Bosnain Church* ، ص ١٧٢.
٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٥-٣٠٧؛ جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٥٨؛ د. مانديتش D. Mandic *Etnicka povijest Bosne*، صفحات ٤٥٦-٤٦٧.
٣- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٢٥-١٢٦.
٤- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٧٩.
٥- عن تقرير عن عام ١٤٥٥، انظر Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٢٢٤-٢٢٦.
٦- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٧٩-٣٨٠؛ جايا Dzaja *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ١٢٩.

٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٢٦-١٢٧؛ سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٥٦. ومع ذلك، فإن أول دليل مؤكد عن الكنيسة الأورثوذكسية فى سراييفو يعود إلى ١٦١٦: سكاريتش Skaric, *Srpski pravoslavni u Sarajevu*، ص ١٠.

٨- عن البينات الدالة على التحول الدينى، انظر د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، صفحات ٤٦٧-٤٩٤. وكانت هناك أيضاً تحولات من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية.

٩- جايا Dzaja, '*Die Bosnische Kirche*' ، صفحات ٧٥-٨٢.

١٠- فاسيتش Vasic, 'Etnicka kretanja'، صفحات ٢٣٣-٢٣٩؛ وعن تقرير حول طاعون خطير فى ١٥٨٤، يقال عنه إنه قضى على مئتى ألف فى البوسنة والهرسك وصربيا، انظر Ferrnendzin, *ed., ActaBosnae* ، ص ٣٣٨.

١١- كيوريبيشيتش Kuripesic. *Itinerarium der Botschaftsreise* ، صفحات ٣٤-٣٥. وسميديروفو (Smederovo) مدينة فى شمال صربيا، جنوب شرقى بلجراد. ووجد كيوريبيشيتش أيضاً صربيين أثناء الشطر الثانى من رحلته بين سراييفو وكوسوفو؛ وهو يشير إلى هؤلاء ببساطة على أنهم صربيون (ص٤٣).

١٢- روشكيفيتس Roskiewicz, *Studien uberBosnien* ، ص ٧٧.

١٣- فاشيتش Vasic, 'Etnicka kretanja' ، ص ٢٣٨؛ شابانوفيتش Sabanovic. 'Vojno uredjenje Bosne' ، صفحات ٢١٨-٢١٩.

١٤- كيوريبيشيتش Kuripesic. *Itinerarium der Botschaftsreise* ، ص ٤٣. وعبر كثير من الأفلاق الحدود إلى الجانب النمسوى بعد هزيمة العثمانيين فى سيساك فى ١٥٩٣ (Gusic, 'Wer sind die Morlaken?' ص ٤٦١).

١٥- انظر روتنبرج Rothenberg, *Austrian Military Border*، وعن خلاصة مفيدة، انظر كتابه *Military Border in Croatia* ، صفحات ٦-١١.

١٦- المؤلفات عن الأفلاق ضخمة العدد، كما أنها فى معظم شأنها غير مرضية. وعن مراجع وفيرة العدد، انظر ناستوريل Nasturel. ed., *Bibliografie macedo romana*. ولا تزال خير مقدمات عامة هى فايجاند Weigand. *Die Aromunen* و ويس وطومسون Wace and Thompson. *Nomads of the Balkans* . كما أن أفضل دراسة عصرية هي وينيفيرث Winnifrith. *Vlachs* ؛ ثم إن ناندريس Nandris. 'Aromani' يعد أيضاً دراسة قيمة.

١٧- جفونى Gvoni. 'La Transhumance des Vlaques' .

١٨- بارتيوسيس Bartusis, *Late Byzantine Army* ، صفحات ٢١٦ و ٢٥٦؛ ناستوريل Nasturel. 'Les Valaques balcaniques'، ص ١١٠.

١٩- د. رادويتشيتش D Radojcic. 'Bulgaralbanitoblahos' .

٢٠- ينبغى أن أوضح أنى لم أتمكن من الرجوع إلى البيان الكامل للأب مانديتش عن نظريته *Postanak Vlaha* ، الذى نشر فى بوينس أيريس؛ وكان اعتمادى على

الملخص الوارد فى كتابه 'Ethnic and Religious History of Bosnia' ، صفحات ٣٨٣-٣٨٦.

٢١- هناك مؤلفات فنية واسعة عن العلاقات بين الرومانية والألبانية. انظر بوجه خاص Baric, *Lingvisticke studije*؛ وعن ملخصات عصرية جيدة، انظر دو نى Du Nay, *Ethnic Continuity* و *Early History of Rumanian* ، Illyes، صفحات ١٩١-٢٩٠.

٢٢- انظر هارمان Haarmann, Der *latcinische Lehnwortschatz*. وتدل البينات أن نوع اللاتينية المتأخرة التى تطورت إلى اللغة الرومانية كانت على صلة وثيقة بالألبانية، وإن كانت بعض الكلمات الألبانية المستعارة جاءت أيضاً من لاتينية أبكر.

٢٣- إن قائمة أعظم العلماء المستقلين (أى غير البلقانيين) امتيازاً تتضمن بيريتشيك وفايجاند وستادمولر. وعن مسح نافع (وإن اتجه بطبيعة الحال إلى توكيد الأصول الجغرافية الألبانية للألبان)، انظر تشابى Cabej, 'Problem of Place of Formation'. وحاول بعض الكتاب الرومانيين أن يعكسوا الأوضاع بالزعم بأن الألبان قدموا من رومانيا. وكان أمهر حل وسط هو الذى وضعه مارينيسكو (Marienescu)، الذى ذهب إلى أن الخصائص الإلليرية للغة إنما التقطها أولاً وقبل كل شيئ الجند الرومانية فى مقدونيا، وهم رجال أعيد نقلهم إلى شمالى الدانوب ('Ilirii, macedo-romanii si albanesii')، صفحات ١٥٣-١٥٤.

٢٤- بيريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens' ، الجزء الأول، صفحات ٣٥-٤٠؛ وجيوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?' ؛ ودراجومير Dragomir, *Vlahii si Morlacii* ، صفحات ١٥-٥٢. وعن السجلات البندقية للأفلاق انحداراً أسفل الساحل فى الجبل الأسود وشمال ألبانيا، انظر فالنتينى Valentini, 'L'elemento *vlah* nella zona scutarina'.

٢٥- دراجومير Dragomir, Vlahii *din nordul peninsulei balcanice* ، صفحات ٤٩-٥٢ والخريطة رقم ١.

٢٦- إ. بوبوفيتش I. Popovic, 'Valacho-serbica' ، (وقد صححت هجاء بوبوفيتش لكلمة tirziu) صفحات ٣٧٢-٣٧٣؛ هولد Huld, *Basic Albanian Etymologies* ، ص ٥٧. وفى الرومانية العصرية تعنى كلمة tirziu "متأخر" وكلمة zara تعنى "شرش" أو "اللبن الرائب". وعن بينة على الرعويات الألبانية فى دالماشيا، وعلى مجاميع ذات أصل ألبانى بين أفلاق الهرسك وصربيا، انظر جوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?'، ص ٤٥٦؛ وبيريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens'، الجزء الأول، صفحات ٤١-٤٣؛ وم. فيليبوفيتش M. Filipovic, 'Struktura i organizacija katuna'، صفحات ٥٠-٥٨.

٢٧- وربما كان أحفادهم عائشين فى صورة الرعاة الترانسهيومانت المحولين للإسلام، والذين يعرفون عامة باسم باليجى، فى المناطق النائية من البوسنة، انظر Balagija, Kulisic, *Les Musulmans yougoslaves* ، صفحات ٨٢-٨٣؛ كيوليشيتش 'Razmatranja o porijeklu Muslimana'، ص ١٥٣. وهناك عائلة من باليجي Balije بحثها فايجاند، فظهر أنها فيما يحتمل من أصل تركمانى ('Rumanen und

'Aromunen in Bosnien'، صفحات ١٩١-١٩٧)؛ ولكن الواضح أن معظمهم من أرومة بلقانية.

٢٨- جوشيتش 'Gusic, 'Wer sind die Morlaken?، ص٤٥٧. انظر كمثال لذلك شكوى كتبت في ١٤٠٣ في Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٨٥.

٢٩- يطابق نوفاكوفيتش Novaković، في (*Selo*، ص ٣٣) أيضا بين *Crnogunjci* و Sarakatsanı، الذي ربما جاء اسمهم من الكلمة التركية *Karakacan* التي تعني "المتقهقر الأسود"؛ ولكن الساركاتسينيين، الذين من الواضح أنهم ظلوا يتحدثون اليونانية زمناً طويلاً أنما هم سر آخر.

٣٠- يذكر يوانوس لوسيوس التروجيرى (إيفان لوكيتش) مؤرخ القرن السابع عشر أن المصطلح كان يستخدم نقيضا لمصطلح *'Bilı-Vlahı*, id est *Albı Latını'* (الأفلاق البيض) (انظر 'De Regno Dalmatiae', in von Schwandner, ed., *Scrıptores rerum hungaricarum* المجلد الثالث، ص ٤٥٩)؛ على أني لم أر أية عبارة تعبر عن "الأفلاق البيض" مقتبسة من أي مصدر مبكر. ويرى بيريتشيك أن الراجوزيين والدالماشيين وضعوا وسيلة التمييز ليفرقوا أنفسهم (الذين يسمون أيضا بالأفلاق بسبب لغتهم المصطبغة باللاتينية) عن أفلاق المناطق الداخلية، ويرى جوشيتش أنهم كانوا يميزون بين أفلاقهم الأصليين المحليين (الذين كانوا يرتدون البياض) وبين موجة من القادمين الجدد. وعندي أن كلا النظريتين غير مقنعة، إذ ليس ثمة سبب في أن يستخدم الراجوزيون أو الدالماشيون الآخرون اللغة اليونانية. وكان لوشيوس التروجيرى متنبهاً على الأقل إلى هذه المسألة، فذهب إلى أن مصطلح *Mavrovlachos* أعاد نقله البنادقة (الفينيسيون) من اليونان.

٣١- وتجئ كلمة *Morovlah* في المراجع الراجوزية مشيرة إلى الأفلاق المحليين بدءاً من القرن الثالث عشر، انظر بيريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmalatıens'، الجزء الأول، ص ٣٥، ولا شك أن الأثر الشعبي في نطق الكلمة إنما حدث قرب أخريات القرن الثاني عشر، عندما أشار قسيس ديوكليا إلى الموروفلاتش 'Morovlachi' (وإن كان على ذكر من أن المعنى كان اللاتيني الأسود 'nıgrı Latini'): فون شواندنر von Schwandner, ed., *Scrıptores rerum hungarıcarum*، المجلد الثالث، ص ٤٧٨. ويتناقض كلا هذين العنصريين للبينة مع الحجة المقدمة في جوشيتش Gusıc, 'Wer sınd dıe Morlaken?'، صفحات ٤٥٩-٤٦٠.

٣٢- فورتيس Fortis, *Travels ınto Dalmatia*، صفحات ٥٣ و٨٥. وقد لقيت كثير من ملاحظات فورتيس (على أن تلك لم تكن من بينها) معارضة في عمل أوخر وأتمن على يد كاتب أوتي معرفة محلية أجود كثيراً، انظر Lovrıch, *Osservazıonı*.

٣٣- انظر باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnıen*، ص ١٧٥؛ ويلسون Wılson, *Life of Vuk Karadic*، صفحات ١٩٢-١٩٤. وترجمت ويلسون الخاصة وردت في صفحات ٣٦١-٣٦٣.

٣٤- بلديسيانو Beldıceanu, 'Les Valaques de Bosnıe'.

٣٥- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves ، ص ٩٧؛ بلديسيانو وبلديسيانو-ستاينهر Beldiceanu and Beldiceanu-Steinherr, 'Quatre actes de Mehmed II'، ص ١١٨؛ انظر أيضا هاجيبيجيتش Hadzibegic, 'Dzizja ili harac'، الجزء الأول، ص ٦٨. ومع هذا، فعند أخريات القرن الثامن عشر، كان أحفاد الأفلاق فى منطقة حدود البوسنة يدفعون الخراج فعلا: انظر لوفريتش Lovrich, *Osservazioni*، ص ٨٣.

٣٦- انظر بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves ، ص ٩٤؛ هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٣٧. قارن ملحوظة كيوريبشيتش أعلاه (هامش ١١).

٣٧- جايا *Dzaja, Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٧٥.

٣٨- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves، ص ٩١. ويحدد تريفونوفسكى Trifunovski تاريخ التغيير نحو الاستقرار فى قرية مفردة إلى القرن الخامس عشر: 'Geografske karakteristike katuna' ، صفحات ٣٦-٣٧.

٣٩- لوفريتش Lovrich, *Osservazioni* ، صفحات ١٧٤و ١٧٩.

٤٠- وكان مؤسس هذا التفسير هو ستويان نوفاكوفيتش Stojan Novakovich مؤرخ القرن التاسع عشر؛ انظر كتابه Selo ، صفحات ٢٩-٣٠. وكذلك يرى المؤرخ الروسى إ. ب. نوموف E. P. Naumov أيضا أن الأفلاق اصطبغوا بالصباغ السلافى الثقيل فى زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر: انظر 'Balkanskiye vlakhi'. على أن الكتاب الصربيين الذين يتقبلون الرأى القائل بأن للأفلاق هوية إثنية (عرقية) مختلفة، لم تصدهم تلك الحقيقة المجردة؛ إذ من العجيب أن مؤرخا صربيا معاصرا يكتب: "حتى الأفلاق أنفسهم وطرائقهم فى الحياة أصبحوا عرضة للتهديد حتى لقد انضموا للصرب لكى ينقذوا حياتهم، كما أنهم فى أثناء تلك العملية ساعدوا فى الاحتفاظ بالهوية الإثنية والدينية والثقافية للصرب واستمرارها". (انظر بافلوفيتش Pavlovich, *Serbians*، ص ٧٨).

٤١- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Les valaques de Bosnie ، ص ١٢٣.

٤٢- م. فيليبوفيتش 'M. Filipovic, 'Struktura i organizacija katuna ، ص ٥٢ (أسماء)؛ ييريتشيك 'Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens، الجزء الأول، ص ٤٠ (جزيرة)؛ نيجر Niger, *Geographiae commentariorum libri*، ص ١٠٣ (اللاتيني الفاسد)؛ ناندريش 'Nandris, 'Aromani ، ص ٣٨ (كلمات العد).

٤٣- ييريتشيك 'Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens ، الجزء الأول، ص ٤١.

٤٤- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٦.

٤٥- ويكمن الفرق فى أسلوب النطق الحنكى لبعض الحروف المتحركة: فإن "الإيكافية"، المتحدث بها فى صربيا، تنطق كلمة "اللبن" 'mleko'، بينما "الييكافية" (المتحدث بها فى البوسنة والهرسك) تنطقها 'mljeko' or 'mlijeko'.

٤٦- ويستشهد د. مانديتش بالإحصاء كدليل على استمرار التحث بالأفلاقية فى (*Etnicka povijest Bosne* ، ص٥١٦)؛ فيليبسكو *Filipescu, Coloniile romane din Bosnia*.

٤٧- فايجاند Weigand, 'Rumanen und Aromunen in Bosnien'. وعن 'Karavlasi'، انظر القسم عن الغجر فى الفصل التاسع.

٤٨- على أن د. مانديتش يذكر بدقة عجيبة زائفة أن النسبة ٥٠-٥٢ ٪ (*Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٦).

٤٩- جايا *Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٨٣.

الفصل السابع: الحرب والشئون السياسية فى البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

١- كونت *Kunt, Sultan's Servants* ، ص ٨٢.

٢- كليسولد *Clissold, ed., Short History* ، ص ٤٩.

٣- *Fermendzin,ed., Acta Bosnae* ، صفحات ٤٧٩- ٥٠١.

٤- شو *Shaw, Historyy of thc Ottoman Empire* ، المجلد الأول، ص ٢١٢.

٥- ا. بوبوفيتش *A. Popovic, L'Islam balkanique* ، ص ٢٥٩.

٦- جايا *Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat* ؛ ومع هذا فإن بيليديا Peledija يكتب أن العدد الإجمالى للاجئين المسلمين من الأراضى التى استرجعها آل هابسبرج بلغ مئة وثلاثون ألفا، لم يكونوا جميعا يسكنون البوسنة، انظر (*Bosanski ejalet* ص ٥٠.

٧- ديورديف Djurdjev, 'Bosna' ، ص ١٢٦٧.

٨- مراز *Mraz, Prinz Eugen* ، ص ٤٠.

٩- د. مانديتش *D. Mandic, Etnicka povjest Bosne* ، ص ٥١٤.

١٠- على أن بعض الكاثوليك عادوا فعلا بعد أن أعلنت السلطات العثمانية الهدنة فى ١٦٩٩: انظر بيليديا *Peledija, Bosanski ejalet* ، ص ٥١.

١١- جايا *Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٩٨.

١٢- وأخيرا تم تحديد خط الحدود هذا بين البندقية والبوسنة خلال الفترة ١٧٢١-١٧٣٣: انظر *Clissold, ed., Short History* ، صفحات ٤٥ و٥٠. ويقول شو محطئا أن المعاهدة حددت التخوم على نهر سافا (*History of the Ottoman Empire* ، المجلد الأول، ص ٢٣٢).

١٣- ا. بوبوفيتش *A. Popovic, L'Islam balkanique* ، ص ٢٥٩.

١٤- جايا *Dzaja, Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٩٦. ويلاحظ جايا أيضا تمردات حدثت قبل الحرب فى ١٧١٠ و ١٧١١.

١٥- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik' ، صفحات ١٤٤-١٤٥.

١٦- المرجع السابق، ص ١٥٢-١٦٣.

١٧- ديورديف Djurdjev, 'Bosna' ، ص ١٢٦٧.

١٨- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik' ، صفحات ١٦٤-١٨٠.

١٩- هاجياهيتش 'Hadzijahic, 'Die Kampfe der Ajane، ص ١٣٠.
٢٠- سوشيسكا 'Suceska, 'Osmanlı imparatorlugunda Bosna، ص ٤٤١.
٢١- هاجياهيتش 'Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte، ص ١٥٦.
٢٢- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٩٨.
٢٣- ب. يـيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans*، المجلد الأول، ص ٩٠.
٢٤- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، صفحات ٧٢-٧٣.
٢٥- شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ٢٥٩.
٢٦- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٤٦-١٤٩.
٢٧- ديبوف Desboeufs, *Souvenirs*، صفحات ١٣٢-١٣٣.
٢٨- بـافلوويتش 'Pavlowitch, 'Society in Serbia، صفحـات ١٤٤-١٤٥؛ ويلاحـظ بوبوفيتـش أن أعمــالاً كهـذه اسـتمرت ببـأس متجـدد بعـد ١٨١٥ (انظـر *L'Islam balkanique*، ص ٢٦٢).
٢٩- كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije*، صفحات ١٣ و ٢٢.
٣٠- المرجع السابق، صفحات ٥٢-٦٤.
٣١- كان من الممكن أن توصف البوسنة بأنها "باشالوكية"، ولكن ذلك كان مصطلحاً عاماً يشمل جميع أنواع الأراضى التى يحكمها باشا. وحيث أن البوسنة كانت إيالة فإنها لم تكـن علـى نفس مستوى باشـالوكية بلجـراد مثـلاً، التـى كـانت سـنجقية فقـط. وعـن الامتيـازات التـى يتمتـع بهـا الباشـا ذى الذيـول الثلاثـة، انظـر دوسـون d'Ohsson, *Tableau de l'Empire othoman*، المجلد السابع، ص ٢٨٥.
٣٢- شـاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحـات ١٨٦-١٨٧؛ كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije*، ص ١٧.
٣٣- شـاميتش *Samic, Les Voyageurs francais*، ص ١٨٨.
٣٤- هاجياهيتش 'Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte، صفحـات ١٣٢-١٣٤. وقـد رأس المسلمون النقابات ولكنها ضمت أيضاً أعضاء من المسـيحيين واليهـود. وكـان لغـير المسـلمين أقسـامهم داخـل النقابـة. انظـر كريشـيفلياكوفيتش,Kresevljakovic *Esnafi i obri*، ص ٤٩؛ سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، ص ١٣٤.
٣٥- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ١١٤.
٣٦- هاجياهيتش 'Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte، ص ١٣٧.
٣٧- المرجع السابق، صفحات ١٥٦-١٥٧.
٣٨- عن آجانات البوسنة، انظر المرجع السـابق؛ سوتشيسـكا Suceska, 'Bedeutung des Begriffes A'yan'؛ هاجيـاهيتش Hadzijahic, 'Die Kampfe der Ajane'؛ وعـن الطبيعة الأصلية للوظيفة، انظر باون Bowen, 'Ayan'؛ وعن استخدام المصطلـح فـى أماكن أخرى، انظر شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٢٣٨.

الفصل الثامن: الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع فى البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

١- يحلل توماسيفيتش الاستخدام الخاص لهذه المصطلحات فى البوسنة فى: *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٩٩-١٠٠. ويعطى شوجار بياناً مختلفاً وأكثر عمومية فى: Sugar: *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٢١٤-٢١٨.

٢- والتحول إلى المزارع الكبيرة الخاصة (الشيفتليك) فى جميع أنحاء الإمبراطورية لهو موضوع ضخم يحوط الغموض جوانب كثيرة منه. وولاستعراض قيم عن هذه الموضوعات، انظر ماكجواون McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، صفحات ٥٧-٧٩. وتصف موتافتشيفا Mutafchieva الشكلين التقليديين الذي كانت المزارع الكبيرة الخاصة تمنح بهما (للموسيليمين و"الغازيين" او الأبطال العسكريين)؛ وتلاحظ أيضاً شكلاً خاصاً لهذه المزارع مستخرجاً من الممتلكات الإقطاعية القديمة فى البوسنة فى: 'K'm v'prosa za chiflitsite') ، صفحات ٣٦-٤٢).

٣- انظر ملاحظات هوتينجر على تواجدهم فىأدرنة فى خمسينات الألف وستمئة فى: Hottinger, *Historia orientalis*، ص ٤٦٣.

٤- ماكجوان McGowan, 'Food Supply and Taxation' .

٥- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais* ، ص٢٤٨.

٦- ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottmnan Europe* ، صفحات ٨٣-٨٦.

٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٠٥-١٠٦ و ١٥١ و١٦٨. ويذهب تقرير الأب مارافيتش عن البوسنة فى ١٦٥٥ إلى أن عدد السكان الكاثوليك هو ٦٣٢٠٦ روحاً: Fermendzin, ed., *Acta Bsnae* ، ص ٤٧٦.

٨- سكاريتش Skaric, 'Popis bosanskih spahija' .

٩- ب. بيلافيتش B Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الأول، ص ٩٠.

١٠- والأرقام عن الذكور البالغين من غير المسلمين المسجلين فى إيالة البوسنة من دافعي الجزية: ١٢٥٠٠ فى سنة ١٧٠٠ (شاملة الهرسك وزفورنيك)، و ٣٩٢٠٠ فى ١٧١٨ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٦٣٤٤٠ فى ١٧٤٠ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٩٨٣٢٩ فى ١٧٨٨ (شاملة الهرسك وسنجقية غير معلومة) و١٠٣٨٨٣ فى ١٨١٥ (شاملة الهرسك وسنجقية غير معلومة) : ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، ص ٩٠. ويبدو الرقم الأول منخفضاً بصورة غير ممكنة؛ ويحتمل أنه يدل على أن الإدارة البوسنية لم تستفق من الحرب، ولم تستطع إجراء الإحصاءات الكاملة. وكان ذلك هو الرقم الأول الذى تم تجميعه على أساس جديد، وهو حساب عدد الذكور البالغين بدلاً من عدد العائلات.

١١- أرقام قدرها محمد هجياهيتش،واستشهد بها جايا فى Konfessionalitat und Nationalitat، ص ٨٢.

١٢- فايجاند Weigand, 'Rumanen und Aromunen' ، ص ١٧٨.

١٣- سكاريتش Skaric, *Srpski pravoslvni narod* ، ص ١.

١٤- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٤؛ هاجياهيتش Hadiijahic, 'Die priviligierten Stadte'، ص ١٣٦.

١٥- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte' ، ص ١٣٥.

١٦- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، صفحات ١٠٦ و ١١٦. ويعتقد علامة عصرى أن أرقام تشيليبى مبالغ فيها، وهو يقارنها برقم أقل كثيراً من دفتر لعام ١٨٤١ (ناجاتا Nagata, *Materials on Bosnian Notables*، ص ٢). ولكن الأب مارافيتش فى تقريره فى ١٦٥٥ يعطى رقماً أكبر قليلاً من رقم تشيليبى: ٢٠٠٠٠ عائلة مسلمة و١٠٠ عائلة مسيحية (Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦). (ومن الجدير بالذكر أن بيان مارافيتش يتضمن أن هذه المئة عائلة تشمل ٦٠٠ روحاً، مما يوحى بأنه استخدم مضاعفاً أكبر مما يستخدمه المؤرخون المعاصرون). ومن الواضح أن سراييفو كانت أصغر فى القرن الثامن عشر مما كانت عليه فى القرن السابع عشر، ويحتمل أنها تضاءلت أكثر فى أوائل القرن التاسع عشر.

١٧- كيكليه Quiclet, *Voyages*، صفحات ٦٨-٧٠ و ٧٩. وقد علق بيتر ماساريتشى على النوعية الفائقة للخيول البوسنية فى ١٦٢٤: انظر Draganovic, 'Izvjesce Petra Masarechija'، ص ٤٢.

١٨- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ٦٩.

١٩- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٣؛ هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte' ، ص ١٣٥.

٢٠- وقد فرض النمسويون بغباء رسم استيراد على تجارهم ولم يفرضوا رسماً مماثلا على الرعايا العثمانيين الذين كانوا يستوردون نفس البضاعة: انظر ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe* ، صفحات ٢٣-٢٤.

٢١- على أن معرض ليبزج التجارى مارس ضغطاً على تجار البوسنة وأجزاء أخرى من البلقان خلال تلك الفترة: انظر باسكاليفا Paskaleva, 'Osmanlı balkan eyaletlerinin ticaretleri'، صفحات ٤٧-٤٩.

٢٢- عن استخراج معدن الحديد، انظر شوجار Sugar, *Industrialzation of Bosnia*، ص ١٦. ويذكر تقرير كتبه فوركاد فى ١٨١٣، مع ذلك، تصدير نوع من المعادن إلى فرنسا: هو الأوربيمنت (الزرنيخ الأصفر)، وهو مادة كيماوية طبيعية تستخدم فى صناعة الصبغات. (Vacalopoulos, 'Tendances du commerce de la Bosnie'، ص ٩٥).

٢٣- دوسون D'Ohsson, *Tableau general de l'Empire othoman* ، المجلد السابع، ص ٢٩٦.

٢٤- بورتر Porter, *Observations on the Turks*، المجلد الأول، ص ١٣٣.

٢٥- المرجع السابق، المجلد الثانى، صفحات ٤٧ و ٥٦. وقد ذكر أنطون هانجى Anton Hangi، الذي كتب فى تسعينيات الألف وثمانمئة دراسة عن الحياة فى البوسنة، تعقيباً مماثلاً حول الأمانة واختفاء السرقة فى سراييفو، حيث عاش لمدة عام بدون غلق رتاج بابه، على حد قوله (*Die Moslim's in Bosnien*)، ص ٧. وقد لاحظ الرحالة البريطانى هـ. س. طومسون H. C. Thomson فى ١٨٩٧: "يمكن الاعتماد على كلمة المسلم فى البوسنة بثقة تامة فى مسائل البيع والشراء" (*Outgoing Turk*، ص ١٦٢).

٢٦- موييتش 'Mujic, 'Prilog proucavanje uzivanja alkoholni pica.

٢٧- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص٢٤٣.

٢٨- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo*، ص ١١٨.

٢٩- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٦٢-٦٣.

٣٠- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٤٩؛ شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ٢٤٣.

٣١- دراجانوفيتش 'Draganovic, 'Izvjesce Petra Masarechija، ص ٤٤٦؛ د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne*، ص ٣٧٥.

٣٢- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص٥٢٦.

٣٣- المرجع السابق، ص ٤٧٩.

٣٤- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٧٠-٧٤.

٣٥- فرا لوفرو سيتوفيتش "أغنية الجحيم" 'Fra Lovro Sitovic, 'Pisna od pakla؛ والقصيدة نفسها على هيئة الشعر الشعبى، وعلى ذلك فمن المحتمل أنها قصد بها أن تحل محله. ويعقب أندريتش بأنها "تختلف فقط عن القصائد الحقيقية فى الشعر الشعبى فى أنها غير منتظمة باستمرار ولا تحوى أى جمال": *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٥٠. وعن المراجع الكاثوليكية الأخرى، انظر المرجع السابق، صفحات ٤٧-٥١.

٣٦- المرجع السابق، ص ٥٠؛ هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*، ص ٣٢.

٣٧- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، صفحات ٥٠٣-٥٠٤. وعن المحاولات الأوخر للتعدى على الكاثوليك، انظر جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitdt*، صفحات ٢٠٨-٢٠٩.

٣٨- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٧٥.

٣٩- شاميتش Samic, *Les Voyogeurs francais*، ص ١١٢.

٤٠- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص٧٥.

٤١- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٣٨.

٤٢- جازيتش 'Gazic, 'Les Collections manuscrits. وتوحى تقارير من سراييفو أن المجموعة الكاملة فى المعهد الشرقى قد تم تدميرها بواسطة المدفعية الصربية.

٤٣- انظر ليفلدت Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum ، صفحات ٤٥-٥٢.

٤٤- عن ملخص ثوين، انظر باليتش Balic, Das unbekannte Bosnien، صفحات ٢٧١-٢٨١. وأحدث دراسة، التى لم أتمكن من الرجوع إليها، هى هوكوفيتش Hukovic, Alhamiado knizevnost i njeni stvaraoci.

٤٥- انظر باليتش Balic, Das unbekannte Bosnien ، صفحات ١٦٥-١٩٠.

٤٦- ليفلدت Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum ، ص ٥٠؛ وعن Baseskija's chronicle، انظر جازيتش Gazic, 'Les Collections manuscrits'.

٤٧- هاجياهيتش Hadzijahic, Od tradicije do identiteta، ص ٧. وعن أمثلة كثيرة لكتاب يسمون لغتهم البوسنية، انظر المرجع السابق، صفحات ٢٤-٣١.

٤٨- أوربينى Orbini, Regno de gli Slavi ، ص ٣٧٧.

٤٩- ويلسون Wilson, Life and Times of Karadizic ، ص ٣٨٩.

٥٠- عن تفاصيل أكثر عن هؤلاء الكتاب وكثيرون غيرهم، انظر باليتش Balic, Das unbekannteBosnien، صفحات ٢٢١-٢٦٤.

٥١- انظر المرجع السابق، صفحات ٣٠٠-٣١٦؛ وعن تفاصيل عن مصحفين بوسنيين من القرن الثامن عشر رائعين بصفة خاصة بواسطة إبراهيم شيهوفيتش وحسين بوشنياك Ibrahim Sehovic and Husein Bosnjak، انظر جازيتش Gazic, 'Les Collections manuscrits'.

٥٢- وهناك دراسة قيمة عامة عن طرق الدراويش فى الإمبراطورية العثمانية أعدها ميرميرأوغلو Mirmiroglou, Oi Dervissai. وهناك مادة مفيدة فى رايكوت Rycaut, Present State of the Ottoman Empire، صفحات١٣٥-١٥١؛ و ف. و. هازلوك F. W. Hasluck, Christianity and Islam؛ وبيرج Birge, Bektashi Order؛ وتريمنجهام Trimingham, Sufi Orders in Islam.

٥٣- هانجيتش Handzic, 'U ulozi dervisa'.

٥٤- بيليتييه Pelletier, Sarajevo ، صفحات ٨٢-٨٩. وهناك وصف كامل عن هذه التكيات فى سيكيريتش Sikiric, 'Dervickolostorok es szent sirok'، ولكن سيكيريتش أخطأ عندما وصف تكية إسكندر باشا بأنها الأبكر (صفحات ٥٧٧-٥٧٨).

٥٥- تشيليبى Celebi, Putopis ، ص ١١٠.

٥٦- انظر الوصف فى ألجار Algar, 'Notes on the Naqshbandi Tariqat'، صفحات ٧٣-٧٧.

٥٧- بالاجيا Balagija, Les Musulmans yougoslaves، ص ١٠٣؛ انظر أيضاً ف. و. هازلوك F. W Hasluck, Christianity and Islam، المجلد الثانى، ص ٥٥١.

٥٨- بالينش Balic, Das unbekannte Bosnien، صفحات ١٠٤-١٠٥؛ وهاجياهيتش Hadzijahic, 'Udio Hamzev ija u atentatu'، وهوكيتش Hukic, ed., Islam i muslimani u Bosni، صفحات ٩١-٩٨.

٥٩- تشيليبى Celebi. *Putopis* ، ص١١٦.

٦٠- انظر مثلاً شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٥٥-٦٣. ويلاحظ شوميت دى فوسسيه أيضاً، كغيره من المراقبين الانعدام الحقيقى لتعدد الزوجات.

٦١- هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*، ص ١٩.

٦٢- كيكليه Quiclet, *Les Voyages*، صفحات ٧٢-٧٣.

٦٣- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٤٩-٥٠.

٦٤- برتوزييه Pertusier, *La Bosnie*، ص ٩١.

الفصل التاسع: يهود وغجر البوسنة

١- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia*، صفحات ٢٧-٢٨.

٢- المرجع السابق، صفحات ٧٥-٧٦.

٣- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، ص ٢. ويكتب فرايدنرايش Freidenreich أن سجلات المحاكم تلك تشير إلى ما بين عشر وخمسة عشر عائلة يهودية (*Jews of Yugoslavia*، ص ١٢)؛ ولكن هذا هو فقط تخمين ليفى حول حجم المجتمع اليهودى فى ذلك الوقت.

٤- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٥٣.

٥- لاحظ بيليتييه فى ١٩٣٤ أن المنسوجات فى سراييفو كان لا يبيعها تقريباً إلا اليهود: *Sarajevo*، صفحات ٤٨-٤٩. ويذهب سكاريتش إلى أن يهود سراييفو جاءوا أصلاً من سكوبيى: *Sarajevo i njegova okolina*، ص ٦٠.

٦- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٥٣.

٧- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٦-١٠.

٨- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia* ، ص ٧٢؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، صفحات ١٢ و ٢٧. وقد حُرق الحوش فى حريق ١٨٧٩، ولم يُبن ثانية. وعن وصف كامل عن الحى اليهودى فى سراييفو وخريطة للشوارع، انظر ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات ٨٥-١١١.

٩- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ١١١؛ وقد حرق تماماً فى ١٧٩٤ تم أعيد بناؤه.

١٠- فرايدنرايش Freidenreich, Jews of Yugoslavia ، ص ١٣.

١١- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، صفحات ١٠٥-١٠٦.

١٢- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات٥٣-٥٥ و ٦٦؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews in Yugoslavia*، صفحات ١٤-١٥؛ جولدستين Goldstein, *ed.*, *Jews in Yugoslavia*، ص ٦٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٣- شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، ص ٥٦٠.

١٤- عن هايون، انظر ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ١٥-١٧؛ شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، صفحات ٩٠١-٩٠٢؛ شولم Scholem, *Major Trends in Jewish Mysticism*، صفحات ٣٢١-٣٢٤؛ وعن الأشكنازى انظر فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، ص ١٣.

١٥- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ٨٨.

١٦- المرجع السابق، صفحات ١٩-٢٠. وقد نهب المعبد الرئيسى لطائفة السفرديم والمكتبة القديمة والمحفوظات التى كان يحتويها فور وصول القوات الألمانية إلى سراييفو فى ١٥ ابريل ١٩٤١ (لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، ص ٦٤).

١٧- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٥٣.

١٨- المرجع السابق، ص ٥٣. ويرجع شو تاريخ وصول باردو إلى ١٧٥٢؛ ويرجعه فرايدنرايش إلى ١٧٦٥؛ ويرجعه ليفى إلى ١٧٦٨. وكلهم يتفقون على أنه رحل إلى فلسطين فى ١٧٨١.

١٩- انظر الوصف وصورة ملونة للمخطوط بأكمله فى روت Roth, ed., *Sarajevo Haggadah*.

٢٠- فاكالوبولس Vacalopoulos, 'Tendances caracteristiques du commerce de la Bosnie'، ص ٩٩. ويذهب برتوزييه أيضاً إلى أن الرقم الإجمالى هو ٢٠٠٠ للبوسنة Pertusier, La Bosnie، ص ٧٨. على أن شوميت دى فوسسيه يذهب إلى أنه ١٢٠٠ Chaumettc-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، ص ٢٩٧.

٢١- وقال برتوزييه، الذى زارها فى ١٨١٢، إن سكان ترافنيك كانوا بأجمعهم من المسلمين فيما عدا "قليل من العائلات اليهودية" *La Bosnie*، ص ٢٩٧؛ على أن شوميت دى فوسسيه، الذى عاش هناك لسبعة أشهر فى ١٨٠٨، ذكر انهم كانوا يشملون ١٠٠٠ أرثوذكسى و ٥٠٠ كاثوليكى و٣٠٠ غجرى و ٦٠ يهودياً. وفى ١٨٩٨ دعى ويليام ميللر ترافنيك بأنها "إحدى المدن الإسلامية النقية فى البلاد" (*Travels and Politics*، ص ١٥٥).

٢٢- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، ص ١٣٠.

٢٣- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات ٦٢-٦٣.

٢٤- فرايدنرايش Freidenreich, Jews of Yugoslavia، صفحات ١٥-١٦.

٢٥- بيرنرايتر Baernreither, *Bosnische Eindrucke*، ص ٢٦.

٢٦- فريدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، ص ٢١٣.

٢٧- كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces*، ص ٢٧٦.

٢٨- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، صفحات ١٩-٢٢.

٢٩- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٣٥؛ لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، صفحات ٧٠-٧١.

٣٠- عن كل التفاصيل السابقة، انظر ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، صفحات ١٤٠-١٤٤، وسوليس 'Soulis, 'Gypsies in the Byzantine Empire. ويلاحظ فريزر فى Fraser, *Gypsies*، ص ٥٧، أن مصطلح *cingarije* فى مرسوم صربى كان من المحتمل أنه يعنى "إسكافى".
٣١- فريزر Fraser, *Gypsies*، ص ٨٣.
٣٢- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، صفحات ١٤٦-١٤٧.
٣٣- فيوكانوفيتش 'Vukanovic, 'Le Firman relatif aux tsiganes.
٣٤- فايجاند 'Weigand, 'Rumanen und Aromunen، ص ١٧٤. وكلمة *Baiesi* من الكلمة المجرية *beas* بمعنى "يحفر".
٣٥- كيوريبيشيتش Kuripesic, *Itinerarium*، ص ٣١؛ ويقول كذلك أن مثل هؤلاء العمال كانوا يوجدون فى أجزاء أخرى كثيرة من البوسنة (ص ٤٤). والطريقة المعتادة لم تكن بغسل التراب عن المعدن بل بجر جزة من صوف الخراف على قاع الجدول أو النهر.
٣٦- م. هازلوك 'M Hasluck, 'Firman regarding Gypsies، ص ٢.
٣٧- فريزر Fraser, *Gypsies*، صفحات ١٣٢-١٢٤.
٣٨- شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٧٧ و٨٦ و١٠٣.
٣٩- م. هازلوك 'M Hasluck, 'Firman regarding Gypsies، صفحات ١٠-١١.
٤٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦.
٤١- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٤٩.
٤٢- شوميت دى فوسسبه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٠؛ برتوزييه Pertusier, *La Bosnie*، ص ٧٨.
٤٣- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٧٦-٧٧ (عن ١٨٦٥)؛ ماورر Maurer, *Eine Reise durch Bosnien*، ص ٣٧٣ (عن أخريات ستينيات الألف وثمانمئة)؛ ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٧٠ (عن ١٨٧٠).
٤٤- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٥٧؛ شوميت دى فوسسبه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٨. ولاحظ روشكبفيتش Roskiewicz حوالى ١٠٠٠ غجرى فى سراييفو فى ستينيات الألف وثمانمئة (*Studien uber Bosnien*، صفحات ١٧٩-١٨٠).
٤٥- وآمل أن يكون الوصف الذى جمعته فى هاتين الفقرتين تحليلاً دقيقاً لبعض البيانات المتعارضة. وأجود الأبحاث التى استقيت منها هى: جيليات-سميث Gilliat-Smith, 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia'؛ والتعقيبات فى Gluck 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien'، ص ٤٠٥؛ ومقالة لكاتب مجهول فى *Bosnische Post* لعام ١٨٩٥، مترجمة فى فيليبسكو Filipescu, *Coloniile romane din Bosnia*، ص ٢٠٥. ويرفض فيليبسكو نفسه حجة المؤلف.

ويبسط نظريته الخاصة "الرومانية الخالصة" فى صفحات ١٩٩-٢٩٣. ويدحض فايجاند فيليبسكو فى 'Rurnanen und Aromunen'؛ ويناقش لوكوود بايجاز موضوعى الغجر البيض و cergasι فى *European Muslims*، صفحات ٣٠-٣١.

٤٦- فريزر Fraser, *Gypsιes*، ص ٢٣١.

٤٧- طومسون Thomson, *Outgoing Turk*، صفحات ١٧٠-١٧١.

٤٨- فريزر Fraser, *Gypsιes*، صفحات ٥٨-٥٩.

٤٩- أوليك Uhlik, 'Serbo-Bosnian Folk-Tales, no. 8'، صفحات ٩٢-٩٣.

٥٠- أوليك Uhlik, 'Serbo-Bosnιan Folk-Tales, no. 9' ، صفحات ١١٦-١١٧. ومعظم الذين أبيدوا كانوا غجرا كرواتيين، وكانوا كلهم تقريبا أرثوذكس.

الفصل العاشر: المقاومة والإصلاح ١٨١٥-١٨٧٨

١- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٩٣-١٩٤ و ٢٠١.

٢- بويه Boue, *La Turquιe d'Europe*، المجلد الرابع، ص ٣٧٤؛ ديورديبف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.

٣- وعن هذه الحوادث، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ٧٨-٨٣؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire* ، المجلد الثانى، صفحات ١٩-٢٤.

٤- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات ٣٧٥-٣٧٧.

٥- روتنبرج Rothenberg, *Mιlitary Border in Croatιa*، ص ١٣٠.

٦- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات٣٧٨-٣٨٨.

٧- المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٣٨٤.

٨- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ١٠٣.

٩- شوبان وأوربيسينى Chopin and Urbicini, *Provιnccs danubiennes*، ص٢٤٢.

١٠- كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovιc, *Kapetanιje u Bosni*، صفحات ٦٨-٦٩؛ شلييفو Sljιvo, *Omer Pasa Latas*، ص ١٠؛ ديورديبف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.

١١- عن التنظيمات، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ١٠٦-١٢٨؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، صفحات ٥٨-١٣٣.

١٢- موير ماكنزى وإربى Muir Mackenzie and Irby, *Travels ιn the Slavonic Provinces*، المجلد الأول، ص ١٣.

١٣- بويه Boue, *La Turquιe d'Europe*، المجلد الثالث،ص ٥٣.

١٤- شيشيتش Sisic, ed., *Bosna za vezιrovanja Omer-pase*، ص ٢٧.

١٥- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، ص ١١٩.

١٦- شلييفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.

١٧- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ١٠٤؛ ولوصف أكثر تفصيلاً عن محاولات طاهر باشا للإصلاحات الضرائبية، انظر شلييفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ١٨-٢٤.

١٨- شلييفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.

١٩- شابانوفيتش Sabanovic, *Bosanski pasaluk*، ص٩٦.

٢٠- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ١١١.

٢١- المرجع السابق، صفحات ٢٣٥ و ٣٤٧ و ٣٥٧.

٢٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٢-٣٠٣.

٢٣- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٢.

٢٤- لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، ص ١١٦.

٢٥- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، صفحات ٤٣ و ٣٨-٣٩ و ٨٤-٨٥ على الترتيب.

٢٦- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ٣٥٨؛ أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٦٤-٦٥؛ تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ١١٤-١١٦؛ جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٤.

٢٧- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٩٩ و ١٠٢.

٢٨- ماورر Maurer, *Eine Reise durch Bosnien*، صفحات ٣٦٤-٣٦٥؛ قارن تعقيبات أتاناسكوفيتش Atanaskovic فى ١٨٥٣: جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٤.

٢٩- من تقرير يوفانوفيتش، خلف أتاناسكوفيتش، فى ١٨٦٢: جفرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٢٨٠.

٣٠- انظر أندريتش Andric, *Development of Spiriual Life in Bosnia*، صفحات ٥٣-٥٤ (يوكيتش)؛ وإماموفيتش Imamovic, 'O historiji bosnjackog pokusaja'، ص ٤١ (بترانوفيتش ونظيره الكاثوليكى كلمنت بوجيتش المترجم فى القنصلية البروسية)؛ وكوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، صفحات ٣٣-٣٤ (بيلاجيتش). وعن سيرة بيلاجيتش اللاحقة النابضة بالحيوية، والتى شملت فترات من القلاقل بين دوائر المهاجرين البوسنيين فى بلجراد وبوخارست، انظر كوبريتش-أمرين Cupric-Amrein, *Die Opposition in Bosnien*، صفحات ٦١-٦٤.

٣١- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، ص ١٦٦.

٣٢- عن ترجمة لهذا النص، انظرجرمك Grmek *et al.*, eds., *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٤٢-٥٣.

٣٣- المرجع السابق، صفحات ٦٤-٨٠، وبخاصة صفحات ٧٥ و٧٨. وعن عروض أخرى من جاراشانين للقيام بالدعاية فى البوسنة، انظر سليبتشيفيتش Slijepcevic, *Pitanje Bosne*، صفحات ٢١-٢٢.

٣٤- انظر باناك Banac, *National Question*، صفحات ٨٥-٨٩.

٣٥- ويخلط شو بين هذه الحملة العسكرية لعمر باشا وبين حكمه للبوسنة فى ١٨٥٠-١٨٥٢: *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٤٩.

٣٦- كوتشيت Koetschet, *OsmanPascha*، صفحات ١-٥ و ١١-١٢.

٣٧- المرجع السابق، ص ٧؛ ويلاحظ كوتشيت بالصدفة أن كل الإدارة المالية للولاية كانت تتكون من مدير ومراقب وخمسة عشر كاتباً. وعن قانون الإصلاح الريفى، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، صفحات ٨٨-٩١.

٣٨- ب. ييلافيتش وس. ييلافيتش B. Jelavich and C. Jelavich, *Establishment of the Balkan National States*، ص ١٤٣.

٣٩- لوصف أكثر تفصيلاً عن إصلاح ١٨٥٩، انظر توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ١٠٥-١٠٦.

٤٠- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، ص ٦.

٤١- المرجع السابق، صفحات ٢٤-٢٥. وعن هذا النوع من النزهات، المعروفة باسم *teferic*، والتى كانت لا يزال يمارسها الكاثوليك فى ثلاثينيات الألف وتسعمئة، انظر بيليتييه *Sarajevo*، ص ١٤٣.

٤٢- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، صفحات ٤٦-٤٩. ولم يوجد أى منها؛ ولكن يوجد كثير من الدلائل على الاهتمام الروسى (بل التدخل) فى شئون البوسنة خلال تلك الفترة فى بيزاريف وإكميتشيتش Pisarev and Ekmecic, *Osvoboditelnaya borba narodov Bosnii i Rossiya*.

٤٣- سلييبتشيفيتش Slijepcevic, *Pitanje Bosne* ، ص ٢٥.

٤٤- كوتشيت Koetschet, *Ostman Pascha* ، ص ٥٥.

٤٥- ماير Maier, *Deutsche Siedlungen*، ص ٩؛ أندرسون Anderson, *Miss Irby*، صفحات ٦٠-٦٧؛ بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ١٣٨.

٤٦- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ١١٩.

٤٧- وقد وصف آرثر إيفانز، بالرغم من مواقفه المعادية للمسلمين، الكنيسة بأنها "صرح مختال مستفز" عندما رآها فى ١٨٧٥: "لم يكن المسيحيون راضين عن السماح لهم ببناء كنيسة فى أبرز مكان فى أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة، ولكنهم بالضرورة نصبوا عمودياً مبنى متظاهراً ضخماً يلقى فى الظلال أكبر أحد مئتى مسجد أو تزيد... ولم يكن من المتوقع أبداً أن ينظر الجهلة المتعصبون من المسلمين بالتزان إلى هذا الإعلان المسيحى الأخير بإذلالهم" (*Through Bosnia*، ص ٢٤٧).

٤٨- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha* ، ص ٥٥.

٤٩- المرجع السابق، ص ٧٦.

٥٠- م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije* ، ص ٧.

٥١- إيفانز Evans, *Through Bosnia*، صفحات ٣٣٧-٣٣٨؛ وكوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٦-٨. وتعرف هذه باسم اضطرابات نيفيسينيى Nevesinje، ولكن أول مكان عرف أنه قام بالتمرد كان قرية جابيلا

Gabela فى ٣ يوليو ثم تبعتها نيفيسينيى بعد أسبوع واحد (MacKenzie, *Serbs and Pan-Slavian*، ص ٣٠).

٥٢- عن الاشتباكات بين العثمانيين والجبل الأسود فى ١٨٥٧-١٨٥٨ و١٨٦٠-١٨٦١ و١٨٧٤، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٥٠، و م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٨.

٥٣- م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٩.

٥٤- تشوبريلوفيتش Cubrilovic, *Bosanski ustanak*، صفحات ٦١-٦٧. ويعقب إيفانز أن العصيان المسلح فى الهرسك كان بصورة رئيسية حرباً زراعية" (*Through Bosnia*، ص ٣٣٤)؛ ويعقب بيتر شوجار: "لا يوجد هناك أدنى شك أن المشكلة الزراعية هى التى أشعلت هذه الثورة" (Peter Sugar, *Industrialization of Bosnia*، ص ٢٢).

٥٥- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ١٢ و ٣٣؛ وقد سمع إيفانز، أثناء عبوره إلى البوسنة فى أوائل أغسطس، عن "كثير من الكروات والسلوفينيين" من زغرب وماريبور وليوبليانا كانوا فى طريقهم إليها (*Through Bosnia*، ص ٨٧).

٥٦- مانديتش Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٢٢ (مئة ألف)؛ إيفانز Evans, *Illyrian Letters*، ص ٤ (مئتين وخمسون ألفاً)؛ ويذكر التقرير النمسوى الرسمى أنه كان هناك ما يزيد على مئة ألف بالأراضى النمسوية وحدها (Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*، ص ٣٦). وعند نهاية مايو ١٨٧٨، قدر جوستاف تيومل مئة وخمسون ألفاً بالأراضى النمسوية وسبعون ألفاً فى الجبل الأسود وعشرة آلاف فى صربيا (كابيديتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، ص ٢٩).

٥٧- من خطاب كتبه لاجئ بوسنى فى سلافونيا فى مارس ١٨٧٧، واقتبسه موير ماكنزى وإربى فى Travels in the Slavonic Provinces، المجلد الأول، ص ٣٦.

٥٨- إيفانز Evans, *Through Bosnia*، ص ٣٣٧.

٥٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*، ص ٤١.

٦٠- إيفانز Evans, *Illyrian Letters*، ص ٥٥.

٦١- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٧٨-٧٩.

٦٢- المرجع السابق، صفحات ٨٦-٨٨؛ م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*، صفحات ٢٨-٣٠.

٦٣- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٩٠ و ٩٦ و١٠٢؛ م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*، صفحات ٣٠-٣١.

٦٤- عن عدد القوات، انظر Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*, appendix, Beilag 8 (٨٢١١٣ رجلاً و ١٣١٣ فرساً)؛ وقد طبع المساح، ستيرنك Sterneck، بعض نتائج أبحاثه فى ١٨٧٧ (*Geografische Verhaltnisse*).

٦٥- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ١٠٢-١٠٩؛ Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupaticm Bosniens*، ص ٤٥٠ (اقتباس)؛ م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije*، صفحات ٦٤-٧١ و٩٧-٩٩.

الفصل الحادى عشر: البوسنة تحت الحكم النمساوى-المجرى ١٨٧٨-١٩١٤

١- سيتون واطسون Seton Watson, *Role of Bosnia*، ص ١٩.

٢- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، ص ٢٠. ويتذكر الوزير المجرى بوريان بعد ذلك قائلاً: "عندما قبل أندراسى الانتداب لاحتلال البوسنة والهرسك فى مؤتمر برلين، فإن الرأى العام فى كل المملكة تقريباً كان ضده" (*Austria in Dissolution*، ص ٢٩١).

٣- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*، ص ٢؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٩٢.

٤- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*، ص ٣.

٥- عن موجز مفيد، انظر شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، صفحات ٨ و٢٦-٣٢؛ وعن المحاكم الشرعية، أنظر أيضاً ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٢٧٦-٢٧٧. وعن شرح واف للبنية الإدارية، انظر شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٥٤-٦٠.

٦- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، صفحات ٩-١١.

٧- كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، صفحات ٣٤-٣٥.

٨- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، صفحات ٤٢-٤٨؛ كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، صفحات ١٠٩-١٢٠.

٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، ص ١٠٢؛ كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، ص ١١٠.

١٠- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، ص ١٣٩.

١١- دونيا Donia, *Islam under the Eagle*، صفحات ٧٢-٧٦.

١٢- شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٢٤٩-٢٥٠. وقد تباهى شميد، الذى كان يعمل رئيساً لمكتب الإحصاء فى سراييو، بأن هجرة المسلمين البوسنيين كانت أقل من تلك الأراضى التى كانت تتبع الدولة العثمانية سابقاً مثل بلغاريا. وإذا كان ذلك صحيحاً فمن السهل تفسيره: فإن مسلمى البوسنة كانوا أقل الناس احتياجاً لأن يهاجروا إلى تركيا، لأنهم لم يكونوا يتكلمون التركية.

١٣- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Uz prilog Bogicevica'، ص ١٩١ (مصراً على ٣٠٠٠)؛ باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ٥١ (عن نتائج أبحاث الجغرافى سليمان سملاتيتش Sulejman Smlatic).

١٤- بوجيتشيفيتش 'Bogicevic, 'Emigracije muslimana؛ أ. بوبوفيتش A Popovic, L'Islam balkanique، ص ٢٧٢. ومن المؤكد أن هذا التقدير ٨٠٠٠ قليل جدا. فإن فرديناند شميد، الذى كان حريصاً على عدم المغالاة فى التقدير، اعتقد أن حوالى ٨٠٠٠ قد هاجروا فيما بين إعلان قانون الجيش فى نوفمبر ١٨٨٢ وبين إدخال نظام تصاريح الخروج فى أكتوبر ١٨٨٣ (Bosnien، ص٢٤٩).

١٥- كابيديتش 'Kapidzic, 'Pokret za iseljavanje.

١٦- درهام Durham, Twenty Years، ص ١٦٣.

١٧- دونيا Donia, Islam under the Eagle، صفحات٢٥-٢٧؛ توماسيفيتش Tomasevich, Peasants, Politics, and Economic Change، صفحات ١٠٨-١٠٩.

١٨- ميللر Miller, Travels and Politics ، ص ٧.

١٩- شوجار Sugar, Industrialization of Bosnia، صفحات ٤٣-٥٠. وقد شيد توبال عثمان باشا قبل ذلك مسافة قصيرة من خطوط السكك الحديدية من بانيا لوكا حتى الحدود؛ ولكن فى ١٨٧٨ "نمت الحشائش على الخطوط ومازالت البوسنة بدون قطار واحد" (Miller, Travel and Politics، ص ١٠٨).

٢٠- شميد Schmid, Bosnien ، صفحات ٥٧٩ و ٥٨٦.

٢١- درهام Durham, Twenty Years، ص١٦٠. وعن وصف للحالة المزرية للطرق خلال العقد النهائى للحكم العثمانى، انظر ستربك Sterneck, Geografische Verhaltnisse، صفحات ٢١-٢٢.

٢٢- شوجار Sugar, Industrialization of Bosnia ، صفحات ١٠٢-١١٣ و ١٢٩-١٤٣ و ١٦٧.

٢٣- المرجع السابق، صفحات ١٨٢-١٨٥؛ ويلاحظ كيوبريتش-أرمين أنه بحلول ١٩١٢ فإن ١٠ ٪ من العمال البوسنيين كانوا نقابيين وكان ٤٣ ٪ من العمال فى سراييفو (Die Opposition in Bosnien، صفحات ١٥٣-١٥٧).

٢٤- انظر مثلا ديديير Dedijer, Road to Sarajevo، ص ٢٠٢، حيث تسمى "الفوران الاجتماعى الأكبر".

٢٥- ميللر Miller, Travel and Politics ، صفحات ١٠١-١٠٣.

٢٦- طومسون Thomson, Outgoing Turk، ص ١١٠. وكانت العادة قد أوقفت بسبب عدد من الإصابات الشديدة التى أحدثتها للجوكية.

٢٧- درهام Durham, Twenty Years ، ص ١٥٤.

٢٨- ماير Maier, Die deutschen Siedlungen ؛ شميد Schmid, Bosnien ، صفحات ٢٤٦-٢٤٨.

٢٩- شميد Schmid, Bosnien، ص ٢٤٥. وكان عدد الجنود فى كل حالة حوالى ٧٠٠٠ عند نهاية القرن (كيرتيس Curtis, Turk and his Lost Provinces، ص ٢٨١).

٣٠- ميللر Miller, Travels and Politics، ص ٩٧؛ وعن تفاصيل نظام التعليم، انظر المرجع السابق، ص٩٨؛ و أ. بوبوفيتش Popovic L'Islam balkanique ، صفحات ٢٨٠-٢٨٣؛ و شميد Schmid, Bosnien، صفحات ٦٩٥-٧٤٠.

٣١- عن كل التفاصيل السابقة، انظر بيليتييه Pelletier. *Sarajevo* ، صفحات ١٣٧-١٤٠.
٣٢- ميللر Miller. *Travels and Politics* ، ص ٩١.
٣٣- كيرتيس Curtis. *Turk and his LostProvinces* ، ص ٢٧٥.
٣٤- دونيا Donia. *Islam under the Eagle* ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
٣٥- المرجع السابق، ص ١٨٩.
٣٦- المرجع السابق، صفحات ٢٢-٢٤؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic. *L Islam balkanique*، ص ٢٧٥.
٣٧- دونيا Donia. *Islam under the Eagle* ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
٣٨- المرجع السابق، صفحات ١٢٤-١٦٦. وأكثر وصف تفصيلي هو هاوبتمان Hauptmann. *Borba muslimana za autonomiju*.
٣٩- إماموفيتش Imamovic. 'O historiji bosnjackog pokusaja' ، صفحات ٣٥-٣٦.
٤٠- دونيا Donia. *Islam under the Eagle*، صفحات ١٢٠-١٢٤، Banac. *National Question*، ص ٣٦١؛ إماموفيتش Imamovic. 'O historiji bosnjackog pokusaja'، ص ٤١.
٤١- طومسون Thomson. *Outgoing Turk*، صفحات ١٨٠-١٨١.
٤٢- بيرنرايتر Baernreither. *Bosnische Eindrucke* ، ص ٢٥.
٤٣- شميت Schmitt. *Annexation of Bosnia* ، ص ١٢؛ درهام Durham. *Twenty Years*، ص ١٦٤.
٤٤- ب. يلافيتش B. Jelavich. *History of the Balkans*، ص ١١١؛ ديدير Dedijer. *Road to Sarajvo*، ص ١٨٠.
٤٥- شميت Schmitt. *Annexation of Bosnia* ، ص ٧١.
٤٦- عن شروط الاتفاقية، انظر المرجع السابق، ص ١١٩؛ وعن الأزمة، المرجع السابق، صفحات ١٤٤-٢٢٩.
٤٧- دونيا Donia. *Islam under the Eagle* ، صفحات ١٦٩-١٧٥.
٤٨- والأرقام وردت في Naval Intelligence Division. *Jugoslavia*، المجلد الثاني، ص ٥٧. وكان عدد السكان في ١٩١٠ (١٨٩٧٩٦٢) ٥, ٤٣ ٪ أرثوذكس , ٤, ٣٢ ٪ مسلمين و ٨, ٢٢ ٪ كاثوليك و ٦, ٠ ٪ يهود.
٤٩- باناك Banac. *National Question*، وأصبحت جايرت موالية للصرب في ١٩٠٩ (ا. بوبوفيتش A Popovic. *L'Islam balkanique* ، ص ٢٨٥).
٥٠- كيوبريتش-أمرين Cupric-Amrein. *Die Opposition in Bosnien*، صفحات ٦٦-٦٧ و ٧٥-٧٦ و ١٠٢.
٥١- دونيا Donia. *Islam under the Eagle*، ص ١٧٧. ويحكم إيفو باناك حكماً مماثلاً منتهياً إلى أن "الغالبية العظمى من المسلمين العاديين نأى عن عملية التأميم" (*National Question*، ص ٣٦٦).
٥٢- كيوبريتش-أمرين Cupric-Amrein. *Die Opposition in Bosnien*، ص ٣٩٢. وقد ولد أندريتش لعائلة كاثوليكية في ترافنيك؛ وقد اتخذ موقفاً مواليا ليوغوسلافيا كان

فى حقيقته موقفاً مواليا للصرب. وقد وصفه صديق كاشفا "أنه كاثوليكى صربى من البوسنة" (Hawkesworth, *Ivo Andric*، ص ١٨).

٥٣- ويتفق أكثر الأساتذة المتخصصين الآن على أن الشرح الممتاز الذى وضع بواسطة فيزلين ماشليشا Veselin Maslesa أساء فهم ملادا بوسنا Mlada Bosna عندما صورت على أنها تجمع صربى قومى (*Mlada Bosna*، ص ١١٦ مثلا).

٥٤- ديدبير Dedijer. *Road to Sarajvo* ، ص ٣٤١.

٥٥- المرجع السابق، صفحات٢٣٦-٢٤٥.

٥٦- المرجع السابق، صفحات ٢٦٢-٢٦٥.

٥٧- المرجع السابق، ص ٢٧٧.

٥٨- Carnegie Endowment. *Report on the Balkan Wars* ، صفحات ١٤٨-١٥٨.

٥٩- ديدبير Dedijer. *Road to Sarajevo*، ص ٢٧٨؛ دونيا Donia. *Islaan under the Eagle*، ص ١٨٠.

٦٠- ديدبير Dedijer. *Road to Sarajevo* ، صفحات ٢٠٦-٢٠٧.

٦١- المرجع السابق، صفحات ٣١٩-٣٢١.

الفصل الثانى عشر: الحرب والمملكة البوسنة ١٩١٤-١٩٤١

١- بيوريفاترا Purivatra. *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٣٤.

٢- ديدبير Dedijer. *Road to Sarajevo*، ص ٣٢٨.

٣- المرجع السابق، صفحات ٢٨٩-٢٩٤ و ٣٨٨-٣٩٠.

٤- المرجع السابق، صفحات ٤١٨-٤١٩.

٥- وعن ملخص جيد للنظرة التاريخية الأحدث، انظر ستون Stone, *Europe Transformed*، صفحات ٣٢٦-٣٣٩.

٦- سكاريتش Skaric *et al* , *Bosna pod austro-ugarskom upravom* ، صفحات ١٦٠-١٦١.

٧- المرجع السابق، صفحات ١٥٧-١٥٨.

٨- هوكسوورث Hawkesworth. *Ivo Andric* ، صفحات ١٥-١٧.

٩- سكاريتش Skaric *et al*, *Bosna pod austro-ugarskoom upravom*، صفحات ١٥٧-١٥٨؛ كابيجيتش Kapidzic. 'Austro-ugarska politika' ، ص ١٧.

١٠- عن المتطوعين المسلمين، انظر بالاجيا Balagija. *Les Musulmans yougoslaves*، ص ١٢٥.

١١- كابيجيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika' ، ص ٩.

١٢- وعن أحسن شرح لجميع هذه الحجج، انظر باناك Banac, *National Question* ، صفحات ١١٥-١٢٥.

١٣- كابيجيتش Kapidzic. 'Austro-ugarska politika'، صفحات٢٤-٢٦ و ٣٥.

١٤- كريزمان Krizman. *Hrvatska u prvom svjetskom ratu* ، ص ٢٥٥.

١٥- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak* ، ١٣٤.
١٦- كريزمان Krizman, *Hrvatska u prvom svjetskom ratu* ، صفحات ٢٤٦-٢٤٨.
١٧- المرجع السابق، صفحات ٢٥٥-٢٥٧.
١٨- المرجع السابق، صفحات ٣١٦-٣١٧.
١٩- المرجع السابق، صفحات ٣١٧-٣٢٠.
٢٠- وأعاد الصحفي شارل ريفيه Charles Rivet نشر الحديث في *Chez les slaves liberes*، صفحات ١٦٩-١٧٤؛ وانظر بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ١٥٠-١٥١. وقد كانت هناك أيضاً بعض التقارير في نهاية ١٩١٨ عن مسلمين من شمال غربي البوسنة يغيرون على القرى الصربية في النواحي الكرواتية المجاورة (باناك Banac, *National Question*، ص ١٣٠).
٢١- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ٢٥٥.
٢٢- باناك Banac, *National Question* ، ص ٣٦٧.
٢٣- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٣٢٩.
٢٤- عن جايرت، انظر المرجع السابق، ص ٢٨٥؛ بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves*، صفحات ١٢٦-١٢٧. وعن المجموعة الموالية للصرب في منظمة المسلمين اليوغوسلاف، انظر بيويفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٦٥.
٢٥- وتعقيبات بروتيتش Protic مسجلة في مذكرات النحات إيفان ميشتروفيتش Ivan Mestrovic: "وعندما يعبر جيشنا نهر الدرينا، سنعطي الأتراك مهلة ٢٤ أو ٤٨ ساعة للرجوع إلى عقيدة أسلافهم. وأي واحد يرفض سيتم ذبحه، كما سبق أن فعلنا في صربيا" (جرمك Grmek *et al*, eds. *Le Nettoyage ethnique*، ص ١٢٦).
٢٦- ريفيه Rivet, *Chez les slaves liberes* ، صفحات ١٥٤-١٦١ و ١٧٧.
٢٧- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٨١؛ وعن تفاصيل عن عينات التصويت داخل البوسنة، وعن الضعف المتناهي للأحزاب المسلمة الأخرى، انظر باناك Banac, *National Question*، صفحات ٣٧٠-٣٧١.
٢٨- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٣٤٧-٣٥٥.
٢٩- باناك Banac, *National Question* ، ص ٣٧٠.
٣٠- عن موجز مفيد عن دستور فيدوفدان، انظر Naval Intelligence Division, *Jugoslavia*، المجلد الثاني صفحات ٣٢٢-٣٢٨.
٣١- ماتشيك Macek, *Struggle for Freedom* ، ص ٩٤.
٣٢- باناك Banac, *National Question* ، صفحات ٣٧٤-٣٧٥.
٣٣- إيفانز Evans, *Through Bosnia* ، ص ١٩١.
٣٤- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٢٧٩ و ٢٨٣؛ يلافيتش Yelavitch, 'Les Musulmans de Bosnie'، ص ١٢٨.

٣٥- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٣٤٢.
٣٦- لويس Lewis, *Emergence of Modern Turkey* ، ص ١٠١. وقد حل محل العمامة.
٣٧- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٣٤٢-٣٤٥.
٣٨- كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces* . وقد شُدِهِ آرثر إيفانز بطريقة مماثلة "بالمظهر الإسلامى الدقيق" للمسيحيين، بنسائهم المحجبات ورجالهم بالعمائم ذات العُذبة (طرف العمامة المتدلى على العنق): *Through Bosnia* ، ص ١٣٣.
٣٩- جيبونز Gibbons, *London to Sarajevo* ، ص ١٨٠.
٤٠- هورنبى Hornby, *Balkan Sketches* ، ص١٥٣. والأرغول gusle عبارة عن آلة موسيقية وترية تستخدم لمصاحبة الأغانى الملحمية.
٤١- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ٣٠ و ٤٨-٤٩.
٤٢- ديدير Dedijer *et al.*, *History of Yugoslavia* ، صفحات ٥٤٣-٥٤٤.
٤٣- ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثانى، صفحات ٢٠٠-٢٠١.
٤٤- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، ص ٩٤؛ كليسسو Clissold, ed , *Short History of Yugoslavia*، صفحات ١٨٣-١٨٤.
٤٥- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، صفحات ٣١٨-٣١٩.
٤٦- المرجع السابق، ص ٣٢٣؛ ديورديف Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon'، ص ٣١٩.
٤٧- 'Statuto della comunita musulmana' .
٤٨- ستويادينوفيتش Stojadinovic, *Ni rat ni pakt* ، صفحات ٣٤٤-٣٤٦.
٤٩- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٢٨-١٢٩.
٥٠- ماتشيك Macek, *Struggle for Freedom* ، ص ١٨٨.
٥١- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-١٩٢؛ كليسو Clissold, ed , *Short History of Yugoslavia*، صفحات ١٩٨-٢٠٠.
٥٢- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ١١٦ و ١٢٧.
٥٣- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٩٨-١٩٩.
٥٤- عن ملخص لهذه الأحداث مؤكدا استمرار سياسات حكومة ما بعد الانقلاب، انظر ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثانى، صفحات ٢٣٥-٢٣٧.

الفصل الثالث عشر: البوسنة والحرب العالمية الثانية ١٩٤١-١٩٤٥

١- وقد حسب المؤرخ الصربى بوجوليوب كوتشوفيتش Bogoljub Kocovic أنه كان هناك ١٠١٤٠٠٠ قتيل فى يوغوسلافيا (*Zrtve u Jugoslaviji*، ص ١٢٤). والعلامة الكرواتى فلاديمير زريافيتش Vladimir Zerjavic وصل بطريقة مستقلة إلى عدد مماثل هو ١٠٢٧٠٠٠ (باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٧).

٢- هورى وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*، صفحات ٨٩ و ٩١.

٣- لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora* ، ص ٦٤.

٤- روث Roth, ed., *Sarajevo Haggadah* ، ص ٨.

٥- لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، صفحات ١٥ و ٦١-٧٠.

٦- ب. يلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans*، المجلد الثانى، ص ٢٦٣.

٧- هورى وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*، صفحات ٩٩ و ١٠٢. ويدعى جرمك أن أوائل أحداث القتل بعد الغزو الألمانى كانت للكروات والمسلمين، وأن المذابح للصرب حدثت بعد ذلك (*Le Nettoyage ethnique*، ص ١٨٧). وحيث انهم لل يحددون تواريخ هذه الأحداث، فإن من العسير الحكم على الأمر؛ ولكنه من الواضح أن قتل و/أو طرد الصرب كان هدفا رئيسيا للأوستاشا، وليس رد فعل عارض لأحداث أخرى.

٨- ديدير Dedijer *et al*, *History of Yugoslavia*، صفحات ٥٩١-٥٩٢؛ ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana* ، صفحات ٦-٨. وفى شرح ديدير ومليتيتش فإن هذه المذابح بواسطة الصرب المحليين منسوبة بطريقة غير محتملة الوقوع إلى "التشيتنيك".

٩- ديدير Dedijer et *al.*, *History of Yugoslavia* ، ص ٥٩٦.

١٠- يوجد أفضل شرح عن منظمة ميهايلوفيتش فى روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*؛ وتوماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ؛ وميلازو Milazzo, *Chetnik Movement*؛ وكارشمار Karchmar, *Draza Mihailovic* .

١١- عن التعليمات، انظر روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies* ، ص ٢٦، وديروك Deroc, *British Special Operations*، ص ٢١٠.

١٢- بافلوويتش Pavlowitch, *Tito* ، ص ٢٦.

١٣- المرجع السابق، ص ٣٤؛ ديلاس Djilas, *Wartime* ، ص ٤.

١٤- انظر الخريطة فى توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، ص ١٦٩ (وأيضا تشمل الأراضى التى سوف تجتز من المجر ورومانيا وبلغاريا).

١٥- والنص مطبوع فى ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، صفحات ٨-١٦ (مع خريطة كروكية فى ص ١٥)، وترجم فى جرمك Grmek *et al., Le Nettoyage ethnique*، صفحات ١٩١-١٩٧.

١٦- ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nod Muslimana*، صفحات ٣٣-٣٤.

١٧- عن الوثيقة، انظر المرجع السابق، صفحات ٢٥-٣٠ (حيث قدمت على أنها أصلية). وعن نسخ ضوئية لصفحتين، انظر Drzava komisija, *Dokumenti* ، المجلد الأول، صفحات ١١-١٢. ويقبلها توماسيفيتش على أنها أصلية (*Chetniks*، ص ١٧٠)؛ على أن لوسيان كاشمار قدم أسبابا تفصيلية ومقنعة لاعتقاده بأنها مزيفة، استند إليها

القائدان لإعطاء نفسيهما تفويضاً أقوى لأعمالهما (Draza Mihailovic ، صفحات ٣٩٧ و ٤٢٨-٤٣٠).

١٨- زبورنيك Zbornik ، المجلد الأول، الكتاب الثانى، ص ٣٧٧؛ وتاريخ تلك الوثيقة غير مؤكد، ولا يمكن استبعاد إمكانية أنها قد تكون إما مزيفة أو منسوبة نسباً خاطئاً.

١٩- مارتين Martin, *Web of Disinformation*، ص ٥١.

٢٠- كارشمار Karchmar, *Draza Mihailovic* ، ص ٥٧٥.

٢١- ديروك Deroc, *British Special Operations*، ص ٢٢٦؛ بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، صفحات ١٧-٢٢.

٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٨٧.

٢٣- المرجع السابق، صفحات ١٨٨-١٨٩.

٢٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٣٩.

٢٥- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ٥٢-٥٥؛ هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ١٨٩.

٢٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، صفحات ١٩٢-١٩٤.

٢٧- انظر الخطابات إلى The *Times Literary Supplement* من ألبرت سيتون (١٩ مايو ١٩٧٢) ونورمان ستون (٢٨ مايو ١٩٩٣).

٢٨- ليز Lees, *Rape of Serbia* ، صفحات ٨٤-٨٥.

٢٩- روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies* ، ص ١٠٠.

٣٠- توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، صفحات ٢٣٣-٢٣٤.

٣١- هوتل Hottl, *Secret Front* ، ص ١٧١. وكان هوتل (المعروف أيضاً باسم "والتر هاجن") هو ضابط المخابرات الألمانية الأعلى ليوغوسلافيا. وقد لاحظ أيضاً رسالة وقعت فى يد المخابرات الألمانية من ستالين إلى تيتو، يأمره بالتعاون مع الألمان ضد الحلفاء فى حالة انزالهم. وهذه المفاوضات بين البارتيزان والألمان كانت تجرى فى سرية تامة حتى ظهور تقرير هوتل فى الخمسينيات؛ ومنذ ذلك الحين ذكرهم روبرتس فى (*Tito, Mihailovic and the Allies*، صفحات ١٠٨-١٠٩) وأخيرا اعترف بها أحد المشتركين، ديلاس Djilas (*Wartime*، صفحات ٢٣١-٢٣٧).

٣٢- نويباخر Neubacher, *Sonderauftrag Sudost* ، صفحات ١٧٩-١٨٠.

٣٣- ميلازو Milazzo, *Chetnik Movement* ، ص ١٣٣.

٣٤- توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، صفحات ٢٥٢-٢٥٣ و ٣٤٩. وعن التوتر الشديد بين سياسة الإيطاليين والألمان تجاه التشيتنيك فى ذلك الوقت، انظر ميلازو Milazzo, *Chetnik Movement*، ص ١٢٧.

٣٥- ديكن Deakin, *Embattled Mountain* ؛ صفحات ١-٦٠.

٣٦- ولابد من التفرقة بين التواطؤ المباشر وبين "النشاط المتوازى". وحتى وقت متأخر هو صيف ١٩٤٣، فإن مقتطفات من الإشارات الألمانية لم تظهر أية "بينات على تواطؤ التشيتنيك مع الألمان"؛ وأول علامات على مثل هذا التواطؤ ظهرت فى

أكتوبر ونوفمبر (هينسلى Hinsley *et al., British Intelligence* ، المجلد الثالث، الجزء الأول، صفحات ١٤٦ و١٥٤-١٥٥). وذكر تقرير ديكن الرئيسى فى أغسطس ١٩٤٣، الذى أثر على سياسة الحلفاء، أن تواطؤ التشيتنيك مع ألمانيا كان "لصيقا ومستمرا ومتزايدا" خلال السنتين السابقتين (المرجع السابق، ص ١٥٠). على أنه من المشكوك فيه أن التشيتنيك البوسنيين المزعومين الذين رآهم ديكن فى أغسطس ١٩٤٣ كانت لهم أية علاقة بقوات ميهايلوفيتش (روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*، ص ١٢٠).

٣٧- ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslımani* ، ص ١٤.

٣٨- باليتش Balıc, *Das unbekannte Bosnıen*، ص ٣٤٥؛ وعن المجتمعات الثقافية انظر ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanskı Muslınani* ، ص ١٤.

٣٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩٠.

٤٠- رجيتش Redzic, *Muslımansko autonomastvo* ، ص ١٤.

٤١- المرجع السابق، ص ١٥.

٤٢- هوبكن Hopkern, 'Die Kommunisten und dıe Muslime' ، ص ١٩٠.؛ ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslımanı* ، صفحات ٢١-٢٢؛ رجيتش Redzic, *Muslımansko autonomastvo*، صفحات ١٦ و٣٠.

٤٣- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni ı polıtcki razvıtak* ، صفحات ١١٢-١١٤؛ رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomastvo* ، ص ٥٢.

٤٤- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩١؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٣٤٢.

٤٥- رجيتش Redzic, *Muslimansko autnomastvo* ، ص ٥٩.

٤٦- ديدبير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana* ، ص xxvi-xxviii و ٣٨٣.

٤٧- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo* ، ص ٥٥.

٤٨- المرجع السابق، صفحات ٦٠-٦١؛ أفاكيوموفيتش Avakumovic, *Mihailovıc prema nemackim dokumentıma*، ص ٧١-٧٢. والتقدير الرقمى مبنى على ادعاء ميهايلوفيتش أن ٧٤ ٪ من رجاله كانوا أرثوذكس و ٨٤ ٪ كانوا "صربا" (ص ٧١-٧٢). ومن المحتمل أنه أدخل فى الحساب "صربا كاثوليك"؛ بيد أنه كان من المحتمل وجود بعض الأرثوذكس غير الصربيين أيضا.

٤٩- أفاكيوموفيتش Avakumovic, *Mıhaılovic prema nemackim dokumentıma*، ص ٧١. ويلاحظ رجيتش أن القرية المسلمة "المحررة" بواسطة بوبوفاك كان يدافع عنها قوة كبيرة من المسلمين المتطوعين (*Muslımansko autnomatsvı* ، صفحات ١٠٥-١٠٦).

٥٠- رجيتش Redzic, *Muslımansko autonomatsvı* ، ص ٦٨.

٥١- المرجع السابق، صفحات ١٣١ و١٦٠.

٥٢- المرجع السابق، صفحات ٧١-٧٤.

٥٣- صندهاوسن Sundhaussen, 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien'، صفحات ١٩١-١٩٣.

٥٤- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، صفحات ٨٧ و ١١٩-١٢٠ و١٥٥. وكان هناك تسعة ضباط مسلمين فى الفرقة بأكملها (ص ١٨٩).

٥٥- المرجع السابق، ص ٨٩؛ صندهاوسن Sundhaussen, 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien'، ص ١٩٣.

٥٦- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، ص ١٣٦؛ إرنياك Erignac, *La Revolte des Croates*.

٥٧- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، صفحات ١٤٠ و١٤٧ و١٧٧-١٧٨.

٥٨- المرجع السابق، صفحات ١٣٨-١٣٩؛ بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١١٤.

٥٩- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، صفحات ١٦٦-١٦٧ و ١٨٣.

٦٠- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-٢٠٦؛ صندهاوسن Sundhaussen, 'Zur Gechichte der Waffen-SS in Kroatien'، ص ١٩٣.

٦١- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ٧.

٦٢- ديدير وميليتيتش Dedijer and Mileticc, *Genocid nad Muslimana*، صفحات xxx-xxxi؛ ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani*، صفحات ١٩-٢٠.

الفصل الرابع عشر: البوسنة فى يوغوسلافيا تيتو ١٩٤٥-١٩٨٩

١- كارابانجيتش Karapandzich, *Bloodiest Yugoslav Spring*، ص ٢٠.

٢- مقتبسة فى بيلوف Beloff, *Tito's Flawed Legacy*، ص ١٣١.

٣- ديوردييفيتش Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon'، ص ٣٢٩.

٤- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Experiment*، ص ٣٨. وعن مشروع "سكك حديد الشباب"، انظر طومسون Thompson, *Paper House*، صفحات ١١٨-١٢٠.

٥- وعن شرح موجز واضح الأسلوب عن ستالينية تيتو، انظر بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، صفحات ٥٠-٦١.

٦- لابينا Lapenna, 'Suverenitet i federalizam'، صفحات ١٧-١٨.

٧- وهذه العملية مشروحة تماماً فى كوشتونيكا و تشافوشكى Kostunica and Cavoski, *Party Pluralism or Monism*.

٨- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Experiment*، صفحات ٣٥-٣٦.

٩- تشادويك Chadwick, *Christian Church in the Cold War*، ص ٣٧.

١٠- بولتون Poulton, *Balkans*، ص ٤٣.

١١- وعن جميع هذه التغييرات، انظر باليتش Balic, 'Der bosnisch- herzegowinische Islam'، صفحات ١٢٠ و ١٢٨-١٣٤، و ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٣٤٧-٣٥٣.

١٢- ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia* ، ص ٧٩.

١٣- وقد بدأت الحركة بمؤتمر باندونج في أندونيسيا في ١٩٥٥؛ ووضع تيتو نفسه على رأس الحركة في الأمم المتحدة في ١٩٦٠، وأعلن أن مبادئها هي سياسة يوغوسلافية في ١٩٦١. والطبيعة الحقيقية للحركة كانت واضحة لأغلب المراقبين حتى قبل أن يصبح فيدل كاسترو رئيسها في ١٩٧٩. انظر بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، صفحات ٦١-٦٥؛ ميليفوييفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، صفحات ٢٠-٢١؛ إيانوفيتش Ivanovic, 'Reforma vanjske politike'.

١٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤١-٤٤٢؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٣٥٣-٣٥٤.

١٥- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam' ، ص ١٢٥.

١٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩٤.

١٧- المرجع السابق، ص ١٩٥؛ وقد استخدمت التقسيم التفصيلي لأرقام ١٩٤٨ الموجود في بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ٣٢-٣٣؛ ويذكر هوبكن رقماً إجمالياً للمسلمين "الصرب" و"الكروات" (١٧٠٠٠٠)، وهو رقم غير صحيح؛ ومن الممكن أن يكون خطأ مطبعياً للعدد الإجمالي لمثل هؤلاء المسلمين فكل أرجاء يوغوسلافيا (١٩٠٠٠٠).

١٨- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٩-٢٠١. ويعتبر س. راميت سقوط رانكوفيتش على أنه حاسم: S Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٧٨-١٧٩. وعن هيمنة الصرب في البوسنة في الفترة ١٩٤٥-١٩٦٥، انظر بيروش Perochc, *Histoire de la Croatie* ، ص ٣٦٧.

١٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٦-١٩٧؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٤٣.

٢٠- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam'، ص ١٢٤.

٢١- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٨-٢٠٠؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٤٤.

٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ٢٠٠.

٢٣- عن الخلاف الطويل مع مقدونيا حول هذه المسألة، انظر س. راميت S Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٨٢-١٨٤.

٢٤- هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta* صفحات ٦٧-٦٨.

٢٥- عن هذه النقطة، انظر ا. بوبوفيتش A Popovic, 'Islamische Bewegungen'، ص ٢٨١، وإروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤٥-٤٤٦.

٢٦- وقد بدأ عزت بيجوفيتش إعداده فى ١٩٦٦-١٩٦٧، وانتهى من كتابته فى النصف الأول من ١٩٧٠ (ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, ed , *Sarajevski proces*، ص ٢٣٩).

٢٧- ب. رامت P. Ramet, 'Die Muslime Bosniens'، ص ١١١؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، ص ٣٥١؛ معلومات من مايو توبولوفاك Majo Topolovac.

٢٨- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Expriment*، ص ١٠٠.

٢٩- المرجع السابق، صفحات ٩٩-١١٠ و ١١٩؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٣٨-١٤٤.

٣٠- وكل هذه الإحصائيات (المستقاة بصفة رئيسية من إحصاء ١٩٧١) توجد فى بريزنيك Breznik, ed., *Population of Yugoslavia*. وكانت فويفودينا أكثر منطقة تدفق إليها السكان: فقد كانت السياسة ليس فقط الإحلال محل ٣٠٠٠٠٠ من عرقية ألمانية الذين قتلوا أو طردوا، بل ضمان أغلبية صربية مطلقة.

٣١- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ١٤٤.

٣٢- المرجع السابق، صفحات ٩٨-١١٥.

٣٣- المرجع السابق، ص ١٢٤.

٣٤- المرجع السابق، صفحات ١٠٥ و ١٢٥.

٣٥- انظر ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٣٧ و ٤٧. والادعاء بأن "أكثر من مئة ألف" صربى غادروا كوسوفو فى المدة ١٩٦٨-١٩٧٨ (بيلوف Beloff, *Titos Flawed Legacy* ص ٢١٢) لهو ادعاء باطل. فقد سجلت الإحصاءات ٢٢٧٠١٦ صربياً فى كوسوفو فى ١٩٦١ و ٢٢٨٢٦١ فى ١٩٧١ و ٢٠٩٤٩٧ فى ١٩٨١ (إسلامى Islami, *Fshati i Kosoves*، ص ١٧٦).

٣٦- توماشيفيتش Tomashevich, 'The Serbian Question'، ص ٣٩.

٣٧- سيرك Sirc, 'The National Question'، ص ٨٨.

٣٨- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص ٥٠.

٣٩- جرمك Grmek *et al.*, eds., *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٢٣٦-٢٦٩؛ واقتباسات من صفحات ٢٥٦ و ٢٦٥.

٤٠- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، ص ٣٥٥؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤٨-٤٥١.

٤١- ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Sarajevski proces*، وخاصة صفحات ٢٤٠-٢٤١ و ٢٤٩؛ بولتون Poulton, *Balkans*، صفحات ٤٢-٤٣.

٤٢- وأحسن شرح لهذه المسألة، وهو الذى استخدمته هنا، هو ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*، صفحات ١٦٨-١٧١ (اقتباس فى ص ١٧١)؛ وانظر أيضاً ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia*، صفحات ١٧١-١٧٢، وماجاش Magas, Destruction of Yugoslavia، ص ١١١-١١٢.

٤٣- ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*، صفحات ٨٥-٨٦.

٤٤- المرجع السابق، صفحات ٩١-٩٢ و ٢٢٠-٢٢٢؛ ميليفويفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، صفحات ١١-١٢.

٤٥- ليدال Lydall, *Yugoslavia* in *Crisis*، ص ٢١٧.

٤٦- ميليفويفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، ص ١٠؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ٢٢٦-٢٣٤؛ طومسون Thompson, *Paper House*، صفحات ١٦٣-١٦٥؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ١٩٧-٢١٣ و ٢٢٧-٢٣٤.

الفصل الخامس عشر: البوسنة ومنية يوغوسلافيا ١٩٨٨-١٩٩٢

١ - وقد ذكرت وسائل الإعلام الرسمية، على نحو مناف للعقل، أن ثلاثة ملايين شخص كانوا حاضرين. وقد حضرت الاجتماع الحاشد، وقدرت عدد الحاضرين بأنهم ما بين ثلاثمئة ألف و خمسمئة ألف.

٢- جليني Glenny, *Fall of Yugoslavia* ، ص ٣٥.

٣- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص ٢٤١. وحسبما أوضحت برانكا ماجاش، فإن عائلة راتشان في الحقيقة أعدمها الأوستاشا خلال الحرب.

٤- س. رامت S Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٤٤.

٥- المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤٢؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٢٤-٢٢٦؛ جاو Gow, *Legitimacy and the Military* ، صفحات ٧٨-٩٤.

٦- عن جميع هذه الأحداث، انظر بولتون Poulton, *Balkans*، صفحات ٢٤-٢٧؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٩٣ و ٣١٣؛ جليني Glenny, *Fall of Yugoslavia*، صفحات ١٣-١٩.

٧- إروين Irwin, 'Fate of Islam in the Balkans'، ص ٣٩٢.

٨- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ٢٣٣ و ٢٤٣.

٩- طومسون Thompson, *Paper House*، ص ٩٩.

١٠- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، ص ٣٧.

١١- المرجع السابق، ص ٢٢.

١٢- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.

١٣- المرجع السابق، صفحات ٢١-٢٤ و ٣٠.

١٤- وعن تحليل واضح لأحد العلماء البارزين، انظر إسبوزيتو Esposito, *Islam and Politics*، وبخاصة صفحات ٢٦٩-٣٠١.

١٥- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، صفحات ٣٤-٤٢.

١٦- المرجع السابق، ص ٧.

١٧- المرجع السابق، ص ٣١.

١٨- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, Islam izmedju Istoka i Zapada، صفحات ١٠٧-١٠٩ و١٣٢ و٢٥١-٢٦٤.

١٩- حسين 'Hussein, 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam، ص ٣٤.

٢٠- بولتون Poulton, *Balkans*، ص ٤٣.

٢١- سورابى Sorabji, *Bosnia's Muslims*، صفحات ٥-٦.

٢٢- بولتون Poulton, *Balkans*، ص ٤٤.

٢٣- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.

٢٤- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٧٦ و ٢٨٣-٢٩٣ (اقتباس من ص ٢٩٣). وتعطى برانكا ماجاش شرحاً شديد الوضوح لهذه الأحداث.

٢٥- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٥٩.

٢٦- مازور Mazower, *War in Bosnia*، ص ٤.

٢٧- فراى 'Frei, 'Bully of the Balkans، ص ١٢.

٢٨- ألموند Almond, *Blundering in the Balkans*، صفحات ٤ و ٢١, وقد أعلن أحد مندوبى المجموعة الاقتصادية الأوربية، بعد إعلان الاستقلال، أن المجموعة الاقتصادية الأوربية سوف " ترفض الاتصالات على المستوى العالى" مع الجمهوريتين. وحسبما يوضحه مارك ألموند، فإن المجموعة الاقتصادية الأوربية كانت ستخسر أكثر من مجرد المبادئ : فإنها قد منحت الحكومة الفيدرالية فى بلجراد قروضاً قيمتها ٧٣٠ مليون ايكو (صفحات ٢٠-٢١).

٢٩- وأحسن ملخص وتحليل لهذه الأحداث فى جاو 'Gow, 'One Year of War، صفحات ١-٧.

٣٠- مور 'Moore, 'Question of all Questions، ص ٣٨.

٣١- مازور Mazower, *War in Bosnia*، صفحات ٥-٦.

٣٢- سيرك 'Sirc, 'National Question، صفحات ٨٨-٨٩.

٣٣- تقرير داسكو دودر Report by Dusko Doder, *European* ٧ يناير ١٩٩٣.

٣٤- جرمك Grmek *et al., Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٣٠٤-٣٠٥.

٣٥- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٦٠.

٣٦- جاو 'Gow, 'One Year of War، صفحات ٧-٨.

٣٧- المرجع السابق، ص ٨؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٦١.

٣٨- مالكوم 'Malcolm, 'Waiting for a War، صفحات ١٥-١٦.

٣٩- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص xv.

٤٠- مالكوم 'Malcolm, 'Waiting for a War، ص ١٦. وقد نقلت الاقتباس من حديث ماركوفيتش من تقارير فى *Borba* و *Politika*.

٤١- انظر مثلاً التقرير الذى أعده روجر بويز عن الاعتراضات السلوفينية والكرواتية على خطة كارينجتون فى جريدة التايمز بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٩١. وقد خلص بويز إلى أنه "توجد شروخ فى أساس الخطة".

٤٢- جاو 'Gow, 'One Year of War، ص ٨. وقد أوحى (وهذا غير حقيقى) أن وزير الداخلية البوسنى على ديليمصطفيتش كان يعمل فى ذلك الوقت مع إدارة المخابرات العسكرية الفيدرالية.

٤٣- مازور Mazower, War in Bosnia، ص ٧؛ ماجاش Magas, Destruction of Yugoslaivia، ص xviii.

٤٤- وأوضح شرح لهذه الحادثة فى روجو Rojo, Holocausto en los Balcanes، صفحات ١٤٥-١٤٦.

٤٥- Mina informativini bilten، ٤ نوفمبر ١٩٩١.

٤٦- هايدن 'Hayden, 'Partition of Bosnia، صفحات ٢-٤.

٤٧- وقد أجريت الحديث بنفسى فى سراييفو فى ١١ أكتوبر ١٩٩١.

٤٨- تقرير جودى ديمبسى فى Financial Times فى ٨ يوليو ١٩٩٢.

٤٩- جاو 'Gow, 'One Year of War، صفحات ٨-٩.

٥٠- هايدن 'Hayden, 'Partition of Bosnia، صفحات ٤-٦.

٥١- تقرير مايكل مونتجومرى Michael Montgomery فى Daily Telegraph فى ٢٩ فبراير ١٩٩٢.

٥٢- تقرير جون بالمر فى صحيفة الجارديان فى ١٠ مارس ١٩٩٢.

٥٣- هايدن 'Hayden, 'Partition of Bosnia، ص ٧.

الفصل السادس عشر: تدمير البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٣

١- تقرير مايكل مونتجومرى فى Daily Telegraph فى ٧ أبريل ١٩٩٢.

٢- تقارير بيجال تشازان فى الجارديان فى ٢٧ مارس ١٩٩٢ وتيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.

٣- تقرير مراسل الديلى تلجراف فى ٣٠ مارس ١٩٩٢.

٤- Helsinki Watch, War Crimes in Bosnia، ص١٤٩. وفريق Helsinki Watch الذى قابل هؤلاء القناصة فيما بعد، وجد قائد UNPROFOR المحلى فى فندق البوسنة: وقد قال أنه لم يكن على علم بأن المدينة قد تم تحويطها بالمتاريس، وأنه شيئ ليس من اختصاصه على أى حال.

٥- تقرير تيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.

٦- تقرير آن ماكلفوى فى التايمز فى ٢٠ أبريل ١٩٩٢.

٧- انظر التحليل فى مازور Mazower, War in Bosnia، صفحات ١٠-١١.

٨- المرجع السابق، ص ١٣.

٩- مقتبس فى جلينى Glenny, Fall of Yugoslavia، ص ١٦٦.

١٠- تقرير فيليب شيرويل فى الديلى تلجراف فى ١٦ أبريل ١٩٩٢.

١١- جاو 'Gow, 'One Year of War، ص ٨.

١٢- انظر مثلاً تقارير إيان ترينور فى الجارديان فى ١٧ أبريل ١٩٩٢، وآن ماكلفوى فى التايمز فى ٢٠ أبريل ١٩٩٢.

١٣- تقرير فيليب شيرويل فى الديلى تلجراف فى ١٦ أبريل ١٩٩٢.

١٤- مازور Mazower, *War in Bosnia*، ص ١٥.

١٥- انظر ما اقتبسته من هذا التقرير فى *The Spectator* فى ٢ مايو ١٩٩٢.

١٦- عن جميع التفاصيل السابق ذكرها عن القوات العسكرية، انظر جاو Gow, 'One Year of War'، صفحات ٨-٩؛ وعن اتفاقية ١٦ يونيو، انظر المجلد الذى ينشره دانيال بيتلهم Daniel Bethlehem ومارك ولر Marc Weller, *The 'Yugoslav' Crisis in Intenlational Law* (Cambridge, 1993 or 1994).

١٧- عن التفاصيل السابق ذكرها، انظر Helsinki Watch, *War Crimes ın Bosnia*، صفحات ٤٣-٤٥، والبيان المطبوع على الآلة الكاتبة المعنون "لماذا أنشئ المجتمع الكرواتى فى الهرسك؟"، الذى أصدره فلادو بوجارتشيتش Vlado Pogarcic مستشار الشئون الخارجية لماتى بوبان، فى يونيو أو يوليو ١٩٩٣.

١٨- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ١٥٠-١٥٣.

١٩- انظر تقريرى فى *The Spectator* فى ٢ مايو ١٩٩٢.

٢٠- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، ص ١٥٩.

٢١- US Congressional Record فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٢.

٢٢- جاو Gow, 'One Year of War'، صفحات ٢-٣.

٢٣- وبالطبع، فإنه مع تطور الحرب، كانت هناك حالات كثيرة لمسلمين وكروات يهاجمون منازل الصرب؛ ولكن بقى الاختلال فى التوازن فى الاستراتيجيات والتكتيكات كما هو.

٢٤- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات١٦٨-١٦٩؛ ISHR (القسم البريطانى)، *Human Rights and Serbia* ، (تقرير منسوخ على الآلة الكاتبة ١٩٩٢).

٢٥- Bosnian Government Information Centre، "قائمة بمعسكرات الاعتقال والسجون فى أراضى جمهورية البوسنة والهرسك" (منسوخ على الآلة الكاتبة).

٢٦- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ٥٠-٥٥؛ وهنا صفحات ٥٢-٥٣. وأصبح الآن مصطلح "التشيتنيك" يستخدم كمصطلح عام يطلق على جميع القوات الصربية غير النظامية.

٢٧- انظر تقارير تاديوس مازوفيسكى Tadeusz Mazowiecki, Medecins sans frontieres and Amnesty International التى جمعها بوشيه فى Bouchet, ed., *Le Livre noir*. وعن الشهادة التفصيلية المروعة التى قدمتها امرأة احتجزت فى معسكر للاغتصاب فى فوتشا، انظر تقرير فيكتوريا كلارك فى الأوبزيرفر فى ٢١ فبراير ١٩٩٣. ويرى بعض المعقبون أن مسألة الاغتصاب المنظم مثيرة للنزاع. وقد جمعت الحكومة البوسنية تفاصيل ١٣٠٠٠ حالة؛ وذكرت بعثة المجموعة الاقتصادية الأوربية الرقم التقديرى بأنه ٢٠٠٠٠ حالة فى يناير ١٩٩٣ (المرجع السابق، ص

٤٦٠). ومن الواضح أن الاغتصاب كان يستخدم فى أماكن كثيرة كجزء من سياسة عامة للصرب ضد السكان المدنيين، ولم يكن مجرد تصرفات فردية لجنود مخلين بالنظام.

٢٨- مقالة دوجلاس هيرد فى *Mail on Sunday* فى ٩ أغسطس ١٩٩٢.

٢٩- "تقرير توماس أوبريان لوكالة المعونة الأمريكية فى يناير ١٩٩٣ لاحظ أن ... القادة العسكريين الصربيين قد خصص لهم ٢٣ ٪ من المعونة المخصصة للمدن المحاصرة" (شارب Sharp, *Bankrupt in the Balkans*، ص ١٤).

٣٠- تم الاتفاق من ناحية المبدأ على المنطقة المحظور الطيران فوقها فى أغسطس ١٩٩٢ ، وأعلنتها الأمم المتحدة فى أكتوبر؛ وتم أخيراً فى أبريل ١٩٩٣ توفير الوسائل لوضعها موضع التنفيذ، ولكن الانتهاكات لها بصورة روتينية دأبت على الحدوث بعد ذلك.

٣١- شارب Sharp, *Bankrupt in the Balkans*، صفحات ١٦-١٧؛ هايدن Hayden, 'Partition of Bosnia'، صفحات ٩-١٠.

٣٢- المقالات ١ و ٢ (منسوختين على الآلة الكاتبة) من International Conference on the Former Yugoslavia, 'Agreement for Peace in Bosnia and Hercegovina'.

٣٣- تقرير فى *East European Reporter*، المجلد الخامس، العدد السادس (نوفمبر- ديسمبر ١٩٩٢)، ص ٦٤.

٣٤- تقرير روبرت فوكس فى الديلى تلجراف فى ٢ مايو ١٩٩٣.

٣٥- مور Moore, 'Endgame in Bosnia?'، ص ٢٠.

٣٦- تقرير مايكل بنيون فى التايمز فى ٢٠ مايو ١٩٩٣.

٣٧- تقرير تيم جوداه فى التايمز فى ٧ يناير ١٩٩٣.

٣٨- تقرير جويل براند فى التايمز فى ١١ مايو ١٩٩٣.

٣٩- تقرير روبن جيدى فى الديلى تلجراف فى ١٨ فبراير ١٩٩٣: "قال المستر هيرد أنه أوضح أنه لا بد من إقامة توازن بين وجهة النظر الألمانية بأن مدداً من الأسلحة يرسل للمسلمين كان الطريقة العادلة الوحيدة للسماح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وبين خطر تصعيد القتال". ولم يوضح المستر هيرد لماذا يمكن أن يوصف إقناع ألمانيا بالتمشى مع الثانى من هذين التأويلين المتناقضينبأنه ضرب ميزان بينهما.

٤٠- أرجو أن يغفر لى القارئ إيرادى هذا الاقتباس من مقال نشرته بصحيفة الديلى تلجراف (فى ٢ إبريل ١٩٩٣). وأجاب عنه وزير الخارجية بخطاب نشر فى نفس الصحيفة بتاريخ ٥ إبريل، سبك فيه مصطلح " تسوية حقل القتل"، وصفا لعواقب رفع حظر السلاح. والواقع أن عبارة "حقل القتل" قد اخترعت لوصف موقف سياسة يماثل ذلك الذى كان آنفا بين أيدينا، وذلك بفضل السياسة التى كان يساندها المستر هيرد، بمناطق كثيرة من البوسنة.

٤١- تقرير تيم جوداه فى التايمز فى ٣ مايو ١٩٩٣.

٤٢- وقد أكد هذه النقطة لى كمال كورسباهيتش رئيس تحرير جريدة *Oslobodjenje* أثناء محادثة معه.

٤٣- تقرير مايكل مونتجومرى فى الديلى تلجراف فى ٨ مايو ١٩٩٣.

٤٤- Foreign Office News Department, communique.

٤٥- Bosnian Government Information Centre, statement.

٤٦- تقرير فى نيو يوركر فى ١٥ مايو ١٩٩٣.

٤٧- ريتشارد بايبس Richard Pipes ، مقتبس فى ليفن Lieven, *Nicholas II* ، ص ٢٤٦.

ثبت المراجع

يقتصر هذا الثبت على سرد الأعمال الواردة فى متن هذا الكتاب أو هوامشه (بغض النظر عن تقارير الأخبار والبيانات أو البلاغات التى أعطيت عنها مراجع كاملة فى الهوامش). والترتيب الأبجدى إنجليزى وليس صربوكرواتيا.

Abteilung für Kriegsgeschichte des k. k. Kriegs-Archivs, *Die Occupation Bosniens und der Hercegovina durch k. k. Truppen im Jahre 1878* (Vienna, 1879)

Der Aufstand in der Hercegovina, Süd-Bosnien und Süd-Dalmatien 1881–1882 (Vienna, 1883)

Akademia e shkencave e R.P.S. të Shqiperisë: Instituti i gjuhësisë dhe i letërsisë, *Fjalor i gjuhës së sotme Shqipe* (Tirana, 1980)

Alföldy, G., *Bevölkerung und Gesellschaft der römischen Provinz Dalmatien* (Budapest, 1965)

Algar, H., 'Some Notes on the Naqshbandi Tariqat in Bosnia', *Studies in Comparative Religion*, vol. 9 (1975), pp. 69–96

Almond, M., *Blundering in the Balkans: the European Community and the Yugoslav Crisis* (Oxford, 1991)

Amantos, K., *Scheseis Ellênôn kai Tourkôn apo tou endekatou aiônos mechri tou 1821* (Athens, 1955)

Anderson, D., *Miss Irby and Her Friends* (London, 1966)

Andjelić, P., 'Periodi u kulturnoj historiji Bosne i Hercegovine u srednjem vijeku', *Glasnik zemaljskog muzeja Bosne i Hercegovine u Sarajevu*, n.s., vol. 25 (1970), pp. 119–212

'Barones Regni i državno vijeće srednjovjekovne Bosne', *Prilozi za istoriju*, vols. 11–12 (1975–6), pp. 29–48

Andrić, I., *The Development of Spiritual Life in Bosnia under the Influence of Turkish Rule* (Durham, North Carolina, 1990)

Angelov, D., *Bogomilstvoto v B'lgariya* (Sofia, 1969)

von Asbóth, J., *Bosnien und die Hercegowina: Reisebilder und Studien* (Vienna, 1888)

Avakumović, I., *Mihailović prema nemačkim dokumentima* (London, 1969)

Baernreither, J. M., *Bosnische Eindrücke* (Vienna, 1908)

Balagija, A., *Les Musulmans yougoslaves (étude sociologique)* (Algiers, 1940)

Balić, S., 'Der bosnisch-herzegowinische Islam', *Der Islam*, vol. 44 (1968), pp. 115–37

Das unbekannte Bosnien: Europas Brücke zur islamischen Welt (Cologne, 1992)

Banac, I., *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics* (Ithaca, New York, 1984)

Barić, H., *Lingvističke studije*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 1 (Sarajevo, 1954)

Barkan, Ö. L., 'Les déportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'Empire ottoman', *Revue de la faculté des sciences économiques de l'Université d'Istanbul*, vol. 11 (1949–50), pp. 67–131

Bartusis, M. C., *The Late Byzantine Army: Arms and Society, 1204–1453* (Philadelphia, 1992)

Batinić, M. V., *Djelovanje franjevaca u Bosni i Hercegovini sa prvih šest viekova njihova boravka*, 3 vols. (Zagreb, 1881–7)

Beldiceanu, N., 'Sur les valaques des balkans slaves à l'époque ottomane (1450–1550)', *Revue des études islamiques*, vol. 34 (1966), pp. 83–132

'Les Valaques de Bosnie à la fin du XVe siècle et leurs institutions', *Turcica*, vol. 7 (1975), pp. 122–34

and I. Beldiceanu-Steinherr, 'Quatre actes de Mehmed II concernant les valaques des balkans slaves', *Südostforschungen*, vol. 24 (1965), pp. 103–18

Beloff, N., *Tito's Flawed Legacy: Yugoslavia and the West, 1939 to 1984* (London, 1985)

Benac, A., Čović, B., *et al*, *Kulturna istorija Bosne i Hercegovine od najstarijih vremena do početka turske vladavine* (Sarajevo, 1966)

Birge, J. K., *The Bektashi Order of Dervishes* (London, 1937)

Blau, O., *Reisen in Bosnien und der Herzegowina: topographische und pflanzengeographische Aufzeichnungen* (Berlin, 1877)

Bogićević, V., 'Emigracije muslimana Bosne i Hercegovine u Tursku u doba Austro-Ugarske vladavine 1878–1918 godine', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 175–88

Bordeaux, A., *La Bosnie populaire: paysages, moeurs et coutumes, légendes, chants populaires, mines* (Paris, 1904)

Borst, A., *Die Katharer* (Stuttgart, 1953)

Bouchet, P., ed., *Le Livre noir de l'ex-Yougoslavie: purification ethnique et crimes de guerre* (Paris, 1993)

Boué, A , *La Turquie d'Europe*, 4 vols. (Paris, 1840)

Bowen, H , 'Ayan', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R.

Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960–), vol. 1, p. 778
Braude, B., 'Foundation Myths of the *Millet* System', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 69–88
Braudel, F., *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, tr. S. Reynolds, 2 vols. (London, 1972)
Breznik, D., ed., *The Population of Yugoslavia*, publication of the Demographic Research Centre, Institute of Social Sciences (Belgrade, 1974)
Burián, S., *Austria in Dissolution*, tr. B. Lunn (London, 1925)
Byrnes, R., ed., *Communal Families in the Balkans: The Zadruga: Essays by Philip Mosely and Essays in his Honor* (Notre Dame, 1976)
Çabej, E., 'The Problem of the Place of Formation of the Albanian Language', in A. Buda, E. Çabej, *et al*, *The Albanians and their Territories* (Tirana, 1985), pp. 63–99
Carnegie Endowment for International Peace, *Report of the International Commission to Inquire into the Causes and Conduct of the Balkan Wars* (Washington, DC, 1914)
Čelebi, Evlija, *see* Evlija
Chadwick, O., *The Christian Church in the Cold War* (London, 1992)
Chaumette-des-Fossés, A., *Voyage en Bosnie dans les années 1807 et 1808* (Berlin, 1812)
Chopin, J., and A. Urbicini, *Provinces danubiennes et roumaines* (Paris, 1856)
Cinnamus, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio Comnenis gestarum*, ed. A. Meinecke (Bonn, 1836)
Ćirković, S. M., 'Die bosnische Kirche', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 547–75
Herceg Stefan Vukčić-Kosača i njegovo doba, Srpska akademija nauka i umetnosti, posebna izdanja, vol. 376 (Belgrade, 1964)
Istorija srednjovekovne bosanske države (Belgrade, 1964)
Clissold, S., ed., *A Short History of Yugoslavia from Early Times to 1966* (Cambridge, 1968)
Constantine Porphyrogenitus, *De administrando imperio*, ed. G. Moravscik, tr. R. J. H. Jenkins (Washington, DC, 1967)
Coquelle, P., *Histoire du Monténégro et de la Bosnie depuis les origines* (Paris, 1895)
Ćorović, V., *Historija Bosne*, Srpska kraljevska akademija, posebna izdanja, vol. 129 (Belgrade, 1940)
Croix, Sieur de la, *Mémoires* (Paris, 1684)

Čubrilović, V., 'Poreklo muslimanskog plemstva u Bosni i Hercegovini', *Jugoslovenski istoriski časopis*, vol. 1 (1935), pp. 368–403

Bosanski ustanak 1875–1878, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 83 (Belgrade, 1936)

Čuprić-Amrein, M. M., *Die Opposition gegen die österreichisch-ungarische Herrschaft in Bosnien-Hercegovina (1878–1914)* (Bern, 1987)

Curtis, W. E., *The Turk and his Lost Provinces* (Chicago, 1903)

Dawkins, R. M., 'The Crypto-Christians of Turkey', *Byzantion*, vol. 8 (1933), pp. 247–75

Deakin, F. W. D., *The Embattled Mountain* (London, 1971)

Dedijer, V., *The Road to Sarajevo* (London, 1966)

Dedijer, V., and A. Miletić, *Genocid nad Muslimana, 1941–1945: zbornik dokumenata i svjedočenja* (Sarajevo, 1990)

Dedijer, V., Božić, I., Ćirković, S., and M. Ekmečić, *History of Yugoslavia* (New York, 1974)

Deroc, M., *British Special Operations Explored: Yugoslavia in Turmoil, 1941–1943, and the British Response* (Boulder, Colorado, 1988)

Desboeufs, Capitaine, *Souvenirs*, ed. C. Desboeufs (Paris, 1901)

Dinić, M. J., *Za istoriju rudarstva u srednjevekovnoj Srbiji i Bosni*, Srpska akademija nauka, posrebna izdanja, vol. 240 (Belgrade, 1955)

Djilas, M., *Wartime*, tr. M. B. Petrovich (London, 1977)

Djordjević, D., 'The Yugoslav Phenomenon', in J. Held, ed., *The Columbia History of Eastern Europe in the Twentieth Century* (New York, 1992), pp. 306–44

Djurdjev, B., 'Bosna', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R. Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960–), vol. 1, p. 1261–75

Donia, R. J., *Islam under the Double Eagle: The Muslims of Bosnia and Hercegovina 1878–1914* (Boulder, Colorado, 1981)

Draganović, K, 'Izvješće apostolskog vizitatora Petra Masarechija o prilikama katoličkog naroda u Bugarskoj, Srbiji, Srijemu, Slavoniji i Bosni g. 1623 i 1624', *Starine jugoslavenske adademije znanosti i umjetnosti*, vol. 39 (1938), pp. 1–48.

Dragnich, A. N., *The First Yugoslavia: The Search for a Viable Political System* (Stanford, California, 1983)

Dragojlović, D., *Krstjani i jeretička crkva bosanska*, Srpska akademija nauka i umetnosti: balkanološki institut, posebna izdanja, vol. 30 (Belgrade, 1987)

Dragomir, S., *Vlahii şi Morlacii: studiu din istoria românismului balcanic* (Cluj, 1924)

Vlahii din nordul peninsulei balcanice în evul mediu (Bucharest, 1959)

Državа komisija za utvrdjivanje zločina okupatora i njihovih pomagača, *Dokumenti o izdajstvu Draže Mihailovića*, vol. 1 (Belgrade, 1945)

Du Nay, A., [pseudonym] *The Early History of the Rumanian Language*, Edward Sapir monograph series in Language, Culture and Cognition, vol. 3 (supplement to *Forum Linguisticum*, vol. 2, no. 1, August 1977) (Lake Bluff, Illinois, 1977)

Durham, M. E., *Twenty Years of Balkan Tangle* (London, 1920)

Some Tribal Origins, Laws, and Customs of the Balkans (London, 1928)

Duvernoy, J., *Le Catharisme*, 2 vols. (Toulouse, 1976–9)

Dvornik, F., *Byzantine Missions among the Slavs* (New Brunswick, New Jersey, 1970)

Džaja, S., *Die 'bosnische Kirche' und das Islamisierungsproblem Bosniens und der Herzegowina in den Forschungen nach dem zweiten Weltkrieg* (Munich, 1978)

'Fineova interpretacija bosanske srednjovjekovne konfesionalne poviesti', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 52–9

Konfessionalität und Nationalität Bosniens und der Hercegowina: voremanzipatorische Phase 1463–1804, Südosteuropäische Arbeiten, vol. 80 (Munich, 1984)

Emmert, T. A., 'The Battle of Kosovo: Early Reports of Victory and Defeat', in W. S. Vucinich and T. A. Emmert, eds., *Kosovo: Legacy of a Medieval Battle* (Minneapolis, Minnesota, 1991), pp. 19–40

Érignac, L., *La Révolte des Croates de Villefranche-de-Rouergue* (Villefranche-de-Rouergue, 1980)

Esposito, J. L., *Islam and Politics*, 3rd edn. (New York, 1984)

Evans, A. J., *Through Bosnia and the Herzegovina on Foot during the Insurrection, August and September 1875*, 2nd edn. (London, 1877)

Illyrian Letters: A Revised Selection of Correspondence from the Illyrian Provinces of Bosnia, Herzegovina, Montenegro, Albania, Dalmatia, Croatia, and Slavonia, addressed to the 'Manchester Guardian' during the Year 1877 (London, 1878)

Evlija Čelebi, *Putopis odlomci o jugoslovenskim zemljama*, ed. and tr. H. Šabanović (Sarajevo, 1973)

Fermendžin, E., ed., *Acta Bosnae potissimum ecclesiastica cum insertis editorum documentorum regestis ab anno 925 usque ad annum 1752*, Monumenta spectantia historiam slavorum meridionalium, vol. 23 (Zagreb, 1892)

Filipescu, T., *Coloniile române din Bosnia: studiu etnografic şi antropogeografic* (Bucharest, 1906)

Filipović, M., 'Struktura i organizacija srednjovekovnog katuna', in Filipović, M., ed., *Simpozijum o srednjovjekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 45–108

Filipović, N., 'Napomene o islamizaciju u Bosni i Hercegovini u 15. vijeku', *Godišnjak akademije nauka i umjetnosti Bosne i Hercegovine* vol. 7 (= Centar za balkanološka ispitivanja, vol. 5) (1970), pp. 141–67

Fine, J. V. A., 'Aristodios and Rastudije – A Re-examination of the Question', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 16 (1965), pp. 223–9

'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary in the Second Half of the Thirteenth Century?', *East European Quarterly*, vol. 3 (1969), pp. 167–77

The Bosnian Church: A New Interpretation. A Study of the Bosnian Church and its Place in State and Society from the Thirteenth to the Fifteenth Centuries (Boulder, Colorado, 1975)

The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century (Ann Arbor, Michigan, 1983)

The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest (Ann Arbor, Michigan, 1987)

Fortis, A., *Travels into Dalmatia* (London, 1778)

Fraser., A., *The Gypsies* (London, 1992)

Frei, M., 'The Bully of the Balkans', *The Spectator*, 17 August 1991, pp. 11–13

Freidenreich, H. P., *The Jews of Yugoslavia: A Quest for Community* (Philadelphia, 1979)

Gavranović, B., *Bosna i Hercegovina od 1853–1870 godine* (Sarajevo, 1956)

Gazić, L., 'Les Collections des manuscrits orientaux à Sarajevo', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 153–7

Gibbons, J., *London to Sarajevo* (London, 1930)

Gilliat-Smith, B., 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 139–44

Gimbutas, M., *The Slavs* (London, 1971)

Glenny, M., *The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War* (London, 1992)

Glück, L., 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 5 (1897), pp. 403–33

Glušac, V., 'Srednjovekovna "bosanska crkva"', *Prilozi za književnost, jezik, istoriju i folklor*, vol. 4 (1924), pp. 1–55

Goldstein, S., ed., *Jews in Yugoslavia* (Zagreb, 1989)

Gow, J., *Legitimacy and the Military: The Yugoslav Crisis* (London, 1992)
'One Year of War in Bosnia and Herzegovina', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 23 (4 June 1993), pp. 1–13
Grmek, M., Gjidara, M., and N. Simac, eds., *Le Nettoyage ethnique: documents historiques sur une idéologie serbe* (Paris, 1993)
Guldescu, S., 'Political History to 1526', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 76–130
Gušić, B., 'Wer sind die Morlachen im adriatischen Raum?', *Balcanica*, vol. 4 (1973), pp. 453–64
Gyóni, M., 'La Transhumance des Vlaques balkaniques au moyen age', *Byzantinoslavica*, vol. 12 (1951), pp. 29–42
Haarmann, H., *Der lateinische Lehnwortschatz im Albanischen*, Hamburger philologische Studien, vol. 19 (Hamburg, 1972)
Hadžibegić, H., 'Džizja ili harač', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, part 1: vols. 3–4 (1952–3), pp. 55–135; part 2: vol. 5 (1954–5), pp. 43–102
Hadžijahić, M., 'Uz prilog profesora Vojislava Bogićevića', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 189–92
'Udio Hamzevija u atentatu na Mehmed-pašu Sokolovića', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 325–30
'Die priviligierten Städte zur Zeit des osmanischen Feudalismus', *Südostforschungen*, vol. 20 (1961), pp. 130–58
'Die Anfänge der nationalen Entwicklung in Bosnien und in der Herzegowina', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 168–92
'Die Kämpfe der Ajane in Mostar bis zum Jahre 1833', *Südostforschungen*, vol. 28 (1969), pp. 123–81
Od tradicije do identiteta: geneza nacionalnog pitanja bosanskih muslimana (Sarajevo, 1974)
'Sinkretistički elementi u Islamu u Bosni i Hercegovini', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28–9 (1978–9), pp. 301–28
Porijeklo bosanskih Muslimana (Sarajevo, 1990)
Handžić, A., 'Bosanski namjesnik Hekim-oglu Ali-paša', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 135–80
Tuzla i njena okolina u 16. vijeku (Sarajevo, 1975)
'O gradskom stanovništvu u Bosni u XVI stoljeću', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28–9 (1978–9), pp. 247–56
'U ulozi derviša u formiranju gradskih naselja u Bosni u XV stoljeću',

Prilozi za orijentalnu filologiju, vol. 31 (1981), pp. 169–78
Hangi, A., *Die Moslim's in Bosnien-Herzegowina: ihre Lebensweise, Sitten und Gebräuche* (Sarajevo, 1907)
Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, ed. M. M. Hasluck, 2 vols. (Oxford, 1929)
Hasluck, M. M., 'Firman of A.H. 1013–14 (A.D. 1604–5) Regarding Gypsies in the Western Balkans', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 1–12
Hauptmann, F., *Borba muslimana Bosne i Hercegovine za vjersku vakufsko-mearifsku autonomiju* (Sarajevo, 1967)
Hawkesworth, C., *Ivo Andrić: Bridge between East and West* (London, 1984)
Hayden, R. M , 'The Partition of Bosnia and Herzegovina, 1990–1993', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 22 (28 May 1993), pp. 1–14
Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia-Hercegovina* (New York, 1992)
Hinsley, F. W., *et al.*, *British Intelligence in the Second World War*, 5 vols. (London, 1979–90)
Hopken, W., 'Die jugoslawischen Kommunisten und die bosnischen Muslime', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslawien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 181–210
Hoptner, J. B., *Yugoslavia in Crisis, 1934–1941* (New York, 1962)
Hornby, L. G., *Balkan Sketches: An Artist's Wanderings in the Kingdom of the Serbs* (Boston, 1927)
Hory, L. and M. Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat* (Stuttgart, 1964)
Hottinger, J. H., *Historia orientalis* (Zurich, 1660)
Höttl, W., *The Secret Front* (London, 1953)
Hrabak, B., 'Izvoz plemenih metala iz Bosne u Dubrovnik u vreme osmanlijske vlasti', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vols. 28–30 (1977–9), pp. 75–85
Hukić, A., ed., *Islam i muslimani u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)
Huković, M., *Alhamadio knijževnost i njeni stvaraoci* (Sarajevo, 1986)
Huld, M. E., *Basic Albanian Etymologies* (Columbus, Ohio, 1983)
Hussein, A., 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam', *Issues in the Islamic Movement*, vol. 4 (1983–4), pp. 34–5
Illyés, E., *Ethnic Continuity in the Carpatho-Danubian Area* (Boulder, Colorado, 1988)
Imamović, M., 'O historiji bošnjačkog pokušaja', in A. Purivatra, M. Imamović and R. Mahmutćehajić, *Muslimani i Bošnjaštvo* (Sarajevo, 1991), pp. 31–70

Irwin, Z. T., 'The Islamic Revival and the Muslims of Bosnia-Hercegovina', *East European Quarterly*, vol. 17 (1984), pp. 437–58

'The Fate of Islam in the Balkans: A Comparison of Four State Policies', in P. Ramet, ed., *Religion and Nationalism in Soviet and East European Politics*, revised edn. (Durham, North Carolina, 1989), pp. 378–407

Islami, H., *Fshati i Kosovës: kontribut për studimin sociologjiko-demografik të evolucionit rural* (Priština, 1985)

Ivanović, V., 'Reforma vanjske politike', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 40–50

Izetbegović, A., *Islam izmedju Istoka i Zapada* (Sarajevo, 1988)

Islamska deklaracija (Sarajevo, 1990)

Jelavich, B., *History of the Balkans*, 2 vols. (Cambridge, 1983)

and C. Jelavich, *The Establishment of the Balkan National States, 1804–1920*, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. Treadgold, vol. 8 (Seattle, Washington, 1977)

Jireček, K., *Die Handelsstrassen und Bergwerke von Serbien und Bosnien während des Mittelalters: historisch-geographische Studien* (Prague, 1879)

'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens während des Mittelalters', *Denkschriften der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften: philosophisch-historische Classe*; part 1: vol. 48, no. 3 (1902); parts 2 and 3: vol. 49, nos. 1 and 2 (1904)

Istorija Srba, 4 vols. (Belgrade, 1922–3)

Jukić, I. F. ('Slavoljub Bošnjak'), *Zemljopis i poviestnica Bosne* (Zagreb, 1851)

Kapidžić, H., 'Austro-ugarska politika u Bosni i Hercegovini i jugoslovensko pitanje za vrijeme prvog svjetskog rata', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 7–53

Hercegovački ustanak 1882 godine (Sarajevo, 1958)

'Pokret za iseliavanje srpskog seljaštva iz Hercegovine u Srbiju 1902 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 23–54

Karapandzich, *The Bloodiest Yugoslav Spring, 1945 – Tito's Katyns and Gulags* (New York, 1980)

Karchmar, L., *Draža Mihailović and the Rise of the Četnik Movement, 1941–1942*, 2 vols. (New York, 1987)

Kaulfuss, R. S., *Die Slawen in den ältesten Zeiten bis Samo (623)* (Berlin, 1842)

Klaić, V., *Geschichte Bosniens von den ältesten Zeiten bis zum Verfalle des Königreiches*, tr. I. von Bojničić (Leipzig, 1885)

Klen, D., 'Pokrštavanje "Turske" djece u Rijeci u XVI i XVII stoljeću', *Historijski zbornik – Šidakov zbornik*, vols 29–30 (1976–7), pp. 203–7

Kniewald, D., 'Vjerodostojnost latinskih izvora o bosanskim krstjanima', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 270 (1949), pp. 115–276

'Hierarchie und Kultus bosnischer Christen', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 579–605

Kočović, B., *Žrtve drugog svetskog rata u Jugoslaviji* (London, 1985)

Koetschet, J., *Aus Bosniens letzter Türkenzeit*, ed. G. Grassl (Vienna, 1905)

Osman Pascha, der letzte grosse Wesier Bosniens, und seine Nachfolger, ed. G. Grassl (Sarajevo, 1909)

Koštunica, V., and K. Čavoški, *Party Pluralism or Monism: Social Movements and the Political System in Yugoslavia, 1944–1949* (Boulder, Colorado, 1985)

Kovačević, J., *Istorija Crne Gore* (Titograd, 1967)

Kreševljaković, H., *Kapetanije u Bosni i Hercegovini*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 5 (Sarajevo, 1954)

Esnafi i obrti u Bosni i Hercegovini, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 17 (Sarajevo, 1961)

Kriss, R., and H. Kriss-Heinrich, *Volksglaube im Bereich des Islam*, 2 vols. (Wiesbaden, 1960–2)

Krizman, B., *Hrvatska u prvom svjetskom ratu i hrvatsko-srpski politički odnosi* (Zagreb, 1989)

Kulišić, Š., 'Razmatranja o porijeklu Muslimana u Bosni i Hercegovini', *Glasnik zemaljskog muzeja u Sarajevu*, n.s., vol. 8 (1953), pp. 145–58

Kunt, I. M., 'Transformation of *Zimmi* into *Askerî*', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 55–67

The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650 (New York, 1983)

Kuripešić, B., *Itinerarium der Botschaftsreise des Josef von Lamberg und Niclas Jurischitz durch Bosnien, Serbien, Bulgarien nach Konstantinopel 1530*, ed. E. Lamberg-Schwarzenberg (Innsbruck, 1910)

Lachmann, R., ed. and tr., *Memoiren eines Janitscharen oder Türkische Chronik*, Slavische Geschichtsschreiber, vol. 8 (Graz, 1975)

Lambert, M. D., *Medieval Heresy: Popular Movements from Bogomil to Hus* (1st edn., London, 1977; 2nd edn., London, 1992)

Lapenna, I., 'Suverenitet i federalizam u ustavu Jugoslavije', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 9–30

Lasić, D., *De vita et operibus S. Iacobi de Marchia: studium et recensio quorundam textuum* (Ancona, 1974)

Laštrić, F. ['Philippus ab Occhievia'], *Epitome vetustatum bosnensis provinciae* (Venice, 1765)

Le Bouvier, G., *Le Livre de la description des pays* (Paris, 1908)

Lees, M., *The Rape of Serbia: The British Role in Tito's Grab for Power 1943–1944* (San Diego, California, 1990)

Lehfeldt, W., *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum der bosnisch-hercegovinischen Muslime: Transkriptionsprobleme*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 9 (Munich, 1969)

Levntal, Z., ed., *Zločini fašističkih okupatora i njihovih pomogača protiv jevreja u Jugoslaviji* (Belgrade, 1952)

Levy, M., *Die Sephardim in Bosnien: ein Beitrag zur Geschichte der Juden auf der Balkan-Halbinsel* (Sarajevo, 1911)

Lewis, B., *The Emergence of Modern Turkey*, 2nd edn. (Oxford, 1968)

Lieu, S. N. C., *Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China: A Historical Survey* (Manchester, 1985)

Lieven, D., *Nicholas II: Emperor of All the Russias* (London, 1993)

Lilek, E., 'Vjerske starine iz Bosne i Hercegovine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 6 (1894), pp. 141–66, 259–81, 365–88, 631–74

Lockwood, W. G., *European Muslims: Economy and Ethnicity in Western Bosnia* (New York, 1975)

Loos, M., *Dualist Heresy in the Middle Ages* (Prague, 1974)

'Les Derniers Cathares de l'occident et leurs relations avec l'église patarine de Bosnie', *Historijski zbornik – Šidakov zbornik*, vols. 29–30 (1976–7), pp. 113–26

Lord, A. B., 'The Battle of Kosovo in Albanian and Serbocroatian Oral Epic Songs', in A. Pipa and S. Repishti, eds., *Studies on Kosova* (Boulder, Colorado, 1984), pp. 65–83

Lovrich, G., *Osservazioni sopra diversi pezzi del viaggio in Dalmazia del signor Alberto Fortis* (Venice, 1776)

Lydall, H., *Yugoslavia in Crisis* (Oxford, 1989)

Maček, V., *In the Struggle for Freedom*, tr. E. and S. Gazi (London, 1957)

McFarlane, B., *Yugoslavia: Politics, Economics and Society* (London, 1988)

McGowan, B., 'Food Supply and Taxation on the Middle Danube (1568–1579)', *Archivum Ottomanicum*, vol. 1 (1969), pp. 138–96

Economic Life in Ottoman Europe: Taxation, Trade and the Struggle for Land, 1600–1800 (Cambridge, 1981)

MacKenzie, D., *The Serbs and Russian Pan-Slavism 1875–1878* (Ithaca, New York, 1967)

Magaš, B., *The Destruction of Yugoslavia: Tracking the Break-up, 1980–1992* (London, 1993)

Maier, H., *Die deutschen Siedlungen in Bosnien* (Stuttgart, 1924)
Malcolm, N. R., 'Waiting for a War', *The Spectator*, 19 October 1991, pp. 14–15
Malingoudis, F., *Slavoi stê mesaiônikê Ellada* (Salonica, 1991)
Mandić, D., *Postanak Vlaha prema novim poviesnim iztraživanjima* (Buenos Aires, 1956)
'The Ethnic and Religious History of Bosnia and Hercegovina', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 2, pp. 362–93
Etnička povijest Bosne i Hercegovine (Rome, 1967)
Franjevačka Bosna: razvoj i uprava bosanske vikarije i provincije 1340–1735 (Rome, 1968)
Mandić, M., *Povijest okupacije Bosne i Hercegovine (1878)* (Zagreb, 1910)
Marienescu, A. M., 'Ilirii, macedo-românii şi albanesii: dissertaţiune istorică', *Analele Academiei române*, series 2, vol. 26 (1903–4), pp. 117–69
Markotić, V., 'Archaeology', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 20–75
Martin, D., *The Web of Disinformation: Churchill's Yugoslav Blunder* (San Diego, California, 1990)
Masleša, V., *Mlada Bosna* (Belgrade, 1945)
Matasović, J., 'Tri humanista o patarenima', *Godišnjak Skopskog filozofskog fakulteta*, vol. 1 (1930), pp. 235–51
Maurer, F., *Eine Reise durch Bosnien, die Savelander und Ungarn* (Berlin, 1870)
Mazower, M., *The War in Bosnia: An Analysis* (London, 1992)
Mažuranić, V., *Südslaven im Dienste des Islams (vom X. bis XVI. Jahrhundert): ein Forschungsbericht*, ed. and tr. C. Lucerna (Zagreb, 1928)
Migne, J.-P., ed., *Patrologiae cursus completus*, series latina prima, 221 vols. (Paris, 1844–64)
Milazzo, M. J., *The Chetnik Movement and the Yugoslav Resistance* (Baltimore, 1975)
Miletić, M., *I 'Krstjani' di Bosnia alla luce dei loro monumenti di pietra*, Orientalia christiana analecta, vol. 149 (Rome, 1957)
Milivojević, M., *Descent into Chaos: Yugoslavia's Worsening Crisis* (London, 1989)
Miller, W., *Travels and Politics in the Near East* (London, 1898)
Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921)
Mirmiroglou, V., *Oi Dervissai* (Athens, 1940)
Moore, P., 'The "Question of all Questions": Internal Borders', *Radio Free*

Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe, vol. 2, no. 38 (20 September 1991), pp. 34–9

'Endgame in Bosnia and Herzegovina?', *Radio Free Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe*, vol. 2, no. 32 (13 August 1993), pp. 17–23

Mraz, G., *Prinz Eugen: sein Leben, sein Wirken, seine Zeit* (Vienna, 1985)

Muir Mackenzie, G., and A. P. Irby, *Travels in the Slavonic Provinces of Europe*, 3rd edn., 2 vols. (London, 1877)

Mujić, M., 'Položaj cigana u jugoslovenskim zemjlama pod osmanskom vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vols. 3–4 (1952–3), pp. 137–91

'Prilog proučavanju uživanja alkoholni pića u Bosni i Hercegovini pod osmanskom vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 286–98

Mutafchieva, V., 'K'm v'prosa za chifliitsite v osmanskata imperiya prez XIV–XVII v.', *Istoricheski pregled*, vol. 14 (1958), pp. 34–57

Nagata, Y., *Materials on the Bosnian Notables*, Studia culturae islamicae, no. 11 (Tokyo, 1979)

Nandriş, J. G., 'The Aromâni: Approaches to the Evidence', in R. Rohr, ed., *Die Aromunen: Sprache–Geschichte–Geographie* (Hamburg, 1987), pp. 15–71

Năsturel, P. Ş , 'Les Valaques balcaniques aux Xe–XIIe siècles (mouvements de population et colonisation dans la Romanie grecque et latine)', *Byzantinische Forschungen*, vol. 7 (1979), pp. 89–112

ed., *Bibliografie macedo-română* (Freiburg, 1984)

Naumov, E., 'Balkanskiye vlakhi i formirovanye drevneserbskoi narodnosti', in Ivanov, V. V., Korolyuk, V. D., and E. P. Naumov, eds , *Etnicheskaya istoriya vostochnikh romantsev: drevnost'i sredniye vyeka* (Moscow, 1979), pp. 18–61

Naval Intelligence Division, British Admiralty, *Jugoslavia*, Geographical Handbook series, B.R. 393, 3 vols. (London, 1944)

Neubacher, H., *Sonderauftrag Südost 1940–1945*, 2nd edn. (Göttingen, 1957)

Niger, D. M., *Geographiae commentariorum libri XI (Basel, 1557)*

Novaković, S., *Selo* (Belgrade, 1965)

Obolensky, D., *The Bogomils: A Study in Balkan Neo-Manichaeism* (Cambridge, 1948)

The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500–1453 (London, 1974)

d'Ohsson, M , *Tableau général de l'Empire othoman*, 7 vols., Paris, 1788–1824

Okiç, T., 'Les Kristians (Bogomiles Parfaits) de Bosnie d'après des documents turcs inédits', *Sudostforschungen*, vol. 19 (1960), pp. 108–33

Orbini, M., *Il Regno de gli slavi hoggi corrottamente detti Schiavoni* (Pesaro, 1601)

Papoulia, B. D., *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese' im osmanischen Reich*, Südosteuropäische Arbeiten, vol. 59 (Munich, 1963)

Pašalić, E., and R. Mišević, eds., *Sarajevo* (Sarajevo, 1954)

Paskaleva, V., 'Osmanlı balkan eyâletlerinin avrupalı devletlerle ticaretleri tarihine katki (1700–1850)', *Istanbul üniversitesi iktisat fakültesi mecmuası*, vol. 27 (1967–8), pp. 37–74

Pavlovich, P., *The Serbians: The Story of a People* (Toronto, 1983)

Pavlowitch, S. K., 'Society in Serbia, 1791–1830', in R. Clogg, ed., *Balkan Society in the Age of Greek Independence* (London, 1981), pp. 137–56
Tito, Yugoslavia's Great Dictator: A Reassessment (London, 1992)

Peledija, E., *Bosanski ejalet od karlovačkog do požarevačkog mira 1699–1718* (Sarajevo, 1989)

Pelletier, R., *Sarajevo et sa région: chez les Yougoslaves de la Save à l'Adriatique* (Paris, 1934)

Peroche, G., *Histoire de la Croatie et des nations slaves du sud, 395–1992* (Paris, 1992)

Pertusier, C., *La Bosnie considérée dans ses rapports avec l'Empire Ottoman* (Paris, 1822)

Petranović, B., *Bogomili, crkva bosanska i krstjani* (Zadar, 1867)

Petrović, L., *Kršćani bosanske crkve* (Sarajevo, 1953)

Pisarev, Y. A., and M. Ekmečić, *Osvoboditelnaya borba narodov Bosnii i Gertsegovini i Rossiya*, 2 vols. (Moscow, 1985–8)

Popović, A., *L'Islam balkanique: les musulmans du sud-est européen dans la période post-ottomane*, Osteuropa-Institut an der freien Universität Berlin: balkanologische Veröffentlichungen, vol. 11 (Berlin, 1986)
'Islamische Bewegungen in Jugoslawien', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslavien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 273–86

Popović, I., 'Valacho-serbica: der rumanische Spracheinfluss auf das Serbokroatische und dessen Geographie', *Sudostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 370–93

Porphyrogenitus: *see* Constantine Porphyrogenitus

Porter, Sir James, *Observations on the Religion, Law, Government, and Manners, of the Turks* (London, 1768)

Poulton, H., *The Balkans: Minorities and States in Conflict* (London, 1991)

Puech, H. C., 'Catharisme médiévale et Bogomilisme', in *Oriente ed occidente nel medio evo* (Rome, 1957), pp. 84–104

Purivatra, A., *Nacionalni i politički razvitak muslimana* (Sarajevo, 1972)
Quiclet, Monsieur, *Les Voyages de M. Quiclet à Constantinople par Terre* (Paris, 1664)
Rački, F., *Bogomili i patareni*, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 87 (Belgrade, 1931)
Radojčić, N., *Srpska istorija Mavra Orbinija*, Srpska akademija nauka, posebna izdanje, vol. 152 (Belgrade, 1950)
Radojčić, S., 'Reljefi bosanskih i hercegovačkih stećaka', *Letopis Matice Srpske*, year 137, vol. 287 (1961), pp. 1–15
Radojičić, D., '"Bulgaralbanitoblahos" et "Serbalbanitobulgaroblahos" – deux caractéristiques ethniques du sud-est européen des XIVe et XVe siècles. Nicodim de Tismana et Grégoire Camblak', *Romanoslavica*, vol. 13 (1966), pp. 77–9
Ramet, P., 'Die Muslime Bosniens als Nation', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslavien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 107–14
Ramet, S. P., *Nationalism and Federalism in Yugoslavia, 1962–1991*, 2nd edn. (Bloomington, Indiana, 1992)
Redžić, E., *Muslimansko autonomaštvo i 13. SS divizija: autonomija Bosne i Hercegovine i Hitlerov treći rajh* (Sarajevo, 1987)
Rivet, C., *Chez les slaves libérés: en Yougoslavie* (Paris, 1919)
Roberts, W. R., *Tito, Mihailović and the Allies, 1941–1945*, 2nd edn. (Durham, North Carolina, 1987)
Rojo, A., *Yugoslavia, Holocausto en los Balcanes: la agonia de un estado y por qué se matan entre si sus habitantes* (Barcelona, 1992)
Rośkiewicz, J., *Studien über Bosnien und die Herzegowina* (Leipzig, 1868)
Rostovtseff, M., *Iranians and Greeks in Southern Russia* (Oxford, 1922)
Roth, C., ed., *The Sarajevo Haggadah* (London, 1963)
Rothenberg, *The Austrian Military Border in Croatia, 1522–1747*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. 48 (Urbana, Illinois, 1960)
The Military Border in Croatia 1740–1881 (Chicago, 1966)
Runciman, S., *The Medieval Manichee: A Study of the Christian Dualist Heresy* (Cambridge, 1947)
Rusinow, D., *The Yugoslav Experiment, 1948–1974* (Berkeley, California, 1978)
Russu, I. I., *Illirii: istoria, limba şi onomastica, romanizarea* (Bucharest, 1969)
Rycaut, P., *The Present State of the Ottoman Empire* (London, 1668)
Šabanović, H., 'Pitanje turske vlasti u Bosni do pohoda Mehmeda II 1463 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 7 (1955), pp. 37–51

'Bosansko krajište 1448–1463', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 177–219

Bosanski pašaluk: postanak i upravna podjela, Naučno društvo n r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 14 (Sarajevo, 1959)

'Vojno uredjenje Bosne od 1463. g. do kraja XVI stoljeća', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 173–223

Šamić, M., *Les Voyageurs français en Bosnie à la fin du XVIIIe siècle et au début du XIXe et le pays tel qu'ils l'ont vu* (Paris, 1960)

Schmid, F., *Bosnien und die Herzegovina unter der Verwaltung Österreich-Ungarns* (Leipzig, 1914)

Schmitt, B., *The Annexation of Bosnia 1908–1909* (Cambridge, 1937)

Scholem, G., *Major Trends in Jewish Mysticism* (London, 1955)

Sabbatai Ṣevi: The Mystical Messiah, 1626–1676 (London, 1973)

von Schwandner, J. G., ed., *Scriptores rerum hungaricarum, dalmaticarum, croaticarum, et sclavonicarum veteres ac genuini*, 3 vols. (Vienna, 1746–8)

Seton Watson, R. W., *The Role of Bosnia in International Politics (1875–1914)* (London, 1933)

Sharp, J. M. O., *Bankrupt in the Balkans: British Policy in Bosnia* (London, 1993)

Shaw, S. J., 'The Ottoman View of the Balkans', in C. Jelavich and B. Jelavich, eds., *The Balkans in Transition: Essays on the Development of Balkan Life and Politics since the Eighteenth Century* (Berkeley, California, 1963)

History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols. (Cambridge, 1976–7)

The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic (London, 1991)

Sicard, E., *La Zadruga sud-slave dans l'évolution du groupe domestique* (Paris, 1943)

Šidak, J., 'Problem "bosanske crkve" u našoj historiografiji od Petranovića do Glušca', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 259 (1937), pp. 147–67

Studije o 'crkvi bosanskoj' i bogomilstvu (Zagreb, 1975)

Sikirić, S., 'Derviskolostorok és szent sírok Boszniában', *Túrán*, nos 9–10 (November–December 1918), pp. 574–607

Sirc, L., 'The National Question in Yugoslavia', *The South Slav Journal*, vol. 9, nos. 1–2 (1986), pp. 80–93

Šišić, F., ed. and tr., *Letopis popa Dukljanina* (Belgrade, 1928)

Bosna i Hercegovina za vezirovanja Omer-paše Latasa (1850–1852) (Subotica, 1938)

Skarić, V., *Srpski pravoslavni narod i crkva u Sarajevu u 17. i 18. vijeku* (Sarajevo, 1928)

'Popis bosanskih spahija iz 1123 (1711) godine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 42 (1930), pp. 1-99

Sarajevo i njegova okolina od najstarijih vremena do austro-ugarske okupacije (Sarajevo, 1937)

Skarić, V., Nuri-Hadžić, O., and N. Stojanović, *Bosna i Hercegovina pod austro-ugarskom upravnom* (Belgrade, *c.* 1918)

Slijepčević, D., *Pitanje Bosne i Hercegovine u XIX veku* (Cologne, 1981)

Šljivo, G., *Omer-Paša Latas u Bosni i Hercegovini 1850–1852* (Sarajevo, 1977)

Smailović, I., *Muslimanska imena orijentalnog porijekla u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)

Solovjev, A., 'La Messe cathare', *Cahiers d'études cathares*, vol. 3, no. 12 (1951–2), pp. 199–206

'Le Témoignage de Paul Rycaut sur les restes des Bogomiles en Bosnie', *Byzantion*, vol. 23 (1953), pp. 73–86

'Svedočanstva pravoslavnih izvora o bogomilstvu na Balkani', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 5 (1953), pp. 1–103

'Le Symbolisme des monuments funéraires bogomiles', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 18 (1954), pp. 92–114

'Le Tatouage symbolique en Bosnie', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 19 (1954), pp. 157–62

'Simbolika srednjovekovnih spomenika u Bosni i Hercegovini', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 8 (1956), pp. 5–65

'Bogumilentum und Bogumilengräber in den südslawischen Ländern', in W. Gülich, ed., *Völker und Kulturen Südosteuropas* (Munich, 1959), pp. 182–6

Sorabji, C., *Bosnia's Muslims: Challenging Past and Present Misconceptions* (London, 1992)

Soulis, G. C., 'The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages', *Dumbarton Oaks Papers*, no. 15 (1961), pp. 142–65

Stadtmüller, G., *Geschichte Südosteuropas* (Munich, 1950)

Forschungen zur albanischen Frühgeschichte, 2nd edn. (Wiesbaden, 1966)

Stanojević, G., 'Jedan pomen o kristjanima u Dalmaciji iz 1692 godine', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 273–4

Start, L. E., and M. E. Durham, *The Durham Collection of Garments and Embroideries from Albania and Yugoslavia* (Halifax, 1939)

'Statuto della comunità musulmana della ex Jugoslavia (24 ottobre 1936)', *Oriente moderno*, vol. 22 (1936), pp. 44–54

Sterneck, H., *Geografische Verhältnisse, Communicationen und das Reisen in Bosnien, der Herzegovina und Nord-Montenegro* (Vienna, 1877)

Stipčević, A., *The Illyrians*, tr. S. Čulić Burton (Park Ridge, New Jersey, 1977)

Stojadinović, M., *Ni rat ni pakt: Jugoslavija izmedju dva rata* (Buenos Aires, 1963)

Stone, N., *Europe Transformed: 1878–1919* (London, 1983)

Sućeska, A., 'Bedeutung und Entwicklung des Begriffes A'yân im Osmanischen Reich', *Südostforschungen*, vol. 25 (1966), pp. 3–26

'Osmanlı imparatorluğunda Bosna', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 431–47

Sugar, P. F., *The Industrialization of Bosnia-Hercegovina 1878–1918* (Seattle, Washington, 1963)

Southeastern Europe under Ottoman Rule, 1354–1804, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. W. Treadgold, vol. 5 (Seattle, Washington, 1977)

Sundhaussen, H., 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien 1941–1945', *Sudostforschungen*, vol. 30 (1971), pp. 176–96

Takács, M., 'Sächsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien und die "sächsische Kirche" von Novo Brdo', *Südostforschungen*, vol. 50 (1991), pp. 31–60

Tandarić, J., 'Glagoljska pismenost u srednjevjekovnoj Bosni', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 47–51

Thallóczy, L., *Studien zur Geschichte Bosniens und Serbiens im Mittelalter*, tr. F. Eckhart (Munich, 1914)

Thoemmel, G., *Geschichtliche, politische und topographisch-statistische Beschreibung des Vilayet Bosnien das ist das eigentliche Bosnien, nebst türkisch Croatien, der Hercegovina und Rascien* (Vienna, 1867)

Thompson, M., *A Paper House: The Ending of Yugoslavia* (London, 1992)

Thomson, H. E., *The Outgoing Turk: Impressions of a Journey through the Western Balkans* (London, 1897)

Thouzellier, C., *Hérésie et hérétiques: Vaudois, Cathares, Patarins, Albigeois*, Storia e letteratura: raccolta di studi e testi, vol. 116 (Rome, 1969)

Tomasevich, J., *Peasants, Politics, and Economic Change in Yugoslavia* (Stanford, California, 1955)

The Chetniks: War and Revolution in Yugoslavia, 1941–1945 (Stanford, California, 1975)

Tomashevich, G. V., 'The Serbian Question in Current Yugoslav Press

and Literature', *The South Slav Journal*, vol. 8, nos. 3–4 (1985), pp. 32–41

de Torquemada, J., *Symbolum pro informatione manichaeorum (El Bogomilismo en Bosnia)*, ed. N. López Martínez and V. Proaño Gil, Publicaciones del seminario metropolitana de Burgos, series B, vol. 3 (Burgos, 1958)

Trifunovski, J., 'Geografske karakteristike srednjovekovnih katuna', in Filipovic, M., ed., *Simpozijum o srednjovjekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 19–38

Trimingham, J. S., *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971)

Truhelka, Ć., 'Bosančica', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 1 (1889), pp. 65–83

'Die Tatowirung bei der Katholiken Bosniens und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 4 (1896), pp. 493–508

'Das mittelalterliche Staats- und Gerichtswesen in Bosnien', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 10 (1907), pp. 71–155

Turčinović, J., ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979)

Uhlik, R., 'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 8', tr. F. G. Ackerley, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 25 (1946), pp. 92–104

'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 9', tr. D. E. Yates, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 26 (1947), pp. 116–27

Vacalopoulos, C., 'Tendances caractéristiques du commerce de la Bosnie et le rôle économique des commerçants grecs au début du XIXe siècle', *Balkan Studies*, vol. 20 (1979), pp. 91–110

Valentini, G., 'L'elemento *vlah* nella zona scutarina nel secolo XV', in P. Bartl and H. Glassl, eds., *Südosteuropa unter dem Halbmond: Untersuchungen über Geschichte und Kultur der Südosteuropäischen Völker während der Türkenzeit*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 16 (Munich, 1975), pp. 269–74

Vasić, M., 'Etnička kretanja u bosanskoj krajini u XVI vijeku', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 233–49

Verlinden, C., 'Patarins ou Bogomiles réduits en esclavage', in *Studi in onore di Alberto Pincherle*, Studi e materiali di storia delle religioni, vol. 38 (Rome, 1967), pp. 683–700

Vukanović, T. P., 'Le Firman du sultan Sélim II relatif aux tsiganes, ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)', *Études tsiganes*, vol. 15, no. 3 (1969), pp. 8–10

Wace, A., and M. A Thompson, *The Nomads of the Balkans: An Account of Life and Customs among the Vlachs of Northern Pindus* (London, 1914)

Wakefield, W. L., and A. P. Evans, eds., *Heresies of the High Middle Ages* (New York, 1969)

Weigand, G., *Die Aromunen: ethnographisch-philologisch-historische Untersuchungen über das Volk der sogenannten Makedo-Romänen oder Zinzaren*, 2 vols., Leipzig, 1894–5

'Rumänen und Aromunen in Bosnien', *Jahresbericht des Instituts für rumänische Sprache (rumänisches Seminar) zu Leipzig*, vol. 14 (1908), pp 171–97

Wenzel, G., ed., *Marino Sanuto világkrónikájának Magyarországot illető tudósításai*, Magyar történelmi tár, vols. 14 (1869), 24 (1877), 25 (1878)

Wenzel, M., 'A Medieval Mystery Cult in Bosnia and Herzegovina', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, vol. 24 (1961), pp. 89–107

'Bosnian Tombstones – who made them and why', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 102–43

Ukrasni motivi na stećcima (Sarajevo, 1965)

Wheler, G., *A Journey into Greece* (London, 1682)

Wilkes, J., *Dalmatia (History of the Roman Provinces)* (London, 1969)

The Illyrians (Oxford, 1992)

Wilson, D., *The Life and Times of Vuk Stefanović Karadžić, 1787–1864: Literacy, Literature, and National Independence in Serbia* (Oxford, 1970)

Winnifrith, T. J., *The Vlachs: The History of a Balkan People* (London, 1987)

Yelavitch, L., 'Les Musulmans de Bosnie-Herzégovine', *Revue du monde musulman*, vol. 39 (1920), pp. 119–33

Zbornik dokumenata i podataka o narodnooslobodilačkom ratu jugoslavenskih naroda, 14 vols. (Belgrade, 1950–60)

Zimmermann, *Reformation und Gegenreformation bei den Kroaten im österreichisch-ungarischen Grenzraum* (Eisenstadt, 1950)

Zlatar, B., 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama u Bosni', *Prilozi Instituta za istoriju*, vols. 14–15 (1978), pp. 81–139

'Une ville typiquement levantine: Sarajevo au XVIe siècle', in V. Han and M. Adamović, eds., *La Culture urbaine des Balkans (XVe–XIXe siècles): la ville dans les Balkans depuis la fin du moyen age jusqu'au début du XXe siècle. Recueil d'études* (Belgrade, 1991), pp. 95–9

Zlatar, Z., *Our Kingdom Come: The Counter-Reformation, the Republic of Dubrovnik, and the Liberation of the Balkan Slavs* (Boulder, Colorado, 1992)

Zulfikarpašić, A., *Bosanski Muslimani: čimbenik mira izmedju Srba i Hrvata* (Zurich, 1986)

Sarajevski proces: sudjenje muslimanskim intelektualcima 1983 godine (Zurich, 1987)

اقرأ فى هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند راسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند ويليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغامضة	ليسترديل راى
الرواية الانجليزية	والتر ألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وادبنيت
فن الترجمة	د٠ صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفله
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج ٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج ٠ كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبرنو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز
خفايا نظام النجم الامريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ ٠ ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب ٠ ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين ٠ سولومون
رحلة الأمير رودلف ٣ج ٠	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	بالكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشي
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف ليدهام
الحب	د٠ ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة	ت٠ج٠هـ٠ جيمز
اطلالات على الزمن الآتى	د٠ السيد نصر الدين
الرواية اليوم	مالكولم براد برى
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة

السينما العربية	اعداد / موني براح وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	توني بار
العثمانيون في اوربا	بول كولز
صناع الخلود	موريس بيير برابر
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)	الفريد ج · بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار/ د· رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر في الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالي لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الاداب الآسيوية	اختيار / صبري الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٥ ج)	أحمد محمد الشنواني
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو توده
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د· ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ · ج · ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف · بيرتون

الحضارة الاسلامية	آدمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف ٠ ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب في الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثيو
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الاوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	دبفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا · هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	فيرنون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـــورى
ترانيم زرادشـــت	اختيار / د. فيليب عطيـــة
نظـريات الفيلم الكبرى	ج. دادلى انـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشات واين توجد	د. جوهان دورشنر
حــرب الفضــاء	طائفــة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. الســـيد عليـــوة
الميـــكروكمبيـــوتر	د. مصــطفى عنـــانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضــل
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج	فرانكلين ل. باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـــابريل بايـــر
اعلام الفلسفة السياسية المعــاصرة	انطـونى دى كرســبنى
كتـــابة الســيناريو للســـينما	دوايت ســـوين
الزمن وقياســـه	زافيلســكى ف. س
اجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س. م بـــورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمــد رزق
العـــلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د. سمبســون
الشارع المصرى والفـــكر	د. انور عبــد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روســتو
تبسيط الكيميـــاء	فـــريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـــون يوركهـــارت
التـــذوق الســـينمائى	آلان كاســـبيار
التخطيط السياحى	ســامى عبــد المعطى
البـــذور الكونيـــة	فـــريد هـــويل
	شـــاندرا ويكـــراما ماســـينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حســين حلمى المهندس

المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوشنبدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت · ج · هـ · جميس
البرنامج النووى الاسرائيلى	د · ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نومان كلارك



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٣٥ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5179 - 3



تهدف الهيئة المصرية العامة للكتاب من مشروع الألف كتاب الثانى أن تواصل مسيرة المشروع الأول لتكوين مكتبة متكاملة للقارئ العربى فى شتى جوانب المعرفة عن طريق الترجمة والتأليف فضلاً عن إعادة طبع أهم الأعمال الفكرية والعلمية والأدبية التى أسهمت فى تكوين الثقافة المصرية والعربية فى العصر الحديث والتى بات الإطلاع عليها اليوم متعذرًا لشباب هذا الجيل لقدم طبعاتها.

وفى هذا الإطار يسعى المشروع إلى إلقاء الضوء على أهم قضايا العصر الحديث. ومن أهم الكتب التى صدرت فى هذا الميدان:

- ما بعد الحداثة
- مشكلات القرن ٢١
- تحول السلطة
- إنهم يصنعون البشر
- إنهم يقتلون البيئة
- بحثا عن عالم افضل
- إطلالات على الزمن الآتى

(انظر قائمة الإصدارات فى آخر الكتاب)

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ هو أول كتاب شامل باللغة العربية يعالج بصورة موضوعية محايدة أزمة البوسنة والهرسك فى منظورها التاريخى وإطارها الحديث وتداعياتها فى عالم ما بعد الحرب الباردة الذى سيشهد فيما يقدر المراقبون سلسلة من الأزمات العرقية الخطيرة فى شتى أرجاء العالم لا سيما عالمنا الثالث، وهو يوضح كيف للانتهازية السياسية أن تزيف أحداث التاريخ وأن تخلط الحق بالباطل، وأن تخلق أساطير وأوهام لتفرق بين أبناء الوطن الواحد وتفجر أنهار الدماء من أجل مصالح شخصية دنيئة.

٧٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب